المجموعة غير الكاملة لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج



إهـــــــداء2005

الكاتب / غالب حمزة أبو الفرج

المملكة العربية السعودية

الأعمال غير الكاملة لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج

المجلد الأول

قناديل
للتأليف والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

تصميم الغلاف: مصطفى جحا

هاتف ٤٨٢٥٨٧ ٠٠٩٦١٣
تلفاكس ٢٧٦١٩٥ ٠٠٩٦١١
Email: Dar-kanadil@hotmail.com

إهداء

إلى التي أحاطتني بالحبّ ومنحتني الكثير من الحنان، وزرعت في قلبي الأمل ورعتني صغيراً، حتى إذا ما كبرت كانت خير من ينير لي الطريق في دروب هذه الدنيا الواسعة.

إليها في القرب وفي البعد، تلك الإنسانة العظيمة التي عرّفتني بالحقّ ودعتني إلى أن أكون من أصحابه، وكرّهتني بالظلم، وحصّنتني بالحكمة حتى أكون أداة خير وعطاء.

إليها تلك التي أحببتها وأحبها وأحبها..

إلى أمي العزيزة التي ساهمت في أن أكون هذا الإنسان

غالب حمزة أبو الفرج

٢٠٠٥/١/١٠

من بلادي

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

مدى الحياة

ـ ليتها تعود تلك التي رحلت فجأة ودون سابق إنذار ذهبت في رحلتها الطويلة وتركتنا نحن في هذا العالم المليء بالمفاجآت لا ندري من أمر الغد وما يخبئه لنا الغد. ما يضيرها لو أخذتنا معها ما دامت قد قررت الذهاب يا أبي؟

والتفت الشيخ إلى طفله الصغير وهو يربت على كتفيه في هدوء مشوب بالحزن قائلاً:

ـ ولكنها ستعود، ستعود حتماً، وستراها وستهمس في أذنيك، وستعرك بيديها الصغيرتين أذنك هذه إذا ما أخطأت.

ـ ولكني أريد أن تعود حالاً فما عدت أطيق البقاء معك أنت وحدك. إنني أريدها يا والدي العزيز، أريدها كما كانت بيننا، ثم لماذا ذهبت؟ هل أغضبتها كعادتك؟

كلمات بريئة ينطق بها فم الطفل الصغير فتتلقفها أذن الشيخ في حسرة: لقد ذهبت ولن تعود.

ولكن كيف يستطيع أن يقول كل هذا لهذا الذي لا يعي ولا يعرف؟ ثم ما ذنبه في أن يتألم أكثر مما يتألم؟ ألا تكفيه هذه الحيرة التي تغلف وجهه الصغير بتعابير وانفعالات شتى.؟ ليته يتفهم ما يدور في خلد صغيره.

وأطرق قليلاً وأخذت الصور تتوارد على مخيلته الواحدة تلو الأخرى في عجز حيناً وفي وضوح حيناً آخر.

وتذكر الليلة التي بنى فيها بامرأته، كانت ليلة جمعة، ليلة من

ليالي الشتاء القارس فلقد أحس وهو ينطلق إلى بيت عروسه برعدة خفيفة جعلته يضم مشلحه إلى صدره بترتيب وأناقة خيفة أن يذهب هذا بأناقة ملابسه. وتذكر كيف قابل فتاته، واللحظات التي تلت مقابلته لها وشعوره بتناول جبينها ليقبله قبلة أودعها كل ما كان يحس من رغبة في أن يكون لها ولطول العمر.

ولقد تحققت نبوءتها يوم قالت له:

ـ سأذهب يا عزيزي بعدك سأذهب وسأتركك لأرى هل ستكون على عهدك وفياً حفياً بهؤلاء الأطفال.

كم كان يضحك منها وهي تردد هذه الجملة، فهو يعرف، وإن لم يكن هناك فارق بين عمريهما، أنها أكثر نضارة وقوة منه.

ومع كل هذا ذهبت وتركت وحيده يسأله في لهفة عنها، عن أمه.. أمه الحبيبة..

وأحس بدمعة يتيمة تنحدر في سرعة على صفحة وجهه المستفيض ونظر إلى ابنه الصغير ثم أمسك به ليضمه إلى صدره ونظر الطفل إلى والده في دهشة وهو يقول:

ـ أنت تبكي يا أبتاه؟ لماذا؟

ولم يستطع أن يجيب عن سؤال طفله بل أشاح بوجهه إلى الخلف ليمسح بطرف كمّه الدمعة الحائرة، وعندها سمع صوت طفله ثانية يقول:

ـ لا يا أبي لا تفعل هذا، خذ منديلك وامسح به دمعتك بدلاً من كمك ألم تسمع ما كانت تقوله لي أمي عندما أبكي؟

وأمسك بالمنديل من يد ابنه وأخذ يمسح بهدوء دمعته الوحيدة قائلاً:

ـ لا عليك يا بني إنها ساعة ضعف.

نظر إليه ابنه وهو يقول:

ـ ولكني لا أعرف ما تعنيه. هل تبكي لأنها لن تعود؟

قال:

ـ لا يا بنيّ ستعود وستراك.. وستبقى إلى جانبك، إنها ليست سوى بضعة أيام وسترى والدتك هنا بجانبي وجانبك.

وأمن الطفل على كلام والده قائلاً:

- ليتها تفعل يا أبي، ليتها تفعل.

وأغفى الطفل بعض الوقت ومضى الأب يفكر في الغد وما سيخبئه له ولابنه الصغير، فهو وإن كان يعرف واجبه تجاه ابنه كأب إلا أنه لا يعرف كيف سيتصرف بالنسبة للأشياء الأخرى تلك التي كانت تقوم زوجته العزيزة بها.

لا يدري كيف سيستطيع أن يواصل تربية طفله بدونها، وهو الإنسان الذي تعود أن يجدها دائماً أمامه عندما يحتاجها تلبي رغباته في صبر وأناة وهدوء جميل.

وتذكر أيامه السابقة عندما كانت والدته تقوم بواجبها تجاهه وهو طفل تذكر بأن كل هذه الأشياء يجب أن يفعلها مع ابنه من الغد. ولكن هل سيكون بمقدوره القيام بهذا العمل؟

ذلك الشيء الذي كان يجهله لأنه يعرف عن نفسه بأنه إنسان مهمل لا يقدر أن يؤمّن احتياجاته هو فكيف الحال بما يحتاجه الطفل؟

وتوالت الصور في مخيلته تحكي أوضاعاً من حياته السابقة، حياته الأولى في تلك الدار الصغيرة التي كان يقطنها مع أمه بعد وفاة والده، وغيابه الطويل عن أمه في بعثته الدراسية إلى أميركا، وعودته المفاجئة، ولقائه بوالدته. كل تلك الحوادث مرت بذاكرته كشريط مسلسل الوقائع يقفز حيناً في سرعة غريبة لتأخذ الصورة تلو الأخرى طريقها في ترتيب عجيب.

ووالدته العجوز تلك التي مضت هي الأخرى بعد أن أودعت في حلقه غصة وأية غصة لولا زوجته التي رجته أمه في أن يكون لها أكثر من زوج. لولا هذه الزوجة لبقيت آلامه حتى اليوم.

ولكن ما باله يتذكر كل هذا في جلسته هذه؟

ألأنها هي الأخرى ذهبت هكذا سريعاً وتركت فلذة كبدها بجانبه يسأله عنها في لهفة؟

وأجهش في البكاء وهو الذي لا يعرف البكاء بعض الوقت، وتذكر بأن الحياة نفسها لا تهب الخلود لأحد وإنما الكل يمضي إلى الغاية التي رسمها

الخالق المبدع.

وما إن وصل إلى هذا الحد من التفكير، حتى هدأت نفسه بعض الشيء وأحس بحاجته إلى النوم فمضى إليه وكله أمل في أن يخلص به من هذا العذاب، عذاب التفكير، وألقى برأسه على الوسادة بعد أن ألقى نظرة حانية على طفله الحبيب، وما هي إلا لحظات قصيرة شعر فيها بأنه قد انتقل إلى دنيا غير هذه الدنيا.

وهناك رأى زوجته يحيط بها عدد كبير من أهله وأهلها وكأنهم يزفونها إليه مرة أخرى.

وأحس بنظراتها وهي تكاد تلتهمه، فهي تسائله في لهفة عن ابنه محمود كيف هو ولماذا لم يصحبه؟

وأحس ببعض الألم فهي الأخرى لا تفكر فيه وإنما تفكر في ابنها وابنه.

وتذكر بأن الحياة هكذا تعطي الأهمية للمستقبل، والمستقبل بالنسبة لزوجته هو ابنها وابنه فلذة كبدها وكبده. وهدأت أفكاره بعض الشيء وعندما وصل إلى هذا الحد من التفكير كان قد أفاق من نومه ليجد نفسه وحيداً على فراشه بلا ابن ولا زوجة ولا مستقبل ولا حاضر.

وبدأ يفكر في الحلم الغريب الذي راود خياله ليلة الأمس، وآمن بأن الحياة تريد منه أن يفعل في سبيلها شيئاً.

وعندها قرر بينه وبين نفسه أن يتزوج وأن ينجب ليكون له في هذه الدنيا (أمل) في أن يعيش مدى الحياة.

يوماً ما

من أنا؟

إنسان ضائع بلا هدف ولا غاية.

حتى الماضي فقدته هكذا فجأة.

فجعتني الأيام فيه فلا أدري عنه إلا القليل والذكريات التي يجترها كل إنسان.

حتى هذه الذكريات حرمتني منها الحياة، فقدتها بعد أن كانت عزائي وسلوتي.

فقدتها وفقدت بفقدها طعم الحياة، مرّها وحلوها. من أنا؟

أنا إنسان بلا هدف ولا غاية ولا حاضر ولا مستقبل بلا عزاء ولا سلوى.

فقدت الأب في وقت كنت أحوج فيه إلى الأب.

وفقدت الأم وقت كنت أظن أنني لن أعيش فيه بعدها، ومع هذا فأنا أعيش هنا على هذه الأرض.

مقامي عليها لا جدال فيه، وإن كنت لا أدري لماذا أعيش، لماذا يعيش أمثالي من الناس الذي لا خير فيهم ولا أمل؟

لماذا؟ قل لي لماذا أعيش؟

وأطرق برأسه قليلاً وبدأ يجهش بالبكاء فترات من الزمن رفع رأسه فيها ليجدني بجانبه فهمس:

ـ ألا تمضي؟

وكان الفضول قد بلغ بي ذروته، فأجبته:

ـ لا عليك، إنما أنا صديق ساقتني الحياة لأكون بجانبك في بلواك.

والتفت إلي وكل وجهه ينطق بالحقد والغضب:

ـ لا.. لا، أنت من معدن غير معدني، اذهب امضِ عني فأنا إنسان ضائع، أما أنت.

وتلونت ضحكته بطابع السخرية المرير، وردد كلماته قائلاً:

ـ أما أنت فإنسان غيري، عشت ماضيك وحاضرك وتأمل في المستقبل.

قلت في هدوء:

ـ ولكني.. ولكني أود أن أساعدك.

وضحك ضحكات هستيرية طويلة شعرت من خلالها بمدى ما يحسه هذا الإنسان الضائع من ألم، وتابع حديثه:

ـ ولكن لماذا تريد مساعدتي؟ هل طلبتها منك؟

وفوجئت من سؤاله فلم أحر جواباً، وتابع حديثه بعد أن هدأت ضحكاته، نظرت إلى عينيه لأرى صفاء الحياة يطل منها في لحظات قصيرة عادت بعدها إلى سابق عهدها لا أثر فيها لشيء، وإنما هي السكون بعينه.

ونظرت إلى العينين الذابلتين علّي أستشف من خلال نظراتهما ما يعينني على المضيّ في سؤاله وعدت أسائله:

ـ ولكن لماذا أنت ضائع؟ قل لي ما هي قصة حياتك؟

وانبرى يحدثني في هدوء العالم قائلاً:

ـ لا عليك يا صديقي لقد أردت أن تكشف ما في هذه النفس الإنسانية التي ظلت طوال عمرها تبحث عن الحياة في ظل الهدوء والحب والتضحية فأنا..

وصمت وكانت لحظات طويلة خيّل إلي أنه لم يعد يطيق أن يفتح فمه فيدلي بأية كلمة. ونظرت إلى وجهه الناحل الدقيق المعالم لأرى أكثر من معنى يرتسم على الشفة الدقيقة في وضوح وتعبير خلت أنني أستشف منها ما يعينني على أن أتعرف على القصة. وصحت بصديقي قائلاً:

ـ إذاً، فأنت ممثل أليس كذلك؟

التفت إلي في هدوء وأجاب:

ـ لا يا صديقي لست ممثلاً إنما أنا إنسان بائس بلا هدف، أنا.. أنا!!

وصمت.

ـ أنت من؟ قل لي بالله عليك! لا تتركني هكذا أتخبط في تكهن من أنت؟

ـ ولكنك لن تعرف.

ـ ولكني سأعرف منك.

ـ لا بأس!

قالها وتابع حديثه:

ـ أنا مجنون يا صديقي! مجنون قديم أمضي العمر كله في بيوت المجانين! هنا في بلدك، وخارج بلدك، وفي كل مكان ذهبت إليه للاستشفاء.

وجمعت أطراف ثيابي لأبتعد قليلاً عن موضعي على الكرسي الحجري الذي يتوسط فناء الحديقة، ونظر إلي في استغراب وقال:

ـ ولكن لا تخف فأنا مجنون عاقل!

وحيّرتني كلماته، فهل يتفق العقل مع الجنون؟ ونظر إلي مرة أخرى وكأنه يقرأ أفكاري. وقال:

ـ نعم يتفق يا صديقي، فأنا إنسان مجنون عاقل. هكذا جعلتني ظروف حياتي، رسمت لي معالم الطريق لأمشي إلى الغاية كما تراها.

ـ ولكنني لا أرى شيئاً.

ـ ألا تراني؟

ـ نعم.

ـ فأنت ترى غاية حياتي إذاً، فأنا إنسان ضائع، من أولئك الذين قدر لهم أن يتركوا المستشفى وأي مستشفى، خرجت وفي نفسي إيمان أن بقائي في مستشفى المجانين أفضل لي ولا شك، لأنني لن أقوى على المضي قدماً في حياة العقلاء أمثالك يا صديقي.

لقد خرجت إلى هذه الحياة لأستقبل نظرات الاستخفاف والسخرية والعطف أحياناً تحيط بي من كل صوب وحدب تلقي بها أعين الناس علي عندما يمرون بي وكأنني كلب أجرب فك من عقاله.

ومن يومها وأنا أؤمن بأنني إنسان ضائع، فقدت العزم على أن أعود إلى المستشفى الذي استقبلني مديره أسوأ استقبال فهو لا يقوى على إعادة عاقل إلى رحابه. فعدت إلى مجلسي هذا لأتذكر كل لحظات حياتي منذ ذلك اليوم الذي بدأت فيه الحياة وأنا أعي وأعقل إلى اليوم الذي فقدت فيه السيطرة على هذا العقل.

وخرجت من هذه الصور، بأنني إنسان ضائع لا أمل لي في الحياة ولا هدف. نعم يا صديقي هذه هي الحقيقة فأنا إنسان بلا أمل ولا غاية.

لقد افتقدت طريق العيش بعد أن سدت في وجهي كل المنافذ. لماذا؟ لأنني مجنون.

ومنذ متى؟ منذ زمن طويل وإن شئت التحديد منذ أكثر من أربعة وثلاثين عاماً مضت وأنا رهين الحياة بين الجدران. لقد فقدت حتى مجرد النظر من النافذة إلى الشارع لأنني كنت أكره هذه النظرة لأنها كنت تعيد إلي ذكريات الماضي السحيق.

ما أقسى الذكريات إذا كان في تذكرها الألم وأكثر من الألم.

لقد فقدت القدرة على التخيل وإن كنت أتذكر حوادث الماضي لأنها جزء من حياتي. أتذكر النيران وهي تتصاعد لتأتي على كل ما في الدار الكبيرة من أثاث وتحف، وكان والدي يتفنن في جمعها، حتى والدي ووالدتي ذهبا ضحية النيران. ذهبا وهما يحاولان إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك التحف التي قضيا عمريهما في جلبها من كل مكان في العالم.

أما أنا، فقد قدّر لي أن أنجو وأعيش كما تراني أمامك. أما كيف أنقذت ومن الذي أنقذني فهذا ما لا أدريه.

ونظرت إلى الهشيم الذي ذرته الرياح، نظرت إلى الدار الكبيرة التي لم

تعد كبيرة، وبكيت، بكيت طفولتي وحياتي وحياة والدي ومن يومها وأنا فاقد العقل.

حاول أخي الأكبر معالجتي على حسابه في مصر وفي سوريا وفي لبنان دون فائدة.

وعدت لأسمع بأنني وحيد، فقد ذهب أخي إلى النهاية المحتومة، وذهبت برجلي إلى المستشفى لأبقى فيها سنوات أربعاً، وهاأنذا اليوم أغادر الجدران الأربعة وكلي شوق لأن أعود ولكنهم كانوا قساة هؤلاء الأطباء الذين أشرفوا على علاجي، قساة في نظري وإن لم يكونوا كذلك وإلا فبالله عليك فكيف يقبلون أن يعيدوا إلى الجدران الأربعة إنساناً ثبتت صحة قواه العقلية؟ وعدت أسير في الطريق أتنسم الهواء الجديد دون أن تكون لي حاجة لهذا الهواء ولكنها الحياة قضت علي أن أتخبط في ظلام اليأس حتى وجدتك.

لقد لقيت الكثير من الناس في تجوالي هذا خلال الثلاثة أيام التي أمضيتها بعيداً عن الجدران الأربعة، لقيت الدهشة وهي ترتسم على الوجوه وهم يرون مجنوناً مثلي يجوب الطرقات، وسمعت الهمسات وهي تعلو لتصبح كلمات غريبة تطن في أذني طنيناً مؤلماً.

سمعتها من الأطفال وهم يشيرون إلي بسباباتهم، ويقولون هذا هو المجنون. وعرفت خلال أيامي الثلاثة التي أمضيتها بأن المجتمع كعادته قاسٍ لا يرحم، فهو يضن بالرحمة على أمثالي، يضن بها، ويسعده في أن أعود مجنوناً كما كنت.

ولكنني كما ترى إنسان عاقل بلا هدف ولا غاية.

وبالأمس القريب كنت مجنوناً يأمل في الهدف والغاية.

ولكنهما ضاعا فهل تراني ملاقيهما يوماً ما؟

وساعتها تركت صديقي وأنا أدعو من أعماق قلبي بأن يجد الهدف ويلاقي الغاية، يجد العزاء ويلاقي السلوى.

سامحني يا أبي

أبي العزيز:

لقد أسأت الفهم، فهمك أنت يا والدي العزيز. أسأت الفهم وغاب عني ما ترمي إليه أنا العزيز الذي تعود دائماً أن يلقى منك كل رعاية وحنان.

أسأت الفهم وظننت أنك لا تريدني، ولا ترى أية ضرورة في بقائي تحت جناحك، فمرقت كالسهم في حياتك إلى حياة جديدة لا تدري أنت عنها اليوم شيئاً، لأنني حاولت أن أبني حياتي على أنقاض سعادتي يوم تركتك وتركت والدتي الحبيبة.

لقد بعدت عنك ونأيت بجسمي وإن كان قلبي وروحي يهفوان لأن أراك وأرى كيف تقضي أويقات راحتك على المقعد الكبير، وبجانبك تقبع أمي المسكينة، وهي تعمل يديها في قطعة قماش صغيرة توطئة لحكايتها لحفيدتها الصغيرة منى ابنة أختي.

لقد افتقدت الراحة والهناء يوم تركتك وفارقت شفتي تلك الابتسامة المشرقة التي كنت تداعبني بها كلما لقيتني هنا وهناك.

أنا مشوق يا والدي لأن أعرف مجلسك هل لا يزال على حاله؟

وكتبك، هل هي كما عرفت أسيرة الخزائن الأنيقة؟

كنت تعتبرها ثروة طيبة يا والدي تتركها لابنك، لي أنا كما كنت تقول لأنك لا تحب أن تترك لأبنائك النقود فقط، وإنما مع النقود المعرفة.

لقد فرقت بيننا الأيام بل السنون، كنت فيها أميناً على عهدك

حتى في بعدي عنك، فلقد علمتني أن أكون نظيفاً في كل شيء.

لقد كنت ذلك الإنسان النظيف في كل أعمالي في بلاد الغربة، وكأنك أنت بلحمك ودمك على رأسي، تنظر، وتبحث، وتوجه. ولولا بقية من كبرياء مزعومة لا أقول عنها أكثر من ذلك، لولا هذه الرقاعة أو الكبرياء لعدت إليك من أول يوم تركتك فيه، ولكنها الكبرياء المزيفة زينت لي أن أنأى، وأن أبعد، وأن أعمل، وثق أنه لولا تلك الفضيلة التي غرستها في أغوار نفسي لضعفت فضيلة النظافة التي خدمتني حتى هذه الساعة.

تعال يا أبي، واجلس على كرسيك المريح وانصت لابنك، فهو إنسان تافه بدونك .

ترى ما هو الذنب الذي جنيته أنت حتى تفقدني ساعة طيش؟

ألأنك أردتني ذلك الرجل الذي يخلفك بعد عمر طويل لأنني كبير العائلة؟

أم لأنك بحثت بعينيك عن السعادة، سعادتي أنا وأختي الصغيرة؟

دعني يا والدي أتذكر الموقف، فأنا آسف. تلك هي المرة الأولى التي يعلو فيها صوتي على صوتك وقد كنت أظن بأنك على حق.

هذا الحق الذي صوّره خيالي في ذلك الحين هو الذي جعلني أخالفك ولأول مرة، والأمور سهلة، والحياة لا تريد التعقيد، ولكنني أنا نفسي الذي أردت التعقيد.

أتذكر يا أبي يوم جئتك بشهادتي الثانوية كيف لمعت عيناك من الفرحة وكيف ربت كتفي وقلت لي:

ـ كان حظك أكبر من حظ أبيك إذ استطعتُ أن أهيئ لك هذه الشهادة.

وأدرت عيني لأرى دمعة صغيرة أخذت تنحدر بسرعة عجيبة على صفحة وجهك الأنيق، وكأنها تحاول هي الأخرى أن لا أراها، ولكن....

ونظرت إليك لأراك تبتسم قائلاً:

ـ والآن ماذا ستفعل؟

ولكنني لم أجب،لأنني كنت خالي الذهن تماماً، وكنت لا أدري ماذا تريد أنت.

كنت أود أن أعرف رأيك، ولكنك لم تدل به، بل قلت:

ـ اذهب وفكر وأحسن التفكير، فالحياة تريد منا جميعاً أن نفعل وأن نعمل من أجلها كثيراً.

وتركتك لأشارك زملائي رحلة قصيرة من تلك الرحلات الرياضية التي كنت تشجعني دائماً أن أكون من روّادها.

ذهبت مع الركب من الشباب المنطلق الذي تفتحت عيونه على الخير والفضيلة أول ما تفتحت، وكانت ليلة ليلاء تلك التي أمضيتها برفقة صديقي سعيد.

كان هو الآخر منطوياً على نفسه، ينظر إلى الحياة نظرة أسى وحزن، لماذا، لست أدري؟

وشئت أن أعرف سبب حزنه، ففعلت، ولم أترك أية فرصة تسنح لي لأطلع على السر العميق الذي يحمله صديقي والذي يتسبب له في الكثير من الألم.

عرفت مرارة الحياة، وكيف تظهر جلية واضحة على وجوهنا نحن بني الإنسان يوم نجد هذه الدنيا التي تريد أن تحد من جذرة نشاطنا العلمي.

كانت ظروف سعيد تجبره على أن يعمل وإن كان يفضل أن يكمل تعليمه، وكان واقعاً في حيرة ما بعدها حيرة.

ووجدتني أطمئنه، فأنا أعرفك يا أبت، فأنت صاحب تجارة، وقد جئتك أرجو أن تضم سعيداً إلى متجرك فلم تتأخر، وإنما طلبت مني أن أذهب وآتي معه، وكان أن فعلت.

وجاء سعيد إليك..وتكلمنا كثيراً في موضوع العمل، والحياة، وظروف العيش، وما إلى ذلك، وخرج سعيد وقد آمن، بعد أن سمع نظرياتك عن الحياة، بأن الخير واقع، وأن ما يفقده المرء في ساعات الضعف لا بد وأن يُعوَّض عليه في ساعات قوة.

وهكذا خرج سعيد من عندنا وكلّه إيمان وأمل، وخرجت أنا وقد شعرت بالخيلاء والفخر يغمران حياتي، فوالدي، قبل كل شيء، إنسان كامل بمعنى الكلمة.

وسافرت إلى القاهرة لأكمل دراستي بعد أن تركت سعيداً يعمل في متجرك. وكانت لحظات الوداع أثقل أوقات حياتي يومذاك، ونظرت إلى سعيد لأرى الألم كيف يغزو وجهه لأنه لم يكن مرافقي في هذه الرحلة.

وبدأت صفحة جديدة من صفحات التعليم في محيط حياتي، ورأيت في الجامعة أشكالاً وألواناً من الزملاء والزميلات.

إلا أنني كنت أعدو في دراستي لألحق بك في متجرك بعد أن أتزود من العلم بأكبر نصيب.

وجاءت فترة الإجازة، وعدت إليك، وارتاحت نفسي للطريقة التي يدير بها سعيد المتجر.

ارتاحت نفسي إليها لأنها كانت طريقة ناجحة آتت أكلها مرتين. ولقيني سعيد في خيلاء الناجح، فزادني هذا إيماناً بأنه يستحق هذه الخيلاء لأنه نجح، وليلتها تذكرت يا والدي كيف كانت تلك الليلة.

إنني أتذكر كل دقائقها، فقد كانت أشبه بالعاصفة التي تأتي على كل شيء، لا تبقي ولا تذر، وإنما تذهب بالصالح والرديء.

واختلفنا فجأة، وعلا صوتي على صوتك، وسمعت والدتي النقاش الذي دار وإن كانت قد رأت أنه من الأفضل لها ألا تتدخل.

لا أزال أذكر كلماتك التي بدأت بها الحديث يا والدي الحبيب. أتذكرها، فقد كانت ترن في أذني صباح مساء، وكانت:

ـ لقد فكرت طويلاً في موضوع أعتقد أنني سأقدم عليه وأنا مسرور، وأنت كذلك .

وقلت لك:

ـ وما هو هذا الموضوع؟

قلتَ:

ـ زواج أختك.

قلت:

ـ مبروك.

قلتَ:

ـ لا تقلها الآن، ولكن قلها في حينها.

وفكرت بعض الوقت في عبارتك: "قلها في حينها"، وسألت:

ـ ولكن ترى من هو المحظوظ الذي وافق هواك فارتضيته صهراً؟

أجبتَ:

ـ سعيد.

قلت مستنكراً:

ـ سعيد هذا؟

وخرجت كلمتي وكلها استخفاف وسخرية بسعيد زميل الأمس القريب. لا أدري لماذا، ألأنه فقير، أو لأنه يعمل في متجر أبي؟

واختلفنا في الرأي ولأول مرة. كنت أنت يا والدي لا تزال على رأيك مصمماً لأنك هيأت كل شيء. وحذرتك بالهروب من الحياة، من الحياة معك لو فعلت.

وقلتَها:

ـ ساعتئذ سيخلفك سعيد هذا في قلبي.

واحتقرت سعيداً هذا، ومضيت أجرّ أثواب الخيبة إلى غرفتي.

وفي يوم عقد القران، كنت أنا بعيداً عنكم في لبنان.

آليت على نفسي أن لا أعود إلى الدار التي شهدتني طفلاً ما دام هذا رأيك.

ومضيت في دراساتي، وكنت أنت تحاول من جانبك أن ترعاني من بعيد ودون أن أعرف. ولكنني علمت أخيراً أن المبلغ الشهري الذي كان خالي يبعث به إلي بعد أن رفضت تسلّم تحويلك المالي إثر خلافنا، كان منك أنت، وأنك عمدت إلى هذه الطريقة حباً منك في أن أتم دراستي.

وكان الذي كان... ثم عدت بعد أن أنهيت دراستي إلى البلد، ونزلت في دار خالي دون أن أتوجه إلى زيارتك. وجاءت أمي لتسترضيني بشتى الطرق،

ولكنني لم أوافق على الذهاب إليك، لأنك فضلت سعيداً هذا علي.

كانت ساعة ضعف يا والدي العزيز زادتها الأيام حدة وقوة من كبرياء مزعومة، وإلا ما الذي أقول عنها؟

وتسلمت عملي الجديد بعيداً عن مسقط رأسي، ومضيت جاداً في عملي الجديد في همة ونشاط.

كان يؤرقني في كل ليلة أنني بعيد عنك وعن والدتي، ولكن حالت كبريائي دون أن أسمع لصوت العقل فأعود إليك.

وهكذا نجحت في الحياة بجدي واجتهادي، وإن كان الفضل الأول والأخير لك ولحكمتك يا والدي العزيز.

وفهمت أخيراً سر إصرارك عل تزويج أختي من سعيد.

فأنت إنسان بدأت من أول السلم، ولا يهمك أن تهب ابنتك لرجل يريد أن يبدأ من أول السلم ما دام هو جديراً بها.

وعرفت فلسفتك في الحياة، فمادام سعيد هذا صالحاً، فما هو المانع من أن تعطيه ابنتك؟

وكان ما كان....

أما أنا، فلم أعرف أنك قد بدأت من أول السلم، وإنما فتحت عيني أول ما فتحت ونحن في بحبوحة من العيش الكريم.

وآمنت بعد أن عرفت كل هذا من خالي الذي جاء يزورني في مكان عملي الجديد، آمنت بأنك على حق، وأنني مخطئ كل الخطأ في اختلافي معك.

فهل لك أن تصفح يا أبت عن ابنك الذي لا يكنّ لك ولأخته ولسعيد إلا كل حب وتقدير؟

الخائن

ـ ترى أين هي الآن؟ ولكن لماذا أسأل؟ فهي ليست لي ولا شك لأنني...

ولم يتم جملته، ثم عاود الحديث:

ـ جميلة فاتنة رائعة، كل شيء فيها يثير الدهشة، عيناها الخضراوان، وشفتاها الرقيقتان، وشعرها الذهبي المهدل على جبينها في فوضى غريبة، وابتسامتها المثيرة ونظراتها الحالمة.

ونظرت إلى صديقي، ترى ماذا أصابه؟ أهو يهذي لأنني لم أر بجانبه أية فتاة. فسألته:

ـ ماذا بك؟ أنت مريض؟ لماذا كل هذا الهذيان!

ولكنه لم يجب فذهبت إليه حيث يقف، رأيته سعيداً جذلاً فرحاناً وكأنه واحد من أولئك الذين ورثوا ملايين الجنيهات من قريب لهم لم يعرفوه.

ونظرت إليه نظرة ثانية فقال:

ـ انظر.

ونظرت إلى حيث أشار فطالعتني صورة لفتاة شابة جميلة تقبع في إطار أنيق على الجدار الملون، وهي تطل من الإطار في كبرياء حقيقي.

وما هي إلا لحظات حتى شعرت فيها بأن الفتاة تستحق كل هذا الإعجاب من صديقي وهتفت من أعماقي:

ـ نعم جميلة، فاتنة، مثيرة.

والتفت لي صديقي وقال:

ـ إذاً أنت معي في أنها جميلة.

ـ نعم.

قلت هذا دون إرادة مني ولكن جمالها من نوع جديد، إنها من ذلك النوع الذي تحس معه بالحيرة والاستقرار بالراحة والعذاب بالحب والأنانية والتضحية والغيرة.

قال:

ـ ولكنها صغيرة، في عمر الورود، وعمر الزهرة اللطيفة تلك التي يتعهدها صاحبها بالرواء، يحنو عليها فتستجيب لحنوه.

والتفتّ إليه:

ـ بل هي أجمل من الزهرة، لأن الزهرة شيء معنوي يأخذ صفة الجمال ولا يعطيه، أما هذه فتأخذ صفة الجمال وتعطيه، وقد تهبه وقد تمنعه.

واسترسلت في وصف الفتاة بكلمات تدل على إعجابي الكبير بها، ولم أحس بيده الكبيرة وهي تمتد إلى عنقي لتطبق عليه في قوة، وهو يصيح ساخطاً:

ـ إذن أنت تحبها يا خائن.

ـ دع عنقي.

تراخت قبضته بعض الشيء ونظرت إلى عينيه لأرى الشر مجسداً في نظراته. ولقد خيل لي ساعتها أنه مجنون، مجنون كبير. وما هي إلا لحظة قصيرة ترك فيها محمود عنقي لأتحسسها في لهفة، ونظرت إليه مرة ثانية وقلت:

ـ أنت مجرم.

فقال:

ـ أنت خائن، خائن مسكين أنت.

ـ ومع من؟ هل خنتك؟

ـ نعم خنتني. إن كلماتك كلها تدلّ على أنك تحبها بينما كان واجبك كصديق أن تتركها لي.

ـ ولكن من هي التي أحبها ولم أتركها لك؟

ـ هي، هي حسنائي الصغيرة، فتاة أحلامي.

ـ وهل في قولي مجرد كلمة أو اثنتين عن جمال الفتاة ما يدعوك لاتهامي؟

ـ لا ولكن نظراتك، كلماتك، طريقتك في الوصف، كل هذا جعلني أشك في أنك تحبها.

وضحكت قليلاً لأرى الشر مرة أخرى ينطلق من عيني صديقي لترتسم علائمه على وجهه في تشنجات عضلية أوشكت أن تدفع به إلى أن يعيد الكرة في تطويق عنقي.

وتحسست عنقي مرة أخرى، فحمدت الله على النتيجة وتذكرت في تلك اللحظة أن من واجبي أن أفعل شيئاً تجاه هذا المجنون فلقد ذهب بصداقة العمر نتيجة كلمة واحدة قلتها عن حسن نية عن فتاة لا أعرفها ولا يعرفها هو.

ووجدت أن من الأفضل لي أن أمضي بعيداً عنه إلى داري، فقد كنت يومها برفقته نبحث عن سكن صغير له يستطيع أن يقطنه، وكان ذلك أول سكن ندخل لرؤيته،فكان ما كان، وأخذت طريقي إلى الباب في عصبية ظاهرة ولكنه أمسك بذراعي في حنان ورفق ثم قال:

ـ سامحني لقد أخطأت في حقك، ما كان علينا أن نكون على ما كنا عليه، ولكنها ـ سامحها الله ـ هكذا دخلت حياتنا فجأة لتفسدها.

وضحكت من أعماقي لكلماته فالتي دخلت حياتنا مجرد صورة لأنثى لا ندري من أمرها شيئاً، وتركت ذراعي في يده لأضحك مرة أخرى وهو يقول:

ـ ولكني أرجوك لا تأخذها مني بل ساعدني على لقائها.

وأعطيته وعداً دون أن أعي، لأنني كنت أظن بأننا لن نلقاها فهي على ما أعتقد في مخيلة ذلك الرسام الذي أبدع صورتها. وسألته مرة ثانية:

ـ ترى لماذا لم تأخذ صورتها معها يوم تركت الشقة؟

ـ أظنها نسيت أمرها وهي عجلة.

قلت:

ـ يجوز.

كنت أريد أن أضمن سكوته ولو للحظات. وأخذ صديقي ينقل الصورة في تؤدة واطمئنان إلى داخل مظروف كبير كان يحمل أوراقه فيه، ومضى إلى خارج الدار الصغيرة في طريقنا إلى صاحبها لنسأله عن أجرة السكن فيها. وفي الطريق إليه هالنا أن نجد أمامنا الفتاة بكامل زينتها وهي تمضي مرفوعة الرأس شامخة.

ونظرت إلى صديقي لأرى عينيه تلمعان بأحاسيس شتى فيها مزيج من الخوف والرغبة معاً، الخوف مني، والرغبة في أن يحادثها فقلت:

ـ تشجع، امض، حادثها ربما تستطيع أن تكلمك، وربما تستطيع أن تعرف منها ما تريد معرفته.

وتقدم صديقي بضع خطوات صغيرة كان فيها بجانب الفتاة وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال:

ـ أختي العزيزة هل لك أن تدلي غريباً على الطريق؟

ونظرت إليه نظرة أودعتها كل معالم الاستغراب وقالت:

ـ ولكن الطريق ملأى بالرجال فلماذا لا تسألهم؟

قال:

ـ أنت على صواب، ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي أريده.

قالت:

ـ ما عليك سل.

وفي وقاحة استغربتها قال صديقي:

ـ أريد أن أعرف الطريق إلى دار أبيك.

ـ دار أبي؟ ولماذا؟

قال:

ـ لأنني صديقه قدمت من بلادي وأنا واثق بأنني سأجده ولكني علمت أخيراً بأنه ترك منزله إلى مكان آخر.

وكنت أتوقع أن تسأله عن اسم أبيها ولكنها لم تفعل ثم قالت:

ـ ولكن كيف عرفت بأنني ابنته؟

قال:

ـ من صورتك، أليست هي هذه؟ لقد تركها والدك عندي يوم كان في زيارتنا.

وأطلعها على الصورة التي يحملها.

وأطلقت الفتاة ضحكة صافية ثم قالت:

ـ أنت غريب فعلاً. الغريب المزيف، غريب في منطقك. نعم إن هذه

الصورة التي تحملها قد تكون صورتي ولكن أبي لم يتركها لديك، وإنما أنا فقدتها ولا أدري أين؟

قال:

ـ لا عليك، ما دامت هذه صورتك فهي لك إلا إذا أردت أن تبقيها لدي كذكرى.

وابتسمت الفتاة مرة أخرى وقالت:

ـ أنت أرعن يا سيدي.

فقال:

ـ أنا كذلك، لكني أريد أن أرى والدك.

فقالت:

ـ تستطيع أن تمضي إليه فهو يسكن اليوم هناك.

وأشارت إلى القلعة ثم سكتت.

ـ أهو من سكان القلعة اليوم يا آنستي العزيزة؟

ـ نعم لقد رقد رقدته الأخيرة قبل خمس عشرة عاماً قبل أن يتشرف بمعرفتك.

وألجمت المفاجأة لسان صديقي فلم يقدر أن يتكلم، ومضت الفتاة في طريقها تحمل الصورة التي قدمها لها في هدوء واطمئنان.

وما هي إلا لحظات حتى سار صديقي يحث خطاه وأنا أتابعه وهو يتابع الخطوات الدؤوبة في سيرها علّه يستطيع اللحاق بها وهي تسير، ورآها تمضي إلى البنك لتلجه في هدوء فمضى وراءها حتى عرف أخيراً أنها واحدة من البنات اللواتي يعملن فيه.

وعاد يحمل إلي البشرى فقد عرف أخيراً أشياء وهو الحريص على أن يعرف كل شيء. لقد خدمته الأقدار فأعطته فرصة أكيدة في أن يتعرف إلى فتاته.

ومضى صديقي بي إلى المقهى الصغير المواجه لبوابة البنك الكبير فاختار أحد كراسيه ليقبع عليه ويطلب مني أن أبقى معه ولكني رفضت فقد كان علي أن أقوم بأعمال أخرى تخّصني. ومضيت بعد أن استأذنته في طريقي إلى عملي وخيالي مشغول بما شاهدته اليوم من أمر صديقي .

وغاب عني صديقي زهاء أربعة أيام لم أشاهده خلالها. وفي اليوم الخامس جاءني منطلق الأسارير يلقي بخبر خطبته لصاحبة الصورة في صوت يشوبه شيء من الإغاظة وكأنه استطاع أخيراً أن يتغلب على عقبة كبيرة وقفت في طريقه، وقال لي:

ـ ترى هل أدعوك لحفل الزفاف الذي سيتم بعد أسبوع أم لا؟ ما رأيك؟

قلت:

ـ لا أدري.

قال:

ـ ولكني أخاف أن تأخذها مني فأنت كما سبق أن قلتُ خائن غير أمين.

وكرر كلماته تلك مرات ومرات ولكنني لم أجبه وقدّرت ظروفه ثم ضحكت، فقال:

ـ ولكن مع كل هذا فأنا أدعوك فزفافي ليلة الجمعة القادمة.

وجاءت ليلة الجمعة سريعاً لأجد نفسي مشوقاً لأعرف كيف استطاع صديقي هكذا أن يوفق إلى الخطبة فالزفاف.

وذهبت إلى داري بعد أن اشتريت بعضاً من الزهور حملتها بيدي، ومر حفل الزفاف في بساطة متناهية، ونسيت أمر صديقي بعد كل ذلك لأنني لم أعد ألاقيه، فقد كان من أولئك الذين منعهم الزواج حتى من زيارة أصدقائهم.

وذات يوم قدر لي أن أزور صديقي في داره فذهبت إليه بعد مكالمة تليفونية قصيرة منه كان يدعوني فيها إلى لقياه.

وهناك في الدار الصغيرة وجدته ضاحكاً يبتسم في إشراق وقال لي:

ـ أو تدري ما هي الحكاية؟ لقد عرفت أخيراً أن الصورة التي كانت سبباً في تعرفي إلى زوجتي هذه لم تكن صورتها في يوم من الأيام وإن كان الشبه ظاهراً.

وضحكت زوجته، ثم قالت:

ـ انظر أيها الخائن.

ونظرت إلى حيث تشير فراعني أن أرى فتاة أخرى أكثر شبهاً من الأولى

للصورة التي تحملها زوجة صديقي وقالت:

ـ أقدم لك دلال أختي.

وفي بساطة مددت يدي لأتلقف اليد البيضاء الأنيقة.

وما هي إلا دقائق معدودات غادرت فيها دلال الغرفة لإحضار القهوة فسمعت صديقي يقول:

ـ ما رأيك؟

قلت:

ـ غريب حقاً هذا الأمر، إنها جميلة فاتنة مثيرة.

واستدرت إلى صديقي لأسأله:

ـ هل تقبل أن تطلب لي يد دلال يا صديقي الحبيب؟

ولم أسمع شيئاً من كلمات صديقي المتلاحقة سوى كلمة:

ـ سأفعل.

فطابت نفسي وقرت عيني بعض الشيء.

وجاءت دلال تحمل صينية القهوة. وتلقف كل واحد فنجانه وكأنه يأبى أن يوقف هذه الفتنة المجسدة طويلاً، وسمعت صديقي يخاطب دلال:

ـ ما رأيك؟

فخرجت من الغرفة دون أن تجيب.

وهكذا وبعد أيام أصبحت أنا الخائن زوجاً لصاحبة الصورة الأصلية.

وأصبح صديقي يتندر بي دائماً هو وزوجته وحماتي العزيزة فينادونني بكلمة واحدة: الخائن. فهل أستحق هذه التسمية؟

أما زوجتي، فقد كانت غير راضية عن التسمية الجديدة وكانت تمقتها من كل قلبها فأبتسم.

هذه هي القصة

من أنا؟ وأين أعيش؟ وكيف كانت أيام العمر التي مضت؟ ذكريات الطفولة الفريدة بجمالها وروائها، وضناها وعذابها، كيف مضت؟ وإلى أي مدة تحققت كل تلك الأحلام؟ ذهبت ولم يبق في مخيلتي منها سوى ذكريات ضئيلة يجترّها خيالي المرهف، في لذة حيناً وفي أسى حيناً آخر.

من أنا؟ فتاة في عمر الورود، كانت تعيش هناك على ضفة النهر الخالد بين لداتها، لاهية لاغية لا تدري من أمر الغد وما يخبئه الغد. كنت من أولئك اللواتي يؤمنّ بأن حياة المرأة هكذا إلى جانب زوجها ضرب من الخيال، وإن كانت طبيعة تكويننا تقتضي ذلك، لأنني كنت أثق ثقة مطلقة بأن المرأة يجب أن تعمل، وتكدح لتعيش لا من أجل لقمة العيش وحسب، إنما لأنني أريد أن أثبت لهذا الصنف من الرجال المتعجرفين الذين ينظرون إلى المرأة ككم مهمل بأنها على غير ما يريدون لها.

وبدأت أناضل وأكافح في سبيل هذا المبدأ، مضيت في دراستي أشق طريقي نحو الغاية، نحو تحقيق الهدف الأسمى العظيم الذي كرست حياتي من أجله.

كم من المفارقات وجدت وأنا في الطريق إلى الغاية، وكم من الحوادث مرت بي بعضها لا يزال عالقاً بذهني والبعض الآخر طوته الأيام لأنه لم يكن يستحق أن يظل ويبقى.

كم مرة قابلت فيها العديد من صديقاتي، أولئك اللواتي تزوجن وقبعن في بيوتهن، وكم مرة تحدثت إليهن حديثاً مستفيضاً عن حياة

البيت وجمال البيت وكنت في كل مرة أخضع لتأثير الواقع ثم لا ألبث أن أنطلق من عقال أحلام الفتيات فأعود إلى الدراسة وإلى شعار من يؤمن بأن التعليم للتعليم هو كل شيء.

وهكذا سرت ألتفت يمنةً ويسرةً أبحث عن الوسيلة والغاية والهدف وأتمنى أن أجمع بين الجميع ولا أدري فقد أكون قد وفقت في هذا الجمع وقد لا أكون.

ولكن لا عليك فهذه هي القصة.

لقد ولدت من أبوين من عامة الشعب، من ذلك السواد الأعظم من الناس الذين يؤمنون بأن الحياة جهاد متواصل وعزيمة وإيمان. ولدت وكان مولدي بداية جديدة بالنسبة لوالدي ذلك الذي كان يرى فيّ أنثى جاءت في الوقت غير المناسب لأنه كان ينتظر بدلاً مني ابناً يستطيع أن يعتمد عليه في عمله عندما يكبر. وهكذا جئت إلى الدنيا فلم أستقبل كما يُستقبل الأطفال عادة بالفرح والسرور، وإنما كانت ليلة خانقة أفرج عنها الصباح بنوره بعد أن أمضيت ثلثي الليلة لا يدري بي أحد سوى والدتي المسكينة. وبدأت أكبر وأشيع في جو العائلة نوعاً من المرح لم يعتده والدي فبدأ ينظر إلي نظرة أخرى غير النظرة الأولى!

وعندما أودعتني والدتي مدرسة البنات في بلدة قريبة كان يوم عيد بالنسبة لي. فقد كنت أرى بعقليتي الصغيرة بأن الدور اليوم لي، يجب أن أنجح في دراستي وأبرز في شهادتي حتى أستطيع أن أسد تلك الثغرة التي أوجدها مولدي بدلاً من الطفل.

ومرّت الأيام مملة بطيئة حتى جاء ذلك اليوم، يوم استطعت أن أحصل على شهادة (البكالوريوس) من جامعتنا المحلية.

ولا أدري كيف حملت النبأ إلى والدي الذي استقبل النبأ بابتسامة المشفق قائلاً:

- وماذا بعد (البكالوريوس)؟

والتمعت في ذهني فكرة غريبة خاطرت في أن أقولها في ذلك الزمان

والمكان:

- سأذهب إلى الخارج لإكمال تعليمي.

ونظرت إلى وجه والدي لأرى كيف يتلقى كلماتي تلك، وساعتها سمعته يقول:

- كنت أظن أنك ستعمدين إلى العمل بالبكالوريوس.

قلت:

- لا.

قال:

- افعلي إذاً ما ترينه، وتأكدي بأنني لن أبخل في تدبير معيشتك في تلك البلاد.

نظرت إلى والدي نظرة شكر على هذه النتيجة التي لم أكن أتوقعها، وذهبت إلى غرفتي وبدأت أفكر:

ترى لماذا لم يكتف والدي بما كسبته من علم؟ أولا تكفي(البكالوريوس) في نظر والدي كشهادة أستطيع بها أن أتزوج؟

وبدأت أستعرض أسماء أولئك الذين أراهم جديرين بأن أقترن بهم، وبدأت أفكّر في محاسن هذا ومساوئ ذاك حتى عرفت أخيراً بأنني امرأة لا أختلف عن أولئك اللواتي كنت أتهمهنّ بالجهل، فهاأنذا بعد أن تحققت لي أولى مراحل أحلامي في أن أتعلم للعلم نفسه أجد نفسي تهفو إلى أن تحتويني جدران بيت صغير، ولكن هل أذنبت عندما فكرت في البيت وجمال البيت ورواء البيت؟

ومضى الليل وأنا على هذه الدرجة من التفكير أبحث وأفكر وأقارن لأخرج في النهاية بلا شيء، ووجدت أن من الأفضل لي أن أمضي هكذا إلى نهاية المعركة وإن فقدت لذة المقاومة.

لقد ذهب الهدف وانتهت الغاية، ذهب الهدف هكذا سريعاً لأنني كنت إنسانة حدّت الأيام من جذوة نشاطها وأفقدتها الكثير من مقومات الحياة المثلى، تلك التي كنت أنظر إليها على أساس أنها هي الهدف وهي الغاية.

وسقطت فريسة العناد، يجب أن أبقى، أن أجمد للأحداث، يجب أن أمضي مع الركب، أن أستمر في العراك مع الأوهام التي كانت تسود خيالي في ذلك الحين لأنني لم أعمل حساباً لطبقتي كفتاة، كأنثى تريد أن يحميها رجل أي رجل ما دامت صفاته ومواهبه خليقة بأن ترضيها.

وهناك بعد أن تلقيت شهادتي الثانوية التقيت به من بلد غير بلادي، إنساناً كامل الصفات، لا تشوبه أجواء أية عقدة من عقد الحياة الكثيرة. كان بسيطاً في مظهره وفي ملبسه، جميلاً في كلامه وحديثه، مقنعاً في كل شيء، وأدرت رأسي لتلتقي عيناي بالعينين الناقدتين، لقد شعرت ساعتها بأنه قد طوّق جيدي بكلتا ساعديه، أحسست بحرارة الحياة وجمال الدنيا. وشعرت بطبيعة الأنثى وقد عادت لي فلم أطق صبراً في أن يمضي عني صائدي وإنما ألقيت الشباك ليصطادني ذلك الغريب القريب إلى القلب.

هكذا زففت إليه وعدت إلى بلده بعد أن فقدت كل مقومات شخصيتي السابقة، عدت ثانية امرأة أخرى غير الأولى، وهناك في الدار الأنيقة شئت أن أضحي بآخر خيط يربطني بتلك الحماقة الكبرى التي ارتكبتها يوم كنت صغيرة، لا أدري ولكنني لو تعلمت على أساس طبيعتي كأنثى لنجحت.

ولكنني حاولت أن أخلط فأشارك الرجال فيما هم مختصون به ففشلت. وعدت من جديد امرأة أخرى وجدت طريق السعادة بعد أن فقدتها سنوات وسنوات، وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير أمسكت بعود ثقاب لأشعل المدفأة بالنار المتأججة من شهادتي الكبيرة.

ويوم فعلت، هدأت نفسي واستقرت لأنني عدت إنسانة أخرى غير تلك الفتاة الأولى، امرأة ذات هدف وذات غاية، هدفها البيت وغايتها تربية الأطفال.

هي أمي

قالت لي:

ـ يقولون عنا يا بنيّ إننا لا نعرف الجد ولا الواقع، نأخذ من يومنا ليومنا أماالغد فقد نسيناه أو تناسيناه. نعيش في دنيانا الصغيرة هذه بقلوبنا وفي نفوسنا آمال لا تخلو من الشطط، أما أنتم فمن طينة أخرى غير التي خلقنا منها، لأنكم دائماً تعملون، وفي صمت مطبق، بينما نحن نعشق الثرثرة ونكره الصمت.

أيام العمر تلك التي أمضيناها في زيارات مختلفة للحرائر من بنات العمومة والأقارب.. لا ندري من أمر هذه الدنيا إلا أن تجاب مطالبنا.. في رعونة.. رعونة شباب.. وما أجمل أيام الشباب...لقد كلّ ذهني من تذكّر ما فات من أيام العمر يوم كنت أعيش في أحضان والدك امرأة مدللة تافهة، شخصية لا تعرف معنى الحياة وقيمتها.. بل كان كل ما يهمّني هو أن أتزيَّن وأتجمّل وأرتدي أجمل ملابسي، لأقوم بزيارة صديقة عزيزة مثلي في دارها.. مع أترابي من بنات جنسي أولئك اللواتي كن مثلي لا يعرفن معنى الحياة.. لأنهن لم يتذوّقن طعمها المرّ الرديء..

كن يبتسمن في بلاهة لقصص الحرائر وهن يشدن بأزواجهن..

وكنت أكثرهن جرأة وحركة في ذكر فضائل أبيك، وكانت زميلاتي ينعين على حبي وولهي به وكن يقلن عني بأنني امرأة أعطي زوجي أكثر مما يجب أن أعطيه، كنت لا آبه لذلك، مع أن فارق السن بيني وبينه كان يجعلني دائماً أنظر إليه على أنه والد لا زوج.. ومع هذا الاعتبار كنت واثقة أنه لو قدر لي أن أتزوج غيره لما سعدت..

أو تعرف يا بني كيف تحبني أنت اليوم بكلّ قلبك؟ لقد كنت أحب أباك من كل قلبي، وبإحساساتي، وبآمالي، وقلبي الصغير، وروحي الغردة، كنت أرجو دائماً أن أراه بجانبي، حتى في أيام غيابه وسفره عن البلد كنت أشعر أنه بجانبي، ويوم جئت أنت إلى هذه الدنيا كنت أنظر إليك، إلى وجهك وعينيك، إلى كلّ جزء فيك، وأحسست بالراحة عندما رأيتك صورة مصغّرة من فارس أحلامي، ذلك الذي وهبني كل سعادة وهناء.

أي بني ألا تدري مدى ما كان يربطني ويشدني لوالدك من رباط هو في نظري أقوى وأشد متانة من أي رباط آخر فمنذ ذلك اليوم الذي قدّر لي أن أدخل حياة والدك، علمت بأنني إنسانة سعيدة قدّر لها أن تنال ما تريد وتجد ما تصبو إليه نفسها وروحها القلقة المتبرّمة.

ورغم أنني كنت الفتاة الأولى لوالدي ورغم تدليلي كنت أحب أن أفعل في سبيل راحة والدك كل ما أستطيع، وقد وفقت فكان لي أكثر من زوج.

نعم كان لي أكثر من زوج وكنت أعامله معاملة الأم الرؤوم على صغر سني وحداثة عهدي بدنياي الجديدة.

ومضت أيامنا على وتيرة واحدة من سعادة لا تعكّر صفوها أحداث الأيام. لقد كان والدك من أولئك الذين ينظرون إلى حوادث الدنيا بابتسامة مليئة بالترفع والكبرياء، فهو يعرف أن الحياة عبارة عن مدّ وجزر، وأنّه إذا جاء الجزر لا شك أعقبه المدّ، فلما جاء الجزر ليحسر عن حياتنا مباهجها، لم ييأس وإنما مضى في حياته صامد القلب، قوي الشكيمة، كثير التفكير في أحوال الدنيا دون أن يطغى التفكير على راحة قلبه وصفاء حياته ونقاء أيامه.

وكنت أنا امرأة لاهية لا أدري إلا أنّ الحياة كلّها سعادة.. فمضيت في حياتي وفي نفسي إحساس بأن هناك أشياء جديدة يخفيها عني والدك.

هل عرفت النساء يا ولدي ومجالسهن؟ ستقول لا، وهذه هي الحقيقة، فالمرأة يا بني هي المرأة، لا فرق بين المتعلمة منها والجاهلة، كنت أنا وأترابي دائماً في زياراتنا المختلفة لصديقاتنا نجتمع على وفاق لنثرثر في أحاديث لا أظنّ إحداهنّ كانت تستمع إليها.. وإنما كن جميعاً يفكرن كلّ واحدة منهن في الذي ستقوله قبل أن يتم حديث الأخرى، هكذا المرأة يا ولدي في

كل الدنيا فهي لا تصغي مطلقاً لحديث امرأة أخرى، وإن أصغت فإنما تصغي لتفكر في حديث آخر تقوله هي.. ولكنني في تلك الليلة كنت على غير عادتي.. فعرفت أمراً إداً، وتناهى إليّ صوت صديقتي سعاد وهي تهمس في أذن زكية عن الجزر الذي أصاب تجارة والدك، وعرفت في تلك الجلسة بطريق المصادفة أن أباك المسكين قد فقد أكثر تجارته، فعدت إلى داري ووجيف قلبي يطغى على كل شيء سواه.. وشعرت بخفقان قلبي المنعم وهو يعلو ليصمّ أذني..

لقد شعرت ليلتها بأنني ضائعة، ولم أفكر في نفسي أو في حبي لوالدك،وإنّما تذكرتك أنت، أنت الوليد المدلّل الذي جئت إلى هذه الدنيا وفي فمك ملعقة من الذهب، كيف سيكون الحال بالنسبة إليك؟..

ودارت في مخيلتي صور شتى لأوضاع مختلفة. تذكرت يومها ذاك الطفل الفقير الذي جاء يطرق بابي ليطلب مني في استكانة غريبة أن أقدّم له شيئاً من الطعام يبتلعه هو وأمه، وصدقني عندما أقول لك، لقد فعلت يومها ما أستطيع فأدخلت الأم والطفل إلى الدار الأنيقة، وطلبت من خادمتي أن تعدّ للطفل شيئاً من ملابسك إذ إنه كان في مثل سنك وذهب الطفل مع أمه مبتسماً راضياً قرير العين بملابسه الجديدة وهو ينظر إليها بعينيه، ويتحسسها بيديه، ذهب.. وأحسست يومها بالراحة وتذكرت جارتي الصغيرة التي فقدت زوجها العامل، فشدّت نفسها إلى ماكينة الخياطة شداً وثيقاً، حتى استطاعت في النهاية أن تجبر أمر عيشها ووليدها..

تذكّرت كل هذا ساعتها.. وأحسست بالغصّة والألم.. ولكن وجود والدك هوّن الأمر عليَّ، ولكن ترى لماذا يخفي هو عني هذا النبأ؟

وتخيلته في متجره بين زبائنه يسمع لطلباتهم فيأمر موظفيه بتلبيتها حالاً، ونظرت إليه بعين خيالي وهو يقرأ رسالة وكلائه مرة ومرات، وهم ينبئونه بأمر الخسارة الفادحة التي لحقت تجارته فيعمد إلى وضع كفه تحت ذقنه ويمضي في تفكيره ساهماً واجماً.

لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا في الطريق إلى داري، كل الذي أعرفه أنني وصلت الدار وتخطيت العتبة لأجده ـ أعني والدك ـ أمامي.. ولم أستطع أن أصبر وإنما ألقيت بنفسي على صدره وانتابني بكاء مرير مليء بالتشنجات العصبية..

لقد فوجئ أبوك فعلاً بمنظري فحاول أن يطيب خاطري ويسأل عن الأسباب التي أدّت لبكائي..

وقلت له ما سمعت، فضحك تلك الضحكة الصافية التي تميزه عن غيره وقال:

ـ لم أشأ أن أزعجك.. أما ما سمعت فهو الحقيقة.. ولكن ألا تثقين في الله؟

وأجبته وقد أحاطت بروحي موجة إيمان طافحة:

- نعم.

وأخذ بيدي ومضينا إلى الغرفة حيث كنت أنت.. ونظرت إليك.. ونظر هو إليك ثم قال:

ـ لا تخافي، انظري إليه.. إلى هذا الطفل الصغير.. أريدك أن تكوني مثله لا تحملين هماً ولا غماً.. لقد أراد الله ذلك.. ولكننا على أية حال أحسن حالاً من غيرنا.

ومرّت الأعوام.. كنت أحاول أن لاأناقش أباك في شيء بعد تلك الليلة، وإنما مضت تلك الأيام جميلة هادئة إلى حدّ كبير وإن كان الجزر في تجارة أبيك أصبح في تلك الأيام واضحاً جلياً، أما هو فقد كان قرير النفس والعين يحاول أن يضفي على البيت جواً من المرح والسعادة، فكان له ما كان.

ونسينا أو تناسينا أمور المحنة وسارت الأيام على ما نشتهي، في هدوء مريب حتى ذلك اليوم الذي مرض فيه أبوك.. وتطلعت إليه فرأيته يتألم من المرض الذي أصابه، وحاولت أن أخفّف عنه آلامه دون جدوى، وكان الأطباء هم الآخرون يحاولون أن يعملوا واجبهم.. ولكنني كنت أحس بقلبي أنه لا يريد أن يبقى.. وناداني والدك وطلب مني ومن إخوانه أن يساعدوه على الوضوء لأنه يريد أن يصلي وكان الوقت ساعة فجر فسررنا جميعاً وأخذنا بيده.. ولكنه قال:

ـ أريد أن أقول لكم شيئاً.. لقد انتهيت سأمضي إلى النهاية المحتومة وفي قلبي إحساس بأنني لم أمت لأنني أنجبت، وكل الذي أريده منك أيتها المرأة الصالحة أن تغرسي فضيلة التواضع في نفس ابنك فهو ابني وابنك أنت.. وأنت

تعرفين كم هو عزيز على نفسي..

وبكينا جميعاً.. وحاول أن يصلّي.. ولكنه لم يستطع، وهكذا مضت روحه إلى خالقها في هدوء ودون ضجة..

كانت المصيبة أفدح من أن يتحملها قلبي.. لقد فقدت قبل ذلك جدك.. والدي.. ولكنني لم أحسّ بالوقع الأليم في نفسي كما أحسسته يوم قضى أبوك نحبه.. وشعرت من يومها بأنني لست مجرد أم وإنما أنا أكثر من ذلك بالنسبة إليك يا ولدي الحبيب..

أي بني.. هكذا مضت حياتي منك.. ومع أختك.. وعفواً لأنني لم أذكرها كثيراً في كلماتي هذه إليك، لأنني أعلم بأنّها لم تقل شأناً في نفسي عن شأنك، أنت تعرف ذلك.. تعرفه جيداً وتعرف مدى إحساسي وحبّي لها وحب أبيك، ولكنها يوم مضى، كانت أصغر من أن تعي في الشهور القصيرة التي أمضتها بعد ولادتها إلى يوم وفاة أبيكما.. لقد كنت أنت نفسك في سنواتك القليلة لا تعي، فكيف هي في شهورها القليلة.

ولكن.. دعني من هذا الآن فلي معك حديث، وأيّ حديث.. وأعود الآن فأقول لقد أثقلت الأيام كاهلي وحمّلتني أكثر مما أطيق، ولكن إيماني بالله وأنك ستعوض صبري كما قال أبوك يدفعانني لأن أقوم بواجبي تجاهكما. وقد كان، وأنا كأم لا أنتظر منك شيئاً... كل الذي أردته هو أن تعيد سيرة والدك، فتكون مثله أو خيراً منه وهذا ما أريد الآن..

أنت تعلم مدى ما بذلت في سبيلك وسبيلها، ولكنها فتاة يا بني الحبيب، أما أنت فإنك اليوم في طريقك إلى مصر لإكمال تعليمك.. أنت تعرف ما أريد أن أقوله لك.. اذهب إلى دراستك واعتن جيداً بصحتك فنحن هنا على أحرّ من الجمر في انتظار أوبتك..

أما أنا فسأمضي في رسالتي تجاهكما.. وسأفعل كل ما بوسعي لراحتكما وكل ما أريده إذا قدّر لي أن أراك عند عودتك.. أن تكون على ما أريد وأراد أبوك لك من عزّة ورفعة. لا تبكِ يا بني.. بل كن مثلي هكذا وابتسم لربيع العمر.. فالحياة لا تريد منا هذا الاكتئاب وامض في طريقك مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ولا تنسَ أنك قد تركت هنا في بلدك أماً تهمها أخبارك.. فلا

تبخل عليها برسائلك.

هكذا مضيت يا صديقي إلى القاهرة، بعد أن أودعت صفحة ذلك الوجه المشرق قبلة حارة ونظرات عميقة. مضيت وكلي شوق إلى العودة إلى هذه الديار وكنت كمن يلتهم دروسه التهاماً.

رأيت الفتنة في ذلك البلد، فلم أعرها أي اهتمام، بل مررت بها مرور الكرام من غير أن ألقي عليها نظراتي.. حتى أولئك اللواتي قدّر لهنَّ أن يقتحمن طريقي كنت أمسك بهن في رقة لأقول لهن حقيقتي المجرّدة، فأنا إنسان يجب عليه أن ينتهي من دراسته سريعاً، ليعود إلى وطنه في اليوم ذاته، إلى أن قدّر لي أن أقع فجأة.. يوم التقت عيناي بعيني هناء، كانت فتاة من نوع جديد، فهي هادئة مثلي، بلا أمّ، عاشت سنواتها جميعها في كنف والدها.. وتلاقت نظراتنا أكثر من مرّة كانت فيها قلوبنا هي التي تترجم إحساساتنا تلك، دون أن ننبس ببنت شفة.

ومرت بنا السنوات.. وأنا وهي.. حيث كنا.. لا تتقدّم هي ولا أتأخر أنا.. كنّا نتقدم فجأة فنلقي بالسلام دون انتظار للإجابة.. حتى جاء ذلك اليوم.. ذهبنا مع الجامعة في نزهة خلوية في القناطر الخيرية.. وبعد أن ركبنا السفينة النيلية الصغيرة نظرت إلى من بجواري ففوجئت بها بجانبي، وأحسست ساعتها بأن قلبي يكاد يثب من بين الضلوع ليصافح قلبها. وبدأت أحدثها وتحدثني، وعرفت عنها كل شيء، وعرفت عني أشياء كثيرة، عن حياتي ومولدي، وأمي التي أحبها.. وافترقنا على موعد أقوم فيه بزيارتها ووالدها في داره.

وهكذا أصبح من المألوف أن نكون دائماً سوياً في مدرج المحاضرات وفي النادي وفي المكتبة. واتفقنا على الزواج بعد أن أعلمت والدتي بكل خطوة من خطواتي، وكانت المسكينة تبارك كل رغباتي في راحة وفي دعاء صادر من أعماق قلبها..

إلى أن جاء يوم تلقيت فيه رسالة مستعجلة.. نظرت إلى مغلفها في عناية فلأول مرة يطالعني خطّ غريب لا أعرف كاتبه.. كنت معتاداً على استلام رسائل والدتي بخطّها أو بخطّ أختي.. أما هذه المرة فلم يكن الأمر كذلك ولم أشأ أن أفضّ الرسالة.. بل تركتها في جيبي وكان أمرها لا يهمني في شيء.. ومضيت

إلى هناء لأراها تسائلني في لهفة عما في الرسالة.. وأخبرتها بأنني لا أدري.. وزدت على ذلك بأنني لم أفتحها حتى ذلك الوقت لكنها قالت بإلحاح:

ـ افتحها يا عزيزي فإنني أحسّ بأن في الأمر شيئاً غير معتاد..

فضضت الرسالة، وطالعني النبأ الغريب فوالدتي مريضة، وهي في أشد الحاجة إليّ، وكانت الرسالة بخطّ إنسان غريب وإن كان يعتبر من الأقارب فمضيت إلى الدار لأرتّب أمر سفري، هكذا فجأة.. وودعت فتاتي وأباها في المطار بعد أن طمأنتها على أنني سأكتب لهما.. ولكن؟

وصلت إلى بلدي وذهبت إلى الدار التي كانت تجمعنا أنا وأمي وأختي.. وجاءت أختي لتقبلني في بكاء مرير وهي تنتحب وتقول:

ـ لقد قضت أمك نحبها.. وهي تذكر اسمك دائماً، قضت المسكينة وهي تدعو لك من كل قلبها.

وأجهشت بالبكاء. كان موتها مفاجئاً، ولم أفق إلا على كلمات عمّي التي ردّت لي روحي قليلاً، لقد قال لي:

ـ لا تخف يا بني لقد ذهبت وهي تباركك وتبارك خطواتك..

حبي

أنا أهوى، أعشق، أحب وستستغرب أيها القارئ أن أبدأ قصتي بكلمات الحب والعشق والهوى ولكنها الحقيقة..

فأنا أهوى الأطفال ومن كل قلبي، وأعشق براءتهم وسذاجتهم، وأحبّ أن يكون لي طفل جميل، أداعبه وأهدهده، وأحنو عليه فلا أقسو مطلقاً. ولكني محروم من هذه النعمة، لأنني حسب رأي الأطباء (إنسان عقيم) وجد في هذه الحياة لينتهي من حيث بدأ.

لقد فقدت طعم الحياة الرائق منذ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه برفقة زوجتي لنعرض نفسينا على الطبيب، وكان قد مرّ على زواجنا أكثر من عامين أمضيناها ونحن ننهل من معين السعادة الذي لا ينضب، وأفقنا من سعادتنا على ذلك الصوت القاسي الرهيب، صوت الطبيب وهو يصدر حكمه في قسوة وكأنه يطعن به قلبي الذي أحسست به وهو يخفق في ضربات متلاحقة، فأنا العقيم وليست زوجتي، ونظرت إليها فهالني أن أرى دمعة أنيقة تنحدر على صفحة الوجه الجميل في سرعة مخيفة وكأنها تبحث عن المخبأ حتى لا تصادفها نظراتي.

ومددت يداً باردة كالثلج أصافح بها ذلك القاسي المتحجر القلب الذي قذف كلماته في أذني في يسر وسهولة دون أن يحس ما لوقع كلماته في نفسي من تأثير سيىء بدا واضحاً جلياً في قسمات وجهي التي أربدت وعيني التي أغمضتها ساعة يأس وكأنني أحلم.

أنا أهوى، أحب، أعشق، ولكن كل أحلامي الحبيبة، آمالي الكبيرة ذهبت هكذا فجأة، تبخّرت سطت عليها رهبة الموقف، فاندفعت تهرب من الواقع في سخرية مريرة.

ونظرت إلى زوجتي، فرأيت طيف ابتسامة صغيرة تتهلّل على شفتيها لتخفي اضطراب قلبها ولوعة نفسها وحرقتها وألمها.. فلقد قدّر لها هي الأخرى أن تبقى هكذا بمفردها، وإن كنت معها، لأنني لا أستطيع أن أنجب طفلاً جميلاً ذكياً يحمل رجاحة عقل أبيه وجمال أمه.

أنا عقيم. لا أستطيع أن أفيد الإنسانية، فأهبها فلذة من كبدي، يكون بمثابة رصيد كبير لي عندما أكبر وأبلغ تلك السن التي لا أستطيع فيها أن أعمل وأعول زوجتي.

مسكين أنا، وزوجتي هي الأخرى ما ذنبها في أن تبقى بلا طفل معطلة الأمومة مجرد أنثى بجانب رجل. محرومة من تلك العاطفة النبيلة التي أودعها الله في قلب كل أم؟

وخرجت من العيادة وبجانبي زوجتي وكلمات الطبيب القاسية تصمّ أذنيّ، فلا أعي ما يجري حولي من حوادث. وأخذت السيارة تنهب بعجلاتها الطريق في سرعة جنونية، لا أكاد أحسها لأنني مشغول جداً بما قاله لي عني وعن عقمي، وتناولت يد زوجتي في يدي القريبة منها، فهالني أنها مثلي مثلجة الأطراف، ونظرت إليها لأراها ساهمة واجمة مكتئبة تنظر إلى الطريق في بلاهة وكأنها لا تعرف إلى أين نسير. وما هي إلا لحظات قصار عاد فيها الدم إلى وجهي ليحيله إلى لونه الطبيعي، وبدأت دقات قلبي تعود لانتظامها السابق وكأنها والسيارة على موعد ونزلنا منها لنلج الدار في سكون وصمت حتى وصلنا إلى ردهة البيت، فألقيت بملابسي الخارجية على أقرب مقعد، ومضت زوجتي إلى مخدع نومها، وبقيت بمفردي، وبي إحساس من أذنب في حق زوجته ومجتمعه وأهله.

وتناهى إلى سمعي صوت الأطفال الصغار، وهم يلعبون في الشارع المجاور لداري في ضجة غير عادية ونظرت إليهم وأنا أغبط آباءهم على وجودهم، أنا المحروم منهم!

فهذه الثروة الطائلة والمجد الأدبي الكبير لن أستطيع أن أورثه لابن من أبنائي، لأنني محروم، عقيم إنسان بلا مستقبل، بلا أطفال.

ومضيت إلى غرفة النوم لأرى زوجتي وقد هدّها الحزن فلفّها النوم بهدوئه وأحلامه، ولم أشأ أن أوقظها بل مضيت إلى سريري أجترّ ذكريات طفولتي،

وبدأت أقارن بين طفولتي تلك وبين ما ستكون عليه حياة طفلي فيما لو قدّر أن يكون لي طفل.

وخرجت من تلك التخيلات بلا هدف ولا غاية، لأنها كانت مجرد ترّهات راودت خيالي الكئيب.

ومضيت أقلّب الصحف بحثاً عن صورة طفل حتى وجدتها هناك في إحدى الجرائد التي صدرت قبل أيام، وكانت الصورة تمثل طفلاً جميلاً بائس المنظر ويتيم الأبوين، في ساقه عرج ظاهر نتيجة إصابة قديمة أخذها يوم تدحرج على سلم بيت والده يوم وفاته.

وكانت قصة الطفل من تلك القصص التي تستدرّ الشفقة والإحسان معاً، وساعتها لمعت في خاطري فكرة جميلة لا أنكر بأنها كانت نبيلة الغاية والمقصد فإننا في حاجة إلى طفل.. وهو في حاجة إلى والدين..

وتصورت كيف سيكون الحال فيما لو وافق عم الطفل على ما عزمت عليه. ومضيت إلى زوجتي، وأنا أصيح من فرط إحساسي بالراحة وقلت لها الفكرة في كلمات متقطعة، ونظرت إلى وجهها فرأيته وقد عاد إليه تألقه، ولمعت عيناها في بريق أخّاذ، وكأنها توافق على ما أردته قبل أن تنطق بهذه الموافقة.

وهكذا أخذت سيارتي لأنهب بها الطريق إلى عنوان الطفل، ودققت جرس الباب دقات متواصلة فتح على أثرها لي الباب طفل جميل يتوكأ على عصاً قصيرة وأخذته بين أحضاني. سألته عن عمه فأشار عليّ بالدخول، وفي غرفة الجلوس تحدثت إلى عمه حديثاً وافياً مستفيضاً وما هي إلا ساعة أو بعض الساعة وافق فيها العم على جميع ما رغبت فيه.

وأخذت الطفل إلى سيارتي، ومنها إلى داري الأنيقة، وهكذا عاش فؤاد بيننا يا صديقي، لقد عملت المستحيل في سبيل شفائه من تلك الإصابات القديمة التي أصابت ساقه فغدا، كما تراه أنيقاً جميلاً يحبنا ونحبه، ويعيش لنا ونعيش له.

إنه يعرف مقدار حبنا له فيتفانى هو الآخر في إسعادنا. واليوم سيغادرنا فؤاد في رحلته الدراسية إلى أميركا، فهو سيتابع العلم في إحدى جامعاتها الكبيرة.

أما أنا فسأبقى هنا وحدي برفقة زوجتي نرقب عودته في لهفة وفي اطمئنان، اطمئنان من يؤمن بأنه لم يعد عقيماً أو محروماً من هؤلاء الأطفال الأعزاء.

الساق المريضة

كان أكثر ما يؤلمه أنه سيذهب غداً إلى نهايته تلك بقدميه، رضي أم كره فهذه هي إرادة الله..وبدأ يتفلسف في مواضع شتى، علّه ينسى الغد أو يتناساه دون جدوى.. فهو وإن كان اليوم يعيش بين أصدقائه الذين يحاولون أن يسدلوا على واقعه الأليم ستاراً من النسيان بأحاديثهم تلك، وحكاياته مع الحياة ومتاعبها وآلامها، وكيف هي أحياناً أكثر قسوة وأشد ألماً.. هذه الآلام تتضاءل أمامها آلامه ومتاعبه إلا أنه لا يعي. فالغد أمام ناظريه كقول مهذب، يودّ أن يتلقفه بين يديه في تؤدة وسهولة..

ولكن لماذا هو اليوم أكثر تهيباً من الأمس؟ لأنه قد عرف الحقيقة الكاملة عرفها هكذا فجأة دون مقدمات.. وتذكر حرب فلسطين تلك التي جاهد في معاركها ضمن أصدقاء له يذكرهم جيداً، أين هم الآن؟ مضوا فجأة دون أن يتركوا في هذه الدنيا ما يدلّ على أنهم عاشوا فيها سوى الذكريات التي يتبادلها هو وزملاؤه عنهم..

ومضت تلك الذكريات تمر بمخيلته كشريط سينمائي لا أول لها ولا آخر.. وبدأت الصور تمر بذاكرته تلك متتابعة متلاحقة تطلّ فجأة ثم تمضي لتحلّ مكانها مناظر أخرى مؤلمة.. يكاد يراها وقد تجسدت أمام ناظريه.. صور كريهة لأيام العذاب، أيام الشقاء، ولكنه لم يكن في يوم من الأيام من أولئك الجبناء الذين كان يتحدث عنهم وإنما كان يمضي إلى المعركة مرفوع الرأس شامخ الأنف..

كان لا يهاب الموت، فتخطاه الموت، وكان أكثر ما يحز في نفسه رؤية زملائه بعد معركة دامية وقد فقدوا جزءاً من أطرافهم.. كان

يبكي لرؤيتهم وهم يتوكؤون على أطراف إخوانهم ويخفي وجهه بكلتا يديه حرصاً منه على أن لا يراه أحد يبكي عندما يبكي.. ويوم استشهد صديقه سعيد في المعركة، وأزيز الطائرات يشق عنان السماء، وقصف المدافع يكاد يصم الآذان، وهو بجانبه على ظهر الدبابة لم يعد يذكر شيئاً إلا أن صديقه قد استشهد.. وخرج إلى المعركة ليعود إليها من جديد بعد أن أودع جسد صديقه يداً أمينة من رجال فرقته..

وهو يعرف بأن الليالي التي تلت مصرع صديقه، كانت بالنسبة إليه أكثر إيلاماً، حتى كاد فيها يزهق روحه بيديه، ولكنه لم يستطع ذلك لأن إيمانه بالله هو الذي جعله يعدل عن فعلته تلك.

ومرت الأيام والمعارك على أشدها وهو في أتونها صامد القلب قوي الإحساس.. وإنما يمضي إلى الهدف في سرعة عجيبة، ثم يعود وهو لا يدري كيف عاد..

ذكريات مرّت به، في تلك اللحظات القصار، في لمح البصر فعاد وعيه الباطن يرددها في قسوة مريرة، وكأنه يطعن قلبه هذا الذي يخفق بخنجر مسموم، وصحا من هواجسه على كلمات صديقه تلك التي أحس بوقعها الأليم في نفسه: ثم ماذا بعد هذه الكآبة؟

وضحك من قلب مكلوم.. فخرجت ضحكته جوفاء لاروح فيها ولا إحساس.. مجرد ضحكة تقليدية أراد أن يطمئن بها أصدقاءه على أنه هو هو لا يزال ذلك الإنسان الذي لا يهاب الموت ولا مبضع الجراح، أما في قرارة نفسه فقد كان غير هذا.. لقد تبلورت إحساساته كلها في ساقه المريض، فغداً سينتهي كل شيء.. سيمضي إلى غرفة العمليات بقدميه ثم يعود لا يدري.. فالمفروض أنه سيعود على أعناق الرجال.. وعندما يصحو من تأثير البنج سيتحسس بيديه كل شيء وسيعرف كل شيء..

وراق له أن يعود من جديد إلى سابق تصوراته.. فرأى كيف أصيبت ساقه بدمل صغير لم يعره أية أهمية في البداية، وإنما مضى يجري ويلعب هنا وهناك، يأخذ من البهجة في يومه ما يستطيع أخذه.. فاشتد عليه المرض فلم يأبه له.. هل سيقضي عليه مجرد دمل بسيط أصاب ساقه؟ لا وألف لا! وإلا لماذا لم تقض عليه تلك

القنبلة التي نزلت عليه ذات يوم أخذت صديقه وتركته هو؟

ومرت الأيام وساقه كما هي حتى جاء اليوم الذي لم تستطع فيه ساقه أن تحمله.. جاء ذلك اليوم على غير ميعاد بعد أن تأنق وتزين فهو بدعوة لزيارة صديق عزيز عاد للوطن بعد غربة طويلة..

ولأول مرة في حياته يحذر فيها من الذهاب لحفلة يدعى إليها.. ومضى إلى التلفون وهو يجر ساقة في تحامل كبير.. وطلب صديقه لينهي إليه في كلمات قصيرة أنه متعب جداً لا يستطيع الحضور، ولكن صديقه لم يكن من أولئك الذين يرضون بالاعتذار وإنما جاء بنفسه مع نفر من رفقائه ليروا بأعينهم لماذا لم يحضر.

وكان بينهم صديقه المحتفى به.. ونظر إلى ساقه ثم قال:

ـ لماذا لم تذهب إلى الطبيب لتقول له إن ساقك في خطر؟ لا أظنك تحس به.. ولو أحسست به لما فعلت ما فعلت..

ونسوا جميعاً الحفلة وأخذوه إلى المستشفى ليقبع في إحدى غرفه ينتظر عيادة الطبيب. جاء الطبيب، ليعلن خطورة الحالة، فالحالة تستدعي عمل كشف إجماعي.. وجاء الأطباء الثلاثة، وبدأ كل واحد منهم يفحص ساقه المريضة على حدة، وكان الصمت يخيم على المكان، وبعد دقائق خرجوا جميعاً إلى غرفة أخرى ليتداولوا الأمر بينهم.. وجاءه طبيبه الأول ليعلن في إصرار رأي زملائه.

لقد أحسّ ساعتها بعد أن تلقى النبأ بخيبة أمله في هذه الدنيا، فغداً أو بعد غد سيخرج من المستشفى ولكن بعد أن تجرى له عملية كبيرة.

عملية لا يدري كيف سيخرج بعدها إلى هذا العالم لأنه سيخرج بعكاز أنيق..

أما ساقه فستبقى هناك في المستشفى، لأن الأطباء قد قرروا ذلك، وقرارهم هذا في صالحه.

فهو يعلم ضمناً بأنه ضائع إذا لم يوافقهم على رأيهم.. وعلى هذا فقد وافق، ووافق على أن تجرى له عملية بتر الساق المريضة..

لأن الحياة تريد منه أن يدفع ضريبة الحياة..

والسبب كما ترى..

دمل بسيط !

أنا الخير

من أنا؟
وأين ولدت؟
ومن هو أبي؟
كلمات غريبة تطلّ من بين ذاكرتي في إصرار غريب!
تنتظر الجواب دون أي جدوى!
لماذا؟
لأنني لا أدري من أنا؟
وأين ولدت؟
ومن هو أبي؟
ومن هي أمي؟
لقد وجدت هكذا؟
وحدي في الحياة دون عائل أو نصير!
لماذا؟
لا أدري!!
وإنّما كل الذي أدريه صورة باهتة لمعالم طفولتي البائسة!
يوم كنت هناك على الجبل برفقة أتراب لي أرعى غنمي في هدوء مريب.

حتى اللعب ذلك الذي كان الأطفال من أترابي ينشدونه على جوانب البئر كنت أنا أربأ بنفسي أن أجاريهم فيه.

كنت أمضي بعد أن يشرب الغنم ويرتوي أدبّ على الأرض اليابسة في نشاط الخامل!!

أرمي الأفق بنظرة كبيرة وفي عيني بقايا دمعة حائرة،هي مثلي لا تدري لماذا انطلقت هكذا من مآقيّ!

وشيخي ذلك الذي كان ينهرني دائماً، عندما أناديه يا أبي..

كان في انتظاري ليقصّ عليّ قصة غريبة!

فهو على فراش الموت قد يقضي نحبه بين لحظة وأخرى!

وفي ساعات الموت يحلو الصدق!

وكنت أنا من جانبي أحب أن يجلو لي تفاصيل حياتي السابقة.

ولكنه مضى بعد أن حدثني بأمر الشويهات التي أرعاها دون جواب لأسئلتي المتكررة!

لماذا؟

أيشفق عليّ الشيخ من ماض، أم إن هناك أسباباً قضت عليه أن يلزم الصمت؟

صور ومناظر، وأحلام وآمال ودموع تتلوها دموع وهو لا يلين، لا يرعوي، لا يريد أن يقول، لا يريد أن يتكلم، بل يريد أن يمضي بسري وسره!

لماذا؟

لست أدري!

أترى في القادم المجهول ما يبين السر أو يظهره؟

أم قضي علي هكذا أن أعيش دائماً دون أن أعرف؟

وأنا، من أنا؟

إنسان بلا ماض، بلا حاضر، بلا مستقبل...

حتى ذكريات الطفولة البائسة التي كنت أجترّها مرت دون أن تودع في خلايا نفسي ما يثير إلا كوامن الشجن.

أين أنا من عهد شيخي المسكين وشويهاتي الضعيفة؟

أين أنا من مراتع الصبا ومرابع الخلان،

أولئك الذين كنت أنظر إليهم من خلال منظاري القاتم؟

أين أنا هنا في هذه الدار الكبيرة العريضة، بين إخوان لي يثرثرون عن ماضيهم ويتطلعون إلى مستقبلهم في لهفة لينطلقوا من عقال الأوامر، وأنا ـ وإن كنت قلقاً بعض الشيءـ إلا أنني أنظر إلى هذه الحقبة من تاريخ حياتي نظرة ثانية.

لقد وجدت الأب في شخص مدير المدرسة، ووجدت الإخوة في شخص زملائي، ووجدت الراحة في ظل سريري الأبيض الأنيق!

لم أكن أحلم في يوم من الأيام أن يكون حالي خيراً مما كان..

ولكنني قلق!!

ذكريات طفولتي تطل من بين الذكريات، حزينة على شيخي الذي قضى نحبه ومضى وسري يرافقه.

لقد احتوى القبر بالنسبة لي شيئين هما عندي أغلى من الحياة نفسها، احتوى القبر كل معالم حياتي الماضية.

وقد تقولون بأنها أنانية مني أن أذكر سري قبل شيخي، ولكنها الحقيقة!

فأنا في أمسّ الحاجة لمعرفة الحقيقة وإن كانت مرة، فلماذا بخل عليّ شيخي المسكين؟

واستسلمت لسلطان النوم القاسي الرهيب بعد أن كان ذهني يحيلني إلى دنيا أخرى غير هذه الدنيا.

دنيا غريبة، مليئة بالخير والشر معاً...

وهناك، عند مدخل المدينة الكبيرة، أطل رأس جندي مسلح يريد أن ينهرني أنا الفضولي سائلاً:

ـ إلى أين؟

ولكنني أجبته دون وعي أو إدراك:

ـ لا أدري.

وأنا صادق، فأنا، في هذه الحياة، لا أدري ولا أعرف، وإنما أمضي هكذا إلى الغاية والهدف دون أن أعي سوى أنني أمضي، ولو كنت أدري أو أعرف لعرفت من أنا، وابن من.

وعاد الصوت ثانية يجلجل في أذني متوعداً قائلاً:

ـ أمجنون أنت؟

ولكنني ضحكت:

ـ كلا...لست بمجنون، وإنما بائس، فقير، لا يملك من دنياه (شروى نقير)!

ولم تنفع إجابتي تلك عند الجندي القاسي القلب، وإنما عادت أسئلته القاسية تحيط بي وتحدق فيّ في منتهى الشدة. ولم أملك إلا أن أجبته بكلمة واحدة كانت بمثابة فرج لي، انطلقت كلمتي حتى بلغت أذنيه.

ورأيت يد الجندي الصلبة تمسكني لتعينني على المضي في طريقي بعد أن عرف مني من أنا..

فأنا الخير

نعم...

أنا الخير، وأنا الخير، لأنني إنسان...

وهكذا عرفت من أنا، عرفت تماماً بعد أن غابت عن ذهني سنوات وسنوات.

عرفتها وقد لفني النوم بردائه بعد أن جهلتها وأنا يقظ ساهر.

عرفتها، فآمنت بأن هذه الدنيا تريد منا الخير، الخير جميعاً.

العبقرية الصامتة

ليته يستطيع الإفصاح عما يدور في خلده!

ليته يقولها حقيقة تعيش في فؤاده، معلّقة بأمنيات عذاب هي جلّ همّه في الحياة!

في إنسان أمضى حياته كأبي الهول الصامت

لا يشكو.. ولا يعتب وإنما يتألم في صمت ويتعذّب في هدوء!

لأنه من أولئك الذين جبلوا من طينة أخرى، لا تهين ولا تلين وإنما تمضي في عزم وفي قوة لا تعرف الدعة ولا السكون، وإن كان يغلف حياتها السكون والدعة..

أين هو من الأمس القريب؟

والأمس القريب بالنسبة إليه خمس عشرة سنة، أمضاها هكذا يفتح فمه، ثم يقفله دون أن يقول شيئاً!

لا لأنه لا يفقه ولا يعي ما سيقوله، ولكن لأنّه تعوّد الصمت فما عاد يفيده النطق في شيء!

أين رداء الأمس وجمال الماضي

من سكون اليوم وهدوء الليالي؟

لقد فقد كل ذلك يوم عرف الهدوء والدعة والسكون سبيله إلى نفسه!

وإن كانت نفسه قلقة متبرمة ضيقة إلى أبعد حدود الضيق!

وأفقه الواسع ضاق ذرعاً فما عاد يحتوي إلا أحلام الماضي تتوارد في شبه ذكريات حالمة تثير في نفسه السخرية والإشفاق على

ضياع معالمها من نفسه..

كان كالغريق الذي أنقذ بعد فوات الوقت ليجد نفسه تائهاً مرة أخرى في غيبوبة الصدمة..

وهو إنسان ضائع!

تاه عن طريقه في هذه الحياة فما عاد يدري إلى أين يسير!

لقد فقد القدرة على التفكير بعد أن تشعبت الأفكار في وعيه الباطن تحكي صوراً وألواناً من حياة سابقة كريمة إلى صور أخرى متفاوتة بالألم.. متعددة الجوانب..

وأجد خياله في أن يتذكر أول يوم أخذه والده ليعرض حالته الصحية السيئة على كبار الأطباء!

لقد ألبسوه أجمل ملابسه، وحملوه في سيارة والده الفارهة، وبجانبه والده ووالدته وإخوته الصغار!

كانت أمه من أولئك اللواتي يجدن الراحة في أن يشعرن أبناءهن بالحنان الكلي والجزئي يعرفنهم بالاطمئنان على راحتهم.

وتذكر كيف ربت الطبيب بيديه المتغضنتين على وجنتيه في إشفاق مهذب لمس آثاره واضحة في عينيه الضيقتين!

لمس آثاره في الهمسة وفي الكلمة الصغيرة وفي الحديث المقتضب.

لمس آثاره في وجه والده ذلك الذي كان يترجم الكلمات.. كلمات الطبيب على صفحات وجهه الأبيض وأنفه الوقور..

وعاد يومها من حيث أتى بلا فائدة فقد كانت كلمات الطبيب التي قرأها على وجه والده دليله على أنه ضائع!

لم يكن ينتظر أن يتعرف على نتيجة الفحص من والده أو والدته..

لأنه كان قد عرفها، عرفها هكذا دون أن يقولاها.

عرفها بإحساسه العميق!

هز رأسه في ألم دون أن يدع معالم وجهه تنبئ عن معرفته تلك..

وفكر طويلاً بينه وبين نفسه، ثم اختار أخيراً أن يخفي كل آلامه!

يجترها بينه وبين نفسه!

وبدأ يمثل دور الطفل اللاهي الذي لا يهمه من الدنيا إلا أن يلعب..

أما في قرارة نفسه فقد كان إنساناً آخر غير ما يظهره.

كان يذرف الدمع مدراراً عندما يخلو إلى نفسه،

لا سيما عندما يصل بتفكيره إلى هناك!

إلى فترات الدراسة بين الفصول، وهو يستمع إلى كلمات المدرّس غير المفهومة في نظره لأنه لا يسمعها!

كانت الكلمات تصل إلى ذهنه أشبه بالهمس الذي يشوبه اللغط فلا يستطيع أن يفرق بين الأصوات المختلطة التي يسمعها من أفواه إخوانه الطلاب عندما يداعبونه بكلماتهم في فترات الاستراحة..

ولكنه أخيراً استطاع أن يجهد تفكيره في طريقة جديدة يستطيع أن يتفهم دروس أساتذته فاستطاع أن يتابع بعد جهد حركات مخارج الكلام وهي ترتسم على الشفاه تعلن عن الكلمة والجملة!

وعندما وصل إلى تلك الدرجة من القدرة على الاستيعاب ارتاح كثيراً إلى توفيقه..

فهي طريقة وإن كانت مجهدة بعض الشيء إلا أنها شيء جميل بالنسبة إليه!

فهي دليل الجهد المبذول للغاية والتوفيق المدهش للهدف..

واستمرأ طريقته الجديدة..

وبدأ يتفهم كلّ ما يدور حوله!

وجاء الامتحان ليضيف إلى انتصاراته جديداً!

فقد استطاع أن يكون أول فصله!

حتى والده ذلك الذي كان يحسّ شفقته عليه، شعر يوم جاء بهذه النتيجة الجديدة بأنه ينظر إليه اليوم بإكبار مشوب بالإعجاب لا الشفقة!

وارتاح أخيراً لهذا الرأي..

وابتدأت البسمة تشيع على شفتيه اعتزازاً وفخراً وتيهاً!

كيف لا، وقد استطاع أن يفوز أخيراً رغم كل المبكيات؟

ومضى في حياته الجديدة متناسياً أنه أصمّ، ويوم تسلّم شهادته الجامعية أحسّ بأنه نجح.

ولكن إلى أيّ حد سيستقبل الحياة الكبيرة!

لا يدري فقد ينتصر..

وقد لا ينتصر..

ولكنه يريد أن ينتصر..

يريد أن يذلل هذه العقبة الكأداء التي رافقت حياته!

ويوم تقدم للامتحان برفقة أتراب له كانوا يريدون الوظيفة الكبيرة لأنفسهم نهاه والده في أن يمضي معهم في هذا الشوط خوفاً من أن يفشل.

وقد كانت لدى والده تجارة واسعة يستطيع أن يعمل فيها، ولكنه فضل العمل الجديد على العمل في بيته التجاري!

وخرج من الامتحان وعلى شفتيه ابتسامة النصر.. كيف لا، وقد استطاع أن ينالها بسهولة ودون أية مشقة..

ومضى في عمله الجديد يسجل الانتصار تلو الانتصار، حتى كان اسمه يطغى على مركز والده التجاري.

وفي ذات يوم، أرادت له والدته أن يزف إلى فتاة قريبة من بنات عمه، ففاتحت ابنها في هذه الرغبة، ووافق وفاتح عمَّه الذي أعلن موافقته أيضاً على هذا الزواج ومباركته له.

ولكن كانت هناك إنسانة ترى أن ارتباطها بهذا الاسم عمل لا يليق، ولكنها لا تملك أن تفصح لأن التقاليد والمجتمع يمنعانها من أن تقول رأيها ولكنها قالت رأيها له وله وحده!

ويوم سمع حديثها أحس بدوار عنيف في رأسه وشعر بأن الدنيا قد أظلمت أمام عينيه!

ولكنه لم يدارِ ويوارب وإنما طمأنها قائلاً:

ـ سأنزل عند رغبتك!

ومضى لوالدته يعلن رفضه لهذا الزواج الذي أرادته دون إبداء الأسباب!

مضى بعد أن عرف بأن انتصاراته كلها لا تساوي في نظره هذا الرفض..!

وعندها علم حقيقة حياته!..

فهو إنسان أصم!!

لا يسمع وإن كان يعي!!

والنساء لا يرغبن في الرجال الذين لا يسمعون، وإن كانوا ناجحين في حياتهم!

وهكذا تأكدت له حقيقة حاله،

فهو إنسان ضائع، لا ترضى بزواجه ابنة عمه القريبة..

إنسان ضائع!

يجتر ذكريات حياته السابقة بما فيها من جمال وألم وضنى وعذاب!!

وهنا تفتحت عبقريته!

فبدأ يعمل.. ويعمل

ليصل إلى القمة!

سريعاً وسريعاً جداً...

زغرودة الفرح

غداً أو بعد غد، سيتركها بمفردها وحيدة بعد أن كان يشيع في جوها وبيتها شيئاً من الضجة العارمة، فهو من أولئك الذين لا يهدؤون لا ليلاً ولا نهاراً.

سيتركها بعد أن شارفت هكذا على نهاية انتصاراتها في الحياة، فهي قد جاهدت كثيراً حتى استطاعت أن تراه.

جاهدت كثيراً وسهرت الأيام والليالي تنتظر عودته من رحلته الطويلة.

سيتركها هكذا فجأة ودون مقدمات، سيتركها بعد أن آلت على نفسها أن تحتفظ به هنا في بيتها.

لقد عملت المستحيل حتى استطاعت أخيراً أن تجعله يركل بقدميه ذلك المنصب الكبير الذي اختير له لأنه ـ أي المنصب ـ سيفقدها إياه، سيفقدها رؤيته هنا بين جدران بيتها الصغير، وكانت تشعر بالغصّة عندما تذكر كل تلك الملابسات التي لازمت الوظيفة الجديدة، فهو لكثرة سفره وتجواله كان حريصاً في أن يذهب، لا رغبة منه في البعد عنها وإنما لأن آماله وأحلامه التي راودت خياله أحس بها تتجسد أمام ناظريه فجأة. وكما أتت ذهبت والأيام التي تلت رفضه للوظيفة الجديدة تتذكرها بتفاصيلها ودقائقها. وتتذكر تلك الكشرة العريضة التي كانت تنطبق على جبينه والتي كان يحاول أن يخفيها عن عينيها.

تتذكر كل لك ولا تنساه، لأنها عاشت أيامها تلك في أتون المعركة التي بدأت تشعر بها وهي تضطرب في نفس وليدها الحبيب.

واليوم وبعد أن سعت هي بقدميها إلى هذه النتيجة، نراها تفكر بالغد الرهيب تفكيراً يكاد يطغى على كل شيء ما عداه في نفسها.

والأيام التي مضت أيام دراسته وتدريبه هناك في جامعات مصر، ثم في أمريكا. الأيام السود التي لا تدري كيف مضت لأنها كانت قد أحست لقسوة وضعها في نفسها لفراقه تعود اليوم وهي راضية مطمئنة لتأخذ ابنها إلى مكان آخر غير بيتها. لماذا؟

لقد كلت قدماها وهي تغدو في ذهابها ومجيئها إلى دار صديقتها سعاد حتى رضيت أخيراً سعاد بفكرة تزويج ابنتها لابنها ولكن. . .

والتفتت إليها غير مصدقة ما قيمة هذه اللكن التي تريد أن تضعها صديقتها كشرط لزفاف ابنها؟

واستمعت لصوتها وهي ترد بالإيجاب على كل شروط صديقتها ومضت تزف إلى ابنها موافقة صديقتها وشروطها.

ترى كيف رضيت بهذه الشروط الغريبة التي أملتها عليها صديقتها؟

وهكذا مضت أيامها لا تحمل هماً، وإنما تمضي في عزم لإنهاء جميع الترتيبات اللازمة لفرحتها الكبرى، ليوم زفاف ابنها..

واليوم وبعد أن انتهت كل تلك الترتيبات وغدا الحلم الجميل حقيقة واقعة تتجسد أمام ناظريها مطلة في خوف تارة وفي وجل تارة أخرى.

لماذا تهاب الغد وتنظر إليه هذه النظرة الغريبة؟

لماذا تهاب هذا الغد كما تهاب حيواناً كاسراً مفترساً؟

لماذا تشعر به هكذا وكأنه سيطوقها بيد من حديد؟ وأحست بيد قوية تطبق على قلبها وكأنها تريد أن تعتصره. تريد أن توقف دقاته هذه التي تعلن في همس عن وجودها على ظهر هذه الأرض، وشعرت بالدوامة الرهيبة وهي تلفّها في تياراتها، فلم تعد تدري إلا أنها ستفقده، ستفقده هكذا سريعاً بعد أن أعطته كل وجودها وحياتها.

وارتاحت بعض الشيء عندما طاف بذاكرتها خيال الماضي البعيد يوم زفت هي إلى والده، ألم تترك بيت والديها لتقطن داراً جديدة لا تعرف فيها أحداً؟

وتذكرت أيامها. كيف مضت تلك الأيام وما فيها من حلاوة وطلاوة؟

ولكن، أين اليوم من الأمس؟ إنها في خريف العمر، ولكن ألم تكن والدتها في خريف العمر أيضاً يوم فارقتها؟

ورأت بعين خيالها أفراح زفافها والقبلة الجائعة تلك التي أودعتها وجنتها والدتها العجوز وكلمات والدها لا تزال تطنّ في أذنيها، وهو يوصيها بأن تكون برّة بزوجها وعائلته. ترى هل عملت بتلك النصيحة؟

كل تلك الأفكار والتخيلات مرت بذاكرتها، وهي في جلستها تلك على كرسيها الصغير واشتاقت لأن ترى كل تلك الذكريات فأمسكت بألبوم الصور ومضت تتصفحه حتى إذا ما أتت على صورة وحيدها يوم جاء إلى هذه الدنيا ابتسمت من كل قلبها ومرت بيديها على الصورة الصغيرة لتنزعها من ذلك الألبوم العتيق، وبعد أن ارتاحت لما فعلت أمسكت إطاراً صغيراً أنيقاً أودعته تلك الصورة، وعادت البسمة تشيع في وجهها ارتياحاً لما فعلت. ترى هل ستقبل زوجة ابنها هذه الهدية الصغيرة؟ لقد احتفظت بهذه الصورة لتهديها إلى حفيدها في المستقبل، ولكنها اليوم تستبق الحوادث فترى أن من واجبها أن تعطيها للزوجة المقبلة، بدلاً من أن تحتفظ بها في ألبومها، أليست ستأخذه هي الأخرى فلا أقل من أن تأخذ هذه الصورة كذلك.

وعاد إليها أنسها بعد أن استقرّ رأيها على ذلك. وأحست بالشباب يتفجّر في شريانها فهي لم تعد تلك الإنسان العجوز وإنما هي غيرها قبل لحظات.

وتناهى إليها صوت ابنها وهو يناديها فمضت إليه جذلة وألقت بذراعيها على كتفيه وأودعت وجنته المكتنزة قبلة طويلة أذابت فيها كل حبها وحنانها، أما الغد فلم تعد تخافه، وإنما ستستقبله أكثر إيناساً، وأشد سروراً، وإن كان الغد سيحمل وليدها الحبيب إلى عشّه الجديد.

ستكون أكثر إيماناً بسنّة البقاء، تلك التي اختارها الله لنا جميعاً، فلم تعد تفكر في شيء اللهم إلا في بزوغ فجر يوم الغد حين ستبدأ أفراحها الجديدة، أفراحها التي ستكون بداية خير بالنسبة لها، ولابنها الحبيب الذي سيزف في الغد لعروسه الجميلة، أما فكرة ابتعاده عنها، فقد زالت تماماً عن مخيلتها، لأنها ستراه سعيداً، وهذا هو الذي تريده في هذه الدنيا، أليست هذه هي سنّة البقاء؟ وساعتها انطلق صوتها يزغرد في أرجاء البيت الكبير، زغرودة كبيرة، وكبيرة جداً..

في مهب الريح

سيدي..

بالله عليك ما الذي يدفعني إلى التفكير؟ أهي نعمة الماضي أم نقمة الحاضر، إنني غدوت متثاقلاً كئيباً يعيش على فتات الماضي وذكرياته اللذيذة. كم ثارت نفسي للوضع الحالي الذي أعيش أنا فيه، وكم تساءلت: وما فائدة الحياة بأوحالها التي أنا متردّ فيها؟

وكم هي كبيرة تلك التضحية التي أنا قادم عليها؟ إنني مشوق جداً لأن أقول وأنفث، وأكتب لمن أعرف ومن لا أعرف، ليعلم الجميع كم أنا معذب، وكم لاقيت في دنياي هذه من مشاق ومتاعب.

لقد كانت لي سلواي في هذه الحياة، أما كيف ضاعت مني، فذلك لا أدريه! يجب أن أتشجع وأن أكتب إليك لأن جروحي كثيرة كما يقولون ـ الضرب في الميت حرام ـ ولكنني أنا القائم على تقويم نفسي، أنا الماضي السادر في تعذيبها بالسخرية والاستهزاء.

من كان يظن أنني سأقوم يوماً بهذا الدور، بمعاقبة نفسي وشرح حالي لمن أريد ومن لا أريد؟ ولكن ما دمت قد بدأت فلا لزوم للعودة، ولا لزوم للنكوص ولأمضِ قدماً فيما ارتأيته.

من كان يظن أنني سأتدهور وأتدهور وأمضي في خطى سريعة متلاحقة إلى الهاوية؟ من كان يظن بأنني سأغدو كما أنا الآن حائراً، متلهفاً، متعباً، نصباً؟

كان الجميع يلقبونني بالرجل السعيد، وكانوا يضغطون على

الكلمات عندما يسمعونني كلمتهم تلك. كيف بالله عليك يغدو السعيد شقياً؟

كنت ممن يقول الناس عنه بأنه ولد وفي فيه ملعقة من ذهب، أما كيف ضاعت تلك الملعقة، فهذا ما ستعرفه فيما أسطره إليك.

كم تتملكني الدهشة وتأخذني الحيرة ويسددني الارتباط فلا أدري كيف أبدأ بحديثي معك على هذه الصفحات من ورق، قد أكون محموماً، أو مجنوناً، وقد أكون كليهما فقد تصيب الحمى من أصيب بالجنة.

لقد بدأت حياتي بعد انتهاء أجل والدي في الرابعة والعشرين من عمري وفي نفسي الطيبة وفي قلبي الرحمة، وكما تعرف كان للحياة ضريبة، وكنت بحكم الحاضر رجلاً يراد منه سداد كيان أسرة وملء فراغ أبيه.

ومضيت في عملي مكان أبي في تجارته الواسعة، تحدوني الرغبة في أن أقدم للفقراء نصيبهم من الرحمة ونصيبهم من عملي، وكنت أضارب في الأسواق لأفوز بكل ما أستطيع الفوز به مضحياً في سبيل ذلك براحتي.

وكثيراً ما كنت أشتري لأبيع لا لأكسب، أطعم ذلك الجمهور الذي يريد الطعام وكنت أستهزئ بكل خسارة تأتيني من ذلك العمل، إذ كنت أظن بأنَّ الأيام لا بد مواتية، وأن ما أغرسه لا بدَّ وأن أجنيه، كانت تلك خطتي في حياتي بعد أن تسلمت عمل أبي ومهامه.

كنت أقوم بكل شيء أعلم بأنه من صالح هؤلاء الذين نسميهم الفقراء، وكنت أسرّ عندما يتناهى لسمعي تلك الكلمات التي يقدر لي أحياناً أن أسمعها وأنا في طريقي إلى مكان عملي.

كان الجميع يشكرني من كل قلبه على ما أقوم به من خدمات في المجتمع. وقضى لي الله وأنا في الثلاثين من عمري زوجة صالحة جميلة مثالية شاركتني سعادتي وبهجتي، كنت أنتشل نفسي من موجة العمل لأقضي بين جدران داري أويقات سعيدة بقربها، أستنشق عبير شذاها العطري، وأستمع لحديثها العذب، وصوتها الرقيق.

وسارت أيامي هكذا، وبلغت سعادتنا أوجها واكتملت لنا كلّ مباهج الحياة.

كنت كمن يشعر بأن التعليم ملك يمناه والسعادة في يسراه. ولكن ما الفائدة من المضي إذا كان الحاضر أشد إيلاماً، وأقسى وقعاً على النفس، وأبغض على القلب؟

نعم! ما الفائدة من تذكر كل ما فات؟ لقد تبددت كل ثروتي نتيجة ما كنت أقوم به من عمل، نتيجة ما قدمته لهذا المجتمع من خدمة، إذ إن الخسائر توالت، وأصبحت في غمضة عين ريشة في مهب الريح تتقاذفها كيف شاءت، وأنّى شاءت.

ومضت زوجتي غضبى إلى دار أبيها، وفي يدها الوليد الذي بلغ من العمر أربع سنوات تندب حظّها العاثر، ومضى الناس يثرثرون على حسب العادة، ويقولون: ها هو المفلس الذي أضاع سعادته.

أما أنا، فها أنا ذا أجترّ الذكريات اجتراراً، لم تكن لي رغبة يوماً ما في أن أطلب مساعدة أحد، ولم يكن لي أمل إلا أن أقوم بمساعدة الجميع، أما الآن، فها أنا ذا في حاجة إلى المساعدة ولكن نفسي تأباها، وفي الغد يكون البريد قد حمل في جوفه إنساناً كانوا يتغنون بسعادته أنه سائر إلى المجهول إلى أقصى ما يستطيع من السفر ليقوم بخدمة الناس ولكن في نطاق أضيق.

إنني سائر لأتسلّم مهام وظيفتي الصغيرة أيها الصديق، وعليَّ أن أنجح فيما أخفقت فلا أعود كريشة في مهبّ الريح، إذ إنّني الآن أكره الريح، أكرهها من كل قلبي.

أم غريب

أم غريب، امرأة نصف، في أواخر العقد الرابع من العمر، تجيد ألوان الدعاية عن بضاعتها و تدلّك في غير ما جهد على جودة النوع من البضاعة المعروضة أمام عينيك.

جاءت إلى بلادنا مع مجموعة كبيرة من المخلوقات الآدمية التي تأتي دوماً من مصر والهند وجميع البلدان الإسلامية، واستمرأت الحياة في المدينة بعد مصر.

وكان لزاماً عليها أن تعيش وأن تدفع بنفسها في تيار الحياة، وأن تختار المهنة التي تجيدها، فاختارت بيع الخضر، وكانت هي نفسها خبيرة في ذلك النوع من التجارة، ساعدتها في ذلك إقامتها الطبيعية في (أبو الغيط) بلدها الصغير من قرى مصر، شأنها في ذلك شأن فلاحة مصرية عريقة في مهنتها، فاكتسبت لدكانها الصغير شهرة واسعة في أنحاء المدينة، ساعدتها هي الأخرى في بناء دار صغيرة في حي بعيد عن ضوضاء البلدة.

تستقبلك عادة بابتسامة صغيرة لا تعرف معنى الحزن، كما تستقبل عادة أيّ ضيف من ضيوف دارها الممتازين، ولا تدعك تمرّ من أمام دكانها الصغير دون أن تشتري ولو شيئاً صغيراً إرضاءً لرغبة (أم غريب).

مررت بها في طريقي إلى الدار، فاستوقفتني بلفتة صغيرة مشيرة إلى الرمان ماضية في ترديد الأغنية المصرية الشعبية:

يا منفلوطي يا رمان والنبي عربي يا رمان

ولم أكن أعهد في صوت أم غريب حلاوة في السابق، لأنها

كانت تختار دائماً الأغنية المناسبة لكل نوع من أنواع بضاعتها، ولكني هذه المرة أحسست بالحلاوة، وهي تردد تلك الأغنية.

كان للأغنية، وليس لأم غريب، ذكريات عزيزة على نفسي مرت بي في تلك اللحظة كشريط سينمائي لأيامي الجميلة في مصر أثناء الدراسة.

وقفت وكأن وقوفي كان إيذاناً بإنهاء الأغنية، ولو لم تكن لي رغبة في الوقوف إلا سماعها واشتريت منها بعض الرمان بعد أن أسمعتني قصة حياتها باللهجة المصرية التي لم تغير منها الأيام والسنون التي قضتها في الحجاز شيئاً، وكانت أم غريب في كل هذا كعادة أبناء بلدتها لا تدع موقف النكتة يمر دون أن تصحبه بنكتة موفقة خففت نوعاً ما من حالتي النفسية في ذلك الحين.

ولو أردت استقصاء السرّ في تلقيبها (بأم غريب) لوجدت أنها لم تختره، ولم يقترن بمولد ابنها هذا الاسم ولكن لطول المدة ولهفتها الشديدة على غربتها عن وطنها الأصلي، ولكونها تُسمع كل من يريد قصة حياتها الأولى كان هذا كلّه هو السبب في تلقيبها بهذا الاسم.

وفي قصة (أم غريب) نوع من الغرابة يكتنف بعض أجزائها، نوع من الغموض، لا أدري له سراً إن لم تكن تودّ هي أن تدرجه بذلك الخيال الذي يعود عليها بالنفع من ناحية الدعاية.

ولكنني في هذا الموضع سأبسط القصة للقارئ العزيز، وهي، أي أم غريب، لا تفتأ تردد هذه القصة في أي مجلس، سواء كان ذلك في الشارع، أم بالدار، وسواء كان هذا لرجل الشارع أم للموظف، أو التاجر الغريب أو القريب.

تكلّمك وفي عينيها نوع من التأثر، يدعوك لتسبح معها في هذا الجو المقبض التي تحدّثك عنه، ولا تتركك أبداً دون أن تستدرّ الرحمة من قلبك أو الدموع من مآقيك.

وأم غريب هذه تكاد تعرف جميع زبائنها وعائلاتهم. وهكذا فهي بمثابة قاموس عائلي ضخم، ولكنها للأسف لم تتبع تلك الطريقة التي لا أشك في أنها لو عملتها لما ربحت شيئاً بحكم التقاليد في المدينة، وإن كانت هذه المهنة تدرّ شيئاً كثيراً على من يقوم بها في مصر، مهنة الخاطبة. وأظنها قد فكرت هي

في هذا النوع من التجارة، إلا أنها وجدته غير ذي ربح، إذ قيل لي إنّها يوماً جرّبت أن تزوّج ابنتها لرجل اختارته بنفسها كان من أكبر زبائنها ففشل زواج الابنة.

وهكذا خرجت أم غريب من تلك التجربة بلا شيء.

وأم غريب مصابة بالتناقض فهي مصابة بالنسيان عند استلام النقود، ولكن ذاكرتها قوية عند التحصيل.

فقد يحدث أن تطلب منك أم غريب ثمن البضاعة، بعد أن تكون قد دفعت لها ولا ترضى أن تتركك إلا بعد أن تسترضيك، وهذا لا يحصل بالطبع إلا بعد أن تتأكّد هي بطريقتها الحسابيّة الفذّة بعد أن تعدّ جميع الغلّة ويتضح في دماغها كل ما باعته وعندها تتركك وأنت راضٍ، لأن أم غريب، تعرف كيف ترضي زبائنها. ولا أدري لم هذا التناقض!

نسيان ومعرفة إجادة ضبط، والبعد عن إجادة الضبط، اللهم، إلا شيئاً واحداً خرجت منه وهي أنَّها تودّ أن تغالطك أو "تستكردك" على حدّ لغة العامة من المصريين إن استطاعت لذلك سبيلاً.

وقصة أم غريب البسيطة دون أي غرض ما أو خيال تتلخص في ذلك الشطر السعيد، كما تلقبه هي، لولا منغصات الحياة. فما استوى عودها، ونضج جسمها واكتملت أنوثتها حتى قدّر لها أن تلتقي بزوجها حسنين في قريتها بلبيس التي تبعد عن القاهرة عدة كيلومترات، أحبت حسنين، وأحبها، وكان لها بمثابة الروح، وكانت هي له بمثابة الجسد.

وحسنين هذا رجل مفتول العضلات قوي الجسم، عشقت فيه أم غريب قوته ورجولته، وأحبت فيه شبابه وفتوته وكان يلقب في بلدته (بالجدع) لفتوته وبطولته، وكان جميع أبناء القرية يهابون حسنين لقوته، ليس له عمل سوى أن يستأجر فقط كحارس خاص لأية ضيعة، يريد صاحبها أن يحفظها ضد سطو اللصوص.

وتزوجت أم غريب حسنين هذا واستولدها فتاة وفتى كانا لها بمثابة الرئتين اللتين تستنشق بهما الهواء، لا تطيق بعداً عنهما فهي تصحبهما دوماً معها في الضيعة، أو أثناء حلب الجاموس، أو لجلب الماء من الترعة، وكذلك عندما

يعنّ لها زيارة أحد الموالد والأفراح. وكان لأم غريبة زغرودة رنّانة تجيد إخراجها من فيها دونما كلل أو تعب أو تكلف، لذا كان الأصدقاء دائماً يستعينون بها في الأفراح وفي الأتراح إن لزم الحال.

وتوفي حسنين نتيجة عمله برصاصة من يد أحد اللصوص أثناء سطوهم على الضيعة التي يحرسها وبدأ القدر يعاند أم غريب.

وأبت أم غريب أن تتزوج بعد حسنين فقد كانت ترى جميع الرجال الذين في القرية لا يعادلون شطر حسنين، واستعاضت بدلاً عنه الإشراف على تربية ولديها تربية صالحة كما كانت تقول.

وشاءت هي أن تزور مولد السيدة، في العام الذي بلغ فيه سعيد السادسة من عمره، وكان هذا أول عهدها بالقاهرة، وسافرت إليها بعد أن اصطحبت معها كل ما تستطيع من بضاعتها الجديدة بيع الخضر.

وفي ميدان السيدة، بسطت (أم سعيد) على الأرض بضاعتها تنتظر من يشتري وتركت ابنها وأخته يلعبان بالقرب منها.

وعندما تصل بك أم غريب إلى هذا الحد من القصة، تراها تبدأ في النحيب والعويل.

كانت ترى في سعيد ثروة موفقة إذا ما اشتدّ ساعده، وكبر، وكانت تأمل في أن يخلفها في بيع الخضر، ولكن القدر في هذه المرّة كان ضدّها إذ جاء الترام يحمل الموت في عجلاته فأخذ الصبي منها، وهكذا فارق ابنها سعيد الروح وارتمت هي على جسده تنتحب وتئن.

ومن يومها لم يطب لها المقام في القاهرة، إنها تودّ أن تعطي نصف أو جميع ما تملك لقاء أن تغادر البلد.

وصممت وسارت مع الحجاج إلى الحج والزيارة، وطاب لها المقام في هذا البلد الطيب، بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تصحبها فتاتها.

هذه هي قصة أم غريب، قصة امرأة جاهدت لتعيش وكافحت لتبعد عن كل مؤثرات الحزن السابق، أفلا تراها جديرة بأن تقرأها أيها القارئ العزيز؟

ممنوع الزيارة

إليه صاحب القلب الكبير أهدي هذه القصة:

عجباً لهذه البطاقة الصغيرة التي يضعونها على باب غرفته، يفصلون بينه وبين صديقه الكبير. ذلك الذي يحمل له في قلبه أكبر الودّ. لماذا يضعون في طريقه هذا الحاجز؟ لقد نسي أنه مريض، ولكن لماذا هو مريض؟ إن مرضه على ما يبدو ليس على هذه الدرجة من الخطورة.

يقولون إن مرضه في قلبه، وقد صدقوا فهو دائم الخفق، لم يزل يعيش لأصدقائه، ولكلّ من يعرفه، يعيش بفكرة واحدة هي أن يحسن للجميع وأن يكون للجميع.

وأمثال صديقه هذا نادر الوجود، لأنه خلق ليعطي، ليهب. خُلق من معدن غير معدن هؤلاء الناس، لأنه فنان بطباعه وأخلاقه وبكل شيء، حتى قلبه ذلك الذي يقولون عنه بأنه مريض كان دائماً يحنّ إلى إسداء الخير، يقتلع الشوك من الطريق ليلقي بزهوره البيض الجميلة أمام الجميع.

وهذه اليد التي تمتد، إنها يده تريد أن تمسك بمقبض الباب لتفتحه على مصراعيه. يريد أن يلقي بساعديه القويتين بلهفة الصديق ليحتوي صديقه وليراه ويسعد بكلامه وبحديثه، ولكن يده تعود لتأخذ مكانها الطبيعي دون أن تستطيع فتح الباب الموصد، فقد طالعت عيناه ورقة صغيرة تحمل جملة واحدة كتبتها يد فتاة، وينظر إلى الخط الدقيق نظرة المتفحص. ربّاه إن الخط على ما يعتقد كتب في حالة حزن، حزن ميت. وإلا لماذا كل هذه التعصبات؟

ونظر إلى الخلف ليرى فتاة أنيقة في لباس أبيض، وكان صديقنا

يهوى الجمال في كل منظر حتى بين روائح الديتول والمطهرات، ولكنه لم يشعر بالابتسامة المشرقة التي ظهرت على وجه الفتاة بل ولم يعرها أي اهتمام فهو مشغول بأفكاره، وألقت عليه تحية المساء، فأجابها دون أن يعيرها أية لفتة. نظرت إليه ثم قالت:

ـ ترى ما الذي أصابك؟ لا بدّ أنك مريض.

أشار إلى قلبه وقال:

ـ مريض، هذا الخافق الذي ينبض في قوة، ترى ما الذي أصابه؟

وأعطته كرسيها ليجلس عليه، ثم أسند رأسه على حافة الكرسي ينتظر أن يجد المخرج من هذه الأفكار التي تحيط به وتقفل عليه سبل حياته.

وما هي إلا دقائق، خيّل إليه فيها بأنّه مريض فعلاً، مريض ويحتاج إلى الراحة والعناية، وإلا ما هذا الذي يعانيه؟ وتذكر أنه قدم لرؤية صديقه على قدميه.

وتذكّر بأنّ صديقه هو الآخر، قد قدم إلى المستشفى على قدميه في استشارة صغيرة عقب إحساس تعب كان قد ناله.. ولكن!

وظنّ أنّه ربّما هو الآخر مريض، وإلا لماذا يضعون هذه البطاقة الأنيقة ذات الخطوط المتعرجة على باب صديقه إن لم يكن مريضاً؟

وقال في صوت يشبه الهمس:

ـ سيدتي الصغيرة، قولي للطبيب بأن في مستشفاه اليوم رجلاً شقياً ومريضاً.

وذهبت الفتاة تبحث عن الطبيب لكنها لم تجده لأنه كان في حالة إسعاف. وحمد الله على ذلك وإلا لتغير الحال.

ابتسم في صفاء، قد يستطيع بهذه الحيلة أن يتمكن من زيارة صديقه ويؤنس وحدته.

ولكن كيف سيكون الحال عندما يتأكد الطبيب بأنه هو الآخر مريض ومريض جداً؟

وفكّر، أليس من المعقول أن يكون هو الآخر مريضاً دون أن يشعر؟ ولكن ترى كيف سيكون الحال وما هو مرضه وكيف سيعالج، وإلى أية درجة سيكون شفاؤه؟ تذكر بأن التفكير بالمرض إحدى وسائل المرض نفسه. وسمع صوت الفتاة يقول له في حنان غريب:

ـ تفضل هنا يا سيدي.

وأطاع الكلمة المهذبة ومضى إليها، إلى الغرفة الأنيقة ذات الأثاث الأبيض.

وتطلع حوله. إلى أين هو ذاهب وبقدميه؟ ورأى الطبيب بملابسه البيضاء يستقبله في هدوء ومدّ يده يصافح بها الطبيب.

سأله الطبيب:

ـ ممّ تشكو؟

قال:

ـ لا أدري.

قالها بصفاء وحسن نية ودون أن يدري فعلاً ما يشكو منه.

وسمع صوت الطبيب ثانيةً يخاطب فتاة المستشفى:

ـ عجباً تراك قد أخطأت، قد يكون المريض سواه.

ولكنها، أي الفتاة، طمأنت الطبيب قائلةً:

ـ ولكنه قبل دقائق كان يرجو ويلحّ في أن يراك.

وامتدت يد الطبيب لتمسك معصمه وأحسّ بدقات قلبه وهي تسمع بوضوح:

ـ مصيبة، ترى ما الذي أصابه؟

ونظر إليه الطبيب نظرة ذات مغزى، وقال:

ـ لماذا أعصابك تبدو كأنها محطمة، تعال واجلس وأسمعني قصتك، قصة مرضك.

وازدرد صديقنا ريقه، وقال:

ـ ولكنها قصة طويلة فأنا لا أشكو مرضاً معيناً، وإنما..

وسكت وقال الطبيب:

ـ فهمت أنت لا تشكو مرضاً، ولكنك تحسّ به، وإحساسك بالمرض كما أظن هو ضرب من الوهم لأنني على ما أراك فيه من صحة، أخالك واقعاً تحت تأثيره. هذا الوهم الذي يسيطر على خيالك وأفكارك، ويجعلك تشكو مما ليس بك.

وضحك صديقنا في خلده ونظر إلى وجه الطبيب:

ـ ترى هل هذا هو الطبيب نفسه الذي يقوم على علاج صديقه؟ لا بدّ أنّه

هو، وإن كان، فهو على ما يراه حصيف التفكير بادي النجابة يربط الحوادث بعضها ببعض ثم يتكلم فيفيض ويستنتج، لا بدّ أنّه طبيب ذكيّ.

وعاد صوت الطبيب يقول له في اعتداد:

ـ لا عليك هي أوهام تسيطر على تفكيرك، فتجعلك تشكو دون علّة. خذيه يا فتاتي إلى إحدى الغرف الصغيرة الأنيقة. هل لديك مانع في أن تبقى هنا يوماً أو بعض يوم؟

ولم يستطع أن يجيب فآثر الصمت ومضى برفقة الفتاة إلى الغرفة الأنيقة. وبدأ يضع ملابسه في عناية في ذلك الدولاب الصغير. ثم أمسك بقرص التلفون يديره في هدوء ليطلب بيته ليقول لهم إنه مريض ومريض جداً.

جاؤوا له بما طلب من ملابس وبقي يتحين الفرصة ليتحدث إلى الفتاة التي دخلت غرفته لتضع بين يديه صينية الأكل، فقال:

ـ ترى كيف حال صديقي فلان؟

قالت:

ـ إلى أحسن، هل تعرفه؟

وابتلع ريقه، وخرجت الكلمات من بين شفتيه دون أن يدري وسمع صوت الفتاة، وهي تقول:

ـ غريب .

سأل:

ـ وما هو الغريب؟

قالت:

ـ ما قلته الآن.

قال:

ـ ولكني لم أقل شيئاً.

قالت:

ـ لقد سمعتك وأنت تقول الآن بأنك مريض لأن صديقك مريض هو الآخر.

قال:

ـ لا، هي كلمات خرجت دون وعي، وفي الحقيقة لست إلا إنساناً أصبح يحسّ بالمرض دون أن يعرف حقيقته.

وتركته بعد أن شكّت في قواه العقلية، ومضت دون أن تستمع إلى بقية قصته، أما هو فقد عاد إلى سريره، يفكر فيما آل إليه حاله، وأخيراً استطاب الفكرة فما عليه إلا أن يمضي بقدميه إلى البطاقة الصغيرة فيقتلعها من مكانها ليلقي بها في سلة المهملات. وبعد أن يتم له ذلك يدخل إلى غرفة صديقه دون استئذان. وذهب وقد خلبت لبّه أفكاره، ذهب بقدميه وألقى بالبطاقة في سلة المهملات ثم نقر الباب بإصبعه ليستمع إلى صوت صديقه قائلاً:

ـ ادخل.

ودخل ورأى صديقه، وهو مسجى على الفراش، واحتضنه وبدأ يواسيه، وكأنه قد اطمأن على حاله.

وما هي إلا دقائق حتى عاد الطبيب إلى غرفة صديقه ليراه واستغرب وجوده ثم قال في كلماته المنتقاة لفتاة المستشفى:

ـ أعتقد أن صديقنا المريض هذا لا يقرأ وإلا لرأى كلمتي التي كتبتها على البطاقة.

وعندها أجاب:

ـ لا وجود لها يا صديقي الطبيب فأنا كما ترى مريض جاء يعود صديقه المريض.

قال الطبيب:

ـ ألم تقرأ ما في تلك البطاقة؟

قال:

ـ بل قرأتها وقرأتها ثم قذفت بها لتذهب ولتمضي إلى السلة الفارغة.انظر.

ونظر إليه الطبيب، فقال:

ـ انظر إنه بخير فهو كما ترى من وقتها منذ تلك الساعة ساعة أن ألقيت بكلمة (ممنوع الزيارة) بخير يا صديقي الطبيب.

ذكريات الطفولة

لقد آثر الوحدة، بعد تفكير في هذه الوحدة القاتلة المميتة، آثرها بنفسه، بعد أن نأى بنفسه عن جميع أصدقائه، أولئك الذين كانوا جميعاً بالنسبة إليه شيئاً ضرورياً تقتضيه الحياة، هذه الحياة التي لم يعد يراها لذيذة.

لقد فقد القدرة على التفكير فيما آل إليه حاله، لأنه لا يدري سبباً لهذه الوحدة، إلا أنه قرر ـ هكذا فجأة ودون سابق مقدمات ـ أن يعيش بمفرده، كإنسان فقد كافة مقومات الحياة.. وإن كان لا يزال يتشبث بها.

ومضى يبحث بينه وبين نفسه عن الأسباب التي جعلته هكذا يختار هذه الوحدة القاتلة المميتة.. ولكن تفكيره هداه أخيراً إلى أن من الواجب عليه أن يمضي فيما قرر.

واختار أقرب الطرق المؤدية لغايته تلك، فهو يعلم جيداً بأن أصدقاءه لن يدعوه هكذا يعيش في دنياه التي اختارها بإرادته بل ولا شك سيفسدون عليه وحدته ويدخلون حياته مرة أخرى، ولكنه كان قد أوصد بابه فما عاد يحب أن يفتحه لأي إنسان حتى وإن كان هذا الإنسان صديقاً عزيزاً على قلبه.

ترى لو كانت أمه اليوم تعيش معه، هل ترضى له هذه الوحدة التي يعيش فيها؟

وجاء الجواب حبيباً إلى نفسه، فهي على ما يظن لن ترضى إيذاء شعوره، حتى إن كان هذا الإيذاء سيكون في صالحه.

وتراءت له طفولته تلك... وراودت خياله صور الماضي يوم كان

طفلاً غريراً يلهو مع أترابه ولا يضن بلعبه وهداياه على أحد منهم لا سيما صديقه فريد..

وفريد هذا الذي ينأى اليوم بنفسه من لقائه، كم كان يكنّ له في قلبه من حب وودّ..

ترى لماذا تغيّر؟ هل غيرت السنوات التي مضت من صداقته لفريد وإعزازه له؟

وجاءه الجواب هذه المرة يؤكد بأن حبه لفريد لم يزل كسابق عهده به، وإن كانت قد نالته بعض الشكوك..

وبدأ يتفلسف في الحب والكراهية، هذا الذي لم تعرف الكراهية قلبه لإنسان حتى اليوم.. وتأرجحت الأفكار وتضاربت في وعيه الباطن لتعيد في أحلامه اليقظة صورة غريبة معبرة فيها بعض الرواء لأنها صادرة من الأعماق، أعماق نفسه التي فقدها ساعة ضعف.

ولكنه يقسو ويمعن في قسوته وإيلامه على نفسه بقرارات صارمة، لا يرضى عنها بديلاً، فهو قد جبل على المحافظة على آرائه مهما كان نوعها، سيان لديه إن كانت ضرورية تقتضيها الظروف، أو عارضة يزيلها الزمن.

وهو من أولئك الذين إذا جمعوا أمرهم على شيء هيهات أن تستطيع إثناءهم عنه أو إرجاعهم إلى غيره..

لقد فقد جميع أصدقائه، لأنه كان يريد أن يبعد بنفسه عنهم.. وهو السبب، وقد تكون هناك أسباب أخرى ولكنها ليست كل الحقيقة.

لقد غمرته إحساسات شتى وهو يعرض أمر زواجه على بعض أصدقائه، فمنهم من كان يحب أن يجامله يقول له:

ـ ليت لي تلك الأخت التي ترضى أنت أن تزف إليها..

ومنهم من يقول له:

ـ يا بختها ستسعد ولا شك لأنك لن تعرف غيرها مهما رغبت.

أما فريد فكان قوله خنجراً مسموماً أصاب به قلبه وكبد الحقيقة في آن واحد.

لقد قال له:

ـ لا تفكر في هذا الأمر، فالزواج بالنسبة لأمثالك أمر صعب التحقيق، متأرجح الكفة بين السعادة والشقاء، لأنك..

وصمت.. وهو في نفسه لم يكن يرغب في أن يتم صديقه كلمته تلك، لأنه يعرف السبب فهو إنسان لا يبصر، فقد نعمة البصر منذ سنوات طوال، حتى كاد لا يفرق بين الليل والنهار لطول المدة.

وتصور نفسه وهو طفل يوم قدّر له أن يصاب بمرض خبيث اضطره أخيراً لأن يلبس نظارة سميكة، وكان الأطباء ينصحونه دائماً بتبديلها بين عام وآخر، حتى جاء اليوم الذي فقدت فيه النظارة قدرتها في أن تريه معالم الطريق إلى بيته ففارقها وهو آسف على فراقها، وألقاها هكذا فجأة على الأرض لتصبح شظايا عديمة فائدة.

ومن يومها وهو يتوكأ على عصاه يتعرف بها إلى معالم الطريق إلى بيوت أصدقائه وأصبح له الحق في أن تستقبله أية امرأة ما دام هو لن يستطيع التعرف إلى معالم وجهها بعد أن كن يخفن أن يسمع أصواتهن في السابق.

وأحس بعض الراحة في دنياه الجديدة، فهو وإن حرم نعمة البصر إلا أنه كسب عطف النساء جميعاً.

ونازك تلك الفتاة التي كان يطربه سماع صوتها كانت هي الأخرى تستقبله في دارها عندما يأتي لزيارة صديقه دون خوف أو وجل..

ويوم قدر لقدميه أن تزلا، ساعدته نازك بأن مدت له يدها الأنيقة لتنتشله من سقطته تلك، ومضى يشكرها بلسان متلعثم لا يدري ما الذي سيقول.

صور تجرّ صوراً تمر بذاكرته أشبه بيقظة طويلة متسلسلة، حوادث كاملة الفصول لأنها قصته، هو الذي يعرف كل حوادثها وفصولها. واليوم سيحرم من هؤلاء الأصدقاء جميعاً، سيحرم نفسه من لقائهم والاستمتاع بحديثهم لأنه عز عليه أن يعرف رأيهم في حقيقته كأعمى فقد نعمة البصر.

ترى ماذا سيكون الحال لو عاد إليه بصره؟ أيعود ذلك الإنسان الكامل الذي يستطيع أن يعيش في مجتمعه دون خوف أو رهبة؟

أيستطيع أن يجد مركزه اللائق بين أصدقائه وهو الذي لم يقدر له أن يمضي في تعليمه حتى درجاته النهائية؟ أم إنهم سيعودون فيعيرونه بأنه إنسان جاهل فقد كل مقومات الحياة بما فيها من درجات علمية وغير علمية؟ أو أنه سيعود كما كان في داره يعيش على ما يرد إليه من مال كان قد تركه له والده على هيئة عقار، يعطيه إيراداً كافياً؟

معضلة.. ولكن أين هي المعضلة؟ ليكن ما يكون ويعود إليه بصره ويومها سيعود إلى أصدقائه وسيخرج من عزلته، ويعود إليهم وإلى لقائهم وإن كان سيحرم من لقاء أولئك النسوة والاستماع لأحاديثهن.

ورفع رأسه وفي عينيه دموع غزيرة، وراح يتنهد من قلب بائس، وقال:

ـ ربي.. أنت وحدك القادر الخالق تستطيع أن تعيد لي بصري.. وأنا أعبدك، خلقتني ولا تنساني.

وسمع في تلك اللحظة صوت المذيع وهو يقرأ قصة أعمى عاد إليه بصره بعد عملية جراحية أجراها له طبيب كبير.

وبدون وعي، أقفل جهاز الراديو ومضى إلى سريره وأحلام اليقظة تداعب ذهنه الكليل..

وفي الغد صمم على السفر إلى أوروبا لعيادة طبيب أخصائي كان قد سمع عنه.. ورتب أمره على السفر، ومضى إلى ألمانيا وفي نُفسه إيمان كامل بأنه سيعود في هذه المرة وقد عاد إليه بصره.

كانت فترة حرجة في حياة صديقنا، وهو لا يدري كيف ستكون النتيجة، وإن كان الطبيب المعالج قد طمأنه على أنها ناجحة.

وفي غرفة العمليات كانت إحساساته مزيجاً من الخوف والأمل، وإن كان الأمل أقرب إلى قلبه في تلك اللحظات.

وعاد إلى غرفته وإلى جانبه فتاة لا يفهم كلماتها، لأنه يجهل الألمانية، ولكنه يشعر بأنها تفيض حناناً ورغبة في إسعاده.

ومرت الأيام بطيئة مملة، واستقبل مع الصباح أول شعاع واضطرمت في نفسه انفعالات شتى، فهو مشفق على أن يفقد النور الذي رآه، ومضى

كالأطفال يضحك من كل قلبه وهو يرى الصور وقد تكاملت في عينيه هذه المرة ولم يصدق بأنه قد عاد إليه بصره هكذا فجأة.

ونظر إلى من كانوا حوله، واستقر بصره على الطبيب المعالج ورأى الابتسامة وهي تكبر على شفتيه، وأحس بأن عليه واجباً تجاه ذلك الطبيب، وأقبل إليه يقبل وجنتيه المغضنتين في إحساس صادق بالجميل الذي صنعه بالطبيب.. وعاد ينظر إلى الفتاة وهي في ملابسها البيض وقد اكتسحت ملامحها إحساسات إنسانية، وشعر بأنه قد ولد من جديد..

وهكذا أمضى فترة النقاهة بين جدران المستشفى وفي قلبه آمال وآمال.. وكانت صورة نازك فتاة الأمس تطل من جديد في مخيلته.

ومضى يقارن بينها وبين فتاة المستشفى.

ترى أيهما أجمل من الأخرى؟ ولكنه لم يستطع أن يقرر لأنه لم يكن قد رأى نازك حتى تلك اللحظة..

وغادر المستشفى، وودعه الطبيب بعد أن رجاه أن لا يجهد عينيه في عمل أو كتابة.. ومن المستشفى تناول تذكرة سفره ليعود إلى بلده مرة أخرى إنساناً آخر قد تغيرت نظرته إلى هذه الدنيا ومن فيها.. لقد طلق وحدته تلك من يوم اكتحلت عيناه بمرأى شعاع الصباح وهي تأخذ طريقها لعينيه..

وفي جدة، استقبله أصدقاؤه مرة أخرى، وبدأ فريد ينظر إليه في إعزاز وإكبار، وساعتها قال لصديقه:

ـ ترى ما رأيك الآن؟ أتراهنَّ يرفضن الاقتران بي اليوم؟

عندها ضحك فريد وقال متلعثماً:

ـ لا.. لا يا صديقي لم أكن أقصد..

فقال له:

ـ لا عليك سواء عندي قصدت أم تقصد، لقد أعادت إلي بصري كلماتك ولولاها لكنت كما عرفت أعيش أجتر ذكريات الطفولة.

الزوجة الجديدة

أتراه يحلم أم إن إحساساته جميعها قد تبلدت فما عاد يدري لهذه الحياة من طعم رائق في فيه؟ لقد فقد القدرة على العيش، على التفكير فيما آل إليه حاله.

أين هو اليوم من الأمس القريب؟ لقد فقد كل مقومات الحياة، منذ الأمس فقدها، وكان يأمل أن يفقد عمره ولا يفقدها ولكنها ذهبت هكذا من بين يديه فجأة وبدون سابق إنذار.

فقدها وهو يعلم بأنه سيدفع ثمن ذلك غالياً ولكن.. السعادة، البناء، كلمات لا معنى ولا وجود إلا في قاموس أولئك الذين يتشدقون بها. فالحياة لا تعطي دائماً، وإن أعطت فلبعض الوقت على أن تأخذ، وهي دائماً تهب باليمين لتأخذ بالشمال وهكذا بالعكس.

ذكريات مرت به وهو قابع في سريره في غرفته الصغيرة تلك التي شاهدت أجمل ليالي العمر يوم زف إلى زوجته سعاد. سعاد! أين هي الآن؟ ذهبت، مضت هكذا دون وداع. ذهبت بعد أن تركت له خمسة أطفال كان أكبرهم في السادسة من عمره ووليد الأمس، الأمس القريب ذلك الذي يناديه في حرقة وصوت بكائه يعلو من الغرفة الصغيرة. لماذا يبكي؟

ألا يكفيه ما أصابه بمولده؟ لقد قضت سعاد نحبها ساعة رأت عينا وليده نور الدنيا. قضت نحبها وهي ترجوه أن يرأف بالطفل ويعمل على راحته.

حقاً ما أجمل الأمومة! حتى في ساعات الموت لا تنسى الأم وليدها بل تتذكره أكثر من أي وقت آخر.

وهو يتذكر كلماتها المتقطعة وهي تضع رأسها الجميل على كتفيه. يتذكرها حتى بعد أن أصبحت الكلمات أشبه بالهمسات.

مسكينة سعاد كانت ترجوه أن يفكر طويلاً وطويلاً في سعادة الأطفال وفي راحتهم حتى ساعة قضت نحبها وأغمض عينيها بيديه، ومضى إلى الكرسي ورأسه يكاد ينفجر.

لقد أحس بالدوامة وهي تقتلع جذور السعادة من داره في ذلك اليوم، ولكنه تحامل على نفسه فلم يبكِ، وإنما تألم من كل قلبه.

كان ألمه من ذلك النوع القاسي العنيد الذي يقتلع الأخضر واليابس، وهكذا عاش سنواته الأربع مجرد إنسان لا يعرف للسعادة طعماً، وتبلورت إحساساته في شيء واحد هو أن يضع جميع إمكانياته لسعادة هؤلاء الصغار حتى أصبح أكثر من أب وأم لهم.

ولكنه اليوم يحلم، وحلمه عبارة عن كابوس مزعج غريب، وهو لم يعتد هذه الأحلام في حياته.

أين هو من تلك الأيام الخالية التي مرت هكذا سراعاً بعد أن رسمت في حنايا ضلوعه أشكالاً وصوراً من تلك الصورة التي لا تنسى عن الحياة وطعمها الرائق؟

لماذا تغير الحال هكذا وتبدل سريعاً؟ السعادة والهناء كلمات جميلة لكنها لا توجد اليوم في قاموس حياته بعد أن كانت كل حياته.

لماذا؟

ألأن سعادته ذهبت، مضت؟

وهؤلاء الأطفال المساكين الذين يعيشون اليوم في ظهرانيه يحاول أن يخفي عنهم أحزانه فلا يحسون بها، ولكنه مع كل هذا يرى سمات الحزن مرسومة بوضوح وجلاء على وجوههم الصغيرة الدقيقة الملامح والقسمات.

وهناء تلك الفتاة الصغيرة التي يحبها من كل قلبه هي صورة دقيقة لملامح سعاد الأصلية التي عاش معها أيامه الجميلة في وفاق وصفاء لا يعكر صفوها شيء.

ما بال الصغيرة تبكي اليوم وبحرقة وبصوت يشوبه الحزن والانفعال؟ وأمسك بيد الصغيرة يهدهدها.

- ترى ما الذي أصابك؟

ولكنها فضلت أن تمضي في بكائها بدلاً من أن ترد عليه، ورأى هو أن يبحث عن العلة.

هل عرفت المسكينة ما يريد أو أنه مجرد إحساس فقط؟ وهذا هو ابنه البكر فريد ما باله يطالعه بهذه النظرة الغريبة؟ لعله قد أحس بما عزم عليه أبوه؟

فريد هذا الذي كان يندفع للقائه عند عودته إلى الدار، لماذا لا يستقبله اليوم كعادته لماذا؟ ومضى إليهم بعد أن ارتفع صوته بأسمائهم جميعاً.

والتفوا حوله في شبه حلقة وبدأ يلاطفهم في حنو أصيل. وما هي إلا لحظات قصار حتى سمع صوت ابنه يخترق طبلتي أذنيه قائلاً:

ـ ثم ماذا يا والدي؟ لقد سمعت أنك قد عزمت على الزواج؟

وأحس بكلمات ابنه كسياط تلهب ظهره، فهو فعلاً فكر بينه وبين نفسه بالزواج، ولكنه لم يفض بهذه الفكرة لأحد سوى أمه العجوز.

ترى هل قالت شيئاً عن رغبته تلك للأولاد؟ ولم يشأ أن يفاجئ ابنه بما اعتزم فقال له:

ـ وهل في زواجي ما يلحق بكم الأذى؟

ـ إنه مجرد سؤال، فأنت على ما أعتقد تنوي الزواج ولكن تأبى علينا أن نشاركك الفرحة.

وعادت الابتسامة تأخذ طريقها إلى شفتيه ففريد ذكي يجيد الحديث.

وسمع همهمة أطفاله فقال لهم:

ـ ثقوا بأنني لن أتزوج إلا المرأة التي ستكون لكم نعم الأم.

وانبرت هناء للحديث فقالت في كلمات صبيانية:

ـ ولكن قد توفق زوجة المستقبل فترضيك ثم تعود إلى طبيعة المرأة فترى أننا لا نشاركها فيك فلا ترضى ويومها ستقع الواقعة.

وفكر قليلاً فيما قالت، إلا أنه لم يشأ أن يؤمن على كلام ابنته بل طمأنهم جميعاً بأنه قد اختار فأحسن الاختيار.

وما هي إلا أيام زف فيها صديقنا على عروسه الجديدة وكانت كما أراد ولكن؟

لقد أحس في أول ليلة بنى فيها مدى الغلطة التي ارتكبها، فهي تنظر إلى أولاده على أنهم شياطين سيفسدون حياتها الزوجية.

كان ينتظر منها أن تحنو وأن ترفق بهم، ولكنها كانت على العكس، وهكذا مضت أيامه بعد أن خلت من طعمها الرائق في فمه فقرر أن يعود من جديد لأبنائه فقط فهو لا يستطيع أن يوفق بين الزوجة الجديدة والأطفال الصغار.

العودة

قالوا لها وهي تدخل إلى دار والدها بعد غيبة طويلة:

- هنا مكانك، فأنت من هذه الدار، بدأت حياتك فيها، وستعودين إليها كلما ألمّ بك ما يحزن.

وكانت ساهمة واجمة لا تدري بماذا تجيب هؤلاء الذين كانوا ينتظرون أن تجيب عليهم بكلمة واحدة.

وتدخلت والدتها في الحديث لتأمر أختها الصغيرة في أن تخلي لها حجرتها التي كانت تقطنها يوماً ما قبل أن تتزوج.

وبدأت تجمع أشياءها الصغيرة لتودعها تلك الحجرة، وحملت الخادمة شنطتها الكبيرة ووضعتها بجانب السرير القديم، ونظرت إلى الغرفة كل ما فيها لا يزال على ما عليه لم يتغير فيه أي شيء. فهناك في ركن الغرفة تقبع خزانة ملابسها القديمة التي استغنت عنها يوم زفت إلى زوجها.

بدأت تتصور حفل الزفاف وكيف مر وكيف استقبلت نبأ زفافها يوم جاء إليها زوجها يحمل في يديه بعض الهدايا بمناسبة عيد زواجها. أشياء كثيرة مرت بذاكرتها في تلك اللحظة، ولكن أين هي الآن من كل ذلك؟

وبدأت ترتب ملابسها. ولم تشعر بالدموع وهي تترقرق من مآقيها في سرعة وانهمار ومضت إلى الخزانة القديمة تودعها أجمل ذكرى عزيزة عليها، ثوب زفافها، واختارت أن تغلفه بملاءة أنيقة وأودعته بعدها خزانتها بكل عناية ثم تنهدت من قلب مكلوم.

وبعد أن انتهت من عملها ذلك تهاوت بجسمها الصغير على

ذلك السرير الذي بدأ يهتز دون أن تدري سبباً لاهتزازه، وخفق قلبها وازداد وجيبه وبدأت نبضاته تسمع بوضوح. إنها بعيدة عنه، زوجها الحبيب أبعدته عنها الظروف.

ورنت إلى الأفق في نظرة ساهمة، لم يكن خلافها هذا هو الأول مع زوجها بل سبقته خلافات كثيرة ولكنها كانت تقضي عليها بحكمتها وحسن تدبيرها، وكانت تقول دائماً بأن الخصام إذا أتى عليه الليل ولم يذهب زادت حدته، فكانت تجاهد في أن لا يبقى لذلك الخصام أي أثر.

وكانت تعلم بأنها في كثير من الأحيان على حقّ في اختلافها معه، فزوجها وإن كان شاباً من أولئك الذين أوتوا حظاً من العلم، إلا أنه لا يزال ينظر إلى المرأة نظرة السيد للمسود، وكانت تتحمل كل ذلك في سبيل أن لا يسمع أحد بما جرى بينها وبينه، وكانت تقول لنفسها إن الخصام بين الزوجين هو ملح الطعام لا تصفو الحياة بدونه.

ولكنها في هذه المرة نسيت أو تناست هذه الفلسفة فهي إنسان قبل كل شيء وكانت تسمع من صديقاتها بأن أزواجهن هم الذين يبدؤون بفض النزاع إلا هي.

وحاولت أن تنال ذلك القسط من الاهتمام، فجمعت ملابسها ومضت إلى دار والدها ولم تكن تظن بأنها ستفكر فيه، وكانت تعتقد أنه من السهولة بالنسبة إليها أن تنساه.

وبدأت تحدث أختها أحاديث صبيانية، إلا أنها كانت تفكر في مصير أختها لولا سمح الله قدر لها أن تعود إلى دار أبيها بعد أن تتزوج مثلها هي.

وطفرت الدموع ثانية من مآقيها وأحست الصغيرة بما يخالج نفس أختها فقالت لها:

ـ أنت تبكين يا أختي؟

وحاولت أن تخفي دموعها وأجابت أختها بكلمات مقتضبة، ولكنها لم تحسّ بها وهي تمضي إلى خارج الغرفة.

وعادت الأخت الصغيرة مرة أخرى لتضع على (الكومدينو) الصغير صورة لطيفة لزوجها، وأشارت إليه بكل هدوء:

ـ أنت تبكين لأنه بعيد عنك، أليس كذلك؟

وأجابت بالإيجاب، فسألتها الصغيرة ببراءة:

ـ ولكن لماذا لم يأت هذه المرة معك وقد كنت دائماً تصحبينه معك عندما تزورينا؟

وبدأت تكلم الصغيرة كلمات بسيطة أفهمتها فيها الحقيقة، وأحست بالحرج وهي تفضي بدخيلة نفسها لأختها الصغيرة.

ونظرت إلى الطفلة فرأتها هي الأخرى تبكي وإن كان بكاؤها بدون ألم أو حرقة.

واستماحتها الصغيرة المعذرة في أن تذهب لتنام.

ووضعت رأسها الصغير على المخدة لترى في غفوتها تلك ملامح عديدة لذكريات جميلة. وفي الصباح سمعت صوت أختها وهي تقول لها إن سعيداً قد عاد وهو يتحدث مع والدتها.

ولم تنتظر أختها لتكمل جملتها، ومضت إلى الخزانة لتنتقي أحد فساتينها تلك التي تعرف أنه يحب أن يراها تلبسه.

وأمسكت بالمشط الصغير وبدأت تسرّح شعرها وفي وجهها ملامح السعادة، لقد عاد أخيراً.

وبدأت تحدث نفسها: هو الآخر لم يستطع أن يبقى بمفرده.

وخرجت إلى الصالة لتلتقي به وقام ليأخذ بيديها في يديه ولكنها فتحت ذراعيها واستقبلته في حنان عميق.

وتناسيا والدتها التي كانت جالسة على الكرسي، وبعد لحظات قالت له:

ـ عفواً سعيد لقد أخطأت في حقك، أخطأت بعنادي وأخطأت بخروجي من داري.

وقالت لها أمها همساً:

ـ ولكن هذه أيضاً دارك أيتها العزيزة.

ودون وعي أجابت والدتها:

ـ لا يا أماه، هذه دارك أنت ودار أبي، أما داري فهي هناك، هناك حيث يكون سعيد.

حيرة واستقرار

إلى ذلك الذي وجد الخير فآمن به، والفضيلة فاقتلع جذور الإثم من نفسه، أقدّم هذه القصة.

قال لي:

ـ لقد وجدتك أخيراً بعد طول عناء فأنت وحدك الذي تستطيع أن تروي قصتي لهؤلاء الشباب من أمثالي الذين كما تعرف يعيشون في تيارات هائلة من الحرمان وعدم الاستقرار.

لقد وجدتك ووجدت جنتي الوارفة أخيراً وبعد طول عذاب وجدتها، كما تخيلت، لا حسب ما سمعت.

وجدتها شيئاً آخر بالمرة عن هذا العالم.

لقد أصبح في نظري يفيض بالحب والتضحية ونكران الذات بعد أن كان مجرد ترهات، شكليات واقعية مرة تحمل أحلام يأتي عليها الصباح فيختطفها مني ثم تذهب أدراج الرياح. وكنت كثير التفكير أولع دائماً بشكليات الحياة ومتاعبها حتى إذا ما تطاول عنقي إلى الزاوية الأخرى بدت أمام عيني الصورة الأخرى القاتمة المجللة بالسواد.

لم أعرف طعم الراحة يوم كبرت وتحملت مسؤولياتي في هذه الدنيا، واضطررت بحكم عملي أن أجاري هذه الحياة فأكذب وأنافق وأتملق.

كنت عندما أضع رأسي على مخدتي الصغيرة أستعرض ما فعلت في يومي من هنات وكبائر. وكان يشوقني أن أعرف الدافع لكل ما

فعلت دون جدوى إلا أنني هكذا خلقت وهكذا عملت وهكذا يجب أن أستمر.

ولم أضق ذرعاً بأصدقاء السوء، بل رغبت في مجالستهم ومؤانستهم فهم ذخيرتي وعماد حياتي وكنت أنتقل من هنا إلى هناك، من قلب هذه إلى قلب تلك أبلور إحساساتي وآمالي في لحظات من سعادة كان ينقصها الفهم أنها لم تكن في يوم من الأيام إلا الشقاء المرير المجسد.

وتراءى لي السراب المجسد مقنّعاً في غلافه البراق فخدعت وخدعت ولم أجأر بالشكوى لأنني لم أكن أعرف الشكوى، وكنت كريشة تتقاذفها أيدي صانعيها يقلبونها بين أيديهم دليلاً واضحاً على مقدرتهم بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون بها.

وكانت شخصيتي تلك المنحلة المفسدة تتراءى لي أنها المثالية التي يجب أن أكون عليها، وفعلت وفعلت وجررت رجولتي إلى مواطن الشك، وآليت على نفسي أن لا أفقد تلك الشخصية المستهترة الغريبة المنفرة لأنني كنت أحب حياتها التي تحياها. وعشقت الظلم وشعرت بأنني بهذه الشخصية القاسية المتلهفة على البطش والكيد أستطيع أن أنال احترامي وخوف الناس مني.

ومرضت فلم أحزن من مرضي كما لم يحزن أحد من أصدقائي على ما أصابني، وقضيت أياماً وأنا في غيبوبة المرض لا يحد من أفكاري المصاب ولا شدة المرض. حتى ساعة رحمة خيل إلي أنها ساعة عذاب فلقد تسامح صديقي إبراهيم، وكان على ما تعرف يكره فيّ أنانيتي وحقدي وما أفعله في حياتي الخاصة، واغرورقت عيناي وأنا أراه في ملابسه البيض يشدّ على يدي بيده الكريمة ويرجو لي شفاءً عاجلاً.

وتكررت زيارته ووجدتني لطول إصابتي أحب الحديث معه.

كان يحاول تقويم نفسي وتطهيرها من أدرانها، وعندما رأى شدة الوعكة علي ساعدني في ارتداء ملابسي إلى المستشفى القريب، وحملوني حملاً إلى الغرفة الأنيقة البيضاء وجاء الطبيب يحمل أمراً عسكرياً في أن ضرورة الحياة تقضي عليّ أن أبقى في المستشفى، وفعلت على مضض ونزلت في إحدى غرف المستشفى الكبير.

ونظرت إلى سريري الأبيض فتذكرت البوهيمية العجيبة التي كنت أعيش فيها.

وجاء الدواء تحمله فتاة كريمة أنيقة في احتشام لتضعه في فمي ولم أكن أستطيع يومها أن أتناول شيئاً بيدي. ومرّت الأيام وهي تسقيني دوائي وأنا أسقيها حقداً وأنانية.

كنت أشكوها لأتفه الأسباب وأشتمها لأبسط الأشياء فهي إذ تنسى باب غرفتي موارباً تجدني أطالبها في قسوة أن تقفله وكانت لا تشكو وإنما تنظر إلي نظرتها إلى ابن أرعن فتحاول أن تخفّف من حدّته دون جدوى.

ونظرت إلى حالي فوجدت نفسي أحسن من ذي قبل، فصحتي في طريقها إلى الشفاء وإن أكن في نصف المرحلة.

وكان العلاج يقتضي إجراء عملية خطيرة بعد فترة راحة وكنت ساعتها في فترات الراحة.

وازداد إيلامي لها أكثر من ذي قبل يوم تحسنت صحتي. كنت أعتقد بلا شك بأنّني أنفّس عن نفسي بما أفعل ولم تكن تشكو لأحد ما تلاقيه مني من مهانة بل كانت ترجوني أن أهدأ وأن أنام في الميعاد المحدد.

إنسانة غريبة ولا شك، وإلا بالله عليك ما الذي ستقوله عنها؟

لقد جبلت على أن تتحمل من المرضى أضعاف ما تحملت مني، هكذا قالت لي وكان عملها يقتضي منها بأن تكون على مزيد من الصبر. وكانت تعلم بأن بعض المرضى تزداد أحوالهم سوءاً وأخلاقهم شراسة في نوبات مرضهم.

ودخلت حجرة العمليات وخرجت منها لأجدها على رأس سريري.

وفتحت عيني ورأيتها تبكي، ولم أكن أعرف لبكائها من سبب حتى عرفت أخيراً فقد كنت ميؤوس الشفاء ومضت جراحي تلتئم وأنا على أبواب الشفاء وفاضت نفسي سروراً ومحبة لما فعلته المسكينة من أجلي.

وصفت نفسي من شوائب الماضي وعدت إنساناً آخر غير الإنسان الأول ورأيت من واجبي أن أشكر الفتاة على صنيعها فقد وهبتني الحياة الكريمة

وعلمتني الصبر على المكاره. وتحدثت إليها فوجدتها عقلاً راجحاً وحكمة بالغة.

كانت تزن حديثها قبل أن تسمعني إياه، وأعجبت بها وزاد سروري وكثر تعلقي ورأيت نفسي أتضايق عندما تكون بعيدة عني.

وفهمت منها كل شيء عنها وعن نفسها وعن عائلتها الطيبة التي تعيش هناك في البلد الشقيق سورية، وسألتها أمراً ثم رجوتها أن تفكر فيه.

لا تفكر أنت كثيراً فيما رجوته ولا تشك في حسن نيتي يا صديقي.

لقد طلبت يدها فلم ترفض وخرجت من المستشفى سليماً معافى وفي ذراعي فتاة كريمة. وعدت إلى داري لأجد كلّ شيء فيها قد تغير، حتى أصدقاء السوء ذهبوا إلى غير رجعة، فلقد عادت لي إنسانيتي وهنائي. وسعدت فيها بداري وأصبحت طبيبتي تصف الدواء لما ينتاب نفسي من شعور آثم حتى قوّمت كل اعوجاج في نفسي الغريبة.

لقد أصبحت إنساناً آخر يعيش لبيته الصغير، ولزوجته الكريمة، وشعرت من واجبي أن أقص عليك قصتي لتكتبها أنت وليستفيد منها الشباب الحائر المفرط في نزواته وأحلامه التي يأتي عليها الصباح فلا يبقى منها شيء ما.

الخطأ الكبير

كان كلّ شيء فيه يثير الدهشة والإشفاق، فهو وقد اكتملت له كل مقومات الحياة إلا أنه لا يريد أن يستمتع بكل هذه المقومات الجميلة.

لقد ودّع شبابه وإن كان سنه في الخامسة والثلاثين، ونسي أصدقاءه وإن كانوا جميعاً يجتمعون في داره يومياً كل ليلة.

وأهمل زوجته بعد أن كفلت هي كل شيء في حياته، وآثر الوحدة والانطواء حتى في المجتمعات الكبيرة التي يقدر له أن يغشاها فهو عبارة عن ظلّ جميل لإنسان طيب يمشي على الأرض دون هدف أو غاية.

وكنت أحس به كثيراً وأنا في طريقي إلى داري يمر في سيارته الفارهة وعلى عينيه منظار قاتم كبير تتركز نظراتي عليه أول ما تتركز وكنت أحتار وأنا أبادله التحية.

لماذا يبدو هكذا؟ هذا الأنيق المعطر من أولئك الذين ولدوا وفي أفواههم ملعقة من الذهب، ترى ماذا دهاه حتى عاد لا يستمرئ هذه الحياة؟ وشقّ علي أن أراه دائماً مقتضباً في حديثه يلقي التحية لا في إهمال كعادة من هم في مقامه دائماً بل في شك وخوف وألم باهت. ولم يقدر لي أن أجتمع به في محفل أو أنفرد به في مكان حتى تلك الليلة هناك عند الطاحونة القديمة بين أطلال الماضي. رأيت صديقنا عوني يرقب الطريق في لهفة وفي خوف.

لم يكن يتوقع أن يراني ولم يكن يحب أن يراه أحد في مجلسه ذاك وكانت حيرة استبدّت به فسدّت السبل في وجهه وكان الفضول

قد أورثني عناداً جعلني أصمم على الجلوس بجانبه، وقد كان.

والتفت إليه لأرى دمعة نديّة تطلّ من تحت نظارته السميكة. وألقيت عليه تحية المساء وأنا متردد وسمعت صوته المتهدج يرد عليّ وكأنه يأمرني بأن أعود إلى الطريق القديم فلا أقطع عليه خلوته.

وأذعنت للصوت في خضوع غريب لم يقطعه إلا منظر طفل صغير يجري على الأرض في اندفاع جنوني يلقاه به ذلك الرجل الأنيق وعندها تسمرت قدماي فلم أشعر بهما وهما تسيران إليه في إصرار وقوة، ورأيت الدهشة والاستغراب يحيطان بالوجه الأنيق وتقدمت إليه في عناد غريب وجلست دون أن أفكر حتى في رفضه لو فعل.

وجلست بجانبه والصمت يلفّ الكون والطفل ينقل ناظره عن وجهي تارة ثم يعود. وسمع صوت صديقنا يسألني:

ـ ثم ماذا؟

قلت:

ـ لاشيء وإنما الفضول وقد استبد بنفسي.

قال:

ـ ولكنني في ساعة راحة كما ترى، وأحبّ أن أقضيها بمفردي.

وساءتني كلماته فنهضت وأحس بما يعتمل في نفسي فقال:

ـ لا عليك عد إلى مجلسك فليس في الأمر سرّ ولا غرابة.

وجلست وكأنني مدفوع لأن أجلس، وسمعت الصوت مرة ثانية يداعب الطفل في هدهدة غريبة. وكانت لحظة عاد بعدها الطفل يجري من أمامي في الطريق الطويل وعينا الرجل تتبعانه في لهفة حتى غاب مرآه عنا.

واستدار إلي ليقول في لهجة مهذبة:

ـ سامحني فقد أكون أسأت إليك.

قلت:

ـ ولكن سامحني أنت فأنا المسيء.

قال:

ـ لا.. لا أنا ولا أنت وإنما هي الأيام.

ونظرت إليه، وقد خلع نظارته السميكة وطالعتني عيناه يشع منهما إشعاع غريب. كان حاد النظرة جميل المنظر في وجهه علائم القوة والطموح وإن أخمدتهما الأيام. قال:

ـ أظنك تريد سماع قصتي.

وكأنني أصبت بالصفاقة فأجبته دون وعي:

ـ نعم.

قال:

ـ ولكنها من النوع الذي لن ترتاح إليه فهي قصة شقاء في شقاء.

قلت:

ـ وهل يعقل هذا؟

وابتسم قليلاً ابتسامة صافية أنيقة مترفعة، وأعدت إليه النظر لأرى متى سيبدأ حديثه فقال:

ـ ستظن بي الظنون ولا شك، وإلا كيف يتفق مظهر رخاء حياتي وحزني في وقت واحد؟ ومن هنا تبدأ القصة أردت أن تسمعها بأذنيك فأنا كما ترى أشفق على هذا الطفل أن يناله ما نال والده من عذاب.

لقد ولدت في بيت عرف كل ساكن فيه طعم الحياة بمظهرها الرائق وإن كانت في الحقيقة أبعد عن ذلك. فوالدي وإن يكن قد زف إلى والدتي عن غير حب لأنه لم يرها فأمه هي التي خطبتها له، إلا أنها هي الأخرى وأعني جدتي، هي التي طلقتها منه لا لسبب إلا لأن والدتي رفضت وجودها في دارها.

وهكذا تركت والدتي دار والدي الكبير لتعيش في بيت أنيق صغير، ذلك البيت الذي يعيش فيه الآن هذا الطفل مع والدته، وكنت أرى والدي لماماً بين فترة وفترة، إلا أنه في تلك اللحظات القصيرة كنت أحس به وهو يفرغ كأس حنانه في كأسي. فقد كان يتحدث إلي بهمومه وأحزانه وما يحسّ به وإن كنت لا أدري في تلك الأيام عن أحزانه شيئاً لأنني في سن لا تعي ولا تفرق. وكانت

والدتي تغرس في نفسي فضيلة حبي لوالدي رغم أنها بعيدة عنه، وقد ظلت موالية له حتى توفيت مع أن الكثير من الرجال تقدموا يطلبون يدها إلا أنها أبت عليهم ذلك وفضلت أن تعيش لترقب ذلك اليوم، يوم أن تعود لدارها الأولى، ولكنها لم تعد لأنها مضت.

وكنت في تلك السن بعيداً عن الديار أتلقى العلم في جامعة القاهرة عدت بعدها لأتلقى الصدمة وحدي وكان والدي في تلك الأيام رجلاً غير الذي أعرفه فلقد أخذت تلعب به وبأفكاره تلك الدخيلة التي أحضرتها له والدته، حتى إنه لم يعد يفكر في رضى والدته.

وسكنت في دار والدي أرقب المهزلة وكان يعزيني أن زوجة أبي عامر لا تلد حتى قضت نحبها وبقيت أنا بمفردي مع والدي وجدتي. وتزوجت امرأة فاضلة متعلمة تجيد الحياة وتعرف عنها الكثير، ولكن زواجي منها لم يعمر طويلاً فقد عدت إلى الدار لأرى جدتي تبكي في حرقة، وقصّت عليّ القصة ورأيت أنّ جدّتي على حق وأن زوجتي على خطأ فرجوتها أن ترعوي، ولكنها فضلت أن تمضي. ومضت إلى الدار الصغيرة بعد أن حملت معها طفلنا الصغير.

ورأيت أن كبريائي قد تحطم فأبت علي نفسي أن أذهب إليها وأعود بها إلى الدار الكبيرة.

وأعاد التاريخ نفسه ووجدت نفسي وقد شددت إلى امرأة أخرى بوثاق الزوجية نتيجة لخطأ أوقعتني فيه حماقة محطمة ورغبة أليمة من تلك الجدة العجوز. وكانت زوجتي صورة طبق الأصل من الأم الراحلة فبقيت في مكانها ترقب الأحداث. أما أنا فكما ترى أشفق على الصغير في أن يزورني في الدار الكبيرة كما أشفق على نفسي في أن تعود فتلين قناتها عندما أزوره في دار أمه، ووجدت أن من الخير أن نلتقي أنا وابني عند هذه الطاحونة لأراه وأراها ويراها ابني ويتذكر بأن الأيام تدور وتدور ليعيد الماضي في صورة بشعة أحياناً. وقد يتعلم الصغير مما أقوله له فيكون أسعد حظاً مني أنا المخطئ الكبير.

وصمت وكانت دمعة أنيقة تنحدر على وجنتي الرجل في صمت مطبق.

ورأيت من واجبي أن أمضي في طريقي فاستأذنته وصوته يصمّ أذنيّ وكلماته الأخيرة تطرق قلبي في قوة وإيمان:

- كل ما أرجوه أن يكون الصغير أكثر حظاً مني أنا المخطئ الكبير.

ومرت الأيام

(إليه.. إلى ذلك الذي قال لي يوماً إن الأيام لن تضمد الجراح أقدم هذه القصة).

أسدلي الستر أختاه فما عاد يغنيك الحزن، إن ذكريات الأعزاء الذين فقدناهم قد تكون غالية ولكنها سنة الحياة: يوم لك ويوم عليك.

قد نمضي نحن إلى تلك الغاية المرجوة ولكن.. قد تكونين على حق وقد لا تكونين، ولكن ما يعنيني الآن هو أن أطمئن إلى أن الأيام وإن كانت قاسية لا ترحم إلا أن فيها بلسماً للنفوس التي أصابها الحزن فلم يدعها تستريح.

أغمضي عينيك أنت أيتها الغالية.. ما جدوى هذه الدموع التي تذرفينها! أو ليس الموت هو بداية الحياة الأخرى بلذائذها وحلوها؟

وما يضيرنا إذا فقدنا يوماً غالياً علينا أو غالية، ستتهمينني بقسوة القلب وصداء النفس ولكنني لم أكن يوماً كما تقولين أو تظنين، إن في نفسي المرهقة وشعوري الحساس ما يجعلني أنا الآخر أمضي في حزني معك.

أو ليس المصاب مصابي ومصابك؟ أو ليست الفقيدة هي أم رؤوم كانت بالنسبة إلي مثل ما هي به بالنسبة إليك ولكن..!

ولماذا تقاطعينني بهذه الشهقة؟ لا.. لا.. دعي رأسك الصغير على كتفي فقد يريحك هذا الوضع يا أختاه. أو لست أنا أخاك حقاً؟

ما أصعب الفراق وما آلمه، ولكن ترى ماذا يفيدنا الحزن؟ سيذهب برواء حياتنا ويمضي بما تبقى من الطعم الرائق في فمي وفمك.

نعم قد أكون على حق وقد تكونين أنت على صواب لقد جمعنا الألم وربطتنا الأخوة، وصهرنا العذاب فلم نعد اليوم من الأمس القريب إلى بعض، ولكن.. هذه الأحلام التي تمر في خاطري عن أيام العمر كما تقولين يوم أن كانت بجانبنا تلك الأم كيف ذهبت وماذا أبقت لغدنا منها؟ ستقولين بأنها ذهبت ولن تعود وسأقول أنا بأنها ستعود. ستنسين تلك الأم التي حملتك في بطنها شهوراً وأعانتك على حياتك حتى بلغت هذه السن التي أنت فيها اليوم.

ستنسينها يوم يقدّر لك وترزقين بطفل أو طفلة من زوج يحبك ويختارك، ولن يبقى من كل ما مضى سوى الذكرى، ذكرى مريرة حقاً ولكنها ستمضي كما مضت الأم بالأمس، أما أنا فلا، سأظل كما تعرفين وحيداً. لا تحاولي أن تطيلي الحديث معي عن اقتراني بصديقتك تلك التي تودّينها وتريدينها أن تكون أقرب إليك منها الآن. لقد آليت على نفسي أن أمضي في حياتي أجترّ الذكريات اجتراراً ولكن في صمت قد يكون فيه بعض الحزن ولكنه لن يكون الحزن كلّه. أتشكين في حديثي أنت يا أختاه ومن سيصدق ما أقول عندما تكونين أنت الدائمة التصديق لكل ما أقول مغرقة الشك في صدقي؟

هي الحياة يا أختاه لها من واقعها الكثير والكثير. والأيام لماذا لا تحسبين لها حساباً؟ أو تظنين أنها ستتركنا نحن هكذا؟ ومضى صديقي يسطر عبارات كل ما فيها ينبض بالتجمل والصبر، وإن كنت أعرف عنه غير ذلك ونظرت إليه في إشفاق.

لماذا يبدو صديقي هكذا يظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يظهر؟ هذه الدمعة الساخنة الملتهبة التي أحسها وهي تتدحرج على صفحة وجهه معلنة في وضوح تام مدى الهزة التي هدت كيانه. حقاً لماذا؟

وألقى بكتابه في وجهي بحركة عصبية وسألني:

ـ بالله عليك ألا أكملت ما بدأت؟

قلت:

ـ كيف؟

قال:

ـ لقد كنت أظنك مقدراً ظرفي وماذا تريد أن أفعل، أو أترك تلك الطفلة

يعتصرها الحزن ويمضي بها الألم كل مذهب، إنها أختي وتلك التي ماتت والدتي ولكني قد أستطيع أن أصبّرها قليلاً.

وتساءلت في دهشة:

ـ أهذا رد خطابها الذي رأيته؟

وأردفت قائلاً:

ـ أو حقاً لك مثل هذه الأخت؟

ومضيت في تساؤلي أثرثر كعادتي معه. ورأيته ينظر إلي وفي عينيه غموض غريب كان في تلك اللحظة إنساناً آخر غير ذلك الصديق، إنسان تجمعت على رأسه المصائب وتقاذفته الأحزان فما عاد يعي ما يقول ومضى يجهش في بكاء طويل مستمر فذهبت إلى مجلسه أهدّئه علّي أستطيع أن أضمن سكوته ولو إلى لحظة، ولكن كل مجهوداتي ذهبت أدراج الرياح واستطعت بعد لأي أن أرى وجهه وقد عاد إلى سابق صفائه ونظرت إليه وقلت:

ـ هلا حدثتني قليلاً عن أختك والحديث ذو شجون والذكريات الحلوة تمر مر السحاب.

وحدّثني صديقي حديثاً مستفيضاً عنها وكيف هي وعن تلك الأم التي ذهبت وتركتها له، وشعرت بأنه يجب عليّ أن أفعل شيئاً وقد كنت أحس ساعتها بأن تلك الأخت أعني أخت صديقي أقرب إلى قلبي من أية إنسانة أخرى وسألته في لهفة:

ـ ترى ماذا تقول لو تقدمت إليك بطلب يدها؟

نظر إليّ بدهشة:

ـ ولكنك لا تعرف عنها شيئاً أبداً!

قلت:

ـ يكفيني أنها من معدنك.

ورأيت ابتسامة قصيرة تطلّ من بين شفتيّ ذلك الصديق، ابتسامة عذبة وسمعت الصوت الهادئ القوي النبرات يقول في تؤدة واطمئنان:

ـ هي لك إن أردت، وإن وافقت طبعاً.

ومرت الأيام وهكذا هي فيها من المر مثل ما فيها من الحلاوة أيام لذيذة وأيام مريرة هكذا الدهر لا يصمد أبداً للحوادث وإنما يختار الظروف والمناسبات.

وعدنا أنا وصديقي كل إلى بلده وأقدمت على زيارته أكثر من مرة وارتحت فعلاً إلى الصوت الهادئ العذب الذي لا أكاد أتبينه إلا في إنصات عميق.

وحانت الفرصة يوم أن قدر لوالدتي زيارة أخته وجاءت الأم تزفّ بشرى لا أزال أعدها كذلك فهي على ما أريد من طباع وفاتحت صديقي في وعده فما كان منه إلا أن أجاب بالموافقة.

ومضى الحفل البسيط الذي أعد لهذه الغاية في طريقه المرسوم واستقبل البيت الأنيق الذي أعددته لزوجتي، أخت صديقي الحزينة.

وسعدت بها وسعدت بي واحتفيت بمقدمها وحاولت هي أن تقدم لي حنان الأم وحب الزوجة وكان لها ما أرادت.

والأيام تمر وقد تكون حيناً سريعة جميلة وأخرى بطيئة أما أيامنا فكانت على الطراز الأول كلها إيناس وسعادة ونظرت إلى صديقي وهو في كرسيه يلتهم كلمات القصة التي بين يديه التهاماً وضحكت في صوت عالٍ وقلت له:

ـ انظر ماذا تحمل في يديها، طفلتي الصغيرة ذات العامين (فاطمة)؟

ونظر صديقي إلى حيث أشرت ومد يديه وقال:

ـ هي صورة فاطمة أمي.

وضحكت زوجتي ثم قالت:

ـ أو لا ترى يا سعيد كم هو الشبه كبير بين فاطمة اليوم وفاطمة الأمس؟

وهزّ رأسه وقال:

ـ نعم. وإن كنت أكتشف هذا لأول مرة.

وازدادت ابتسامة شفتي اتساعاً وقلت له:

ـ لقد جاءت فاطمة اليوم لتنسيكما فاطمة الأولى.

وضحكنا جميعاً وإن كان ضحكنا في تلك اللحظة أقرب إلى البكاء لأن الذكرى عادت تطلّ من بين صور الأيام في وضوح ولكنه باهت خفيف.

الضالة المنشودة

لم يكن في يوم من الأيام أضيق صدراً بهذه الحياة منه في هذا اليوم، فلقد اجتمعت لديه جميع مقوماتها، الجاه العريض، الزوجة الوفية، المال الوفير، الشباب والصحة.

كل هذه الأشياء أصبح يضيق بها وينأى بنفسه عنها، فهو قد درج على أن يجد ما يطلب دائماً.

واستعرض في ذاكرته صوراً لأيام مضت، ترى كيف مرت به طفولته الباهتة وشقاء أيامه السالفة وكدح والده في سبيله، وملابسه تلك التي كان يشمئز دائماً من أن يرتديها لأنها لا تخلو من رقعة تحت كمّه الصغير أو في وسط جلابيته البيضاء الناصعة.

حقاً لقد كان أنيقاً رغم بساطة ملابسه ذا وجه دائم الابتسام لا يعرف الحقد ولا الضغينة ولا يؤمن إلا بالصداقة المثالية التي ترفعه في نظر أصدقائه وتقربه إليهم. وكان رغم رداءة أحوال والده محبوباً من الجميع فهم يقدرون فيه نبوغه المبكر ومثاليته، وشبّ على هذا الوضع يهدهد تفكيره أحلام المستقبل وآمال الغد القريب. وكان يمر عليه دائماً صديقه سعيد بسيارته الفارهة في أيام الدراسة ليأخذه فيها في فسحة قصيرة حول المدينة الصغيرة، أما هو فكان يأبى أن يذهب إلى صديقه في داره ليذهب معه في سيارته إذ كان ينظر إلى ذلك الأمر بأنه نزول منه إلى مستوى غير جدير به.

ترى أين هو من تلك الذكريات؟ إن سيارته الأنيقة الكاديلاك الخضراء آخر طراز تقبع في مواجهة قصره الصغير الأنيق في مكانها المعهود ينتظر سائقها في صبر وأناة ليمضي بها إلى حيث تعود قضاء

ساعة أو بعض ساعة في نزهة قصيرة تنتهي به إلى حيث الطاحونة الصغيرة التي عطلتها الأيام فلم تبق منها إلا الأطلال ـ أطلال باهتة. وعزّ عليه أن يظلّ في مكانه.

وتناهى إلى سماعه صوت زوجته وهي تناديه من أقصى الغرفة لتسائله في لهفة عن سبب صمته الذي لم تتعوده منه.

وطمأنها بكلمات صغيرة تركت بعدها مكانها لتقضي بعض الوقت مع جارات لها جئن لزيارتها، ومضى هو في تفكير لا يقطعه عليه أي إنسان حتى زوجته ورأى بعين خياله كيف تخرّج من الجامعة وهو من أوائلها وكيف استقبل في بلده وكيف بدأ عمله صغيراً يتدرج فيه حتى أصبح الإنسان الأول في تلك الشركة الكبيرة التي يديرها.

وحقق في أيامه على صغر سنه مشاريع ومشاريع كانت جميعها بادرة طيبة في المجال الاقتصادي لبلده، مما جعل أصحاب الشأن يحاولون بشتى الطرق مساعدته في كل ما يساهم فيه من عمل.

ومرّت أيامه هكذا كلّها صفو ومسرة لا يكدّر عليه أي شيء إلا هذا الطارق الملح الذي أخذ يسدّ عليه الأبواب فقد مضت عليه ثلاث سنوات وهو بعد لم ينجب، فهو يريد لنفسه ابناً يخلفه ذكاءه وماله وبيته الأنيق.

وقد يكون من الغريب أن يفكر من كان في مثل سن صديقنا في هذه الأمور إلا أنه كان عملياً يؤمن بالواجب ويقدر الحياة ويرى بأنها المال والبنون وقد وجد الأولى.

أما الأطفال فهو يبحث عنهم منذ سنوات ثلاث يشغل نفسه وقلبه وعقله في التفكير فيهم فهو قد رتب كل أموره وأمور طفله الذي لم يأت بعد.

وأحس بعد السنتين الأوليين بالفراغ الهائل يحرق أعصابه ويدمي قلبه، ترى لماذا لم يأت الوليد المنتظر؟

فقرر بينه وبين نفسه أن يبدأ بنفسه فيعرض أمره على الأطباء.

وتذكر في ذلك الحين صديقاً له قضى برفقته أعواماً أربعة في مصر. لقد أصبح الصديق طبيباً يشار إليه بالبنان ومضى إليه يطرق بابه يسائله في إصرار عن الأسباب ولم يكن صديقه من المختصين في هذا الأمر، فعرض أمر صديقه على صديق آخر له قرر أن يراه في ذلك اليوم.

ومضى يقدح زناد فكره في النتيجة. ترى كيف يكون الحال لو كان هو السبب في عدم إنجاب الذرية؟ واستبعد هذا الرأي. وعاد يفكر إذاً ما هو الحال بالنسبة لثريا إذا كانت هي السبب هل يرضى بأن يختار امرأة أخرى تدخل داره لتنجب طفلاً؟ واستبعد هذا الرأي فهو يرى في زوجته المعين الذي لا ينضب من سعادته وهنائه، ونادى زوجته ثم استأذنها بالذهاب إلى صديقه دون أن يقول لها السبب لزيارة هذا الصديق الطبيب.

واستقبله صديقه بمنتهى الحفاوة وكأنه يريد أن يزيل عن نفسه علائم الضيق والضجر التي يراها ظاهرة على وجهه.

وبدأ الطبيب يعد زجاجاته الصغيرة ليبدأ بحثه الطبي الذي دام أكثر من ساعات جاءت بعدها النتيجة وقد أدمت فؤاده فلم يطق أن يسمعها بأسلوب صديقه الجاف ولكنه تقبلها وهو مهموم جداً.

ومضى في طريقه إلى سيارته الأنيقة لا يكاد يرى طريقه يصم أذنيه صوت زوجته الهادئ وهو يرن في أذنه: (حقاً كنت أظن نفسي أنا هي السبب).

وحاول أن يخفي وجهه بين راحتيه الكبيرتين ولكنه لم يستطع وأحس السائق بآلام مخدومه، وحاول أن يمسك بيده وهو يدخل من باب السيارة الفارهة.

وما هي إلا دقائق حتى وجد نفسه أمام امرأة عجوز تحمل بين يديها طفلاً صغيراً علت على وجهه وملابسه علائم القذارة الواضحة، وطلب من سائقه أن يقف به قليلاً ونادى المرأة العجوز وسألها عن الطفل فقالت له كل شيء عنه.

وعرف بأنه ابن ولد لها قضى نحبه، وطلب منها أن تركب معه في سيارته وفي الطريق عمل كل جهده في أن يقنع العجوز بالبقاء في داره مع حفيدها الصغير.

وعاد إليه استئناسه عندما رأى زوجته وهي تبتسم وهي تحمل الطفل الصغير بين يديها.

وكان الطفل في هذه المرة إنساناً آخر ولد من جديد.

وهكذا تحققت له ضالته التي بحث عنها كثيراً حتى وجدها.

زواج المبادلة

ليتني لم أفعلها، ليتني، ولكن ماذا يغنيني الآن سوى أن أتحسر على ماضي وأن أتألم لما فات. كيف مضت أيامي تلك؟ كيف ذهبت؟ كل الذي أدريه أنني هنا أعيش، أعيش بمفردي تؤنس وحشتي الهمسات الحانية التي أتلقاها منك يا صديقي.

لنعد إلى الماضي ذلك الذي أوشك أن يذهب عني بخيالاته وجماله وروائه، ذلك الماضي البعيد يوم كنا على شاطئ الحياة نعيش بقلوبنا الصغيرة الواجفة القلقة الملهوفة. كما نرجو ونأمل ونرى في الغد أشياء لم نكن نحسب أنها على ما هي عليه الآن من مرارة. أو تظنني أنكر عليك رواءك وضياء قلبك؟ لقد كنت ذكياً حينما عرفت كيف تسلك أقرب الطرق إلى ضالّتك.

لقد مضيت إليها بقلبك وجوارحك تسعى إليها حثيثاً يشدّ من عزمك قوة وجلة.

أما أنا فكما ترى، على الشاطئ وحدي، ولكن لا.. لا تقاطعني أنت تعلم بأني لا أقاطعك عندما تتحدث. لقد أفضيت لي بمتاعبك وأحلامك وهنائك، كنت أصغي بسمعي لحديثك فهلا طالبتك اليوم أن تفعل لماذا زوجتك في الدار تنتظر أوبتك؟ أطفالك ينتظرون رجوعك؟ ضيوفك الذين قلت لي عنهم بأنهم سيكونون بعد نصف ساعة في دارك.

وهذه السيارة الفارهة، ألا يكفي أن تضغط على داعس البنزين حتى تأخذك إلى ضالتك وبينك وبين دارك أمتار معدودة؟ أراك تضحك، لماذا تدعوني أنا للحضور ومع من؟ مع أصدقائنا جميعاً،

دعني بالله عليك، إن كل ما أريده هو أن تستمع إلي وأن تصغي لحديثي.

ترى أو قد طالبتك قبل هذه المرة قبل أن أطالبك به الآن. لقد طفح الكيل علي حتى عيل صبري، فلم أعد أستطيع أن أتحمل، سأحدثك قليلاً، ومهما كانت الظروف لأنني أجد راحة في إفضائي إليك بما في هذا القلب من جراح.

ماذا تقول؟ محمود سيكون في دارك برفقة من دعوتهم ولماذا محمود بالذات. ألأنه شقيق زوجتي؟ أتغريني أن أذهب ما دام هو هناك؟

لا لن أذهب لقد خاب ظنك، أنت تصدق ما يقول الناس فأنا لا أحبه ولا أكرهه. أنت لا تعرف أنه زوج لأختي؟ كيف؟ ولكن لك كبير حق فأنت لم تحضر زواجها، كنت في رحلتك الطويلة ثم عدت ووجدتني أنا قد تزوجت، ونسيت أن أذكر لك بأنني كذلك قد زوجته هو الآخر، ومن؟ وكنت أظن أن السعادة ستكون نصيبي ولكن.

ستستغرب فهو كما تعرف على سعة، وأنا كما تعهد دائماً على خلق، لأنني هكذا ولدت.

ويوم جاء يطلب يد أختي لم أكن أفكر في أني سأزف إلى أخته، قد كان تفكيري كما تعرف بعيداً عن كل ذلك. ولم أفق إلا على صدري وهو يطغى على تفكيري فأسائله رأيه في أن يضيف لفرحتي فرحة ورأيت الفرحة على وجهه وهو ينطق بالإيجاب وجاءت أخته إلى داري ولا تزال ومضت أختي إلى بيته. ولكن.

ولا أقول بأن الأيام أثبتت بأن هناك نوعاً من الحزن يغلف قلب زوجتي أخت سعيد، لأنها لم تألف نوع الحياة التي تعيشها فأنت تعرف بأننا من متوسطي الحال، بينما الحال يختلف في دار والدها وجاءت إلى الدار أول يوم ورأيت في عينها بريقاً كنت أظنه في السابق شيئاً آخر غير الذي عرفته أخيراً.

وسارت أيامها هي من جانبها لا تشكو وإن كانت غير راضية، وأختي قد تغير الوضع بالنسبة إليها فلقد جادت عليها الحياة بما تريد فهي باسمة هانئة.

ورأيت الوضع قد تغير ومضت أختي إلى مكان زوجتي وجاءت الثانية لتحل محل أختي في دارنا.

وسعيت لأن أوفر لزوجتي كل أسباب الراحة، ولم أكن أظن أن الأيام

ستأتي بأحزان جديدة، كنت أظن بأنني سأرتاح وأهدأ وهي في كنفي وأنا إلى جوارها، حتى جاءت ساعة كنت قابعاً فيها على كرسي أطلب بعض الراحة في تدبيج ما سأبعث إلى الراديو بحكم عملي كمذيع يقف في منتصف الطريق.

تناهى إلى سمعي صوت زوجتي وهي تجاهد في أن تجمع شتات نفسها. وكان الصوت خافتاً ولكنه كان كافياً لأن تلتقط أذناي الذي قالته حينذاك.

كان الأمر لا يعدو أن يكون تنديداً بحياتي ووضعي وعدم قدرتي على مجاراة أخيها، زوج أختي، وكانت صديقتها تستمع إليها مؤكدة في أن تنأى بنفسها وتعود إلى دارها في السابق ما دام دخلي لا يكفي وما تريد زوجتي. ورنت في أذني كلمات صديقتها وأحسست بالاشمئزاز لما تقول، والاشمئزاز أكثر وأكثر من زوجتي تلك التي تعرض دخائل بيتنا على غريبة.

ولكن قطع عليّ تفكيري صوتها ثانياً وهي تقول:

ـ ولكن سأخرب بيتي ثم..

وصمتت واستحثتها صديقتها فأكملت:

ـ وقد أخرب بيت الأخرى فما ذنبها؟

وساءلها الصوت الآخر ثانياً:

ـ ولكن هل هناك من الحب ما يدرأ عنك غائلة الفقر؟

وسمعت صوتها يرد في تعقيب حار:

ـ نعم نعم.

وتنحنحت أشعرهما بحضوري، وخرجت لي زوجتي لتشعرني بوجود الضيفة.

واخترت غرفة أخرى غير التي كنت فيها ومضت زوجتي إلى صديقتها. ولم أعد أسمع في تلك اللحظة ما تقولانه.

ولم يمض وقت كبير حتى ودعت الغريبة زوجتي وجاءت هي إليّ، وقد أحسّت بما يضطرب في نفسي من عوامل.

وسألتني عن السبب فلم أجد جواباً، وعندما كررت استفساراتها عدت أؤنبها بكل جوارحي على ما أفضت به إلى تلك الغريبة. ورأيت الاصفرار وهو

يحيط بوجهها عندما سمعت كلماتي، ولكنها استدركت كل ذلك ومضينا في مشادة عنيفة، كادت أصواتنا من خلالها تسمع من خارج الدار.

وبعد دقائق خرجت زوجتي غضبى حانقة إلى دار والدها، وعدت أنا إلى غرفتي أفكر في الحدث الذي حصل وما هي إلا ساعات حتى تناهى إلى سمعي طرق خفيف، وفتحت الباب لأرى من. كانت أختي هي الطارقة أما زوجها فكان يدير محرك سيارته عائداً وسمعت صوته يقول في لهجة غريبة:

ـ ما دمت قد فعلتها فها هي أختك تعود إليك.

وقابلتني أختي في بكاء مرير، وهدهدتها علّها تصمت أو ترعوي، ولكنها استمرت في البكاء ولم تعد قادرة على الكف عنه.

وسألتها أخيراً عن السبب فقالت:

ـ أنت وزوجتك، فلولاك ولولاها لكنت اليوم في داري وبين أولادي.

فلم يسعني إلا أن أوافقها على ما قالت وهكذا تراني كما أنا أفكر في الحدث.

وصمت.

وقلت له:

ـ ولكن ماذا ستفعل؟

قال:

ـ لا شيء إلا أن أقول كنت مخطئاً عندما زوجته أختي وتزوجت من أخته. ولولا ذلك لما كنت تراني على ما أنا فيه من انفعال.

وشاركته صمته. ثم قلنا وكأننا على ميعاد:

ـ لعن الله زواج المبادلة.

متاعب امرأة

كانت تحلم كثيراً بذلك المستقبل الذي سوف يبنيه ولدها الصغير. وكان يلذ لها أن تقارن بين قسمات وجه طفلها الصغير وبين قسمات والده الذي قضى نحبه منذ سنوات عديدة، وتشعر بالرضى عندما ترى فيه صورة كاملة لرجلها الذي ذهب.

وكانت أحلامها تلك تشيع في نفسها القوة على تدبير أمر الصبي العزيز، فتمضي في عملها البيتي الذي تجيده والذي تستطيع به أن تكسب دخلاً قد يكفي وقد لا يكفي.

ولكن إيرادها الذي تتسلمه في أواخر كل عام من مستأجري داريها يكفيها وابنها مع ما تتسلمه من أجر لأعمال يدوية خاصة تبعث لها إلى صديقاتها ممن يفضلن شراء حاجاتهن دون أن يعلمنها بأنفسهن.

وكانت راضية مطمئنة، فدنياها، وإن خلت من زوجها، إلا أنها مليئة بالسعادة ما دامت الابتسامة تظهر على شفتي طفلها الحبيب.

وشب الطفل قوياً كامل أخلاق، ضحوكاً، يستقبل يومه كما استدبر أمسه في رضى وسعادة وطمأنينة بال.

لم يكن يشغله شيء إلا أن يكون كما تريد تلك الأم التي أعطته شبابها ومالها وصحتها وبذلت في سبيله راحتها وأجمل أيامها.

إلى أن كان يوم جاء فيه ابنها ومعه صديق جديد . كان فتى كامل رجولة، وسيم قسمات. جاء خجولاً، غضيض البصر. وحلا للوالدة أن تقارن بين ولدها وصديقه لتحس أن كلاً منهما يكاد يكمل الآخر.

فسمير ابنها ناعم، فاضل، هادئ..وعادل صديقه فيه خشونة الرجولة وجفافها الحلو، وكان غريباً أن تجمع بينهما الصداقة.

وحينما انصرف الصديق، جلست إلى ولدها تدلله وتسأله في رقة عن ظروف تعرفه بصديقه الجديد. ولم تدر لماذا ارتاحت في أعماقها عندما علمت أن هناك أكثر من الصداقة تربط بينهما، فقد كان عادل مدرس ولدها الذي أخذ على عاتقه أن يذاكر له دروسه ليهيئه لنيل الشهادة التوجيهية.

ومضت أيام عديدة احتل فيها عادل المكان الثالث في الأسرة السعيدة.

كان يشاركها الآلام والآمال، والعمل، واللهو في براءة وحب وإخلاص. ولكن الصفو لم يطل، فقد فاجأهم ذات أصيل ابن عم الوالدة الذي جاء يزور الأسرة كعادته بين الحين والحين. وكان لقاءً مفاجئاً بين عادل وذلك القريب الذي لم يرتح إليه إذ لم يكن هناك سابق معرفة بين الاثنين.

وما هي إلا كلمات قصار هرول بعدها القريب إلى مكان الأم يسأل في استنكار عن هذا الدخيل الذي رآه منذ لحظات. ولكنها لم تشأ أن ترد على فضوله، وإنما ابتسمت من كل قلبها ابتسامة صافية.

أما قريبها، فلم ير في تلك الابتسامة سوى أشياء غريبة لا يطيقها تفكيره الضيق. واستجمع كل شجاعته ليخرج من الدار في هدوء مريب إلى حيث عائلته التي تركها في داره.

وحدثهم بما رآه، وكان حديثه عن وجود عادل حديث المرجف، فهو في الطريق قد رتب ملابسات القضية دون أن ينتظر حتى الإجابة عن اتهاماته. وسمعت عائلته حديثه، وأكبروا أن تقع هذه الأم فيما يقوله عنها قريبها.

ومضى الكل يلوك سمعتها ببعض التشنيعات إلا سميرة، تلك الصغيرة المدللة التي عاشت في كنف تلك الأم. فقد رأت من واجبها أن تدافع عنها، وقالت للجمع الحاشد:

ـ كل الذي أستغربه هو أن أسمع ما سمعته منكم دون أن أعرف رأي والدة سمير فيما قيل عنها.

ولف الجمعَ سكوت مطبق وصمت مرير لم يقطعه إلا دخول والدة سمير.

وبعد مجاملات قصيرة، رأت سميرة بسذاجتها أن تروي القصة لتلك التي تكن لها في قلبها كل احترام وحب.

وضحكت الأم، وكانت ضحكاتها في تلك اللحظات كخنجر مسموم أصيب به قلب قريبها، ذلك الذي شاء شيطان خياله أن يلصق بقريبته أكبر من تهمة.

ومضت والدة سمير تقول في بساطة، وكانت تشير في تلك اللحظة إلى عادل:

ـ كان الأولى بك أن تنتظر لتعرف حقيقة الأمر، فأنا، كما تعرف، عشت طوال عمري لطفلي الصغير الذي كبر مع الأيام يهدهد تفكيري في أن أراه رجلاً يعرف كيف يصد عن أمه تقولات الآخرين. وهو اليوم، كما ترى، يستطيع أن يقول لك من هو ذلك الدخيل الذي أرجفت في حقي وحقه، فهو إنسان كامل الرجولة، كريم الأخلاق، جاء إلى داري ليقوم بواجبه في سبيل تقويم ابني وإعداده ليكون من أوائل المتخرجين هذا العام، فأنا ـ كما ترى ـ قد تعديت سن الطيش، وأعرف الناس بالحلال والحرام وكلاهما بيّن.

وعادت إلى دارها لترى ولدها وحيداً بعد أن ذهب عنه مدرسه. وقصت على ولدها القصة، فضحك وقال لها:

ـ دعيهم يا أماه، فلست أول ولا آخر متهمة بريئة.

فلسفة الأرض

لم يكن يشق عليّ قدر ما يشق علي الاستماع لتلك الفلسفة التي يتغنى بها صديقي محمود.

فهو لا يترك لك فرصة التعقيب مطلقاً على أحاديثه ولا سيما تلك المتصلة بالأرض وطبقاتها ومنتجاتها، وكيف يجب أن تكون...إلى آخر سلسلة أحاديث يكاد لا يفرغ من أحدها حتى يبدأ بآخر من عنده.

كان الوقت عصراً، وإن شئت الدقة، كانت الساعة العاشرة والنصف حسب التوقيت السعودي حينما مر بي صديقي في داري، وكان صوت (الكلاكس)، منبه سيارته، يرن في أذني بصورة متعاقبة، وكأنه هو الآخر جزء من حديثه.

وبدأت تحت تأثيره أرتدي ملابسي في سرعة فائقة وكأنني أحمد له معاكساته الطويلة، لا لشيء إلا لأنه أجاد إدخال بعض المرح والسرور بنزهاته الخلوية لبعض المناطق والبساتين في عربته الأنيقة الصغيرة.

كن معي يا صديقي القارئ في مثل هذا الموقف.

ألا تشعر مثلي بأنك ولا بد ستعفو عن جميع مضايقاته؟ فميزة وجود سيارة صغيرة تحت تصرفك في تلك البلدة الصغيرة هو نوع من الأرستقراطية المحببة إلى نفسي.

ركبت السيارة وكل همي أن أبعد فكره عن شيء اسمه الأرض، فبدأت حديثي معه عن مغامراته أيام الدراسة، وعن...وعن....

ولكن شاء شيطان أرضه ككل مرة سابقة أن يسيطر على ما أردت، وبدأ حديثه معي باللهجة ذاتها وفي الموضوع نفسه.

وفي تلك اللحظة، كانت السيارة قد وقفت عند ربوة جميلة على أرض سندسية خضراء زاهرة، كل ما فيها من أزهار وأشجار يدل على العناية الكبيرة التي يبذلها صاحبها.

وكان هناك على بعد كوخ جميل يطل على الأرض من ربوة أخرى وكأنه قصر يشمخ برأسه إلى السماء وسط الصحراء القاسية.

كان المنظر فريداً في الحقيقة، فالاستمتاع بجنة كهذه وسط الصحراء المحرقة نوع من الأرستقراطية أيضاً.

وقف بي صديقي ينظر إلى الأرض الخضراء حيناً، وإلى المروج والمراعي حيناً آخر، وفي عينيه بريق أخاذ، وكأنه هذه المرة يستشهد ببريق عينيه على ما يقوله من حديث.

غادرنا السيارة وفي قلبينا لهفة إلى معرفة ذلك الرجل السعيد الذي يعيش في جنة وسط الصحراء.

وسرنا وفي يد أحدنا كاميرا نسجل بها المناظر الجميلة، وقرب الربوة، وجدنا تنسيقاً لأفانين الزهور يدل على خبرة واسعة واطلاع كبير لمن قام بهذه المهمة.

جلسنا نستمتع بذلك المنظر، منظر الصحراء تتخللها الأشجار الباسقة والزهور، وتمر بها الجداول الصغيرة في دروب قصيرة وكأنها هي الأخرى رسم فريد من يد فنان موهوب.

ولم يطل بنا المقام، حتى بدا رجل عجوز لا يكاد يهتم أبداً بمظهره يقتلع قدميه الخشنتين من الأرض اقتلاعاً تسمع لوقعه صوتاً أشبه بتكسر بعض الأغصان اليابسة.

واقترب الشيخ منا، وألقى التحية، ثم استأذن في الجلوس، وجلس القرفصاء.

وزالت بيننا وبينه الكلفة حينما قدمت له صديقي محمود، وظهر على وجه

الشيخ التأثر حينما عرف والد صديقي المرحوم، فقد كان من أعز أصدقائه.

وبدأ الشيخ حديثه قائلاً:

- إنني لا أنسى ذلك اليوم، يوم وفاة والدك.

وأشار إلى محمود، وتابع:

- كانت تلك الصدمة الثانية، ولكنني تلقيتها بالهدوء ذاته الذي تلقيت به الأولى. ألا تريان معي أن الحياة كلها صدمات؟

وعرفنا من حديثه أنه هو الرجل السعيد صاحب المروج الخضراء هذه.

وصدقني أيها القارئ العزيز بأنني لم أكن أنتظر أن أرى من تعهد هذه الأرض وأنشأ هذه المروج أن يكون بمثل هذا المظهر الذي ظهر به الشيخ. ولكن... دعني اكمل لك بقية حديث الرجل.

قال الشيخ:

- انظر إلى تلك المجموعة من زهور البنفسج.

ونظرنا إلى ناحية ما كنا رأيناها بعد. وأكمل حديثه قائلاً:

- ألا ترونها تحنو برفق على شيء ما؟

ودققنا النظر حيث أشار الرجل، وكانت تلك الناحية على مقربة من كوخه الجميل، وأجبناه بالنفي، فقال:

- إن تلك الزهور تحنو دائما على قبر زوجتي زبيدة، وكانت وفاتها لسنوات مضت تسبق وفاة والد صديقك، وكانت هي الصدمة الأولى.

وتنهد الرجل وقال:

- لقد جاهدت لأعيش لها وللأرض، ولكنها فضلت أن أعيش للأرض وحدها دون مشاركة.

ولأول مرة نظرت إلى صديقي من زاوية عيني لأشعره بأنه لم يكن وحده من يتغنى بالأرض، بل كان صدى لأحاسيس الشيخ صديق والده الذي يكاد لا يعرفه.

ومضى الشيخ في حديثه:

ـ كنت ضمن من غادر البلاد إلى سوريا في حرب الأتراك لا لرغبة في نفسي أو خوف، إذ كنت في سن لا أعرف شيئاً من هذا، وإنما استجابة للظروف التي اضطرت عائلتي أن تغادر البلد.

واستقر المقام بي في دمشق وكنت في الخامسة عشرة من عمري. والتحقت بالمدارس، وكان شغفي بالزراعة ليس وليد المصادفة، وإن كان عن تأصل وتعمق، إذ رأيت أن بلدي لا تحتاج إلى شيء قدر احتياجها لهذا النوع من الاختصاص.

وشئت أن أدخل مدرسة الزراعة في دمشق، ولكنني لم أوفق لأن والدي لم يرد أن أكون مزارعاً في يوم من الأيام، فاختار لي المهنة التي يجيدها، مهنة الصياغة، والتي كانت تدر عليه كثيراً من الربح.

ولم أشأ أنا أن من جانبي أن أحيد عن تعاليم والدي في تلك السن المبكرة، فدامت حياتي مع والدي على مضض حتى اختاره الله وأنا في سن الرابعة والعشرين .

لم تكسر الأيام من جذوة نفسي وشغفي بالمهنة (الفلاحة)، وكنت ـ في هذه الظروف ـ قد تزوجت بامرأتي هذه التي تريان قبرها هناك.

تركت بلد زوجتي وهي برفقتي إلى هنا في الصحراء، حيث أنا أؤدي الرسالة التي أحبها. وقد كانت في الحقيقة مغامرة لذيذة، فقد كان كل رأسمالي في ذلك الحين هو ما أمتلكه من بضع مئات من النقود وهذه الأرض التي كانت جرداء قاحلة، واستقر بي المقام أنا وهي، وأتينا إلى هذا الكوخ، وكانت هي تساعدني في إعداده.

وعندها، طلب منا أن نرافقه لنرى كوخه.

كان كل مافيه يدل على ذوق مفرط واختيار موفق للأثاث والحاجيات. واستغربنا أن يكون شيخنا على هذا القدر من حسن الذوق والاختيار.

وكأنه قرأ ما يدور بخلدنا، فقال:

ـ لا تستغربا... فالكوخ والأثاث قد نظما بمعرفة زوجتي المتوفاة. أما اليوم، وبعد صدمتي الأولى والثانية، فإنني أعيش فقط للأرض، للتربة الصالحة

التي تزود البلاد بما تحتاج إليه.

ونظرت ثانية إلى صديقي محمود، وضحكت وقلت:

- حقاً إنها فلسفة!

ونطق الاثنان، صديقي والشيخ، وقالا:

- ولكنها فلسفة أحالت الصحراء إلى مروج خضراء، إنها فلسفة الحياة والأرض!

ذكريات وجنون

كانت حياته سلسلة من الشقاء محكمة الأغلال، وكانت وفاته نعيق بوم في جدران بيته الصغير. فلقد ولد في يوم ماطر شديد الاكفهرار من أبوين كل همهما أن يكبر الصبي كيفما كان.

وسارت أيامه الأولى بينهما وهما به فرحان، يتقلب عليهما الزمان بسلطانه القاسي ومرسومه العجيب. وكانا يريان فيه نعمة جديدة لا بد وأنها ستأخذ مكانها يوماً في عربة الحياة العجيبة.

ويوم أدخله والده المدرسة، كان ذلك اليوم عيده، فلقد أعطاه يومها نصف قرش حملق فيه مرات ومرات مشفقاً عليه أن يضيع. وأخيراً، رأى أن يصرفه عند بائع البليلة المرابط بجوار مدرسته.

وكبر مع الأيام، وازدادت شيخوخة والده، ونظر إليه أبوه وكأنه سيعمل المستحيل في سبيله. وأخيراً، بدت له فكرة أن يعمل بعد أن ترك المدرسة حينما أحس بضعف والده وعدم مقدرته على العمل.

ونظر إلى أترابه وهو في طريقه إلى دكان العطار الذي يعمل عنده لقاء بضع دريهمات تكفيه ووالده بعد موت والدته.

ونظر في أمره، وتحسر على أيام دراسته التي كان ينعم بها برفقة أترابه، وغبطهم على التعليم، فهو لا يقوى على أن يعود إليه بعد أن تركه.

وشاءت نفسه أن يمر على مدرسته التي قضى فيها فترة من الزمن. وفي طريقه، وجد بائع البليلة حيث موقف قائماً على طبليته وكأن ذلك الجزء من الأرض جزء من حياته لا يتطاول إلى أكثر منه. وفكر في هدوء وقال:

ـ هذا شأني، ومآلي هو دكان العطار.

وعاد بفكره إلى حيث أبيه المريض، فاستحث الخطى إليه، فوجده يحملق في فناء غرفته في شيء صغير، ووقف برهة يرقب ذلك الشيء دون أن يقوى على رفعه.

وفتح أبوه فمه وتكلم، وطلب منه أن يرفع إليه ذلك الشيء، فرفعه، فقال له أبوه:

ـ سأقص عليك ما تستغربه. أنا وأمك لم نكن يوماً من أهالي هذه البلدة التي نقطنها، ولكننا من بلاد بعيدة، من قرى التبت حيث يقطن جدك لأبيك، ولكنها الأيام تتداول بين الناس. لقد كان لنا فيما مضى أراض عظيمة نستخدم فيها أناساً عديدين كمن يستخدم الآن، ولقد مرت بنا فترات كنا لا نفكر فيها في المصير لأننا نعلم بأن الحياة ثروة وجاه ونحن نملكهما.

كان أهل تلك القرى يمرون بضياعنا وفي نفوسهم سحر وغموض، وكأننا لسنا من البشر. ويكفي أن أقول لك يا بني بأنه إن جاء اسمنا على لسان أحد، أطرق السامعون يتأملون بين أعينهم تلك النعمة الخالدة وذلك الجاه العريض.

وكنت أنا، أبوك، صغيراً لا أدري من الحياة إلا أن تجاب كل مطالبي. ومضت الأيام، وبلغت سن الزواج، فعرضت علي الفتيات، ولكنني رفضت أن أتزوج إحداهن. وسافرت إلى العاصمة، وهناك وجدت أمك.

أثر في نفسي جمالها، فقد كان من ذلك النوع الصريح الذي لا يحتاج إلى تلميح أو خديعة. وتعرفت إليها في ذلك اليوم، يوم عيدنا القومي الذي كنا نحرص على إحيائه. ورقصنا تلك الرقصة التقليدية التي يجيدها جميع أبناء بوخارست، والتي نؤثرها جميعاً.

وخرجت من الحلبة وأنا على أشد ما يكون العاشق. وصارحتها بحبي، فقبلته، وطلبت يدها، فوافقت.

وبما أنها من أبناء العامة، وكانت تقاليدنا تحرم علينا الزواج من أبناء العامة، فقد تجاوزت التقاليد وتزوجتها وسافرت إلى القرية.

طبعاً واجهت أهلي بما فعلت، فقابلوها بتحفظ لأنهم لم يستسيغوا

تصرفي، بل اعتبروه جنوناً.

ولما كنت أسمع إهانة زوجتي وتجريحهم لها وهي ساكتة لا تنطق ببنت شفة، سافرت معها تتبعنا لعنات الأب العجوز القابع في كرسيه. لكنني، يا بني، صممت ونفذت، فلم أكترث، فتوجهت بنا القافلة حتى وصلنا المدينة وكنت قد عزمت على الحج والهجرة إليها وليس معي إلا القليل.

عشت هنا سنوات وسنوات وأنا أترقب الأمل برضى الأب، وأسأل المسافرين عما جرى في مرتع صباي. وتتابعت السنون وأنا لا أسمع شيئا. وأخيراً، علمت بوفاة أبي فأمي وعرفت أن ضياعنا وأملاكنا ذهبت أدراج الرياح لأسباب خاصة اقتضاها الزمان.

وكنا أنا وهي نحس الأيام خالية جوفاء حتى جئتَ وكنا في ذلك الوقت أحوج الناس إليك، فاستأنسنا بك، وعادت لنا الذكريات.

لقد توفيت أمك ولم تذكر لك شيئاً، وها أنذا على فراش الموت أحسب الوقت وأعد الساعات منتظراً الراحة الأبدية.

إن هذا الشيء الصغير الذي تراني أنظر إليه لم يكن إلا باقي تلك النقود الذهبية التي ادخرناها للزمن. إنني أنظر إليها فأرى فيها زماني وزمان أبي، ولكنهما وليا ولم يبق لي إلا هي كذكريات لذلك الشباب البعيد.

وأطرق ببصره قليلاً، وقال له في صوت خافت فيه حشرجة نحيب:

ـ احفظها لديك للذكرى.

ومضى الشاب يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. فكر في كل ما قاله له أبوه، ولم يشعر بوالده وهو يغفو. وعندما شعر به، حمله إلى سريره القديم ووضعه فيه بعناية وغطاه جيداً وغادر الدار إلى دكان العطار يقضي بقية يومه ليعود لداره ليلاً حاملاً ما اشتراه.

ونادى كعادته، فلم يسمع المجيب. وطرق الباب، فلم يرد أحد. وأخيراً فتحه ودخل متجهاً نحو والده منادياً إياه برفق، فلم يجبه. هز سريره قليلاً، فلم يستجب، وأخيراً لمس يده فوجدها متصلبة، وفتح عينيه بيده وعرف حقيقة الأمر.

لقد توفي والده ولم يُبق له الزمن إلا الذكريات.

وطاف في البيت ساعات وساعات حتى انبلج الصباح عن فجر يوم جديد، فقام إلى معارف والده وأخبرهم بالأمر، فحضروا معه وأجروا مراسم الموت من غسل وتكفين وصلاة ودفن.

وظل ليله ساهراً مذعوراً. لقد تراءت له صور اليوم السابق كشريط سينمائي، وأحس عندها بخلو نفسه من ذلك المشعل الضئيل، وعرف أن مؤنسه ورفيقه قد ذهب ولم يبق له إلا ذلك الشيء الصغير كذكرى لأيام والده.

ونظر إلى الكيس وعيناه تدمعان، وراح يستطلعه الخبر، وساءله بادئ الأمر بصوت هامس عن أبيه فلم يجب. ومضى على تلك الوتيرة من استفسارات حتى تحول همسه إلى جراح وصياح، وصار يجري من هذه الغرفة إلى تلك وكيس النقود الذهبية في يده يسأله عن أبيه ولكنه صامت كالزمن يعمل في هدوء.

وأنى للجماد أن يتكلم ويجيب؟

وهكذا أصيب بمس في عقله، ولم يمض النهار حتى أضيف إلى العالم مجنون جديد .

وسار في الطرقات والأطفال يتبعونه. هذا يناديه، وذاك يعاكسه، واجتمع عليه كل الأطفال صائحين:

ـ أبوك أهه.

حتى ضج الناس منه ومن شكواه.

ولم يكتف الأطفال بالمعاكسة، بل أعقبوها بالرمي بالحجارة، فعاد إلى بيته مجنوناً منهوك القوى وتحامل على نفسه وألقى بجسده على سرير والده.

ومضت الأيام وهو لا يغادر بيته إلا لماماً، وبعد مدة، استفقده جيرانه واستفسروا عنه، ونادوه، فلم يجب.

وأخيراً، كسروا بابه ودخلوا إلى غرفته فوجدوه مسجى على الفراش قد فارق الحياة ويده قابضة على كيس النقود وعلى شفتيه شبه ابتسامة.

كانت هي ابتسامة الذكريات نفسها.

الهدوء الذي يسبق العاصفة

عشت أنا الشاب الفقير والأمل يداعب جفني فيخفق فؤادي دوماً عند رؤية الأغنياء وهم يسيرون في خيلاء أو داخل سياراتهم الفارهة وهي تعزف ببوقها لحن الغنى الذهبي وكأن للحنها صدى تتجاذبه أعماقي لتردده في شبه ثورة مكتومة.

ودفعت الثمن غالياً لأفوز يوماً ما بمثل تلك العظمة التي كان فؤادي يرنو إليها. ومضيت فيما ارتأيته قدماً لا يهولني شيء وأنا مقدم على استنباط الوسائل التي أستطيع بها أن أصبح غنياً مثلهم.

وسررت عندما قدر لي أن أكون خادماً بسيطاً في متجر.. ومضيت في سروري متوقعاً الأحداث العظام والتي لا بد أن تغير مجرى حياتي.

وكنت أجد لذة كبرى في تعداد النقود التي كنت أقوم بتسلمها من عملاء مخدومي حتى أصبحت في ظرف ليس بالطويل موضع ثقة مخدومي.

وتسلمت المتجر لأقوم ببعض قفزاتي الرائعة في تاريخ حياتي المضني وكانت تلك فرصتي الأولى عندما غادرني سيدي لقضاء بعض المصالح التجارية في بعض البلدان العربية المجاورة، وقضيت يومها في حلم جميل قابع بين منضدتي الجميلة وكرسيَّ الدوار.

وسارت الشهور بسرعة لأجد مخدومي عائداً إلى متجره بعد أن أمضيت أيامي تلك في استنباط الوسائل التي تحقق لي نصيباً من الربح دون أن يشعر مخدومي.

وعدت إلى سابق عملي بعد أن رجحت كفتي عنده ليضعني هو

في مستوى السكرتير الشخصي له.

وفيما كنت أنتظر الفرج لزيادة محصولي النقدي في سفرة من سفراته ولم يكن ذلك اليوم بالبعيد، فقد مضت الشهور دون أن أشعر ومضى مخدومي لسفرة من سفراته التجارية، وعدت أنا إلى استلام المتجر بما فيه من مستخدمين.

واعتدت الشخط والنخط في زملائي ممن كانوا يوماً أحسن مني مركزاً وقيمة.

ومضيت لا أرعوي في تجميد محصولي النقدي حتى عودة مخدومي ليقدم لي في تلك العودة هدية جميلة وهي قراني بإحدى ابنتيه اللتين لا أعرف شيئاً عنهما شيئاً بحكم التقاليد وبحكم ظرفي حيث لم يكن لي المجال مفتوحاً لأن أختار واحدة منهما.

وبعد أيام، أصبحت الصهر الرسمي بحكم شهادة المأذون وبعض أصدقاء مخدومي السابق.

ومرت أيامي جميلة حلوة. ولكم شعرت بالفخر ينتابني وقد أصبحت رجلاً محترماً وأصبح في مقدوري أن أستمع للحن الطروب وهو يرن من منبه سيارتي الفارهة وهكذا تحقق حلمي.

ولما كنت طموحاً بمعنى الكلمة، لم أرض قط بالاستمتاع بما أنا فيه، فعاودت البحث مع عمي في طريقة إنماء الثروة التي أمتلك نصفها، وقدمت المبلغ الذي اختلسته لأريح ضميري كهدية بسيطة في إنماء الثروة نتيجة مضاربات قصيرة في سوق العملة، وبالطبع كان سرور عمي كبيراً.

ومضت أيامي على تلك الوتيرة من السعادة حتى قدر لي أخيراً أن أعرف رأي زوجتي بي وكان هذا يقض مضجعي، فهي تنظر إلي كخادم لا كزوج. ولما لم يكن للفتيات رأي فيما يختاره لهن آباؤهن، رضيت هي بالواقع، وكنت في ذلك الظرف قد افتتنت بها فلم أستطع أن ألومها حين قرنت الإشارة بالكلام وقت سمعتها على حين غفلة تحدث أختها عني كخادم لا يليق به أن يتزوج بابنة سيده.

وتحملت الإهانة، وتثاقلت خطاي وأنا ألج الغرفة لألقي بما كنت أحمله لها من هدايا ثمينة.

وتناولت زوجتي هديتها دون أن تمنحني نظرة شكر، واكفهرت شفتاي عندما رأيت نظرة الاشمئزاز واضحة جلية على قسمات وجهها الناطق بالسخرية.

كان كل جزء من وجهها ينطق بالكراهية والاشمئزاز من وضعي الذي لم يكن يعجبها.

وآلمني فعلاً كل ذلك، وأدركت في تلك اللحظة أنني غير سعيد، وأنني مجرد متطفل ما عليه إلا الاقتناع بما أصابه من نعمة.

وخرجت من الغرفة لألقي بجسمي على أقرب مقعد، ولبثت طويلاً أفكر في موقف زوجتي، ولم أشعر بالهزة القصيرة والكلمات البسيطة التي تنطق بها أختها هامسة:

ـ لا تحزن فإنها طفلة، ومع ذلك، فهي تحبك.

وأقسمت يومها في نفسي أن أهجرها وأتفرغ للعمل الذي بدأته، خاصة وأن عمي قد نفض منه كلتا يديه.

وحدثت المعجزة عندما بدأ المجتمع يتحدث عن مليونير جديد يطرق أبواب الملايين بأقدام ثابتة، وكنت طيلة تلك الشهور أقضي جل وقتي في مكتبي بين مراجعة الصفقات وإبرامها. وكان عملي هذا يأخذ من وقتي الكثير، فلا أعود إلا في الخامسة ليلاً لأجد خادمتي تحتضن صينية الطعام وتدفعها لي لأبتلع منها ما يروقني، وبعدها أمضي إلى مخدعي لا يفصل بيني وبين زوجتي إلا باب صغير كنت ألقبه بالباب العتيد.

وأخيراً، آنستُ البشر يعلو وجه زوجتي وهي ترى المجد كيف أغدقه على متجر والدها الصغير.

لم أكن طيلة تلك الشهور قد فاتحتها بما حدث، ولكنني كنت على يقين من أنها قد عرفته من تصرفاتي حيالها.

وفي تلك اللحظة، كنت أفكر، فالبون الشاسع الذي كانت تعيرني به لم

يعد موجوداً، خاصة وأن العالم التجاري لا يعرف أباها كمليونير، وإنما يعرف خليلاً زوجها فقير الأمس.

وعدت كعادتي في تلك الليلة لأجدها في تلك الساعة المتأخرة من الليل ترقب مجيئي لتقول لي بشوق:

ـ انتظرتك رغم أنك لا تود أن أفعل.

ووقفت أفكر في معنى كلماتها، فقالت:

ـ ألا تدخل؟

ودخلت وكأنني مسوق لأجد فعلاً أن الغرفة على أهبة الاستعداد، فآنية الزهور مليئة بأجمل الزهور الخلابة الرائحة والألوان، والضوء الخافت يشيع في جو الغرفة نوعاً من الرومانسية التي لم أشعر بها من قبل.

وقابلت كلماتها بالصمت حيث أرتج علي ولم أعرف ما أقول.

كان يكفيني أن تشعر بأنني أصبحت في نظرها شخصاً يستحق الانتظار!

وانحنت على وجهي تشبعه لثماً طالبة مني الصفح عن نزواتها السابقة، لكنني فوجئت بنقر أختها على الباب مستأذنة في الدخول، فأذنت لها، فإذا بالبشر يعلو وجهها، وإذا بها تهمس:

ـ الحمد لله، الحمد لله. كم انتظرت فرحكما.

ومضت إلى المذياع تستلهمه الموسيقا لتبث نوعاً من الهدوء، إذ كنت بصمتي ذاك أبعد ما أكون عن الهدوء، وكان صمتي قد أثقل على زوجتي، فعاودت السؤال بلهفة:

ـ ألا تصفح؟

قلت:

ـ لا .

وتدخلت أختها في الحديث قائلة:

ـ لقد عم الفرح والسرور الدار اليوم وكأنها فرحة الأمس يوم عقد زواجك.

وتذكرت في تلك الليلة ذلك اليوم، فلم يسعني إلا البكاء والتسليم آخر الوقت. وقد لا يقال عن بكائي إنه رجولة، ولكن قد يفيدني أنا الذي لم أبك منذ أن كنت فقيراً إلى هذا الوقت.

هدأت العاصفة، واجتزنا الامتحان الصعب، ومضت حياتي في هدوء، هدوء يعقب العاصفة لا كما يقولون عنه: الهدوء الذي يسبق العاصفة.

للإيجار

كل شيء في فيلته الأنيقة قد أعد بترتيب وذوق وجهد ليس بالهين، فهو قد اعتزم فعلاً أن يتزوج. أما من هي التي سيتزوجها، والتي ستسعد وقت تنتهي إليه، فهو لا يدري عن أمرها شيئاً.

فلقد أعد الفيلا لاستقبال القادمة المجهولة، واستنفذ كل تفكيره في توفير كل راحة واطمئنان لها. حتى المكيفات الهوائية التي لا يستغني عنها بلد حار كجدة كان قد أحضرها وأتم تركيبها. والسيارة ذات المقعدين هي الأخرى قد دفع قسطها الثالث والأخير، فصارت ملكه، وراحت تنتظر في المرآب قدوم العروس.

الصور الفنية الرائعة، والتحف الزجاجية، والبلورات الأنيقة، والنجفات الجميلة، كلها وضعت بيد الخبير في مواضعها. حتى غرفة الطفل ملئت بالألعاب والهدايا.

كل شيء في متناول يده الآن إلا "العروس".

ومضى يستعرض في ذاكرته صور قريباته اللواتي كان يشاركهن اللعب في صغره والجد في صباه.

غير أنه لا يريد فعلاً أن يتقدم لخطبة إحداهن، فهن غير شائقات.

الجميلة منهن لا تعرف الحديث، والمتكلمة لا تجيد الفتنة، والتي تجمع بين الاثنين لم تكن متعلمة، والمتعلمة فيهن لا تعد في مصاف المتعلمات حقاً، لأن التعليم النسوي في البيئة الحجازية ليس سوى مجهود صغير تقوم به بعض النسوة ممن قدر لهم القليل من التعليم.

نعم. هو لا يريد طرق تلك السبل العقيمة القائمة على اختيار كهذا، كما لا يريد أن يسلم أمر زواجه لأمه التي تعتقد بل تؤمن أن كل الفتيات لا يساوين في نظرها قلامة ظفر أخته العانس التي بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها دون أن تتزوج. فهي لا تترك واحدة منهن دون أن تصمها بعيب أو عيوب جسمانية لا أخلاقية، وباختصار، فأمه لا ترى في أية فتاة من فتيات المجتمع اللواتي تقابلهن من تستحق أن تتزوج.

(فسارة) مثلاً، تتهته في حديثها، و(زينب) عيناها ضيقتان، و(زكية) عيبها الوحيد أنها عرجاء، وهذه سمراء مشوية، وتلك بيضاء "سادة"، و...و...و....

وتعتقد أمه كما يعتقد هو أن المرأة يجب أن تكون على هذه الشروط: قوام لطيف، وبياض بحمرة، وشعر ذهبي متهدل، وكتفان مشدودان، وردفان وسط، وجسم ملفوف، وكأن أمه قد حازت كل تلك الأوصاف حتى راحت تطلبها في الأخريات من بنات جنسها.

وهو كذلك لا يريد المغامرة بما تبقى لديه من نقود في رحلة قصيرة للبلدان المجاورة، فهو يخاف مثلاً أن لا يتعرف إلى من يريدها هناك.

وتتبادر إلى ذهنه صورة الخاطبة في البلدان المجاورة حسب ما يقرأ ويسمع.

يتخيلها بلباسها الأسود يغطيها من يافوخ رأسها إلى أسفل قدميها، وجسدها المكتنز شحماً تفترش به الأرض وكأنها تريد أن تريح المقعد من حمل ما عليها من شحم ولحم، وتعرض بضاعتها الجميلة في شبه صور للفتيات من كل نوع من ألبومها الضخم لينظر فيه عسى أن يجد ضالته. وعندما يقدر له ذلك، يتخيل نفسه برفقتها حاملاً بعض الهدايا لزيارة من أحب خطبتها ليقوم أهلها بفحصه والاستفسار عن حالته وماضيه وحياته.

وأحس بالخجل، وأخذ العرق البارد يتصبب من جبينه عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير، وشعر بالسآمة والكآبة معاً وهما تحيطان بنفسه، فتتحول روحه إلى روح أخرى حزينة حزينة.

وعندما بلغ هذا الحد من التفكير، كانت والدته تطرق باب غرفته في هدوء وتدخل في طمأنينة أعادت إلى نفسه بعض الراحة.

ابتسم لمرآها في حنان ظاهر وهي تأخذ طريقها لتلقي بجسدها الواهن على أقرب كرسي من سريره.

وراحت تحدثه عن زيارتها القصيرة لصديقتها عزيزة هانم التي عادت بعد سنوات طويلة قضتها في مصر برفقة ابنتها الوحيدة صديقة طفولته. وقالت:

ـ إنها اليوم يا فريد فتاة فارعة الطول، ممشوقة القوام، جميلة التقاطيع، بيضاء في حمرة، عدا عن أنها متعلمة ومتعلمة جداً، فهي تجيد الإنكليزية، وتصلح أن تكون زوجتك يا بني.

ومضى يجتر ذكريات أيام طفولته وطفولتها، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة وهو يسأل أمه:

ـ ألم يزل أثر الحريق في ساقها؟

فأجابت الأم بالإيجاب، وأردفت:

ـ ولكنه غير ظاهر.

لكنه لم يستطع بعد إجابتها تلك إلا أن يسقطها من حسابه، وقال بصراحة:

ـ لا أريد الزواج منها...لا أريد.

وتناول مجلة (روز اليوسف)، ومضى يطالعها في إمعان حتى وجد ما يريده، وعندئذ صاح بقلب نابض بالفرح:

ـ لقد وجدتها يا أمي...وجدتها...

واستغربت أمه صياحه، وسألته:

ـ من تلك التي وجدتها؟

قال:

ـ عروسي.

وعادت تسأله في قنوط:

ـ ومن هي؟ وأين وجدتها؟ وما شكلها؟

وأشار إلى المجلة بإصبعه قائلاً:

ـ هنا...

لكن أمه لم تر صورة، كل الذي رأته كلمات مكتوبة لا يستدل منها على شيء حيث لم تكن تعرف القراءة والكتابة.

وأحست بالإشفاق على ابنها، وخافت أن يكون قد أصيب بمس في عقله، فعادت تسأله:

ـ كيف وجدتها؟

ـ كما أريد.

ـ قل لي.. من هي؟ وما شكلها؟ واسم أبيها، وعائلتها؟

ـ لا أدري..لا أدري..كل الذي أعرفه أنها تناسبني.

ـ وكيف عرفت؟

ومضى يشرح لها ما قرأه في إعلانات الزواج التي تنشرها المجلة، وكيف هي مجرد أوصاف وأسماء مستعارة، وأفهمها كيف يستطيع أن يتصل بها عن طريق المراسلة، و...إلى آخره...

واطمأنت بعض الاطمئنان، ومضى هو يحرر رسالة إلى المحرر طالباً فيها إرسال صورة فتاته بعد أن شرح كل وصفه وما يتمناه، وأرفقها بصورة لطيفة من صوره العديدة.

وجاء البريد يحمل رداً قصيراً من المحرر ورسالة طويلة من الفتاة، ومجموعة صور مختلفة للفتاة في شتى الأوضاع، فتارة أمام البيانو، وآونة في الحديقة الصغيرة تتعهد ريها، وأخرى في شارع فؤاد، ورابعة في حفل راقص.

وأحس بالسرور يغمره وهو ينقل بصره من هذه الصورة لتلك، ومن رسالة الفتاة إلى خطاب المحرر، ومضى يقلب الصور في نهم ظاهر، وجمع الرسالتين والصور وأودعها جيبه القريب من قلبه، وانطلق كالقذيفة إلى غرفة أمه يريها فتاة أحلامه التي حمل البريد له صورها ورسالتها.

وحدث أمه عما يعرف عن الفتاة من رسالتها التي قرأها منذ هنيهة وأفهمها كل شيء علمه عن الفتاة، حياتها، وضعها، دراستها، والدها، ووالدها...

وانطلق إلى غرفته دون أن ينتظر رأي والدته، ومضى يحرر أول رسالة منه

لحبيبته في ذلك الطرف السعيد: مصر.

وكانت رسالته آية في البلاغة ومعجزة في التعبير عن كل ما يجول في نفسه وإحساساته وشوقه وأحلامه.

حدثها كثيراً عن غرامه الذي ينتظره، وعن محيطه الذي يعيش فيه، ودخله الذي يقبضه...

حدثها عن شعوره الملتهب واندفاعه الجنوني.

حدثها عن والدته العجوز التي تقبع دائماً في كرسيها تطرز ما في يدها من قماش.

وتمنى لو قدم ساعي البريد كل آونة فيتسلم ما يطفئ ظمأه ويروي غلته.

وجاء الساعي يحمل رسالة معطرة اشتم منها رائحة (الشانيل) الذي يعجب به هو الآخر.

وتعجب حقاً، فهي تحب من العطور ما يحب، وألقى بما في جيبه من نقود للساعي المسكين الذي أخذها مطرقاً ومضى في طريقه يتمتم بدعواته التي يجيدها.

وفتح الرسالة، ليجد الدعوة الصارخة تنفذ إلى أعماق قلبه، فهي تود رؤيته حالاً وفي مصر.

وسار إلى أمه نشوان طرباً، وأفهمها في كلمات معدودة أنه قد صمم على السفر إلى مصر، ومضى إلى ديوانه ليحضر إجازته وينهي معاملة سفره.

واستقر به المقام في فندق كبير من فنادق القاهرة ينتظر نتيجة محادثته التلفونية مع فتاته المهذبة.

وجاءت والنسيم يداعب شعرها الذهبي، وتلقته في لهفة الصديقة، وقضت معه ساعات يتحدثان فيها عن شيء واحد هو الصدفة الحسنة الموفقة.

ومضت الأيام وهو في كل يوم يهتدي إلى الجهل المطبق الذي تعيش فيه الفتاة رغم ثقافتها العالية عن جغرافية الحجاز وأخلاق أهله وعادات بلدته.

كان يستمع إلى حديثها عن نساء بلدته المتوحشات، وعن بيئته العائلية المطبقة الجهل، وجوه الشرقي الملبد، وكان يصحح لها أخطاءها في التفكير

عن حال ذلك البلد المقدس.

وكانت تقول في استغراب بأن شهور الحج هي شهور العمل، أما بقية العام فهي عبارة عن خمول وبلادة.

وتقول إن بلاده العزيزة أشبه بأفقر بلدان الريف في بلادها العظيمة.

وتقول إن أمه ولا بد تستعمل شغل الحصير والمكانس من جريد النخل لا التطريز كما سبق وكتب لها.

وسألته عن البلد الذي تلقى فيه تعليمه، فقال:

ـ مكة.

فاستغربت، ولم تصدق.

كان يعتقد أن جهل الأمريكيين بعادات مصر، وأنها بلد غير متمدن، تمرح فيه الجمال والدواب ويعيش فيه الحريم بمحيطه الضيق أمر سيئ.

أما الآن، فهو يعتقد بأنهم معذورون لجهلهم، لأنهم أبعد الناس عن الشرق وطباعه وعاداته.

أما جهل المصريات بعادات الحجاز وتقاليد بيئته، فأمر صعب لا يحتمل خاصة من الطبقة المتعلمة.

وكانت في كل مرة يناقشها فيها، تهز كتفيها بلامبالاة وكأن الأمر لا يعنيها، أو كأنها لا تصدق ما يتفوه به.

وفي رأيها عن الحجاب، قالت بأنه عادة ممقوتة في زمن المدنية حيث يجمل بنا أن نتركها للجدات اللاتي ذهب زمانهن دون رجعة، بينما كان يعتقد أن الحجاب هو الستار الوحيد الذي يفصل المرأة عن الرجل، وكان يفهمها بأن مصر لم تنل كل هذه الحضارة دفعة واحدة.

وخطر بباله أن التقصير في الدعاية الإيجابية عن بلاد الحجاز يعود إلى فئة المطوفين، وهو الذي ساهم في نشر الشائعات السلبية التي ترددها الفتاة، حيث كان يفترض بهم أن يقوموا بواجبهم في ترحالهم شارحين بالأساليب الحديثة حقيقة البلد المقدس.

وأخيراً، أجهده التفكير فيما سيؤول إليه حاله إذا ما قدر لهذه الفتاة أن

تكون زوجته، ورأى أن من الخير له أن يهرب من وجهها خاصة وأنه أحس بعدم مبالاتها وفتور صداقتها له.

كان يحبها فعلاً ولا يطيق الابتعاد عنها، ولكنه كظم كل شيء، وحالت كبرياؤه دون أن يستعمل الضغط عليها.

وشكر للأستاذ السباعي القصصي المصري المعروف كل الذي كان يقرؤه له من نقد قصصي عن مصر، فقد كان يريد الخير لأهله وعشيرته بنقده الرائع لكل ما يراه غير ملائم لشرقيتنا الحبيبة.

وأخيراً، سافر إلى بلده، ووجد والدته وأخته برفقة عمه العجوز في استقباله في المطار مع الخادمة الجديدة.

وفوجئوا عند رؤيته وحده يحمل محفظته الجلدية. ولما سألوه عن فتاته، قال باختصار:

ـ ذهبت.

قالوا:

ـ إلى أين؟

قال:

ـ مع الريح.

وابتسم، ففهموا ما يعنيه.

ومضى إلى الفيلا ليضع قرب بوابتها الخارجية اللوحة الجديدة النحاسية التي جلبها معه من مصر.

لم تكن اللوحة هذه المرة تحمل اسم فيلا راوية أو ازدهار كما كان متوقعاً، وإنما كانت تحمل جملة واحدة ولكنها خالدة: (فيلا للإيجار)، فقد كان مستعداً أن يؤجر فيللته وقلبه في آن واحد إن استطاع.

أما حلمه الأخير، فلا يدري أحد متى يتحقق.

وأظن أنه لن يتحقق، لأنه كان قد أحب فانشغل بالذكرى، وقد يكون في الذكرى لذة، وقد يكون فيها شغل.

كانوا يضعونها في طريقه دائماً. وكان يشمئز من فكرة قرانه بها، فهي في نظره أبعد من أن تكون له.

فيها خشونة، واستهانة، واستكانة، وكل شيء فيها يخيفه إلى درجة الجنون. حتى نظراتها إليه تحمل إلى نفسه كل انقباض ووحشة وكآبة.

وكان يضطر إلى استقبالها وأختها تلك التي يحبها من كل قلبه في داره عندما يعن لعائلتهما أن تقوم بزيارة عائلته حيث تربط بين العائلتين قرابة عائلية متينة تصدت للتقاليد فحدت من شوكتها في سبيل لقائهما المشترك.

وتتابعت تلك الصور في مخيلته تحاكي أوضاعاً مختلفة لأويقات سعيدة عارمة وأويقات أخرى قد تكون في غاية الشقاء يستشف منها آلامه وآماله عندما كان عنده آمال وآلام. أما اليوم، فهو مجرد رجل في الحلقة السادسة من عمره يقضي بقية حياته في ترديد تلك الذكريات.

إنه يحس بالاتعاظ عند رفض طلبه في الاقتران بتلك الفتاة التي يريدها، وتزداد نفسه ألماً عندما يعلم السبب، فهو في الحقيقة ليس إلا واهناً ضعيفاً وإلا فكيف تسول لتلك العائلة نفسها الرفض لمجرد أن على الكبرى أن تتزوج قبل الصغرى؟

وتذكر في تلك الآونة المشهد الأخير عندما كانت سعاد في غرفته تذرف الدمع وهي ترى بأن سعادتهما في طريق الزوال نتيجة رفض والديها.

كم بكى تلك الليلة، وكم أحس بالغصة والمرارة والحنق والغضب.

وكم سعى إلى أن يأتي أمراً كان قد رتب ملابساته وظروفه في مخيلته وإن لم يكن قد قدر له أن يصبح في حيز التنفيذ لا لخور في نفسه، وإنما خوفاً من التقاليد التي تربطه برباط متين صارم.

ويلذ له أن يتابع تلك الذكريات، فيقف عندما يأتي الفرج في شخص قريب له أخذ تلك الفتاة ليودعها داره كزوجة له، فأصبح من الميسور له أن يعيد الكرة فيطلب يد سعاد.

وشق عليه أن يتذكر تلك الشهور عقب أفكار الخطبة ورفضها وما تلاها من إجراءات كان أهمها بقاء فتاته بعيداً عنه لا يرى حتى خيالها اللطيف وهي متسربلة بعباءتها السوداء.

لقد أنكر عليها والداها عليها حتى مجرد الزيارة لعائلته، وقد قاسى من تلك الغيبة الأمرين، وشعر بضيق الحياة وخلوها من مباهجها.

حتى أصدقاؤه نالهم منه الكثير والكثير.

لقد كان نزقاً معهم، دائب التفكير، شارد الذهن، وكانوا لا يعرفون شيئاً عما يعتمل في ذهنه.

ويجول بطرفه، وكأن الموقف الفريد أمام عينيه يتجسم بحوادثه وأشخاصه، فهل ينسى تلك اللحظة عندما جاءت والدته الراحلة تزف إليه بشرى نتيجة محاولتها الثانية لخطبة سعاد، وكيف كان تلقيها خبر القبول منهم واستعداداتهم جميعاً للقيام بشؤون الزفاف؟

كيف مرت ليلة الزفاف تلك، وشهور العسل التي تلتها؟

وكيف كان استقباله للقادمة العزيزة التي دخلت قلبه من أوسع أبوابه؟

وهل ينسى الموقف الفريد بمباهجه وأضوائه؟ وهل ينسى تلك المجموعة اللطيفة من النساء وهن يحطن العروس العزيزة بسياج من الأضواء البراقة كشموع عيد الميلاد وهي تحيط بتورتة أنيقة؟

وحديثه وحديثها...كيف بدأ في تلك الليلة؟ وابتسامتها الجميلة، وعناقها الحار، واستقبالها اللطيف لشخصه...

ليال وأيام ليست من أيام البشر أو لياليه، ولأنها في نفسه أقوى وأكبر من كل فرحة وأنس.

والسنوات الأربع التي تلت الزواج كيف مضت كلها هناء وسعادة وحبور.

ويوم زفت إليه بشرى أمومتها في كسوف محبب وبصوت خفيض، كيف هزه الخبر، وكيف انتابته السعادة لمجرد شعوره أنها ستكون أماً، فاحتواها بين ذراعيه أمام كل من في الدار ليقبل ثغرها الباسم دون خشية، فاجتاح وجهها كسوف لذيذ إذ كيف يحق له أن يقبلها على رؤوس الأشهاد؟

واجتاحه شعور بالسعادة غمر قلبه فشع في نفسه أحلاماً عجيبة، وتخيل المولود الذي سوف يرى النور، وسوف يكبر، وسوف يلعب تحت ناظريه.

وجاء المولود في هذه المرة بنتاً فيها شبه عجيب بأمها لدرجة تكاد تكون فيها نسخة عنها.

وفجع يومها بوفاة الأم، وكأن الدنيا لا تتحمل وجودهما معاً.

كان بكاؤه عليها صياحاً ونحيباً. واختلطت الأصوات في مخيلته فلم يعد يرى أي منطق في كل الذي يحدث.

والتمس العزاء في أن يوفر لابنته كل سعادة ملقياً بحياته وهنائه وكل شيء فداء وقرباناً لها.

وعز عليه أن ينفرد بتربية الطفلة دون أمها. ومضت سنوات وهو يتعثر لا يعرف من الحياة إلا ومضة من سعادة لا يكاد يلمحها حتى تخبو.

ومضى يعيش على تراث الماضي من ذكريات تنير له الطريق تلك الشمعة الصغيرة: ابنته الغالية.

كان كراهب في معبد يمضي في صلواته وانقطاعه عن الناس ليؤدي فرائض ربه، وكان ممعناً في ترمله لا يريد بغير ابنته بديلاً.

عاش سنواته كلها وهو ماض في طريقه غير عابئ بألم أو نصب.

وكبرت ابنته مع الأيام، وأصبحت على أبواب حياة أخرى غير التي تعيشها. وهو يرى بنفسه الزهرة وهي تتفتح فتعطي شذى عطرياً هو بالنسبة إليه كأجراس الخطر عندما تؤدي وظيفتها. وهو يحس بأن زواج ابنته هو عبارة عن

القضاء التام على كيانه، فهو يعيش لها وبها تؤنس وحدته وتحيل صحراء حياته القاحلة إلى مروج خضراء.

وهو لا يطيق مجرد التفكير في ذلك اليوم حتى عندما عرضت فكرة زواجها من ابن خالتها التي يكرهها فرفض الفكرة رفضاً تاماً لا جدال فيه.

وقدر لي أن أفاتحه في الموضوع، فجاهر في رغبته أن يسد الطريق أمامي، ولكنني اخترت من الألفاظ ما يداعب فؤاده.

قلت:

- ألم تشعر بالزراية عندما رفض طلبك؟ ألا تفكر قليلاً، فقد تكون ابنتك هذه تريد الزواج أو تفكر فيه.

قال وهو يجهش بالبكاء:

- لقد أصبت، ولكن ما العمل؟

قلت:

- تستطيع أن تسألها إن كانت تريد الزواج منه، وهي لن تنكر إن كانت راغبة.

قال:

- وإن يكن في ذلك نهايتي؟

قلت:

- وإن يكن.

ومضى عني وهو يقول:

- سأفعل...سأفعل فهي إرادة الله.

بلا عنوان

عاش يرقب الفتنة في وله فريداً معذباً، يرى الحياة صورة فريدة لامرأة كاملة تحيط بها أنوثة صارخة تنفذ إلى الأعماق في ثورة مشبوبة، وقد كان في السابق يرهبها، بل ويخافها لأنه لم يقدر له بعد أن يراها في تلك الصورة الجلية الواضحة من تعليم منطقي مهذب.

وكان يأنف أن يلقي بسمعه إلى صوتها وهو يصدر من جنبات داره لأنه لا يعتبرها في حياته إلا متاعاً ميسوراً لا يتطلب الوصول إليه سوى قدرة وتحمل واستطاعة وميسرة.

وهو، في كلتا الحالتين، متطرف يمضي في سخطه لا يلوي على شيء، ويمضي في كرهه في استماتة غريبة، ويمضي في حبه لها إلى أبعد درجات الحب، وفي شوقه إلى منتهاه.

متناقضات تلك التي تعيش في نفسه..كيف وفق بينها؟ فهو يكره حتى مجرد ذكرها أمامه في السابق، ولا يعني هذا تحديداً في شخصية المرأة، بل أية امرأة كانت.

أما الآن، فهو غير ذلك لأنه شعر بأن الفتنة امرأة والحياة أم.

ما الذي غير طباعه وطغى على شخصيته فغدا من المنتصرين لها الحامدين لفضائلها، الشاكرين لإحسانها، القائمين على نجدتها ومعونتها؟

وهو هو، بابتسامته الواهنة، وقلبه الواجف، وروحه المرحة. لم تنل الأيام ولا السنون من جذوة نشاطه، بل أكسبته رحلته التعليمية شيئاً آخر فاستمالته إلى ضيافة المرأة بكل جوارحه.

عاد يثني على صفاتها، يريد أن يأخذ بيدها إلى مصاف الفتيات الشرقيات في البلدان العربية المجاورة وبجرة قلم لأنه يريدها هكذا.

ولكن.. أنى له أن يفعل؟ وهل في مقدوره أن يغير المجتمع في غمضة عين؟

والمجتمع هو هو، بفضائله ونقائضه. يقسو في حكمه على الأفراد إن خرجوا عن دائرته ومدار هيبته ولم يستسيغوا الخضوع له، يقسو لأن في قسوته عوامل محيطية تشعره بأن يجب عليه أن يحافظ عليها ما دام فيه نفس يتردد وقلب يخفق.

وهو يرى في المجتمع الذي كان يبجله ويحترمه شوكة تغص حلقه وتنغص عليه عيشه، وتأخذ منه جل وقته في مناهضة لا فائدة منها.

ومضى في أحلامه يردد ذكرياته الحالمة عن أيام كان يروي فيها عينيه من الفتنة المتعلمة في بلد عاش جزءاً كبيراً من حياته فيه هو الذي اعتقد أنه السبب فيما أفسد عليه وما ألقى به من محنة.

وأحلامه هذه هي مدار أحاديثه وأصدقاءه في مجتمعاتهم الضاحكة، يزجي بها إليهم في ثورة عنيفة حيناً، وفي هدوء غريب آخر، وإن كان لا يرضى إلا بالتعقيب الموافق على كل ما يقوله في هذا الصدد.

وكان يشعر بالسخرية من عقلية كل من يناهضه من أصدقائه، ويصف تعقيبه أو مناوأته بأنه مجرد مجون، وخلاعة، وقلة تربية، وذوق فاسد.

أما صديقه، فقد كان راضياً بعض الرضا عن حالة مجتمعه ووضع فتياته الراهن، يريد لهن التعليم في جو نسوي خالص، ويخاف عليهن من الطفرة، ويعتقد أنها عين المحال.

ولطالما سأله صديقه:

ـ وبماذا تفسر تلك القصص التي نسمعها يومياً على صفحات الجرائد والمجلات الشقيقة، تزجي بها على قرائها في نظرة المستحيل بعينه؟ فهذه الفضائح هي الأخرى نتيجة حتمية لتصدع المجتمع وعدم قدرته على ربط كل شيء في تلك البلدان برباط الدين الوثيق.

أما هو، فكان يقول غير ذلك، لأن ما يصدر عن المجلات لا يقصد به التشهير بقدر ما يقصد به العلاج، علاج كل شيء. ففي كل مجتمع روابط عقيمة وحالات غريبة تستدعي علاجها منذ ظهور أول بادرة.

وتضاربت الآراء ما بين محبذ ومعارض، وتكاثرت الأقوال في تلك الجلسة. أما صديقنا، فقد كان على رأيه، لا يحول عنه قيد أنملة، فهو يعرف الدواء ويريد أن يعالج به مجتمعه.

أما بقية أصدقائه، فقد كانوا جميعاً مبتسمين يضحكون لآرائه الغريبة، وكان يشعر بسخريتهم تلك فلا يتحاشاها، ويرى الإشفاق في عيونهم فلا يأبه له، ويعلم بأنهم ينظرون إليه نظرتهم لمجنون.

وكيف لا، وهو في مهبط الوحي ومعدن الرسالة، يريد أن يرى فتياته يخطرن في جنبات الطريق سافرات يرتدن دور العلم جنباً إلى جنب الرجل، ويبحثن عن العمل في المستشفيات وغيرها ليسددن النقص الذي تعمل الحكومة على تلافيه من ممرضات البلدان المجاورة، تستمد منهن القيام بالعمل وما يخفف عن المريض علله وآلامه، فلا عجب أن يسمي أصدقاؤه أفكاره تلك بأنها ترهات بينما يرى هو غير ذلك.

وقدر لي أن أغيب عن مجتمعهم سنوات طويلة كنت أتابع صديقي فيها في رحلاته الطويلة، أشاركه التفكير فيما يكتب لي من رسائل طويلة أحياناً ومقتضبة أخرى وهو يشد الرحال من هذا البلد إلى ذاك من المشرق إلى الغرب يقتبس النور من مناهل العلم في أمريكا الضاحكة.

أما تلك الآراء التي كان أصدقاؤه يسمونها ترهات، فقد كانت ترهات ضلت طريق الصواب فعلاً.

وعاد إلى بلاده رجلاً غير الذي كنت أعرف. فقد صار يهضم الفكرة ويدافع عنها في اعتدال حتى إذا ما علم خطأه، تنازل في غبطة عنها، وكنت أظنه سيعود يوماً وينفذ ما أراد فيكون كبش فداء.

أما هو الآن، فقد أصبح منطقياً يعيش للواقع ويرعى مجتمعه ويريد إصلاحه بالمقدار الذي يرى فيه الخير. وها هو قد فعل فاستحق التقدير.

صديقي العزيز

لا يا صديقي.

لم تعد بي القدرة على أن أكتم وأخفي عنك ذلك الإحساس الكامن المتشعب المنبعث من أعماق نفسي في ثورة حقيقية. فلقد حاولت وجاهدت أن أنأى بك وبراحتك من أن ينالها ألم أو يثيرها عذاب.

لقد كنت أنت السبب في كل هذا، فلولاك لم أكن أنا في مثل هذا الوضع، فأنت الذي قضيت علي وعلى كياني.

قد تكون خطيئتك، وقد تكون خطيئتي أنا... ولكن، ما ذنبي في أن أمضي هكذا وحيداً في عذابي؟

أليس من حقي عليك أن تشاركني المحنة كما شاركتني الراحة؟

أليس من حقك أن تفكر فيما جلبته علي وعلى حياتي أنا الذي سأذهب ضحية تصرفات خاطئة كنت أنت السبب فيها؟

إن من حقي أن أحب، وإن من حقي أن أغار على من أحب رغم ما قلته لي يوماً بأن طريقة معاملتي للمرأة هي طريقة خاطئة يجب علي ان أنبذها.

وقلت لي بأن علي ألا أعتقد بوجود الصداقة المتينة بين رجل وامرأة، وبرهنت على قولك بحديث طويل مستفيض كنت فيه كلي آذان صاغية.

قلت عن المرأة إنها في مجموعها ليست إلا شموعاً تنير الطريق وتبعد شبح الظلمة، وتحرق نفسها إن لم تجد من تحرقه.

وقلت بأن شبابنا هذا يجب ألا يضيع سدى في نزهات العقل، وأحكام الفضيلة.

وكنت أراقبك وأنت تتكلم، أراقب خلجات نفسك المنعكسة على وجهك الأبيض الدقيق الذي كنت أشعر من خلاله بإحساساتك الكامنة المتبلورة فيما تقوله من كلمات.

كنت أراقبك وأنت تتحدث، فيخيل إلي أنك قد أصبت بسعار سيقضي عليك وعلى كل من حولك.

وكنت أجد اللذة في أن أقارن بينك وبين نفسي، وأحس المتعة وأنا أحاول ترويض نفسك القلقة وروحك الملوثة.

وكنت أعتقد أنني سأستطيع، ولكنني...أخفقت!

كنت تضحك عندما أشتط في طلباتي فأطالبك بالفضيلة. وكنت تسخر عندما أحدثك عن التقاليد، تلك التي تراها أنت ألعوبة شاءت يد المجموع أن تبقي منها ما أرادت، وأن تذهب بالباقي إلى حيث تريد.

ومع كل هذا الاختلاف في النظريات والتفاوت في الأخلاق، كنا صديقين تجمعنا الصداقة بأمتن رباط.

وكنت أنال التقريع واللوم من والدي على صلتي وارتباطي بك دون أن أبعد، أو حتى أفكر في أن أكون يوماً ما، أنا وأنت، غير أصدقاء.

ورويداً رويداً، بدأت أحس بتأثيرك السيء في نفسي وفي أخلاقي...

بدأت أشعر أن شبابي هذا لا بد وأن يذبل يوماً كما تقول، وأنه سيذهب دون ما عودة، وعندها لن أستفيد شيئاً.

وبدأت آرائي تلتقي بآرائك، ونظرياتي بنظرياتك، وكأنها وحدة متكاملة البنيان، فأصبحتُ صداك في تفكيرك، وذهبت بعيداً في التهام نظرياتك حتى غدوتّ شخصاً آخر لا ينتمي إلى شخصي الأول، بل يدوس كل تلك المعتقدات والتقاليد ما عدا شيئاً واحداً كنت أنا وأنت أوفى الناس له، وهو الصداقة.

كنت لك كالبنيان المرصوص، أشد أزرك في الملمات، وتشد أزري في الحوادث. وغدونا مرتبطين بعضنا ببعض ارتباطاً أقوى من ذي قبل، فقد جمعنا تفكيرنا المشترك بعد أن جمعتنا صلة الصداقة، ولم أعد أحس خوفاً ولا خشية عندما أشاركك كل شيء يعجبك.

كنا نلتهم ما يصادفنا من لذة، ونغوص في أدران الرذيلة، لا يتفوق أحدنا

على الآخر في ذلك المضمار.

وصرت أنظر مثلك إلى المرأة على أنها متعة زائلة يجب أن أنال منها ما أستطيع.

ولم أرعو، ولم ترعو أنت، بل زدنا إمعاناً في ضلالاتنا، فقادتنا أقدامنا إلى مواطن الفتنة كما كنت تدعوها.

حتى تعرفنا أنا وأنت على صيد جديد.

كانت زميلتنا في الدراسة. في وجهها براءة، وفيها سذاجة لطيفة. وضحكت أنت عندما حدثتك عن سذاجتها الظاهرة.

أما أنا، فقد بدأت أحس بأنني عائد إلى حظيرتي الأولى، حظيرة الفضيلة لأقلع عن كل ما تهاويت إليه، وفضلت أنت أن تزيد حنقي بتسفيهك لآرائي الجديدة التي كنت تقول عنها إنها "عود على بدء".

ورأيت أن أجاملك، فتقبلت منك نقدك ولذعاتك، ونكاتك.

ومضيت لأول مرة إلى داري ونفسي تغلي، وقلبي الذي يحبك أصبح يكرهك، وكنت تحاول جهدك أن تضيفها إلى من تعرف من الفتيات وبطرقك الخاصة التي أعرف أكثرها.

كنت تجاهرني بآرائك كلها، وكنت أحاول أن أبعدها عنك قدر ما أستطيع حتى إنني أفهمتها في ساعة غيظ حقيقة نفسك وموقفك وأفكارك المسمومة.

وكنت تستمع إلى حديثي دون تعقيب، واحترت في حقيقة الأمر، فهي لا تنأى عنك وإن كنت أنا نفسي قد نأيت عنك.

وظننت أن في الأمر التباساً، فقد تكون هي قد أخذت ما كنت أقوله عنك حقيقة ثابتة عني وعن نفسي.

ومضيت ثائر الخاطر عندما علمت أنها تواصل زيارة عائلتك، أو بالأحرى زيارتك، فقد كنتما تقطنان في شارع واحد.

ودعتني لزيارتها يوماً في حفل متواضع بسيط ذكرته في مجرى حديثها لي بأنه حفلة تعارف.

وفي الحفل نفسه رأيتك تضحك وتبتسم وتلهو وتلعب.

وتناهت لي ضحكاتكما أنت وهي في البلكونة الصغيرة وأنتما تنظران إلى البعيد، فأحسست بخنجر مسموم يصوب إلى قلبي مباشرة.

ولم أستطع البقاء بعد كل الذي رأيت، بل مضيت إليكما مباشرة لأنهي إليها في كلمات قليلة غير كاملة، وإن كانت مفهومة، أنني ذاهب، وكانت عيناي تفصحان بأنني لن أعود.

ولم تكلفا نفسيكما عناء توديعي، بل قدمت هي لي يداً باردة أودعتها ضغطة رقيقة، وتابعت سيري بعد أن أودعتك نظرة حانقة.

سرت كالتائه لا أحس ولا أشعر بمن كان أمامي من رفاق وأصحاب، وتقلبت ليلتها على فراش من الشوك أحسست فيها تلك الهوة السحيقة التي ستنحدر إليها الفتاة والتي ستفصلني حتماً عنك وعنها.

وآليت على نفسي أن أعاود الكرة فأفهم الفتاة موقفك بكل صوره ومخازيه، ولكنها لم تلتفت لكل ما قلت، ومضت عني كلغز، ومضيت أنا مشدوهاً.

ولا أزال مشدوهاً حتى الآن لا أفقه شيئاً مما أراه أيها...الصديق.

لقد أحببتها فعلاً ومن كل قلبي تلك الفتاة، ولكنك غلبتني على أمري ونكدت عيشي.

ويومها يا صديقي لا أدري ما الذي هز كياني تلك الهزة العنيفة.

كانت بطاقة مذهبة تلك التي تسلمتها من الساعي، وكانت تحمل دعوة حفل شريف لم أعتده منك، وكأنك قد غلبت على أمرك.

لقد فرحت يا صديقي وإن كنت فعلاً قد هدمت سعادتي باحتوائك لها بين جدران بيتك.

لقد حطمتني، ولكنك أنقذتها، فقرّ عيناً بها، وإن شئت الحق، فهي التي أنقذتك وشفتك من غرورك وآثامك.

لقد أصبحت زوجتك، فهنيئاً لكما بالعش الصغير الجميل.

وهنيئاً لها.

ولي ..أيها العزيز.

زوجة أب

ما هذا الذي يراه؟

أهو في حلم أم في يقظة؟

أهي نفسها أم مجرد خيال؟

تلك التي تحنو عليه بابتسامتها الصغيرة، وتحكم حوله لحافه الحريري ليشيع فيه الدفء اللذيذ في هذا الشتاء القارص في هذا الوقت المتأخر من الليل.

حقاً لقد مضى عليها في وقفتها تلك وهي ترقبه يتصنع النوم العميق وقت ليس بالقليل.

ها هي تلقي نظرتها الأخيرة وتمضي في هدوء إلى الباب لتفتح مزلاجه في سكون وتقفله بعد أن تودعه بنظرتها الأخيرة المملوءة حناناً ورعاية.

إنه لا يصدق عينيه، وإلا كيف بالله عليك تثمر قسوته عليها حناناً منها ورعاية؟

ومضى يقلب فكره في أسباب هذه الرعاية، فهو لم يكن يوماً يحمل لها أدنى ود أو عطف في قلبه الصغير.

وكيف يفعل وهي تشاركه حب والده الذي يراه بقلبه ويفكر فيه بجوارحه دائما، والده الذي لبى دائماً طلباته، وتفانى في تقديم السعادة له.

كان يعتقد في قرارة نفسه بأن خنوعها وصبرها الدائم على كل خناقاته وحماقاته الصغيرة ومشاكساته لها وتلقيها كل ذلك برحابة

صدر، وصمتها عن إخبار والده عن كل ذلك ليس في الوقت الحاضر إلا لتدبر وسيلة تنتقم فيها منه شر انتقام.

أما كونها تحنو عليه كما رآها بالأمس، فهو آخر أمر يحلم فيه أو يفكر.

ولذ له أن يتمثل صورة وجهها آنذاك، فسره أن يراه محوطاً بنظرات إنسانية رفيعة، وكأنها في صفائها نظرات أم تشفق على وليدها الصغير من لفحات البرد.

وفكر في أسباب حنوها الغريب، فلم يجد له أي مبرر، فهو لم يكن يوماً قد حياها في ابتسام، أو تحادث معها في هدوء.

كان كل حديثه معها شجاراً وأوامر يلقيها في عجلة ولا ينتظر منها إلا الرد بالموافقة.

وفكر في أمره، فقد تبلدت أحاسيسه نحوها منذ اليوم الذي قدر لها أن تطأ فيه قدماها دار أبيه.

وكان ينظر إليها، وإن تكون هي في الواقع أخت الراحلة، وكأنها تريد أن تحتل مكانة أمه من قلب والده.

لم يكن يدري الأسباب التي أدت إلى قبولها ذلك الوضع وهي الفتاة الناضجة المملوءة حيوية ورشاقة، ولطالما تساءل بينه وبين نفسه:

ـ كيف تقبل أن تزف مكان أختها الراحلة؟

وكان يسمع بأن كثيراً من الشبان قد خطبوها لأنفسهم، ولكنها فضلت أباه عليهم جميعاً.

لم يكن يعرف أنها، بعملها هذا، تريد أن تحافظ على كيان أولاد أختها، لا سيما تلك الصغيرة التي لم تمض في الحياة سوى أسابيع قليلة.

لم يكن يخفي اشمئزازه من مجرد رؤيتها في الدار تقدم الراحة له ولوالده وجدته لأبيه، وكان يتقزز منها عندما يراها ترضع أخته الصغيرة من بزازتها الزجاجية.

ولم تكن هي تعرف سبباً لكراهيته لها، كما أنها لم تسال والده إيضاحاً عن ذلك. كانت تمضي في ترتيب غرفته بعد أن يخرج منها صباحاً إلى مدرسته،

حتى إذا قدر له أن يراها بعد عودته لا يلقي إليها تحية، يل يمضي في إلقاء ملابسه هنا وهناك يتلذذ بمرآها وهي تجمعها لتضعها في الخزانة المخصصة لهذا الغرض.

أما أبوه، فلم ينفذ حبه له أو يفتر حتى بعد أن دخلت خالته أخت أمه الراحلة إلى مملكته.

وكان يستمع إلى حديث جدته العجوز وهي تحذره من زوجة أبيه، وتشعره بأنها ولا بد ستؤلب يوماً والده عليه.

وكان ينصت إلى حديثها وقلبه يرتجف غضباً وغيظاً، خاصة عندما تذكر له مكائد زوجات الأب حتى لو كن أخوات للزوجة الراحلة.

لقد ساعدت بحديثها على تسميم أفكاره، وزادته بغضاً على بغضائه، وها هي السنون تمضي وخالته في صبر أيوب ترعاه وتكلأ أخته دون أن تنتظر منه كلمة تشجيع أو إطراء، وكانت تلك الليلة أول ليلة يحس بها وهي تدخل مخدعه لتغطيه من البرد.

وفكر في الأمر، فلم يجد جواباً، فالمنطق يقضي بأن تقابل إساءاته بمثلها وأن تصرف قلب والده، أما هي، فلم تفعل شيئاً.

ورأى أن يواجهها بالأمر في حضرة أبيه عند تناول الغداء، فلم يجد الجواب عندها أو عنده.

وفكر بخياله بما سيلاقيه من إهانة والده له عندما يسمع استفساراته تلك، فجبن ومضى في صمته دون أن يطلب منها أو من والده أي استفسار.

وعندما رآها للمرة الثانية تسير على فراشه لتغطيه في سكون وتخرج دون جلبة، شاء أن يتابعها حتى إذا ما اطمأن لقفلها الباب، نظر من ثقبه ليراها تقوم بالعمل ذاته مع أخته الصغيرة.

وشعر بأن الواجب يقضي عليه أن يفعل شيئاً ليغطي كل إساءاته لها. وأحس بدموع الخجل وهي تنهمر على صفحات خده، وصمم أن يستشير جدته في الأمر قبل أن يتقدم باستفساراته.

وذكرته جدته بكل ما كان بين والدته وخالته من خصومة وتجريح وكره

متبادل، وأنها تريد أن تغطي موقفها هذا فقط بما تفعله الآن، كما أنها لن تعدم الوسيلة في أن تثير سخط والده عليه، ولكنه لم يقتنع بمنطقها.

وفي الصباح، قر عزمه على أن يلتقي بخالته على انفراد، ومضى يبحث عنها في أرجاء الدار حتى وجدها أخيراً أمام فراش أخته تداعبها في غبطة.

قال:

ـ خالتي.

والتفتت هي إليه لتراه يقول:

ـ قد أخطأت في حقك.

ونظر إلى وجهها فرأى البشر يحيط بقسمات وجهها النبيل وكأن حياتها كلها فرحة.

قالت:

ـ لا يا بني، فأنا المخطئة.

قال:

ـ لا ..لا تقوليها، فلقد عذبتك معي كثيراً، وها أنذا اليوم مذنب يريد المغفرة فما رأيك؟

ـ لم تكن أنت المذنب بل أنا إذ لم يكن لي الحق في أن أكون في موضعي هذا لولا والدتك الراحلة. وأنت تعلم مقدار التناقض في شخصينا، فقد كنا على طرفي نقيض، وكانت إحدانا لا تحب الأخرى لحماقات كنت لا أتحملها منها عندما تبدر، ولكن عندما فاجأها المرض، وأحست بدنو أجلها، أرسلت في طلبي، وتصافينا، وأخيراً طلبت مني ومن والدك أن أكون خليفتها. وها أنت ذا تراني قد نفذت الوصية.

وترقرقت عيناها بالدموع ثم أجهشت في البكاء، فمضى يهدهدها حتى عادت إلى سابق هدوئها.

وعندما استأذنها في الذهاب إلى المدرسة، كانا مثال الأم وابنها، فمضت تودعه بقبلة على جبينه، وأحس ساعتها مقدار ما ضحت خالته من أجله.

ومضى ليعود إلى الدار شخصاً آخر، وسار إلى غرفة المائدة ليأخذ نصيبه

من الغداء، ولم يكن يومها مكتئباً أو حزيناً، ورأى والده وهو يضمه إلى صدره عندما قدم لخالته طبق الحساء في حنو، واستمع إليه وهو يقول:

ـ ها قد صح ما ظننت، فقد عرفت من نفسك مقدار ما تقوم به خالتك من خدمة وراحة لك ولأختك. ولم أرد يومها وأنا أرى الاشمئزاز في نفسك أن أزيله، بل تركته لها لتزيله هي بيديها عن قلبك.

وتابع الأب:

ـ اسمع يا بني...لقد استمعت إلى حديثكما معاً اليوم.

وأطرق الأب، وتابع:

ـ ألا ما أرحم قلبها أيها العزيز، فهي صنو والدتك المرحومة.

واندفع خليل إليها فرحاً، ومد كلتا يديه ليطوق عنقها، وهتف من أعماقه:

ـ كم أحبك يا خالتي العزيزة.

عروس من القاهرة

وجدته ساكناً يناقش نفسه في هدوء وسكون وعلى وجهه كل معاني الألم، فسألته عن السبب وأنا أعلم منه بمرحه وبهجته، فقال لي:

ـ كنت في غمرة اليأس أتلمس المخرج من هذه الورطة، فها هو ذا الموسم يكاد ينتصف وعندي رغبة تتجاذبني بأن أقذف بنفسي من تيار هذا المجتمع، وبحثت عن الطريقة التي تمكنني من أن أبعد عن هذه الحياة فلم أجدها.

أتعرف؟ كل حياتي وحياة أسرتي المكونة من أبي الضعيف وأمي العجوز وأختي العانس تتركز على هذه الشهور القليلة حيث إنني في كل عام أفكر في إيجاد سبيل يزيد من إيرادي من هؤلاء الحجاج حيث أقوم بكل أنواع الدعاية التي تضمن لي أكبر عدد منهم، ولكنني أرى الأمر على عكس ما أصبو إليه.

لكن فشلي في تأمين الأفضل لم يزدني إلا تشبثاً بهذه الحياة، فحياة عائلتي على عاتقي، وكلهم يرى فيّ رجل العائلة الذي يعتمد عليه، مما يزيد أعبائي ويكاد يقصم ظهري.

كنت أدخر القرش على القرش، وأبحث عن المزيد، ولكن الذي أطلبه يزداد نقصاً، وتزداد الأيام معه عبوساً وتجهماً.

ولمعت عينا صديقي وقال:

ـ حتى جاءت هي، وكانت مصرية لحماً ودماً..وعرفت عنها كل ما أود معرفته، ولاحظت هي، بذكائها المفرط، ما بي من وجوم، ولمست شرود ذهني وانشغال خاطري رغم أنني كنت أحاول أن

أحبس دمعي حتى لا تراه، وأسأل الله الرزق ، فقد كانت هي وأبويها العجوزين كل ما عندي من الحجاج.

كنت أحبس نفسي بعيداً في غرفتي، ولكنها كانت تطرق بابي وتستفسر عن أسباب انشغال فكري الذي تراه واضحاً رغم ما أحاول من إخفاء له.

وعندما كان الموسم قد شارف على نهايته، ولم يعد من أمل برزق جديد، صارحتها بكل ما أحس به رغم أنني كنت أبعد ما أكون عن حالة البوح.

لكن حنوها واهتمامها أجبراني على أن أفتح قلبي، فأفصحت لها عما أعانيه رغم أنني حاولت في الأيام التالية أن أمثل دور الرجل القوي غير العابئ بظروفه الخارجية، حيث بدأت أقر أن موسمي الفاتر ما هو إلا قدر عليّ أن أقبل به.

وسلمتني رزمة من الخطابات بعد أن رجتني أن أوصلها بنفسي إلى البريد. وعندما جاءت الباخرة، جاءني معها البشير، ، ففيها لي ما يقارب خمسين حاجاً.

وتهللت نفسي بالبشر، وهدأ روعي، وغادرني قنوطي، وفكرت في الأمر...فمن أين لي هذا العدد وأنا لم أكن قد ذهبت تلك السنة إلى مصر للدعاية كما كنت أفعل في السنوات الماضيات؟

وأيقنت بأنه المخرج أرسله الله لي كرزق حلال.

وجاءني الفوج الأول، وكلهم يحمل بطاقة توصية مكتوب عليها : (من عبد الله بك توفيق).

وقلبت البطاقة، وعدت بذاكرتي إلى الوراء محاولاً أن أتذكر الاسم.

من يكون عبد الله بك توفيق هذا؟

أصديق عرفته ونسيته؟

ولم أجد الجواب، إلا أنني أدركت كم كنت غبياً إذ لم يخطر ببالي انتهاء اللقب بلقب الفتاة المصرية ووالديها.

وعندما اكتشفت السر، سألتها عنه فلم تشأ أن تخبرني بأن عبد الله بك هذا هو عمها، بل أجابتني إجابة مبتورة قائلة:

ـ لا شك أنه تصادُف في الألقاب وحسب.

ولم أكتف بهذا، خاصة عندما لاحظت الارتباك ظاهراً في حديثها، فسارعت لأسأل والدتها عن الصلة بينها وبين هذا الشخص.

وعرفت من والدتها جلية الأمر.

أتعرف ما هو؟

لقد كتبت عزيزة، وهذا هو اسمها، إلى عمها، وهو رجل مرموق في إدارة الجوازات بأن يسلم كل من يعرفه من الحجاج بطاقة باسمي موصياً إياه بالسؤال عني في جدة، ولم تشأ، بالطبع، أن تبوح لي بما فعلت.

وطلعنا جميعاً لأداء الفريضة والوقوف بعرفة، وكان مجموع ما عندي من الحجاج في ذلك العام يربو على الأربعمائة حاج، وفرحت العائلة واستبشرت وإن لم أشاركهم الفرحة، فقد كنت طوال الوقت أفكر في السبب الذي حدا بالفتاة أن تساعدني هذه المساعدة.

وعلمت من والدها بأنها قد تخرجت من الجامعة الأمريكية قسم الصحافة، وأنها متدينة، وأنه راض عني كمطوف، وأن نزوله عندي كان مجرد صدفة حيث وصلته بطاقتي التي كنت أوزعها على الحجاج كغيري.

وقال لي إن ابنته معجبة لكون أحد المطوفين شاب مثلي، فقد كانت تعتقد أن من يقوم بهذه المهمة لا بد وأنه قد بلغ سن الشيخوخة.

وعدنا من الوقوف بعرفة، وخلع كل منا ثوبي الإحرام بعد أن أتم مناسكه.

وعقب عصر أحد الأيام، طلعت إلى حيث إخوتي وأهلي في الطابق العلوي بالمنزل، وهناك رأيت عزيزة غارقة إلى أذنيها بين مجموعة كتبي في الغرفة الصغيرة.

وعندما دخلت إلى الغرفة، نظرت إلي واعتذرت وكان في يدها كتاب شعر لشكسبير، وسرعان سألتني:

ـ أتجيد الإنجليزية؟

قلت:

ـ طبعاً.

وأردفتْ:

ـ ولو أن صراحتي هذه ستؤلمك، فإنني لم أكن أتوقع أنك تجيد الإنجليزية، وأن مكتبتك مليئة بمثل هذه الكتب.

وآلمتني بالفعل صراحتها تلك، وتجهمت قليلاً، ثم قلت:

ـ لك كبير الحق ألا تتوقعي هذا، لأن من كان مثلي، يجب أن يكون في حال أفضل من حالي بكثير. إن بلادنا حديثة العهد بالمدنية الحديثة، ولكنها مهنتي ولو لم أكن أجيدها. ولولاك لكنت هذا العام مثار الإشفاق من جميع إخواني.

ولكنني قلت بصدق واندفاع:

ـ لكنني أحب مهنتي، أحبها من كل قلبي، وبكل عرق ينبض في. ألا يكفيني أنني بهذا العمل قد أديت بعض الواجب الملقى على عاتقي وجميع أبناء مكة في سبيل خدمة حجاج بيت الله الحرام بما فيهم أنت؟

وصمت، فعلقت:

ـ أنت منطقي وهذا يعجبني فيك...

وأطرقت للحظة، ثم رفعت إلي نظرة خجلى مصحوبة بتهدج في صوتها وهي تقول:

ـ كما أنك وسيم.

لم أكن أتوقع سماع جملتها الأخيرة، بل لم أرتح لها، ففكرت في كل هذا، ولم أنته إلى شيء، فما كان مني إلا أن ألتزم الصمت ريثما أعود إلى حالتي الطبيعية، حيث انشغلت وإياها في البحث في خزانة كتبي عن كتب أخرى، حيث أخرجت كتاب (رباعيات الخيام) فتناقشنا فيها كثيراً، وانتزعت من نفسها الإعجاب، وأزلت العجب الذي أوقعتها فيه حيث كانت تعتقد أن ممارس هذه المهنة لا يتقن قراءة الكتب الثقافية، وهي آراء أثارت دهشتي أيضاً.

وسافرت هي للمدينة برفقة والديها، وأبقت عندي مجموعة كتب من ضمنها كتاب (الله) للعقاد.

أتعرف ما الذي تغير؟

لقد قرأت ما تركته بدقة وإمعان، ورغم هذا، خرجت مع حجاجي أعمل كمن يحلم، فلم أحس بالتعب والكلل للمجهود الذي أبذله إلا بالسعادة والراحة حتى سافروا جميعاً إلى المدينة وانتهت مهمتي.

ووصلني البريد يحمل كتاباً مطولاً منها ذكرت فيه كل ما رأته في مدينة الرسول الكريم، وما أعجبت به وما لم تعجب، وصار البريد يأتيني منها دائماً ببعض الرسائل.

وفكرت بيني وبين نفسي عن مدى إعجابي بهذه الفتاة، وبحثت عن شتى الدوافع التي دفعتها لأن تقوم بتلك الخدمات وعن وعن.....

وأخيراً عرفت هذا كله لتعليمها العالي وبيئتها الطيبة وروحها الفتية، ولكن اهتمامي برسائلها كان زائد الحد.

وأحسست بنوع جديد من الإحساس يغمرني.

وأخيراً، ثبت لدي أنني أحببتها وأريدها كزوجة. وعند هذا الحد من التفكير، ضحكت لغفلتي...

وحادثت نفسي:

ـ هل يمكن أن يحدث هذا؟

وعدت لأنفي الفكرة:

ـ لا بد وأنني مجنون، فما أدراني أنها ستقبل الزواج مني؟ ثم...ألا يوجد في مصر شباب تستطيع الزواج من أحدهم بدل الزواج مني أنا الغريب عنها؟

وقطع علي تفكيري قدوم ساعي التلغراف، فتسلمت التلغراف المعنون باسمي بلهفة ملحوظة، وشعرت بنبضات قلبي تزداد وتشتد.

كان التلغراف باسمها، وقد قالت فيه إنها في طريقها من المدينة إلى جدة، وإنها ترغب في وجودي بها عند عودتها.

وأسلمت ساعي البريد كل ما كان في جيب من نقود، وأجمعت على السفر إلى جدة.

وسافرت إليها.. وهناك انتظرتها، وعندما وصلت، استقبلتها وأبويها كما

يستقبل المرء أعز أصدقائه، وانتقلنا إلى الفندق لنقضي يوماً كاملاً.

كانت متعبة، ورغم ذلك، كنت ألمح في وجهها أشياء كثيرة محببة إلى نفسي. وبينما كانت تنام وقت القيلولة، بقيت فاتحاً عيني على وسعهما أفكر بها هي التي لا يفصل غرفتها عن غرفتي إلا بهو صغير.

وعندما أفاقت، داخلني شعور ملحّ بأن أنهض بدوري وأقف في البهو، وعندما فتحت باب غرفتي، لمحتها مستلقية على أريكة مريحة وهي ساهمة الفكر، وعندما اقتربت منها، تهللت أساريرها، ودعتني لشرب الشاي معها.

وبدأت الحديث معها قائلاً:

ـ لا أعلم حتى الآن الأسباب التي دفعتك للاهتمام بي وإسداء ذلك المعروف الذي يطوق عنقي، فهل لي أن أسأل آنستي الصريحة فتجيبني؟

ولم تجب إجابة صريحة، بل عمدت إلى المراوغة، وفي كل مرة أعود فيها إلى سؤالي، كانت تدير الحديث ببراعة إلى اتجاه آخر. ورغم أنها لم تجبني إلى طلبي، فقد استمتعت بأحاديثها التي تنوعت وطالت تلك الليلة.

وجاء الصباح، وفي طياته نبأ السفر، فلقد صح العزم على مغادرتهم جدة جواً إلى القاهرة.

وذهبت معهم إلى المطار لأودعهم حيث بقيت أرقب الطائرة وهي تعلو في السماء إلى أن غابت وغابت معها زائرتي اللطيفة عن ناظري.

وعدت إلى مكة وفي قلبي لوعة من أحب فأخفق. وبعد أيام، تسلمت رسالتها التي قالت فيها وبصراحتها المعتادة إنها تود أن تراني هذا العام ضمن زوار القاهرة كسابق عادتي، ولاسيما وأن حالي قد تحسن.

وقالت إن لديها حديثاً خاصاً لا ترغب أن تصارحني به الآن، وإنما ستهمس لي به في أذني مما شغل فكري وبالي.

والتفت صديقي إلي يسألني:

ـ أتعرف ما الذي ستهمس به في أذني؟

قلت:

ـ لا أعرف، ولكنني أستطيع أن أخمن أو أتوقع.

ولما سألني عن تخميناتي وتوقعاتي، لم أجبه إلا بقولي:

ـ سأنتظر أقوالها هي.

وافترقنا أنا وهو، وعاد لي يوماً في مكتبي، وقرأت في وجهه علائم البشر والسرور أتبعها بقوله:

ـ هل تعرف ما كانت عزيزة تريد أن تهمس لي به؟

سألت باهتمام:

ـ ما هو؟

قال:

ـ لقد اختارتني زوجاً لها، وأقول اختارتني هي لأنني لم أكن لأجرؤ على طلب كهذا فجرؤت هي.

وهنأته يومها، وغادر مكتبي على وجه السرعة وكأنه على موعد هام مع السعادة.

وبعد شهور، عاد إلي يحمل هدية متواضعة قال إنها من زوجته، فقد حدثها عن كل ما قاله لي.

وهززت رأسي شاكراً هدية العروس الصحفية التي استطاعت أن ترسم على وجه صديقي البشر والهناء.

الرسالة الحاسدة

يا صديقي العزيز:

لقد اختلفنا فجأة، ومضيت أنت وذهبت أنا ولم يكن بيننا سوى الذكريات لأيام كنا فيها أكثر من صديقين. وقد تكون أنت على حق، وقد أكون أنا على صواب، ولكن ليس هذا الذي أريده.

إن ما أريده هو أن أقول لك: لقد وصل كلانا إلى أوج مراده. أنت بأحلامك التي حققت الكثير منها وعلى النطاق الذي تريده، وأنا بواقعيتي تلك التي استطعت أن أنال بها الكثير والكثير. وهكذا شاءت الأقدار أن نختلف وأن نمضي وأن نصل جميعاً إلى غاياتنا التي تحققت.

ستذكر ولا بد يوم قلت لك بأن أحلامك ليست سوى قصور من الورق صورها لك وعيك الباطن فلم تعد تعي ما تفكر به. وقلت لي بأنني إنسان صلد لا قلب له، وأن قلبي الذي أحمله هو قلب من حجارة.

وضحكت منك وأنت تصف نوع الحياة التي تريدها في ظل بيت وامرأة وأطفال وكأنها هي كل شيء لديك.

وتشاءمت مني عندما قلت لك بأن رائدي في الحياة هي السعادة في ظل المادة.

وضحكنا أنا وأنت لتلك الأوصاف التي لا أريد ذكرها، والتي نعت بها كل منا الآخر بها.

ولكنك أنت، بحساسيتك المفرطة، شئت أن تجعل ما قلته لك

يؤثر شيئاً فشيئاً في تلك الصداقة المتينة التي كانت تجمعنا طوال أيامنا الماضية.

وعدت إلى زيارتك، وعدت أنت إلى زيارتي متحفظاً بعض الشيء، وكان في نفسك إحساس بأنني ظلمتك وقت تحدثت عن أحلامك، فجئت ليلتها تؤكد حقيقة جمال الحياة ما دامت أعيننا تراها كذلك، وإن كان الفقر أحد ثالوثها المفزع.

كنت متطرفاً في أفكارك أيها الصديق، ولم أكن مخطئاً عندما سفهت رأيك وجادلتك كثيراً لأقنعك ولأشاركك أفكاري تلك التي أعتقد أنها على صواب إذ إن المال عصب الحياة الدائم.

وخرجنا معاً من تلك الزيارة لنستنشق الهواء النقي في مكان آخر. وذهبنا سوياً إلى الحفل المقام في دار صديقنا فريد، وبقيت هناك ساعات وساعات، ولم يكن عندك أية رغبة في البقاء ومشاركة من في الحفل البهجة حتى أطلت هي، فرأيت السرور يغمر عينيك.

رأيتك أنت الهادئ اللطيف وقد علت وجهك معالم البهجة، وشاعت في جسمك الحركة، وازداد وجيب قلبك، وفريد يقدم لك زميلته سعاد تلك التي كانت تشاركه الدراسة.

ومضت عنا سعاد لتشارك فتيات من أترابها الحديث عن الجو وما يقال عادة في مثل تلك المناسبات.

وتنقلت عيناك تجوس وجوه الفتيات جميعاً، لكنهما استقرتا على قسمات ذلك الوجه النبيل الهادئ، وجه سعاد.

كنت أراقبك أيها الصديق في كل حركاتك. وعدها سألتك عما أصابك وإذا ما كان كيوبيد قد أصابتك سهامه، ضحكت وأجبتني عن سؤال المحرج:

ـ لا أدري.

صدقني أيها العزيز عندما أقول لك بأنني أن الآخر قد تمنيت يومها لو كانت تلك الآنسة زوجتي، وكنت أشاركك الفرحة وقلبي يرقص طرباً كلما عادت سعاد إلى مجلسنا.

ولكنني فضلت الاحتفاظ بإطاري التقليدي، فلم أرد أن أكاشفك بما يعتمل في قلبي. وكانت لحظة حاسمة عندما طلبت منك سعاد أن تسمعها إحدى قصائدك الجديدة، خاصة وأن صديقنا فريد كان قد قدمك إليها كشاعر.

ومضيت أنت تتلو إحدى أشعارك الرائعة في تؤدة، تضغط على الألفاظ عندما ترى أن ضغطك يساعدك على أن تظهر المعنى أوضح وأوضح.

كانت حقاً قصيدة حالمة فيها أصداء الحب واضحة جلية. والتفت إلي لتقول لي هامساً بأنك قلتها لساعتها بعد أن رأيت سعاد في تلك الحالة.

وكانت سعاد معجبة بك أشد الإعجاب، فمضت تستحثك في أن تسمعها شيئاً آخر من شعرك، وفعلت عن طيب خاطر.

ومرت أكثر من نصف ساعة كنت تتلو فيها أشعاراً لا أفهمها، فقد كانت مليئة بالرقة والشفافية كما قالت سعاد عنها، وكانت مليئة بالعذوبة كما قال عنها فريد.

وشاء شيطاني أن أداعبك فأقاطعك بسخرية طالباً منك أن تصمت، فصمتّ أنت والألم يحز في نفسك، وعاتبتني سعاد على فعلتي التي أعتقد أنها لم تكن من الذوق في شيء.

وخرجت أنا من حفلكم بعد أن ودعتكم، وشئت أنت ألا تودعني كعادتك، فمضيت دون أي تعليق يحتج على فعلتك.

ونسيتك، وتناسيت سعاد، وتركتكم جميعاً، ولم أعد أفكر في رؤية أحد من الأصدقاء الذين شاركونا المتعة في ذلك الوقت.

مضيت لغايتي أجمع المال من شركتي الصغيرة حتى كبرت. واليوم وقد مر علينا أكثر من عشرين عاماً، تعال نتحاسب أيها العزيز.

إن ما جنيته أيها الصديق هو هذه الثروة التي تسمع عنها، وهذه العمارات الضخمة التي تعرفها، وهذه المكانة المرموقة التي يحسدني عليها الكثيرون، والتي لا أشك في أنك لا تحسدني عليها.

وجاءت علي سنوات عجاف اجترت كل حيويتي وشبابي، فلم أعد سوى عجوز ليس له في الحياة إلا أن يعمل ويعمل ويعمل.

لقد فقدت الدار الأنيقة، والزوجة الجميلة، والأطفال أيضاً.

فقدتهم جميعاً لأنني لم أقدم على أي شيء من هذا القبيل. فقدتهم وفقدت الاستقرار.

أما أنت، فحياتك كما أرى كلها سعادة، فسعاد زوجتك اليوم تعيش برفقتك، وطفلاك رأيتهما بالأمس شابين وقد جاءا يطلبان العمل في إحدى شركاتي، فأعجبت بهما وبذكائهما وحيويتهما.

وسألتهما عنك، فقالا لي بأنك لا تزال تقرض الشعر، وتعزف الألحان، وإن إيرادك يكفي لأن تعيش حياة رغد، واستغربا أن أكون صديقك، إذ أعتقد أنك لم تحدثهما مطلقاً عن صداقتنا التي عفت عليها صروف الزمن.

لقد غبطتك، وغبطتك أيها العزيز، وشئت أن أشعرك بما أحسسته نحو حياتك ومثاليتها، فكتبت لك هذه الرسالة، فعسى أن نعود أصدقاء كما كنا في الماضي، الماضي الذي ذهب وأرجو أن يعود أيها الصديق العزيز.

أحزان الربيع

إن الشيء بالشيء يذكر.

لقد حركت قصتك في نفسي أوتار القلب فهزته كما هزتني تلك القصة وأشجاني ذلك العذاب النفساني الذي أحاط بك وبه، فلولاك لما قدر لي أن أقول كل شيء، فأنت وحدك السبب.

لقد عرفت كيف تحرك كوامن النفس، واستطعت أن تزيل عنها سابق صمتها، وعملت على أن ترفع الستار عن ذلك الحادث البعيد في ذلك الظرف البعيد.

قد تكون فيها ـ أي القصة ـ مواساة لك عن مصابك، وقد لا تكون أنت ورأيك...

إن قصة صديقي تبدأ في الربيع، ربيع الحياة، وربيع العمر. هناك على شاطئ الحياة كنا نلهو فلا ندري من أمرنا إلا اليوم. أما الغد، فقد نسيناه أو تناسيناه.

وفي الربيع، تكون النفس شاعرية بدون إرادة أو رغبة، لأن الحياة فيها كأكمام الورد لا تتفتح إلا لتغض عينيها من جديد.

وليالي الربيع تلك كانت حديثنا، لا تفوتنا مهما كانت مشاغلنا، ونجد في إحيائها لذة لا تعادلها لذة ولا يفوقها هناء.

وكنا ثلاثة، كما نحن اليوم. جمعت بين قلوبنا أواصر المحبة وربطتها بأمتن وثاق، حيث كنا نغدو جميعاً على الحياة بقلوب الشباب وإهابه، ونتلظى بنار الشوق، ونكوى بنار الوجد، ونسعى لاقتناص اللذة اللهم إلا أحدنا.

كان يختلف عنا في كل شيء إلا في كونه صديقنا. ففي سماته هدوء، وإن كان يشاركنا المتعة، وفي قلبه الطيبة وإن كان يشاركنا السخرية، وفي صوته رنة الأسى.

كنا نفتح له قلوبنا، وكان هو يأبى أن يحدثنا عن أحزانه، رغم أنني كنت أحس بأن حياته كلها أحزان.

والتأم عقدنا في ليلة مقمرة تجلت فيها السماء كشموع نورانية تضيء كالعقد المنظوم، وتطل إلى العالم، عالمنا هذا في تيه وخيلاء.

ومضينا في خطى سريعة إلى الربوة الغربية بعد أن مللنا النظر ومضينا وفي خطواتنا فرحة منطلقة سبقت أنفسنا فانطلقت من بين أقدامنا إلا هو فقد بدأ يتكاسل بعض الشيء، وتطل من بين عينيه أحزان الأيام وشقاء الليالي، وتنعكس على وجهه تباريح الأحزان وقد هدته الأيام فأحالت حياته جحيماً لا يطاق.

وسألته فلم يجب، بل فضل الصمت وإن لم أفضله أنا.

وشئت أن أروح عن نفسه بعض الذي علق بها فلم أستطع، فبدأت أحس بأنني مسوق لأن أكون مثله.أو ليس صديقي؟

وجلسنا جميعاً على الأرض الخضراء في استرخاء، ولكنه لم يكن لذيذاً هذه المرة، فلقد بدأ يشغلني أمر ذلك الصديق.

وتحدث صديقنا الثالث ليقص علينا بعضاً من مغامراته أيام كان يعيش في باريس الماجنة حديثاً مستفيضاً لا ينقصه ولا أقل القليل من التفاصيل... ولم أكن ساعتها أعرف عن الحياة سوى ذلك البلد الصغير، بلدي ومسقط رأسي.

كنت أستمع إلى حديثه وأنا في واد آخر، فقد شغلني التفكير في أمر صديقي هذا الذي بجانبي.

وجاء ذكر الربيع في غابات بولونيا على لسان صديقي، فاهتز كيان الآخر اهتزازاً شعرت به وإن كاد يخفيه عني في تلك الساعة.

ومضيت أثرثر مع الآخر في ترهات صبيانية وأفكار لا تمت إلى الواقع بشيء، فقد كنا نعيش في أحلامنا بقلوبنا الصغيرة الواجفة.

وعدت لأسأل صديقي الواجم قائلاً:

ـ أو يهزك ذكر الربيع هكذا فلا تستطيع نسيانه؟

وانفجر في وجهي قائلاً:

ـ لقد كان مصابي في الربيع.

ولم أشأ أن أضيع الفرصة، فعدت أطلب منه أن يكمل القصة، فقال:

ـ لقد مات والدي في الربيع، ولحقت به والدتي في الربيع أيضاً، وكان هنالك أكثر من مصيبة نالتني جراحها وكانت كلها تأتي مع الربيع.

وتنهد صديقي وأكمل:

ـ لقد عرفتها يوم خطت قدماي إلى الكلية التي تعلمت فيها. عرفتها إنسانة رقيقة مهذبة فيها صفات ناطقة من والدتي التي فقدتها في الربيع. وامتزجنا سوياً لا يفرق بيننا ما تتناقله الألسنة عنها، فلقد سددنا المنافذ كلها لنطل فقط على تلك السعادة التي كنا نحس بها ساعة اللقاء والنزهة.

وكنا في تفكيرنا شخصاً واحداً. فما أقدمت على التفكير في شراء شيء إلا وسبقتني في استيفائه، وما فكرت يوماً في زيارتها إلا ورأيتها أمامي تحمل تحت إبطها حافظتها الجلدية وقد رصت فيها كتباً كثيرة فكانت من جملة ما كنا نقرأه في مذكراتنا.

وكنا نجتمع دائماً تحت سقف دارنا أو دارهم، فقد غاب عني أن أقول لك عن أختي كانت تشاركني في ذلك الحين كربة بيت، فقد كانت في سن تسمح لها أن تكون كذلك.

ولم يكن بيننا سوى الإعجاب المهذب، فهي تعجب بشخصيتي، وأنا أعجب بأخلاقها وقوة تفكيرها واستعدادها الفطري لأن تكون ربة بيت مقام تلك الوالدة الراحلة.

وكانت أختي هي الأخرى حفية معجبة دائمة السؤال عنها والاستفسار عن موعد قومها حيث تقضيان الساعات تلو الساعات معها تقرءان وتثرثران كعادة كل النساء، وكنت أحياناً أقوم بدور المستمع لتلك الأحاديث التي كن يخترنها دائماً من واقع الحياة وأوضاعها.

ومرت الأيام، فتحول الإعجاب إلى حب كامل مهذب لا تخدشه ضمة أو لمسة أو قبلة. حب عذري بلونه الزاهي الجميل حتى تخرجنا وقر قرارنا أن نتزوج، وذهبت يومها لأقدم تهاني على نجاحها ولأتقبل التهاني على نجاحي.

وقابلتها في مدخل االدار في فستانها كطاووس جميل، وعلى رأسها اللباس التقليدي للجامعة تلك التي كنا ندرس فيها معاً. وصافحتني بكلتا يديها، ومضت بي إلى الدار وكأنها ترقص في مشيتها.

وفاتحتها في أمر الزواج، فاتسعت شفتاها عن بسمة جميلة، ووضعت كلتا يديها على قلبها وكأنها تخاف أن يقفز هو الآخر من موضعه. وبقينا في مكاننا نتحدث عن الأمر في روية حتى جاءت والدتها واختارت مجلساً قريباً من موضعنا.

وتحدثنا قليلاً عن النجاح الهائل الذي اكتسبته ابنتها في الدراسة، فقد كانت الثالثة في مجموعها، وعندما طلبت أمها أن تكلمني على انفراد، أخذت فتاتي طريقها إلى الخارج لتترك لنا حرية الحديث.

نظرت في عينيها فوجدتهما تتألقان بالفرحة الكامنة التي تضطرم في جوانحها، ولم أكن أقل منها فرحاً أو سروراً، ولكن الموقف جعلني أتغلب على إحساساتي فأكلم والدتها في هدوء عن أمر الخطبة.

ورغم استحسان والدتها، فضلت أن تسألها رأيها، كذلك أن تسأل والدها، وخرجت بعد أن ودعتاني.

لقد صفقت نفسي فرحاً وأنا أحدث أختي في الأمر، ومضت أختي تدردش فيما تريد أن تفعله ليلة الزفاف، وكيف ستكون الحفلة، وراحت ترسم في مخيلتها كل شيء يمت إلى الفرح بصلة.

ومرت أيام طويلة فوجئت بعدها بطلبي من قبل الأم هاتفياً وتبليغها قبول الخطبة مما أشعرني بالسعادة العظمى.

وسارت أيامنا على تلك الوتيرة من السعادة ونحن نعد العش الجميل لليوم المعهود، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قطع علي سعادتي فانقلبت أيامي إلى تعاسة خالصة.

قلت:

ـ اختارت غيرك؟

قال:

ـ ليتها فعلت.

سألته:

ـ إذن؟

قال:

ـ أخذت الترام قبل يومين من ليلة الزفاف لتشتري بعض الملابس من الأسواق، وكانت برفقة أمها العجوز. وعند النزول، انزلقت قدما الأم من فرجة الباب، فكادت أن تلتهمها العجلات، لأن الترام لم يكن قد اختار الوقوف بصورة دائمة، فلم يكن من خطيبتي إلا أن قبضت بكلتا يديها على يد أمها، وكان الاندفاع من جهة الأم عنيفاً، فلم تتحمله المسكينة، فسقطت على رأسها ووالدتها عليها.

وأمضت ليلتين في المستشفى كنت خلالهما لا أذوق النوم لأن النوم قد جافى عيني.

وفي الليلة الثالثة، الليلة التي كان يفترض أن تكون ليلة زفافنا، استودعتنا الله إلى النهاية المرموقة.

وأمضيت الليالي أؤنس تلك الأم حتى ضقت ذرعاً بحياة الألم، فعدت إلى بلدي برفقة أختي، وها أنذا أجتر الذكريات، ذكريات الربيع.

لقد مضى على الحادثة أعوام ثلاثة، ولكن ذكراها لا تزال في خاطري، تقض مضجعي دائماً، والليلة أيها العزيز توافق تلك الليلة، ليلة زفافها ووفاتها، فلقد قضت نحبها في الربيع، ربيع العمر وربيع الحياة.

الصدفة الموفقة

من محاسن الصدف أن ألتقي بصديقي سمير على ظهر باخرة من تلك البواخر التي تمخر عباب البحار في يسر ودون مشقة.

كانت من ذلك النوع الأرستقراطي اللطيف، ففيها كل معدات الراحة والتسلية، وكأننا نعيش فيها على ظهر مدينة صغيرة.

وفي البحر، يحلو الانطلاق من إسار التزمت ومشاغل الحياة، وقد يكون في الانطلاق أكثر الحرية.

وفي البحر من الروابط ما يجعلك تبدي الصداقة لكل من يجاورك، سيان في غرفة المائدة، أو على ظهر الباخرة أثناء الاستحمام.

والبحر نفسه يقضي على كل التوافه التي تعيش في قلوبنا أثناء الإقامة في المدن، فلا كبر، ولا فوارق، وإنما تسامح وروح طيبة.

وصديقي كان من ذلك النوع المتعالي الذي يحب أن يعيش في أبراج عاجية، يحلو له أن يستكبر ويعلو ليظهر من شأن نفسه.

وكنا نعرف عنه كل هذا فلا يغيظنا، بل إننا تعودنا أن نكيل له الصاع صاعين. وكان يؤلمه هذا النوع من المعاملة، فيتهرب من مجتمعاتنا ثم يعود صاغراً بعد أن يرى نفسه وقد أحاطت به الوحدة من كل جانب حتى كان ذات ليلة وقد طفح به الكيل أو كاد، فما عاد يستطيع مجاراتنا الحديث وقد انزلقت ألسنتنا لتنقب عن المساوئ والعيوب في حياته.

مضى وفي عينيه آثار المعركة وقد اشتعلت في نفسه فأثارتها فلم يعرف ما سيفعل لأنه فقد القدرة على أن يرد علينا تهجمنا.

وذهب ونحن لا نكن له إلا الخير، واسترضيناه أكثر من مرة في

أن يعود إلينا، فلقد أحسسنا جميعاً بالضيق وببعض الذنب لما أصابه من حديثنا، فقد كنا مخطئين في حقه.

لكنه فضل أن يعيش في برجه، وسد في وجوهنا كل الأبواب، فما عاد يروق له الاجتماع بنا والحديث معنا، وتركنا ليبني حياته في فترة تؤرق ليله فيها تلك العقد النفسية التي كنا دائماً نقرنها باسمه.

وظننا أنه نسينا، فتناسيناه، ولم يعد يشغلنا أمر احتجابه وقد طال، ومضينا في حياتنا نعيش الجد وقت الجد واللهو وقت اللهو.

حتى التقينا على ظهر الباخرة..

استغربت منه حرارة لقائه وترحيبه بي واستفساراته المتتالية عن بعض أصدقائنا في ذلك الحين، وكأنه لم ينس.

ولم يكن من الذوق في شيء أن أشير إلى الحوادث القديمة التي عفا عليها الزمان وأسدل ستارة عليها، فمضينا في حديث مستفيض عن الأحوال وما يقال عادة في هذه المناسبات من موضوعات.

وعلمت منه أنه يعيش في بحبوحة من العيش صنعها بيديه بعد أن فقد كل ثروته في ساعة طيش، وفهمت منه أنه يزور أوروبا للمرة الثالثة ليتفق مع بعض الشركات حول تجارته وما تحتاج إليه.

وقدم لي فتاة جميلة في الرابعة عشرة من عمرها، شقراء، أنيقة، لا تشبهه ولا يشبهها، قدمها لي على أنها ابنته، وكان هو أسمر الجبهة لطيف القسمات.

ولما أحس الحيرة تطل من عيني، أكد في حرارة قوله ذلك، وأردف:

ـ ولو أنك سوف تستغرب، إلا أن والدتها أوروبية.

وهدأ خاطري بعض الشيء، ومضى يحدثني عن زوجته تلك التي عاشت معه أربع سنوات مضت بعدها إلى بلدها بعد أن أنجبت له ابنته هذه، وبعد أن فقدت اهتمامها بالشرق وسحره، فطلقها، وهي اليوم زوجة لرجل أوروبي تعيش في كنفه راضية هانئة لا يقض مضجعها سوى فراق ابنتها.

وقضينا ما يزيد عن الأسبوع في تلك الباخرة. ولطول المدة، صرنا نحنّ إلى الأرض، وكانت الفتاة الصغيرة أكثرنا رغبة في الوصول إلى أول ميناء.

وحدثتني الصغيرة عن آمالها وأحلامها بعد أن توثقت بيننا عرى الصداقة،

وكان حديثاً لطيفاً مستفيضاً لا تنقصه الرزانة ولا التحفظ، وكأنها امرأة في العقد الثالث من العمر، فقد كان ذكاؤها أكبر من سنها في ذلك الحين.

واستراحت نفسي لذلك الحديث، فمضيت أستدرجها علها تفيض إلي بما يشغل قلبها الفتى، فقد كنت أحس بأنها تحمل في قلبها الكثير من الأحزان.

واستطردت تقول عن والدتها تلك التي لم ترها منذ أكثر من عشر سنوات كل شيء تذكره، فلقد حال والدها بينها وبين أن تراها بعد أن طلقها.

وأخبرتني في همس، ولأول مرة، أنها أخفت عن والدها أمراً كانت قد دبرته، وهو إرسال برقية لوالدتها تشعرها بسفرها على هذه الباخرة لتدبر الأم من عندها طريقة رؤيتها والاجتماع بها.

وناشدتني الفتاة في حزم بأن أبقي ما سمعت طي الكتمان ليمضي الموضوع كما رسم دون أن يعرف والدها.

وبعد أيام، ظهرت اليابسة لأعيننا جلية، وكانت الشابة الصغيرة أكثرنا فرحاً، ورأيتها وهي تمضي إلى غرفة الباخرة لتغير ملابسها، فقد تقرر بقاؤنا في الميناء لبعض اليوم أو أكثر.

وأحسسنا بعد لأي بامرأة قادمة تطل من عينيها فرحة غير مستترة، ونظرت ساعتها إلى عيني صديقي وقد أصابته طعنة فلم يعد يعي ما يقول.

كان يفكر في أمر المصيبة التي انقضت على رأسه. ومضت القادمة إلى مجلسنا لتصافح زوجها السابق في حرية تامة، ومن ورائها رجل في الحلقة الرابعة من عمره، وطفل أشقر جميل قدمتهما لصديقي على أنهما زوجها وابنها.

وجاءت فتاتنا من الغرفة لتلقي بنفسها بين أحضان أمها التي حرمت منها سنين طويلة.

ونظرت إلى عيني صديقي فرأيته مكتئباً حزيناً يرى أن الأمر قد خرج من نطاق يده.

أما الآخر، فقد كان يربت على ظهر الفتاة بحنو غريب. وسمعت صديقي وهو يتمتم:

ـ يا لها من صدفة.

قلت:

ـ ولكنها موفقة، فقد جمعت الفتاة بأمها.

وأخيراً في مستشفى المجاذيب

ها ها إنه مجنون....

هذا هو رأي الناس فيه.

ألم يعدوه في مصاف المجانين، وإن كان جنونه من درجة ثانوية، من درجة لا تؤذي ولا تضر وإنما تدخل البهجة إلى النفوس؟

لآرائه حكمة، ولحركاته فلسفة خاصة، وكل شيء فيه يبعث على التأمل والسرور والضحك العالي المتواصل.

ها ها ...هؤلاء الأطفال الذين يتابعونه في هدوء وفي ضجة وهو بينهم لا يمت إلى العقلاء بصلة.

وما بال ذلك الطفل الصغير في مكانه بعيداً عنه يرمقه بنظرات غريبة عنه كلها حنان؟

لماذا يختاره هو دون الباقين من الأطفال؟

لا بد وأن هناك شيء يجتذبه إليه! ألكونه نأى عن ترهات الباقين وفضل المتابعة والركون؟

ترى ما الذي يحزنه؟ في عينيه آثار حزن واضحة، ولكنه هو نفسه لا يدري.

وهذا الطفل الكبير ذو الأربعة عشرة عاماً؟ إنه في رأيه لا يقل سذاجة عن باقي الأطفال الذين يتبعونه، ويعتقد فيما بينه وبين نفسه أن لا فرق بينهم وبينه اللهم إلا أن تكون دعابات الصغار أقرب إلى قلبه من دعابات الآخرين.

إنه ينظر إليه نظرته لمجنون فك من عقاله اليوم، وإلا لماذا يترك

صاحبنا دكانه الصغير ليلحق به؟

ها ها...

وانطلقت ضحكاته صاخبة مدوية، وتتابعت التعقيبات من الأطفال في سذاجة ومن الكبار في سخرية.

أما هو، فقد عن له أن يقرأ حالات الأطفال وشعورهم نحوه، فقد أحس بالبشر يحيط قلوبهم وكأنهم يشاهدون موقفاً مسلياً للغاية.

ومضى في التأمل تشفع له ابتسامات الصغار، فراح يداعبهم، وعن له أن يعيد على أسماعهم ضحكاته الهستيرية تلك، لكنه لم يستطع، وإنما أتت ضحكاته الأخيرة صافية صدرت من أعماق قلبه عن رغبة وراحة.

وأحس بميل شديد إلى أن يذهب فيركع على قدميه بجانب الطفل الصغير الذي رأى فيه هدوء الكبار من العقلاء ورزانتهم، ومضى في طريقه لا يلوي على شيء.

وتفرق الجمع الحاشد من الأطفال ماعدا صديقه، فقد بقي على مقربة منه حتى إذا ما وصل إليه رآه وهو يمد يده الصغيرة ليصافحه بها.

وعجب الأطفال لوقوف صديقهم الصغير، فحثوه على الهرب، ولكنه لم يبد ما يدل على إنصاته لهم. ورفع المجنون الطفل بين يديه بما تبقى له من قوة ليودع وجنتيه قبلة أبوية صادقة، ثم أعاده في هدوء إلى حيث كان.

وفي تلك الآونة، بلغ مسامعه صوت الجلبة القادمة، ورأى رجلاً يجري خلفه متوعداً شاتماً مطالباً إياه بترك الطفل والابتعاد عنه، فابتعد المجنون خطوتين إلى الوراء، ثم دار حول نفسه وهو يدرك أن الرجل ما هو إلا والد الطفل الذي واجه أباه بشجاعة قائلاً:

ـ لا يا أبي...إنه لا يستحق الإهانة، فهو إنسان بائس وليس مجنوناً، وأنا أحبه، أحبه.

وبهت الأب أو كاد لكلمات ابنه، وشعر بالخجل، والتفت إلى ابنه ثم إلى المجنون:

ـ نعم.. أنت على حق يا بني، وعفوك أيها الرجل.

التفت المجنون إليه وفي عينيه نظرة شكر، فأطرق الأب برأسه قليلاً، ثم عاد كمن لدغته عواطفه النبيلة، ومضى إلى المجنون يدغدغ تفكيره خاطر واحد هو أن يأخذه ليستقر في داره.

واستأنس المجنون لدعوة الرجل، ومضى وبين يديه حمله الوديع إلى دار الأب تتبعهما نظرات الاستهجان والغرابة.

وفي الدار، أفرد الأب غرفة صغيرة نظيفة أسفل الدار لضيفه المجنون إن صح عليه الوصف.

وبدأت الصداقة بين الطفل والمجنون حتى إن الطفل وجد لذة كبيرة في الاستمتاع إلى حديث الرجل وما يرويه له من قصص طريفة.

وتحسنت أحوال الرجل، وصار الناس يرون فيه الإنسان المهذب الذي لا يمت إلى الأول بصلة، حتى كان ذلك اليوم.

فقد قدر للكبار من الأطفال ذوي الأجسام المفتولة ممن هم في عقليتهم أقرب إلى الطفولة منهم إلى الرجولة، وكان صديقنا سالف الذكر ضمن تلك القلة من فاقدي الضمير.

لقد اختاروا أن يؤذوه ويجرحوه في آدميته وكرامته، فمضى إليهم يرغي ويزبد، وأطبق بكلتا يديه على عنق أحدهم حتى لم يعد بينه وبين الموت سوى حبل رفيع جداً، وتكاثروا عليه وأشبعوه لكماً وضرباً، وعاد هو إلى دار الطفل مشفقاً من أن يراه في محنته أحد لا سيما صديقه طفل الأمس الذي أصبح في الرابعة عشرة من عمره.

ولم يكن حظه طيباً هذه المرة، فقد كان صديقه في انتظاره، وما هي إلا لحظات قصار كافية لأن يعرف صديقه حقيقة الموقف وتلقفه كالملهوف، وأبت عليه إنسانيته أن يعاقبه، فقد كان يشعر في قرارة نفسه بأن صديقه غير مؤاخذ.

وانهمرت الدموع من عيني المجنون، واستاء أن يراه صديقه وقد عاد إلى سابق هستيريته، وتلمس المخرج من ورطته، وطلب في هدوء السماح له في أن ينأى بنفسه عن هذه الدار.

ولكن صديقه أبى عليه ذلك، وطلب منه في هدوء تبديل ملابسه، ففعل

وعادا إلى مجلسهما يفكران في الحدث الذي جد عليهما.

ومضت أكثر من ساعة وكل منهما مخلد للصمت، وقطع عليهما تفكيرهما صوت الأب ينادي من داخل الدار ابنه وصديقه، فمضيا كأحسن صديقين.

واستمرت الجلسة طويلاً كان المجنون فيها يلفت أنظار القوم بنوادره وحكاياته، وقد أعجبوا وهم يرونه إنساناً مهذباً يجيد الحديث ويلقي النكت ويستطلع الواقعة.

ومضى الوقت سريعاً والكل في عجب من أمر هذا المجنون المتهم بتهمة الجريمة تلك التي اقترفتها يداه قبل لحظات.

وطلبوا في إصرار من والد الطفل تسليمهم المجنون فقد رأوا بعد أن فعل فعلته تلك أن جنونه من النوع الخطر الذي لا يستطاع السكوت عنه.

ومرت الأيام والطفل يعاود زيارة صديقه المجنون، ذلك الذي قدر له أن ينزل في مستشفى المجاذيب في تلك البلدة، وفي نفسه ـ أي الطفل ـ أفكار تصم أذنيه.

لقد آمن بأن المجانين هم من يدفعون صديقه لأن يكون مجنوناً.

خذوها مني

خذوها مني حقيقة واقعة أعلنها اليوم على رؤوس الأشهاد لتطل بمعانيها الساخرة الحزينة على هذه الدنيا كقنبلة زمنية قدر لها أن تنفجر على غير ميعاد.

لقد فقدت ثروتي ضمن من فقد ثروته في الحرب العالمية الثانية، فلم آبه لها وإنما مضيت أجر قدمي في عناد وإصرار لأبدأ حياتي من جديد.

وكنت آمل أن يعود الماضي برفاهيته ومسراته دون جدوى، لأن طابع النحس كان قد دفعني منذ ذلك الحين دفعة أصبحت بعدها مثار التعليق والتأويل من قبل كل معارفي وأصدقائي.

ومضيت مع الركب في طريق السعادة، أبحث عنها في كل شيء يواجهني، ولكنني كنت أفقدها بعد أن أطبق على أول خيط منها.

كانت كمن يثير كوامن الغيظ والحنق في نفسي، إن هذه السعادة التي فقدتها كانت تتظاهر دائماً بأنها قريبة في متناول يدي، ولكن لا يمضي بعض الوقت حتى أشعر بأنها ذهبت هكذا فجأة كما جاءت، دون أن تترك أثراً من آثارها الطيبة.

وبدأت أكافح الحياة وأغالبها، وكنت أحاول أن أتغلب على الصعاب والآلام والأحزان التي بدأت تحيط بي وبحياتي من غير فائدة.

إلا أنني، مع كل هذا، كنت لا أزال رافع الصدر، باسم الثغر، يطفح وجهي بشراً، وتتخلل نفسي نزعات إنسانية جميلة.

كنت أحب الحب لأنه الرابطة الوحيدة التي تحيل صحرائي القاسية إلى مروج خضراء. وكنت أميل إلى الصداقة لأنها المتنفس الوحيد الذي كنت أجده في ساعات التأسي والانقباض.

وكنت أكره الوحدة من كل قلبي لأنها تشعرني بعمق الفاجعة، وبمدى ما وصلت إليه من أوضاع مادية متعبة.

وعلى هذا صح عزمي، فتزوجت في الوقت الذي كان يجب علي أن أظل وحيداً لأنني أكره الوحدة القاتلة المميتة.

هكذا عرفت سهاد داري يوم تزوجتها. إنسانة رقيقة مخلصة عاشت سنواتها العشرين في ضنك ممقوت أطبق على تلابيب حياة والديها دون رحمة أو هوادة.

كانت تظن، يوم زفت إلي، أنها ستطلق وإلى الأبد حياة الفقر التي عاشت فيها.

ظنت وخاب فألها، وكانت من أولئك الذين جبلوا على الابتسام مثلي للأحداث دون أن تهزمهم وقائعها، فمضت حياتنا على تلك الوتيرة: قلق يشوبه نوع من التسلية، وسعادة يشوبها بعض الشقاء رغم محاولتنا الدائمة إضفاء بعض الراحة على حياتنا بعد طول عذاب.

أيام من العمر مضت، ولا أعرف كيف مضت، وإن كانت زوجتي تعرف كل تفاصيلها ودقائقها.

ولأنها إنسانة رقيقة العاطفة، مجبولة على الإخلاص والتفاني والتضحية، فقد حاولت جهدها أن تعمل على طريقتها الخاصة مساهمة منها في مساعدتي.

كنت وقتها أهز رأسي نافياً رافضاً قائلاً:

ـ لا يا سهاد...لسنا في حاجة إلى هذا الجهد الذي تبذلينه إلى جانب آلة الخياطة هذه التي بدأت أحس بأنها تشاركني فيك.

وكانت تضحك من أعماقها عندما تسمع قولي هذا، ثم تصمت وتعود إلى عملها.

ومرت الأيام بطيئة مملة. كنت أجاهد وأناضل حتى بدأ اسمي يلمع وتجارتي تربح، وسهاد في طريقها ماضية في عملها في عزيمة وإصرار، حتى

ذلك اليوم الذي لا أدري ما فعلت، لأنني كنت أحلم بالمستقبل القريب.

كل الذي أعرفه هو أنني طوقت عنق زوجتي بكلتا يدي وأنا أقول:

ـ شكراً...شكراً لله وحمداً على نعمائه.

وبدأت أشرب من كأس السعادة، وأحسست بها وهي تسري في كياني كله لتحيلني إنساناً آخر غير الأول.

لقد طلقت الشقاء، أو إن شئت الحقيقة، طلق الشقاء حياتي فجفاني الألم وبعدت عني الأحزان.

مضت كل هذه المشاكل كما تمضي سحابة الصيف السوداء القاتمة في سرعة شديدة، وأحسست بأن الحياة قد أصبحت طوع يدي بعد أن باعدت بيني وبينها الأيام السوداء الكريهة.

وشعرت زوجتي بما أحاط بنا من سعادة، فتركت عملها غير آسفة، وأصبحت تتفنن في إدخال البهجة والسرور على قلبي أنا، أنا وحدي.

صدقوني لا أدري كيف مرت الشهور بصفائها وجمالها وهدوئها الغريب حتى ذلك اليوم، وقت فاجأت زوجتي آلام الولادة، فمضيت بها أسابق الزمن لأودعها إحدى المستشفيات الخاصة رغبة مني في توفير الراحة لها وللوليد المقبل.

ومرت الساعات بطيئة مملة أكثر ثقلاً من السنوات التي مضت، سنوات الشقاء، وكنت خلالها أفكر بالوليد، بشكله، ولونه، وجماله، وتناسق أعضائه...

كنت أفكر في كل شيء...بزوجتي الحبيبة القابعة بجواري على سريرها الأبيض كملاك جميل رائع.

وجاء الطبيب هذه المرة يعلن عن قرب الولادة، ويشكو لي في همس غريب أن الأمر يحتاج إلى عملية.

لا أدري كيف قذفت بكلماتي تلك في وجهه:

ـ عملية ماذا؟

ورد في هدوء:

ـ عملية فتح بطن.

وهززت رأسي وأنا أحمل زوجتي الحبيبة إلى غرفة العمليات وبي إحساس غريب غريب.

بدأ الألم يحيط بي مرة ثانية وفي قسوة غريبة. وخرجت من غرفة العمليات تشيعني نظرات زوجتي وكأنها تطلب مني البقاء، ونظرت إليها مواسياً، وبقيت خارج الغرفة أنتظر الفرج.

لا أدري كيف مرت تلك الساعات القصيرة.

لقد كادت روحي تزهق وأعصابي تتحطم. وبدأت أفقد السيطرة على نفسي، فكنت كمن لدغته أفعى سامة، لا أطيق الوقوف ولا الجلوس، ومضيت أذرع الصالة بخطواتي العصبية المترنحة.

حتى جاء النذير ينهي إلى سمعي بألم مرير نبأ موت طفلي الصغير، ولدي الحبيب الذي لم أره حتى تلك اللحظة.

واندفعت إلى الغرفة لأفاجأ بالمنظر الرهيب.

لقد أثارت زوجتي في نفسي كوامن الحزن، فلم أعد أدري ما أفعل بعد أن رأيت الحزن بأبشع صورة مرتسماً على وجهها.

كان منظرها غريباً وهي تبكي في حرارة وقسوة وليدها الذي ذهب ولن يعود.

وخرجنا من الغرفة ونحن أشبه ما نكون في مناحة نتسابق على إظهارها. وكانت الطامة الكبرى يوم قال لي صديقي الطبيب كلمة واحدة حازمة وجازمة طالباً مني ألا أنجب ثانية، لأن زوجتي التي أحبها لا تستطيع الإنجاب بعد.

مرحباً يا مرض

ليتها تعرف لماذا يطردونها اليوم من هذا البيت الذي قضت فيه أجمل سنوات حياتها.

ليتها تدرك أسباب هذه القسوة المفاجئة.

ليتها تفهم معنى هذا الطلب.

لقد أحست أن هناك سبباً يدعو لهذا الطرد المفاجئ من كلمات سيدتها تلك التي طالما شعرت بالراحة لحديثها وكلماتها الرقيقة.

أما ما هو السبب، فهذا الذي لا تدريه.

كانت دائماً مثال الجد في عملها، تشعر بالراحة وهي تلبي رغبات أصحاب البيت في هدوء وتلتزم بأوامر سيدتها في دقة.

واليوم ليتها تعرف ما تخفيه عنها هذه السيدة الطيبة العجوز ذات الوجه الصبيح رغم التجعدات الظاهرة التي بدأت تشيع في وجهها هنا وهناك في فوضى غريبة محببة.

وعن لها أن تتناول يد سيدتها لتطبع عليها قبلة طويلة شعرت أن حاجتها إليها اليوم أكثر من ذي قبل.

وبدأت تمد يدها لتمسك باليد الرقيقة كعادتها لولا أن سيدتها قد سحبت وفي آخر لحظة يدها تلك في سرعة عجيبة على غير سابق عادة.

أما لماذا، فهي لا تدري. وأحست بالرغبة الملحة في أن تعاود الكرة لولا أنها خافت أن يفسر فعلها بحاجتها للبقاء وعدم الخروج.

وقطعت عليها تأملاتها تلك نظرات سيدتها وهي تصطنع الحدة

قائلة لها:

- تعالي اجمعي ملابسك فنحن لا نريدك بعد اليوم.

وساءها أن تكرر سيدتها كلماتها تلك، فسألتها ولأول مرة عن المبررات والدواعي وعن الأسباب التي ترتب عليها هذا الطرد المفاجئ الثقيل على قلبها.

إلا أن سيدتها أبت أن تجيب، وتركتها في مكانها حائرة لا تدري، تفكر في الأمر، في هذه المصيبة التي نزلت على رأسها هكذا فجأة دون سابق إنذار.

وحانت منها التفاتة مفاجئة إلى المرآة المعلقة على المشجب القريب وساعتها، تراءت لها ملامح وجهها ذلك الذي كانت تضن على نفسها أن تلقاه. وتراءى لها شبح وجهها الكئيب بأنفها الضخم وشفتيها الغليظتين وعينيها الضيقتين، وآثار الجدري المنتشرة على صفحة ذلك الوجه لتزيد على تشويهه تشويهاً أفظع، وتمثلت لها تلك الحفر العميقة أشبه بالنواتئ الصحراوية في أرض صلدة لا نبات فيها ولا شجر.

وتخيلت الأسباب.

ترى هل يكون عدم رغبة العريس الجديد زوج سيدتها الصغيرة في بقائها هنا في هذا البيت هو السبب؟

وناقشت الموضوع من هذه الزاوية، فزواج سعاد قد تم منذ شهرين، فإن كان صحيحاً ما فكرت فيه، فلماذا لم يطردوها منذ ذلك التاريخ؟ واستبعدت هذه الفكرة عن مخيلتها، وهدأت نفسها بعض الشيء.

ولكن لماذا يريدونها أن تذهب؟

وعادت الصور تتوارد في مخيلتها صورة بعد أخرى دون هدف أو غاية. وتذكرت أول يوم دخلت فيه هذا البيت. كانت يومها أكثر من طفلة لا أب لها ولا أم. كان مجرد إنسان صغير لا يعرف في هذه الدنيا إلا أنه وجد. أما كيف وجد، فذلك أمر تجهله.

وترحمت على ذلك الرجل الطيب الذي أمسك بيدها في ذلك اليوم في رفق وحنان، حتى إذا ما وصلت إلى داره، تلقفتها سيدة الدار بكلمات غريبة لم تفهم منها شيئاً، وإن كانت تحس اليوم بمعنى تلك الكلمات.

وتصورت حالها بعد أن جردها الحلاق من شعرها الأجعد العميق الجذور. لقد فضلت ساعتها أن تهرب من البيت، من كرم سيدها وعطفه ما دام سيحرمها من شعرها ذلك الذي كانت تظن بأنه لن يعود.

ولكنه عاد إلى سابق عهده، أكثر خشونة وفوضى. عاد، وتمنت أن تعود يومها مرة ثانية للحلاق ليريحها منه، فلقد عانت الكثير من تمشيطه وتهذيبه.

ومرت الأيام بطيئة مملة كانت تسمع فيها كلمات السخرية من جميع من في البيت وكأنها هي التي أرادت لنفسها ذلك الوجه الكريه.

ليت سيدها بقي ليدفع عنها شر هذا الطرد المفاجىء، ولكنه ذهب منذ سنين ولن يعود.

وتفانت هي في خدمة الأسرة حتى أصبحت جزءاً من كيانها، وشعرت بالعطف وقد بدأ يغزو قلب سيدتها اتجاهها.

أما اليوم، فلا تدري لماذا ذهب ذلك العطف والحنان من القلب الكبير.

وشاءت لها نفسها أن تسأل سيدتها عن السبب مرة ثانية ولكنها لم تجرؤ. وسمعت صوت سيدتها يناديها في إصرار وحزم أن تذهب إلى الشارع، إلى الطريق!

إلى أين؟

إلى حيث لا تدري ولا تعرف.

ومضت إلى الغرفة الصغيرة لتمسك ببعض ملابسها المتناثرة هنا وهناك، وبدأت تضعها في عناية في (البقجة) الممزقة، حتى إذا ما جاءت على آخر أشيائها، تذكرت عقدها الوحيد ذلك الذي قدمته لها سيدتها الصغيرة هدية منها يوم زفافها.

بحثت عنه كثيراً دون جدوى، وأحست بالغصة وهي تنسل في هدوء إلى خارج الغرفة.

ليتها تجده، فهو هدية من إنسانة عزيزة تحمل لها في قلبها أكبر الود وأجمل الاحترام.

ولكنها فقدته، وبفقدها إياه فقدت شيئاً عزيزاً غالياً يربطها بهذه الأسرة .

ليتها تجده لتضمه إلى صدرها، إلى المكان الأمين بجانب قلبها الصغير. وأحست بوجيف قلبها وهي في طريقها إلى الخارج، وكانت قد وطدت العزم على أن تذهب بعيداً دون ضجة. فما داموا أرادوا لها أن تمضي وأن تذهب، فلا أقل من أن تذهب هكذا دون أن تودعهم.

وأحست مرة ثانية بالغصة لفراق سيدتها الصغيرة خاصة وأنها ستذهب دون أن تقول لها كلمة شكر صغيرة.

وتناهى إليها صوت سيدتها الكبيرة مرة أخرى يدعوها، فمضت إليها في ذهول الحالم، لا تعي ولا تحس.

كل الذي تعرفه هو أن قدميها قد حملتاها قسراً إلى حيث كانت تقعد السيدة، وظنت أن سيدتها ستعود لرشدها فلا تتركها تمضي، ولكن خاب ظنها، فقد كانت الدعوة التي تلقتها من سيدتها تحمل أمراً آخر غير هذا.

وتسلمت المسكينة منها دريهمات معدودة لم تربأ بأن تأخذها معها ثم أودعتها صدرها الأسود المعروق. وعند خروجها، تلقت أول نسمة باردة نفحت وجهها، فعاد إليها صوابها، فأحست بهول الصدمة، فهي لا تعرف إلى أين تمضي في سيرها ذاك دون هدف أو غاية.

وعادت الذكريات تطل أمام عينيها من جديد في صور متنافرة غريبة لا حس فيها ولا روح.

لقد مرت الساعات الطويلة وهي تمشي هنا وهناك. أخيراً، فاجأها الليل، فرأت أن تنام في أقرب مكان من الأرض المنبسطة الطيبة. فهي إنسان لا أهل لها ولا ولد، قست عليها الحياة فأفقدتها الدار التي تأوي إليها. وعندها، ألقت بجسدها المكدود على الأرض اليابسة بعد أن أسندت رأسها على البقجة الممزقة. وما هي إلا دقائق حتى داعب جفنيها النوم فلم تشعر بقسوة الأرض.

كل الذي تعرفه حين أفاقت من نومتها تلك هو أن مكانها على الأرض اليابسة قد تغير.

ونظرت إلى السرير الأبيض الذي تنام عليه، فخيل إليها أنها في حلم كبير لكنه لذيذ.

وفتحت عينيها لترى أين هي الآن من تلك الأرض اليابسة. ونظرت حولها فهالها الأمر.

من أين لها هذه الغرفة الأنيقة والسرير الأبيض النظيف؟

وتناهى إلى سمعها صوت الممرضة وهي تطلب منها أن تمد يدها لتمسك بمعصمها. أما لماذا، فهذا هو الذي لا تدريه، ولكنها ما لبثت أن عرفت السبب.

لماذا طردوها بالأمس من ذلك البيت؟

سمعته من فم الممرضة وهي تقول:

ـ مسكينة أنت يا فتاة. أنتِ مريضة ومريضة جداً!

لا تلمني

يا صديقي العزيز:

لا تلمني إذا أنا قد فرطت في صداقتك ردحاً من الزمن كنت فيه أعيش على ذكريات الأمس القريب فيها والبعيد.

يوم كنا نتدرج بمرح الطفولة على جداول المياه وهي تنساب على الأرض في خطوط دقيقة رقيقة متباينة في الدقة والرقة أيضاً.

لقد تباعد بنا الزمن وشغلت بأحداث الحياة فترة كنت فيها أحن إليك ، إلى الديار التي كنت أنا وأنت من أول المؤمنين بها.

لا تلمني يا صديقي وخل عنك العتاب.

لقد أحسست وأنا أقرأ رسالتك الأولى والأخيرة بامتعاض وغصة. وقد حاولت طوال سنواتي الكثيرة المتعددة وأنا أعيش في ديار الغربة أن أضع ستاراً حديدياً بين الأمس واليوم. وبعد أن قرأت ما قرأت، رأيت من واجبي أن أعود إلى الصندوق الحديدي الذي أودعته كل رسائل أهلي وذوي وإخوتي وأصدقائي.

فأنا إنسان آمنت بفكرة الهجرة، وعمدت على تنفيذها بدقة، وحرصت على أن أقطع كل ما يصلني بالأرض الطيبة التي حرمت نفسي منها بطوعي واختياري.

لا تظن بي الظنون، ولا تعتقد أن مساً من الجنون أصابني، ولكنها الحياة فرضت علي أن أكون هكذا بعد أن أحسست بالخيبة يوم وصلت إلى أرض الغربة.

أحسست بالغربة لأنني فارقت أهلي وأصدقائي في ساعة تصميم.

وبعد بحث مستفيض، واستخدام لوسائل الإقناع النفسية الكثيرة، رأيت أن أحرم نفسي من كل شيء يصلني بالأرض التي ولدت عليها وكبرت، لأنني أعرف نفسي، فأنا أجبن من أن لا أستجيب لنداء الأرض عندما يجيء من صديق.

لهذا فقد رأيت أن أكون بعيداً عن مغريات العودة التي تتمثل في رسائلك ورسائل أهلي وإخوتي، فباعدت بين نفسي وقلبي وبينها، وأمرت خادمي أن يودع كل رسالة صندوقها الحديدي ما دامت تحمل اسم بلدي.

هكذا كانت إرادتي، وهكذا كانت رغبتي، وقد نفذتها حتى جاءت رسالتك التي تسلمتها ولم تكن تحمل طوابع بلدي، ففضتها وقرأتها كثيراً وأكثر مما تتصور.

لقد نكأت الجرح يا صديقي وألهبت الرغبة في نفسي للعودة إلى بلدي برسالتك أنا الذي وضعت بيني وبين العودة أشواكاً وأشواكاً.

أنت في أوروبا يا صديقي على مقربة مني، وأنا هنا أعيش بين كلمات رسائلك التي فضضتها لأول مرة بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة وأنت السبب.

كانت أول كلمة منك هي: لا تلمني يا صديقي.

ومن هو أجدر باللوم، أنت أم أنا أيها الصديق الوفي؟

من هو أحق باللوم؟

ألست أنا في كل هذا؟

يا صديقي العزيز.

لكم تعذبت وأنت تتابع أخباري وتتقصى عني بأساليبك، وأنا هنا السادر في غيي، المغرق في أنانيتي بعيداً عنك وعن الأهل والأصدقاء.

لقد تعرفت على كل جهودك المضنية من رسائلك العديدة، وعلمت الكثير من أخبار بلادي تلك التي غبت عنها أكثر من خمس وأربعين سنة.

ذهبت عنها يافعاً لأعود إليها شيخاً محطماً قيدته الأيام وكبلته السنون، وحطمت قدرته الرغبة الآثمة في جمع المال بلا هدف.

كان هدفي أن نعيش في بلدنا مثاليين نبني ونصنع، وكنت أنت أكثر واقعية

مني، وإن كنت أنا أكثر جرأة منك.

كان حب المغامرة يلهب نفسي ويجعلها تسرع الخطو إلى المجهول الذي كنت أرقبه بنصف عين.

وعندما وصلت إلى الأرض البكر، إلى الأرجنتين، كان كل رأسمالي فتوة يانعة، وشباب بكر وآمال، وطموح.

كانت تلك كل ثروتي. ومضيت أنقب عن الطريق في خطوات الذي تلهب ظهره سياط الرغبة في الثروة رغم أن ثروة والدي التي تركها كانت تكفيني.

ولكنني كنت أريد حياة جديدة بعيدة عن التقاليد، حرة من جميع قيود العرف الثقيل السائد في مجتمعنا نحن أبناء طيبة الطيبة.

هكذا كان بلدي. أما اليوم، ولكثرة ما قرأت، فقد علمت أن حياة جديدة قد دبت في تلك الأرض، وأن الأماني التي كانت تجيش في الصدور قد حققتها الأيام.

عرفت ذلك وأكثر من ذلك.

وعرفت أن فتاتي التي أعدوها لتبني بي قد توفيت بعد أن تركت فتاة يانعة تدرس حالياً في جامعات الباكستان.

وعرفت عنوان الطفلة الصغيرة التي توفي والدها قبل أن ترى النور.

وعرفت جهاد أمها في سبيل تنشئتها وتعليمها، وعرفت الكثير والكثير.

واختلطت ذكريات الأمس القريب والبعيد في وعيي الباطن، وانسابت في مخيلتي صور الأمس بكل ما فيه من متعة، وكل ما فيه من عذاب.

واستعرضت كل شيء، وعرفت أخيراً بأنني إنسان رغم نجاحي في إدراك ما أردت، إلا أنني لم أصل إلى الغاية التي أرادها الله من وجودنا نحن البشر.

لقد نسيت نفسي في خضم المعركة التي كانت تدور رحاها بيني وبين الحياة نفسها، ولم ألتق بالفتاة التي أرضى عنها لتكون أماً لأولادي. وعندما وجدتها، رفضت هي أن تتزوج شيخاً حدت السنون من قدرته وإمكانياته.

وهكذا عشت بين اليأس والأمل، أتأرجح كالريشة في مهب الريح تتقاذفها هنا وهناك. ولكن رسالتك التي بعثت بها من أوروبا قد أضاءت معالم الطريق

أمام عيني اللتين أجهدهما السهر وأضناهما العلم.

لقد كانت تلك الرسالة بمثابة الشمعة الهادية التي مهدت أمام نفسي القلقة وروحي الحائرة صور الطريق الصحيح.

وعدت من جديد إنساناً يتلهف إلى الماضي، إلى الأرض التي درج عليها وشب.

وها أنذا، وفي الوقت الذي أكتب فيه رسالتي إليك، أكتب إلى سعاد، ابنة فتاتي القديمة رسالة طويلة أودعها كل حبي الأبوي تجاه الصبا المتفتح والأنوثة المتدفقة التي بدأت تصنع المستقبل في بلادي العظيمة.

لقد قلت لها: اعتبريني بدلاً من والدك الذي توفاه الله. وأخبرتها بكل شيء، ورجوتها أن تقبل مني هدية صغيرة متواضعة هي نصف ثروتي والتي تبلغ المليونين من الدولارات الأمريكية.

أما ما تبقى من أموالي، فقد قررت أن أعود به لنبدأ من جديد مشروعنا السابق، فنقيم في بلدنا صناعة نحن اليوم أحوج إليها من الأمس البعيد.

إنه مصنع السكر الذي كلفت أحد إخواني هنا بدراسة كل شيء عنه، وهكذا يتحقق حلمنا يا صديقي العزيز.

وفي الغد يا صديقي، عندما نتقابل في مدينة لندن التي تزورها، فإن ما أرجوه منك هو أن تنسى الماضي، فلا تلمني يا صديقي العزيز.

البيت الكبير

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م
ط ٥ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

حائط الصَّمت

هذا الجدار الهائل من الصمت الذي أخذ يرتفع بينها وبينه يحول دائماً دون أن تقول له كل شيء، أن تتحدث إليه في صراحة وعفوية تبثه لواعج نفسها وما تحس فيها من أمانٍ وآمال تذكرها بأيام مضت كان يحيطها فيها بكل رعاية.

وأسبلت جفنيها على إغفاءة تجسدت لها خلالها ذكريات الماضي بحلوها ومرّها، منذ أن كانت طفلة صغيرة تلهو على الدرب الطويل في الحارة الأنيقة التي تعاون سكانها على نظافتها بشكل واضح.

ويوم جاءها والدها بهدية النجاح شعرت بكثير من الزهو والافتخار، فهي تملك دراجة صغيرة تستطيع أن تلعب بها كما لعبت بعروستها فترة من الوقت ثم تناستها.

ويوم طلب منها حامد لفة صغيرة بالدراجة الصغيرة أعطته إياها عن طيب خاطر، ولكنه أعادها إليها بعد ساعة من الزمن وقد أصابت الدراجة آثار صدمة ظاهرة خدشت بريق إطارها الأحمر اللامع.

ومع هذا، فقد كانت تضحك بملء قلبها، ولم تتأثر، ومضت تشارك صديقاتها ألعابهن في حماسة.

ومرت الأيام وكبر الصغيران، وانتقل والدها إلى دار أكبر من الأولى، وانفرط عقد الأصدقاء والصديقات الصغار، وأخذت مشاغل الدراسة وتقاليد البلاد تقلل من الاجتماعات، ومع هذا بقيت ذكرى حامد تعاود مخيلتها كلما التقت بإحدى أخواته في

المدرسة وغير المدرسة. كانت تسأل عنه دائماً، وتذكره فيما بينها وبين نفسها، وكان هو الآخر يسأل عنها في صمت من وراء الجدران، وكانت تحس بالاهتمام وهو يبدو على وجه أخته فاطمة عندما تنقل إليها مراحل نشاطه الدراسي وكيف أنه قد أصبح متفوقاً في الدراسة الثانوية.

ويوم قيل لها بأنه سيذهب إلى أمريكا للتخصص في دراسة الهندسة كانت تستعد هي الأخرى لدراسة الطب في كلية لاهور الباكستانية النسائية.

واستقلا الطائرة من جدة إلى الظهران معاً، لا يفصل بينهما سوى حائط الصمت الذي حاول أن يكسره بتمنيات النجاح صاغها في كلمات قليلة ثم أودعها نظرة جانبية وهو في مطار الظهران بعد أن افترقت بهما السبل.

وفي طريقها إلى الباكستان كانت تتذكر كل شيء عنه وعن حياتها معه، يوم كانا طفلين يرعيان الأشجار الصغيرة في حديقة البستان الصغير التي أعدها العم مسعود أمام داره، وحتى في شوارع جدة الضيقة.

ومضت حياتها تسير من نجاح إلى نجاح، ويوم عادت لقضاء إجازتها في مدينة جدة، كان هو قد عاد بعد أن نال شهادته الجامعية لينخرط في سلك العاملين.

ويوم جاءت فاطمة لزيارتها مع ابنتها الصغيرة نقلت إليها رغبة أخيها في الاقتران بها، فكانت إجابتها لها مبهمة تحمل القبول والرفض معاً.

القبول بعد إنهاء الدراسة وعلى هذا بقي حامد ينتظرها حتى عادت بشهادتها من الباكستان، ثم مضى يحدد الخطة، ومع رغبتها الكبرى في أن تجيب طلب صديق طفولتها إلا أنها رأت أن تتريث حتى تتخصص في دراسة أمراض النساء والولادة.

كانت رغبتها تلك منبثقة عن إيمان في تخفيف آلام الولادة عن النسوة من بنات جنسها بعدما رأت كيف قضت أمها نحبها بعد ولادة آخر طفل لها.

وعادت مرة ثانية إلى تلقي العلوم، وبشكل يعطيها الفرصة في أن تصل إلى ما تريد. وكرت الأيام وهي في جهادها العلمي تتنقل كالفراشة تنهل منه ما تريد. ويوم عادت إلى جدة، كانت جميع إحساساتها تتلخص في طريقة حياتها

التي ستعيشها بعد أن أصبحت طبيبة. وبدأت تفكر كثيراً في تنفيذ برنامجها الذي وضعته منذ ذلك اليوم الذي قضت فيه أمها نحبها. لقد بكت كثيراً وتعذبت كثيراً وجاهدت أكثر، وها هي اليوم في القمة، قمة أمجادها بعد أن تحققت رغباتها الطيبة، ومع هذا بقي في نفسها شيء اسمه الحب يغلف قلبها الصغير، يهدهد شرايين حياتها، يضيف إلى عالمها عالماً جديداً يتمثل بكل إغراءاته في الهمة الحانية، تتلمسها من الشفاه الصغيرة تدغدغ بها أحاسيسها الفتية.

ولكن حتى هذا الحب مجرد وهم تحيط به عالمها الخيالي، وبدأت تحادث الطيف الشارد حديثاً كله غرور، تسامره وتسأله، وهو صامت كالدهر لا يجيب لا لأنه لا يعرف كيف يجيب ولكن، لأن إجابته ستكون على غير ما تشتهي. وعندما وصلت إلى البيت عاودها التفكير مرة ثانية، وبدأت الصور تتوالى في مخيلتها معلنة أحداث الأمس، وجاء القوم من كل حدب وصوب وكانت مع القادمين أخت حامد، وتقبلت أكثر من تهنئة، في صمت عجيب.

ومضت تنظر إلى الناس لتطالع من جديد صفحة ذكرياتها التي مضت، فلطالما تحدث إليها حامد حديثاً قصيراً طويلاً عند الصغر ممهداً كقوارير العطر أخاذاً كنسمات الصباح. لقد ذهب كل هذا وبقيت لها الذكرى، وهي مع الذكر تعيش اليوم.

وسارت أيامها على وتيرة واحدة تعطي أكثر مما تأخذ، وكأن وظيفتها العطاء والعطاء وحده. ويوم عادت إلى داخل البيت من عيادتها تجرجر أذيال عباءتها الصغيرة وتلتقط أنفاسها في صعوبة ظاهرة، لقيتها سعاد أخت حامد الصغرى وكان حديثها معها مجرد حديث عابر، وبدأ الكلام يأخذ طريقه بينهما:

ـ كيف أنت اليوم يا هدى؟

ـ كما ترين لا أدري ماذا أفعل، فلقد انتهت حياتي الدراسية بعد أن تركتها إلى غير رجعة، فبعد أسبوع سيكون لي بيت، أكبر بيت في المدينة.

ـ وهل ستحبين البيت يا هدى؟ أكثر من هذا الذي تعيشين فيه؟!

ـ نعم.

وصمتت.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنها الحياة، سنة الحياة جعلت منا نحن البنات فريسة العيش في أكثر من بيت، نولد في بيت، ونتزوج في بيت آخر، وقد نموت في بيت ثالث.

ـ ولكني أحب بيت أبي أكثر من أي شيء.

ـ لأنك تحبين نفسك.

ـ هكذا تحكمين علي لمجرد كلمة قلتها؟

ـ لا ، ليس مجرد حكم وإنما هي الحقيقة، فأنت تريدين أن تمضي إلى آخر المطاف، تريدين أن تصبحي طبيبة مشهورة يشار إليك بالبنان، وقد أصبحت تلك الطبيبة بعد أن قطعت من عمرك زمناً ليس باليسير.

ـ والنهاية يا هدى؟

ـ البيت الآخر يا سعاد.

وأغمضت سعاد عينيها مرة أخرى، وأخذت تستعرض كل ما مرّ من أيام حياتها، لقد مضى زمن العمر ليس باليسير حققت خلاله كل أمانيها إلا واحدة، البيت الآخر، فلقد ذهب صاحب البيت الآخر.

ذهب رفيق صباها، بعد أن يئس من طول الانتظار.

ذهب مع رفيقة دربه إلى حياته الجديدة وكأنه يعبر عن سخطه لما أمضى من أيام في انتظارها.

هكذا إذن..

ويوم تلقت بطاقة الدعوة لحضور حفل زفافه، قذفت بها إلى سلة المهملات في عصبية، كانت تأمل أن تحمل البطاقة اسماً غير الاسم الذي حملته، اسمها هي ولكن.. أليست هي التي أرادت هذا؟

وهي كما تقول راضية قانعة.

لقد خطبها هي قبل أن يخطب الفتاة الأخرى، فوعدته بالصبر وتذرعت بأنها لم تنه دراستها بعد، وانتظر هو حتى أخذت البكالوريوس في الطب والجراحة، وعاد يدق الباب ليسمع الجواب نفسه: "لا. لينتظر ريثما أكمل

تعليمي، أكمل تخصصي".

ويوم أكملت تخصصها ذهب هو بعد أن أحس بأنها من طينة لا تناسبه، ذهب وذهبت هي في طريقها تواسي النسوة اللواتي قطعت العهد على مواساتهن.

وفي المستشفى التقت بزوجة خطيبها السابق في غرفة العمليات، كانت المفاجأة أكبر مما تتحمل، ولكن صبرها كان أطول، فمضت إلى عملها راضية قانعة تعمل كل ما في وسعها لتأتي الولادة طبيعية وفي جو يحمل الطمأنينة لأولئك الذين ينتظرون على الباب (البشرى)، بشرى ميلاد طفل جديد يمضي مع قافلة الحياة.

وخرجت من غرفة العمليات مع صيحة الوليدة الصغيرة، وشقت طريقها بين زحام المهنئين وعلى شفتيها ابتسامة رضا، وعندما التقت به في فناء المستشفى قالت له، ومن كل قلبها:

ـ مبروك يا حامد، فلقد رزقك الله بطبيبة جديدة تأخذ مكاني عندما أتقاعد.

وضحكت من أعماقها، ضحكة صافية، ومرت كالسهم في الطريق إلى عنبر المرضى وملء قلبها سعادة غامرة تشيع في جميع أجزاء وجهها الدقيق التقاطيع الناصع البياض.

البيت الكبير

وتعود به الذكرى مرات ومرات إلى البيت الصغير الذي كان يقيمه على الأرض الجرداء هناك بين المنعطف الطويل على الطريق المؤدية إلى البيت الكبير الذي تظلله أوراق الأشجار العالية الفارهة. كان كل شيء على ما هو عليه منذ أكثر من عشرين عاماً. فإلى اليمين من البيت الكبير لا تزال النخلة الطويلة تطل على الأرض في شموخ وكبرياء والطريق المتعرجة التي تؤدي مسالكها إلى داخل البستان الواسع هي.. هي.. لم يطرأ عليها أي جديد.

والقنوات الصغيرة المملوءة بالحشائش هي على عهده بها، تنساب منها المياه على الطرفين كشريان يجمع حوله معالم الحياة بمعانيها الواسعة المتعددة.

وبوابة البيت القديم لا تزال تحمل من آثار الماضي نقوشاً صغيرة نفذتها يد فنان من العصور القديمة في إتقان مدهش وصبر عجيب.

لقد عايشت هذه الأرض طفولته كلها بصفائها وكدرها، وأخذ كل مكان منها يقص أيام حياته تلك التي أمضاها يلهو بين جداول المياه يلوث ثيابه ويديه وقدميه، وبين أشجار النخيل الباسقة التي أدمت هي الأخرى أكثر من مرة قدميه الصغيرتين. فقد كان من أولئك الأطفال الذين يحبون أن يعيشوا طفولتهم بين أحضانها، يتلمسون بضع ثمرات من تلك الأشجار الطويلة الأنيقة.

ولطالما حدّث نفسه، وهو في غربته، عن معالم الحياة في مسقط رأسه، هنا على هذه الأرض الطيبة التي حققت أكثر من

انتصار من أجل الإنسانية.

ففي (قباء) كان يعيش وعلى أرض طيبة الطيبة كان يدرس ويتعلم ويلهو ويلعب.

وسارت به خطواته على الأرض الجرداء ليرى هل أبقت الحياة على شيء من معالم ذلك البيت الصغير الذي كان يقيمه هناك. فلم ير شيئاً سوى آثار قدمين صغيرتين كانتا تبدوان لناظريه وكأنهما قدميه. كانت القدمان شبيهتين بقدميه وإن كانتا أرق قليلاً، فهو قد ولد بقدمين كبيرتين، طالما أعجزتا والده وهو ينتقي له أحذية من دكان المدينة الصغير.

وشرد بذهنه قليلاً إلى الوراء ليرى طفلاً صغيراً يدب على الأرض وهو يصفر بلحن غريب لا يكاد يعرفه، وتطلع إلى الطفل عندما رآه على مقربة منه لا يحس به وحاول أن يحدثه، ولكن دون جدوى.

كان الطفل مشغولاً بلحنه الذي يغنيه، وهناك عند مكان البيت الصغير رآه (يطرب) بيديه ورجليه باحثاً عن شيء نسيه هناك.

وأحس بكثير من الراحة وهو يتطلع إليه ويتابع حركاته، وبدأ الطفل في تلك اللحظة لعبته وكأنه هو نفسه وهو ينقل الحجارة الصغيرة من هنا وهناك ليشيد بيتاً صغيراً، واستغرق طويلاً في التفكير وهو يمضي في الطريق إلى مكان الطفل الذي يبدو وكأنه قد انشغل عن الدنيا بأجمعها وهو يشيد بيته الصغير.

وأخذ يحاول أن يشدو باللحن الذي سمعه قبل لحظات، ولكن محاولاته باءت بالفشل إذ إن اللحن كان يأتي نشازاً لا حياة فيه.

واسترعت محاولاته تلك التفات الطفل فأخذ يضحك مقهقهاً في براءة ثم التفت إليه قائلاً:

ـ يا عم، ليس هكذا.

وفي خطوات كان أمام الطفل الذي انحنى على الأرض في التفاتة بريئة يطالع بها وجهه ويقول:

ـ هل أعجبك لحني؟

وأجاب في لهجة حزينة حاول فيها أن لا يبدو كذلك ولكنه لم يوفق:

ـ نعم.

ـ ولكنك لا تجيده.. أتريد أن أعلمك إياه؟

وبهزة من رأسه أجاب الطفل الذي أخذ يرفع عقيرته بالغناء في صوت سهل جميل .

ومضى يشارك الطفل غناءه حتى إذا ما انتهى بادره بأسئلته الكثيرة الحائرة:

ـ ابن من أنت؟

وضحك الطفل وأجاب:

ـ أنا سعيد ألا تعرفني؟

وهز رأسه علامة النفي، فمضى الطفل في قوله:

– ولكنني أعرفك، فأنت الأستاذ سامي، أقصد المهندس سامي مسعود عم صديقتي نهاد.. ألا يكفي هذا؟

ـ ولكن من هو والدك؟

وأجاب الطفل بثقة:

ـ ولكنك تعرفه، فهو زميلك في المدرسة.. إنه خالد عبد الحفيظ.

وعندها أطل وجه خالد زميل الأمس من بين ثنايا ذاكرته يشير إلى أيام طويلة حافلة قضياها معاً هنا وهناك يجوبان شوارع المدينة وأماكنها الأثرية بحثاً عن المتعة.

تذكر كل ذلك لحظة وقوفه أمام الطفل ومضى إليه يضمه بين ذراعيه ثم يمضي في استجوابه بكلمات قصيرة:

ـ ولكن ماذا تفعل هنا؟

أجاب الطفل في حنان:

ـ أفعل كما فعلت، أبني بيتاً صغيراً لأستطيع عندما أكبر وأصبح مثلك أن أبني البيت الكبير، فوالدي يحدثني دائماً بما فعلت من أجل هذه الرغبة.

شريط الذكريات

شريط الذكريات يمر أمام عينيه في سرعة متلاحقة، وقلبه الواجف يتابع الصور في قلق ظاهر. وعواء الريح من خارج الغرفة التي يقبع فيها في انكماش يعربد في قسوة أشد من قسوة الحياة التي يمارسها، ونظراته الزائغة تجوب المكان بحثاً عن شيء يكاد أن لا يتذكره. مجرد بحث وهو على سريره الحديدي، يجتر الذكريات اجتراراً.

أشياء كثيرة تعيد إلى ذاكرته أحداث الأمس القريب والبعيد معاً.. وهو في جلسته يتابع هذه الأحداث بعد أن جافى النوم مقلتيه. ونسي نفسه فلم يعد يعي شيئاً سوى الصور، والصور وحدها.

ليته ينسى.. ينسى كل شيء. ففي النسيان الكثير من الراحة. ولكن.. وبدأ يتململ في مجلسه، وأحاط بذراعيه حافة السرير المعدني الذي أخذ هو الآخر يئن تحت وطأة ثقل جسمه المكدود.. وأخرج من الكومدينو الصغير كتاباً طالما لازمه.

كان بداخل الكتاب مظروف لم يفضه وبدأ يقرأ في كتابه، فهو صديقه الوحيد، يدوّن فيه ذكرياته وأحاسيسه وآلامه، وحتى آماله. وعندما فض المظروف، أخذت البسمة تكبر رويداً.. رويداً.. وانطلقت ضحكاته تقهقه في جو الغرفة.. تعلو على صوت الريح.. وأخذ يقهقه في راحة، وزال بعض انقباضه، وبدأت أعصابه تهدأ وترتاح.. ليس لأنه قد وجد ما يريد، ولكن ربما لأنه وجد الطريق إلى ما يريد. ففي الغد سيذهب إليه معلناً بداية حياة جديدة. لن يشكو في هذه المرة، ولن يتألم دائماً.. سيتحدث حديث الند للند:

فقد مضت فترة العذاب من حياته وبدت تباشير الفجر تحمل إليه أخبارها السارة المطمئنة.

في الغد سيحمل شهادته الجامعية، ويمضي إلى مكتب الشركة التي يعمل فيها ليطلع كل من فيها على جهده طوال الأيام الماضية. وسيطلع أيضاً فريد صديقه بالأمس ورئيسه اليوم.. سيطلعه على الشهادة، ويطلب منه أن يساعده على قبول استقالته فهو قد حصل على وظيفة جديدة أفضل من تلك التي يمارسها اليوم.. وهو على حق لأنه سيبدأ حياة جديدة بعد طول عناء وشقاء.

الرداء المُهمل

ترى لماذا تبقي يدها على هذا الرداء تتأمله في حيرة، وكأنها تراه معلقاً أمام ناظريها منذ عشر سنوات خلت؟ عندما بدأت تخيط أول قطعة فيه، تغرز فيه إبرتها الصغيرة تطرزه في عناية، بألوان جميلة مزركشة، وكأنه شيء مغاير لكل الأشياء التي اقتنتها.

لقد أحبته من كل قلبها وأمضت ليالٍ طويلة وهي تهيئه ليكون حسبما أرادت، شيئاً جديداً يغاير جميع ملابسها وملابس أترابها، ولطالما تفننت في إبراز مقدرتها في صنع مثل هذه الأشياء الجميلة، وطرزت دوائره بإبرتها صانعة منه ثوباً يليق بمناسبة هي بالنسبة لها ولكل الفتيات من أهم المناسبات؛ ولقد ضاعت المناسبة، افتقدتها، أخذتها منها امرأة أخرى، سرقتها في قسوة، فغلفت تلك السرقة قلبها الصغير بشيء غير يسير من الجدية، وأحاطت أسارير نفسها بشيء من القسوة فلم يلن ذلك الخافق المعذب لأي فتى بعد فريد.

ولكن، لماذا هي اليوم تذكر فريد؟

ألأنها رأت الرداء مرة أخرى؟ أم إن هناك أسباباً أخرى غير رؤيتها الرداء، ذلك شيء لا تستطيع أن تزعم بأنها تذكره.

وأخذت مرة أخرى تجيل النظر في الرداء، فعلى الرغم من السنوات العشر التي مضت فهو يبدو لها وكأنه قد شغل هذا اليوم واليوم فقط.

وأخذت يدها تمتد وتمتد لتحمل الرداء ثم تلبسه لأول مرة بعد عشر سنوات لتجده كعهدها به لا يزال ملائماً لها.

وأطلّت أنوثتها من وراء الرداء تعلن بأنها لا تزال في كامل شبابها وجمالها، وتطلعت إلى المرآة وافتر ثغرها عن ابتسامة رضى لأول مرة، لماذا؟ لا تدري، وإن كانت لا تجهل السبب، ففي هذه الليلة ستقابل زوجة فريد التي ستأتي في زيارة عابرة لوالدتها العجوز وسيأتي معها جارات كثر وصديقات عمر يعرفن عنها الكثير.

وعند هذا الحد من التفكير هزّت كتفها بلا مبالاة، وأخذت تنضو عن جسدها الرداء في لامبالاة أيضاً لتعيده مرة أخرى إلى دولابها الصغير، ثم اختارت ثوباً آخر يكاد لا يظهر أية مفاتن من مفاتنها، ثم مضت إلى المكواة تداعب بها الثوب وكل أفكارها منحصرة في الرداء الأول، رداء العمر الذي خاطته منذ سنوات وسنوات. ولقد فوجئت بالفعل بهذه الزيارة التي لا تدري أسبابها، فكل الذي عرفته من أمها هو أن زوجة فريد ترغب في زيارتهم وقد أجابتها أمها بقبول هذه الزيارة وحاولت أن تبرر موقفها بكلمات طويلة لا تدرك منها شيئاً وكأنها تعتذر من ابنتها عن قبول هذه الزيارة.

لقد حاولت طوال هذه المدة أن تعيد كل ذكرى من ذكريات الأيام الماضية يوم كانت تعد نفسها زوجة لفريد، وها هي الذكريات اليوم تطل فجأة ومن جديد. لماذا؟ لا تدري، اللهمّ إلا إذا كانت مجرد زيارة زوجة فريد لوالدتها قد أعادت كل هذه الذكريات.

وتحدثت إلى نفسها حديثاً طويلاً مسهباً، علقت فيه حوادث الأمس القريب والبعيد معاً، وتذكرت معه أيام الطفولة والصبا عندما كانت تلعب مع فريد لعبة الأطفال المعروفة في مدينتها الصغيرة. تذكرت كل هذا، وتذكرت أيضاً اليوم الذي جاء فيه فريد يعلن على أسماعها رغبته في السفر إلى أمريكا للدراسة، وتذكرت أيضاً كيف وضع في إصبعها الصغير خاتماً من نحاس بعد أن حدثها طويلاً عن رغبته في الاقتران بها.

وهكذا سافر فريد إلى أمريكا ليقضي أربع سنوات كانت خلالها رجاء تعمل يدها في الرداء الأبيض الذي آلت على نفسها أن يأتي مميزاً في كل شيء، أربع سنوات طويلة مملة أمضت أكثرها في انتقاء الأحجار الصغيرة الملونة تنثرها هنا وهناك ثم تضيف من إبرتها على الرداء ما وهبها الله من

سلامة ذوق ورهافة حس.

كان الرداء بالنسبة لها شيئاً أثمن من كل الأشياء الأخرى التي ينفرد بها دولابها الكبير، فلطالما أمضت الليالي تداعبه بأفكارها وأحاديثها وتستلهم منه ذكرياتها التي أمضتها مع فريد في الشارع الخلفي الصغير صغيرين يجريان هنا وهناك، وفي بستان والدها الكبير يجوسان خباياه في حرية لاهية، ولقد استطاعت رجاء ببدايتها أن تنقل صورة تلك الشجرة الكبيرة التي وضعت على جذعها اسمها الصغير معلقاً بباطن قلب يحمل اسم فريد، حتى جاء الرداء آية في الروعة والإتقان، كامل الحشمة والرواء، غني الفكرة والتصميم.

ويوم عاد فريد من رحلته ظلت تنتظره، فقد كانت التقاليد لا تسمح لها بأن تتلقى خطاباته، حتى إذا ما وصل إلى بيته أدارت قرص التلفون لتتحدث إلى أخته حديثاً عامراً بالأمل تعمدت أن يكون طويلاً تنسمت فيه أخبار فريد.

ولكن، ليت فريداً لم يعد، ليته بقي طوال أيام حياته هناك، فلقد آذى سمعها حديث أخته وهي تنقل إليها في عبارات صغيرة مقتضبة عودة فريد هذه المرة وبرفقته امرأة من الغرب بنى بها في إجازته التي قضاها في تركيا.

إذن فقد تزوج أخيراً وضاعت لياليها الطوال وأصبح من حق الرداء أن يبقى في دولاب ملابسها حيث رفوفه الخشبية، ومع هذا، وفي كل مرة يدق فيها طلاب يدها باب دارهم الكبيرة، كانت تجد لذة في التطلع إلى الرداء في صمت ثم تطبق فمها بعد أن تهمس في أذن أمها برفضها للعريس المتقدم. عشر سنوات أضافتها لعمرها بلا هدف حتى أصبح عمرها الآن سبعاً وعشرين سنة؛ واليوم ستزور زوجة فريد والدتها لأول مرة وستراها بعد أن أغفلت حتى صديقتها أخت فريد. ستراها بعينيها وسترى فيما إذا كانت تستحق هذه الغريبة الوافدة فتى أحلامها الذي طعن قلبها ساعة صفو، وستعرف كيف هي هذه المرأة التي استطاعت أن تخلب لبه فتنسيه فتاة صباه وأحلامه. ستراها وستتحدث إليها حديثاً ودياً، فهي في زيارة لأمها، ولن تعرف الغريبة الوافدة على قلب فريد، أنها كانت يوماً ما تفكر في أن تحل مكانها.

وفي المساء توافد النسوة إلى الدار الكبيرة، ومضت رجاء إلى دولاب ملابسها للمرة الأخيرة، وأمسكت بالرداء مرة ثانية وثالثة ثم ألقته على جسدها

لتستقبل به غريمتها في صمت وهدوء.

وعندما أطلت رجاء على النسوة كانت أشبه بعروس تتخطر يوم زفافها بالرداء الأبيض الجميل الذي التصقت به أعين القوم في دهشه. ومضت لتأخذ مجلسها بجانب العروس التركية التي استطاعت لطول وجودها في المدينة الصغيرة أن تجيد لغتها العربية.

وأخذت الأعين، عينا رجاء وعينا العروس التركية، تتبادل النظرات هنا وهناك، ثم تعود للالتقاء وكل واحدة منهما تجوس في صفحة الوجه الآخر.

أطبقت رجاء فمها بعد أن نطقت بالتحية، أما العروس التركية فقد مضت تثرثر هنا وهناك حتى إذا ما وجدت الفرصة سانحة ألقت بكلماتها القليلة في أذن رجاء، قائلة:

ـ لطالما كان يعيرني بجمالك وهدوئك ورقتك، وهو على حق.

فتاة الغلاف

سيعود قريباً ويلتقي بها، ويتحدث إليها طويلاً. سيقول لها الكثير الكثير عن أيام أمضياها معاً. كان الواحد منهما يعرف الآخر، فلقد قضت طفولتها في دار قريبة من داره، وفي بيت كان أهله وأهلها على حب وصداقة، كبرا وترعرعا معاً، وأمضيا سنوات الطفولة في حديث شيق يكاد يذكر جميع تفاصيله.

لقد حالت ظروف الحياة ففرقت بين قلبيهما وباعدت.. ولكن، وعلى الرغم من كل هذه الظروف، فهو يشعر بحنين دائم لأن يعود إليها مرة أخرى ويتحدث معها كثيراً.

وأحس بشيء من الضيق وهو يتذكر أيامه التي أمضاها بعيداً عنها يبني حياته ومستقبله بأسلوبه الجديد بعد عودته إلى الديار، إثر غربة طويلة أخذت معظم سنوات شبابه.

وكان طوال أيامه الماضيات يحلم بالعدوة إليها ويأمل في لقاء جديد يستطيع معه أن يعود مرة ثانية إلى الذكريات جديدها وقديمها، تلك التي غدت جزءاً منه لا يستطيع الفكاك من أسرها. وارتاحت نفسه قليلاً وهو يوالي النظر إلى غلاف إحدى المجلات العربية فيطالع على صفحته صورة شابة، يتذكر كل تفاصيل وجهها في أعماقه.

أما من هي، فذلك الذي لا يدريه! إنها ليست غريبة عنه، وضحك من أعماقه عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ونسي قليلاً عودته إلى صديقة الصبا والطفولة، وبدأ يشغل تفكيره شيء جديد لا يمت لما كان يفكر فيه بصلة.

وبدا قلقاً بعض الشيء، فصورة هذه الفتاة التي يلقبونها بالفنانة الكبيرة غير غريب عنه، وحاول، بلا جدوى، أن يتذكر أين رأى هذا الوجه، فهو إنسان بعيد في عمله عن أية صلة أو رابطة تربطه بأمثال هذه الفتاة.

وأخذ يقارن بين وجه هذه الفتاة وصديقة الصبا، فلم يجد أية علامة تربط بين الوجهين، فهو يعرف وجه صديقته لطول الأيام التي أمضياها معاً في البيت وفي الشارع وفي المدرسة والجامعة.

أما هذا الوجه فهو يكاد أن يكون وجهاً آخر معروفاً لديه، وكأنه يعايشه طوال سنوات حياته يوم كان يتلقى العلم مع صديقته، التي خطبها مؤخراً، وفضل أخيراً أن ينسى كل شيء وأن يعد العدة للقاء جديد، فهو في الغد *سيكون في الطريق إلى بيروت وسينعم بأيام جميلة يرى فيها السهل والجبل* وصبايا بيروت وحياة أهلها أولئك الذين لهم في قلبه محبة وذكرى.

فهو قد عاش أفضل سنوات عمره على البحر يرقب الأفق في ابتسامة المشفق عليه من اسوداد الليل.

وهو يعشق البحر، دائماً يقضي أيام إجازاته على شواطئه تغنى بالمياه اللازوردية تلك التي كان مجرد التفكير فيها يملأ صدره راحة وأية راحة.

وفي الغد كان في الطريق إلى بيروت على ظهر الطائرة يتطلع إلى وجوه الناس يتفحصها في يسر وسهولة وبلا مبالاة.

وجاء مقعده على مقربة من سيدة غريبة، لم يلتفت إليها باديء ذي بدء حتى إذا ما أخذ مكانه بجانبها أخذ ينظر إلى وجهها، في براءة، دون أن يثير اهتمامها بنظراته.

كان فيها الشيء الكثير من ملامح فتاة الغلاف التي رآها على أول صفحة من صفحات مجلته، وبدا الشبه واضحاً بينها وبين صاحبة الغلاف، فهي وإن كانت ذات سحنة شقراء، إلا أن الوجه بتفاصيله الدقيقة يكاد يكون صورة دقيقة لملامح الأولى، وبدأ ينطلق بفكره في رحلة للماضي ينبش ذكرياته عله يستطيع أن يتعرف إلى صاحبة الغلاف تلك التي لا يشك بوجهها القريب إلى قلبه.

هكذا كانت تؤكد له أفكاره، وعندما طلب من مضيفة الطائرة إحدى

الصحف العربية ليطالعها، أعطته المضيفة المجلة نفسها ليرى على صفحاتها ريبورتاجاً طويلاً عن صاحبة الغلاف، ومضى يقرأ الريبورتاج في عناية، وعندما وصل إلى النهاية قطعت عليه رفيقة الرحلة قراءته بجملة مهذبة:

ـ أو تعرف هذه الفتاة صاحبة الغلاف؟

وعندما أجاب بالنفي قالت رفيقة الرحلة:

ـ لقد قدر لي أن ألقاها في إحدى المرات في إحدى ضواحي دمشق برفقة عائلتها ولقد تحدثت إليها طويلاً وعرفت منها كل شيء، فهي فتاة من عائلة فقيرة عاشت طفولتها كلها تكافح من أجل لقمة العيش، وعندما وصلت إلى ما وصلت إليه لم تنس أن تعمل شيئاً من أجل الأطفال المحرومين، فوهبت ثلث إيرادها لمدرسة من مدارس الأطفال الفقراء.

وصمتت. وأحس من الواجب عليه أن يمضي في حديثه مع رفيقة الطائرة قتلاً للوقت، فأخذ يدردش معها في شتى الأحاديث دونما غاية أو هدف.

وعندما وصلت الطائرة إلى مطار بيروت ودّع رفيقته دون أن يعنى حتى بسؤالها عن رقم تليفونها، ومضى إلى فندقه الذي تعوّد النزول فيه بلا ضجة.

وفي الفندق أخذ يتلفن لأصدقائه كلهم وفي وقت واحد لدرجة أثارت أعصاب عاملة التلفون تلك التي كانت لا تقوى إلا الاستجابة لطلباته.

ولم يمض كبير وقت إلا وقد التقى عدد كبير من أصدقائه في ردهة الفندق يتطارحون الحديث مهنئين صديقهم بسلامة الوصول.

كانوا جميعهم أبناء جيل واحد تربطهم صداقة الدراسة وقد استمرت صداقتهم على الرغم من تفرق بعضهم وتشتت الآخرين في أماكن كثيرة بعيداً عن بيروت. واستمع لصديقه هاني وهو يدعوه لتمضية السهرة في بيته فحاول أن يعتذر اعتقاداً منه بأن هذا الوقت هو الذي يجب فيه أن يفاجيء صديقة الطفولة بزيارتها في منزل والديها.

وعندما عاود صديقه الحديث مشيراً بأن السهرة لن تكون له وإنما لفتاة الغلاف وكأنه على موعد معها هذه المرة.. أجاب بالقبول، وعندها تابع صديقه قوله:

ـ أو تعرفها يا فؤاد؟

قال:

ـ لا ، ولكنني رأيت صورتها على غلاف مجلة بالأمس في بيتي واليوم في الطائرة .

وضحك. وهكذا أمضى اليوم استعداداً للسهرة فهو سيراها حتماً وسيتحدث إليها وسيعرف عن كثب من هي، وانتابه شعور بالألم عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير، فهو يأمل أن يلتقي بالأخرى، فتاته تلك التي تنتظره على أحر من الجمر.

وفي الليل أخذ طريقه إلى دار صديقه رغم تأنيب ضميره على ما فعل، فهو لم يرض حتى مجرد أن يتصل تلفونياً بالأخرى يخبرها بوصوله.

ووصل إلى الحفل ليرى جميع أصدقائه وزوجاتهم في انتظاره وانتظار ضيفة الشرف التي لم تأتي بعد.

وعندما وصلت هب الجميع لاستقبالها في حرارة، وأخذت تصافح الجميع في مودة. حتى إذا ما انتهت من مصافحة الحضور، عادت تقول:

ـ مرحباً يا فؤاد.

وفغر فاه دهشة والتفت جميع أصدقائه إليهما وهي تمضي موجهة الحديث إليه:

ـ لقد مضت سنوات طوال لم نرك فيها.

وصمتت. فصمت، ثم مضت إلى كرسيها تتجاذب أطراف الحديث مع الجميع.

أما هو فكان يفكر في سرعة عجيبة:

من هي يا ترى؟! وكيف عرفته؟ وهل هي صديقة من صديقات الدراسة؟

إنه يؤكد ألف مرة بأن هذا الوجه قريب منه، معروف لديه، أما غير ذلك فلا يدري.

وعندها داعبه بعض أصدقائه بقولهم:

- إذن فهي صاحبة لك أردت أن لا تخبرنا عنها.

كان أشبه بمن لا يسمع أية كلمة.. وأخذ الجمع أماكنهم حول مائدة العشاء بعد أن طلبت صاحبة الغلاف من المضيف بأن يكون هو على يمينها.

وعندما أخذ مكانه إلى جانبها بدأ يتطلع إلى وجهها في صمت وبلاهة أثارت ضحك بعض أصدقائه، أما هي فلم تلتفت إلى أي شيء، بل أخذت تقدم إليه أصنافاً من الطعام، بكلمة واحدة:

- لقد كنت تفضل هذا وتريد هذا.

وعندما حاول أصدقاؤه معرفة الصلة التي تربط بينها وبين صديقهم لاذت بالصمت ولم تجب، وإن كانت الابتسامة لم تفارق وجهها الجميل. وحاول كثيراً أن يعرف من هي وكيف استطاعت أن تصل إلى قلبه وتعرف كل شيء عنه، ولكن دون جدوى.

وعند الانتهاء من الطعام أخذت فتاة الغلاف بيد فؤاد إلى مكان قصيّ وأخذت تهمس في أذنه بكلمات حاول كلّ أصدقائه أن يدفعوا نصف أعمارهم ليعرفوها، دون جدوى.

كانت تقول له في همس:

- لقد نسيت هنية يا فؤاد.. هنية خادمة الأمس في بيتكم الصغير، نسيتها ونسيت كيف كنت تخلصها من عذاب والدتك، تلك التي كانت تلقي بيديها الكبيرتين على وجهها لمجرد أي خطأ.. نسيت كل ذلك. أما أنا فلم أنس يا صديقي القديم.

وتثاقلت خطواته، وبدأ يجمع أفكاره يحاول بها أن يعيد إلى الذاكرة حوادث الأمس القريب والبعيد معاً. تلك التي كانت أكثر إيلاماً لنفسه من أي شيء آخر.

وأخذ يمضي في الطريق الطويل بلا هدف. هنا وهناك من حوله يتراكضون كل واحد منهم يسير لغاية في نفسه إلا هو.

فلقد فقد القدرة على تركيز أفكاره تلك التي تزدحم بها مخيلته في تضارب عجيب لا يدري سببه. واستعد للعودة مرة ثانية إلى النقطة التي بدأ بها مسيرته، لولا بقية من أمل في أن يصل إلى ما يريد.

واستوقفته لافتة صغيرة كتب عليها، "إلى الغد"، واستغرب أن توضع أمثال هذه اللافتة على محل تجاري كبير.

ومضى يبحلق فيها ويركّز نظره عليها. وبدأ يبحث عن سبب وجود هذه اللافتة ولكن دون جدوى، كان كل شيء في ذلك المحل التجاري يدل على الأناقة المفرطة والقدرة على الاختيار.

ولكن هذه اللافتة اللعينة.لماذا وضعت هكذا، ولأي سبب؟

وانصرف بكل ذهنه لمعرفة السبب، وأخذ طريقه إلى المحل ليجد عبارة أخرى كتبت على اللافتة وبخط صغير يكاد أن لا يكون مقروءاً على البعد:

- "سننتظرك".

وعرف السبب، فهذه اللافتة وسيلة جديدة من وسائل الإعلان عن المحل التجاري وعن ابتكاره، وتأكد عندما وجد المحل

التجاري مقفولاً بأنهم يعنون كل كلمة في هذه اللافتة.. إلى الغد. سننتظرك.

وأحس بشيء من الراحة، فالمحل على ما يبدو في إجازة. وهو أيضاً في إجازة، فلماذا لا يترك كل شيء إلى الغد، والغد القريب.

لينتظر الغد ولتظل أفكاره في مكانها ما دامت لا تريد أن تعود للظهور مرة أخرى، وليس كل شيء. ومضى يغذ السير هذه المرة وبكل قوته. ليعود إلى مكان الانطلاق الأول، عندما بدأ السير.. وأحس بكثير من الإجهاد وهو يعيد الكرّة مرة ثانية ليصل إلى غرفته الصغيرة التي تطل من الدور التاسع على الأرض الفراغ الممتدة لآخر الشارع الطويل.

وتصور كيف تكون حالة غرفته عندما يبدأ أصحاب الأرض الفضاء في إعمارها، وشكر الله لأن غرفته لا تزال تطل على الفراغ الممتد بطول الشارع إلى البعيد البعيد في شموخ وأنفة وكبرياء.

وألقى بكل ثقله على "الفرانده" الصغيرة يلملم شتات ذكرياته، هكذا بلا رغبة في هذه المرة، فلقد فقد كل رغبة في أن يصل إلى ما يريد، ما دام الغد سيأتي بلا شك، وهكذا أخذ طريقه إلى سريره الصغير ليلقي بجسده الفارع الممشوق وليتلقف بيده الأخرى كتابه المفضل يحاول أن يلقي على سطوره بعض النظرات بلا فهم، وحتى بلا إدراك.. لماذا، لا يدري.

وأحس بشيء غير يسير من الراحة، وهو يلقي بكتابه المفضل إلى أرض الغرفة في عنف وفي قوة.

ومضى يتطلع إلى السقف بعيون زائغة، لا تستقر على شيء، وكأنه يحاول أن يجد في ألوان السقف الزاهية شيئاً.. أي شيء.

وأدار الراديو بحركة تشنجية ظاهرة. ومضى يستمع إلى كلمات المذيع يخاطب أذنيه بلا مبالاة. وفجأة أحس بقليل من الاهتمام وهو يستمع إلى أنباء غزو روسيا لتشيكوسلوفاكيا. وبحث في مخيلته عن مكان تشيكوسلوفاكيا هذه ولماذا يغزوها الروس؟

ولم يجد جواباً لكل هذه الأسئلة، فقرر في لحظة أن يخنق هذا الصوت الأجش الذي يأتي من جهاز الراديو.

ومضى يدير مؤشر الراديو إلى محطة أخرى، ولكن كانت جميع المحطات تعطي أخبارها في ذلك الوقت، فلم يستطع أن يسمع شيئاً جديداً.

واستغرب أن يكون الخبر الرئيسي لجميع هذه المحطات غزو روسيا لتشيكوسلوفاكيا. وتناول بيده الأخرى كتاباً جديداً كان قد اشتراه من السوق ولم يقرأه بعد.

ومضى يطالع عنوان الكتاب في فضول وكأنه يراه للمرة الأولى:

كان الكتاب لمكسيم رودنسون يستعرض فيه الرفض العربي للوجود الاسرائيلي.

ومضى يطالع صفحات الكتاب في فتور وقلق وكأنه يشفق على الكاتب أن يصل إلى نتيجة مضللة، فلقد تعوّد دائماً أن يرى مثل هذه الأمور عندما يقرأ كتاباً جديداً عن المشكلة الفلسطينية.

ورأى من الخير أن لا يعطي رأيه في الكتاب لمجرد قراءة عابرة، وإنما ترك كل هذا للغد، فقد يأتي الغد على ما يريد.

أليسوا هناك في المحل التجاري المفرط في الأناقة ينتظرون الغد هم الآخرون؟

وتسللت ابتسامة صغيرة إلى وجهه ومضى مطرقاً يبحلق في الصورة التي اشتراها مؤخراً. كانت هي الشيء الوحيد الذي يوحي إليه بالقوة رغم احتوائها على جميع مقومات الحزن. وأحس فعلاً بالدماء الحارة تجري في عروقه وهو يستقبل النظرة الحزينة التي تطل من عيني السيدة العجوز التي تتطلع إلى الأفق مثله، وترقب معه خيال شباب يحملون الأسلحة الفتاكة في أيديهم على الرغم من صغر سنهم.

وانبسط السواد الذي جلل بعض أجزاء الصورة إلى انفتاح، وأطل العشب الأخضر من عيني العجوز إلى عينيه، وابتسم مرة أخرى.

ودقّق النظر في هذا الشيء الذي يفرده أحدهم والذي خطه الفنّان بعناية ما بعدها عناية. وشعر بأن هذا الشيء الذي يريده هؤلاء الشباب هو الشيء نفسه الذي يريده هو: الأرض والبيت والأخوة والجيران.

وتطلع معهم إلى الخريطة بنظرة خاطفة، ثم عاد يسرح به خياله إلى الأيام التي مضت وانقضت. يوم كان صغيراً يخط على الأرض خطوطاً صغيرة يجعل منها جداول وأنهاراً، ويزرع فيها الكثير من الأشجار هناك بجانب البيت الصغير، وبالقرب من "عم سعيد"، الرجل الأشيب الذي كان يسميه عندما كبر قليلاً (التاريخ يمشي على رجلين).

لطالما أحس بإعجاب لهذا الشيخ الذي تختزن ذاكرته كل هذا التاريخ، تاريخ وطنه وأرضه وأمته.

ومضى يستمع في تلك اللحظة لحديث الشيخ العجوز في هدوء وكأنه أمامه يلقي عيه فصولاً من تاريخ هذه القرية الصغيرة التي كانت أمله وأمل أجداده كما هي أمل أحفاده اليوم. ولكن فجأة تذكر أين هو اليوم من تلك القرية، وأين هو اليوم وأين ذلك الشيخ؟

ترى هل مات أم قتل؟ لا يدري. وتذكر شيئاً وأصر بينه وبين نفسه على أن الشيخ قد قتل. لماذا؟ ولأول مرة أحس بأنه يدري هذه المرة، فلقد دأب المحتل لأرضه على قتل النساء والشيوخ، وشيخه قتل ولا شك.

ومضى يذرف الدمع مدراراً بعد أن وصل إلى هذه النتيجة.

وأحس بصوته يعلو ويرتفع.. نعم قتلوه.. قتلوه بلا شك.

ولكن، ليس هو وحده من قتل، على ما يعتقد.

فأبوه هو الآخر قتل وأمه هي الأخرى ذبحت أمام عينيه هناك على أرض الدار الصغيرة.

أما هو فكل الذي يعرفه أنه قد انتقل فجأة من مكان إلى مكان جديد. كيف انتقل، قد يدري ولكنه لا يريد أن يتذكّر.

عشرون عاماً أمضاها هنا وهناك ذاق فيها صنوف العذاب والشقاء وسهر فيها الليالي ليكون في النهاية هذا الشيء الذي يطالع صورته أمام المرآة.

وأحسّ برغبة في أن يطيل النظر إلى وجهه يطالع فيه مآسي السنوات الطوال التي أمضاها، فلقد خط القدر على صفحات هذا الوجه أشياء كثيرة يحسها تطالعه في صمت، وفي هدوء أيضاً. ومضى إلى (الريكوردر) يستلهمه

في هذه المرة كعادته شيئاً من الهدوء. وانساب صوت فيروز إلى أذنيه يعلن بداية معركة أخذت تحتدم في وعيه الباطن لتطل بكل تعابيرها على وجهه. واستمع إلى قصة القدس.. تلك التي ضاعت في فترة نزق. وإلا بماذا سيسمي هذه الحرب التي أخذت بقية أرضه (حرب ٥ حزيران).

لم يجد ما يعبر به عن تلك الحرب الخاطفة التي افتقد بعدها الكثير سوى النزق والرعونة، هكذا دعاها: وكأنه يحس في نفسه بأنه صادق في وصفه إياها بهذا الوصف، وأخذت الأفكار تطل في هذه المرة أمام عينيه في تسلسل غريب.

صور حرب حزيران وما بعدها.

وأحاديث يارنغ ذلك الذي كان في نظره أشبه بالمكوك يجري هنا وهناك ولكن بلا فائدة. وأحاديث الصحف ونقدها اللاذع لكثير من الأمور التي جرت ثم صمتها دفعة واحدة ومدافعتها في بعض الأحايين عن أخطاء هي التي كانت قد وضعتها أمام أعين القراء بأنها أخطاء، متناقضات كلها هذه الحياة، وما أكثر متناقضات الحياة نفسها.

عام أو يزيد من عمر النكسة تلك التي جاءت بعد نكبة عام ١٩٤٨، دون أن يستفيد منها بعضهم رغم مشاركتهم حرب ١٩٤٨م.

لماذا؟

وأحس بقليل من الفرحة تغمر قلبه عندما تذكر بداية العمل الفدائي، على أرض فلسطين، وشعر بكثير من الامتعاض عندما تذكر كل هذه الصحف العربية التي تحاول أن تعطي العدو معلومات عن الفدائيين بحسن نية وبنشرها لصورهم على القاعدة والأرض التي ينطلقون منها.

وتذكر كل مشروعات الجهاد التي يبذلها العالم العربي وأحس بأن أفضل شعار رفع فيها هو شعار "ادفع ريالاً تنقذ عربياً".

وتمنى لو أن هذا الشعار يرتفع في كل مكان من عالمنا العربي والإسلامي على السواء ربما بهذه الطريقة يستطيع العمل الفدائي أن ينال نصيبه بشكل أفضل وأعم، واستقرت في ذهنه صور اللامبالاة في الحرب الخاطفة، وأخذت

تطل هذه الصورة مرة أخرى في اندفاع غريب من ذهنه المكدود.

واندفع يطالع صفحات كل الكتب التي صدرت بعد النكسة في الشرق والغرب على السواء، بلا جدوى.

فهو وإن كان أعرف الناس بالتفاصيل من كثير من هؤلاء الكتاب، إلا أنه يهمه أن يعرف رأي الناس في العالم حول ما حدث في بلاده.

وشعر بشيء كثير من الأسى يغمر قلبه هذه المرة، يواكب إحساسه ليحيل كل شيء فيه إلى إنسان بائس لا يدري ماذا يفعل.

وأحس بالاختناق عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير. وألقى كل ثقله على المائدة التي تداعت على الفور تحت ثقل جسمه الفارع الطول.

وشعر بمزيد من الارتياح يغمر قلبه وهدأ جسمه بعض الشيء ومضى في استرخاءة طويلة. نام بعدها ملء عينيه، وفي الصباح بدأ ذهنه يصحو وأصبح قادراً على التفكير أكثر من ذي قبل، وبدأت جميع الصور تتسلسل في مخيلته في ترتيب وسلاسة، وأحس بجميع آثار الفاجعة تلك التي حولت الملايين من أبناء بلاده إلى مجرد لاجئين يجوبون الأرض هنا وهناك بحثاً عن لقمة العيش.

وتبلورت في ذهنه أمراض الماضي بما فيها أمراض مجتمعه، ذلك الذي لم يكن قادراً على المعركة يوم كان كل أبناء فلسطين يعيشون على أراضيهم.

ولم يرد أن يتفلسف في الموضوع وتذكر بأنه هو الآخر مسؤول عن تخليص أرضه ووطنه، فجمع كل أغراضه ومضى في الطريق الطويل حيث تنتظره آلاف مؤلفة من شباب فلسطين وغير فلسطين، أولئك الذين انضموا إلى لواء المقاومة، مقاومة المحتل لأراضيهم الطيبة، وكلمة واحدة تطل بشكل غير مألوف من ذهنه.

كانت الكلمة هي العبارة التي وضعها المحل التجاري (إلى الغد.. سننتظرك) وتذكر بأن أرضه وأخوته هناك في انتظاره، ولكن اليوم وليس غداً على أية حال.

بصمات الزّمن

الليل يكاد أن ينتصف، ونباح الكلاب مع مواء القطط يرتفع هنا وهناك، والمرأة العجوز تدب بعكازها على الأرض اليابسة، وأطفال الحارة قد هجروا الحارة بعد تعب مضن.

وهو على فراشه يتلوى من الألم ينتظر ساعة انبثاق الفجر ليقوم من فوره إلى الطبيب الذي حاول أن يتحدث معه هاتفياً بلا جدوى.

لقد جرب جميع أنواع الحبوب المسكنة التي وصفها له الطبيب، وجرع كل ما يحتويه درجه من شراب كان قد أعطاه له أكثر من طبيب، ولكن الألم يكاد يعتصر فؤاده ويمزق أحشاءه، وتذكر أول يوم خطت فيه قدماه نحو المستشفى القريب من داره.

تذكر كل ذلك وهو في جلسته تلك، وتذكر يدي الطبيب وهي تمسك بمعصمه ثم تمضي لتجوس في جميع أجزاء جسده.

وتذكرأيضاً نظرات الممرضة الحسناء تنظر إليه في هلع وعيناها مسمرتان على شفتي الطبيب تنتظر مثله نتيجة الكشف على جسده، وأحس بشيء من الراحة، عندما عرف نوايا ممرضته منه، فهي وإن كانت تمتّ إليه بصلة القرابة من بعيد إلا أنها كانت حريصة لأن تعرف وبدقة ملابسات مرضه.

وتعجب بينه وبين نفسه وأحس بعجزه عن تفسير هذه اللهفة التي تطل من عيني الفتاة الرقيقة. وبدت ملامح الفتاة تتجسد أمام ناظريه في صورة أنثى مرحة متفائلة تبحث عن الحياة بين جدران المستشفى وفي حرية، ثم عادت الصورة إلى الظهور مرة ثانية في مظهر آخر يغاير مظهرها الأول، كان وجهها أشبه بمن حرمت من

وليدها ساعة حرب.

وظهرت ملامحها الحزينة، تأخذ شكلاً جديداً من أشكال الوجوم والكآبة وأحس بشيء كثير من الكآبة يلفّه هو الآخر دونما سبب.

وتضجر بينه وبين نفسه من هذا الألم الذي يكاد يعتصر قلبه وما بين جنبيه، ليته يسكت ولو لفترة قصيرة.

ولكن الألم يزداد مرة بعد مرة، يحس وكأن الأرض قد انشقت لتبتلعه في جوفها بلا رحمة. ورويداً رويداً شعر بشيء من الأمل يجتاح نفسه بعد أن أودع فمه قليلاً من "الجهان" وصفته أمه العجوز.

وشعر بشيء من الصفاء يتسلل إلى قلبه، وأخذ يفكر في الأمس الذي قضاه بين يدي الطبيب خلف الستار الأسود في حجرة الكشف بالأشعة بعد أن ملؤوا جوفه بمادة بيضاء كالجلاتين قالوا عنها بأنها الوسيلة للكشف على معدته.

وأحس بمزيد من القرف عندما تذكر كيف دفعت ممرضته بملعقة الدواء إلى جوفه وأخذ ينظر في سلبية إلى عيني الفتاة، نظرة جديدة أودعها كل معاني الحب والاحترام، فهي في سن يكاد يماثل سن فتاته لو عاشت، ولكن لماذا كل هذا الإطار من الحزن الذي يلف وجه الفتاة؟ لقد حاول كثيراً أن يتعرف إليها عن كثب ويعرف عنها الكثير ولكنها كانت دائماً تبعد بأفكارها عن أن تجيبه بأسباب هذا الحزن.

في الغد سيحاول من جديد أن يتعرف إليها أكثر من ذي قبل.

ومضى يقارن بين وجه الفتاة وصورة قديمة من صور ابنته التي ذهبت إثر عملية جراحية جعلته يوجس دائماً الخوف من أية عملية، فوجد الشبه كبيراً ولدرجة لا تصدق، فقد كانت ملامحها أشبه بفتاته التي ذهبت، الشعر الأشقر الطويل، والعيون الناعسة الجميلة، والنظرة الحالمة الحزينة. لطالما فكر فيها وهو في أشد حالات الألم، وها هي صورتها اليوم، صورة فتاته تبرز مرة أخرى وتطفو على السطح في صورة هذه الفتاة الممرضة.

رباه ليتها لم تمض، ولكنها إرادتك.

وعند هذا الحد من التفكير انفرجت أساريره بعض الشيء، وأخذت

الابتسامة تظهر على شفتيه لولا هذا الألم الطاحن الذي يكاد يمزق معدته.

لقد قال له الطبيب يومها باستعمال عدد من الأدوية حتى إذا لم تعد هذه الأدوية ذات فائدة جاز له أن يستعمل مبضعه لاستئصال جزء غير صغير من معدته، ولكنه يهاب الجراحة والعمليات منذ ذلك اليوم الذي مضت فيه ابنته دون وداع.

يهابها من كل قلبه ويخشى جميع عواقبها. ومع الغد كان في طريقه إلى المستشفى يجر قدميه وفي مخيلته صورة الفتاة تكاد تطغى على جميع آلامه. وهناك استقبلته ممرضة أخرى غير تلك التي ينتظر رؤيتها بفارغ الصبر.. وأخذته من يده إلى غرفة الطبيب ليفاجأ برؤية فتاته وابتسامتها الشاحبة تطل من وجهها الحزين:

ـ كيف حالك يا عم كامل؟

ـ حمداً لله، على الرغم من كل آلامي.

ـ ربما لأنك لم تستعمل الدواء كما طلب منك الطبيب؟

ـ ربما لأنني استعملته وفق إرشادات الطبيب.

وساد صمت مطبق لم تقطعه سوى خطوات الطبيب الذي جاء إليه ماداً كلتا يديه مرحباً به، وآخذاً بيده إلى السرير الأبيض، وبدأ يفحص جسمه فحصاً دقيقاً ثم قال:

ـ ربما تحتاج إلى بقائك فترة من الوقت يا عم كامل في المستشفى.

وأجابه عمّ كامل بلا مبالاة:

ـ لا بأس ما دامت هذه إرادتك على أن تقوم برعايتي هذه الآنسة.

وأشار إلى فتاته، ثم ضحك وتابع قوله:

ـ لأنها قريبة إلى قلبي فهي مثل ابنتي تماماً.

وأخذته سحر إلى الغرفة التي أعدت لبقائه في المستشفى وبدأ يتطلع إلى كل مكان فيها، لقد سعد كثيراً بجو الغرفة، فهي على بساطتها ونظافتها خير من غرفة نومه، فهنا على الأقل يشاهد لمسات الأنوثة تسيطر على جو الغرفة، أما بيته فقد فقدَ كل شيء بعد وفاة زوجته وابنته، وأصبح مجرد مكان يقضي فيه

أوقات حياته دون طعم وعلى مضض. واستلقى على السرير يفكر فيما مضى من عمره وكيف انقضى، فهو على عتبة السبعين من العمر أمضى جلها في اكتناز المال بهدف أن يورثه لأبنائه الذين لم يرزق بهم.

وها هو اليوم يعيش بمفرده في البيت الكبير، يعيش وذكريات الماضي تسد الطريق أمام وجهه في كل مكان يسير فيه.

وفكر كثيراً فيما سيفعله بهذا المال الوفير، وعندما اهتدى إلى الحل انفرجت أساريره وزالت آلامه وشعر بمزيد من الدماء تسري في عروقه.

لقد قرّ عزمه على أن يفعلها، ولكنه قبل أن يفعل ما يريده رأى من الحكمة أن يتعرّف إلى رأيها ودق جرس الغرفة لتلبّي نداءه ممرضة أخرى، وعندما سألته عن طلباته أجاب والابتسامة تملأ وجهه:

ـ أريد سحر إن أمكن أيتها الآنسة.

وأطل وجه سحر على الغرفة، وأطلت معه أمنيات عمره الطويل ترافق الصبية في خطواتها إلى الغرفة وقالت:

ـ ما بك يا عم كامل؟

ـ لا شيء ياابنتي، مجرد حديث طويل أريد أن أخفّف به عن نفسي إليك يا سحر، أنت تعرفين الحياة يا ابنتي، فعلى الرغم من جمالها وحلاوتها فهي أيضاً كالتيار تحاول أن تأكل بعض بني البشر، وأنا واحد منهم من أولئك الذين يخافون الحياة.

وصمت ثم عاود حديثه:

ـ اجلسي يا صغيرتي، فقد يطول الكلام بيننا.

وجلست سحر على الكرسي الصغير فتابع العم كامل حديثه:

ـ أوتصدقينني القول يا سحر، لماذا كل هذا الحزن الذي يحيط بقسمات وجهك؟

وضحكت سحر من كل قلبها وقالت:

ـ الحياة يا عمّ كامل هي التي تضع بصماتها على وجوه الناس، وأنا واحدة من بنات هذه الدنيا الواسعة المليئة بالهموم والمشاكل، فقد تختار

الحياة بعض الناس لتزرع في قلوبهم الحزن، وقد تختار غيرهم لتزرع في قلوبهم الفرح، وأنا يا صديقي الكبير من أولئك الذين زرعت الحياة في قلوبهم الحزن، ولا شيء غير الحزن، أوتعرف كيف مضت أيام حياتي حتى هذا اليوم الذي أنا فيه، لقد مرت بنا أحداث جسام أخذت الأب والمعيل وتركت صغاراً يحتاجون لشربة ماء، وكنت أنا كبش الفداء لأولئك الصغار أحاول أن أعطيهم من حياتي ما يمنع عنهم الفاقة. أنت أعرف الناس بوالدي يا عم كامل، فقد كان، رحمه الله ، صديقك.

ـ صديقي أنا!

نطق العم كامل بهذه الكلمة في دهشة.

وأجابت سحر بلا تردد:

ـ نعم.. صديقك، وصديق طفولتك، فلطالما حدّثتني والدتي عن صداقتكما أيام الشباب. وإن كانت الدنيا قد فرقت بينكما فبقي هو على حاله ومضيت أنت إلى حالك، إنه محمد سعيد الأتربي، ذلك الذي يعمل موظفاً صغيراً في مديرية الأوقاف، هل عرفته؟

وأجاب العم كامل:

ـ نعم يا بنيتي، ولكنه أين هو الآن؟

ـ لقد مضى يا صديقي بعد أن ترك لي ولوالدتي حفنة من الأولاد مع مرتب هزيل لا يسدّ الرمق، ورأيت من واجبي أن أعمل لأعول الصغار وهكذا كان.

إن سمة الحزن التي تراها ليست سوى ضريبة الحياة نفسها أحاول أن أدفع بها كل مصائب الدنيا عن رأسي.

وضحكت سحر ضحكة صافية، ثم عقبت قائلة:

ـ أما أنت فلماذا تشغلك العملية؟ إنها بسيطة كما تعرف ولن تبقى سوى بضعة أيام ثم تعود إلى بيتك.

ـ إلى بيتي!.. ومن قال هذا؟

ـ أنا يا عم كامل.

أجابت سحر.

ـ ولكني لا أريد العودة إلى البيت الكبير، فهو خال كما تعرفين من كل معالم الحياة، سأعود يا بنيتي إلى البيت وأنت وإخوتك ووالدتك العجوز برفقتي لتمضوا حياتكم معي وإلى جانبي كأولادي، فهل تقبلين يا ابنتي؟

وأجابت سحر على الفور:

ـ سأقبل يا عمّ كامل بشرط واحد، أن أعود مرة ثانية لممارسة عملي.

ـ لا بأس يا بنيتي، ستعودين للعمل مرة ثانية، ولكن..

ـ ولكن ماذا يا عم كامل؟

وضحك العم كامل من كل قلبه:

ـ ستعودين للعمل مرة ثانية يا سحر، ولكن بدون هذه البصمات. "بصمات الزمن".

وأغمض عينيه فترة من الزمن، تجمعت خلالها في ذاكرته أشياء كثيرة، مثيرة وصغيرة أيضاً، فهي المرة الأولى التي يقدر له فيها أن يمتطي ظهر هذا الصندوق المجوّف الكبير المملوء إلى آخره بنماذج من البشر غريبة عليه.

وأحس بقليل من الرغبة مقرونة بكثير من التكاسل في أن يلقي نظرة على هذه النماذج البشرية التي تحيط به كما يحيط السوار بالمعصم.

وتطلع إلى رفيقته في الرحلة بنظرة حاول فيها أن يظهر ابتسامة وعينه تصافح رفيقة السفر الشقراء التي ينبض وجهها بكل معاني الحلاوة والرقة.. هكذا رآها للوهلة الأولى، وعندما عاد واسترق النظر رأى وجهها في هذه المرة وقد غاضت منه كل آثار تلك الحلاوة والرقة، وبدأ يعلو وجهها مزيج من الخوف والفزع، من ماذا؟ لا يدري!

وتخطّى بنظره إلى الرجل الذي يقبع على كرسيه عن يمينه، فأحس بنفس الإحساس يحاول أن يخفيه ذلك العجوز، وشعر بأن ثمة أكثر من عضلة من عضلات وجهه أخذت تهتز فجأة وفي شكل تشنجي ظاهر.. تبرز كل معاني الفزع الذي يعتمل في وعيه الباطن، واستمرأ بينه وبين نفسه أن يطالع أفكار الناس وأخذ يجيل بصره هنا وهناك، عند ذلك الطفل الصغير الذي أخذ يعدو أمامه بشكل إرادي في الممر الصغير الأنيق. وأحس بأنه خائف وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا يبدو على كل هذه الوجوه التي أمامه شيء من صفرة الفزع؟

أترى هو الخوف من ذلك المجهول الذي لا يدري عنه شيئاً؟ وعنّ له أن يتحدث مع رفيقة السفر. بضع كلمات شعر بعدها وقد سدّت أمامه كل منافذ الكلام بلا جدوى.

كان كلّ ماعرفه منها أنها زوجة لوافد من أولئك الذين يجيئون إلى بلده للعمل في الشركات الكثيرة التي تساهم في البناء.

واتّضح من الكلمات القصار التي تبادلها معها بأنها المرة الأولى التي تسافر فيها دون زوجها، ولهذا فهي تشعر بكثير من الكآبة وشيء من الخوف، وعاد بذاكرته إلى السبب الذي جعله هكذا، مجرد طرد كبير في الطائرة الحرون التي أخذت تعلو وتهبط دونما سبب.

هكذا خيل إليه وهو يتلقى كلمات المضيفة بأن يربط الحزام حول بطنه وبلا إرادة حاول أن يربط حزامه، فلم يقو على ذلك.

وعندما أحسّت رفيقة كرسي الطائرة اللخمة التي أصيب بها أخذت تساعده في ربط الحزام، وهكذا بدأ يتمتم بينه وبين نفسه بكلمات الشكر دون أن تعي المرأة كلماته. وفجأة عادت به الذكرى إلى كل ما قرأه عن حوادث الطيران في الآونه الأخيرة، وأحس بمزيج من الخوف والذعر ينتاب نفسه، وبدأ جسمه يهتز بلا إرادة أو حتى شعور وكأنه ريشة في مهب الريح تتلقفها الرياح هنا وهناك.

وشعر بشيء من الخجل، فحاول أن يهدىء من ثورة الفزع التي اعتملت في نفسه بلا جدوى، ولعن في سره اليوم الذي قرر فيه السفر لمراجعة طبيب نفساني معروف يعيش في الطرف الآخر من مدينة لندن.

هكذا قالوا له وعلى لسان أكثر من صديق بأن عليه أن يسافر. أن يذهب ليستشير ذلك الطبيب في العقدة التي أصابته وجعلت منه ذلك الانطوائي الراغب في العيش بعيداً عن الأصدقاء وفي عزلة عن البشر.

وفكّر كثيراً في الماضي.. في أيام طفولته كيف كانت، وأخذت الصور طريقها إلى مخيلته تشرح دقائق الحياة التي عاشها يومذاك صغيراً ويافعاً.. وتذكر شيئاً واحداً يعتبره مهماً، فلقد تأخرت قدرته على النطق سنوات ثلاثاً عن غيره من الأطفال، الأمر الذي أزعج والده وجعله يأخذه إلى عيادات أطباء

الأطفال، وفي صورة مستمرة.

وفي المدرسة، فعلى الرغم من أنه كان مبرزاً متفوقاً على زملائه، إلا أنه كان يهاب دائماً أن يغشى المجتمعات ويفضل أن يبقى وحده مع رفيق واحد اختاره من بين كل هذه المجموعة من الطلاب، ولقد رافقه صديقه طوال سنوات دراسته حتى تخرجه ثم افترقا بعد ذلك.

كان نهماً محباً للاطّلاع، فحاول بجهده الخاص الاطّلاع على كتب علم النفس، وحاول من خلال دراساته أن يحلّل عقدته هذه التي يرى أنها أصبحت لصيقة به بلا جدوى، وتذكر لحظة عقد قرانه كيف مرّت، فعلى الرغم من أنه لم يقو على تلبيسها الشبكة أخذت الكلمات تخرج من فمه بشكل مضحك جعل الخطيبة تخفي وجهها قليلاً لتخرج ضحكتها تلك التي قرّر على أثرها أن يتعالج. وها هو اليوم على ظهر هذا المركب الخشن بين الأرض والسماء يمضي إلى المجهول بقدميه وفي نفسه ذكريات لا تنضب وأحاديث كثيرة يود أن يقولها لهذه الجارة المسكينة أو لذلك الشيخ العجوز.

واستجمع قواه وبدأ يتجاذب أطراف الحديث مع رفيقة سفره في انطلاق شعر فيه بكثير من القوة. لقد حدّثها كثيراً عن نفسه، عن حياته وأمانيه وآماله، وعن عقدته وعن دراسته، وعن يوم عقد قرانه. حدّثها حديثاً طويلاً اقترن بمناقشات كثيرة شعرت بعدها بكثير من الراحة.. واستسلمت رفيقة سفره إلى حديثه الطويل في دهشة بادىء ذي بدء، ثم أخذت تندمج معه في حديثه في عفوية.. وكانت تسأله دائماً عدة أسئلة يجيب عليها بلا تلعثم.

وهكذا ولأول مرة في حياته يشعر بأنه قد تغلب على عاهته تلك التي أقضّت مضجعه. واستمرأ الحديث فأخذ ضروباً أخرى كثيرة متعددة تناولت جميع التفصيلات عن الحياة في بلده وفي بلدها والفارق بين المجتمعين والحدود التي تفصل بين الرجل والمرأة.

وكان في كل أحاديثه مقنعاً خصوصاً عندما شرح لها المميزات التي أعطاها الإسلام للمرأة وخرجا من نتيجة الحديث بشيء واحد: رغبة رفيقة السفر في أن تعود المرأة في بلادها للحدود الأولى التي كانت لها بعيداً عن مشاكل الحياة الصعبة التي تمارسها اليوم.

ونسي في غمرة الحديث كل شيء عن حوادث الطيران، عن مشكلته التي يعيشها، وحتى عن الطبيب الذي سيذهب إليه ليعالجه.

نسي كل هذا وتذكر شيئاً واحداً هو أن هذه الهزة التي تعمدتها الطائرة قد أعادت إليه شيئاً كثيراً من قدرته على التغلب على المشكلة.

وأخذت الطائرة طريقها إلى المدرج في أرض المطار، وأحس بصدمة خفيفة عندما لامست عجلة الطائرة أرض المطار. أخذ طريقه بعدها إلى مبنى المطار الكبير يفكر فيما سيواجهه وهو الغريب عن لندن.. المدينة العجيبة.

وبدت له لندن مدينة بلا نهاية، واستغرب أن تكون على هذه الضخامة والروعة، ففي كل جزء من أجزاء المدينة كانت الحياة تموج بألوف مؤلّفة من البشر يسيرون في حيوية ولا عفوية. هكذا كان انطباعه الأول عن المدينة الجديدة التي سيقضي فيها أياماً لا يدري كم تطول وإن كان يعتقد أنّها مفيدة.

وفي الفندق أحس بقليل من الوحشة وتفاهم في صعوبة بالغة مع موظف الفندق على الرغم من أنه كان من أوائل المبرزين في هذه اللغة في مدرسته.

ومرت الأيام وكل يوم يلتقي فيه بالجديد من الحياة. ونسي أمر ذلك الطبيب الذي جاء من أجله، واستمرأ العيش وزالت عنه آثار تلك العقدة الملعونة، واكتشف في النهاية خطأه وخطأ أصدقائه جميعاً، وأحس بشيء من الراحة.

كان جلّ همه أن يلتقي بالناس ويتحدث إليهم ويكاشفهم ويكاشفونه، وتعلم الكثير خلال أيامه تلك، التي قضاها في هذه المدينة الغريبة والتي تعج بمئات الألوف من الناس هنا وهناك. في هايد بارك وأكسفورد استريت وبيكاديللي سيركوس. وأحس بشرقيته تذوب وتضمحل بين هذه الألوف المؤلفة التي ترتاد المقاهي والمطاعم بلا متاعب أو حتى إحساس بالمتاعب.

ولم يعد يفكر في الماضي وإنما مضى يتطلع إلى حاضره في نهم ما بعده نهم.

كان في تلك اللحظة كمن فاته القطار فأراد أن يلحق به فلم يرعو، وإنما أخذ من الحياة بنصيب أكبر، ومضى يتسلق جدارها في حيوية ليعيد لنفسه سابق صفائها.

وفجأة تذكر شيئاً هاماً آلى على نفسه أن يعرفه. وتألم كثيراً لنسيان هذا الأمر.. والناس في بلده كلهم مشغولون به.

ترى كيف ينظرون هنا في هذه المدينة إلى قضية فلسطين؟

وبحث كثيراً في الصحف التي كان قد اشتراها طوال أيام وجوده في لندن ليتعرف من خلالها على رأي قادة الفكر فلم يوفق.

كان جلّ ما وجده مجرد أخبار قصيرة تحكي قصة ما يستجد على الأرض المغتصبة وفي أسلوب يحاول فيه كاتبه أن يخفي رأيه ويغلفه فلا يبدو سوى مجرد خبر، وخبر فقط، وصمم بينه وبين نفسه على أن يذهب إلى إحدى دور بيع الكتب ليشتري منها كل ما كتب الكتاب عن هذه المشكلة.

واستغرب صاحب المكتبة مثل هذا الطلب وأبدى هذا الاستغراب في جملة مهذبة وأردف يقول:

ـ هي قصة قديمة هذه التي تبحث عنها.. لقد مضى على حرب حزيران أكثر من عام ولا جديد فيها.

وصمت برهة من الوقت ليرد على البائع في حنق وألم:

ـ قد تكون كذلك، ولكن الجديد ستسمعونه قريباً.

وأصغى البائع في احترام ولهفة لكلامه ثم تابع سؤاله:

ـ ولكن متى سيكون هذا الجديد ولصالح من؟

ـ لصالح العرب يا صديقي.

هكذا قالها ولم يتم كلامه حتى صافحت أذنيه ضحكة قصيرة من البائع وهو يقول:

ـ ربما!

واستغرب كلمة ربما هذه، فسأل البائع عن اسمه، وعندما أجابه سأله مرة أخرى:

ـ أنت يهودي؟

فأجابه البائع:

ـ لا، ولكننا هنا نتعاطف مع اليهود.

وسأل عن السبب، فقال:

ـ لقد استطاعوا على قلة عددهم أن يغلبوا العرب برغم ما هو معروف عنهم وعن شجاعتهم، ولأن هذه الفئة الضعيفة استطاعت أن تشرح موقفها للعالم بينما لم يستطع العرب أن يقولوا شيئاً.

وعزّ عليه أن يسمع مثل هذا الكلام، وبدأ محاضرة طويلة تجمع على أثرها عدد من الأشخاص ممن كانوا يقلبون الكتب هنا وهناك.

وأحس بسعادة تغمر كل قلبه، فلقد استطاع أن يطلع هؤلاء الناس على الحقيقة، حقيقة الأرض التي اغتصبت، في غفلة عين.

حقيقة حرب حزيران وما قبل حزيران، حقيقة الحق العربي السليب في أرضهم وبيوتهم.

وتحدث في إسهاب عن المشكلة من جميع جوانبها كيف بدأت ومن المسؤول عما آلت إليه، وإلى أين تسير. وكانت لغته وهو يناقش المشكلة لغة علمية سليمة استطاع بها أن يدخل إلى قلوب أولئك الذين كانوا يستمعون إليه في احترام، وتساءل أحدهم:

ـ ولكن هذه المعلومات جميعها نجهلها كما يجهلها غيرنا في بلاد الإنجليز.

وضحك ولم يعقب، وإنما مضى يجمع كتبه التي اشتراها وتوجه إلى فندقه.

وفي الفندق بدأ الألم يعصر قلبه، فهو لم ير من حصيلة ما اشترى ولا كتاباً واحداً يستطيع أن يعطي للقارىء الأجنبي الصورة الحقيقية عن واقع المشكلة، مشكلة فلسطين.

وفي الغد حزم أمره ومضى إلى حديقة هايد بارك اللندنية التي تموج بالناس كل الناس. واستمع إلى حديث أكثر من خطيب، وفجأة قرر شيئاً هاماً، واعتلى أحد الكراسي المنتشرة في الحديقة ووقف يتحدث إلى الناس عن المشكلة الفلسطينية بأسلوب مقنع مهذّب.

الرسالة الجديدة

ـ ربما يستطيع الطبيب أن يفعل شيئاً.

هكذا قال صديقه في إشفاق وحب وهو ينظر إليه نظرة ملؤها الاعتزاز بهذا الجالس على كرسيه وإلى جانبه بضعة كتب جديدة وصلت إليه مؤخراً فلم يفض غلافها. وتطلع إليه الصديق وأومأ برأسه بالجواب.. وبكلمة واحدة ربما.. ومضى بكرسيه المتحرك يجره إلى آخر الغرفة، إلى دولاب الكتب ليضع حصيلته الجديدة بعد أن مزق غلافها في هدوء. ونظر الصديق إلى صديقه نظرة حنان وألم، فلقد كان يتلهف إلى سماع المزيد عن أخبار الطبيب الوافد إلى البلاد في هذه الأيام.

وعاد بذاكرته مرة ومرات إلى رحلات الصبا يوم كان هو وصديقه ينهب الأرض نهباً، هناك بين أعناق النخيل على الطرف الآخر من طيبة الطيبة.

ومضى يرهف السمع مرة أخرى لهمهمات صديقه، ذلك الذي كان يتلو دعاءه في صوت مشبع بروح من الأمل لم يعتدها صديقه منذ سنوات.

وعاد مرة أخرى إلى الذكريات يستشف منها آثار الماضي، أيام الطفولة بأحاديثها وأحداثها يوم كانا هناك على وادي العقيق يلعبان، وفي المدرسة يتلقّيان العلم. ثم عرج مرة أخرى بذاكرته على أيام الدراسة الجامعية في القاهرة يوم كان صديقه ملء السمع والبصر، يختال تيهاً في شرفات وردهات الجامعة.

وتذكر أمراً لم يعد يقوى على نسيانه، حديث الأمس البعيد،

عندما جاء إليه صديقه مصطحباً زميلة جديدة من زميلات الدراسة يقدمها إليه في أسلوب أحس فيه بنبرات المستقبل تخرج من طياته.

فلقد عرف، ومن أول وهلة، بأن صديقه قد نوى هذه المرة أن يقترن بفتاة من أرض غير أرضه، ذلك الذي كان ينادي دائماً بعقم أمثال هذه التجربة وخلوها من الكياسة والأدب، فلطالما أمضيا الليالي في مشادات لا أول لها ولا آخر، كان كل واحد منهما يتعصب لرأيه. وكان صديقه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن على المرء أن لا يبني بأية فتاة ومهما كانت الظروف ما دامت من غير وطنه، وكان يعزو رأيه إلى أشياء وأشياء لا يريد أن يذكرها، وإنما يمر عليها فقط، أما وفي تلك اللحظة التي قدم فيها الصديق صديقته، فقد فضل أن تطل كل الأفكار من مخيلته، وفي قوة هذه المرة.

وقطع عليه تفكيره سؤال مفاجىء من صديقه قائلاً:

ـ سعيد، ما بالك لا تجلس؟

وجلس في صمت، ليستمع مرة أخرى إلى صوت صديقه:

ـ سعيد، مالك ساهياً واجماً تفكر؟

قال:

- لا.

وتمتم ببقية الكلمة، وعاود صديقه الحديث:

ـ لقد تلقيت رسالة جديدة يا سعيد، أوتدري ممن؟

قال:

ـ أظنها من فريد، ذلك الذي يدرس في أمريكا، صديق الطفولة.

قال:

ـ لا

وضحك ثم تابع قوله:

ـ ولكن لن أقول لك ممن.. حتى تتكهن أنت.

ـ ربما من الطبيب!

وضحك.

ولكن صديقه تابع حديثه في اعتداد:

ـ لا يا صديقي هي ممن عرفت. جاءت تكتب إليّ بعد فترة ضياع عاشتها في القاهرة، هكذا تقول.

وألقى إليه بالرسالة، ليتسلمها هو الآخر، ثم يتابع في فضول قراءة بعض أحرف الرسالة.

وطالع بقية بعض سطور الورقة الأنيقة الزرقاء المعطرة، طالعها في تشوّق من يريد أن يعرف نهايتها بأسرع ما يمكن.. وعندها تذكر شيئاً، فألقى الرسالة من يده وقال لصديقه:

ـ وما تقول أنت؟

قال:

ـ لا شيء. سأحاول أن أكتب إليها هذه المرة.. سأكتب بعد أن يستطيع الطبيب أن يفعل شيئاً.

وعاد سعيد مرة أخرى يغرق في لجّة من أفكاره تلك التي أخذت طريقها أمام عينيه، فلقد تجسدت أحداث الماضي القريب والبعيد معاً أمامه.

وتذكر بأن من أسباب إصابة صديقه بهذا المرض صدمة عاطفية سدت أمامه كل دروب الحياة، وتذكر الكثير والكثير.

تذكر كيف كان يمضي وصديقه أيام الدراسة يراقبان الأيام وهي تدور ليتلقى بيد كلها أمل شهادته الجامعية، ثم ينطلق بها إلى سناء وهو يجري من خلفه لاهثاً كعادته. وعندما يصلان إلى بيت سناء يفاجآن بمجموعة كبيرة من الزوار يقفون في ردهة المنزل بملابس زاهية، ورأى سناء بينهم تختال بملابسها الأنيقة كطاووس جميل.

والتفتت سناء لتقوم بواجب الضيافة لصديقي الدراسة ثم مضت في تقديم الضيوف واحداً واحداً حتى أتت على واحد من الشباب ثم ألقت بقنبلتها في قسوة غير متعمدة:

ـ خطيبي محمود.

ونظر إلى وجه صديقه وهو يقول "تشرفنا"، فأحس بشيء كبير من الألم يعتصر كل قلبه.

كان وجه صديقه أشبه بشجرة ليمون صفراء كبيرة شاخت قبل أوانها، ثم غاضت منها كل معاني الحياة، وفرغت الدماء من عروقه، ولم يعد سوى مجرد شبح أبيض تسمرت قدماه في الأرض فلم يع ما حوله، ونظر إلى الخطيب نظرة جديدة جعلته يلتفت إليه، وكرر كلمته السابقة:

- تشرفنا. تشرفنا.

ومضى صديقه إلى أقرب كرسي ليلقي بجسده عليه مكدود الذهن مشتّت الخاطر يبحث عن طريقة يستطيع بها مغادرة المنزل في هدوء.

وأخذ صديقه طريقه إلى جانبه ليهدّىء من روعه قليلاً، وبعدها غادر المنزل إلى بيت صديقه، وهناك كان بينهما حديث طويل مستفيض عرف من خلاله جميع ما كان صديقه يحاول أن يخفيه عنه.

عرف عزمه على الاقتران بسناء، وعرف منه حديثه الطويل معها في هذا الصدد وعرف منه رغبتها في التريث بعض الوقت لتستطيع أن تخبره بحقيقة عواطفها نحوه.

وها هو قد عرف كل شيء، عرف بأن سناء لا تريده وإنما تريد سواه. وطلب منه صديقه يومها أن يعود إلى نفسه فيراجعها ويتذكر أحاديثه السابقة معه ومع أصدقائه، وكيف كان يطالبهم جميعاً البعد حتى عن مجرد التفكير في الزواج بفتاة من خارج الوطن.

ولكن صديقه نسي أو تناسى كل هذا عندما أحب، وتذكر شيئاً واحداً تذكر ما لحقه من جراء خطبة سناء لغيره.

ومن يومها لم يعد صديقه ذلك الإنسان الواثق بنفسه، الضاحك من كل قلبه، وإنما بدا كشمعة تحترق في الضوء بلا هدف.

لقد أمضى صديقه الشهور الثلاثة، وأصيب بعدها بمرضه هذا الذي لازمه طوال خمس سنوات كان خلالها يعرض تفاصيل مرضه على كل طبيب وفي كل مكان بلا جدوى.

وغداً سيذهب صديقه مرة أخرى إلى الطبيب، سيذهب ومعه رسالة سناء التي لم يتم قراءتها.

ونظر إلى صديقه مرة ثانية ثم رجاه في أن يطّلع مرة ثانية على الرسالة الجديدة، لكن صديقه أبى عليه ذلك وقال له:

ـ بل سأقرأها لك بنفسي أيها الصديق، فلربما كانت الطريق لشفائي مما ألمّ بي هذه المرة.

وقرأ صديقه الرسالة كاملة بلا تلعثم ولا وجوم، حتى جاء ذكر الأيام التي قضتها مع زوجها، ذلك الذي فضّلته فبدأت معاني القلق تسيطر على وجه صديقه، ولكنه استمر في القراءة. هكذا قالت: ولكن الأيام التي أمضتها معه جعلتها تتألم كثيراً وكثيراً جداً، فلقد كاد زوجها لها المرة تلو المرة، وأحال حياتها إلى فراغ وفراغ هائل أدى بها إلى المرض وبشكل ظاهر، لقد أصبحت سناء لا تستطيع التحرك في البيت دون الكرسي الذي تديره، فقد أصيبت بسقطة على الأرض بعد مشادة عنيفة بينها وبين زوجها، ويوم عرف زوجها بأن لا أمل في شفائها وعودتها لسابق عهدها، طلقها وذهب بلا رجعة هذه المرة.

وتهدأ الحياة. ويطل الليل على الأسوار العالية، ليأخذ الليل رحلته الجديدة في هذه الدنيا المليئة بالأعاجيب، ويخلد الناس إلى الراحة، بعد يوم حافل بعمل دائب مستمر.

يخلد الناس إلى الراحة، ويظل هو في مكانه يلتقط الأحجار الصغيرة في هدوء الواثق مما يفعل، وفي نفسه تعتمل أحاسيس وإرهاصات طويلة، يجترها مع الليالي.

كان في تلك اللحظة، أشبه بمن يضيق بطول الليل وخوائه يتلمّس من خلال الفراغ الذي يحيط به أشياء وأشياء عالقة بذهنه ثم تخبو مع هدأة الليل وسكونه. كان من أولئك الذين ينتظرون الغد ليرى مع الغد أشياء كثيرة يترقبها في لهفة من كان ينتظرها على أحر من الجمر.

وبدأ يفكر في الغد تفكيراً واسعاً شاملاً يحاول أن يكتشف كل جوانبه وما سيعطيه له. ومضى يحادث نفسه في تأن ورفق وصبر، يحادثها ويجادلها، ويمسك بتلابيبها في هدوء الواثق من كل ما يقول، فالغد وسيلته لشيء طال انتظاره له، والغد يومه الأول الذي سيبدأ فيه حياته الجديدة، ليتها عاشت لترى هذا اليوم الذي أمضى العمر كله يترقبه بكثير من الصبر.

ليتها ظلت معه كما كانت دائماً، فقد كان طوال أيامه الدراسية زميلاً مثالياً لها وكانت هي كذلك وأكثر من ذلك، كان يتحدث إليها كثيراً عن هذا اليوم وعما ينتظره فيه من مستقبل وعن العش الصغير الذي يحاول أن يلتقط كل أحجاره اللبنية طوبة طوبة كما فعل والده.

وكانت تستمع إلى أحاديثه وآماله وأمانيه بلا ضجر أو تأفف، لتأخذ بيده دائماً في إشراقة الفتاة التي تنتظر منه الأعاجيب.

وكان يشعر بما يربط بين قلبيهما من حب رغم أنه لم يتعود الكلام عن هذا الحب الذي ملأ قلبه، ورغم أنها هي الأخرى لم تتطرق إلى مثل هذه الأحاديث، وكانا يعتقدان رغم كل هذا الصمت بأنهما سيكونان لبعضهما في يوم من الأيام، ولكن.. هكذا شاءت الظروف ففرقت بين قلبيهما هي التي كانت بالنسبة إليه كل شيء.

فرقت بين قلبيهما في رحلة جديدة من رحلاتها التي كانت تغيب خلالها أياماً عن الدراسة، ولكن في هذه المرة طال غيابها، وهو يعرف سببه، يعرف موجباته، وعلى هذا فهو لا يؤاخذها مطلقاً وإنما يرجو من الله أن يرعاها لتعود إليه، أو يمضي هو الآخر في الطريق نفسه، وهجع بعض الوقت ليجد الشمس تملأ غرفته الصغيرة.

ومضى في الطريق إلى الجامعة في سرعة عجيبة تملأ نفسه أحاسيس شتى، فلقد آمن بأن الشهادة التي سينالها ستكون وسيلة لتطبيب أولئك الفدائيين الذين يصنعون اليوم بأيديهم بلادهم من جديد.

وهناك سيلتقي بها هي الأخرى ليعودا مرة ثانية لبناء عشهما الصغير كما أراد.

سيعودان بعد أن يلبي كل منهما واجبه ويعمل ما في وسعه لعودة الأرض.. الأرض التي أحبها من خلال حب زميلته لها.. أوليست أرض آبائها وأجدادها؟ أوليست هي أرض العرب جميعاً، وهو واحد من أبناء هذا الوطن العربي الكبير؟

اللوحة الأخيرة

وأغفى قليلاً يلتمس الدفء في الفراش الوثير، ومن حوله تتناثر بضعة كتيبات صغيرة ومجموعة لوحات، وأدوات للرسم لم يستعملها منذ مدة.

كانت الغرفة رغم أناقة محتوياتها تشيع من جميع جنباتها فوضى محببة إلى نفسه، ففي كل ركن من أركانها كان هناك أكثر من أثر جمعه في أسفاره وزياراته المختلفة لكل بلاد الدنيا. فلقد جاب أكثر بلاد الدنيا، وخرج من كل زيارة بتذكار.

وأحسّ بشيء من الراحة وهو يسترجع تاريخ حياته في إغفاءته تلك، ولم يشعر باليد الحانية، تهز فراشه في لين ولطف، فقد كان يعيش في بيته بمفرده، في تلك المدينة التي تنام مع الغروب، في رحلة طويلة من رحلات الحياة. ليستقبل الدنيا مرة ثانية مع إشراقة الصباح.. مع صياح الديكة.

وهبّ من نومه مذعوراً ليفاجأ برؤية وجه صبية، يكاد يذكرها على الرغم من انتفاخ بطنها.. يعرفها جيداً، ومد يده ليستقبل الوافدة بكثير من الحب والحنان، فهي أخته التي بعث إليها برسالة إلى الكويت عقب استقراره في مدينة الدمام.

كانت أخته سعاد تعيش مع زوجها على الأرض الطيبة في بلاد العروبة تكدح وراء لقمة العيش، تقدم العلم لصغار الأطفال في ذلك البلد العربي.

وأخذ بيد أخته التي بدأت جمع الأشياء المبعثرة داخل غرفته إلى إحدى الكراسي لينخرطا في حديث طويل مستفيض.

- لقد كبرت بالفعل وأصبحت شيئاً آخر غير تلك التي كنا نناديها دائماً بالشيطانة الصغيرة.

وضحكت سعاد من أعماق قلبها، فلقد قدر لها أخيراً أن ترى أخاها بعد غيبة طويلة دامت أكثر من ثماني سنوات قضاها في طلب العلم في لندن وقالت:

- وأنت كبرت أيضاً، وأصبحت طبيباً كما كنت ترجو.

ومضت في حديثها:

- ولكن لم كل هذه الفوضى؟ ألم تزل هواية الرسم هوايتك المفضلة؟

أجاب:

- لقد اخترت مشرط الجراح في هذه الأيام، فأنا أستعمله بكثرة في المستشفى وفي البيت.

انزعجت أخته من كلامه وقالت:

- ولكن..

وهدأ من روعها قليلاً ثم تابع حديثه:

- إنني أستعمل هذا.

وأشار إلى المبضع في الرسم أيضاً، لقد اخترته بدلاً من السكين الأداة الجديدة التي يستخدمها بعض الرسامين في أيامنا هذه.

وأخذ يقلب النظر في مجموعة اللوحات التي يعتز بها.. وأخذ يقارن بين صورة الطفلة الصغيرة التي كانت تلهو أمام الدار الكبيرة في قرية بيت صفافه، وبين هذه المرأة التي بجانبه.

قد يكون الشبه كبيراً بينهما ولكن الأيام خطت على وجه هذه الطفلة خطوطاً عجيبة شعر بعدها بكثير من الحزن تمس شغاف قلبه وتعصر فؤاده في قسوة ما بعدها قسوة، ترى لماذا؟ ليس يدري.

وتابع تحديقه في الصورة وخالها كأنها تتجسد أمام ناظريه بجميع تفاصيلها الدقيقة، فهو على هذه الأرض ولد، وفي هذا البيت الذي يفصل بين جزئيه هذا السياج من الأسلاك عاش، ومنه انتقل إلى بيروت.

ـ أوتذكرين يا سعاد؟ كيف كان والدنا الشيخ في عام ١٩٤٨ ينظر إلى بقية البيت وفيه بعض من أفراد العائلة، وقد اختطفتهم يد الغدر، ففصلت بيننا وبينهم على الرغم من هذا الالتصاق بين أجزاء البيت.

صمتت سعاد ولم تجب، وأخذت الدموع تنهمر من مآقيها في سلاسة غريبة، وتعبر في صمت عن حقيقة ما يكمن في نفسها وهي تطالع تلك الصورة. قال:

ـ أوتبكين؟ لا يا سعاد، لم يكن هناك حاجة للبكاء، فلقد قرحت هذه الأيام أجفاننا لكثرة ما بكينا.

وتابع تأملاته ليضع الصورة إلى جانبه هذه المرة ويلتقط أخرى وفي عناية فائقة.

ـ أما هذه فهي داري في بيروت، وكنت أعيش فيها مع أولاد عمي بعيداً عن مسقط رأسي، أرقب الأفق دائماً في صمت، أتعذب ليل نهار على الرغم من كل مظاهر الحياة في بيروت.

أوتذكرين؟ لقد بعثت بنسخة منها إليكم، وكانت رسالتك الجوابية على خطابي مثيرة مقلقة. هي معي لا تزال يا سعاد، أقرأها كل يوم لأستخلص منها ما يعينني على المضي فيما أردته، وقد كان. لقد كنت تخافين عليّ من أن يجرفني تيار المدينة الجديد في هذا البلد المدهش المليء بالمتناقضات، وكنت تذكرينني دائماً بالعودة إلى البيت، إلى بيتنا في بيت صفافه، لنعود معاً مرة ثانية إلى الهرب من خلف الأسوار لنلاقي سناء وفهداً، ونتحدث إليهما. وكنت تطلبين مني أن أكون رجلاً، فأعود وقد امتلأت نفسي بالإيمان بالله وبتلك المبادىء التي لقننا إياها والدنا العجوز.

وكنت.. أوتذكرين يا سعاد؟

وابتسمت سعاد ابتسامة صفراء باهتة ومضت تتطلع إلى سقف الغرفة في ذهول وبلاهة، وقد غابت عن الدنيا بأسرها، ثم عادت للأرض وللبيت هناك في فلسطين في بيت صفافه، وتمتمت بكلمات غير مفهومة:

ـ لا شيء يا أخي.

ـ قولي بالله عليك ولا تعذبيني.

ـ سأقول لك، وستضحك من كلماتي، ولهذا فضّلت أن أصمت.

ـ ولكني لن أضحك.

ـ إذن سأقول لك، لقد كنا نود العودة، عودتك أنت إلى البيت في بيت صفافه، وعودة نصف البيت إلينا، ولكن حرب حزيران أخذت الأخضر واليابس واستولى اليهود على البيت كله. ولم تعد هناك حاجة للأسوار ولا لتخطي الأسوار.

وتابع حديثه معها هذه المرة متناسياً ما قالته أخته مشيراً إلى اللوحات:

– أولست راغبة في رؤية الباقي من لوحات أخيك؟

ونظرت إليه بعين ملأى بإحساس عميق بالكآبة وقالت:

ـ بل أود ذلك من كل قلبي.

وتناول واحدة من الصور الأخرى ليريها صورة للجدار الفاصل بين برلين الشرقية وبرلين الغربية. لقد رسمها بيده وسيظل يذكر تفاصيل المكان، فهناك على الشارع الممتد قرب البوابة كان يقف على الأرض النظيفة ينظر إلى البوابة التي تفصل بين الحياة والموت، بين الحرية واللاحرية.. بين الأمل والمستقبل والماضي والحاضر البشع بكل جرائمه وأوحاله، وعلى أرض الصورة كانت هناك دماء، ورسم فتاة وناقلة جنود تقف في ترقب واستعداد:

– هذه الصورة الثالثة يا سعاد مشكلة من مشكلات عصرنا الحاضر.

ولم يكمل، فسألته:

ـ ولكن دماء من هذه؟ ولماذا تقف هذه الشاحنة ملأى بكل هؤلاء الجنود؟

ـ إنها قصة يا سعاد، قصة فتاة مثلك يعيش أهلها في بيت صفافة.. عفواً.. أقصد في برلين الغربية بينما كان نصيبها أن تعيش في برلين الشرقية، ويوم استطاعت أن تفك نفسها من قيود الأسر، جاءها القدر في شكل شاحنة نقل ملأى بالجنود، كانت تسير في الطريق بلا هدف، اللهم إلا أن يكون هدفها أن يختلط دم هذه المسكينة بتراب أرضها يوم خلاصها.

وصمت ثم تابع قوله:

ـ نحن يا أختاه لا نريد هذا المصير لنا، وإنما نريد العودة ولكنها مجرد ذكرى. أما هذه الصورة الرابعة فهي لمدينة لندن العجوز الشابة والوقور المتهتكة في آن واحد. لقد قضيت فيها ما يقارب السبع سنوات أتلقى العلم، وفي كل يوم من أيام سنواتي السبع أرى أمامي شخصاً يطل في عناء يمشي على عكازين في الشارع الطويل، شارع سوهو المليء هو الآخر بالأعاجيب. لقد كان ذلك الشارع بمثابة البيت والفندق ومكان العمل، كنت أغسل الصحون في مطعم هندي لأقتات وأعيش وأواصل بعد كل ذلك تعليمي.

أما ذلك الشيخ، أعني الشيخ العجوز، فهو في نظري جزّارنا نحن الفلسطينيين، أو لم يعط بلفور وعده المشؤوم يومذاك، ومن هو بلفور يا أختاه؟ ألم يكن واحداً من أبناء هذه المدينة العجيبة الغريبة الملأى بالطيِّب والتافه والجديد والقديم، ولكن ما علينا، وتعالي لنلقي نظرة على هذه الصورة: ماذا ترين فيها؟

أجابت سعاد:

ـ هذه صورتك، وأنت تسير في الطريق الطويل تحمل شيئاً وكأنك تريد أن تخفيه.

وصمتت. وضحك وواصل قوله:

ـ أو تعرفين لماذا أخفي ما أحمل؟

قالت:

- لا.

قال:

- لأنني كنت أنتظرك لأريك بنفسي ما أحمل.

وأخذ في سرعة عجيبة يخط على اللوحة صورة جديدة لرشاش حديث كان قد رأى صورته قبل أيام في إحدى المجلات الأجنبية.

المشرّدون

الناس يجرون، يتراكضون، يلهثون من التعب، وهو من ورائهم يجري في الطريق الطويل غير آبه ولا ملتفت لما يجري وراءه. كل همه هو أن يلحق بالناس، إلى أن يصل إلى الغاية التي يريدونها، ومن حوله تصم أذنيه أصوات السيارات تجري هي الأخرى في سرعة عجيبة وكأنها لا تتوقف مطلقاً.

وتلاحقت لافتات النيون المتعددة بأشكالها المختلفة تطرد الواحدة الأخرى وكأنها هي الأخرى تجري في مظاهرة غريبة، تبغي من وراء كل ذلك لفت نظر أولئك الذين لا يلتفتون في الشارع. والطريق على الرغم من كل ما يحيط به من مظاهر الحضارة قاتم أسود أحال واجهات جوانبه غبار الزمن إلى اسوداد كالح.

وهو في الطريق الطويل يكاد يلهث من التعب، يجري وراء الأمس الضائع ودمعة تنحدر على وجنتيه دون بكاء، فلقد أعمى الزحام ودخان السيارات عينيه المسهدتين. لقد سهر بالأمس طوال الليل وراء القنوات العديدة التي تبثها شركات التلفزيون في هذه المدينة العجيبة التي تكاد لا تنام، واستمع إلى آخر الأخبار.. ثم مضى إلى شرفة الفندق لتصدم عينيه مناظر أكثر غرابة، فهو يرى أمامه مجرد جدران رهيبة طويلة لا تخترقها العين.

وعندما وصل إلى مكان الاحتفال فوجىء بأشكال وألوان من الناس متعددة الأمزجة والأهواء والأشربة. كان كل فرد من تلك المجموعة يمثل شكلاً جديداً من البشر، انتظموا في حلقات يأكلون ويشربون ويهزجون بأغانيهم المجانبة للذوق، وفي أصوات بعيدة

حتى عن النماذج الموسيقية المألوفة.. واختار واحداً من المجموعة ليلقي إليه بمجموعة من الأسئلة، ليقابل بالصمت المطبق وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد.

واحتار في صمت ذلك القابع على الأرض يفترش الحشيش وفي يده آلة موسيقية تستعمل بالفم من تلك الآلات التي يستخدمها الأطفال في بلده، يقتل الوقت في أنغام نشاز تصفع الأذن، أذن من يسمعها.. كرر عليه سؤاله مرة أخرى، ليفاجأ بالرد المقتضب:

ـ لا وطن لي، جئت من أقصى السويد أقضي أياماً هنا وهناك أبحث عن الحياة بلا جدوى وأغرق نفسي في هذه الآلة لأبعد عني وعنها، الضجر من الحياة ومنكم أنتم أيها البشر.

ثم تابع عزفه ليتابع هو الآخر طريقه بين هذه الكتل البشرية، وتطلع إلى الوجوه فوجدها على الرغم من بياضها الناصع تكاد تتسم بالشحوب والقذارة، وكأنها قد اختارت عن رغبة كل هذه القذارة.

وأخذ طريقه هنا وهناك يتلمس وجود إنسان يستطيع أن يتحدث إليه حديثاً مستفيضاً، ولكن دون جدوى. كانوا أشبه بمجانين فكوا من عقالهم بعد فترة ترويض بمستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية. وهكذا نظر إليهم، وإلا ماذا سيقول عن هذه الأسمال البالية التي تلتصق بالأجساد الشابة بلا غاية وبلا مبالاة.

واختار واحدة من الصغار قدّر عمرها بينه وبين نفسه فوجد بأنها لا تزيد على خمسة عشر ربيعاً، ووقف إلى جانبها.

كانت تهذي بكلمات غير مفهومة وتطيل النظر بين آونة وأخرى إلى مرآة مكسورة علاها التراب، وكانت نظراتها شبه زائغة وكأنها لا تنظر إلى شيء.. وحاول أن يتحدث إليها ولكن بلا جدوى.

وعندما أطال الوقوف دعته الفتاة لاقتسام رغيف أسود كانت تخبئه في حقيبتها الجلدية فاعتذر عن المشاركة، وأراد أن يعيد الكرة ليتجاذب معها أطراف الحديث فأومأت إليه بالصمت فترة ريثما تنتهي من تناول وجبة غذائها تلك.

وأحس بالراحة، وهو يفترش الأرض إلى جانب الصبية الصغيرة، يقلب أوراق الجريدة التي في يده ليطالع في أقصى يسار الصفحة الثانية دعوة لحضور مهرجان الهيبيز في نيويورك مدينة المال واليهود معاً.

ولقد اندفع بكل قوته وراء ذلك الإعلان العجيب، اندفع وراءه ليرى شيئاً جديداً يسمع عنه الكثير والكثير، وها هو اليوم يعيش هنا بين هذه الألوف المؤلفة من الأجساد التي تفوح منها رائحة القذارة.

خليط عجيب من البشر تباينت ألوانهم وأمزجتهم وأشكالهم وملابسهم، وحتى هواياتهم، ولكن هواية واحدة هي التي جمعت بينهم، هواية التشرد، فلقد اختاروا هذا النوع من الحياة عن سابق تصميم ورغبة، هرباً من الحياة نفسها.

وعاد مرة ثانية إلى الصبية، التي انتهت من ازدراد آخر لقمة من رغيفها الأسود وقال لها:

ـ هيا قولي لي ما هي الحكاية؟

ـ حكاية ماذا؟

ـ حكايتك أنت وأمثالك من هؤلاء الشباب الذين يفترشون الخضرة ويلتحفون السماء.

ضحكت الفتاة وقالت:

ـ لا عليك، ألست واحداً منهم؟

قال:

ـ لا ، ولكنه الفضول دفعني لأن أكون هنا.

والتفتت إليه الصبية:

ـ ولكن قل لي من أي بلد أنت؟

أجاب:

ـ من بلد لا تعرفينه، من بلاد الأنبياء.. من الشرق الأوسط.

ـ الشرق الأوسط، ها، أظنني تذكرت، لقد قرأت شيئاً عن بلادكم في

بعض صحف بلادي.

ـ وماذا قرأت، وأين تقع بلادك؟

ـ قرأت عن حربكم مع إسرائيل وظلمكم للشعب اليهودي، أما بلدي فهي هناك.

وأشارت إلى الخريطة المتّسخة بعد أن فتحتها.

ونظر إلى الخريطة وعرف، فهي الأخرى من شمال أوروبا، من كوبنهاجن. وهزّ رأسه وأجاب:

ـ الآن عرفت لماذا تقولين ما قلته، فأنتم في شمال أوروبا وفي غيرها من البلدان فريسة للإعلام الصهيوني الذي يكاد يسيطر على أكثر صحفكم ومجلاتكم.

قالت:

ـ ولكن ليس هذا المهم، وإنما المهم لماذا لا تسيطرون أنتم على إعلامنا ما دام إعلامنا فريسة لسيطرة كل إنسان.

وأخذ يناقشها نقاشاً طويلاً تجمع على أثره عدد من الشباب والشابات الذين أخذوا يستمعون إلى محاضرة طويلة عن الحق العربي في فلسطين.

وكان كل واحد منهم يحاول أن يستثيره بأكثر من سؤال، ولكنهم لم يستطيعوا فقد كانت القضية واضحة لا تحتاج إلى كبير عناء.. وعندما أحس بقدرته على إفهامهم الحق، عاود حديثه مع الصبية قائلاً:

ـ وكيف تركت بيتك وبلدك وأتيت إلى هنا؟

وأجابت ضاحكة:

ـ بكل وسيلة، ولكن لن أشرح وسائلي فهي لا تفيدك. لقد هربت من البيت النظيف والغرفة النظيفة لألحق بأترابي، اللواتي سبقنني في هذا المضمار واستطعت أن أعيش على التراب فترات من الزمن كنت خلالها ضحية للفراغ القاتل.

وضحكت:

ـ ولكن لماذا لا تعودين إلى البيت؟

وأجابت الصبية:

ـ إنهم لا يقبلونني، لقد خرجت من البيت تشيعني لعنات أبي وأمي وحتى جدي العجوز، وأنا لا أريد أن أعود لتلقي اللعنات مرة أخرى.

ـ ولكن ما رأيك في هذه الحياة وهذه الدعوة الغريبة التي تلاقي الإعجاب من بنات وأبناء جنسك.

ـ لا رأي لي، فقد تعطلت حاسة التفكير فيّ ولم تعد بي حاجة لأن أعود إليها. فالحرب قادمة، وستأخذ الأخضر واليابس.

ـ حرب ماذا؟

أجابت الصبية:

ـ الحرب الثالثة، هكذا يقولون في مؤتمراتنا، وعلينا نحن أن نجعل جميع شباب الدنيا يحذون حذونا.. نعيش ليومنا فقط، فلربما بهذه الطريقة استطعنا أن نوقف فرص الحرب أمام من يدعون للحرب.

وضحكت ثم تابعت قولها:

ـ ولكن لم تقل لي، ألم تصل دعوتنا إلى شبابكم؟

قال:

ـ بلى، وصلت منذ مئات السنين، ولكن شبابنا لفظها منذ ذلك اليوم الذي حاولت فيه فئة من الناس أن تدعو إليها.. لفظها شبابنا وتناساها لأنه عرف مصدرها.

ـ ومن هو مصدرها؟

وأجاب في ابتسام:

ـ اليهود يا صديقتي.. أولئك الذين اضطهدناهم كما قلت!

بلا عكاز.. ولأول مرّة

الناس يذرعون الشاطىء، يملؤونه بأقدامهم، يحيلون هدوءه إلى ضجيج، وأمواجه إلى أحاديث، أحاديث طويلة بلا نهاية، على امتداد العمر، بلا جدة، ولا جدية، والشمس تلهب الأجساد العارية بسياط صيفها القائظ تاركة بصماتها البرونزية على الأجساد الفارهة التي تملأ الشاطىء في كسل وتراخ.

وباعة الثلج يتدحرجون على الأرض النائمة في حركة دائبة لا تهدأ، يبيعون بضاعتهم على الناس، كل الناس.

وأصوات الأطفال تحدو على سفوح الرمال تغسل سماء الشاطىء بأنفاسها الشجية، في براءة وطهر، والأمواج العالية تتكسر على الشاطىء الرملي وكأنها تحاول أن تغسل أقدام المشاة. والأقدام العارية تجري هنا وهناك على الرمال البيضاء تحكي قصة الأمس الضائع.

حكايا كثيرة ترسمها الأقدام، تحفرها على الأرض، والأقدام الصغيرة تمضي في الطريق في خطوط متعرجة لاهية، لا تدري: تعد الأيام بلا انقطاع في صمت الحيارى.

والحيارى على الشاطىء كثرة كاثرة، تحتل أجزاءه في حيوية الطفولة وبراءتها وسذاجتها. وتشترك الأقدام الكبيرة المزروعة على الأرض مع الأقدام الصغيرة في نفض الأحزان عن القلوب التي جاءت مع الصيف تنشد الراحة على الشاطىء الأزرق، تلقي بنفسها في أحضانه وكأنها تغسل هموم الدنيا كلها عن أجسادها الفتية.

والرؤى الحالمة تستقطب مجموعة من الشباب التفوا حول

المذياع يديرون مؤشره باحثين منقبين عن صوت يلقي في نفوسهم الهدوء بعد عام من الدراسة كامل.

والفتى الصغير يدب على الأرض بعكازه يرسم هو الآخر على الرمال البيضاء أقاصيص وأقاصيص لأيام كان فيها قطب الرحى بين أصدقائه.

لقد انفرط عقد الأصدقاء عنه وذهب كل واحد يبحث عن غده، وبقي هو في مكانه يرقب الجموع المتراصة المتطلعة إلى ألعاب القوى يمارسها بعض الفتية.

وشاطىء البحر يغص بالناس من كل الطبقات فيهم الأسود والأبيض، جميعهم أخوة متحابون يبحثون عن المتعة واللهو البريء في ساعة من ساعات الصفو.

والسيارة الفارهة تشارف مكان الكابين الصغير ثم تنطلق مرة أخرى بعد أن تفرغ حمولتها من الأب والأم والطفل الصغير.

وأخذت الأم تبحث عن معدات التنظيف لتبدأ مهمة كنس الكابين بينما انشغل الأب في إدخال حمولتها من المأكل والمشرب، واندفع الطفل يبحث وينقب عن صديق عمره بين مئات الأقدام التي كانت تخطو على الأرض.

وعندما التقى سمير بصديقه ألقى عليه تحية الصباح مقرونة بعدة استفسارات، فهو لم يره طوال الأسبوع الماضي.

ولم يمض كبير وقت حتى ارتفع صوت الأب ينادي سميراً الذي أخذ بيد صديقه إلى الكابين في رحلة قصيرة حاول فيها أن يمشي على نقر خطوات صديقه.

وعند الكابين ألقى محمد بعكازه بعد أن اختار كرسياً قصياً ومضى يتحدث في إسهاب إلى والد سمير، حديثاً طويلاً، فقد كان والد سمير هو الآخر من المعجبين بثقافة الشاب العاجز.

وفي تلك اللحظة مرت بالكابين فتاتان صغيرتان في عمر الزهور، ألقت إحداهما بنظرها صوب محمد، ثم تسمّرت نظراتها على العكاز، فأشارت في عفوية إليه ثم عاودت حديثها مع رفيقتها بشكل يجعل من العسير ألا يكون الحديث حول الشاب العاجز.

كانت الطفلة أشبه بإنسانة مشفقة على الصغير الذي يقضي أيامه هكذا، وعلى الشاطىء، محصوراً بين عكازه. وحانت التفاتة من الطفل إلى صديقه، فلاحظ وجومه فحاول أن يغير مجرى الحديث إلى أشياء كثيرة نسي أن يقولها لصديقه.

لقد حدثه مطولاً عن الحفلة التي أقامها والده بمناسبة يوم زفافه، ووصف له في إسهاب مظاهر الزينة التي أخذت طريقها إلى ردهات الفيلا الصغيرة، وأشار بصفة عابرة إلى هديته الصغيرة التي قدمها بهذه المناسبة لوالديه، ووصف لصديقه جميع المدعوين، وعند هذا الحد من الحديث تلفت الصبي الصغير إلى صديقه وقال:

ـ لقد افتقدنا وجودك معنا تلك الليلة، وكم حاولت وحاول أبي أن يدعوك ووالديك ولكنكم كنتم في رحلة خارج مدينة جدة.

وهزّ صديقه رأسه مؤيداً كلامه شاكراً له هذا الصنيع، فقد كان هو أيضاً أشد رغبة في مشاركة صديقه وعائلته أفراحهم.

وبعد أن أمضى محمد فترة من الوقت إلى جانب صديقه استأذن في الانصراف إلى كابينه تشغل رأسه كلمات الطفلة الصغيرة.

لقد همّ كثيراً بأن يلقي بعكازه إلى الأرض ويحاول أن يسير بدونه في الحيز الصغير من كابينه، ولكنه تعوّد استخدامه منذ مدة ولم يعد يستغني عنه.

وانخرط في البكاء مدة من الزمن ثم زايله اكتئابه وعادت الابتسامة تطل على شفتيه، ومضى يستجر الذكريات منذ أول يوم أصيب فيه بهذا المرض اللعين (شلل الأطفال).

حتى لحظاته هذه، لقد أصابه وهو في عنفوان صحته بينما كان يمارس إحدى هواياته، القفز على الحواجز.

لقد أحس يومها بنيران حامية تتسلط على جميع أجزاء جسمه، ثم تستقر في قدميه لتنزله مرة أخرى إلى الأرض جثة هامدة بلا حركة.

هكذا كان الأمر بالنسبة إليه، أما بالنسبة للذين كانوا يتفرجون على قفزه، فقد كانوا يعتقدون بأنها مجرد مزحة من صديقهم فلم يعيروه التفاتاً، وعندما أحسوا بطول صمته نظروا إليه نظرة الهلع ثم أخذوه إلى والده ليمضي به إلى المستشفى.

إنه يذكر كل شيء، ويذكر أيضاً كيف مضت به الحياة في المستشفى بلا فائدة بين علاج بالأشعة وتدليك مستمر.

وفي النهاية، وبعد أن أمضى ما يقارب الستة شهور، نصح الأطباء والده بأن يأخذه إلى البيت مرة أخرى بعد أن أعطوه عكازه ليسير عليه ريثما يأتي الفرج، وقد مضى أكثر من عام وهو ينتظر الفرج.

ولقد تعود عكازه فكان رفيقه في كل مكان حتى عندما يأخذ حمامه على الشاطىء قريباً من أصدقائه.

ولقد فكر كثيراً في أن يستغني عنه، أن يلقي به بعيداً، أن يرمي به إلى الأرض، أن ينساه في البحر بين الأمواج، دون جدوى ، لقد أصبح عكازه هذا جزءاً من حياته، فرض عليه وجوده. وأخلد قليلاً إلى الصمت بينما صراخ الناس يعلو هنا وهناك.

وأطلّ من كابينه إلى حيث الناس، فرأى والدة صديقه تبكي وتنتحب، فأخذ يعدو إلى مكانها وإحساس غامض يشده لأن يلقي بنظرة إلى صديقه الصغير الذي لم يجده.

وهناك على الشاطىء عرف الحقيقة، فقد أخذت الأمواج صديقه الصغير بعيداً، وتبارى القوم يضربون البحر بسواعدهم لإنقاذ الصغير، ومضى هو مع القوم تشده قوة ما بعدها قوة.

كان كل همّه أن يأتي بالصغير في محاولة يائسة بعد أن كلّت سواعد بعضهم فعادوا أدراجهم إلى الشاطىء. أما هو فقد أخذ يضرب الأمواج بيديه صاخباً هادراً حتى إذا ما أتى إلى مكان الصغير الذي أخذ يطفو ثم يسقط بين الأمواج، مدّ يده ليستقبله ثم يشده إلى صدره في حنان.

وكرّ عائداً إلى الشاطىء يحمل صيده الثمين وملء قلبه إحساس غامر بالحياة، لقد أتى أمراً لم يخطر له ببال، وعاد بصديقه إلى الشاطىء لتستقبله والدته بالأحضان.

وعلى مقربة من الشاطىء تلقت الأم وليدها ومضى هو على قدميه لأول مرة بعد أن استغنى عن عكازه، فلقد ألهبت المفاجأة جوارحه وحركت دماءه فلم يشعر إلا وهو يسير في الطريق على قدميه بلا عكاز ولأول مرة.

حنان (قصة فلسطينية)

وتهيأت للمسير داخل أسوار القدس الجديدة.. تلك التي اقتطعها اليهود في غفلة من الزمن، تتطلع إلى البيوت والشوارع التي افتقدتها منذ كانت طفلة، منذ عام ١٩٤٨ يوم قدر لها أن تغادر بيتها الصغير هناك على عجل برفقة والديها. وأخذت تبحث عن البيت، والعروسة الصغيرة التي تركتها يوم سفرها، والتي بكت عليها كثيراً، فلم تجد أي أثر يدلها على ذلك البيت الذي شاهد طفولتها.

وبكت كثيراً، على لحظات السعادة التي مضت، وأحست بالغصة في حلقها، فلقد غير العدو الكثير من المعالم وكأنهم يريدون بهذا التغيير طمس الحقيقة. وأخذت تجرجر رجليها هنا وهناك ساهمة مقطبة، تبحث عن كل شيء، دون أدنى أمل في أن تجد ما تريد.

وتطلعت إلى الوجوه العربية التي قاست ذل الأسر طوال كل هذه الأعوام، تطلعت إليها في لهفة.

وأحست بأن شيئاً ما يسيطر على كل هذه النفوس التي تجري على الأرض تنهبها نهباً في طريق العودة. العودة إلى الأهل والصحاب الذين فرق بينهم الاحتلال، العودة إلى التقاء الأحبة وجمع الشمل.

وبدأت تتحدث مع كل من يصادفها أحاديث تحاول من خلالها أن تستشف قدرة كل واحد منهم على العمل من أجل العودة.

كان كل شيء في الطريق الجديد يبعث في نفسها مزيداً من الاشمئزاز فلقد حول الغاصب معالم كل شبر من هذه الأرض

الصالحة وكأنه بهذا العمل يريد أن ينتقم من الأرض وأصحابها الأصليين.

وتطلعت إلى عيون الأعداء تلك التي تسير على الجادة نفسها في إهمال غريب ودون أدنى مبالاة.

تطلعت إليها ولم تحسدها، فقد رأت رغم كل مظاهر الإهمال واللامبالاة نظرات الهلع والخوف تبدو من المحاجر المريضة.

حتى في ساعات اللهو كان القوم يبدون الفزع لأقل بادرة تبدو أو حتى لمجرد سماع طلقة من مسدس طفل.

ورأت شيئاً جديداً عند هؤلاء الأطفال العرب الذين لا يدرون عن تاريخهم سوى ذلك الذي يتحدث به الآباء.

رأت رغبة ملحة تطل من العيون الصغيرة وإيماناً غريباً بقرب يوم الخلاص والفكاك من الأسر. الأسر العجيب.

وأخذت تسير في الحواري والشوارع وكأنها إنسانة جديدة، تبحث عن الحقائق التي تكمن في قلوب هؤلاء الرجال والنساء. ورغبت في مزيد من الثرثرة مع أكثر من واحدة من بنات جنسها، ولكنهن أبين عليها ذلك. فلقد تعلم النسوة العرب في أرض المحنة الصمت، والصمت فقط.

وقارنت بينها وبين نفسها وبين حياة أهلها وعشيرتها أصحاب الأرض الأصليين والدخلاء، فرأت الفارق الكبير في كل مظاهر الحياة.

شيء واحد لم تفتقده في عيون أصحاب الأرض تلك الرغبة المكبوتة والكبرياء الغريب والمحافظة على الكرامة تشع من كل عين من عيون أبناء أرض النكبة.

وأخذت تطوف هنا وهناك يوماً كاملاً عادت بعده في الطريق إلى البيت الذي تعيش فيه قرب صديقتها نهاد، تلك التي هيأت لها ظروف العودة إلى القدس، مدينتها الحبيبة، أرض الآباء والأجداد، أرض الخير والمحبة. وتذكرت عند العودة أن تمر بالمسجد الأقصى لترى كيف يلهو اليهود بين جنباته بلا رادع من ضمير أو حتى إحساس بالحياء. وحاولت بينها وبين نفسها أن تهدىء من خفقات قلبها، ذلك الذي كان ينبض ويخفق في شدة وكأنه بطرقاته

تلك يعلن تمرده على ما يراه يجري على هذه الأرض.

وفي الطريق إلى بيت نهاد، ذلك الذي يقع على أعلى نقطة تطل على الأسوار في المدينة القديمة، كانت (حنان) تفكر في صمت، فهي وإن عادت إلى مدينتها، إلا أن هذه العودة ليست على ذلك المستوى الذي تريده.

كانت تأمل في أن تجيء عودتها بعد أن يتخلص كل شبر من أرض بلادها من العدو الرابض على القلوب، قلوب أبناء جلدتها وعشيرتها.

وكانت ترجو أن تعود لتقطن من جديد تلك الدار التي رعت طفولتها يوم كانت تلهو وتلعب، وكانت تظن بأنها ستجد في دارها التي افتقدتها عروسها الصغيرة، فلطالما حدثتها نفسها بذلك. أما هذه العودة الجريحة فقد طعنت قلبها في الصميم وأزالت من رأسها كل أحلام العودة.

واعتقدت بأنها كانت مقصرة، فهي لم تنخرط في منظمة، ولم تسع لعمل بطولي يؤكد حقيقتها كفتاة من بنات النكبة.

وآلمها وآذى شعورها كل هذا التقصير، فلقد أمضت سنوات حياتها كلها على مقاعد الدراسة حتى استطاعت أخيراً أن تنال شهادتها الكبيرة.

وأحسّت بالخجل، فالشهادة التي تحملها ليست كل ما تريد وإن كانت بعض ما تريد. وانتابها شعور بالضيق أخذ بتلابيب نفسها في حدة ما بعدها حدة.

واستمعت إلى وقع خطواتها، وكأنها مطارق من حديد تدق في أذنيها لحناً من ألحان الشقاء، ذلك الذي أخذ بمداخل نفسها الصغيرة.

ليتها لم تولد.. بل ليتها لم تعش لترى ما تراه اليوم. وافتقدت القدرة على تركيز أفكارها وتسلسلها فترة من الزمن شعرت خلالها وكأن دهراً من الزمن يحول بينها وبين ما تصبو إليه.

وأفاقت لترى شيئاً جديداً أخذ يبدو أمام عينيها، ربما لأنها قررت بينها وبين نفسها أمراً ما، أما هذا الأمر فلا يحتاج إلى توضيح بمقدار ما يحتاج إلى تنفيذ.

وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير، أخذت ابتسامة صغيرة طريقها

إلى الشفاه المتكسرة، رغم صغر سنها.

فهي قد عزمت على أمر، وسيأتي الغد ليكون في مقدورها تنفيذ هذا الأمر.

وعند هذا الحد من التفكير أخذ السرور يطرد الوجوم من على صفحات الوجه الأبيض الدقيق التفاصيل.. الرقيق البسمة رغم منغصات الحياة، تلك التي رسمت بيد ماهرة آثارها على عينيها، وفي الغد أخذت حنان طريقها مرة ثانية بعد أن دبرت أمرها هذه المرة.

أخذت طريقها في اعتداد وصلابة لتختار الفريسة بلا خوف أو حتى القليل من الخوف. وفي الشارع الكبير المزدحم بمئات الناس أخرجت حنان قنبلتها المؤقتة.. أخرجتها في تحنان الأم التي لا تريد لوليدها أن يمضي دون أن يكون شيئاً كبيراً مذكوراً وأخذت تفك أسرارها بأسنانها، غير عابئة بصيحات الاستنكار التي تحيط بها. كان كل همها هو أن تصل إلى ما تريد وبأسرع ما يمكن. وعندما أحاط الجنود الصهاينة بحنان، كانت تضحك بصوت عال، وألقت بالقنبلة على رؤوس الجميع في إيمان عجيب، ثم أغفت قليلاً وابتسامة النصر تتسلل شيئاً فشيئاً إلى الشفة المقتضبة. فلقد أجادت حنان دورها كل الإجادة. واستلقت في هدوء على الأرض الطيبة، تحيط بها جثث المصابين من الدخلاء، ومضت مع أولئك السعداء الذين ضمّتهم أرض فلسطين وامتزج بدمائهم كل ترابها. مضت وابتسامة النصر تملأ فمها هذه المرة.

ربما لأنها لا تحبّه

وألقت بجسدها على حافة الفراش، وأخذت تنظر إلى المرآة نظرة حاقدة، فقد بدأ الشيب يغزو مفرقها في تناثر عجيب، ومضت التجاعيد تأخذ طريقها إلى صفحة الوجه الأبيض.

وتناولت باليد الأخرى صورتها في إطارها الفضي، ثم راحت تقارن بين وجهها بالأمس ووجهها اليوم، وبدأ الامتعاض يظهر على كل قسمات من قسمة وجهها، ولوت بوزها علامة من علائم الاستنكار ثم ألقت بنفسها بين طيات الفراش الوثير الناعم.

وامتدت اليد الأنيقة إلى الدرج الملاصق للفراش تقلب بين مجموعة من الكتب بحثاً عن كتاب صغير، كتب بأحرف مضيئة: "كيف تحافظين على جمالك". كان المؤلَّف عبارة عن مجموعة صغيرة من وريقات كتبها صاحبها في عجلة من أمره وكأنه يريد لها قراءة سريعة مستوعبة.

وأخذت المرأة تقرأ بصوت عال: "الناس يبحثون عن السعادة في كل مكان، في البيت وفي الشارع وفي الحياة نفسها، وبحثهم عنها يثير بعضاً من المصاعب في بعض الأحيان. والسعادة في نظر الناس مختلفة جداً، أما بالنسبة لك يا سيدتي فالسعادة في أن تحافظي على جمالك محافظة تدفع عنه شر غوائل الزمن تلك التي لا ترحم، فللزمن يا سيدتي خطوط واضحة يحاول أن يبصم بها على وجه كل أنثى".

وعند هذا الحد توقفت مها عن القراءة وألقت بالكتاب في اشمئزاز ظاهر ليأتي مقلوباً على جانبيه على أرض الحجرة. ثم

مضت تحدّق النظر في سقف الغرفة الموشى برسوم ظاهرة وكأنها تراها لأول مرة.

كان كل ما في جسمها ينتفض في عصبية ظاهرة، وكأن ألف عفريت قد ركب في أجزاء جسدها. وأخذت تجهش بالبكاء ردحاً من الزمن، ثم أخذت أعصابها تهدأ رويداً رويداً وذهنها يصفو قليلاً قليلاً. وبدأت لحظة النسيان تأتي مع مقدم زوجها الذي حاولت أن تستقبله بابتسامة باهتة وبيد ممدودة لتأخذ معطفه ثم تلقي به في لامبالاة على أقرب كرسي مجاور.

وأخذ زوجها طريقه إلى الدولاب الكبير لينتقي بيجامته من بين مجموعة الملابس المكدسة فوجد أنها كانت قد أعدتها له ووضعتها على المشجب، فالتقطها وعلى محياه ابتسامة مشرقة فلقد كانت تلك المرة الأولى في تاريخ زواجه التي تقوم امرأته بمثل هذا العمل، لقد تعوّد منها دائماً الإهمال، وكان يعزو إهمالها هذا لانشغالها بشؤون البيت، فقد كان إنساناً من أولئك الذين يفضلون نسيان الإساءة مهما كبرت وتفاقمت.

وعندما انتهى من تبديل ملابسه اتجه إلى كرسيه الصغير في غرفة النوم، وألقى بجسده عليه، وراح يعبث في مجموعة الكتب ليختار كتاباً جديداً كان قد اشتراه ولم يقرأه بعد. ولما حاول فتح صفحاته عنّ له أن يشعل سيجارته فتذكر بأنه في غرفة النوم، وأن زوجته لا ترضى بالتدخين في الغرفة، فأخذ يشعل السيجارة وهو يمشي لكي تفهم زوجته بأنه يهم بالخروج من الغرفة ولكنها أدركت ذلك فمضت تركض لتأتي إليه بمنفضة السجائر ثم تضعها إلى جانبه في صمت. أحس بكثير من الارتياح، فهذه هي المرة الأولى التي تفعل زوجته ذلك، بعد أن كانت تناقشه الحساب عندما يهم بإشعال سيجارته داخل غرفة النوم.

لقد أحس ساعتها بكثير من الحب يغمر نفسه تجاه هذه المرأة التي كانت مجرد مجموعة من البروتوكولات تعيش معه تحت سقف واحد، أما اليوم فقد عادت لتكون زوجة وإنسانة. واتجه بنظره إليها.. وكانت قد استلقت على السرير الأنيق في لا مبالاة، قال:

ـ لقد كبرنا يا مها.

فقالت:

ـ كبرت أنت وحدك، أما أنا فلا أزال كما ترى صبية.

وضحكت، فقال:

ـ ستظلين صبية ولو بلغت الستين من عمرك.. ولكن عندما أقول كبرنا يا مها، فإنما أقصد رجاحة العقل. ذلك ما أعنيه يا مها!

قالت:

ـ إذا كان ذلك ما تعنيه، فأنت صادق، لقد تغيرت ظروف الحياة بالنسبة لكلينا، فلابأس إذن من أن نغيّر من طريقة العيش وفقاً لمقتضيات هذا التغيير.

وأخلد إلى الصمت فترة من الوقت.

وأخذ جهاز الراديو يبثّ أغنية تناشد فيها مطربتها الزمن، ذلك الذي يقسو ويتجنى.

وضحكت مها قليلاً، والتفتت إليه وقالت:

ـ ترى ماذا يخبىء لنا الزمن في الغد البعيد؟ لقد أضحى فعله واضحاً على وجهينا ينبىء بقرب يوم لا أدري متى سيكون، ولكني أتوجس خيفة من هذا اليوم الذي نصبح فيه مجرد عجوزين يدبان على الأرض.

وضحكت. فشاركها ضحكتها واستمر يقرأ في جريدته.

والتقطت مها كتابها مرة أخرى من مخبئه ومضت تقرأ في صمت ولكنها لم تستطع أن تتابع القراءة فألقت بالكتاب مرة أخرى من يديها وأخذت تنظر إلى وجه زوجها تقارن بين وجهه وصورته الموضوعة على الكومدينو الصغير.

كان الوجه واحداً في الصورتين على الرغم مما تظلل الأصل من رزانة في المظهر كما أن الشيب قد أخذ يغزو فوديه بكثرة ملحوظة، ورسمت الأيام على جبينه تجاعيد حقيقية حاولت ألا تراها بادىء ذي بدء.

ومضت تستعرض ذكريات حياتها منذ ذلك اليوم الذي زفت فيه إلى زوجها، بعد ممانعة طويلة منها استطاع والدها في نهايتها من إقناعها بالزواج. وتذكرت كيف حاول زوجها أن يحيطها برعايته منذ ذلك اليوم، ولكنها لم تحاول أن تعامله بالمثل، وأخذت رعونتها وتسلطها يظهران في معاملتها له.

ومع هذا فقد غفر لها كل أخطائها تناساها. فهي تذكر جيداً كيف كانت ترفض الذهاب معه لزيارة أهله لمجرد النكاية فقط حتى إذا ما عاد إلى البيت سلطت لسانها عليه غير آبهة.

أما هو فكان يضحك دائماً من كل هذه الترهات التي تفعلها، يضحك، ومن كل قلبه. وكان يقول لها:

- سيأتي اليوم الذي تتأسفين فيه على كل ما فعلت.

وكانت حياتهما تمضي، على الرغم من كل ما تفعل. لا يشكو ولا يكل من الانتظار للفرصة المؤاتية التي ستأتي.

وها هي تشعر بأن فرصته قد أتت، ربما لأن الشيب قد غزا مفرقها بعد أن غزا فوديه.

ربما لأن عقلها قد اكتمل فلم تعد تلك الصبية النفور التي تعودت أن تنال ما تريد، ربما لأنها تحب زوجها ومن كل قلبها في هذه المرة. ربما. ربما.

عندما يكبر الإنسان

بعض الناس يرسلون الكلام، يمضغونه، يهيلون التراب على الأفكار الجادة، يبصقون على الأرض في حرية وبلا مراعاة لشعور الآخرين يفعلون كل هذا في صمت، وبلا جدية وكأنهم يبحثون عن المجهول في ثنايا رداء قديم بليت أطرافه وتهالكت خيوطه، رداء من الماضي، من الأيام السالفة، أيام كان الجد مظهراً من مظاهر الحياة.

وهم عندما يرسلون الكلام يحلمون بلا أمل، مجرد أحلام تضيع في الطريق، تتوه مع الزحام، ينسونها لمجرد النسيان.

والعالم يسير، يتجه، يبعد، يمضي في الطريق، والطريق مزدحم بالناس من كل صنف، أشكالهم غريبة، سوالفهم طويلة، رطانتهم غريبة.

كل هذه الأفكار أخذت طريقها إلى قلبه وهو في الطريق يحلم مع الحالمين والطريق كبيرة واسعة، ملآى بأصناف البشر، وهو مجرد إنسان، إنسان صغير يسير في الطريق، عيناه مليئتان بالأحلام، ورأسه مشحون بأحاديث وأحاديث.

وكلّت قدماه وأخذت خطواته تتعرّج، وبدا التعب ظاهراً جلياً على وجهه، وأخذت خطواته تبطؤ حتى إذا ما وصل إلى مقهاه المفضل اختار ركنه الدائم من رصيف الشارع بعد أن جلس على كرسيه في أناقة بعيداً عن منغصات الطريق، يطل على الدنيا من واجهة زجاجية تحلم بالاغتسال صبح مساء.

كانت الواجهة الزجاجية بمثابة مرآة عاكسة تدور على صفحاتها

البراقة أفكاره وأحلامه وكل من في الطريق.. الطريق الطويل.

واستجمع شتات نفسه وتناول بيده أول صحيفة من مجموعة الصحف التي اشتراها والتقطت عيناه صورة جديدة لفتاة من فتيات السينما الشهيرات بعد أن تدثرت برداء الموضة الجديدة وقارن بين الصورة وبين مثيلاتها من الصور الأخرى التي يعج بها شارع الحمراء في بيروت فلم يجد أي فارق يذكر.

وأخذ يقلب مجموعة الصحف الأخرى، يشعر بكثير من الاشمئزاز والقرف عندما طالعته الصورة نفسها لفتاة السينما وفي كل مكان تحتل الصدارة في مجموعة صحفه العربية.

وازداد قرفه واشمئزازه عندما قارن بين الصورة والصور التي يراها تتجسد أمام ناظريه واستغرب أن يكون موقف أصحاب الصحف العربية من تلك الصورة موقفاً موحداً وكأنه لا يوجد في الدنيا سوى تلك الصورة.

واستمع لتحية المساء يلقيها عليه صديقه الذي يعرفه صديق الطريق والشارع، صديق الحياة والمدرسة، صديق الأيام التي مضت وتلك التي ستأتي. وابتسم ابتسامة خفيفة ثم عاد إلى الطريق يركز نظراته على ورقة صغيرة أخذت تذروها الرياح فتختال هنا وهناك وبلا مبالاة، وأحس بكثير من الارتياح وهو يتابعها بنظراته، فهو مثلها يشعر بالسعادة والانطلاق، يقضي أيامه هكذا بين الشارع والطريق، لا جديد لديه ولا قديم، يأخذ من يومه ليومه وكأن الحياة لن تلد يوماً آخر جديداً.

هكذا هو على عكس صديقه الذي أخذ يرمقه بنظرة هادئة ملأى بالطيبة والرجولة معاً وكأنه هو الآخر يفكر في أمر ما يشغل باله.

والتفت فجأة لتلتقي عيناه بعيني صديقه فترة من الحديث شعر بعدها باستيعاب كامل لكل ما شغل بال صديقه وكبرت الابتسامة على فمه وقال:

ـ ها . . ماذا لديك؟

- لا جديد إلا ما تعرف، لقد بدأت حياة جديدة بعد الزفاف، وأصبح من حقي أن أدلك على طريق الخير، فأنت لا تزال تمضي في غيك سادراً في أحلامك تعيش يومك ليومك. وصمت.

ـ ولكن هذا شأني فهذه هي الحياة بالنسبة لي أولم يكفني ما أجد من مال ادخره لي أب حرم نفسه من متع الحياة، فجئت أنا لأقطفها بالنسبة لي وله معاً.

وضحك.

ـ لا يا صديقي، لم يحرم أبوك نفسه وإنما أعطى لك ما ادخره بعد أن عاش حياته أكثر من إنسان في هذه الدنيا، جد واجتهد وعمل من أجل الحياة فأضاءت الحياة طريقه وأسعده جهده فكان ما كان.

وصمت صديقه ليفكر هو في هذا الكلام.

ومضى في الطريق بين الناس يبدأ عهداً جديداً مع الأفكار التي أخذت تبرز ودون سابق ميعاد أمام عينيه في شريط زاه، وتوالدت الأفكار في رأسه وأخذت تعشش في مخيلته في صور جديدة لا تمت لصور الأمس أو حتى لصور الحياة التي يعيشها.

وفي مخدع نومه هناك في البيت الصغير الأنيق أخذ يفتش عن أشياء كثيرة مهملة، أهملها عن عمد، وبدأ يرتب أوراقه وشهاداته التي يحملها، كانت أكثر من شهادة نالها بجده يوم كان الجد وسيلته للحياة، واسترعت انتباهه كلمات صغيرة خطتها يد امرأة عجوز، كلمات كان يحفظها في حرز أمين، وبدأ يقرأ الكلمات التي كتبت بخط عاجز، وأحس بشيء مختلف يثير الاطمئنان وعيناه تجولان على صفحة الورقة القديمة حتى إذا ما جاء إلى آخرها انهمرت الدموع من مآقيه..

وبدأ يحدث نفسه قائلاً:

ـ لقد ذهبت ولم تترك لي شيئاً سوى هذه الكلمات. ذهبت وكنت أود أن تكون اليوم معي تشد أزري كما كانت تفعل يوم كنت طفلاً. ولكنها أبت أن تبقى، ومضت كما مضى والدي إلى الحياة الأخرى التي لا تستعجلها رغم أنها الحقيقة الكبرى.

وغفا بعض الوقت قام بعدها أكثر نشاطاً من ذي قبل. وبدأ يرتب أفكاره ترتيباً مغايراً لكل أفكاره السابقة، وعاد بالذاكرة إلى أيام دراسته قبل وفاة

والده، فلقد كان من أولئك الذين أثبتوا رسوخ قدم في الدراسة، وكانت شهادته التي نالها في الزراعة خير دليل على قدرته في استيعاب دروسه، ولكن بعد أن توفي والده نسي كل شيء وبدأ حياته المتشردة بعيداً عن كل عقل ومنطق.

أما اليوم، وبعد أن التقى صديقه هذه المرة، فهو يفكر جدياً في العودة إلى العقل والحكمة والمنطق يفكر جدياً، لأنه يؤمن بأن المال الذي تركه له والده سينضب حتماً إن لم يفعل شيئاً من أجل تنميته.

ومن أجل هذا سيعود إلى بلاده هذه المرة وفي نيته أن يشارك زملاءه في البناء، البناء الذي كان حلمه يوم كان صغيراً وهو اليوم كبير.. فكثير من الأحلام قد تتحقق عندما يكبر الإنسان.

صبي المقهى

ويتوافد الناس على المقهى في القرية الصغيرة بينما تمضي الشمس في طريقها للاحتجاب بعد يوم قائظ أرسلت فيه أشعتها على الأرض أكثر مما تستحق. ويستعد الجميع كالعادة للالتفاف حول العم مرزوق صاحب المقهى العتيق الذي أمضى أكثر أيام حياته يلتقط الزبائن الذين كانوا يأتون فرادى وزرافات، وهم في الطريق إلى المدينة المنورة أو عائدون منها.

وكان أصحاب السيارات الصغيرة والكبيرة يندفعون دائماً إلى البقاء في المقهى فترة من الوقت طمعاً في الاستمتاع بنوادر وأحاديث العم مرزوق الذي لا تفارق الابتسامة شفتيه.

والتف القوم حول العم مرزوق ومضت أكواب الشاي تدور مترعة هنا وهناك بين أيدي الوافدين على المقهى. ويستمر الحديث فترة من الوقت عن الغريب الذي سيعود في الغد من رحلته الطويلة التي أمضاها في تلقي العلم في جامعة بولدر بكولورادو الأميركية.

ويتنهد العم مرزوق ثم يأخذ رشفة من كوب الشاي ويتابع الحديث بين ضحكات القوم، فالليلة بالنسبة للعم مرزوق شيء عظيم أكثر من تلك الليالي التي يتلقى فيها رسائل ابنه الغائب.

وفتش في جلبابه عن أوراق صغيرة ثم أخرج بعد فترة آخر رسالة وردته من سعيد وأخذ يقرأ ما فيها على أصدقائه في إعجاب ظاهر:

"نعم يا أبي، سأعود إليك قريباً بعد أن أكون قد أنهيت دراستي ونلت شهادة الدكتوراه في الجيولوجيا. سأعود يا أبي لأراك وأرى أصدقاء لنا عشنا معهم طوال أيام العمر، وسأسعد بهذه اللقاءات، فلولاك يا أبي ولولا هؤلاء الأصدقاء والمدرسة التي

بنتها الدولة في قريتنا، لما أصبحت على ما تراني فيه. سأعود يا أبي لأقبل يدك وأقبل تراب أرض تلك المدرسة، فقد كانت سبيلي إلى العلم. سأعود يا أبي وبعودتي سنفتح صفحة جديدة من صفحات المستقبل الذي نؤمن بأنه يتجسد وفق ما نريد جميعاً. فإليك يا أبي وإلى كل أحبائي في القرية الصغيرة تحيات النازح الغريب الذي يأمل أن يراكم بأقرب مما تتصورون".

ودمعت عينا العم مرزوق، وألقى بالكتاب جانباً، بينما أخذ القوم يتهامسون في حب لذلك العائد الذي سيؤم قريته في الغد. وأحس كل واحد منهم بأن عليه واجباً، فاتفقوا جميعاً على استقبال العائد استقبالاً يليق بمكانته كعالم جديد من أولئك الشباب العلماء من أبناء بلادهم الذين يفدون في كل يوم. ومضى القوم إلى بيوتهم بينما كان العم مرزوق يلملم أشياءه وحاجياته ليودعها الصندوق الكبير. وعندما انتهى من عمله هذا، أخذت تراود مخيلته صور الماضي في تسلسل عجيب.

إنه يذكر فعلاً اليوم الذي أخذ فيه بيد ابنه إلى المدرسة ذات الجدران البيضاء، ويذكر جيداً كيف استقبله مديرها بالترحاب، وكيف تحدث إليه حديث الصديق للصديق. ويذكر أيضاً يوم تناول بيديه المعروقتين أول شهادة يتسلمها ابنه، وكيف قبل تلك الوريقة الصغيرة في لهفة، ثم أودعها صندوقه المقفل مع حاجيات زوجته التي أوصته كثيراً بابنهما قبل أن تمضي.

ويذكر كيف كان سعيد حريصاً على أن يساعده في شؤون المقهى الصغير حالماً يفرغ من استذكار دروسه. ويذكر أيضاً ذلك اليوم الذي ودع فيه ابنه وهو في طريقه إلى المدينة الكبيرة، إلى جدة، ليتلقى العلم في مدارسها. يذكر هذا وأكثر من هذا ويذكر كيف كان سعيد يمضي أيام إجازته على مقربة منه يساهم بكل قواه في نجاح المقهى رغم طلبه إليه بأن لا يفعل. ولكن سعيد يأبى أن ينصرف في الإجازة إلى الدراسة وحدها وإنما يختار إلى جانب المذاكرة مساعدة والده في مقهاه الصغير.

وهو يتذكر أيضاً كيف قام سعيد بخدمة بعض زملائه في مدرسة جدة وهم في طريقهم إلى المدينة المنورة. ويذكر أيضاً سلاطة لسان أحدهم عندما دعاه بصبي المقهى، ولا ينسى أبداً كيف دافع غسان عن صديقه "صبي المقهى" بلسانه ويديه حتى استطاع سعيد نفسه أن يطفىء النار بأن دعا الاثنين إلى

التصافي مرة أخرى وشرب فنجان من الشاي نخب هذا التصافي.

لقد كان سعيد قمة في الذكاء محباً لأصدقائه يرعى دائماً شؤونهم في صبر وإيمان، وكان كل واحد منهم يتصور بأن سعيداً واحد من أبنائه الذين يعتمد عليهم في كل شيء.

لقد حاول سعيد أن يصنع من القرية الصغيرة قرية نموذجية، فأنشأ أول جمعية تعاونية تشارك في خدمة هذه المجاميع من أبناء القرية. حتى استطاعت هذه الجمعية أن تقف على قدميها في مواجهة الجمعيات المماثلة لها في المدن الكبيرة.

ويوم سافر سعيد إلى أميركا، افتقدت القرية واحداً من أبر أبنائها، فكانت تعيش دائماً على ذكراه تنتظر بفارغ الصبر رسائله التي لا يبخل بها حتى على أصغر أصدقائه.

وكانت رسائله البلسم بالنسبة لإخوانه الذين افتقدوا وجوده أثناء رحلته العلمية إلى أميركا.

ويذكر العم مرزوق أيضاً كيف كان سعيد يوجه زملاءه من أبناء القرية إلى الدراسة والتحصيل باعتبار أن العلم هو الوسيلة الأولى لرفع مستوى كل واحد منهم.

ولقد سار على أثره العديد من أبناء القرية، فبدأ الإقبال على تلقي العلم في المدرسة وأصبح من اليسير على السيارات الذاهبة في طريق المدينة أن ترى العديد من الصبية في ملابسهم البيضاء يتأبطون حافظاتهم الجلدية وهم في طريقهم إلى مدرسة القرية.

نعم، لقد تحققت أحلامك يا سعيد، وغدت المدرسة المصنع الذي يساهم في بناء الوطن بتخريج الأفواج من الشباب الذين يحتاج بناؤه إلى سواعدهم الفتية. وتحقق أيضاً حلمي فيك، فمع الغد سأرفع رأسي عالياً لاستقبال أول عالم من علماء هذه القرية الصغيرة، وستشق يا بني طريقك في الحياة وفق ما تريد.

وعندما وصل العم مرزوق إلى هذا الحد من التفكير، افتر ثغره عن ابتسامة ملأت وجهه الأسمر البشوش وظهرت أسنانه المهشمة وانبسطت أساريره وأخذ يتطلع إلى الأفق بنظرة حانية أودعها إحساساته الحلوة تجاه ابنه الذي سيعود في الغد. ترى ماذا سيكون حاله؟ وهل تغير كثيراً أم إنه لم يزل ذلك الابن البار؟

وأخذت أفكاره تلوب هنا وهناك تبحث عن الخيط الرفيع الذي سيشد ابنه

بالقرية فلم ير بصيص أمل، فهو في وضعه الحاضر سيكون بعيداً وبعيداً جداً عن القرية الصغيرة، هكذا أراد الله وهو يشعر بشيء من الحزن.

وأحس بشيء من الضياع، فهو لا يريد مطلقاً أن يترك القرية، ولكن ظروف ابنه وتعليمه تقتضي مثل هذا التغيير، وهو تغيير بالنسبة إليه فقط، لقد عاش عمره كله في المقهى الصغير يدير شؤونه ويعمل على إنجاحه بأسلوبه حتى استطاع أن يكون كل هؤلاء الأصدقاء. وله معهم ذكريات لا يزال يحس طعمها في فمه رغم كل هذه السنوات، فعلى هذه الأرض التي تطل على البحر عاش جميع سنوات حياته يحلم بهذا اليوم الذي يرى فيه ابنه وقد عاد إليه في سيارة فارهة مثل تلك السيارات الكثيرة التي تقف دائماً بجانب مقهاه الصغير، ولقد وعده ابنه بأن يعود بواحدة منها. ولا يدري هل يفي ابنه بهذا الوعد.

وهكذا أجاب نفسه وبكل بساطة:

- نعم سيفي سعيد بوعده، فقد كان دائماً ذلك الصادق البار.

وأغفى العم مرزوق على كرسيه ومضت تدغدغ أحلامه تباشير فجر يوم الغد، ففي الغد سيلتقي بالعائد وسيلتقي به معه كل أصدقائه وأحبائه من أبناء القرية.

وفي الصباح قام العم مرزوق من كرسيه على صوت القوم الذين جاءوا من كل مكان في القرية. وأخذ القوم أماكنهم على كراسي المقهى الصغير جماعات، جماعات يتبادلون الحديث في سرور ظاهر.

وعند الظهيرة وقفت إلى جانب المقهى سيارة فارهة خرج على أثرها سعيد ليلقي بنفسه بين أحضان أبيه وأحضان أصدقائه شيوخ القرية وشبابها، ومضى العم مرزوق يتلمس في فرح هيكل السيارة وكأنه يراها لأول مرة في حياته، ونادى في إعجاب أصدقاءه الخلّص لمشاهدة سيارة ابنه التي وعد بأن يجلبها معه عند عودته من رحلة الدراسة، ثم عاد إلى أصدقائه ليجدهم ملتفين حول سعيد يسامرهم ويسامرونه.

وهكذا أمضى الجميع يوماً حافلاً قضوه في الترحيب بالعائد "صبي المقهى" الذي يحمل الدكتوراه في الجيولوجيا.

وفي الغد فوجىء القوم بالدكتور سعيد إلى جانب العم مرزوق في مقهاه الصغير يقوم كعادته على خدمة زبائن المقهى في حيوية ونشاط كعادته في كل مرة يقضي فيها إجازته في القرية الصغيرة.

الصُورة والطفل

وتثاءب للحظة..

انشغل بعدها بمطالعة الصور المعلقة على الحائط في أناقة ظاهرة، وأخذ ينقل بصره بينها وبين هذه الجموع البعيدة التي أخذت تفد على الفندق الكبير، لتطالع معه، كل هذه الصور الجديدة، الجميلة.. ولحظ في آخر الطريق طفلاً صغيراً، ينظر إلى الحائط في تمعن ظاهر أخذ يبدو بصورة واضحة على ملامح وجهه الدقيق.. واستمرأ النظر إلى الطفل، وأحس برغبة في الحديث إليه، فانتقل دفعة واحدة إلى حيث يقف الطفل، وأخذ ينظر إلى الصورة التي شغلت تفكير هذا الصغير.

وأمعن النظر في الصورة مرات ومرات، وكان في كل مرة يكتشف جانباً جديداً من جوانب الصورة.

كانت الصورة أشعة لشيء حادّ يأخذ باللب فجأة ودون أي توقع وبسرعة. ولا يستطيع الإنسان أن يخفي مطلقاً إعجابه برسمها وألمه في الوقت نفسه.

وكانت أبعاد الصورة وأعماقها تعطي فكرة إنسانية لا حدود لها ولا مقياس. وتنهد فجأة وأحس به الطفل، فأخذ يجاذبه أطراف الحديث.

قال:

ـ أعتقد أنك معجب بهذه الصورة ؟

قال:

ـ نعم، ولكنني وحتى هذه اللحظة لا أدري كيف أصفها، ففي كل لحظة أجد فيها شيئاً جديداً يغاير ما فكرت فيه.

وضحك الطفل وقال:

ـ نعم لقد صدقت، فلقد كان هدفي حين رسمتها أن أصل إلى هذا الذي تقوله.

وصمت. قال:

ـ إذن أنت رسمتها؟

قال الصبي:

ـ نعم.. ومن مدة.. منذ ذلك اليوم الذي سمعت فيه خبر الحرب بيننا وبين أولئك الملاعين الصهاينة اليهود.

وضحك، ثم أردف بقوله:

ـ أوتدري يا صديقي، لقد أمضيت أكثر من خمس وعشرين ساعة في تفكير مستمر لأبدأ رسم الصورة.. وفجأة ركزت يدي على قطعة القماش ومضت ريشتي تخط أشياء لم أكن أفكر فيها مطلقاً.. كان عقلي الباطن هو الذي يدفع بيدي لأن تخط ما خطته.. ويوم انتهيت منها شعرت بشعورك الذي تصارحني به نفسه.

وصمت للحظة كان خلالها يفكر جدياً في اقتناء الصورة المعجزة التي تطلّ من على الحائط في بروز شامخ يعطي فكرة كاملة عن كل معاني الغدر والإساءة.. تلك التي يتصف بها العدو.

وكانت الصورة أيضاً ناطقة بتعابير شتى تشعر من يراها بأنها أكثر من فكرة تصلح لأكثر من موضوع.. فهي في نظرة غنية بمواضيع شتى.. تستطيع أن تشرح الدوافع والأسباب التي أدت إلى هزيمة العرب بلا كلام وإنما مجرد خطوط. خطوط صغيرة دقيقة متشابكة فيها أكثر من ظل وتغني عن أكثر من إجابة.

وأطلّت التساؤلات في ذهنه وهو يطالع الصورة مرة أخرى وإلى جانبه الطفل الصغير وقد كبر في عينه، فأصبح أكبر رجل يناقشه الحديث ويدفع بالكلمة تلو الكلمة في أسلوب مهذب.

وفجأة أحس بدبيب من النعاس بعد فترة طويلة من التحديق في الصورة.

وأخذت الألوان والصور تظهر مرة أخرى في مخيلته هذه المرة وكأنها تنقل لعينيه وقائعها الفريدة ، هذه الصورة المعجزة التي وضعها طفل صغير عاش أيامه كلها وهو يرسم في إيمان وصدق.

وأحس بكثير من الراحة وهو يسأل الصبي الصغير:

ـ أتبيعها؟

وجاء الجواب حازماً:

ـ نعم، ولكن على شرط.

واستغرب أن تجيء الإجابة على سؤاله بهذا الشكل وقال:

ـ وما هو الشرط؟

وضحك الطفل ثم قال:

- شرط بسيط جداً.

وأردف بقوله:

- أن تدفع فيها مليون ريال.

وفغر فاه وقال له:

ـ ولكن من أين لي هذا المبلغ.

قال:

- لا عليك، إنما أردت هذا المبلغ لأدفع به هدية صغيرة لأولئك الأبطال الذين يدافعون اليوم عن أرضهم وعرضهم في فلسطين العربية.

خطوات على الشوك

لا جديد يستطيع أن يثير في نفسه إحساسات الراحة والطمأنينة، فلقد فقد الصدر الحاني الذي كان يتكىء عليه في أوقات الضيق، وفقد بفقده كل قدرة على التصرف السليم، وأصبح ينظر إلى الحياة بمنظار من يعتقد بسلامة تصرفاته رغم كل ما يشوبها من اعوجاج، وبدأت سوءة الأيام تظهر له أكثر مما تبطن، وهو على الرغم من كل ذلك سادر في غيه، يتجاوز الآخرين بتصرفاته الصبيانية، ومعجب بالقوة التي يستمدها من جريه وراء مظاهر الدنيا التي أعطاه إياها والده العجوز الذي قضى نحبه تحت تأثير نظرات الناس عنه، وفي وقت كان هو أحوج فيه إلى الناس.

وفي الشيخوخة يتعامى الناس عن أخطاء الآخرين، وما أكثر الأخطاء التي ارتكبها والده في حق أولئك الذين رغبوا في تناسي الأخطاء. ومع هذا فلم ينس الناس أخطاء الشيخ العجوز وعزّ عليه أن يمضي بفكره إلى هذا الحد، وآلى على نفسه أن ينبش ذكريات الماضي بحلوها ومرها. وأخذت الصور تتوالى في مخيلته الواحدة بعد الأخرى.

لم يكن غريباً أن ينصرف أقرانه عنه، عندما كان يلعب على أرض "المعيسلة" بجوار المنطقة الخضراء من الأرض الطيبة في مدينة الرسول، فهو على الرغم من محاولاته أن يبدو طفلاً طبيعياً في كل تصرفاته إلا أن ظواهر الأشياء التي يحاول أن يخفيها تطفو على السطح فيهرب زملاؤه من معاشرته، وكان يتحدث بكل هذا إلى والده فلا يعطيه أي جواب، لا لأن أباه كان عاجزاً عن إفهامه حقيقة الأمر وإنما لأنه هو الآخر كان من ذلك النوع الذي لا يجيد

مصاحبة الناس، وهو يأمل في أن يكون ابنه على شاكلته.

ويوم اعتدى على طفل صغير من أطفال حيه سمع شتيمة على لسان الطفل وعرف لأول وهلة أن هذا الجاه العريض الذي يتمتع به ليس إلا حصيلة غدر قام به والده ضد شركائه في دكان الحلاقة الصغير.

لقد أعطت الأيام والده الكثير من المال ومنحته الكثير من الجاه لا لأنه يستحق هذا المال وهذا الجاه وإنما لأنه كان مثل ذلك الزرع الشيطاني الذي يتسلق أي مكان بين المزروعات المفيدة. ومع هذا فلم تتحقق لوالده الراحة أو حتى حب الناس، لماذا؟ لا يدري، وهو كما يرى نفسه يسير في الطريق نفسه مغمض العينين وكأنه آلة تسيرها قوى غريبة بعيدة عن إدراكه، وفي ساعات الصحو يعود إلى التقاط أنفاسه فينظر إلى ما جنته يداه في جميع مراحل حياته فلا يجد جواباً. فهو لم يكن يوماً من الأيام قادراً على امتلاك قلب، أي قلب لأي إنسان حتى زوجته التي ذهبت إلى دار والدها حانقة ساخطة، لماذا؟ لا يدري.

لقد حاول أن يذهب إلى الكثير من أطباء النفس المشهورين في داخل بلاده وخارجها، فكانت أجوبتهم متفاوتة لم تغنه أبداً أو حتى تسمن ذهنه من جوع، وبدأ يشغل باله سوء تصرفاته، فهو على الرغم مما يفعل يشعر بالندم لكل ما يفعل ثم يعود مرة أخرى إلى سوء التصرف.

مجموعة من التناقضات تسيره وتأخذ بيده في هذه الحياة، يقبل على الأصدقاء في قوة وعزم وكأنه يريد أن يكسر الطوق الذي بناه بساعديه حول نفسه فلا يستطيع، لأن الطبع يغلب التطبع ولأن قوة الحياة التي عاشها رغم جاه والده تفرض عليه شراسة المنطق.

وأخذ برأسه بين يديه واعتمد بكلتا ساعديه على المنضدة السوداء يتأمل نقطة صغيرة رأتها عيناه لأول مرة، كانت النقطة دمعة صغيرة تتدحرج من مآقيه على المنضدة في صمت وبلا ضجيج واستغرب أن يبكي وهو على ما يحس في نفسه من قوة وامتلاك للحياة.

ومضت الذكريات تطل برأسها أمام ناظريه في سرعة غريبة وأخذت الصور مرة أخرى تتلاحق معلنة مراحل حياته، طفولته، شبابه، أيامه التي أمضاها في الدراسة هنا وهناك، حتى الفشل الذي لقيه أثناء الدراسة كان هو الآخر يظهر متجسداً أمامه يلاحقه في جلسته تلك.

لقد أمضى ما يزيد على العشرين عاماً خارج بلاده يتنقل بين هذه المدرسة وتلك الكلية، ويوم عاد إلى وطنه رأى كيف أن زملاءه قد سبقوه فأحاطوا بالحياة كالمعصم ومضوا إلى غاياتهم وهو يتحين الفرصة التي ستسنح له يوماً لينقض عليها، هكذا هو دوماً نهّاز للفرص. ويوم جاءت الفرصة أمسك بها بيد من حديد وبدأ يتطلع إلى مزيد من الفرص بلا جدوى.

وأخذت أيامه تسير سيرها الطبيعي، وحاول أن يخفي قسوته عن زملائه، ولكنها بدت واضحة لكل من يعاملونه، وظهر للناس في مظهره الحقيقي رغم كل ما كان يأمل أن يخفيه عن أنظار الآخرين، وتفاعلت أحاسيسه بالحياة التي يعيشها.

وكان عندما يعود إلى بيته، يرجع إلى نفسه فيحاسبها ولكن دون جدوى، ثم ينخرط في البكاء تعيساً ذاوي النفس خالي الوفاض بعد أن انفض أصدقاؤه من حوله.

وهكذا سارت حياته على الوحدة فعاش أيامه وحيداً وحيداً، ويوم فكر أن يرجع إلى الطبيب النفسي مرة ثانية علّه يجد العلة التي تدفعه لأن يفعل ما يفعل، أحس بشيء من الراحة، فقد يجد الطبيب شيئاً يقوله عن مرضه. وتكشفت الأمور أمام الطبيب واستطاع أخيراً أن يخلصه من بعض علته، ويقضي على مظاهر السوء في نفسه.

لم يكن الفضل في كل هذا إلى الطبيب نفسه، وإنما كان الفضل أيضاً إلى حقيبة صغيرة تركها له والده مهملة في ركن من أركان البيت الكبير، وكان الطبيب قد طلب منه زيارة البيت لجلب أية ذكرى من ذكريات والده.

وأحس بشيء ما يدفعه إلى غرفة المهملات ليلتقي مع الحقيبة الصغيرة التي ما إن أمسك بها حتى أحس بكثير من الراحة والاستقرار النفسي.

كانت الحقيبة ملأى بأدوات الحلاقة وقد علاها الصدأ وتراكمت عليها الأتربة، وعرف بعد أن رآها أنها لوالده فقد وجد عليها اسمه واضحاً، وعرف بشيء من الضيق أنها من ذلك النوع الذي كان يستخدمه والده في دكان الحلاقة الصغيرة يوم كان فقيراً، وعندها أحس بأن الحياة ليست مجرد ما يراه من حوله من مال وجاه، وإنما هي أيضاً العمل من أجل الخير والخير قبل كل شيء، وأن ما فعله والده في حياته قد عاد عليه هو أيضاً بالكثير من الضرر لأنه أفقده طعم الحياة الرائق وجعله كمن يمشي خطواته على الشوك.

كارلوس وحادث ڤيينا

(الشياطين الحمر)

(روايــة)

ط ١ ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م
ط ٦ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

في مكان ما من قرية بورج (Bourg) على الحدود الفرنسية السويسرية، وبين أحضان ذلك الكوخ الهادىء الذي تشرف عليه عجوز قارب عمرها النهاية، السماء ملبدة بالغيوم، والمطر يزخ في رقة على زجاج النافذة الضيق، وأضواء السيارة تلف الكوخ عن بعد، وكأنها تعلن عن موعد القادم.

الهدوء يغطي الغرفة، وصوت مذيع المونت كارلو يشير إلى اجتماعات الأوبك في مبنى الأوبك في فينا.

دقات خفيفة على الباب يتبعها صرير خافت يدل على أن باب الكوخ قد فتح.

ويلقي الوافد الغريب بمعطف على أقرب مقعد، ثم يمضي إلى حيث يقبع صاحب الغرفة، ويبدأ في إلقاء التحية بلا مبالاة ويبدأ الحديث:

- قد تكون العملية الجديدة من أهم العمليات التي نقوم بها، وقد يكون المبلغ الذي سنتلقاه هو أكبر مبلغ نتقاضاه، لكن الأهم من هذا وذاك أننا سنكون في المستقبل أكثر حصانة أمام البوليس.

وأطرق صاحب الغرفة بعض الوقت ثم قال:

- أريد بعض التفصيلات.

- هذه هي التفصيلات، وهذه هي تذاكر السفر، وهذه هي جوازات السفر، أما المال فلا أزال أحتفظ به في صندوق الأمانات في فندق بسويسرا.

وهذه خرائط المبنى والطرق الموصلة إليه، كل دقائقه وتفصيلاته استطعنا أن نحصل عليها من أحد الذين يترددون على المبنى.

- ولكن.

- ولكن ماذا؟

- كيف أستطيع الخروج من هذه القرية؟

- ستحملك سيارة من سيارات السلك الدبلوماسي التابعة لسفارة إسرائيل إلى جنيف، ومنها ستأخذ الطائرة إلى فينا، وسيكون اجتماعنا جميعاً في بيت السيد.. الذي يبعد عن فينا مسافة خمسة عشر ميلاً.

- شكراً.

- ولماذا الشكر؟ ألست أنا واحداً منكم؟

- نعم، ولكنك لن تشترك في هذه العملية، يكفيك أن تكون على مقربة من المذياع تتابع الخطوات في صمت وأمانة.

- هذا رأيك؟

- نعم.

- لا عليك سأبقى كما أردت وسأعمل منذ الغد على تنفيذ جميع رغباتك.

وانهمك الاثنان في دراسة أدق التفاصيل، وأعدّا بالفعل خريطة جديدة لرحلة الرعب، هكذا أسمياها، وهي قد تستحق أكثر من هذا الاسم.

وضحكا من قلبيهما وناما ملء جفونهما كما ينام الأطفال.

وفي الصباح، خرج الوافد الغريب ليلقي نظرة على السيارة الليموزين السوداء القادمة من بعيد، وتبادل مع قائدها كلمات مبهمة، سبق وتفاهم فيها مع أصحاب العملية.

وانفرجت أسارير الوافد الغريب وهو يدعو السائق لراحة قصيرة.

كل شيء في وجه السائق يدعو إلى الإثارة والاستغراب، فهو عبارة عن رجل قزم يحمل جسده آثار السنين التي عاشها، أما وجهه فقد كان عبارة عن رجل غاشت مئات المشارط فيه جيئة وذهاباً، أنيق الملبس، يضع سلسلة غالية

الثمن في جيب بنطاله الأيسر، يتحدث الفرنسية في لكنة غريبة، يضع الكلمات بلا مبالاة.

وألقى السائق بتعليماته:

- سنسافر في الساعة الرابعة، وستلتقي في المقهى الصغير الذي تديره الآنسة لوسي بشخصية فريدة تقتسم السيارة معك في طريقك إلى جنيف.

- لماذا؟

- هكذا التعليمات.

- ولكني أنا الذي أصدر التعليمات.

- سنسافر في الساعة الثانية عشر ظهراً، وسأكون بمفردي، وعلى صاحبك أن يلتقي بنا في فندق الرون بجنيف.

- أمرك.

قالها السائق في صمت وكأنه قد لقن بضرورة الصبر على عناد صاحب الغرفة.

وانفرجت أسارير صاحب الغرفة، ومضيا إلى المائدة يلتهمان الأكل والشراب في شراهة متناهية.

واستأذن السائق ليعود في الموعد المحدد، وأخذ صاحب الغرفة وضيفه يتناقشان ملياً في تفصيلات العملية القادمة. كيف تبدأ وإلى أين تمضي ومتى تنتهي، وهل سيقدر للعملية النجاح؟ وإذا نجحت فهل سيعتمدان في نجاحها على المخطط الموضوع لها من قبل الأصدقاء.

وعندها قال كارلوس:

- لا يهم، لقد تعودنا دائماً الاستفادة حتى من أخطائنا في جميع عملياتنا السابقة، فلنترك الحديث بعض الوقت، ولنمض في دراسة شخصيات المستفيدين من هذه العملية.

- أو تدري؟ لقد شاقتني رؤية ذلك الأبرص اللعين وهو يضع عينه في عيني وكأنه يريد أن ينوّمني فلا أحر جواباً، سوى الاستكانة لكل طلباته، إنه من ذلك الصنف الذي إذا أراد فعل، لكن سيأتي اليوم الذي سأخنقه بكلتا يدي.

أما زميله الأخنف فقد كانت رقته دليلاً على سوء نواياه، ومع هذا فلا أملك إلا الاستجابة للخطة بعد أن وضعت الشرطة الفرنسية جميع ثقلها للقبض عليّ لارتكابي جريمة قتل الشرطيين الفرنسيين.

أما الفتاة ذات الشعر الأشقر، فأشعر أنها ضحية للرجلين يديرانها كما يريدان، وعلى هذا فستكون صديقتي المقبلة وسأستشيرها في عمليات مماثلة.

- ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم، وتعال إلى الفراش مرة أخرى نستعيد به نشاطنا، بعد رؤية وجه ذلك القزم السائق.

- لكن.

- لكن ماذا؟

- لم يبق على الرحيل سوى ساعتين نحن أحوج فيهما إلى التنكر.

وضحك كارلوس مرة أخرى وقال:

- لا لزوم للتنكر فنحن نتنقل في سيارة دبلوماسية هي في نظري وسيلتنا للهروب من هذه الحياة في هذا الكوخ لنستقبل الغد بابتسامة مشرقة، فالعمل لا بد كثير يا صديقي.

الفصل الثاني

كل شيء هادئ في ميدان بيكاديللي بمدينة لندن ما عدا أضواء النيون المتموجة وهي تغمر الساحة في الطريق الموصل إلى شارع سوهو.

محطة الميترو الأرضية تلفظ بعض المارة على سطح الأرض، فيجتازون الشارع في صمت، والسماء ملبدة بغيوم كثيفة، وشماسي المارة تشكل هي الأخرى دوائر ضيقة تحجب عن المارة منظر السماء. الجميع يلتحفون بمعاطفهم الشتوية التي كسيت هي الأخرى بمعاطف تقيهم المياه المنهمرة من السماء كسيل جارف.

وعلى مقربة من الدائرة الكبيرة، تبدو صالات الرقص الرخيصة بإعلاناتها الغامضة تثير كوامن الغيظ في نفوس أولئك الذين لا يملكون نقوداً يستطيعون بها ارتيادها.

وهو في الطريق إلى خندقه الصغير في دكان الهندي الأحمق يفكر بما سيصنعه في الغد،

فلقد أنذره صاحب المطعم الصيني بأن لا مكان له بين الجوعى في مطعمه الصغير.

وأصوات الموسيقى تضج في أذنه، ترافق عصافير بطنه الخاوية، وهو يفكر بلا مبالاة. لقد جاء إلى مدينة لندن منذ أكثر من ثلاثة أعوام طلباً للعمل، بعد أن تهاوت أحلامه بأن يكون طالب علم. لقد لفظته بيروت كما لفظته أكثر من مدينة عربية، لأنه لم يكن إنساناً انضباطياً في حياته، فلقد غرست الحياة في نفسه مشكلة جديدة، مشكلة كيف يعيش، وهو لهذا تجده مرة ماركسي النزعة وأخرى هيبي البيئة وثالثة

بهائي المعتقد.

جرّب جميع صنوف المعتقدات بعد أن بعد عن معتقده كدرزي فلم يجد خيراً من البحث عن لقمة العيش بأسهل الطرق.

وتمر الذكريات به منذ يوم مولده حتى وصوله إلى لندن، تذكر ذلك الشريط الطويل من حياته في لحظات. وتوقف فقط عند اللحظة التي ركب فيها الباخرة من ميناء بيروت متوجهاً إلى انجلترا بعد أن هدده سكان شارع صبرا بالخروج فوراً من دائرة الضوء في ذلك الشارع الضيق، وكان لوصوله للباخرة قصة ما بعدها قصة.

لقد تعرّف على العجوز قبطان الباخرة في إحدى ساعات اللهو بين النسوة والمتبرجات في ملاهي بيروت القديمة عندما كانت تستخدمه إحداهن كقبضاي يدفع عنها مشاكل الليل، وشعر بأن خيطاً قوياً يشده إلى هذا العجوز ليرتبط به، وفاتحه في إحدى الليالي عن رغبته في الهجرة إلى لندن، فرحب به بعد أن أفهمه الطريق إلى عمل جميع الإجراءات القانونية.

كان العجوز على صلة بمافيا لندن ففرح بوجود الشاب إلى جواره واعتبره مكسباً يتمكن عن طريقه من زيادة دخله من مجموعة الأشرار، وعندما قدمه لأصدقائه في لندن، طلبوا منه أن يعمل في المطعم الصيني بعد أن أعطوه توصية إلى صاحب المطعم، وطلبوا من صاحب الدكان الهندي أن يأتيه في خندقه العميق بدكانه الصغيرة.

كانوا بهذه الطريقة يختبرون مقدرته على الاستمرار في الحياة ويدخرونه ليوم جد عظيم. وبهذه الطريقة عاش سمير في لندن طوال هذه المدة، كانت فيه المافيا تتابعه بأسلوبها فلا تقطع بينه وبين الحياة إلا لتصله بحياة أضنك وأشنع.

وأحس بيد توضع على كتفيه فتوجّس شراً، وبدأ يعدو دون أن ينظر خلفه، لكن من كان يتبعه ما لبث أن أصبح يناديه باسمه، فاستدار إليه ووقف.

- إلى أين يا سمير؟

- لا أدري، لكن من أنت؟

- صديق يعرفك ويعرف الطريقة التي جئت بها إلى لندن ويعرف جميع

أصدقائك، ومع هذا يريد أن يساعدك.

- ولكنك غير عربي!

- وهل جميع أصدقائك عرب؟ وهل من الضروري أن أكون عربياً لأساعدك.

وابتسمت شفتاه، وهدأت نفسه، ثم قال:

- ماذا تريد؟

- مصلحتك يا صديقي، مصلحة قضيتك.

- لكني نسيت القضية، وأنا أبحث عن لقمة العيش.

- لكن أصدقاءك لن ينسوها، إنهم يبحثون عنك في كل مكان.

- أصدقائي هاها.. لقد فقدت أصدقائي منذ اليوم الذي شاء فيه شيطاني أن أترك شارع صبرا. لقد تركتهم في بيروت، قد أفكر فيهم حيناً ولكني أفكر في نفسي في كثير من الأحيان.

- ولكن أصدقاءك هذه المرة من خارج بيروت، من الأرض المحتلة.

- أهم عرب؟

- نصفهم كما ذكرت ونصفهم لا، لكنهم يحبونك.

- لقد مات كل من يحبني، ماتوا بعد أن كرهوني، ولكن لا بأس أين هم؟

- هنا..

وأشار إلى الصالة الرخيصة وأتم قوله:

- إنهم ينتظرونك.

وأحس باليد الضخمة وهي تلقي بساعدها على ساعده ثم تمضي به في جدية لتطرق على الباب طرقات معروفة ينفرج بعدها الباب لتستقبلهما المضيفة بابتسامة لاهية:

- مرحبا ريتشارد، مرحبا بك وبضيفك.

تقولها المضيفة في هدوء واستكانة.

- لا عليك يا موندي، أين هم الرفاق؟

- على المائدة ينتظرونك.

ومضت به الأقدام لا يحسّ بوقعها إلى حيث المائدة، والتقى حولها برجلين لم يستطع أن يتعرف على ملامحهما من خلال الأضواء الخافتة.

وبدأ البرنامج يعلن عن رقصة لسالومي اليهودية الماكرة التي استطاعت أن تنال رأس يوحنا المعمدان.

وابتسمت له الفتاة بعد أن أدّت رقصتها، ومضت إلى داخل المسرح لتغير ملابسها ثم تعود لتلتقي بالسيد ريتشارد ورفاقه، وليلتها شرب الجميع أنخاباً كثيرة، نخب فلسطين والثورة العربية ومبادىء وأيديولوجيات لا يفهمها إلا بالاسم.

شربوا جميعاً، واستمرت الأنخاب فشرب أخيراً نخب سالومي صاحبة القوام الجميل، وضحك الجميع، وغادروا الملهى في طريقهم إلى الشارع ليستقلوا سيارة أخرى إلى خارج لندن في رحلة مع الضياع. وعلى مقربة من مشارف يوركشاير، وقف الجميع أمام الفيلا العتيقة ومضى ريتشارد يجرب مفاتيح البيت في هدوء وثقة انفتح على أثرها الباب ليجد الجميع أنفسهم في مسكن على هيئة معبد يهودي مبني في القرن التاسع عشر.

كانت ردهة المنزل ملآى بصور ورموز لم يفهمها في اللحظة الأولى، ولكنه عندما فهمها أحس بالضياع يلفه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

الفصل الثالث

ولدت الآنسة دينس من أم يهودية وأب ألماني وعاشت طوال سنواتها في مدينة برلين في شارع (كينكس آليه)، حتى قدر لها أن تهاجر من الشارع والبيت وتمضي إلى مقاطعة ديلدورف لتختار البقاء في المدينة القديمة "المتشتات"، التي تجمع العديد من أصحاب البنوك اليهودية. كانت رحلتها إلى هذه المدينة نتيجة إخفاقها في اصطياد واحد من الشباب العرب الذين وضعت المنظمة الصهيونية أنظارها على اصطيادهم في برلين. فلما فشلت طولبت بالانتقال إلى "المتشتات" رغماً عنها، فقد كانت تحب مدينة برلين باعتبارها مسقط رأسها.

وقد ارتبط أبوها بوالدتها رغماً عن إرادة أبويها، فعاشت أمها فترة زواجها بعيداً عن هذين الوالدين اللذين يعتبران زواج اليهودية بغير اليهودي أمراً لا يحسن السكوت عليه، وتنقلت الفتاة بعد وفاة والدها في أعمال كثيرة، فاشتغلت كمانيكان في إحدى دور الأزياء الألمانية، وعندما لم تعد تستهويها هذه المهنة اختارت الفضاء مجالاً رحباً لها.

وعاشت كمضيفة في شركة الطيران الألمانية فترة من الوقت، حتى فصلت في عام ١٩٧٤ لارتكابها عدة مخالفات منها عدم انصياعها للأوامر، وتركها الطائرة في مطار فرانكفورت للحاق بأحد أصدقائها الذين تعرفت عليهم.

ومنذ ذلك اليوم لا يعرف أحد من الناس كيف تعيش الآنسة دينس حياتها، وكيف يجيء دخلها، لكنها كانت تلبس من الثياب

أغلاها وترتاد الكثير من الأمكنة الليلية وتصرف على زينتها وعطورها مبالغ خيالية.

والآنسة دينس شقراء طويلة القوام، تجيد الانجليزية والفرنسية والعبرية إلى جانب الألمانية.

عرفتها مخافر البوليس الألماني أكثر من مرة، وكانت في كل مرة تخرج من المخفر بكفالة كبيرة لا يعرف اسم دافعها. هذه هي الآنسة دينس التي تعيش اليوم في دوامة البحث عن حل للرسالة التليفونية التي تلقتها على عجل.

الطريق في أزقة وشوارع التشتات الصغيرة يضيق بجموع الوافدين الذين قدموا لزيارة أهاليهم من اليهود بمناسبة أحد الأعياد، وأضواء الملاهي الصغيرة التي ترتبط في شارع التشتات كسلسلة محكمة تضيء هنا وهناك لصفوف من أحلام المراهقين والمراهقات ورواد الليل.

والآنسة دينس تسير بسرعة عجيبة لا تلوي على شيء، تنظر إلى الأمام، تدفع بجسمها الطويل على أرض الشارع في خطوات متزنة واثقة.

لم تشعر الآنسة دينس وهي تسير في طريقها إلى المكان الذي حددته لها الرسالة التليفونية أنها ستأخذ تعليماتها من يد يافع صغير ألقته على أرض الشارع عندما كانت تنهب المكان، وعندما أحست بسقوط الفتى صاحب الاثني عشر عاماً على الأرض، مدت يدها البضة وانتشلته من رصيف الشارع لتهمس في أذنه بأسفها على ما فعلت. لكن الصبي على ما يبدو، لم يكن مبالياً بما حدث، كان كل همه أن يعطيها الورقة التي يحملها.

كانت الرسالة مجرد أرقام استطاعت بقوة ذاكرتها أن تحلها بسرعة عجيبة.

وافترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة ثم ألقت بناظريها على الورقة مرة أخرى لتحفظ أرقامها عن ظهر قلب ثم تقطعها إرباً إرباً لتلقي بها في سلة المهملات.

إذن هذا هو الذي يريدونه، ستلتقي بواحد من شباب العرب الذين عاشوا في فلسطين المحتلة.

ترى كيف هو شكله وما هي ثقافته وما هي ديانته؟

أسئلة كثيرة تبادرت إلى خلدها، ومع هذا لم تستطع الإجابة فقد كانت

الرسالة مجرد وصف للشاب ومكان اللقاء وكلمة السر ولا شيء غيره.

وألقت بشعرها الأشقر وراء ظهرها دون اهتمام، ومضت تشد صدرها المتعالي في كبرياء المرأة التي تقدم على عمل فيه الكثير من الخطر، لكنها وهي العريقة في مثل هذه الأعمال لم تعد تهتم بالخطر؛ فلقد تجاوزت جميع ألوان الأخطار التي مرت بها، ودلفت إلى الحانة الصغيرة لتواجه بشاب يصغرها سناً، فقد كانت دينس في الثامنة والعشرين من عمرها، أما الشاب فيبدو أنه تخرج في هذا العام من مدرسته الثانوية. والتقت العينان وألقى الوافد الغريب بكلمة السر فتبعته إلى حيث يجلس.

وحول الطاولة الصغيرة تعرفت الآنسة دينس ببلال، الذي جاء على التو من مدينة حيفا حيث ولد وعاش.

ونظرت دينس في المكان وألقت السلام على الجرسون الذي كان ينتظر إشارة يدها ليأتي على الفور.

وببضع كلمات لم يفهمها الوافد الغريب طلبت الآنسة دينس نوعاً من الشراب لها وله، وبدون أن تسأله فيما إذا كان يرغب هذا النوع أو ذاك.

تناولا الشراب في هدوء دون أن يتبادلا حتى مجرد كلمة، وجاست دينس بعينيها في ملامح العربي الوافد، علّها تجد شيئاً جديداً غير الذي أحاطت به من أول مقابلة.

وبدأت تعدّ نفسها لدراسة شخصية الوافد الغريب وتتفرس في وجهه.

كانت كمن يقرأ كتاباً مفتوحاً، فعلى جميع صفحات الوجه خطت كلمة مخدوع ونقشت بشكل ظاهر.

مسكين هذا الرجل فسيظل مخدوعاً لأن رجالنا أقوى على الخداع.

وانحلّت عقدة لسان الوافد الغريب بعد ثاني كأس، وبدأ يدردش مع الآنسة دينس حول رحلته العجيبة.

نعم، لقد ولد في حيفا لأم مسيحية وأب مسيحي. كانت أمه كاثوليكية المذهب، وأبوه بروتستانتي المذهب، وفي هذا الجو عاش حتى وصل إلى المدرسة الثانوية، وهناك التقى بها، فتاة يهودية أعجبت به وأعجب بها فداوم

على صداقتها. وكان أبوها واحداً من رجال المخابرات الإسرائيلية لكنه لم يكن يعرف هذا، ويوم عرف، وجد نفسه داخل قفص محكم الإغلاق.

لطالما اختلف مع فتاته على كثير من المواضيع، كان يعتقد أن الأرض التي اغتصبوها ملكه ولهذا يجب أن يستردها العرب.

أما فتاته فكانت تضحك منه وتمعن في دلالها عليه، حتى طوقته فانصاع لأوامر والدها، ذلك الذي أفهمه بأن اليهود في إسرائيل إنما يعملون لصالح الفلسطينيين بإقامة دولة لهم.

وبين الترهيب والترغيب خرج الوافد الغريب من مدينته إلى فرانكفورت ومنها إلى هذه المدينة، وفي فرانكفورت قابل الرجل الكبير، وهكذا كانوا يسمونه.

وضحكت دينس وهي تسمع اسم الرجل الكبير. لطالما قابلت هذا الرجل وكانت تعتقد ذلك. أما اليوم، وبعد أن مضت في رحلتها مع حياتها الجديدة فلقد تضاءل حجم هذا الرجل بالنسبة للرجال الذين قابلتهم فيما بعد.

الفصل الرابع

على مقربة من الديوك المتخاصمة، جلس ديفيد يرمق حركات الديوك في انفعال وترقب، لقد راهن بينه وبين نفسه على أن يكون أحدها هو المنتصر وهو ينتظر النتيجة في مزرعته الصغيرة القريبة من قرية بساو بمقاطعة بافاريا.

صحيح أن الرجال الثلاثة سيأتون قريباً، لكنه يريد أن يعرف النتيجة قبل وصول الرجال. فلقد أعد اليوم طعاماً شهياً لهؤلاء الضيوف، وكانت امرأته تلتحف رداء أسود حداداً على ابنها الذي قتل في صحراء سيناء في حرب رمضان سنة ١٩٧٣. وهي منذ ذلك اليوم ترثي ابنها بكلمات كثيرة، وتنكّد عيش زوجها على قبوله هجرة هاريس إلى الأرض الموعودة.

لقد قطعت أيام عمرها بعيدة حتى عن الاشتراك مع جاراتها في زيارة الكنيس أيام السبت، لأنها كانت تشعر بأن خيبتها ستأتي من التصاق زوجها بهؤلاء اليهود.

قد تكون يهودية بالاسم، لكنها اختارت جميع صديقاتها من خارج دينها وسمت ابنها اسماً مسيحياً ليكون بمنأى في التفكير من أن يمضي في طريق والده.

وهؤلاء الرجال الذي يزورون بيتها لا تعرف عنهم شيئاً إلا أنها تقوم بخدمتهم وإطعامهم.

لشد ما تغير زوجها وتغيرت أحواله، فهو اليوم كثير الإنفاق، يشتري الجديد لبيته وابنته التي تدرس في سويسرا.

لقد سألت زوجها كثيراً عن مصدر المال، لكنه كان دائماً يفضل

الصمت وإدارة الحديث إلى مواضيع أخرى.

تتابع وصول الضيوف الواحد تلو الآخر، وكان كل واحد منهم يمثل جهة ما في هذا العالم الكبير.

فلورنس، الرجل الأشقر الذي ناهز عمره الأربعين عاماً يبدو في أفضل حالاته، معتداً بنفسه جاء ينهب الخطى في الفناء الصغير إلى البيت، يمثل الاستعمار الجديد في هذا العالم.

تشيكوف الروسي السمين الذي انتفخت أوداجه بفعل احتساء أقداح كثيرة من الفودكا، يستعين بها على حضور الذهن في الاجتماع المقبل، جاء يحمل هدية صغيرة لأم هاريس.

ولقد حاول تشيكوف أن يبدو ودوداً وهو يقدم الهدية إلى المرأة الغاضبة، ويتمتم بينه وبين نفسه بكلمات روسية.

أما صموئيل فقد جاء على متن سيارته القديمة مرتدياً بدلته الرمادية التي اشتراها منذ أكثر من عشرة أعوام.

كان يبدو هو الآخر في لحيته الرمادية أشبه بحاخام فرّ من وظيفته الدينية.

وعلى المائدة أخذ الحديث يدور بين الجميع بينما صاحب البيت في الغرفة الثانية ينتظر التعليمات.

لقد أجمع الثلاثة على أن العملية ستكون في صالح أهدافهم فلتبدأ في الموعد والساعة. وعند الوصول إلى هذا الحد فتح صموئيل الباب ليطلب من صاحب البيت الانضمام إلى الجميع.

كانت التعليمات في ورقات صغيرة قرأها صموئيل بصوت مرتجف ثم طواها، وقربها من الشمعة المضيئة لتحترق الكلمات التي سودت على الورقة.

وانتفض صاحب البيت من ساعته وقال:

- سننفذ التعليمات جميعاً، لكن كوهين في النمسا في حاجة ماسة إلى النقود.

وهنا قال صموئيل:

- ألم تدفع له بالمبلغ الذي أعطيناك إياه؟

- نعم، ولكنه قال بأنه لا يكفي.

وانبرى لورنس إلى حقيبته وأخرج منها رزماً مختلفة من جميع العملات في العالم ثم دفع بها إلى صاحب البيت وقال :

- هذا ما أستطيع دفعه، دبّروا أنفسكم وأسرعوا فالجماعة على أحرّ من الجمر ينتظرون نتيجة العملية.

أما الروسي فقد تشاغل عن الحديث بإخراج لفافته وأشعلها، وابتسم ثم قال:

- صدقوني أن رفاقي في ألمانيا الشرقية حريصون على نجاح العملية وقد وعدوا بأن يدفعوا جميع ما يطلب منهم فور انتهائها.

وضحك صاحب البيت ثم قال:

- نعم أيها الشيوعيون، أنتم هكذا لا تدفعون إلا بعد انتهاء كل شيء، ولكن لولا هذين الشخصين لما كان لكم شأن لأن من يقوم بمثل هذه الأعمال لا ينتظر الدفع ولا يستبقه.

وضحك الجميع وغادروا الغرفة وجميعهم قد انتشى بخمرة الانتصار الذي سيحققونه قريباً.

وفي الغد سافر صموئيل إلى بادن في النمسا ليقابل كوهين ويستعجله في فتح داره للوفود القادمة من جنيف وألمانيا الغربية.

وتفاهم الصديقان على جميع الخطوات بعد أن اقتسما المبلغ، وأمضيا بعض الوقت يلعبان الشطرنج، وعندما أحس كوهين بأن صموئيل سيغلبه هذه المرة حاول إلغاء اللعبة خوفاً من دفع قيمة الرهان، وعندها فتح الباب ليلتقي الاثنان بلورنس صديق الأمس القريب يبتسم في وداعة ويقول :

- سأدفع عنك قيمة الرهان بالإضافة إلى ما دفعت يا صديقي العجوز.

وضحكوا جميعاً.

الفصل الخامس

التأم شمل جميع الأصدقاء في الدار الواقعة على شارع سيناجوك على مقربة من ريودي مارنيه في مدينة جنيف، حيث تقع أجمل مدن سويسرا على نهاية الجزء الجنوبي الغربي من بحيرة جنيف.

الساعة تدق الواحدة ظهراً معلنة قدوم آخر المجموعة، جاء على عجل يحمل بين يديه معطفه القديم وحافظته الجلدية، السيد صموئيل. الغرفة غنية بالأثاث وعلى الجدران صور قديمة رسمها كبار الفنانين الأوروبيين القدامى، وعلى المائدة الطويلة كان عدد المجتمعين اثني عشر شخصاً.

كارلوس بقامته المديدة يداعب شعر الآنسة دينس الأشقر في اعتداد وثقة.

الوافد الغريب الذي التقطته المافيا من بين جدران الخندق العميق في مدينة لندن.

الوافد القادم من مدينة حيفا إلى ألمانيا الغربية.

الآنسة دينس بنظراتها اللاهية وقد ارتدت فستاناً أنيقاً من صنع كريستيان ديور، وحول العنق قلادة صنعت بدقة لتبرز دور الشيطان في نفس المرأة.

تشيكوف الروسي الأحمر، تسبقه نظرات الغموض والشك والريبة وعدم الاستقرار.

صموئيل اليهودي الماكر بلباسه الرث وصوته الأخنف يشعر كل

من يراه بحقارة هذا النوع من الجنس البشري.

لورنس ممثل الاستعمار الجديد بلباسه الأنيق يفرك كلتا يديه في بهجة وانشراح.

الأبرص اللعين بعينيه الحادتين ينظر بهما في نهم إلى وجه كارلوس.

القزم سائق السيارة التي استقلها كارلوس من الحدود الفرنسية إلى سويسرا.

أما البقية فقد كانوا من أعوان كارلوس، تدل مظاهرهم الخارجية على الإجرام والقسوة واستعمال العنف في جميع الحالات.

الحديث يأخذ شكل المؤتمرات الرسمية بعد أن أخذ اليهودي على عاتقه رئاسة المؤتمر.

صوت تشيكوف يبدو من بعيد خافتاً ثم يعلو:

- قد يكون لكل واحد منا هدف من الأهداف، ولقد اجتمعت أهدافنا في هدف واحد، فنحن الماركسيين نشعر بخيبة أمل أمام الجهود التي تبذل لإعادة دور الإسلام والمسلمين في العالم، إننا نؤمن بأن الأديان هي أفيون الشعوب، ولكننا نخاف على ماركسيتنا من الدين الإسلامي بصورة خاصة.

وهنا يجيء صوت رئيس المؤتمر:

- إذن لهذا أنتم تشاركون في الخطة، لقد فجعتنا يا سيد تشيكوف وأصبحنا نخاف على ديننا اليهودي من ماركسيتك.

- لا عليك يا صديقي. فصنّاع الماركسية جلّهم يهود أنشؤوها لحمايتكم ووظفوها لخدمتكم.

وضحك الجميع، وانبرى السيد لورنس ليؤكد في كلمات متقطعة أن الاستعمار الجديد لا يوافق على الخطوات التي يتخذها رؤساء وأعضاء لجان الأوبك. وأن السبب في ارتفاع أسعار السلع الصناعية راجع لتشدد أعضاء الأوبك ورغبتهم في فرض الأسعار التي يريدونها لنفطهم، وتنهد في حسرة على الأيام التي مضت يوم كان العالم العربي غير قادر على السيطرة على صناعة الزيت في بلاده كما هو اليوم.

وارتفع صوت الطالب الخجول الوافد من حيفا متسائلاً:

- إذن فأنتم تبحثون عن مصالحكم وتنسون مصلحة وطني. ألم تعدوني بإقامة الدولة الفلسطينية على الأرض المحتلة؟

وارتفع صوت اليهودي مرة أخرى قائلاً:

- وعدناك كما وعدنا بلفور بالأمس بإقامة الوطن اليهودي في بلادك، وعليكم أنتم، الفلسطينيين، أن تمضوا في طريقكم كما مضينا ولكن، إنك اليوم بين أنيابنا، فإن شئت تراجعت ومصيرك لا بدّ عرفته من الآنسة دينس، إننا نقتل جميع من يقف أمامنا.

وهنا ارتفع صوت كارلوس يضرب المنضدة بكلتا يديه ويقول:

- لا، أنا وجماعتي يا سيد صموئيل، نحن الذين نقتل عندما نريد وحسبما نريد وكيفما نريد.

وردّ السيد صموئيل في تخاذل:

- أنا لم أقصدك يا عزيزي كارلوس بهذا الكلام، ولكني وجّهته لهذا الغرّ الذي لم يعرف ولن يعرف بأننا نضرب بمطالبكم وبيانكم الذي ستقدمونه للدول العربية عصفورين بحجر.

الأول إظهار الحركة الفلسطينية الشريفة كحركة فاشية مدمّرة تسعى لاستخدام القتلة والمجرمين ـ وعفواً سيد كارلوس هذه المرة ـ لأغراضها.

الثاني ضرب الحركة الإسلامية التي يرتفع اليوم صوتها عالياً بعد أن تبنتها أكبر دولة مصدرة للبترول. إن هذا الصوت الذي يرتفع اليوم سيجمع بلا شك بين الدول الإسلامية جميعاً، وفي مقدمتها إيران الغنية بالبترول أيضاً. ويوم يصل المسلمون إلى أهدافهم فقل على الصهيونية والماركسية والاستعمار الجديد السلام.

لقد استطاع هذا الصوت أن يحرم إسرائيل من أصوات كثيرة من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم كانت تصوت إلى جانبها في هيئة الأمم، وأخيراً اتهمت الصهيونية بأنها دعوة عنصرية.

وبدأ صوت السيد صموئيل يتهدج وهو يلقي بهذه الكلمات في انفعال،

وهنا ضحك كارلوس وقال:

- كل هذا لا يهم.

واستدار السيد تشيكوف وقال:

- إذن ما هو المهم؟

- المهم هو أن نعرف كيف نبدأ العملية.

ولمعت عينا اليهودي وهو يقول:

- لا عليك يا سيد كارلوس، لقد أعددنا كل شيء وفق تعليماتك، وبقي عليك وعلى هذه المجموعة التنفيذ، وليكن ذلك من الغد، فأنتم بلا شك تعرفون الطريق الذي سيؤدي إلى فينا، وموعدنا بيت كوهين في مدينة بادن النمساوية. أما الليلة فلقد أعددت لكم أجمل نساء صهيون للترفيه عنكم، وستقود الجميع الآنسة دينس فهي أعرف بمكان الطابق الأرضي في هذه العمارة. لقد أعددنا هذا الطابق الأرضي ليستقبل أجمل قاتل عرفته أوروبا.

وليتفرق الجميع كلّ إلى فندقه وموعدنا الساعة الثانية عشرة من مساء هذه الليلة لنستمتع جميعاً بنخب النصر الذي سنحققه.

أما أنت يا صديقي كارلوس فستظل هنا حبيس دينس، لقد شعرت بالمكانة التي تحتلها هذه الصديقة في قلبك.

وتفرّق الجميع، وبقي كارلوس ودينس واليهودي الأبرص يتدارسون الموقف في هدوء.

وبعد فترة من الوقت أمضاها الجميع في الدراسة والتخطيط خرج كل من اليهودي الأبرص، وبقيت دينس تتلقى مداعبات كارلوس في هدوء وترقب.

وأخذ الحديث يجري في جو آخر، غير الجو السابق، ومضى كارلوس يسأل:

- تعلمين يا عزيزتي أن الخطر دائماً مهنة الرجال، أما أن تشارك المرأة وأية امرأة في هذه المهنة فهذا الذي لا أدريه.

وابتسم، وأجابته دينس:

- لا أدري، ربما كانت نوازع الشر في نفسي أكبر من الخير، ولربما كان

السبب شيئاً آخر.

لقد أدّى زواج أبي بوالدتي دون رغبة أسرتها في لجوئي إلى الهروب من البيت في فترة مبكرة من العمر، لا سيما بعد أن شاهدت أبي أكثر من مرة وهو يضرب أمي كثيراً بسبب وبدون سبب، وكانت أمي على درجة عالية من الجمال تجعل الرجال يغازلونها دائماً أمام أبي. وكثيراً ما فكرت في نفس السؤال الذي تسألني إياه اليوم فلا أجد جواباً سوى ما ذكرت، فأنا امرأة أعشق القوة في كل شيء، وأكره الضعف في كل شيء، قد أكون مخطئة بانضمامي لمثل هذه الزمرة، لكن ما يغدقونه عليّ من مال يعينني على العيش بالطريقة التي أحبها، وأنا في دمي أحب الأخطار.

- إذن أنت مثلي فنحن صنوان.

ولفّهما الظلام بثوبه هو إلى سريره وهي إلى حمام الغرفة تزيل فيه آثار الماكياج عن وجهها الذي تلون على الفور بأشكال مخيفة لم يلحظها ساعتها السيد كارلوس، وخرجت دينس من الحمام وعلى شفتيها ابتسامة غامضة ومثيرة.

الفصل السادس

الأصدقاء يتوافدون على بيت السيد كوهين في مدينة بادن، وعلى مقربة من المدينة الصغيرة تطل فينا عاصمة جمهورية النمسا التي تربض على ربوة عالية، تحيط بها المناطق الزراعية من كل جانب.

وفينا العاصمة التي يبلغ عدد أحيائها السكنية أكثر من ثلاثة وعشرين حياً، تضم إلى جنباتها قصر هوبورخ، حيث يقع مكتب المستشار في ميدان بالهاوس بلانش، وإلى جانب القصر بعض المتاحف والبرلمان وجامعة فينا والأوبرا. ويخترق مدينة فينا كل من شوارع لاندستراس ومارجارتين وماريا هيلت.

هكذا قال السيد كارلوس وهو يتأبط ذراع صديقته دينس إلى الصالة الكبرى من البيت الضخم الذي يعيش فيه السيد كوهين.

- لقد جئت كثيراً إلى فينا وعرفت جميع مداخلها ومخارجها، وأصبح من اليسير عليّ أن أمضي مغمض العينين إلى أي مكان في هذه المدينة الجميلة.

لشدّ ما تأثرت بموسيقى بتهوفن وباخ وموتزارت وأنا أسمعها هنا، إنها لون جديد غير ما نسمعه من هذه الموسيقى في أي مكان آخر من العالم.

توافد الأصدقاء عن طريق الحدود المشتركة التي تربط بين النمسا وألمانيا، كل واحد منهم جاء من طريق. أحدهم عن طريق المنطقة الشمالية الغربية، وبعضهم عن طريق المنطقة الجنوبية، وأكثرهم استعمل الطائرات في طريقه إلى مطار فينا مستخدماً أكثر من

مدينة في طريقه إلى الاجتماع.

صالة الاستقبال الكبرى تضم بين جنباتها أخطر مجموعة إجرامية عرفتها أوروبا، سيسافر القوم بعضهم مع البعض الآخر، وفي ركن الصالة وقفت فتاة دقيقة تفاصيل الجسم يميل لون بشرتها إلى السمرة، تدل ملامحها على أنها جاءت لتوها من جنوب شرق آسيا. ويلتفت كارلوس إليها ثم يسأل:

- من أنت؟

وتهزّ رأسها كمن لم تفهم ما يسأل.

كرّر السؤال وبعدة لغات، وعندما ينفرج الباب ويدلف إلى المكان الأبرص اللعين بابتسامته الصفراء ماداً يده إلى السيد كارلوس مرحباً ثم يقول:

- لا عليك يا صديقي، إنها واحدة من حريمي الذين أجمعهم من كافة أقطار العالم. قد تكون أنت من يعرف كيف يقتل، أما أنا فأعرف كيف اصطاد. المرأة يا صديقي في مهنتنا مفتاح كبير إذا عرفت كيف تجيد اقتناءها، ومهنتنا يا صديقي في حاجة لمثيلاتها. لو قدّر لك أن تجوب خلال هذا البيت لوجدت العديد من مثيلاتها، كل واحدة في مكانها المناسب، تعال لأقدمك لها.

وتحدّث السيد سيمون بلغة فيتنامية إلى الفتاة المشدوهة، فانبسطت أساريرها ومدت يدها الدقيقة لتلتقي بيد أكبر قاتل عرفته أوروبا في قرنها الحالي، ثم ابتسمت وهزت رأسها دليلاً على إعجابها بالشخصية التي أمامها، وعاد السيد سيمون إلى سابق حديثه:

- والآن يا سيد كارلوس، هل لك أن تعطيني فترة من وقتك بعيداً عن الآنسة دينس - وأشار إليها ضاحكاً - إنني في حاجة إليك لأريك مستودعي الذي جلبته من أقاصي الدنيا، فأنا كما تعرف أولا تعرف تاجر سلاح وتاجر مخدرات وتاجر نساء وتاجر هجرة، كثيرات من فتيات اليهود في روسيا كان لي شرف انتشالهن من وهدة الحياة التي يعشنها لأبعث بهن إلى إسرائيل، ولكن، وصمت قليلاً:

- ولكن قبل أن أبعث بهن إلى إسرائيل أحاول أن استثمرهن، فتجارتي رابحة ورزقي وفير، لا تصدق من يقول لك بأنني ولدت من أم عاهرة في

مواخير سايجون، فأمي أوروبية اختارت مهنتها عن رضى، أما أبي رحمه الله لا أدري من هو، وأنا اليوم أغطي هذه الكلمة التي يقولها الناس عن أمي بنقودي، ليكتب أكبر خطاط في الدنيا هذه الكلمة على الأرض بالنيون، بأي شيء آخر، وسأضع بعض نقودي على ما كتب، لا يهم، إنني أكبر منهم جميعاً.

- لا عليك يا صديقي تعال، فلقد أثرت شهيتي إلى الحديث، لقد تعلمت فنون السحر والشعوذة ودرست الكثير من الكتب السوداء في أزقة نيودلهي، وتتلمذت على عدد من الكهنة الراهبين، وفهمت أسرار التنويم، كثيرون الذين يخافون أن تلتقي عيناي بأعينهم، أما أنت فعنيد صلب، عرفت ذلك عنك من أول لقاء.

- تعال يا صديقي لأريك كنوز الدنيا البشرية ولا تضع وقتك مع الآنسة دينس فلديّ أجمل منها بكثير.

ومدّ يده إلى حيث يقف كارلوس، والتقت اليدان في طريق واحد ومضيا يجوسان غرف البيت ودهاليزه. وعند غرفة صغيرة طرق السيد سيمون الباب ليستمع إلى صوت سيدة تأمر بالدخول.

ودخلا إلى الغرفة لتواجههما أجمل فتاة في مجموعة السيد سيمون، لكن الفتاة لم تضع وقتها في الاهتمام بالقادمين، وإنما ظلت على سريرها بغلالتها الرقيقة دون حراك.

- عزيزتي فرنشيسكا، هذا هو ضيفنا الكبير تعالي وقبليه.

والتفتت الصبية إلى السيد كارلوس وأخذت تنظر إليه نظرات فاحصة، وبعد أن تمطّت قليلاً لبست خفّها الأحمر في رجلها الدقيقة ومضت إلى السيد كارلوس مرحّبة.

كان عمرها يتجاوز العشرين بقليل، بشرتها بيضاء مشربة بحمرة خفيفة وعيناها الواسعتان تطل منهما حكايا وحكايا. صنع جسمها بعناية مفرطة، وتولت أيدي صالونات التجميل إعدادها لهذه المفاجأة أما شعرها فقد كان يميل قليلاً إلى الاحمرار، وشفتاها رغم بروزهما القليل إلا أنهما صنعتا هكذا لتثيرا الاشتهاء عند جميع الناس.

- هذه واسطة العقد يا صديقي كارلوس، انتقيتها من مدينة موسكو قبل ثلاثة أعوام. ربما لو قدر لك أن تراها يوم انتشلتها من حياتها البائسة لما قدرت أن تكون هذه الصبية على هذا المقدار من الجمال، لكن عيني خبيرة كما قلت في المرأة والسلاح. ستكون من نصيبك الليلة إذا أردت.

والتفتت المرأة إلى السيد سيمون وقالت في دلال:

- وإذا أردت أنا يا عزيزي سيمون.

- لا عليك يا عزيزي كارلوس، الإرادة لك ولي أما هي - وضحك - فلن تخرج عن طوع إرادتينا، أليس كذلك يا عزيزتي فرنشيسكا؟

- نعم. قالتها الفتاة في خضوع.

وأدار سيمون ظهره للفتاة متشاغلاً عن نظرات السيد كارلوس التي كان يجوس بها جسد الصبية الشابة، وبعد قليل قال سيمون:

- لنذهب يا عزيزي، لقد أضعت وقتك بلقاء فرنشيسكا، ولا أريد أن أضيع وقتك برؤية السلاح.

ولمعت عينا كارلوس وهو يسمع كلمة السلاح، وقال شاهقاً:

- السلاح!؟

- نعم.

وسارا في الطريق إلى المصعد الذي هبط بهما إلى مكان ما في باطن البيت دون أن ينبسا ببنت شفة، ودون أن يودّعا الصغيرة فرنشيسكا.

وعلى باب المخزن استخدم السيد سيمون وسائله الخاصة لينفرج الباب عن أكوام كثيرة من مختلف أنواع السلاح، صفت هنا وهناك في ترتيب عجيب يدل على خبرة من رتبها. وأخذ السيد كارلوس يتفحص أنواع السلاح بخبرة مذهلة ويناقش السيد سيمون في طريقة استعمال كل نوع، وبعد أن انتهيا من كل ذلك قال السيد سيمون لكارلوس:

- كلّه لك فلدي منه الكثير، خذ منه يا صديقي ما تريد فلقد قبضت ثمنه من أصدقائي وأصدقائك الأغنياء، فأنا لا يهمني في هذه الدنيا سوى شيء واحد، المال والمال ولا شيء غيره.

أو تدري أننا بالمال نستطيع شراء جميع الأشياء، أنت مثلاً يا صديقي كارلوس تقتل من أجل ماذا؟ أليس من أجل المال؟ وتشقى في هذه الدنيا من أجل ماذا؟ أليس من أجل المال؟ وتمضي في لعبتك الجديدة عن هدف أو غاية أم من أجل المال؟ المال يا صديقي هو الذي يسيرنا جميعاً كل إلى هدفه.

لطالما أحببته من كل قلبي، فلولاه لبقيت أمي عاهرة كما أرادت في أزقة سايجون ـ أما اليوم وبعد أن ملكت من المال ما أردت تراها اليوم متوارية في أجمل مدافن إيطاليا، لقد اشتريت لها المدفن وكلفت أفضل معماري إيطاليا ليشيدوه لها، فجاء آية في الفن والإتقان.

أو ما تعرف يا صديقي كارلوس، لقد علمتني الحياة بأن أتعرف على جميع دهاليز وطرقات المدن أولاً وقبل كل شيء، وبهذه الطريقة استطعت أن أكون أفضل تاجر سلاح يتعامل معه المغامرون.

الفصل السابع

اختار السيد كارلوس أن يمضي الليلة مع الآنسة فرنشيسكا بعيداً عن صديقته الآنسة دينس، وكأي رجل بدأ يدخل في حديث طويل مع صديقته المخدوعة، مبيناً وجهة نظره تجاه هذا الإجراء الذي اعتبرته الآنسة دينس تحولاً خطيراً في علاقتيهما، ومع هذا وبإحساس الأنثى التي طعنت كرامتها وجرح كبرياؤها مضت إلى غرفتها تاركة السيد كارلوس يهيىء نفسه لتمضية السهرة مع الرفيقة الجديدة. وفي هذه اللحظة، وفد على الغرفة صديقه الإرهابي الألماني الذي اصطفاه *أخيراً من بين عشرات الإرهابيين في مدينة فرانكفورت.*

لقد اختار الوافد الجديد في طريقه إلى فينا خطوط السكك الحديدية، وأمضى أكثر من ست وثلاثين ساعة ينتقل من هذا الخط الحديدي إلى غيره تعمية لرجال البوليس الألماني الذين كانوا يتبعون خطواته منذ أول لحظة خرج فيها من مدينة ماينز في طريقه إلى فرانكفورت. ولقد استخدم السيد كارل ريختر جميع صنوف المواصلات في رحلته العجيبة إلى فرانكفورت هذه المرة.

والسيد كارل ريختر شاب في الثامنة والعشرين من العمر، طويل القامة تدل ملامح وجهه على أنه عاش فترة من حياته حياة سهلة، يتحدث الانجليزية في لكنة ألمانية يجيد انتقاء الألفاظ وتغليفها، يستخدم يده اليسرى كثيراً في حديثه، تحنو على وجهه ندبة قديمة من أثر جرح بالغ، امتدت خصلات شعره لتغطي كتفيه المشدودتين، صاحب نظرات حالمة.

ولطالما تشوق السيد كارل ريختر للعمل مع السيد كارلوس،

كان يعرفه عن بعد، ويوم اجتمع معه في فندق من فنادق الدرجة الثانية في مدينة فرانكفورت أخذ بطريقة السيد كارلوس في الحديث، وأعجبته شخصيته، فسلم زمام أمره لهذا الرجل الغريب.

عانق السيد كارلوس السيد كارل ريختر وأجلسه إلى جانبه، وأخذ يستمع إلى تفاصيل رحلته الدقيقة منذ تلك الساعة التي تركه فيها في فرانكفورت حتى وصوله دار السيد كوهين.

ينفرج الباب، تبدو من ورائه الآنسة فرنشيسكا تتبختر بأحلى زينتها قائلة:

- هالو كارلوس.

- تعالي يا عزيزتي لأقدم لك صديق الرحلة السيد كارل ريختر.

ومدّ السيد كارل ريختر يده مرحّباً بالآنسة، وأخذ يتفحص وجه المرأة في حنان بالغ. لم يقطعه سوى حديث السيد كارلوس عندما طلب من الجميع الجلوس حول البار.

أخذت الساقية النمساوية تصبّ الكؤوس الثلاثة في أناقة بالغة. ومضى السيد كارلوس في حديث طويل متناسياً الدمية الجميلة التي تقبع على كرسيها بجانبه. وعندما أحست فرنشيسكا بعدم الاهتمام بها حاولت أن تلفت نظر السيد كارلوس بالسؤال عن الآنسة دينس فأجابها كارلوس بأنها قد مضت إلى غرفتها لأنه سيقضي الليلة بصحبتها. وانفرجت أسارير الآنسة فرنشيسكا وقالت:

- إذن لقد جاء في الليلة التي اخترتني فيها.

وصمتت.. فضحك كارلوس وقال:

- نعم. لقد اخترتك بعد طول تفكير وإمعان وروية، لكنني مشغول الآن، سأذهب في نزهة قصيرة مع صديقي هذا وسأعود بعد ثلاث ساعات، ألقاك فيها على خير ما يرام.

- ولماذا لا أصحبكما؟

وفكر السيد كارلوس قليلاً ثم قال:

- لا بأس، ستصحبيننا في هذه الرحلة.

- لكن..

- لكن ماذا؟

- لا سؤال يوجه إليّ أثناء سيرنا في الطريق.

- اتفقنا.

ودق السيد كارلوس الجرس طالباً من الخادم إشعار السائق القزم بتحضير السيارة الكاديلاك السوداء ذات الأرقام العادية.

جاء السائق القزم مسرعاً بعد دقائق، يعلن تهيئته للسيارة، فدلف الجميع إلى الشارع في طريقهم إلى فينا في رحلة استكشافية.

كانت أضواء الليل تحيط المدينة، ونتف الثلج الصغيرة تتساقط على الأرض لتحيل سمرتها القاتمة إلى بياض، وكانت الثلوج تكسو أسطح المنازل، تضيف إلى وجه المدينة صورة فريدة خطها رسام ماهر. وكارلوس بجانب السائق يتطلع إلى الطريق في جدية.

وأخذت السيارة تنهب الطريق في وسط مدينة فينا، وكانت أمام السائق خريطة سلمها إياه السيد كارلوس يسير بموجبها.

وفي وسط شارع مارجاريتين طلب السيد كارلوس من السائق أن يقف بجانب كابين التليفون، وبعد أن ترجل السيد كارلوس إلى ذلك الكابين، فتح بابه في هدوء، وفي ركن صغير من أركان الكابين التقط السيد كارلوس ورقة صغيرة، ثم وضعها في جيبه عائداً إلى السيارة.

أمضى السيد كارلوس وصديقه والآنسة فرنشيسكا أكثر من ثلاث ساعات، زاروا فيها الكثير من الأمكنة، وتعرفوا على مداخل الشوارع، وأحاطوا بكافة الطرق، ثم دلف الجميع عائدين إلى بيت السيد كوهين، الذي كان بانتظارهم على ما يبدو وراء أحد النوافذ. وعندما شعر بوصولهم خرج إلى الباب الرئيسي ليفتح لهم إياه بنفسه هذه المرة.

وبعد أن اطمأن السيد كارلوس إلى إقامة صديقه في أحد غرف المنزل، أخذ بيد صديقته الجديدة إلى غرفتها الأنيقة في صمت ودعة وهدوء.

الفصل الثامن

أمضى السيد توني ثلاث ساعات من يوم الجمعة ١٩ ديسمبر ٧٥م يسير في شارع ونج ستراس، يذرعه جيئة وذهاباً، وكان في كل مرة يقف أمام المبنى الذي تقطنه منظمة الأوبك، والذي يرتفع عن الأرض بسبعة طوابق، تشغل المنظمة الطابق الثاني منه.

ولقد استعمل السيد توني في تجواله بدلة بنية اللون من أحدث طراز، وانتعل حذاء مطاطاً كسي بكمية لا بأس بها من الصوف.

والسيد توني رغم جنسيته اللبنانية فقد كانت سماته سمات شخص أوروبي يتحدث الفرنسية والانجليزية والروسية بطلاقة، يخلط كثيراً في حديثه بالعربية بمجموعة من الكلمات باللغتين الفرنسية والانجليزية، يبدو حاضر النكتة حاد الذكاء، يميل إلى المرح كثيراً.

لهذا كان طريقه إلى مدخل المبنى سريعاً ودون أية مفاجأة، رغم وجود الشرطي النمساوي الوحيد الذي كان يحرس مدخل المبنى.

وعندما وقف السيد توني أمام موظفة الاستقبال العجوز، كان يسأل عن الطريق إلى مكتب أحد موظفي المنظمة العرب، وأشارت عليه الموظفة بالتوجه فوراً إلى المكتب الخاص لمقابلة صديقه.

أخذ السيد توني طريقه إلى المكتب لا يلوي على شيء، وأخذ يتجول في الطابق وكان قد رسم في ذهنه خريطة.

كان حريصاً على أن يلمّ بأشياء كثيرة، فلم يضع وقته في الحديث مع من يشغل الغرفة، بل أخذ يتجول هنا وهناك، وعندما وصل إلى مكان عاملة التليفون في غرفتها الصغيرة طلب بكل أدب رقماً تحدث مع صاحبه فترة من الوقت ثم مضى يدردش مع الآنسة

فرانسواز التي كانت جالسة مع زميلتها في الغرفة.

عرف منها أنها هي الأخرى تعمل في نفس المهنة في فندق كبير، وفهم أيضاً أنها في إجازة وأنها صديقة حميمة لعاملة التليفون هذه، وأنها تعرف أيضاً كافة موظفي المنظمة، فطلب منها بأدب أن يتغديا معاً في أي مكان تختاره.

وقبلت الآنسة فرانسواز الدعوى بسرور ظاهر، وأخذت طريقها معه بعد أن ودعت صديقتها ولسان حالها يؤكد أنها قد حصلت على صيد سمين. وخرج الاثنان بعد أن حيا موظفة الاستعلامات.

وفي الطريق إلى الشارع استقل السيد توني السيارة التي أقلته للمدينة. وفي السيارة عرف السيد توني الكثير من عادات العاملين في مبنى الأوبك وجنسياتهم، وأوقات دخولهم وخروجهم، وكان حريصاً على أن يبدو كطالب شرقي يحضر رسالة للدكتوراه عن هذه المنظمة.

وبعد أن تناول السيد توني طعام الغداء مع ضيفته الآنسة فرانسواز في أحد مطاعم المدينة الهادئة، ودع السيد توني ضيفته على أمل لقاء جديد.

وعندها استقل السيد توني السيارة مرة أخرى، وطلب من السائق أن يوصله إلى مطار فينا، واستغرقت الرحلة أكثر من ثلاثين دقيقة. كان الرجل خلالها يفكر كثيراً ويرسم في أوراق دقيقة معالم الطريق وكأنه يريد أن يحفظها عن ظهر قلب.

بعد هذه الرحلة عاد السيد توني إلى بيت السيد كوهين في مدينة بادن والتي تبعد حوالي ٢٥ كيلو متراً في اتجاه الجنوب مخترقاً مقاطعة شتاير مارك وفي بيت السيد كوهين بمدينة بادن تم اجتماع بينه وبين السيد كارلوس، تحدثا خلاله بالروسية التي يجيدها كلا الاثنين، فقد كانا ممن درسا في جامعة لومومبا في موسكو.

وفي نهاية الحديث، تسلم السيد توني كمية كبيرة من النقود، أعطاها إياه السيد كارلوس وهو يداعبه بأن يحتفظ بها ولا يصرفها في القمار كعادته.

عاش السيد توني فترة من الوقت متنقلاً بين كازينو لبنان في المعاملتين على مقربة من بيروت وبين نادي البلاي بوي في لندن، صرف خلالها جميع ما

ادخره له والده من نقود بعد عودته من رحلته الدراسية في موسكو.

وكان من أولئك الذين يكرهون العمل، يؤمن دائماً بأن الحياة قصيرة لا تستحق أن يشقى الإنسان فيها بيديه.

أحب في موسكو فتاة روسية، اقترن بها بعض الوقت ثم تركها وابنه الصغير عند عودته إلى بيروت، على أمل أن تلحق به بلا أمل.

ويوم انتهى رصيده من النقود، سوّل له شيطان نفسه أن يكون عميلاً لنوادي القمار، فعاش فترة من الوقت يلتقط بعض الأثرياء من العرب أثناء زيارتهم للندن، ليرافقهم في سهراتهم ويعيش عالة على ما يجودون به عليه، وإذا سنحت له الفرصة انكب على الاستفادة منهم بأية طريقة.

وكانت صديقته الجديدة ليليان، الفتاة الانجليزية، ذات التسعة عشر ربيعاً هي الطعم الذي يقدمه لهؤلاء الأثرياء.

وكانت بعض الصحف تكتب عن أخباره بين الحين والحين، عندما يرتبط بواحدة منهن. وكانت تلك الأخبار مدفوعة الأجر من قبله، على اعتبار أنها وسيلته لالتقاط الأصدقاء والعيش على موائدهم.

وفي ساعة ضعف التقطه أحد رجال المخابرات لدولة ما، ليجنده ضمن مجموعته. وعن هذا الطريق تعرف السيد توني على أصدقائه الجدد، ووضع نفسه تحت تصرفهم، لا سيما بعد أن شاهد الحياة التي يعيشونها والأموال التي تغدق عليه.

الفصل التاسع

الشياطين الحمر في أبهى زينتهم، يجوبون غرف دار السيد كوهين في طريقهم إلى الصالة الرئيسية، وأضواء الثريات الكهربائية الملونة تضفي على المكان روحاً شاعرية، ينتقل رواده من مكان يتآمرون فيه إلى مكان يبحث جميع سكانه عن المتعة. والسيد سيمون جرى هنا وهناك، ومن ورائه جريمة من مختلف الجنسيات.

فرنشيسكا في مقدمة الحاضرين بفستانها الأخضر الرائع وتسريحتها تجر من ورائها ذيلاً قصيراً يكشف ويغطي الساقين، وقد بدت مساحة كبيرة من ظهرها العاري تضيء هي الأخرى بانعكاس الأضواء عليه.

والفتاة الفيتنامية الجميلة كقطة وديعة، تنتقل بين الضيوف تسامر هذا وذاك بعينيها الجميلتين وفي صمت رائع.

ودينس بجانب السيد كارلوس، في سترة وبنطال ضيق من البلوجنز وكأنها بارتدائها هذا النوع من اللباس تعلن مقدماً على أنها المفضلة وأنها هي التي ستشارك في اللعبة الخطرة.

وسيمون في أحلى حالاته، يهدي الرجال مسدسات صغيرة كلعب الأطفال، يستطيع أن يخفيها صاحبها في أصغر جيب من جيوب سترته.

أما السيد تشيكوف، فقد اختار ركناً قصياً من الصالة، مفضلاً تواجده في المكان مع زجاجة الفودكا الكبيرة، وحوله كان السيد صموئيل يمضي في الحديث مع السيد لورنس بجدية، ويفرك كلتا يديه انفعالاً وسروراً، فقد حان وقت قطف النتاج.

الساعة تدق معلنة العاشرة، عندما ارتفع الستار عن فرقة نسائية كاملة أخذت تعزف لحناً غربياً، وبعد انتهاء اللحن توجهت الآنسة فرنشيسكا إلى ركن القاعة لتستلم المايكروفون، ثم تتلفت يمنة ويسرة وتشير في هدوء إلى الفرقة لتعزف اللحن الذي اتفقت معها عليه.

أنصت الجميع إلى صوت المغنية الحاني، وكأنه يوشوش المايكروفون في همسات ناعمة. وأخذت كلمات الأغنية تصافح آذان الموجودين، وخرجت الكلمات رقيقة ناعمة وهي تقول:

- " تعال لأقبّلك فلم أعد أجد في هذه الدنيا سواك من يستحق صحبتي.

سنوات عمري التي أمضيتها قبل أن أراك

قصيرة مملة تافهة.

أرفض أن أعود إليها بذاكرتي

لأنها تذكرني بأيام ضاعت مني

تعال"

ويعلو الصوت ثم يتهدج:

" تعال إلي، تعال من أجلي

أنا من ضيعت العمر هباء من أجلك

أضعته ساعة عرفتك

تعال وقبلني فالناس نيام

وأنا وأنت نرمق الأفق

السماء تبدو حزينة اليوم فلا تدعها تبكي

إنها إن تبك فهي تبكي من أجلي وأجلك"

ويقسو الصوت وتحتدّ نبراته، وتعلو أوتاره، ويبدو وجه الآنسة فرنشيسكا خليطاً عجيباً من القسوة والضراعة.

" تعال لأقبلك

فلم يعد لي صبر

هزمتني الأيام ونسيتني الليالي
أما أنت فلم تهزمني
ويوم تنساني
سأقتلك، تعال تعال
تعال لأقبلك»

وانتهت الأغنية، وصفق الحاضرون ملياً.

وأقبلت فرنشيسكا إلى المكان الذي كان يقف فيه كارلوس يتحدث إلى دينس، ومدت يدها لتلتقط يد كارلوس في قوة وتقول:

- تعال إلى حلبة الرقص.

وانساق السيد كارلوس راضياً بعد أن ودع صديقته دينس بنظرة حانية.

وأخذت الموسيقى تصدح بلحن روسي يجمع بين الفالس السريع الخطوات والعادي. ومضت فرنشيسكا وبين يديها السيد كارلوس كفراشة تنهب الحلبة في خطوات راقصة تدل على باع طويلة ومعرفة تامة في أنواع الرقص وضروبه.

تركت فرنشيسكا لعينيها ووجهها وعطر جسدها أن يتحدث إلى السيد كارلوس ولزمت الصمت راضية، فقد كانت تشعر بعيني الآنسة دينس كسياط تسقط على ظهرها العاري فتلهبه.

وقبل أن تنتهي الرقصة قالت فرنشيسكا همساً في أذن السيد كارلوس:

- تعال الليلة، فأنت لي.

ولم تنتظر الإجابة، بل أخذت بيد صديقها ومضت حيث تقف الآنسة دينس وقالت:

- ها هو قد عاد إليك، وبعد منتصف الليل سيعود لي.

ومضت في طريقها إلى خارج القاعة لا تلوي على شيء.

دام الصمت فترة من الزمن بين السيد كارلوس والآنسة فرنشيسكا، ثم انفجر الموقف عندما قالت الآنسة دينس كلمتها التي اعترض عليها السيد كارلوس:

- ماذا تقول هذه الحمقى.

- لا شيء. ألم تستمعي إلى أغنيتها التي أنشدتها، كل كلمة فيها فصلت من أجل هذا الموقف.

لقد قالت هذه الروسية اليهودية ما تريد أن تقوله فلا تجعليها تفسد علينا بهجتنا.

وصمت، فقالت دينس:

- إذن لقد اخترتها هذه الليلة.

- واخترتك أنت لتكوني شريكتي في الليل وفي النهار.

وصمت.

ولم تعلق الآنسة دينس بأية كلمة، وإنما مضت إلى البار لتطلب كأسين جديدتين واحدة لها والثانية لكارلوس، وعندما عادت أسلمت كارلوس الكأس ومضت تمتص حبيبات الثلج في شراهة، وكأنها تعلن رفضها لكلمات السيد كارلوس بأسلوب جديد.

وامتنع السيد كارلوس عن الحديث فترة من الوقت، وعندما حان موعد الاجتماع في الغرفة المجاورة هو وشياطينه الحمر، أمسك بيد دينس وقبلها ومضى بها إلى الغرفة في خطوات واثقة، ليستمع إلى تقارير الجواسيس والعملاء وغيرهم. وبعد الانتهاء من تلاوة التقارير خرج بعض الحاضرين، وبقي كارلوس ورفاقه سيمون، صموئيل، لورنس، تشيكوف الروسي العجوز والآنسة دينس، فقد كان دورها في العملية واحداً من الأدوار الرئيسية.

والتمعت عينا الفتاة وهي تنظر إلى كارلوس في امتنان وقالت بينها وبين نفسها:

- نعم. هو لها هذه الليلة، أما من الغد فهو لي، ولي وحدي في الليل وفي النهار.

الفصل العاشر

حانت ساعة الصفر، والتأم جمع القوم في الطابق الأول من بيت السيد كوهين وقد تمنطق كل من الشياطين الحمر بكمية من الرصاص، واختار كل واحد منهم مجموعة من الأسلحة والقنابل والرشاشات بعناية، ثم دلف الجميع إلى السيارة التي أخذت تسير بهم إلى داخل فينا، وكان كل واحد من المجموعة يستذكر واجبه بينه وبين نفسه، وساد الصمت جو السيارة وهي تنهب الطريق بحركتها الدائبة.

أخذت الشمس تظهر في السماء فترة من الوقت وقد شاب لونها الشحوب، فاعتبرها بعضهم فأل خير في الوقت الذي كانت فيه الشمس تشهد غاضبة على ما ستقترفه أيديهم من آثام.

اليوم يوم أحد، والشوارع تكاد تخلو من السيارات، فقد أخلد أكثرالناس إلى النوم بعد تمضيتهم لسهرة يوم السبت.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة من يوم ٢١ ديسمبر ١٩٧٥، عندما ترجلت مجموعة المسلحين عند مدخل البناية التي تقطنها منظمة الأوبك.

مجموعة غير كبيرة من الصحفيين كانت تقف في مدخل الطابق الأول، تنتظر نهاية الاجتماع العادي الذي تعقده المنظمة.

دينس في المقدمة ومن ورائها السيد كارلوس وجماعته.

كارلوس يتحدث إلى الصحفيين في تودد، يسأل عن موعد انتهاء الجلسة ولا ينتظر الجواب، وإنما يندفع الجميع إلى المصعد ليكونوا في لحظات أمام الطابق الثاني.

في المصعد أعدّ كل واحد سلاحه وذخيرته، وانطلقوا جميعاً مخترقين الطابق الذي كان يحرسه اثنان من رجال البوليس النمساوي.

عاجلت الآنسة دينس أول رجل بوليس وأطلقت عليه رشاشها عندما كان زميله يضرب السيد كارل ريختر بمسدسه، فعاجله السيد كارلوس بزخّة خفيفة من رشاشه، ففارق الاثنان الحياة.

وبدأ الضرب في العمق كما يقولون، يأخذ شكلاً استعراضياً، وعندما أطل أحد الموظفين من أبناء العراق عاجلته رصاصات كل من الآنسة دينس والسيد كارلوس، أما أحد أعضاء الوفد الليبي، فقد شاء حظه العاثر أن يخرج لتوه من دورة المياه، لتعاجله إحدى الرصاصات الطائشة التي كانت تطلق هنا وهناك ليقضي نحبه في الحال.

وتفتح أبواب صالة الاجتماعات لتواجه وفود المنظمة العصابة مدججة بالسلاح.

تحدث السيد كارلوس في هدوء، وطلب من الجميع أن يرفعوا أيديهم استسلاماً لما يجري، فرفع الجميع أيديهم إلا واحداً حاول أن يتباطأ، فما كان من الآنسة دينس إلا أن أطلقت إحدى رصاصاتها بين رجليه للتخويف.

أقفلت الأبواب وسدت المنافذ، وقطعت أسلاك التليفون، وحجبت القاعة عن جميع الاتصالات بالعالم الخارجي.

جرح من جراء الرصاص الطائش ثلاثة، أحدهم عضو في الوفد الكويتي.

الوزراء واجمون، وأعضاء الوفود يتحدث كل واحد منهم إلى الآخر بعينيه والجميع يفكرون: ما الهدف من وراء هذه العملية. وعندها انطلق صوت السيد كارلوس، يطلب من اختارهم أن يكونوا جماعات فيما بينهم، فكان حظ الوفد السعودي أن يشارك الوفد الإيراني.

هرع رجال الأمن النمساوي إلى مكان الحادث ليطوقوا المبنى، وعندما علم السيد كارلوس بوصولهم أمر بحزم وزير البترول الجزائري بأن يقترب.

أعلن الوزير الجزائري مطالب الإرهابيين التي تتمثل في طلب خمسة وعشرين متراً من الحبال وسكاكين ومقصات لتوثيق أكتاف رهائنهم، وأوتوبيساً

لنقلهم إلى مطار فينا، وطائرة (د س ٩) وإذاعة بيانهم المكتوب باللغة الفرنسية، وألا يتجاوز رجال الأمن ساحة المبنى.

رافق رجال الأمن النمساوي في تطويق المبنى عدد من السفراء العرب.

وتوجه أحد أعضاء السفارة العراقية إلى مكان المحتجزين للمفاوضة، بموافقة رجال العصابة.

وبعد مفاوضات طويلة، وافق السيد كارلوس على نقل الجرحى والقتلى إلى خارج المبنى، وعندما أحسّ بأن رفيقه الألماني واحداً منهم عاد وطالب بإعادته حياً أو ميتاً ليشاركهم رحلة الفزع إلى المكان الذي يريدونه.

والتفت السيد كارلوس إلى الوزير الفنزويلي وتحدث إليه بلغته في تهكم عجيب وشكل عدواني ومضى يقول:

- لو لم تكن أنت اليوم رئيساً لوفد بلادي لهذا الاجتماع لكنت أنا، لكنها مهازل الحياة تبعد الصالح ليحل بدلاً منه أمثالك.

وتلون وجه الوزير الفنزويلي وهو يسمع مثل هذا الكلام، لكن الموقف لم يعطه الفرصة لأن يقول شيئاً، وعاود كارلوس الحديث وهو يرى انفعالات الوزير قائلاً:

- لا عليك، لقد اخترتك اليوم لمهمة أخرى، فوالدتي في حاجة إلى التعرف على أحوالي، وها هو كتابي إليها، آمل أن تلقي به في البريد وأنت في طريقك إلى بلادك عندما أعفو عنك.

ثم مضى يحادث كل وفد على حدة، بعد أن فرق بين أغلبية الوفود.

هذا وفد الأصدقاء، وهذه وفود المحايدين، وهذان الوفدان من الأعداء، وأشار إلى الوفد السعودي والوفد الإيراني.

الوزير السعودي بوجهه الأسمر، وقامته المديدة، ولحيته المدببة، يتمتم بآيات من القرآن، تنم قسمات وجهه عن إحساس غريب من الطمأنينة رغم بشاعة الموقف، كان من أولئك المؤمنين الذين يعرفون أن نهاية الحياة ليست ملكاً لبشر، وإنما هي أمر من الله قرره وخطّه فلا مفر من قضائه إذا أراد.

أما الوزير الإيراني فقد بدت عليه معالم الغضب لهذا الاتهام الغريب من

نوعه، واستسلم صامداً لقضاء الله وقدره.

وأخذت الساعات تمضي، كل واحد من المحتجزين لا يملك التحدث مع رفاقه في هذا الجو المشحون بالقلق والخوف والانفعال.

الشياطين الحمر هنا وهناك كل واحد منهم وقف حيث تم الاتفاق بينهم سابقاً على مكان وقوفه ويده على زناد البندقية، ووجوههم الصارمة تنبىء بالخطر المحدق بالمحتجزين، يسيرون بلا مبالاة وفي قسوة، يتفحصون الوجوه الكثيرة بلا عناية، وكأنهم قد جربوا أمثال هذه المواقف.

الاتصالات مع رئيس المجموعة والسلطات النمساوية مستمرة.

أخذ أحد أعضاء المجموعة يدير مؤشر الراديو ليستمع إلى الأخبار من مختلف إذاعات العالم، التي أخذت تنقل تفاصيل الحادث نقلاً عن إذاعة فينا. العالم كله يترقب في انفعال ما سيسفر عنه الحادث.

أجهزة التلبرنتر واللاسلكي في جميع السفارات العربية والأجنبية تتلقف شتى الاستفسارات من وزارات الخارجية في العالم.

وكالات الأنباء تنقل على لسان القائم بأعمال السفارة العراقية بأن العملية مدبرة ضد إيران والمملكة العربية السعودية.

ويضحك كارلوس، ثم يتجه إلى الراديو لينقله في عصبية ثم يعود إلى فتحه مرة أخرى.

استنكار عالمي لحادث الاقتحام، حتى من أولئك الذين خطّطوا لاستثماره، وردود الفعل للحادث تظهر على الصحافة العالمية. أما الصحافة العربية فقد أفردت صفحاتها للحديث عن الموضوع واعتبرت الحادث مؤامرة دبرتها أيد غير عربية.

ما يزيد على خمسة وستين شخصاً من أعضاء منظمة الأوبك يجلسون على كراسيهم جلسات غير مريحة، وأيدي الإرهابيين تداعب بعض المحتجزين في قسوة ما بعدها قسوة.

السلاح والقنابل والرشاشات وجميع وسائل القتل والدمار يمسك بها الإرهابيون الستة، ودينس تنظر ناحية السيد كارلوس في عصبية وتحثه على

الفتك بهذه المخلوقات البشعة التي تحاول اليوم تدمير الحضارة الغربية.

هكذا علّموها، لكن كارلوس يبتسم لغاية في نفسه، فلقد وضع نصب عينيه أن يكون المستفيد الأول من هذه العملية على الرغم من وجود مستفيدين كثيرين.

هلال يحاول أن يبرر موقفه، فيدعي في ضلال بأن السبب في كل ما حصل هو موافقة الدول العربية على اتفاقية سيناء.

أما السيد توني فيحمّل أعضاء الوفود تبعية ما يجري في لبنان من حرب أهلية. ويزيد الموقف خطورة عندما يحاول أحد المحتجزين أن يرفع بثقل جسمه من الكرسي الذي كان يجلس عليه، فلا يشعر إلا برصاصة قد اخترقت الجدار بجانب أذنه. ويزداد الموقف سوءاً عندما لا يصل رد الحكومة النمساوية على طلب إذاعة البيان، فيرتفع صوت الرصاص بين جنبات القاعة وكأنهم بهذا العمل يستحثون الحكومة النمساوية على قبول شروطهم.

ويأتي الفرج في اتصال ثان بين وزير البترول الجزائري وبين من كانوا يخاطبونه من النافذة عبر المايكروفون الوحيد الذي كان برفقة الشياطين الحمر.

لقد استجابت الحكومة النمساوية إلى شرط إذاعة البيان بعد أن قامت بترجمته إلى لغتها الأصلية.

وتناقلت أجهزة الإعلام البيان الذي أصدره الإرهابيون بكثير من الاستغراب، لا لأنه كان حقيقة واقعة وضع الإرهابيون نصب أعينهم أن يسجلوها للذكرى والتاريخ، وإنما لأن كل ما جاء فيه عبارة عن مغالطات، يحاول بها المستفيدون تشويه وجه الأمة العربية والثورة الفلسطينية.

وتحدث أحد أعضاء الوفد السعودي همساً إلى جاره وقال:

- يخنقون الحقائق ويدافعون عنها، وهم أبعد الناس عن تقدير مثل هذه الحقائق.

وأجابه صديقه الذي يجلس بجانبه هامساً:

- ربما فعلوها لغاية في نفس يعقوب، إن العالم بأسره اليوم يتطلع إلى الجهود التي يقدمها العرب من أجل حل قضية فلسطين، ومع هذا يشوهون هذه القضية بترهاتهم.

ويصمت الصوت عندما يجد أن أحد الإرهابيين قد لكزه في جنبه بطرف بندقيته.

الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، والرهائن يجلسون على كراسيهم بلا حراك وقد أخلد أكثرهم إلى الهدوء، وتناوم بعضهم في إغفاءة قصيرة تقطعها عليهم تحركات الإرهابيين وهم يسيرون بينهم.

دينس برشاشها الصغير تحتل مكاناً قصياً عن المحتجزين، ترفع رأسها إلى مرآتها الصغيرة، فتفتر شفتاها انشراحاً وحبوراً، فلا يزال وجهها يطالعها من أمام المرآة لم يصبه أي كلل أو وهن، ويداها على حزامها المملوء بعدد من القنابل الصغيرة والكبيرة، وسلسلة المفاتيح الذهبية تبدو للأنظار ملآى بالعديد من المفاتيح، وإلى جانب المفاتيح تعويذتان اشترتهما منذ زمن، واحدة منهما لقساوة القلب وتحجر الضمير، والثانية لجلب الأصدقاء. تبتسم دينس في مرح وتهز رأسها تجاه كارلوس وكأنها تستأذنه في إغفاءة صغيرة فيغمز لها بطرف عينه راضياً.

تستغرق دينس في نومها لتقوم بعد نصف ساعة على الأكثر مذعورة، لقد رأت في منامها حلماً مزعجاً، في بلد بعيد، بعد أن أجريت محاكمتها وزملائها. فلقد رأت فيما ترى رأسها وهو يتدحرج على المقصلة فقامت على الفور منقبضة الصدر لا تنبس ببنت شفة، وانطلقت إلى مكان كارلوس وكأنها تحتمي به من تفاصيل حلمها المزعج.

الفجر يطل عن انبثاق يوم جديد، والطيور الفارة تجري في فناء المبنى تطالع القوم بأشكالها وألوانها العجيبة، وكأنها تفر هي الأخرى من المكان إلى مكان أرحب.

رجال الأمن النمساوي يبدون من خلف النافذة وقد تمنطق كل واحد منهم بأسلحته، يقفون في انتظار اللحظة الحاسمة التي يتلقون فيها الأوامر والتعليمات.

لحظات الانتظار المملّة وقلة النوم والاستعداد لخوض معركة مجهولة تصيب الإرهابيين بكثير من النرفزة وعدم الاستقرار، وبدأ الجميع، وقد ركبهم الشيطان، يصدرون أوامرهم إلى المحتجزين في عصبية.

كانوا أشبه بطيور جارحة، وضعت في أقفاص من حديد، وعلى الرغم من أنهم سادة الموقف إلا أنهم بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى تنفيذ مآربهم وأغراضهم، وعندما جاء الصوت من خارج المبنى خلال المكبرات، يشير إلى استعداد الحكومة النمساوية لتنفيذ رغباتهم، وتأمين السيارة التي تقلهم ورهائنهم إلى المطار، أحسوا بكثير من الراحة، وانهمك بعضهم في توثيق أكتاف الرهائن كمجموعات في طريقهم إلى الخارج، بعد أن أحالوهم إلى مجموعة واحدة تحيط بهم البنادق والقنابل التي كان الشياطين الحمر يحملونها، وفي مقدمة الجميع الآنسة دينس، التي بدا النشاط واضحاً على وجنتيها. وفي الفناء أمر السيد كارلوس رجال البوليس بإخلاء المكان والابتعاد لمسافة كبيرة بعد أن هدد بتفجير المبنى وقتل الرهائن إذا ظهر عكس ما يرغب.

استمع الجنود والمرافقون الصحفيون وبعض السفراء العرب وغيرهم للتعليمات، وابتعد الجميع المسافة المطلوبة، وتم إركاب الرهائن بعد أن جرى التأكد من أن السائق لا يحمل أي سلاح.

وعندها تحدث السيد كارلوس مرة أخرى مهدداً متوعداً بتنفيذ اغتيال الجميع في حالة إقدام الحكومة النمساوية على أي تدبير مناوىء، سواء أثناء سير السيارة إلى المطار أم حتى بعد امتطاء الطائرة.

الطريق إلى المطار يخلو من المارة بعد أن أصدرت الحكومة النمساوية تعليماتها بإخلاء الطريق المؤدي إلى المطار، وعند وصول السيارة شوهد المطار خالياً من أية حركة.

توجه الجميع إلى الطائرة، واحتل الرهائن مقاعدهم بعد أن تم فرزهم وإعداد أماكنهم وتوثيق أكتافهم. وعندما قفل باب الطائرة أصدر السيد كارلوس تعليماته بالتوجه فوراً إلى مطار الجزائر.

في ساعة مبكرة من صباح يوم الاثنين بتوقيت فينا، غادرت الطائرة (د. س ٩) مطار شفيخارت بفينا، متجهة بجميع ركابها إلى مطار الجزائر، بعد أن وضعت الحكومة النمساوية جميع الضمانات للإرهابيين للوصول بالمحتجزين إلى الطائرة، وبعد أن أعادت السيد كارل ريختر الجريح الألماني وأحد أعضاء العصابة إلى فريقه.

في الوقت الذي كان الإرهابيون يتحدثون ويعاملون من أسموهم فئة المحايدين بشيء من اللطف والكياسة، اتسمت معاملتهم للأعداء ببعض الغلظة والقسوة والصرامة.

استطاع الفريقان أن يتناولا شيئاً يسيراً من الطعام داخل علب كرتونية قدمت للجميع، انهمك الرهائن في مضغ الطعام وتبليعه، ومضى الإرهابيون يتناولون طعامهم في شراهة وأيديهم على الزناد.

على الرغم من طول الرحلة إلى الجزائر، فقد وصل الجميع إلى المطار قبل ظهر اليوم نفسه، بعد أن أمضوا ساعات رهيبة في الجو ملأى بالكثير من المفارقات. كان كارلوس يتحدث كثيراً ويستعرض معلوماته عن واقع دول المنظمة، ويحاول أن يحيط الوزراء بهذه المعلومات كطفل صغير يستذكر دروسه أمام مجموعة من المدرسين.

وكان الجميع يستمعون إلى كلماته هنا وهناك بكثير من الصبر وعدم التأفف، لأن الموقف لا يحتمل سوى هذا الصبر ومزيد منه.

وفي مطار الجزائر استقبل الطائرة وزير الخارجية ومدير الأمن الجزائريان بعد أن أبرق قائد الطائرة، فالتعليمات التي أوصى بها السيد كارلوس، كانت جميعها لحماية الطائرة والإرهابيين والرهائن من أية عملية تجري لاستعادتهم بالقوة، وقد أرفق السيد كارلوس تعليماته هذه بتهديدات محددة أهمها نسف الطائرة، وقتل الرهائن فرادى وجماعات.

العالم يتابع تحركات الطائرة وينقل تفاصيل كل اتصال يجري معها على أوسع نطاق.

نزل السيد كارلوس ورهائنه سلم الطائرة بعد أن تفقد رجاله، وبعد أن أصدر تعليماته المشددة إلى هؤلاء الرجال باتخاذ الأهبة لأي عمل مناوىء، ليمضي مع وزير الخارجية ورجال الأمن الجزائريين إلى غرفة جانبية من غرف المطار. ويستمر التفاوض مدة تزيد على الخمس ساعات، كانت فيها الحكومة الجزائرية على قدر كبير من الإدراك لمسؤوليتها من جهة، ورغبتها في حماية الرهائن من أية حماقة يرتكبها الإرهابيون من جهة أخرى.

وفي بداية هذه المفاوضات تم التوصل إلى إطلاق سراح الوفود الأفريقية

والأمريكية اللاتينية والآسيوية، كما تمكن المفاوض الجزائري بدهائه وحنكته أن يصل إلى حل وسط، بأن يتم إطلاق سراح جميع الرهائن العرب على عدة مراحل بأن تقف الطائرة في كل عاصمة عربية وتطلق سراح رهائن تلك الدولة.

وعند إطلاق سراح الوزير الجزائري نتيجة هذا الحل، رفضت الحكومة الجزائرية هذا الإجراء، ووافقت بأن يعود الوزير الجزائري إلى الطائرة ويرافق الرهائن خوفاً على حياتهم.

كان الموقف شجاعاً وكريماً، فقد أبت شهامة الوزير الجزائري إلا أن يشارك زملاءه المصير في رحلتهم مع الخطر المحدق إلى مطار طرابلس، حيث هبطت الطائرة في ساعة مبكرة من مساء يوم الاثنين. واستمر وقوف الطائرة في مطار طرابلس حتى ساعة مبكرة من صبيحة يوم الثلاثاء، انتهت بإطلاق سراح الوفد الليبي الذي هلل لهذا الانتصار، ثم عادت الطائرة في اتجاهها إلى مطار الجزائر، بعد أن ساعدت الأقدار بإيقاف مخطط الرعب والإجرام، إذ إن السلطات الليبية لم تستطع تهيئة الطائرة البوينج في الموعد المطلوب لتتوجه إلى العراق، ليجري إطلاق سراح الوفد العراقي، ومنها إلى عدن ليجري تنفيذ حكم الإعدام في الوزيرين السعودي والإيراني.

وبعد طيران دام عدة ساعات لم تستطع فيه الطائرة النزول في مطار تونس لإقفال السلطات المطار أمام القتلة هبطت الطائرة في مطار الجزائر، وأطلقت جماعة المسلحين سراح كل الرهائن، وتم تسليم الأسلحة إلى السلطات الجزائرية وابتدأ التحقيق مع الإرهابيين حيث قامت هيئة الأمن القومي الجزائري بواجبها كاملاً.

وانتقل الإرهابيون إلى فيلا خاصة في مكان ما من مدينة الجزائر، حيث واصل المحققون الجزائريون تحقيقاتهم لمعرفة ملابسات الحادث.

كارلوس يضحك من أعماقه بعد أن وصل إلى هذه النتيجة، استطاع أن يحقق برحلته الغامضة، وسط استنكارات العالم عدة أهداف في وقت واحد، وأصبح من حقه أن يستثمر نتائج الوصول إلى هذه النتيجة، فقد كانت التعليمات تقضي بقتل الكثير من الرهائن، لكنه لو مضى في تنفيذ التعليمات لما استطاع أن يستنشق طعم الحرية، وهو اليوم رغم جميع هؤلاء الحراس الذين

يحيطون بالفيلا أصبح حراً طليقاً.

وابتسم في لطف وداعب بكلتا يديه وجنات صديقته دينس التي لم تعدّ نفسها لهذه النتيجة، وبدأ الحديث خافتاً بينها وبينه وقالت:

- لقد خنت الأمانة التي حمّلك إياها أصدقاؤك يا كارلوس.

وصمتت، والتمعت عينا كارلوس وأجاب:

- لا، ولكن للحرية ثمناً وثمناً كبيراً، إن طعمها الرائق في فمي يجعلني أدفع هذا الثمن، ليذهب الجميع إلى الجحيم وتبقى حريتي، ألم يكفهم أنني قمت بأكثر مما يريدونه.

- ولكن ألا تخاف منهم؟

قالتها دينس في همس. وأجاب كارلوس:

- من يقتل لا يخاف، لأنه يعرف حتماً أنه سيقتل، إنها يا صديقتي أيامنا في هذه الدنيا نقضيها حسبما نريد، ويوم نذهب لن نفتقد الكثير. اليوم لنا يا دينس، وغداً للآخرين، ولكني بما فعلت حافظت على اليوم والغد ليس من أجلي وإنما من أجلك.

وانتشت دينس بهذه الكلمات، ثم اندفعت إلى أحضان كارلوس لتشبعه لثماً وضماً وعناقاً، حتى إذا ما انتهت طلبت في استحياء أن يسمح لها بتغيير ملابسها، واستعادت كامل زينتها.

الفصل الحادي عشر

أمضى السيد كارلوس ورفاقه بضعة أيام في الفيلا التي يقطنها في الجزائر في حالة استجمام وراحة، كان يفكر خلالها في الظروف والملابسات التي رافقت حياته منذ يوم مولده حتى ذلك اليوم الذي قدّر له فيه أن يتجه إلى لندن للدراسة، وحتى أيام دراسته في جامعة لومومبا في موسكو والفترة التي تلتها. يستذكر كارلوس في هذه الخلوة جميع ما اقترفته يداه من آثام وما ارتكب فيها من جرائم سواء بالنسبة لقتله للشرطيين الفرنسيين أو غيرهما.

لقد عاش معظم أيام طفولته في فنزويلا لوالدين عانيا من ضيق ذات اليد كثيراً، الأمر الذي جعل والده واحداً من كبار معتنقي الشيوعية باعتبارها الجنة الموعودة التي يستطيع أن يفيء إليها كل فقير. وكان من حبه للماركسية أن سمّى أبناءه الثلاثة بأسماء كبار مؤسسيها، وكانت طفولته تمتاز بكثير من الحريات وعدم القدرة على مسايرة أقرانه في المدرسة سواء في الملبس أو حتى في شراء الضروريات، فأحس بالحقد يغلي في عروقه عندما كان يرى أي طفل يتمتع بأية امتيازات ولو كانت بسيطة في العيش والملبس.

وكان يتحدث إلى والده عن أسباب فقره المدقع، فلا يجد الإجابة المقنعة على استفساراته، وعندما كبر كبرت معه أحلامه، وزاد حقده على المجتمع الذي أوصله وأسرته إلى الحالة التي يعيشها، ورأى أن من مصلحته أن ينتسب لأحد الأحزاب السرية التي تدعو للشيوعية، فحضر الكثير من اجتماعاتهم، ودافع عن وجهة نظرهم، وساعده أحدهم فبعث به إلى لندن للدراسة ومن ثم إلى

موسكو للتدريب على أعمال العنف والتجسس والإجرام.

وفي موسكو درس الماركسية، وتعرّف إلى نظرائه الوافدين من شتى بقاع العالم، وكان دائب الحركة ينظر إلى جميع الإيديولوجيات التي يقرأها ويطالعها من وجهة نظر واحدة، هي وجهة نظر مصالحه الخاصة.

وقارن كثيراً بين الرأسمالية والشيوعية، فوجدهما أداتين من الأدوات التي يستعين بهما القوي في قضاء مصالحه الخاصة، فآمن بالشيوعية ظاهراً ورفضها باطناً.

كان يشعر بأن العالم كله قد خسر كفاءته فلم يوظفها لصالحه، فأراد أن يوظف هذه الكفاءة لصالحه الشخصي، وانخرط مع رجال العصابات وتعرّف إلى الإرهابيين، ورافقته حياة المخاطر واعتبرها وسيلته للظهور، فآمن بها وسعى لأجل تحقيق مكاسبه الشخصية من خلالها، وكانت حياة الخطر وسيلته لاكتساب عيشه وبالطريقة التي يجيدها، فاندفع في طريق الشر وعيناه دائماً على مصلحته الذاتية.

هكذا كان يعتقد، ومن أجل هذا عندما عرض عليه كل من صموئيل وتشيكوف ولورنس وسيمون خطتهم لخطف وزراء الأوبك وقتل بعضهم رحّب بهذا العرض واعتبره أسلوباً جديداً من أساليب العنف، سيؤدي في النهاية إلى مزيد من الانتصارات، فقد كان يعشق أن يدوّي اسمه، وأن تتناقله الصحف، ويشعر بلذة غامرة تلفّه من رأسه حتى أخمص قدميه عندما يطالعه اسمه على صفحاتها، حتى عندما يقوم بقتل أي إنسان.

جاب أوروبا وتعرّف على دور الليل والملاهي، وعاشر الأفاقين، وناقش كبار الشخصيات من أصحاب المطامع الخاصة، وقرأ الكثير من الكتب السياسية وغيرها.

لم يؤمن بأحد وإن كان يباهي في بعض الأحيان برضائه عن الطريقة التي يحكم بها السيد فيديل كاسترو بلاده، وتعشق فترة من الوقت ستالين وطريقة حكمه الحديدية لروسيا.

وأحس بأن الديمقراطية التي تعلنها بعض الدول الغربية ليست إلا ستاراً تشتري به مصالحها عن طريق الأصوات التي تنالها في الانتخابات، واعتبر أن

من الأجدر صرف الأموال هذه لصالح المواطن في هذا البلد أو ذاك.

وعندما كبرت به الأيام كفر حتى بماركسيته واعتبرها معبراً للوصول إلى الأهداف التي يريدها، وقال عن الانقلابات التي كانت تسود أمريكا اللاتينية: إنها انقلابات ليست للعمل من أجل المواطن بمقدار ما هي في صالح صانعيها.

حاول أن يدرس الأديان فلم يجد الطريقة الصحيحة التي تمكنه أن يصل بها إلى معرفة حقيقة هذه الأديان على الرغم من أنه أمضى مدة من الزمن في الأردن يحارب بلا هدف إلى جانب بعض المنظمات الفلسطينية استطاع خلالها أن يكوّن رأياً غريباً عن هذا العالم العربي وأن يجيد لغة أهله. ومضى في طريقه لتحقيق أهدافه بأن يعيش ليومه بالطريقة التي يراها مناسبة، أما الغد فليدعه لما سيتمخض عنه.

وعندما وصل السيد كارلوس إلى هذه النتيجة، رأى من مصلحته أن يقف عند هذا الحد وألا يتعب عقله في اجترار الصور لأحداث الماضي.

لقد حقق للعصابة التي استخدمته بعض ما أرادت، وحقق لنفسه هذه الحرية التي يشعر بأن طعمها جديد في فمه.

لكن كيف يستطيع أن يستمتع بهذه الحرية وإلى أي مدى ستكون له، هذا هو ما يفكر فيه.

وانفرج باب غرفته قليلاً ليجد الآنسة دينس في أجمل زينتها كأنثى تنتظر وليفها لتمضي به إلى قفص الزواج، قالت والابتسامة على شفتيها:

- إنهم جميعاً في الخارج ينتظروننا، ستقلع الطائرة بنا إلى مطار طرابلس ومنها.

وابتسم السيد كارلوس ومدّ يده ليحتضن دينس، ومضى مطأطىء الرأس يفكر في الغد كما لم يفكر فيه من قبل.

وتذكر وهو في مقعده بعض أحداث رحلة الرعب التي قام بها، فلولا أمور بسيطة يعتبرها كذلك لمضت الرحلة إلى غايتها.

لقد أدرك بأن العناية هي التي شاءت ألا يفي الليبيون بالتزاماتهم، فلم تكن الطائرة البوينج التي طلبها في مطار طرابلس موجودة، وعندما طلبوها من

مطار طبرق حالت الأحوال الجوية دون توجيهها إليهم.

وانفضّ سامر مستقبليه وعاد كل واحد من العصابة في طريقه، على أمل العودة واللقاء من جديد، ويقضي كارلوس برفقة دينس يفكر في الطريق الذي سيسلكه في رحلته هذه المرة.

صحيح أنه اهتدى للحل من خلال الرجال الذين قابلوه، لكنه يريد قبل كل شيء أن يستحم مرة أخرى في مكان ما في أية جزيرة على البحر الأبيض. لقد حان الوقت الذي يجب فيه أن يتخلص من الكثير من أفكاره، ولم يمض كبير وقت حتى ظهر فجأة السيد سيمون الأبرص اللعين، تاجر السلاح الغريب بنظراته الصارمة.

وقف السيد كارلوس في قاعة الترانزيت بمطار طرابلس مشدوهاً وهو يستقبل السيد سيمون الذي اندفع إليه مهنئاً وقال له:

- أعرف أنك في حاجة إليّ، كما أن حاجتي إليك كبيرة، لكنني كإنسان أصيل ولدته عاهرة رأيت من واجبي أن أهرع إليك فلربما تكون في حاجة إليّ اليوم أكثر من ذي قبل. لقد استطعت قراءة أفكارك، ورتبت جميع أمورك و الآنسة دينس، إن فيلتي الواسعة بمخازنها الكبيرة ومحتوياتها في جزيرة على البحر الأبيض المتوسط في حاجة لمن يشاهدها، وستكون أنت من أول من يراها.

لقد حاولت أن تأتي على أفضل ما يريده بشر، وأعطيتها من وقتي ومالي الكثير فلم أبخل عليها بشيء.

ومدّ السيد سيمون بيده إلى كارلوس وقال له:

- لقد حجزت لك وللعزيزة دينس على الطائرة التي تغادر المطار بعد ساعة، أما أنا فسأكون في انتظارك لأن طائرتي ستغادر بعد دقائق.

ومضى السيد سيمون تاركاً السيد كارلوس ورفيقته في صالة الترانزيت واندفع مع الجموع الحاشدة إلى ساحة المطار، وبعد ساعة من الزمن أخذ كارلوس طريقه إلى الطائرة التي وصلت في حينها بعد أن تعرف على طريقه إليها، وكله شكر للمعروف الذي أسداه إليه هذا الشيطان الرهيب.

وبعد ساعات حطّت الطائرة في المطار الصغير للجزيرة التي اختارها السيد سيمون للوافد الغريب، كانت مباني الجزيرة أشبه بمباني قرية الأمس التي اختفى فيها السيد سيمون على الحدود الفرنسية السويسرية، وإن كان البحر يحيط بالجزيرة من كل جانب.

وفي المطار كان الموقف فريداً ومؤثراً، لم يكن السيد سيمون بمفرده في المطار هذه المرة، وإنما كانت برفقته الآنسة فرنشيسكا والفتاة الفيتنامية الوديعة.

والتقت عينا الآنسة فرنشيسكا بعيني الآنسة دينس التي أغمضت عينيها فترة من الوقت نقلتها فيها إلى أحداث آخر ليلة أمضياها في دار السيد كوهين في بادن بفينا. ومع هذا تقدمت دينس وقبلت الآنسة فرنشيسكا ورحبت بها، ومضى الجميع إلى القصر الذي شاهدوه عن بعد كمعجزة تعيش على أرض الجزيرة.

كانت مداخل القصر وطرقات فنائه من المرمر الذي جلب من كل مكان، تحيط به الأشجار الباسقة، وعلى مقربة من القصر كان حمام السباحة بمياهه اللازوردية وأضوائه الساطعة يظهر رغم السياج الزجاجي الذي أحاط به من كل جانب.

أما درجات القصر فقد رصّ على جوانبها العديد من التماثيل الدقيقة الصنع. وانفرج الباب لتخرج المديرة العجوز وخادم القصر وهو في أبهى زينته بملابسه السوداء المزركشة، ودخل الجميع إلى القاعة الكبيرة ليروا التحف الكثيرة، وقد رصت في ترتيب بعد أن اختيرت من جميع أنحاء العالم.

وكان في جانب القاعة بيانو ضخم اندفعت إليه الآنسة فرنشيسكا فجأة لتجلس على كرسيه الصغير ثم تبدأ في العزف، والقوم في أماكنهم صامتون مشدوهون.

وارتفع لحن الأغنية هذه المرة، فلم تشأ الآنسة فرنشيسكا أن تشارك اللحن بالغناء.

واستمتع السيد كارلوس ورفيقته والسيد سيمون والفيتنامية الوديعة باللحن الذي عزفته الآنسة فرنشيسكا، وعندما انتهى اللحن صفق الجميع طرباً واستحساناً.

كانوا جميعاً في أجمل حالات الانشراح والسرور ما عداها فقد انحدرت دمعة على صفحة وجه الآنسة دينس دون أن يحس بها أحد، وعندما لاحظ الجميع هذه الدمعة أخذت الآنسة دينس تجهش بالبكاء كطفلة صغيرة تكفّر عن ذنبها وما اقترفته يداها بذرف هذه الدموع.

وعندها توجه السيد كارلوس والآنسة دينس وسيمون وفرنشيسكا والفتاة الفيتنامية كل إلى غرفته.

وبعد أن خلع السيد كارلوس ملابسه وأخذ حمامه، اختار أقرب كرسي بجانب النافذة المطلة على البحر وبدأ يتذكر معالم الرحلة التي أمضاها مع خيرة رجال العرب وغيرهم.

واستعرض في نفسه أسماء جميع الوزراء وأحاديثه معهم حتى إذا ما بدت صورة وزير البترول السعودي تظهر أمامه هبّ واقفاً مذعوراً.

لقد جسدت الصورة هذه المرة أمام عينيه بشكل لم يستطع أن يعرفه، ورأى الابتسامة على شفتي الوزير تنطق بكلمات كثيرة وعاد بالذاكرة إلى الأحاديث الطويلة التي كان يقطع بها الطريق وهو في الطائرة في طريقهم إلى الجزائر مع هذا الشاب المؤمن.

قد يكون جميع مواطنيه على هذا المقدار من الصلابة والذكاء، فهو يعرف بأن الصحراء تغرس في الإنسان هذه الصلابة. لكن شيئاً آخر كان يطلّ من عيني الوزير حتى في أحلك الساعات، كان يعرف مصيره ومع هذا فقد كان مشرق تقاسيم الوجه، يستقبل القضاء بإيمان غريب.

لطالما سأله عن معاني هذا الإيمان الذي يشع من عينيه، فمعالم الراحة النفسية تلف الجسد الممشوق وتصنع منه خامة أخرى غير خامات الرجال الذين تعرّف عليهم في مغامراته.

وتذكر محاولة الوزير السعودي وهو يوجز له حقيقة الإيمان بالله وبالقدر وباليوم الآخر في كلمات سهلة بسيطة، لكنه على الرغم من ذكائه فلم تكن لديه القدرة على استيعابها.

كان بعيداً عن الدين، بعيداً عن الخلق، بعيداً عن الاستقرار، فلم يشأ أن

يعذب نفسه بالبحث عن أصول هذا الإيمان، لكنه اليوم يريد أن يعرف كل شيء.

ودق الجرس ليأتي إليه في الحال السيد سيمون.

- نعم يا عزيزي كارلوس.

- أين الخدم؟

- صرفتهم في إجازة ووضعت نفسي في خدمتك. ربما يكون هذا هو الذي تريده وأريده أنا وسكان القصر جميعاً.

- ليخدمنا الفتيات، فلقد مللت رؤية الخدم في كل مكان أنزل فيه.

-أتريد شيئاً؟

- أريد بعض الكتب عن الإسلام والمسيحية واليهودية، أريد هذه الكتب فعندي وقت للقراءة.

- سيكون جميع ما طلبت أمامك في الغد، سأتصل بالتليفون بأشهر مكتبة في روما لتبعث إلينا بحقيبة كبيرة ملأى بكل ذلك، أما اليوم فلا، لأن مثل هذه الكتب لا يمكن أن توجد في مثل هذه الجزيرة. لقد أعددت لك مفاجأة أخرى يا صديقي كارلوس، إن الرفاق في طريقهم إلينا ليهنئوك بسلامة العودة ويدفعوا ما تبقى من الأجر لك، رغم أنك لم تف بجميع ما طلبوا. لقد رأوا أن من واجبهم القيام بهذا الصنيع، فلقد عرّضت حياتك للخطر من أجلهم، وهم يحبون من يعرض حياته للخطر ثم يبعد عن هذا الخطر في ذكاء.

وأنت يا عزيزي كارلوس أذكى قاتل عرفه التاريخ، ليتني أستطيع أن أكسبك إلى جانبي فأنا بحاجة إلى رجل له جميع مميزاتك.

- نحن يا صديقي لا نقتل بأيدينا، ولكننا نشجّع غيرنا على القتل.

وأخلد الاثنان إلى الصمت برهة من الزمن، ثم استأنف السيد سيمون حديثه:

- أو تعرف يا عزيزي كارلوس أننا لو اتفقنا أنت وأنا على إدارة مصالحي لاستطعنا أن نحيل هذا العالم إلى دمار. انظر إلى هذه الخريطة، ستجد أكثر من بقعة دم عليها كإشارة ذات مغزى لما يجري على هذه الأرض من حروب، إننا

بإمكانياتنا وذكائنا وقدراتنا نستطيع أن نزيد من نقط الدم على هذه الخريطة.

حركة التحرير في أنغولا مثلاً تحتاج إلى السلاح، وأنا وشركائي نبيع السلاح لجميع الأطراف، وبهذه الطريقة سيستخدم كل طرف من الأطراف السلاح الذي يفوز به من الطرف الآخر أثناء المعارك. إنك يا صديقي إذ تقبل، تبعد عن نفسك جميع مشاكل الماضي مع البوليس، مع الأنتربول، مع جميع الناس.

لقد أعددت الخطة واتفقت مع أحد كبار أخصائيي جراحة التجميل، وهو ينتظر مني أن أبرق إليه ليأتي على رأس فريق هنا، وعندما يصل سيكون في مقدوره تغيير جميع ملامح وجهك، ويومها سنعود معاً إلى العمل في نطاق آخر، وباسم آخر غير ذلك الذي يعرفونك به.

وصمت السيد سيمون، وبدت معالم التفكير على وجه السيد كارلوس الذي بدا مغرقاً في صمته، وكأنه يستعيد كل كلمة قالها تاجر السلاح.

وبعد فترة دخلت الغرفة الآنسة فرنشيسكا، فافترّ ثغر الأبرص عن ابتسامة وقال:

- تعالي يا عزيزتي، قد تكونين أقدر على إقناع هذا السيد بمخططي.

وأخذت الآنسة فرنشيسكا مكانها بجانب السيد كارلوس، وأخذت تتحدث إليه في همس ووشوشة.

الفصل الأخير

الناس نيام والهدوء يلف القصر من جميع جوانبه، ورذاذ المطر يتساقط في رقة ونعومة على الأرض التي كستها الطبيعة بمختلف الحشائش البرية، والطريق الرئيسي من المطار الصغير يبدو من وراء النافذة أشبه بثعبان أسود زادت حدة سواده الأمطار الخفيفة.

قوارب الصيد وشباك الصيادين ملقاة إلى جانب البحر بلا مبالاة، وعين واحدة أرّقها السهاد فجاءت تمشي على عجل تنهب درج القصر كل درجتين قفزة واحدة. وانفتح الباب الحديدي ليخرج منه كارلوس إلى الطريق في رحلة مع أفكاره إلى شاطىء البحر الذي أخذت أمواجه تصطخب، وفي مكان بعيد من البحر كان هناك ضوء يخترق الفضاء الأزرق كنقطة تشير إلى مكان صاحبها.

وقف كارلوس ينظر إلى الفضاء الأزرق، وقد تركزت نظراته على الضوء الذي يبدو من بعيد مجهولاً من الآخرين. وضحك في أعماقه، فرسول الشر هذه المرة في طريقه إليه يحمل رسالة من أصدقائه.

لقد تحدث إليه توني اليوم صباحاً عبر التليفون الوحيد الذي كان يتلقى رسائله عن طريق الراديو، وعرف من الرسالة الصغيرة أنه في طريقه إليه بعد أن حدد الموعد.

لطالما كره كارلوس هذا الرجل، كرهه من كل قلبه، ولكنه على ما يبدو لا يعرف لماذا يكرهه.

إلا أنه أتعب نفسه في رحلة الفزع كمساعد له وأمضى في انتحال هذه الصفة، لأنه أراد أن يستثمر قتل الوزيرين السعودي والإيراني أثناء تواجدهما في صالة مطار الجزائر بعد أن قام الجميع بتسلية أنفسهم.

لشدّ ما تأثر من هذه المحاولة التي استطاع الجزائريون بفطنتهم أن يحبطوها، وهو أي كارلوس، لا يرحم أي إنسان لا يعي أوامره أو يلقي بها عرض الحائط. لقد عنفه يومها على فعلته، فضحك وقال:

- لا تصدقهم فقد كانت محاولتي تلك عملاً صبيانياً أردت به تخويف السلطات الجزائرية، لكنني لم أقصد القتل وإنما قصدت الاستعراض.

هكذا قالها توني، ولكن كارلوس أبى أن يصدق ذلك فمضى في تأنيبه في انفعال وهو يتذكر كل كلمة قالها له.

لقد قال يومها:

- قد نكون يا صديقي من أعتى القتلة وأشد المجرمين انغماساً في الجريمة، لكننا ونحن نتصف بهاتين الصفتين نؤمن في أعماقنا بأن للكلمة بيننا مكاناً يجب أن نحافظ عليها فيه. لقد أعطيت كلمتي وأعطتني السلطات الجزائرية كلمتها، فبررت بوعدي وبرت هي الأخرى بما وعدت، فلماذا هذه المهزلة؟

وعند هذا الحد من التفكير، بدأ الضوء يأخذ شكلاً أوسع وأكبر، حتى ظهر من ورائه قارب بخاري يحمل بين جنباته السيد توني.

كان بمفرده هذه المرة، وسيقتله كارلوس بلا أدنى رحمة، لكنه وإن كان قد فكر في هذا فهو لن يفعله لعدة أسباب.

أولها: تواجده في هذه الجزيرة الصغيرة، وثانيها: أن السيد توني على ما يبدو يحمل رسالة ما، ولا يجوز قتل حامل رسالة، وثالثها: أنه لم يتعود قتل الأصدقاء حتى تلك اللحظة.

وعندما وصل القارب إلى الشاطىء، خرج توني منه ليلقي بنفسه في

أحضان كارلوس في عناق ودي.

ومضيا إلى القصر الذي أضيئت أنواره ساعة وصولهما ليجدا أمام الباب السيد سيمون بوجهه الأبيض وضحكته الساخرة مرحباً.

ودخلوا قاعة القصر ليأخذ كل واحد منهم كرسياً، ثم يمضي الحديث حول الغاية التي جاء من أجلها توني.

قال السيد توني:

- لقد افتقدناك كثيراً يا كارلوس، فجئت للقائك فور تلقي التعليمات بأن أشخص إليك، إنهم يعرفون ماذا يريد صديقنا سيمون، وهم لا يرغبون أن تنأى عنهم، ولهذا فهم يدخرون لي ولك ولسيمون مفاجأة أخرى. سيجتمع الأصحاب هذه المرة هنا، وسيتحدثون إليك عن رحلة جديدة من رحلات الشر، فالشر لايزال وسيلة بعضنا يا صديقي للوصول إلى أهدافهم.

إنهم يتفلسفون ويقولون عن أنفسهم بأن قلوبهم ملآى بالخير، ومن أجل مآربهم يستخدمون وسائل الشر. أنا لا أصدقهم، ولكني بعد أن انغمست في هذه المهنة لا أجد وسيلة للنكوص عنها.

وضحك ثم قال:

- أين الآنسة دينس؟

أجاب سيمون:

- في غرفتها تنتظر ظهور النهار، أنسيت يا توني أننا لا نزال في الربع الأخير من الليل.

وأجاب توني:

- لا عليك يا كارلوس، فحياة الليل مهنتي، كم أحب الليل بسواده المدلهم وأضوائه الكهربائية، إنه عالم جميل، يستطيع الإنسان أن يمضي فيه إلى غايته في هدوء وثقة. قد يحجب الليل عن بعضنا رؤية النهار، لكني وبعد أن تعلمّت الكسل لا أعرف هذا النهار إلا عندما أقوم بمهمة مثل مهمتنا التي

عرفت.

لا تنظر إليّ هكذا يا عزيزي كارلوس، فلقد نعست كثيراً بالليل في بيروت ولندن وفينا وألمانيا الشرقية وفي كل مكان قدر لي زيارته.

وصمت. وانبلج الفجر عن صباح يوم جديد، وأطل الثلاثة من النافذة ليجدوا سيارة أتوبيس شبيهة بالسيارة التي امتطوها في رحلتهم مع المحتجزين من بناية الأوبك إلى مطار فينا.

وبعد لحظة ترجّل من السيارة صموئيل وتشيكوف ولورنس والسائق القزم صاحب الوجه الذي جابت مئات السكاكين فيه.

ودخل الجميع القصر ومنه إلى القاعة، وارتفع صوت السيد صموئيل الأخنف وهو يقول:

- نحن تعيسون يا صديقي سيمون فدعونا ننم قليلاً وبعد ساعات سيكون اجتماعنا.

وأخذ السيد صموئيل طريقه إلى مخدع النوم مصطحباً زملاءه وكأنه يعرف جميع مداخل القصر. ونظر السيد كارلوس إلى السيد سيمون فأجابه الأخير:

- لا تندهش يا صديقي، فالسيد صموئيل صديقي وشريكي وهو إلى جانب كل هذا مهندس عبقري وضع خطوط هذا القصر على الورق وأطلعني عليها ونفذتها فوراً ودون مناقشة.

وضحك. الساعة السابعة مساء.. القوم بكامل أناقتهم ما عدا السيد صموئيل الذي أصبح جسده لا يفارقه البدلة الرمادية الوحيدة، وقد تناثر الحاضرون على الكراسي المريحة.

الفتاة الفيتنامية الوديعة بلباسها الأوروبي هذه المرة كدمية أخرجت من قالبها قبل فوات الأوان، وقد أسدلت شعرها على كتفيها بعد أن غطت جزءاً يسيراً منه بحلية ذهبية، تتبختر هنا وهناك، وتناول الوافدين كؤوسهم في أنفة وكبرياء.

ودينس كنسرة هائجة تنظر إلى فرنشيسكا نظرات حقد وغيظ، بعد أن

ارتدت كل منهما أجمل ثيابها، وتعطرت بأفضل أنواع العطور المحببة لها، وكأنهما في مباراة للأناقة.

وفرنشيسكا تنظر إلى تشيكوف، ثم تسأله في دعة عن أسرتها التي لا تزال تعيش في روسيا. وكارلوس تمنطق بحزام جلدي أسود، وقد تدلى على خاصرته مسدس أنيق اختير بعناية، وكأن هذا المسدس من لوازم الأناقة في هذا الاجتماع.

انتحى كارلوس ورفاقه ركناً صغيراً، وانهمك الجميع في حديث طويل لا يقطعه سوى التقاط الكؤوس وأطباق السجائر الملأى بالأعقاب. لقد خطط الأصدقاء هذه المرة لرحلة أخرى من رحلات الشر، واتفقوا جميعاً على بعض تفاصيلها.

- سيكون الاجتماع هذه المرة في ألمانيا الشرقية، التي ستكون نقطة الانطلاق، وعندما يصل الجميع حسب التعليمات التي تعطى لكل واحد منكم، سيعود على الفور كل إلى عمله.

قالها السيد صموئيل في كلمات رتيبة ونبرة صافية.

ثم التفت إلى كارلوس وقال:

- أنت هو العمود الفقري بالنسبة لهذه العملية كما كنت بالأمس، ولهذا وعلى الرغم من أن عمليتنا السابقة لم تنل النجاح كله، لكن لا بأس، علينا أن نفعل شيئاً جديداً.

ثم التفت إلى الجميع وقال:

- تعالوا نحتفل الليلة باتفاقنا الجديد.

وصفق بيديه ليأتي سيمون إلى جانبه، ثم يهمس في أذنيه بكلمات خرج على أثرها ثم عاد وبرفقته فتيات الأوركسترا الجميلات، كل واحدة كانت تحمل أدوات عزفها، وانتحى الجميع ركن القاعة، وبدأت الموسيقى تعزف ألحانها، حتى إذا ما انتهت فرنشيسكا بما سمعت من الألحان قامت من

مقعدها واندفعت إلى المايكروفون وارتفع صوتها حزيناً يائساً هذه المرة، كانت كمن تبكي وهي تغني، والتقطت آذان القوم كلمات الأغنية كانت تقول:

" نعم خسرتك

وخسارتي فيك كبيرة

لكن نضارتي ستغفر خسارتي

دعوتك لحبي

ورجوتك أن تشفق عليّ فنأيت

عرفت نقطة الضعف في قلبي

فعصرت هذا القلب ثم ألقيت به خارج إطار محبتك

أنت قوي ولهذا تحب الأقوياء

وعليه فسأكون قوية

سأنبذ حبي

سأقتله في قلبي

سأفعل ما بوسعي لأنساك

وسأحب غيرك

ويومها ستعود لي

لكن هذه العودة في غير صالحك

لأنك خسرتني وكسبت الذكريات"

ويرتفع الصوت آمراً قوي النبرات:

" عد يا صديقي من حيث أتيت

امض في طريقك مع الأشواك

فأنت لم تخلق للحب

وإنما خلقت للقتل

قتل كل شيء حتى النفوس المحبة'

وتنتهي الأغنية في صمت. وتعود الآنسة فرنشيسكا إلى مكانها لتجلس .

وينظر كل واحد إلى الوجه الأبيض الذي تلوّن بمزيج غريب من الصور والانفعالات ليقرأوا في صفحاته أنها لن تغفر لحبها الذي ضاع، وإنما ستنتقم وأن انتقامها سيكون رهيباً.

ويستأذن الجميع كل إلى غرفته، ويبقى السيد كارلوس بمفرده بعد أن أمر الآنسة دينس أن تذهب هي الأخرى، ثم يتجه إلى النافذة ليطل عبرها إلى السماء ومنها إلى البحر، كإنسان نسي كل شيء حتى وجوده، وتنهمر دمعة ساخنة على صفحات وجهه وكأنها تعتذر عن جميع ما ارتكبه من جرائم.

المسيرة الخضراء

(رواية)

ط ١ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م
ط ٦ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

ويزهر الربيع..

وتنمو الحشائش البرية على أرض الصحراء الممتدة بلا نهاية عبر امتداد البصر.

وتبدو في الأفق أسراب الطيور الصغيرة تجوب السماء في هجرة من الجنوب إلى الشمال على شكل قوافل، تمضي في مسيرتها مع الصباح الباكر. وهو وحده في هذه الصحراء يجوب فيافيها لأكثر من مرة، يلتقي في طريقه بمعالم وإشارات اختارها بنفسه لتكون رفيقه في رحلته. وهو صامت كالدهر، قاس كالصحراء عابس الوجه كأجوائها، والطريق الشاق الطويل تتضح معالمه أمام ناظريه.

جل همه أن يصل، وهو من أجل هذه الغاية يغذّ قدميه في رمالها التي اصطبغت بلون الشمس، وعلى كتفيه قربة ماء اختارها بعناية، لتكون رفيقته في رحلة العذاب التي استمرأها.

إنه يعرف النهاية، فلقد عاش أحداث القصة من أولها، وها هو اليوم يحاول أن يصل إلى تلك النهاية التي يعرفها.

لقد ولدت رحلاته المتتالية في نفسه رغبات شتى كانت ولم تزل وسيلته للإقدام إلى الهدف الذي يراد. وكأنه على موعد مع الأقدار التي شاءت أن يكون واحداً من أبناء هذه الصحراء.

لقد عشق رمالها الحمر وجبالها الشم وجوّها القاسي، فورثته طبيعتها فأصبح رجلاً صلباً عنيفاً في الحق، يأبى أن يتسلل الخوف إلى قلبه مهما كانت الأسباب.

كما علمته الصحراء فضيلة أخرى، أن يظل ساكناً كالجبل صامتاً كالدهر أمام العقبات والمشاكل، في الوقت الذي يعمل فيها عقله لحل معضلاتها في هدوء، بعيداً عن الإثارة والضجة.

وعلمته الصحراء أن يظل أميناً على عهده وفياً لوعده عاملاً مخلصاً من أجل الجماعة، في قوة المؤمن واندفاعه نحو الحق.

وأعطته الصحراء كبرياءها فلم تبخل بخصائصها الأصيلة عليه، فكان صورة مشرقة للرجل الذي يعيش على ظهرها كريماً أبي النفس صادق الكلمة، عنيداً في الحق، قادراً على شرح وجهة نظره في عفوية وبساطة ابن الصحراء.

لقد مارس الحياة على هذه الأرض القاسية، وذاق حلاوتها ومرّها، وشاهد كل شبر فيها، وتحدث إلى أكثر أبنائها.

ويوم كبر أحس بالغربة في قريته، رغم مظاهر الألفة التي يراها تحيط بمجتمعه الصغير، كان ينظر إلى الأسباني نظرة شك، فهو في نظره علامة استفهام كبرى يجب أن يحلها، وإلا لماذا لا يحكم العربي أرضه في هذه الصحراء؟

وأخذ يقرأ كتب التاريخ، يستعيد كل ما قرأ ثم يهضمه، فقد كان نهماً لأن يعرف حقيقة هذه الأرض التي يعيش عليها.

سيتغير نوع الحياة على هذه الأرض شاء حكّامها الأجانب أم أبوا، فلم يعد بوسع الأرض أو أهلها قبول مستعمر.

وهو يعرف طريقه في النهاية، إنه ينتظر المفاجأة التي تحيل هذه الصحراء إلى صحراء عربية، وهو يندفع من أجل هذا العمل في إيمان المسلم الذي يعتقد أن الحق أحق أن يتبع.

لقد أحب المغرب، أحب أهله وأصحابه، فله فيه وفي قراه ومدنه صداقات كثيرة تربطه بأسر كريمة كانت ولم تزل تفتح ذراعيها لاستقباله.

وهو يثق في قدرة العربي في المغرب على مساندته في استعادة أرضه، ولهذا فهو يصر في رحلته هذه أن يصل إلى معرفة الطريقة التي ستعود بها هذه الأرض إلى أصحابها.

لطالما استمع إلى أحاديث هؤلاء الإسبان الذين يحكمون بلاده، يحيلون

ترابها إلى شواظ تلهب ظهور قومه الذين يعيشون على أرضها، يتوارثونها فيما بينهم.

وكانت حكايات الآباء والأجداد عن هذا الاستعمار وطريقته في الحكم مثار تساؤل ظل يطل من ذاكرته وهو في الطريق.

لقد أحب وهو صغير إحدى الطفلات الإسبانيات من أولئك اللواتي كن يأتين رفق أسرهن لقضاء الإجازة مع عوائلهن هنا على أرضه وشارك العديد منهن ألعابه القاسية، على الأرض الصلبة.

وكان يقارن بين الطفلة الإسبانية وطفلة الصحراء فلا يجد من الفوارق سوى تلك اللغة التي أصبح يجيدها كأحد أبنائها، ربما كانت دماء أجداده العرب الذين احتلوا إسبانيا هي السبب في هذا التشابه في الخلقة وتقاطيع الوجه.

وعندما كبر كبر حبه وغزا كل قلبه لطفلة الأمس التي غدت شابة يافعة وأخذت (دولوريس) تلعب دوراً كبيراً في إيجاد نوع من الصلة بينه وبين الأسر الإسبانية التي كان يناقشها دائماً في أسباب هذا الاحتلال.

لكن أباها كان يضحك وهو يستمع لتساؤلاته فيجيبه بلا مبالاة.

ـ إنها الحياة يا صديقي، لقد أخذتم أيامكم في الأندلس، وها نحن نعيد الكرة على هذه الأرض. لقد أورثتمونا الكثير من العادات وأعطيتمونا العديد من العلوم والفنون، ومع هذا نظل نحن هنا عاجزين عن تغيير مفاهيمكم تجاهنا.

وفي إحدى الحفلات التي قام بارتيادها رفق حسنائه كانت (دولوريس) تقول في زهو:

ـ انظر إلى هذه الآلات التي تعزف عليها هذه الفرقة الإسبانية وإلى العيون السوداء الواسعة والبشرة البيضاء، ستجد أن بصمات العرب واضحة المعالم على كل شيء لدينا، الآلات ذاتها، والرقص التعبيري ذاته، والملابس الشعبية هي هي لم تتغير، إن الكثيرات من بناتنا يحملن حتى الآن أسماء عربية توارثنها عن جدات الأمس، ونحن نتقبل هذا دون غضاضة، أما أنتم.

وضحكت ولم تكمل.

إنه يذكر كل تلك الصور ويعيها ثم يتساءل:

ـ ومع هذا فلماذا يظل هؤلاء الإسبان على أرضنا، كحكام، قد نقبل تواجدهم كأصدقاء، فهم فعلاً أصدقاء للعرب وقضايا العرب، لكن عندما تجيء قضية هذه الصحراء ينقلب الواقع شيئاً آخر مريراً.

وتضحك حسناؤه من كل قلبها، وتقول في دلال:

ـ صدقني قد أكون أنا الأخرى معك في كل ما تقول، ولكن مع هذا فأمنيتي أن أظل هنا بجانبك بعد أن يخرج هؤلاء الإسبان من بلادك.

وتكمل الضحكة بضحكات أخرى، ثم تمعن في القول بجدية:

ـ قد يكون الحب هو الذي ينطق بكلماتي هذه، وقد يكون العقل والمنطق هو الآخر، فمصلحة إسبانيا أن تكون دائماً قريبة إلى قلوب العرب.

ترى أين فتاته الآن؟ لقد حملوها حملاً على أن تمضي عن الصحراء في رحلة طويلة، بعيداً عن هذا العالم الذي هو أحد أفراده، لأن أباها قد عرف بما يعتمل في قلبها من حب لهذا الصحراوي، فكان جزاؤه وجزاؤها الطرد، هو من بيت الأسرة وهي الأخرى إلى مكان بعيد في سويسرا حيث تعيش في مدرستها الداخلية، لكن أخبارها تصل إليه في وريقات صغيرة يدفع بها ساعي البريد بين الفينة والفينة، وهو يحمل كل تلك الأوراق أينما ذهب ويجيب عليها في رضى وسعادة ويمضي في طريقه نحو الهدف، ونصب عينيه أن تعود الصحراء و(دولوريس) عربية الملامح والجذور.

ويرتفع صوته عبر أجواء الصحراء وكأنه يجسد في تلك اللحظة جلّ أمانيه وأحلامه في أغنية بدوية تدور كلماتها عن الحب والتضحية والوفاء، وكأنه ينفث عن نفسه بكلمات هذه الأغنية التي حفظها عن ظهر قلب، ويمد ببصره إلى الأفق يجلو معالم الطريق وهو يخب في سيره إلى مدينة العيون ليلتقي بأصدقاء كثر كانوا عونه وكان عونهم في مسيرتهم نحو الفكاك من أسر الاحتلال الإسباني الذي بدا كقيد يحيط بمعصمه، هو الحر الطليق الذي يسير في الصحراء اليوم بمفرده دون معين أو صديق.

الفصل الثاني

كل شيء في مدينة العيون يدل على أن حدثاً ما في طريقه إلى هذه المدينة الهادئة، فالدروب الصغيرة ملأى بالعديد من رجال الحرب. الإسبان بملابسهم المميزة يجوبون الطرقات بسرعة عجيبة وكأنهم على موعد مع الوافد الذي أطل على المدينة في غمرة الظلام الذي أخذ يسدل أستاره.

وهو في الطريق لا يلوي على شيء وكأن جميع الاستعدادات التي يراها لا تعني عنده شيئاً.

وفي مدخل الزنقة الصغيرة المتفرعة من الشارع الرئيسي للمدينة استقبل أحد الجنود سي مجيد بالعديد من الأسئلة، لكن صمته استطاع أن يكفيه شر الإجابة وكأنه لا يعرف ما يتحدث عنه الجندي.

وهز الجندي رأسه وأعطى للوافد إشارة المرور ليسير في طريقه إلى البيت الصغير، وبعد دقات ثلاث متفق عليها انفرج باب البيت ليدلف إليه الوافد وعلى شفتيه شبه ابتسامة.

الوجوه السمر المعروفة بابتساماتها الثاقبة تعبر في سعادة عن الفرحة التي تغمرها وهي تلتقي بأحد أبناء الصحراء البررة.

وأعدّت المائدة على الأرض لتحنو الأيدي الصلبة على الطعام الذي وضع في إناء واحد أمام الجميع. وأخذ الحديث الصامت يدور في عقول المجموعة دون انتظار لجواب، لكن ولد مكناس كان أقرب الجميع إلى الإفضاء برأيه فألقى بسؤاله المفاجىء، ولم ينتظر جواباً.

ـ ترى ماذا يريدون بهذا الاستعداد الذي يبدونه، أتكون الحرب في طريقها إلى هذه الأرض، أم إن هناك شيئاً آخر يبيّت لسكان المدينة؟

ويأتي الجواب هذه المرة من أعماق أعماق الوافد في ابتسامة لاهية وكأنه يعرف أسرار ما يجري وقال:

ـ تظاهرة جديدة يريدون بها إخافتنا نحن أبناء الصحراء.

لقد كانت رسالة صديقنا في مراكش مطمئنة فهو يقول بأن أشياء كثيرة ستجري لكنها في هذه المرة ستكون في صالحنا.

لقد تحدث الملك إلى جلسائه بكثير من أفكاره وهو اليوم أكثر استعداداً لإنقاذ الصحراء من ذي قبل، إنه ينظر إلى هذا الموضوع نظرة جديدة، فلقد استنفذ جميع الوسائل الدبلوماسية ولم يبق من هذه الوسائل إلا وسيلة واحدة، لكنها ليست الحرب، أما ما هي الوسيلة فنحن لا ندري ولا يدري عنها إلا الخلص من أبناء المغرب.

وينطلق صوت العباس قائلاً في وضوح:

ـ لقد أصبح الإسبان يشعرون بحاجتهم إلى الوصول مع المغرب إلى حل، بعد أن نوقشت القضية في أكثر من محفل سياسي عربي، ووضحت النوايا أمام الحقائق الرائعة التي استطاع شعبنا أن يظهرها.

وبات جميع الضباط الإسبان يحلمون بالعودة إلى مدريد بعد سنوات العمر التي أمضوها هنا.

لقد تحدث لي بن خدوج صاحب المقهى الصغير، وصديق الإسبان اللدود وموضع أسرارهم عن هذه الحقيقة، فلقد نقلت إليه صديقته كاترين طاهية الحرس العسكري، أحاديث القوم وتكهناتهم، فهم يرون بأن الجلاء عن الصحراء أصبح قضية مطروحة، لكنهم لا يعرفون كيف ستعالج حكومتهم هذا الأمر، فالرجل العجوز المريض في إسبانيا هو الآخر يحلم بعودة الرجال إلى الأرض الإسبانية، لكنه يرغب بأن تنال إسبانيا مقابل هذه العودة شيئاً وأن يدفع ذلك بسخاء.

٤وتمضي أحاديث القوم في شتى الاتجاهات، وفجأة تطرق الباب يد واجفة امتدت على أثرها أعين القوم إلى المدخل الذي أخذ يستقبل بن خدوج بقامته المديدة وضفائر شعره التي خطها الشيب، يعتمر رأسه عمامته البيضاء التي مضت تهتز ذؤابتها في هستيرية تدل على ما يعتمل في جوانح الرجل، وكان جسد الرجل هو الآخر يهتز في اضطراب، وبدت كلماته المتقطعة وهو يعلن في هستيرية:

ـ إنهم يبحثون عنك.

وأشار إلى الوافد الذي أحس بمعاني الكلمة التي قالها الرجل، لكنه حاول أن يزيل اضطرابه في هدوء:

ـ لا عليك، فأنا أعرف طريقي إلى بيت كاترين، لطالما فعلت المسكينة معي أكثر من معروف، فلا بأس أن تضيف إلى معروفها معروفاً جديداً، فأنت تعرف كم تحب هذه المرأة الصحراء وأبناء الصحراء.

وفي لحظات، لف الظلام الوافد الغريب، لكن الأمر كان أكثر مما يظن القوم، فلقد هبت سرية من عساكر الإسبان إلى البيت تحتل أرجاءه بحثاً عن الوافد الذي مضى دون جدوى.

وعند نهاية التفتيش قال رئيسهم:

ـ أين بن خدوج؟

لكن بن مكناس أجاب في هدوء:

ـ ليس هنا.

وقال الضابط:

ـ ولكن أحد رجالي رآه وهو في الطريق إليكم.

أجاب بن مكناس:

ـ قد يكون ما رآه أحد رجالك صحيحاً، لكنه ربما كان في الدار المقابلة، فأنت تعرف أننا لا نتعامل مع من يتعامل معكم أيها الإسبان.

وضحك الضابط وقال:

ـ قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكنني لا أصدقه، فأنا الآخر رأيته بنفسي وهو يدخل إلى هذه الدار.

أجاب بن مكناس:

ـ ولماذا لم تدخل عندما رأيته؟

ازدادت بسمة الضابط وقال مكملاً حديثه بالعربية التي يجيدها:

ـ لأنني أعرف أنه جاء يحذركم، ويحذر على الأخص الوافد الغريب.

أنسيت أن رابطة تشدني إلى هذا الصديق الغادر، الذي عشت معه سنوات طفولتي يوم كنت وأسرتي نعيش على أرض القرية الصغيرة ولكن..

وصمت.

قال أحدهم:
ـ ولكن ماذا؟
فأجاب الضابط:
ـ عندما ترى صديقي مرة أخرى قل له إن ريكاردو سيلقي القبض عليك وكلّه أسف، لكنه الواجب يدعوني لأن أفعل فلا تدعوه يعود إلى طريقي مرة أخرى.

وخرج الجنود يتبعهم الضابط الذي أخذ يهش في وجوه القوم رغم كل الجفاء الذي يفصل بينهم وبينه.

أما الوافد الغريب فقد كان بعد فترة وجيزة يدق باب السيدة كاترين التي استقبلته في دهشة لقدرته على الإفلات من براثن الشرطة الإسبانية التي كانت تبحث عنه.

وفتحت ذراعيها لتستقبله في حب مقرون بالأمل في أن يستطيع هذا الصغير الذي دللته في يوم من الأيام العودة إلى المغرب بعيداً عن مشاكل الصحراء.

فهو أضعف في نظرها من أن يقاوم قومها، فالقوى المتعاونة مع إسبانيا رغم أنها بلا شعبية إلا أن إسبانيا تريد قيام حكم انفصالي تستطيع من خلاله السيطرة على الصحراء وعلى حكامها في المستقبل.

أما هو فجماعته يجاهدون في صمت، لكنهم مكشوفون، فالبدو الذين يمثلون أكثر سكان الصحراء مهتمون بالانضمام إلى المغرب، لكنهم لا يدرون كيف سيكون الطريق، وهو وحده يعمل دائماً من أجل تكثيف معلومات هؤلاء الرحّل.

أخذت كاترين مكانها على مقربة من النافذة المطلة على الشارع ترقب عودة الجنود الإسبان إلى ثكناتهم بعد خروجهم من دار السيد بن مكناس. ومضت تضحك من أعماقها لأن هؤلاء الجنود لا يتصورون مطلقاً أن تستضيف عدوهم في بيتها، هي الإسبانية المولد والمنشأ. لكنها مع كل هذا تشعر بحبها لهذه الأرض وسكانها الأصليين.

وهي تنطلق إلى هذا الحب من زاوية واحدة، فسنواتها الطوال التي مضت وهي تعيش على هذه الأرض تجعلها تتذكر أحداث ماضيها من خلال القصة الطويلة التي حدثتها بها أمها قبل وفاتها؛ فهي وإن كانت ابنة لرجل إسباني، لكنها في الحقيقة ليست ابنة هذا الرجل، وإنما ابنة واحد من أبناء المغرب

شارك والدتها الفراش ثلاث سنوات في ميناء مارسيليا يوم كانت أمها تتجول مع فرقة فلكلورية إسبانية في تلك المدينة.

وبعدما عادت أمها من رحلتها الطويلة اقترنت بزوجها الإسباني الذي أعطاها الاسم الذي تحمله.

لقد تحدثت أمها عن أيامها التي مضت مع ذلك المغربي حديثاً طويلاً لا تزال تذكر كل دقائقه وتفاصيله.

ويوم هيأ لها القدر أن تأتي إلى الصحراء كانت تشعر بأنها تعود إلى الأرض التي أنبتت أباها الذي لم تعرفه، فعاشت سنواتها بين القوم ترمق في حب طريقة حياتهم وأسلوب معيشتهم.

وآمنت بانتمائها إلى الصحراء أكثر من انتمائها إلى إسبانيا، فلم تبخل بصداقتها على معارفها من سكان تلك الأرض التي بدت أمام ناظريها أجمل بكثير، رغم بداوتها، من جميع مظاهر الحضارة في مدينة مدريد.

وارتبطت بصداقتها بكثير من الأسر، وعاشت سنواتها كلها على هذه الأرض ترمق تطور الأحداث فيها في انفعال، وكأن ما يجري بالنسبة إليها شيء هام.

وعرف أكثر سكان الصحراء لكثرة ما تجولت في قراها عنها هذا الحب فبادلوها حبها بحب.

لطالما فكرت في الاقتران بواحد من سكان الصحراء. لكن ظروف حياتها وعملها لم تهيّىء لها تلك الفرصة، فعاشت على الذكرى ترمق الحياة التي مضت والشباب الذي ولى بكثير من الحسرة، لكنها مع كل هذا تشعر بأن أجمل سنوات حياتها هي التي أمضتها في رفقة رجال الصحراء، تسمع أحاديثهم وتروي نكاتهم إلى أصدقائها وصديقاتها من الإسبان، وأجادت لطول إقامتها لغة أبناء الصحراء وفهمتها، وتمرست بعادات سكانها وكأنها جزء من هذا المجتمع الذي تعيشه.

وهي أيضاً تعرف قصة هذا الوافد وخطورة استضافته، لكنها تؤمن بأن هناك أكثر من رابطة تشدها لحب هذا الرجل.

فهي تعرف تفاصيل حبه الكبير (دولوريس) طفلة الأمس، وهي تذكر كل ذلك في تلك اللحظة فتفتر شفتاها عن ابتسامة لاحظها على الفور ضيفها الوافد الذي أخذ يسائلها عن معناها، لكنها لازمت الصمت دون أن تنبس ببنت شفة.

الفصل الثالث

استقبلت للارحمة والزهراء الإسبانيةَ كاترين بكثير من الشك والارتياب، لأنهما لم تكونا تعرفان حقيقة هذه المرأة من جهة ولكونهما جبلتا على الشك والريبة في جميع من يزورونها من الإسبان بعد أن انكشف دور زوجها بعد رحلته الأخيرة إلى المغرب، وإصراره على عودة الصحراء المغربية إلى المغرب وموريتانيا. وكانت رحلاته المتتالية إلى البلدان تلاقي الكثير من الامتعاض من الطغمة الإسبانية الحاكمة، لكن مركز الزوج كواحد من كبار الشخصيات الصحراوية جعلت الإسبان يغمضون أعينهم عن القيام بموقف ضد هذا الإنسان، الذي أخذت الصحف ووكالات الأنباء تردد تصريحاته التي يطلقها هنا وهناك.

واعتبرت للارحمة حديث الإسبانية كاترين بأنه نوع من الاستدراج للقيام بعمل مضاد تجاه زوجها فاختارت الصمت فترة من الوقت، لكنها بعد أن تلقت رسالة ولد مكناس التي أعطتها إياها كاترين تغير موقفها تجاه الإسبان، وانشرح صدرها لكلماتها، ووعدتها خيراً بأن تنقل إلى زوجها حديث ضيفها السجين القابع في منزلها ينتظر الفرصة السانحة للخروج من المأزق الذي يعيشه.

فالإسبان يعتبرون الوافد على مدينة العيون من أخطر الرجال بالنسبة لمخططاتهم، ولهذا وضعوا العين عليه، وتركوا أمر رحلته الأخيرة ليقع في المصيدة التي أفلت منها بفضل هذه الإسبانية.

ومع هذا فقد لازم الحذر للارحمة، فمضت تتحدث مع الإسبانية حديثاً طويلاً تحاول من خلاله أن تتعرف إلى خطط الإسبان من جهة،

وتعمد إلى إبعاد الشبهة عن هذه الصديقة التي جاءت لنجدة الوافد القادم من قلب الصحراء.

وأعدت مع الإسبان خطة مبسطة يجري من خلالها نقل السجين من دار الإسبانية إلى مكان آخر ومنه إلى المغرب ليكون بعيداً عن متناول الأيدي الإسبانية.

وعند عودة زوجها إلى الدار تحدثت معه في إسهاب عن المشكلة التي يعيش فيها صديق المغرب.

لكن زوجها لم يقل شيئاً وإنما مضى إلى خارج الدار لمقابلة ثلاثة من أصدقائه لبحث مشروع الخطة التي أدلت بتفاصيلها إليه زوجته.

وفي الدار الأنيقة على مقربة من الشارع الرئيسي بمدينة العيون تبادل الأصدقاء الثلاثة الحديث بينما مضت الخادمة تقدم للمجتمعين الشاي الأخضر اللذيذ.

انصب الحديث على الطريقة التي سيغادر بها (سي مجيد) مدينة العيون، وعن الأسلوب الذي سيعالج به الإسبان قضية الصحراء بعد أن تم عرضها على محكمة العدل الدولية. في الوقت الذي عادت فيه كاترين إلى بيتها تنقل تفاصيل حديثها مع للارحمة إلى ضيفها الذي قبع في مخبئه يستمع في هدوء لكلمات هذه الإسبانية.

لو كان جميع الإسبان على هذا القدر الكبير من الفهم للقضية مثل كاترين وحبيبته التي تعيش في سويسرا.

لكن الأمر جد مختلف، فالناس في إسبانيا ينظرون إلى الصحراء المغربية وذخائرها نظرة مغايرة لنظرة أصحابها من أبناء الصحراء.

فالفوسفات ومجموعة المعادن وغيرها ستكون في المستقبل بالنسبة لهم شيئاً جديداً مثيراً.

وهم يرغبون في استثمار خيرات هذه الأرض لصالح شعبهم. قد يكونون معذورين في نظرتهم هذه، فالإنسان دائماً عبد لمصالحه، ينظر إلى الدنيا من خلال هذه المصالح التي تشل حركته وتقيد من تحركه.

ومع هذا فالمستقبل للصحراء وحق الصحراء في أن تنضم إلى المغرب وموريتانيا، لقد حاولوا إخراج أكثر من حزب، ودفعوا بالعديد من رجالاتهم محاولين بهذا العمل إحباط التلاحم بين الأرض والذين يعيشون عليها، مستغلين هؤلاء الأشخاص ومصالحهم الخاصة لتكون فرصتهم الاستيلاء على نفائس الأرض بأسلوب آخر.

ولكن الناس في الصحراء عرفوا حقيقة المؤامرة فأداروا رؤوسهم لمدبريها ووقفوا وقفة رجل واحد وراء الارتباط المصيري بالمغرب.

وهم، أي الإسبان، يعرفون ذلك، ولهذا نراهم يجرون وراءه في كل مكان ليخمدوا صوته الذي يدعو إلى الالتحام الفعلي بالأرض المغربية والموريتانية، إنه ينظر إلى هذا الموضوع كأساس ومنطلق لوحدة المغرب العربي الكبير، وهو يعتقد أن في الوحدة والالتحام بين المواطنين ما سيساعد على إعلاء كلمة الله على هذه الأرض.

لقد نشر البربر التعاليم الإسلامية في أفريقيا، وبهذا الإسلام الذي يعيش على الأرض الأفريقية أوجد البربر قوة جديدة تساند هذه الأمة التي تسعى لأن تكون كما كانت خير أمة أخرجت للناس.

لقد شهد مولد أول مؤتمر للقمة عقدته المملكة العربية السعودية في الرباط ودعت إليه المغرب ليجتمع رأي هذا العالم الإسلامي على هدف واحد، هدف الالتقاء والتضامن.

وهو يرى مسيرة الخط الإسلامي في تصاعد، مع كل هذه الشعارات والإيديولوجيات التي يحاول الغرب غرسها على هذه الأرض، ويوم قدر له أن يقرأ تاريخ الملك فيصل بن عبد العزيز، كان يقارن بين تاريخ هذا الرجل العظيم والملك محمد الخامس الذي أبى أن يستمع إلى كلمات الزعيم الجزائري عباس فرحات وهو يقول له تعال نتفق على الصحراء الشرقية ما دام المستعمر يربض على أرضنا، لكن هذا الرجل رفض في إباء أن يمضي على اتفاق يتم في ظل الحكومة الجزائرية المؤقتة حتى لا يقال بأن الملك قد ساند الثورة الجزائرية لأنها أعطته الأرض التي يريد.

بهذه الصورة كان يفكر في صلابة المؤمن الذي يعتقد أن جديته وصلابته

وإيمانه بما يعتقد هو السبيل إلى الوصول للغاية التي يريدها.

لقد وضعوا أمام تحركاته الحواجز فقفز عليها، وأقاموا بينه وبين أن يصل إلى المغرب سدوداً كثيرة أخرى، لكنه سيصل حتماً إلى النهاية التي أرادها رغب الإسبان أم أبوا.

ومع هذا فهو دائماً ينظر إلى أن الإنسان مهما كانت جنسيته أو لغته أو حتى دينه مزيج من الخير والشر معاً.

وهذه المرأة وأشار إلى كاترين الخير في هذا الإنسان وضحك، والتفتت إليه كاترين وقالت:

ـ أو تضحك في هذا الموقف؟

قال وبلغته الإسبانية التي يجيدها:

ـ شر ما في هذه الدنيا من بلاوي أن تضحكنا، نحن الذين لم نتعمد هذا الضحك.

وتابع قوله:

ـ لقد أسرتني شهامتك رغم كل الذي بيننا، فكنت عوني في الوقت الذي كان الواجب يدعوك أن تكوني عوناً للآخرين علي.

أجابت كاترين:

ـ ولكنك إنسان، ابن هذا الصحراء التي أحبها.

وتابعت قولها:

ـ إنك صورة من ذلك الرجل الذي قالت لي والدتي بأنه أبي.

لقد غرست أمي في قلبي صورة حبيبها الأول ورسمت لي إطار شخصيته، فهو لا يقل كثيراً عنك جلداً وصبراً.

لقد حاول في منفاه، وأقولها اليوم، أن يفعل شيئاً لمواطنيه في المغرب، وكانت أمي تساعده، هي الراقصة المحترفة، فيما يفعل، فلطالما تنقلت تلك الشقية بين مدن المغرب والجزائر تحمل رسائله إلى إخوانه، تذكرهم بالجهاد ضد الغاصب المحتل، ويوم فقد الأمل في أن يرعوي عن موقفه تركته وفي قلبها غصة، لقد علمها والدي أشياء كثيرة منها أن الحياة بلا وطن لا تساوي

شيئاً. وأنت تعرف راقصات الفلامنكو في مدن إسبانيا، إنهن جماعة نأت بهن الأيام وقست عليهن الظروف، فلم تعطهن شيئاً إلا حلاوة الجسد، يبرزن مفاتنهن في إيقاعهن المتلاحق بلا أرض ولا سماء وحتى بلا بيت.

كانت تأمل أن تجد الأرض التي تضمها والسماء التي تظلها والبيت الذي يجمعها بحبيبها، لكن حبيبها كان هو الآخر أشبه ببدوي الصحراء يرحل مع شياهه وراء الكلأ والماء.

لقد حددوا إقامته فكان أشبه بالأسد الجريح الذي أصابته سهام الصياد وهو يلاحق فريسته بلا جدوى.

ويوم أحست أنها لن تصل إلى ما تريد تركت حبيبها إلى مدريد، لتقترن بأول رجل تصافحها عيناه ويطلب يدها في هدوء، ومع هذا ظل قلبها مع الحبيب الأسمر ترمق عودته كما ترمق أنت اليوم عودة (دولوريس).

وضحكت ثم قالت:

- ومع هذا فقد طال انتظارها بلا أمل، لكن حبيبها شنق فجر يوم من أيام الخريف، مع مجموعة من أصدقائه، لقد قرأت أمي خبر وفاته وأصدقائه فبكت كثيراً عليهم.

والآن، ألا تريد مرافقتي إلى دار للارحمة، إنهم في انتظارك.

وأجابها في يأس:

- لكن الطريق مليء بالجنود وأنا لا أخافهم، لكنني أخاف أن يعوقوا مسيرتي.

وأجابت كاترين:

- لا عليك لقد اتخذنا من الأساليب ما يكفل وصولك.

ومع هذا فلك بشرى ثانية، لقد دفع لي أحد أصدقائك بهذه الرسالة التي وردت إلى عنوانك منذ شهر، وها هم بدورهم يبعثون بها إليك.

وامتدت يد الوفد الغريب إلى الرسالة في لهفة، فهو يعرف أنها حتماً من دولوريس، وقد صدق حدسه في هذه المرة.

الفصل الرابع

"يا صديقي العزيز..

لقد ارتفعت حرارة جسدي رغم البرد القارس الذي يحيط بأجواء جنيف هذه الأيام، وأصابني الهزال لفرط إحساسي بأنك وأصدقاؤك تعانون اليوم من أساليب الذل والإساءة والتشريد أشياء كثيرة، فلقد حملت لي صحف إسبانيا حقيقة ما يجري على أرضنا، وسامحني عندما أقول ذلك لأنني وأنا في هذا الموقع أشعر بأنني عربية المولد، صحراوية المنشأ، إسبانية اللسان، لم يغفروا لي بعدك عني، فأضافوا إلى هذا البعد إصراراً عجيباً على أن أعرف كل ما يجري، فقد كانت أمي تبعث بقصاصات الصحف، بما فيها من تفصيلات عما يجري في الصحراء من مهازل.

لقد شكلوا الوفود ودفعوا ببعض أبناء جلدتك لأن يساوم على تراب أرضك بأسلوب يجعل من إسبانيا سيدة الموقف، ونقلوا المشكلة إلى محكمة العدل الدولية، وأشاعوا في الصحراء حرباً صامتة تدور رحاها بينهم وبين المخلصين أمثالك.

لقد حدثتني أمي في رسالتها الأخيرة عنك، قالت بأنك مطلوب من السلطة، وأن مصيرك الموت إذا قبضوا عليك، وقالت أشياء كثيرة.

أما أنا فقد كنت أهذي في ليلي ونهاري أدعو الله مخلصة أن يرعاك ويكلأك وأن يبعدك عن طريق القوم.

لا أدري ماذا سأقول لك في هذه الرسالة التي تعمدت أن تكون أطول من أي وقت، والتي سأبعث بها بطريق ملتو وعن يد أمينة

لتصل إليك في مخبئك. فأنا أؤمن بأنك لن تقبل بالتراجع عما تسعى إليه حتى لو طلبت أنا منك ذلك، لكنني لن أطلب هذا منك، لن أطلبه وإن كنت أرغب فيه، ففي أرض الله مكان لأنثى ورجل، هما أنت وأنا.

أو تدري يا صديقي، أنك دائماً معي بجانبي في فصول الدراسة وفي بيت الطالبات أتحدث عنك إلى زميلاتي ممن أثق فيهن؟

لقد فرغت لتوي من رسم صورة لك من الذاكرة أودعت قسماتها كل ما فيك من صلابة وعناد وإيمان وحب وتفاؤل، وأحطت الصورة بإطار من جو الصحراء النقي. بجبالها الشم وحرها القائظ، وكانت هذه الصورة عوناً لي في أن أستمر في صبري حتى عرفت ما عرفت، وعلمت أنك اليوم تجري هنا وهناك لتكون بعيداً عن يد السلطة، فمرضت. لقد عادت إلي جرثومة الملاريا التي أصابتني يوم كنت في الصحراء، وأخذت الحمى تزحف إلى كل طرف من أطراف جسدي وأنا صابرة، حتى اكتشفت مشرفة البيت ما أعانيه من آلام، فاندفعت تأتي بالطبيب الذي عرف على التو نوع إصابتي فنقلوني إلى المستشفى.

ومن هذا المستشفى أكتب إليك رسالتي هذه لا لأثنيك عن عزمك، وإنما لأقول لك شيئاً واحداً، تذكر أن كثيراً من أبناء إسبانيا معكم في محنتكم، يحبونكم، ويأملون أن ينتهي هذا الاستعمار وأن ينحسر ظله، وأن يعود الوئام بين شعبينا، وهم يحاولون من جانبهم أن يصفوا الصورة الصحيحة للحق العربي في هذه الأرض.

قد توافقني بأنني صادقة فيما أقول، وهم أيضاً صادقون فيما يفعلون، لكن الأمور لا تجري وفق صدقي أو صدقهم. إن هناك أموراً كثيرة أكبر من يومنا وغدنا لا ندري كنهها، تسير وتسيرنا معها، وما علينا إلا أن نصبر.

لقد عرفت خبر رحلتك الأخيرة إلى المغرب وعودتك ثانية إلى الصحراء، عرفتها من الجريدة المغربية (المساء LE SOIR) التي تصدر بالفرنسية، وقرأتها أكثر من مرة ورأيت صورتك في إحدى الحفلات، لا تزال قسمات وجهك تحمل بصمات الأرض التي تعيش عليها، أما وجهك فيظهر أن الشمس لوحته كثيراً فازداد اسمراراً.

لقد احتفظت بالصورة والجريدة في ألبومي، وألبومي اليوم يحمل أخباراً كثيرة سأريك إياها ذات يوم هنا في جنيف أو في مدينة العيون أو في مراكش، في الوقت الذي يأذن الله لنا فيه باللقاء.

سأخبرك بشيء جديد لا تعرف عنه شيئاً كثيراً، التحقت بالمدرسة فتاة مغربية من أسرة كبيرة، جمعتني بها ظروف الدراسة في المكتبة، وكانت خجولة أكثر من اللازم، ومع هذا استطعت أن أضمها إلى قائمة أصدقائي، وعن طريقها تعلمت أشياء كثيرة ووعيت إلى دور المغرب في قضية الصحراء.

كانت تشرح لي كل ما تعرفه أكثر منك، وهي عندما تتحدث عن المشكلة يذهب عنها خجلها وتعود امرأة لا صلة لها بملابسها وكأنها قادمة من الصحراء لتوّها.

سامحني يا عزيزي فقد أطلت في الكتابة إليك، لكنني في شوق لقراءة أي رسالة منك، فهل تفعل وتطمئنني.

لقد كتبت أكثر من رسالة إلى كاترين أسألها عنك وعن أخبارك، لكنها على ما يبدو مشغولة عني وعنك ومعها كبير حق، فالخوف لا بد يسيطر عليها في هذه الأيام، لكن صدقني إنها أكثر من صديقة، قد أغفر لها صمتها، لكنني لن أغفر لك صمتك، حاول أن تتصل بي تلفونياً من مراكش لأسمع صوتك وأتحدث إليك وأصغي لاهتماماتك، ولا تقل إن زياراتك المتكررة إلى المغرب قد أعطتك الفرصة لأن تنسى من يذكرك دائماً، فقلب المرأة يا صديقي يظل يخفق دائماً بالحب وينبض بالسعادة عندما تعرف أنها لا تزال الحبيبة إلى قلبك.

لا تدع ما يجري بين قومي وقومك يقف سداً منيعاً بيننا، فأنا سأتجاوز قريباً السن القانونية التي أستطيع من خلالها أن أعلن ما أريد وما لا أريد، ويومها لن يعود لوالدي الحق في أن يصنع بي وبقلبي ما صنع.

لقد استمتعت كثيراً بصحبة الصديقة المغربية وتناولنا الحريرة المغربية وبعض الأطعمة الأخرى التي لا يزال طعمها في فمي، فأنا كما تعرف أحب كل شيء يذكرني بالصحراء التي عشنا على أرضها أجمل فترات حياتنا.

لقد أهدتني للامريم قفطاناً مغربياً حريرياً أختال باستعماله اليوم وأنا في

طريقي إلى مبنى الطالبات بعد أن سمح لي الطبيب بالعودة إلى الدراسة.

لقد حذرني الطبيب من أشياء كثيرة وأعطاني بعض الأدوية التي أمرني باستعمالها لفترة طويلة وقال لي إن من الضرورة بمكان أن أعاود زيارته.

لكم كان كريماً هذا الطبيب، فهو يعرف أجزاء كثيرة من الشرق الأدنى التي زارها، ويتحدث في مرارة عما يجري على الأرض اللبنانية من حرب أهلية، حاولت أن أفهم أسبابها منه لكنني لم أوفق.

حاول أن تكتب لي ولو كلمة، فأنا مشوقة لقراءة ما تخطه يدك بلغتي التي أحبها، ويوم تعود الصحراء المغربية إلى أهلها سأبدأ في تعلم اللغة المغربية لألقنها لأبنائي، فلا تضحك كثيراً على ما أقول'.

واندفعت دمعة صامتة على صفحة وجه (سي مجيد) بعد أن أتم قراءة الرسالة، لكن كاترين لاحظت هذه الدمعة فأخفت ضحكتها ثم قالت:

ـ أو تبكي؟ وما هي أسباب بكائك؟

وأجابها:

ـ لا عليك، فأسباب بكائي كثيرة وأحد هذه الأسباب أنت والأخرى. فأنا بمقدار ما أحبكما أكره هؤلاء المتعجرفين الذين يسومون قومي العذاب على أرضهم.

وأجابت كاترين:

ـ لا عليك، فلسنا وحدنا الذين نحبكم، وإنما هناك الآلاف المؤلفة من أبناء قومي هم الآخرون يشاركوننا هذا الحب. ولولا هذا الحب لاستطاع الضابط الإسباني أن يلقي القبض عليك ثم يأخذك لقمة سائغة يتصرف بها رؤساؤه، إنها الحقيقة التي يجب أن تعيها، فنحن شعب عاطفي فينا من صفات العرب أشياء كثيرة نحاول أن نخفيها لكنها تبدو على وجوهنا على الرغم منا، والآن لندع كل هذ جانباً ولنمض في طريقنا إلى بيت للارحمة فالقوم في انتظارك.

الفصل الخامس

كل شيء في دار للارحمة ينبض بالحيوية، مجموعة كبيرة من نساء المدينة جئن على موعد لقضاء أمسية ناعمة في الدار الكبيرة.

مداخل الدار تعج هي الأخرى بالخدم الذين أخذوا يستقبلون الضيوف بملابسهم المراكشية المزركشة وثريات الكهرباء تعكس على الدار أضواءها البهيجة بشكل مغر.

في غمرة انشغال القوم دلفت كاترين وصديقتها من المدخل الكبير لتحتلا غرفة في أقصى الدار، يربط بينها وبين العالم جهاز راديو دقيق الصنع.

وفي الغرفة العارية الأثاث إلا من الأشياء الضرورية حطت الرحال برجل الصحراء الذي ابتسم وهو ينضو عن جسده ملابس السيدات، وازدادت ابتسامته وهو يستقبل للارحمة التي شدت على يديه في هدوء، وكبرياء الأنثى الصحراوية يحيط بملامح وجهها الذي لوحته الشمس وأخذت تقول:

ـ لا عليك، فلقد أردنا من هذه الكوميديا التي صنعناها فرصة لك للانتقال إلى هذه الدار، وأنت تعرف عيون الحراس في المنطقة.

ـ أما كاترين فقد تسمرت عيناها على صورة كانت تقبع على جدار الغرفة، وأخذت تتمعن فيها من كل جانب.

واستدارت للارحمة إلى كاترين سائلة:

ـ أو تعرفينه؟

أجابت كاترين في اعتداد:

- نعم، لكن ما هي صلة قرابته بك؟

- إنه عمي الذي قضى نحبه في مرسيليا.

وازدادت لهفة كاترين إلى معرفة التفاصيل عن الصورة سألتها بعد لحظة صمت لم تدم طويلاً:

- وأين هو الآن؟

أجابت للارحمة:

- لقد شنقوه في المنفى منذ أكثر من أربعين عاماً وهو في ذروة شبابه، لم يقترن بامرأته، لكن رسائله التي تركها تشير إلى أن له ابنة لا ندري أين هي الآن إذ إن أخبار والدتها انقطعت عنه.

قالت كاترين في عفوية وصدق:

- ما تقولينه صحيح فأنا هي الابنة.

وقصت الحكاية من أولها إلى آخرها على للارحمة التي استمعت إليها مشدوهة، وبعد فترة قالت:

- لهذا نراك مشدودة إلى هذه الأرض وأهاليها، فالدماء التي تجري يا سيدتي في عروقك مغربية.

وضحكت، ثم مضى الحديث يأخذ طريقاً آخر، استأذنت في نهايته كاترين وللارحمة للذهاب إلى الضيوف والانضمام إليهم.

واندفع سي مجيد إلى جهاز الراديو يدير مؤشره فقد انقطع عن الأخبار فترة من الوقت وهو اليوم في حاجة لمعرفة ما استجد، إن تصعيد الموقف على هذه الدرجة وحرص الحراس الإسبان على اعتقاله تعني أن مخططاته قد انكشفت، فهو يسعى لعمل كبير أخفق أن يصل إليه، لكن لا بأس، فالرجال في المغرب هم الآخرون يفكرون معه، لكن كيف سيلتقي بهؤلاء الرجال؟

إن الأعين جميعها مصوبة على كل بيت يشعر الإسبان أن صاحبه ضد مخططاتهم وهو يعرف هذه الحقيقة ويعيها، ويعرف أن الطريق إلى مراكش بعد هذا الذي جرى قد يكون عسيراً، لكنه وهو الصحراوي الأصيل يستسهل الصعب للوصول إلى مخططاته، ويعرف بأن لا مستحيل بالنسبة لما يفكر

ويريد، ولهذا فهو كما هو صامت كالدهر يعمل فكره في هدوء للوصول إلى الهدف الذي أراد.

إن الصحراء الغربية مغربية مغربية الأصل موريتانية، وأشقاؤه في البلدين يرقبون تحركاته، يضعونها في حسبانهم، يدركون معانيها لأنها الأساس والمنطلق.

لقد ولد في بيت علم، فأبوه واحد من كبار علماء الصحراء، تلقى دروسه في المغرب في جامعة القرويين، وأمه موريتانية الأصل تقرض الشعر في عفوية، وهو في ذلك البيت ولد وفيه عاش.

ولقد رزق الله أباه دزينة من الأولاد تفرق أكثرهم في أماكن عدة وبقي هو في هذه الصحراء يرقب نجومها في الليل ويطالع شمسها في النهار.

لم يسع إلى الخروج منها إلا لهدف، أما دراسته فكانت على يد ذلك الوالد الذي ورثه علوم الأرض، وشاركت أمه في توريثه حبها للشعر وقوله، كما شاركت الأسر الإسبانية التي تعيش على أرضه في تلقينه لغتها التي التقطها في ذكاء حتى أصبح يجيدها كأحد أبنائها، وساهمت الكتب العديدة التي تركها له والده في إضافة ما يريد من معلومات إلى معلوماته، وشاركت رحلاته إلى المغرب في زيادة ثقافته، فهو باحتكاكه برجال الأحزاب المختلفة في المغرب استطاع أن يصل إلى أشياء كثيرة.

عرف معنى السياسة وأهدافها، وفهم لماذا يريد المستعمر الإسباني البقاء على هذه الأرض بوجهه الصحيح تارة، وبوجوه من يصنعهم تارة أخرى.

وهو يؤمن بالشرعية وبالوحدة، ويعتقد أن الوحدة والشرعية جزءان يتمم بعضهما الآخر، ولهذا أحب أهل المغرب وموريتانيا، وجميع أبناء المغرب العربي على طول امتداد أراضيه، ولطالما أحس بالضيق والأسى للزلزال الكبير الذي أصاب مدينة أغادير، وشعر بالأسى لما نكبت به هذه المدينة.

ويوم حادثة الصخيرات أحس بخنجر مسموم يصوب إلى صدره، فهو يعرف جيداً أن الأيدي الآثمة لا ترضى أبداً أن يعيش المشرق والمغرب العربي مطلقاً في أحسن حالته.

وتابع باهتمام قضية ضرب طائرة الملك الحسن والتي نجا منها بأعجوبة،

واعتقد أيضاً بأن تلك الأيدي لا تزال تعمل في الظلام من أجل تشويه الوجه العربي على هذه الأرض المغربية.

وقرأ عن قضية فلسطين والجزائر، واستوعب جميع ما كتب عن القضيتين، وكان ينظر إلى الشعب الجزائري المسلم نظرة إكبار وإعزاز، فقد استطاع الصف العربي أن يعطي لهذا الشعب أكبر قوة ساهمت في إزالة آثار الاستعمار عن هذه الأرض العربية المسلمة.

وتوالت على ذاكرته أحداث الأمة العربية والإسلامية بما لها وما عليها كشريط سينمائي يصور أحوال هذه الأمة في أحلك فترات حياتها. فهو يعرف جيداً أن انتفاضة هذه الأمة ستغير بلا شك الكثير من مجريات الحياة على هذه الأرض بما تملك من مقومات كثيرة في مقدمتها الإيمان المطلق بالإخاء الإسلامي على هذه الأرض، وهو إنسان خبر الحياة مرها وحلوها، وعاش بعض أيام حياته شريداً في الصحراء يقتات كسرة خبز من أجل المبادىء التي يحملها. وها هي الأيام تعاود حركتها في اتجاه الانتفاضة الكبرى تتحلل بواسطتها من آثار هذا الاستعمار الذي بدأ ينحسر عن الأرض الإسلامية من خلال جهد أبنائها وتضامنهم. فلقد خرج المارد الجبار من قمقمه يقض مضجع أولئك الذين امتصوا خيراته فترة من الزمن طالت على بعض أرضه وقصرت على الأرض الأخرى.

لكنه مع كل هذا التفكير يشعر بالوحدة تطبق على صدره وهو في مضجعه يعمل فكره هنا وهناك يستنبط من الصور التي يجسدها خياله قدرته على المضي فيما عزم.

ولقد كانت حرب رمضان اللبنة الأولى في التضامن العربي، خرج بعدها سلاح رهيب استخدمه العرب ببراعة. فلقد استطاع سلاح البترول أن يخط على الأرض في العالم الصناعي المتقدم صورة جديدة لقضايا العرب وفي مقدمتها قضية فلسطين.

وهو يشعر بأن سلاحاً آخر رهيباً في طريقه إلى أيدي العرب، هذا السلاح هو المال، وهو يعي جيداً بأن الصهيونية العالمية ستقف سداً منيعاً أمام هذا السلاح لأنه وسيلتها في الضغط على الشعوب الأوروبية والشعب الأمريكي

بصفة خاصة. لقد استطاع المال اليهودي أن يجند وسائل الإعلام لخدمة أهدافه وأغراضه، وهو اليوم يخاف على ركائزه في هذه الأرض من هذا المال العربي.

لقد بدأت المؤامرات تحاك في كل مكان ضد هذا المال العربي، فالصهيونية في نظره لا يهمها الإنسان العربي أو حتى الأرض العربية، وإنما يهمها أولاً وأخيراً أن يحتوي هذا المال العربي بأية طريقة ووسيلة.

وهو حزين جداً لأن العرب لم يدركوا هذه الحقيقة إلا مؤخراً فلم يعملوا على تنمية مواهب أبنائهم في هذا السبيل.

لكنه يثق في أن إنشاء سوق إسلامية مشتركة قد تقطع الطريق أمام كل المؤامرات، يؤمن بهذا ويعتقد أن إقامة مثل هذه السوق أسهل وأسرع من جميع الإجراءات التي اتخذت بالنسبة للسوق الأوروبية المشتركة.

وهو يؤمن أيضاً بأن الرابط الذي يجمع بين العرب وبقية أبناء الأمة الإسلامية هي هذه العقيدة التي يجب أن يحافظ عليها كل عربي ومسلم.

وفي تلك اللحظة دخل عليه صاحب الدار ليستقبله في عناق ومحبة، ويمضي الاثنان في حديث طويل استغرق أكثر من ساعتين، تحدثا فيهما عن الطريقة التي سيغادر بها الضيف هذه الدار إلى مراكش هذه المرة، فالقوم هناك على أحر من الجمر للقائه، فقد حانت ساعة الخلاص من هذا الدخيل المستعمر.

الفصل السادس

أصدقاء المغرب في حيرة من أمرهم، فإسبانيا تعد العدة لفصل إقليم الصحراء تشكل بموجبه حكومتها التي تريد، ومحكمة العدل الدولية ترفض الادعاءات الإسبانية وتسقط الحق المزعوم في تصرفاتها ضد هذه الأرض، وأجهزة الراديو في مدريد والعيون تبشر بحكم محكمة العدل الدولية وكأنه كان في صالحها.

أما أوساط المثقفين في المغرب فتشعر بغموض الموقف رغم بساطة الحكم الذي صدر والذي اعتبره الإعلام المغربي نقطة انطلاق من جانبه، وبعثة هيئة الأمم لتقصي الحقائق تعيش تحت تأثير الجو الذي اصطنعته الأيدي الإسبانية، وتمت المهزلة تحت ستار استقصاء الحقائق في جو أعد بالتفاهم بين البوليزاريو وحكام الإقليم المغتصب، وجاءت نتيجة التوصيات بالحفاظ على المستوى الحالي للقوات المستعمرة.

أخذ القلق يخيم على كافة السياسيين في المغرب، فها هي الأمور في الصحراء تزداد تعقيداً وسوءاً، وسي مجيد في قمة من أحس بالقلق يلفه من رأسه حتى أخمص قدميه، فأحلامه التي بناها يحاول اليوم المستعمر بطريقة أو أخرى أن يحيلها إلى مكاسب جديدة له، ومع هذا فما عليه إلا أن يتفاءل، فالحياة لا ترضى بالتوقف. وهو يشعر الآن وكأنه في أمس الحاجة لأن ينفس عن نفسه بكتابة رسالة إلى صديقته الإسبانية.

"صديقتي العزيزة..

بمقدار ما أشعر بالحب يجتاح قلبي وأنا أنظر إلى رسالتك

الأخيرة وأكرر قراءتها، أحس بالغضب يثور في داخل نفسي على ما يجري في الصحراء.

فلقد اتخذ أبوك موقفاً جديداً أملته عليه مصلحة وظيفته فكان ما كان، وعاد الواحد منا لا يدري ماذا يريدون.

لقد حشدوا واجهة جديدة تنادي بالانفصال، غذوها بنقودهم لتكون هذه الواجهة وسيلتهم لحكم الصحراء إذا ما قدر لها أن تستقل.

لكنهم لم يجيدوا صنعتهم فأعطوا هذه الواجهة إيديولوجية غريبة يرفضها المسلم في أي مكان من هذه الأرض. ومع هذا يستمرون في لعبتهم وهم يظنون بأن مخرجهم من الورطة استمرار هذه اللعبة.

إنهم يخوضون المعارك في أكثر من مكان، ويحاولون تسليح بعض العناصر المنشقة والمندسة من بين الصحراويين ليكون عملهم هذا بمثابة رد على الذين يطالبون بالانضمام إلى المغرب وموريتانيا.

لقد ادعوا أن الصحراء أرض لا مالك لها، وأعدوا أكثر من مشروع لدستور يقوم بموجبه بعضهم بحكم الصحراء ونسوا بأن القوة الحقيقية تنبع من ذات النفس الإنسانية التي تعيش على تلك الأرض، والتي كانت ولم تزل من موقعها ترفض كل تلك المؤامرات.

لا أكذب عليك يا صديقتي عندما أقول لك بأن رسالتك الأخيرة كانت عوني في الهرب من عنجهية قومك، فأنا بمقدار ما أحس في نفسي من صلابة وحب للأرض التي أنجبتني أحس بحبي لنفسك الطيبة. ولقد سعدت أخيراً عندما عرفت أن الدماء التي تجري في عروق كاترين دماء عربية، عرفتها بالمصادفة في بيت للارحمة عندما تعرفت الأخيرة على صورة والدها، ولا تظني أن في قولي هذا ما يخجلك، فأنت على الرغم من دمائك الإسبانية إلا أنك عربية الوجه والمظهر والمخبر أيضاً.

لقد أعادت أيامي التي قضيتها في مراكش بعض الثقة التي فقدت رغم البلبلة التي عشتها، فالشعب والملك كلاهما يؤمن بما يفعل. لكن ما يريدان عمله ينتظر ساعة الصفر، ويومها سأكون في أول الذين سيغادرون مكانهم في هذه المدينة في طريقي إلى الصحراء.

ولقد أوضح الملك الحسن في خطابه الأخير بأن المغرب يريد تحرير الصحراء سلمياً لسببين هامين: أولهما أن شعب المغرب وهو الشعب العريق في أصالته لا يلجأ للحرب كحل لا سبيل غيره للحفاظ على دوره الحضاري، وثانيهما حرص هذا الشعب على المؤسسات الحضارية والعمرانية فلا تغامر بأرواح شعبها من أجل نصر عسكري يمكن أن يحققه الحل السلمي، ولهذا سيكون موعدنا مع الصحراء قريباً.

ولقد قدر لي أن ألتقي مع الملك الحسن وجهاً لوجه أكثر من مرة، وفي كل مرة كان حبي يزداد ويقيني بما يفعل من أجل الصحراء يكبر، فنحن قوم لا نصبر على ضيم ولا نبيت على إساءة.

إن العالم المتحضر يرى في تفككنا مصدر قوة ذلك من موقف الجزائر من قضيتنا، فلقد أعلن الرئيس بومدين في مؤتمر القمة بالرباط عام ١٩٧٤ بأنه سيغلق ملف الصحراء وأنه يبارك خطوات المغرب وموريتانيا.

لقد أعلنت دولة المليون شهيد رأيها الواضح فكان هذا الرأي في نظري بمثابة نقطة لقاء جديدة على أرضية السياسة العربية.

إن العالم المتحضر يرى في تفككنا مصدر قوة لالتهام أموالنا، أموال العرب التي ستهز الدنيا ذات يوم.

ولكن ما بالي أطيل هكذا في حديثي معك وأنسى أن أسألك عن حال صديقتك المغربية.

هلا تزال معك هي الأخرى تنتظر العودة إلى أرض الوطن، فأنا مشوق لأسمع أخبارك أتقصاها من هنا وهناك. فأنا بعيد عن كاترين، بعيد عن ملاعب الصبا وأرض الطفولة، أرقب السماء علها تعطينا ما نريد.

إن السواعد الفتية في الصحراء والمغرب وموريتانيا تنتظر ساعة الصفر، ليجيء الخلاص قريباً.

لكن حكمة الملك لا بد أن تتمخض عن شي جديد. لقد التقيت بكثير من الشباب والشابات في المغرب، تعرفت على بعضهم وكان جلّهم من أحزاب المعارضة، وكان غرضي من التعرف عليهم أن أتعرف أيضاً إلى ما يرونه في

الخطوة الجديدة.

صدقيني أن المغرب اليوم كله يد واحدة وراء الملك، لأنهم يؤمنون بأن الصحراء مغربية موريتانية عربية مسلمة.

ولقد أثلج صدري حديثي إلى تلك السيدة الفرنسية عقيلة صديقي بن سعيد.

لقد تحدثت لي هذه السيدة في جملة قصيرة، فقالت قولاً لا أنساه، إن إسبانيا اليوم ترتكب الحماقة ذاتها التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر، لكن ديجولاً جديداً في نظرها في الطريق إلى إسبانيا. وهي تعتقد أن الوفاق بين المغرب وموريتانيا سيضع إسبانيا أمام الحل الأصعب.

لقد التقت جميع الأحزاب المغربية على رأي واحد، رفض مبدأ تقرير المصير مع نقد عنيف لمواقف بعض الدول التي ترى أن تقرير المصير هو الأصوب.

كما أن الإجماع على أن قضية الصحراء المغربية كانت فوق كل خلاف سياسي أو اجتماعي. وهذه النظرة ليست جديدة على أبناء المغرب فبأفكارهم وسواعدهم حملوا فرنسا على أن تفتح ذراعيها لعودة الملك محمد الخامس ـ رحمه الله ـ.

صدقيني إني مشوق للقائك ولحديثك، لكن حديث الصحراء يشغل بالي اليوم فلا تؤاخذيني. إننا يا صديقتي أمة تعرف طريقها نحو الحب، ولهذا نريد أن نكون على وفاق مع شعبك الذي نكن له من الحب أضعافاً مضاعفة، إننا نريد أن نعيش أصدقاء، فإسبانيا التي لم تعترف بإسرائيل حتى اليوم هي التي لا نريد مطلقاً أن يقع تصادم بيننا وبينها.

ويقف الملك يعلن باختصار تنظيم المسيرة الخضراء من شمال المغرب إلى جنوبه، ومن مشرقه إلى غربه.

مسيرة تضم الألوف المؤلفة من أبناء العرب، من أبناء المغرب، من كل الأصدقاء، مسيرة بلا سلاح، تسترد الصحراء.

هكذا أعلن الملك ونحن اليوم نعد عدتنا للقاء إخواننا الذين تتقاطر

أخبارهم من كل مكان، جاؤوا كرمز لمعايشة قضية المغرب، والسير ضمن رجالاته في مسيرته السلمية نحو هدفه الأسمى.

لا أدري بماذا سيكون الرد من جانب إسبانيا، لكنني لطول معرفتي بالكثير من أبنائه أحس بأن إسبانيا ستستجيب، مجرد إلهام وحدس داخلي يعلنه قلبي الذي يحبك، لا تشترك في إيماني به حسابات الساسة أو حتى تعليق المعلقين.

هكذا أنا كما تعرفينني صادق الإحساس، ولهذا أريدك أن تأتي، أن تشاركيني المسيرة، فهذا في رأيي يشد أزري ويعطيني قوة ويمنحني الصلابة.

ولا أظنك تعدمين الوسيلة، فأنا من جانبي سأفعل كل ما أستطيع لأن تأتي، وسأطلب من صديقي بن خلدون الطالب في جامعة سويسرا أن يعينك على الرحيل، ويوم تصلين إلى هنا سيكون لنا حديث آخر.

لقد رأيت هلالة وأنا في الطريق إلى قصر الملك، رأيتها بجلبابها الأبيض تسير بسرعة عجيبة، ولكن مجرد إطلالي عليها جعلها تتوقف، ولقد تحدثت معي حديثاً طويلاً وقالت لي بأنها رأت والدتك وزارت إخوانك في مدريد، وعرفت منهم أنهم يعرفون أنك تراسلينني، بعد كل ما فعلوا، وكان أكثر الناس غضباً من هذه المراسلة أختك الكبيرة التي زوجوها لرجل مسن من أبناء قومك كل رأس ماله أنه يملك عدة قصور وأراض، وهي تريد أن يكون زفافك أنت لواحد من هؤلاء الناس.

ولقد ضحكنا كثيراً لهذا الكلام، فأنا وأنت نعرف مكانتنا في هذه الدنيا، إنها بين الصحراء الخيرة هناك على أرض تلك القرية الصغيرة، على مقربة من البيت القديم الذي شاركنا في طلاء جدرانه يوماً ما.

إن البيت القديم في حاجة إلى ترميم، ولكن يدي لن تمتد إليه إلا بعد عودتك وعودة الصحراء إلى أهلها، ولك حبي".

الفصل السابع

شادية بوجهها القمحي، وشعرها الأسود الكثيف، وعينيها السوداوين النجلاوين، وقد ارتدت ملابسها الطويلة على جسدها الممشوق، تخطو بين صيحات الإعجاب وأصوات التصفيق تسد جنبات الحانة التي اتسعت لأعداد كبيرة من علية القوم جاؤوا يستمعون إلى صوت المغنية الحنون صاحبة الثمانية عشر ربيعاً في إحدى حانات مدينة (كازبلانكا) الدار البيضاء. وراقصات الفلامنكو الإسبانيات بملابسهن المزركشة وقد اصطففن على جنبات المسرح، يلقين بأزهارهن على الجسد الأسمر، وابتسامة الرضى تفتر عن ثغر المغنية الباسم وكأنها عروس تخطو أول خطواتها إلى عش الزوجية الصغيرة.

الموسيقى الشرقية ترتفع في مقدمتها الراقصة تعبر في تصوير رائع عن أجواء الصحراء ولياليها، وصوت الناي يداعب الآذان الحانية إلى أيام افتقدوها كثيراً، وصوت المغنية يرتفع في نبراته العربية الواضحة، كانت كلمات الأغنية مزيجاً فريداً من التغني بالصحراء التي اقتطعت عن الأرض الأصيلة ومرابعها الجميلة وفتياتها الجميلات، وصدى الأغنية يصافح آذان القوم في عذوبة وكأنه يجسد في تلك اللحظة صدى الدعوة التي انفرد بسماعها العالم، مسيرة الخير إلى أرض الخير.

ويستقبل الناس كلمات الأغنية ويرددونها مع صوت المغنية في إحساس عميق بمعانيها، فلقد كانت كل كلمة فيها تعني موقفاً معيناً أراد به شاعرها أن يقولها في تلك اللحظة.

وهو قابع على كرسيه ينظر إلى فتاته نظرة رضى، فالمغنية ليست عادية وإنما فتاة مثقفة، اختارت الوقت المناسب لتطل على الناس بهذه الأغنية، تدرس الحقوق في جامعة بريطانيا، جاءت على عجل مع رفيقها في الدرس بعد أن استمعت إلى دعوة المسيرة لتلهب آذان القوم بالكلمات التي رسمها صديق الدراسة القابع على كرسيه، والناس من وراء الفتاة يتطلعون إلى الوجه الأسمر الذي تنفعل قسماته مع كل كلمة، فلقد اختارت شادية الوقت المناسب لتقول كلمتها من خلال الأغنية وكأنها تجسد بكلمات الشاعر حقيقة أماني هذا الشعب الذي بات يعيش في انتظار المسيرة من منطقة أفني التي استرجعها الملك الحسن الثاني عام ١٩٦٥. وتنتهي الأغنية ليعود صوت المغنية هذه المرة بالكلمات ذاتها ولكن بلغة إسبانية وبلحن جديد ترقص عليه الفتيات الإسبانيات بمراوحهن الخضراء وثيابهن المزركشة رقصة أراد مصممها أن تعطي طابع الصحراء بعد أن تحررت من حكم المستعمر. وكانت لوحات الأغنية بمثابة دليل جديد على أن الفن قد يصبح في بعض الأحيان في خدمة العمل السياسي.

وهو يرقب كل ذلك عن رضى، حتى إذا ما انتهت الأغنية أعلنت الفتاة أنها ستغني هذه الأغنية مع رفيقاتها وهن في الطريق مع المسيرة الخضراء إلى العيون، إلى صحراء المغرب.

شباب المغرب في جميع مدنه وقراه يتحدثون عن المسيرة الخضراء بكثير من الأهمية على اعتبار أنها أول عمل من نوعه، ينفذ على أرض العرب، ومن حول هؤلاء الشباب العربي المسلم الذي يتطلع هو الآخر إلى العمل المغربي الكبير باعتباره الشيء الوحيد الذي يجب أن يتم.

فالمغرب حريص على صداقة إسبانيا رغم ما يجري، والعرب هم الآخرون حريصون على هذه الصداقة، والمسيرة في حد ذاتها تعبير عفوي عن إيمان هذه الأمة بضرورة تواجد السلام في المنطقة. وهناك في مراكش تحلّق الشباب في الجامعات يتحدثون في إسهاب عن الخطوة التي اتخذها الملك وباركها جميع المسؤولين في العالم العربي، ومع هذا أخذ الإعلام الجزائري موقفاً مغايراً لموقف الرئيس بومدين الذي كان قد أغلق ملف الصحراء.

والجماهير المغربية في طريقها إلى مقاطعة افني تواصل السير من كل مكان حتى نقطة الالتقاء. أما هي.. دولوريس ففي طريقها إلى الرباط بعد رحلة طويلة، فلقد قرأت رسالة صديقها التي بعث بها إليها، وتدبرت أمرها مع الصديق المغربي الذي هيأ لها وسائل السفر.

في الرباط كان لقاء حار ضم بين دولوريس وسي مجيد الذي كان قد اعتزم أمراً، فالفتاة قد بلغت سن الرشد وأصبحت حرة في اختيار الشريك الذي تراه.

وفي صالة الفندق الصغير الذي اختاره سي مجيد لسكنى زوجة المستقبل، كان لقاء آخر شارك فيه أحد كبار رجال الدين وصديقان من أصدقاء سي مجيد.

ويومها عقد قران الإسبانية على سي مجيد في هدوء ورتابة، لكن سي مجيد كان مصمماً على أن يكون زفافهما بعد انتهاء المشكلة، فأصر على بقاء الزوجة في الفندق ريثما يتدبر أمره.

الليل يغري بالحديث، (دولوريس) في غرفتها بمفردها تناجي السماء ونجومها المتلألئة، فها هي الظروف قد سنحت بالعودة مرة أخرى إلى الديار، ولقاء وليفها الذي طال انتظارها له.

ومع هذا تظل في انتظاره رغم كل ما تم في صباح اليوم نفسه، فهي وإن كانت تعد نفسها زوجة لسي مجيد إلا أن سي مجيد يريد أن يحتفي بهذه المناسبة فيتركها فريسة إخلاصها كسابق عهده.

وتطل الذكريات صورة صورة منذ يوم مولدها حتى يوم عقد قرانها كيف مرت تلك الأيام.

لقد اختارت حياتها بنفسها عن رضى، وهي اليوم في قمة السعادة رغم كل ما تعرفه من أنها ستكون بعيدة عن بلادها وأهلها ووالديها وإخوانها على الخصوص.

قد يكون المستقبل بالنسبة إليها معروفاً، فالبيت الذي تحلم به، والأرض التي أحبت ستكون أرضها وبيتها وستلد أولادها على تلك الأرض وبين جنبات البيت، وستسمي بناتها بأسماء بنات الصحراء التي أحبت.

لكن ترى كيف ستكون المسيرة، وكيف سيستقبلها قومها؟

شيء من الخوف بدأ يداخل نفسها، يتغلغل في أحشائها ليس على نفسها أو حتى على سي مجيد، وإنما على هذه الألوف المؤلفة من شباب العرب وشاباته الذين سيمضون بالمسيرة إلى الصحراء.

إنها تخاف من عناد قومها وصلفهم، تخاف من عدم فهمهم لمعنى المسيرة الخضراء، وعندها سيصبح لون المسيرة لوناً آخر غير هذا اللون المحبب إلى نفسها، وهي تكره اللون الأحمر في كل شيء.

حتى مصارعة الثيران، الرياضة المحببة للعديد من أبناء إسبانيا تكرهها، وتعتقد بأنها عمل وحشي يحيل حلبة الصراع إلى لون القطعة الحمراء ذاتها التي يداعب بها المصارع الثور.

وهي تكره رؤية الدماء حتى في حالات صراع الثيران.

لكن لماذا تطل كل هذه الأفكار السوداء في رأسها اليوم، لا تدري، ولو أنها تحاول أن تقذف بها بعيداً عن مخيلتها، وأخذت تنضو عن نفسها أفكارها ومضت تطالع آخر رسالة تلقتها من والدتها قبيل مغادرتها سويسرا، كانت الرسالة إنذاراً من والدتها لها، بقطع صلتها وصلة الأسرة إذا هي أقدمت على خطوتها في اللحاق بسي مجيد في الصحراء.

لقد عرفت أمها ذلك من رسالتها التي دفعت بها إلى البريد منذ أكثر من شهر، لقد حاولت أن تسترضي هذه الأم وأن تشعرها بإنسانية ابن الصحراء، ومجتمع الصحراء، لكن أمها لم تكن قريبة من جميع ما قالته ابنتها لها.

وأخلدت إلى الصمت فترة، حتى إذا ما دق جرس التلفون أمسكت بالسماعة ليجيء صوت أختها عبر سلاكه مزمجراً مهدداً.

ولقد حاولت تهدئة خاطر هذه الأخت التي جاءت إلى كازابلانكا في رحلة سريعة قصدها منها إعادة أختها إلى حظيرة الصواب.

ودار الحديث بين الأختين فترة من الوقت قطعته أختها حانقة، فلقد عرفت حقيقة ما جرى وهي أن أختها قد اقترنت بسي مجيد، وهو أمر بالنسبة إليها ولأسرتها من الخطورة بمكان.

ترى أين سي مجيد الآن؟

وجاءها الجواب في هذه المرة بأسرع مما تتصور، فقد كان سي مجيد على الطرف الآخر من الهاتف فأفضت إليه بأمر المكالمة التلفونية التي تلقتها من أختها.

لكن هذا الآخر طمأنها في جدية وقال لها:

ـ لا عليك، فأنت اليوم امرأة أخرى غير تلك الإسبانية.

أنت مواطنة من الصحراء التي نحبها.

أنت زوجتي يا دولوريس.

الفصل الثامن

استقبل الأستاذ أحمد بن سودة في الديوان الملكي المغربي سي مجيد الذي جاء مرتدياً ملابس الصحراء في محبة، ودفع بكامل الملف الذي كان يحمله في يده إلى القادم الذي أخذ يقلب صفحاته في هدوء وروية.

ولقد انتظم الملف مجموعة من الأوراق والمستندات القانونية، وعدة كلمات كان قد أفضى بها الملك الحسن إلى الشعب المغربي وإلى وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام العالمية.

أخذ سي مجيد يقرأ الملف بعناية رغم معرفته بجميع تفصيلاته، لكنه في تلك اللحظة كان أحوج ما يكون إلى استرجاع الكثير من التفصيلات.

وفي المساء سيلقي سي مجيد بمحاضرته أمام العديد من طلاب جامعة الرباط، الذين كانوا ينتظرون هذه اللحظة ليستمعوا إلى حديث الرجل القادم من الصحراء، وهو يعرف أن العالم المتقدم بأسره، صاحب الصناعات الثقيلة يرفض قيام مغرب موحد قوي يستطيع أن يتحكم في مداخل البحر الأبيض ثم يمتد عبر المحيط الأطلسي في لقاء مع أفريقيا وراء الصحراء.

ولهذا كان رأي إسبانيا أن تقوم دويلة الصحراء بفقرها في التكوين والكوادر البشرية لتكون لقمة سائغة بين يديه يوجهها كيفما يريد.

قد تقضي مصلحة إسبانيا أن ترتبط مع الدولة الماركسية التي تريد زرعها في الصحراء رغم الاختلاف في المذاهب السياسية على

اعتبار أن اليسار أقدر على التجزئة والانفصال، بالإضافة إلى أن عدم شعبية هذه الدويلة تجعلها دائماً في حاجة إلى سند قوي يدعم تواجدها على الأرض المسلمة.

ولقد استطاع الإسبان خلق مجموعة من أبناء الصحراء ترغب في الانفصال على أساس أنه الوسيلة للكسب الذاتي المادي والمعنوي.

عجيب أمر هذه الحياة، فها هو ابن الصحراء الأصيل يقف اليوم على أرض هذه الغرفة يقرأ ملف الصحراء، هو الذي حفظه عن ظهر قلب، لكن لا بأس، فالشباب اليوم يهمهم معرفة الخلفيات في أي موضوع كان، وهو قادر على إعطاء هذه الخلفيات.

ويطل الملك الحسن الثاني بكامل هيبته ووقاره ليلقي بتحية الصباح على ضيفه الذي هش لمقابلته.

ويتباسط الملك مع ضيفه فيسأله عن الإسبانية التي استطاع أن يغريها بالعيش في الصحراء.

ويجيب سي مجيد في تواضع:

ـ قد أكون أنا الذي أقنعتها، لكنك أنت الوحيد القادر على إقناع ملايين الإسبان بحقيقة ما نريد، فالصحراء مغربية موريتانية يجب أن ترتبط بالأرض المسلمة.

ويبتسم الملك في عفوية ثم يمضي في طريقه إلى لقاء آخر.

ويطل على الغرفة الكاتب الشرقي الذي أحب المغرب، الأستاذ أحمد عسه، ليلقي التحية بكلماته المهذبة، ثم يمضي في حديث طويل يفضي من خلاله بجميع أفكاره وآرائه إلى سي مجيد الذي يستمع في دهشة، فهو يقابل الرجل لأول مرة في حياته.

لكنه يشعر بحب غريب يداخل قلبه تجاه هذا الرجل الذي استطاع خلال إقامته القصيرة أن يتعرف إلى جميع جوانب الحياة في هذه البلاد ثم يودعها كتابه الضخم (معجزة المغرب). لقد قرأ الكتاب يوم اشتراه من إحدى مكتبات المغرب، لكنه لم يكن يعرف أن هذا الرجل من المشرق وإنما كان يظنه واحداً

من أبناء المغرب.

وأفضى سي مجيد بكلماته إلى الأستاذ أحمد الذي رد عليها في بساطة قائلاً:

ـ قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكن صدقني فنحن وإن كنا نعيش في المشرق لكن قلوبنا مع المغرب دائماً.

إن الكثيرين من أصدقائي يودون أن يعيش المغرب بعيداً عن عنعنات المشرق وما جرى على أرضه، ولهذا يهولهم أن لا يكون هناك وفاق على أرضه، ويسوؤهم أن ينبري أي جزء من أجزاء المغرب لمهاجمة أي جزء آخر. لقد جربنا الفرقة فدمغتنا بالتأخر، ويوم صحونا صحوتنا تلك على يد الملك فيصل الذي دعا إلى التضامن الإسلامي، والذي هوجم من أكثر من طرف من أجل هذه الدعوة، لكن هذه الدعوة كانت حجر الأساس في كسبنا لمعركة رمضان وبعدها معركة البترول.

إن المملكة العربية السعودية بقيادتها الواعية الجديدة تسير في نفس الطريق، وهي شقيقة مخلصة للمغرب وسند كريم لأبنائه، ولهذا تراني أتنقل بين السعودية والمغرب.

وتابع الأستاذ أحمد قوله:

ـ صدقني، إن شباب هذه الأمة العربية ينطلق اليوم إلى الأفضل إذا سار على الدرب في طريق التضامن، ويومها لن يكون هناك خلاف بين أي بلد وبلد عربي آخر، سيختفي الخلاف ليحل محله التنافس، أي بلد من البلدان العربية يستطيع أن يمضي في مسيرته بخطى أكبر من أجل التنمية بجميع أنواعها، هذه هي الحقيقة التي يخافها العدو، ولهذا تراهم يخلقون لنا المشاكل لننصرف عمّا نريد إلى ما لا نريد.

ويرتفع صوت الأستاذ أحمد بن سودة في كلمات من يعرف مشاكل المشرق والمغرب لكثرة ما عاصرها، سواء عندما كان سفيراً لحكومته في لبنان أو أثناء تردده على المملكة العربية السعودية وبقية البلدان العربية قائلاً:

ـ لقد انشغل العالم العربي في مشرقه، بما زرع له من مشكلات كانت ولم

تزل بفعل أولئك الذين يؤمنون بأن استقرار المشرق يجب أن لا يكون، ومع هذا فالصفوة المختارة من أبنائه استطاعت أن تعي طريقها وتفهم اللعبة، وتعيها ثم تنبذها، ولا أشك أن المستقبل لهذه الصفوة التي يزداد عددها مع الأيام.

لقد ربطت المغرب بالمملكة العربية السعودية صلات الدم واللغة والدين، فكانت الأساس والمنطلق لهذه الأخوة التي تلمسها تطل في كل مكان من هذه الدنيا.

فجلالة الملك الحسن يشعر بالحب والتقدير لجلالة الملك خالد وولي عهده، ويؤمن بأن البناء الذي شاده الفيصل قد أسلمه إلى أيد أمينة ترعاه وتحافظ عليه وتزيد من بنائه.

ومضى إلى مكتبه يفتح أحد أدراجه ليخرج منه رسالة كانت قد وصلت قبل مدة تشير إلى عزم عدد كبير من أبناء السعودية للمضي مع المسيرة الخضراء وقال:

ـ إن في هذا التلاحم بين المغرب والسعودية معاني سامية لا يجهلها المحب ولا ينكرها عدونا المشترك، فالإسلام بجناحيه في المشرق والمغرب سيظل بإذن الله مرهوب الجانب ما دامت قياداته على هذا المستوى من الإيمان والتفاعل.

لكننا مع كل هذا نؤمن بحتمية الوصول إلى أهدافنا السلمية، فنحن بالإضافة إلى حقنا في الأرض الصحراوية نحافظ على صداقاتنا وما يربطنا بإسبانيا.

إن المسيرة التي اختارها الملك الحسن لتكون وسيلتنا إلى صون حقنا في الصحراء الغربية لم تكن وليدة اليوم والساعة، وإنما جاءت بعد تخطيط واع ودراسة شاملة لواقع الأمة العربية وقدراتها وإمكانياتها وأمانيها في العيش بسلام مع جميع الشعوب المحبة للسلام، فنحن نعشق السلام ولا نرضى بأن تراق أية قطرة دم على أرضنا إذا كان بإمكاننا أن نصل إلى هذا الحق بالطرق السلمية.

إن السلام بالنسبة لنا في المغرب أكثر من أمنية نسعى إلى ترسيخ مفاهيمها في العقول المؤمنة التي تأمل في بناء إمكاناتها وقدرتها في ظل السواعد الشابة

المؤمنة التي تتطلع إلى العمل الإيجابي الجاد من أجل الأسرة العالمية لتعيش هذه الشعوب في وفاق جاد، لا تؤثر فيها اختلاف المحاور ولا تطلعاتها.

وكل ما نرجوه أن يتفهم أصدقاؤنا في مدريد المعاني السامية من وراء هذه المسيرة التي تحمل على كتفيها أغصان الزيتون تلوح بها لكل الناس.

إنها مسيرة الخير الذي نرجوه والوفاق الذي نصبو إليه، والصداقة التي نتطلع إليها ليس فقط بالنسبة لإسبانيا وإنما لجميع الشعوب المحبة للسلام، لقد أراد الملك الحسن أن يعطي أحسن ما عنده لحل مشكلة مستعصية كمشكلة الصحراء، فلندع جميعاً بأن يوفق الله هذا الشعب للوصول إلى أهدافه وغاياته.

وترقرقت دمعة ساخنة على وجنتي سي مجيد الذي أخذ يتمتم بكلمات عربية صحراوية أودعها كل إيمانه بما يصنع اليوم من أجل عودة الصحراء، وملء عينيه أمان كثيرة كانت تطل في تلك اللحظة من مخيلته كشريط سينمائي شاهد من خلاله البيت القديم والجديد معاً على أرض تلك القرية، والمعيزات الصغار تلهو بجانب أطفاله، وعلى مقربة بيته بناء شامخ سأل عنه فقيل له: مصنع الأبطال، المدرسة التي أقيمت مؤخراً لتكون وسيلة لتعليم أبناء القرية الصغيرة معاني الحياة الحقيقية التي يتطلع إليها الصحراوي في الاستفادة من خيرات بلاده.

فلقد استمع في اللحظات التي أمضاها إلى شخصيات وأناس أكدوا له حقيقة ما يؤمن، بأسلوب يتميز بالحب والعطاء والعاطفة في وقت واحد.

وأدار رأسه إلى القوم مؤمناً على كلماتهم ولسان حاله يتطلع إلى اللحظة التي تستطيع فيه المسيرة الخضراء أن تبدأ، فالناس في طريقهم إلى نقطة البداية، ولا بد أن يكون هو وعروسه معهم في انطلاقتهم تلك.

ذلك ما يأمل وما يصبو إليه.

الفصل التاسع

صلاة الشكر تسبق المسيرة وكأنها تؤرخ بهذه الصلاة لمسيرة جديدة من مسيرات الإسلام بعد ألف وثلاثمائة وتسعة وثمانين عاماً.

فلقد خرج أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألفاً من مواطني المغرب إلى الصحراء يعلنون بهذه المسيرة خطوة جديدة من خطوات المغرب للوصول إلى الحق في صحرائها.

وفي مقدمة المسيرة شباب وفتيات جاؤوا من كل مكان في المغرب دفع بهم إيمانهم المطلق بحق مواطنيهم في امتلاك الأرض، إلى أن يذهبوا مسالمين وكأنهم مدعوون إلى حفلة عرس.

وسي مجيد بملابسه الصحراوية مشرئب العنق يتطلع إلى الأمام وبجانبه عروسه الإسبانية، وقد تحلت بلباسها المغربي الذي أهدته إليها صديقتها المغربية.

وفتيات المغرب المثقفات يرافقن المسيرة وعلى مقربة منهن فتاة الأمس تنشد أنشودة الخلاص.

مهرجان ضخم ضم ألواناً من النساء والرجال معاً، جاؤوا من كل فج وصوب، يحطون قلوبهم على أكفهم ورؤوسهم شامخة إلى السماء تتطلع إلى المعجزة التي لا بد وأن تتحقق.

ويسير الجيش اللجب بلا سلاح سوى ذلك الإيمان الذي يغلف القلوب.

الأعلام التي ارتفعت تدل على شخصيات المشاركين في هذه المسيرة، فمن كل قطر عربي رمز، جاؤوا ليلتقوا مع إخوانهم في

عمل يعتبر في تاريخ العالم المعاصر شيئاً جديداً لم يعرفه الناس، إلا إذا عادوا إلى كتب التاريخ يستنبطون منها مسيرة محمد بن عبد الله إلى مكة المكرمة، تلك المسيرة التي عاد منها وأصحابه بصلح الحديبية.

ويرتفع صوت المؤذن منادياً لصلاة الظهر، فيصطف الرجال في المقدمة والنساء في المؤخرة يؤدون الصلاة، وهم في صفوفهم تلك يعيدون تاريخ الإسلام وحضارته. فهذه الأمة التي وهبها الله كل هذا الخير لا يمكن أن تعيش على الضيم أو ترضى بالاستكانة.

هكذا كان يقولها سي مجيد وهو يتحدث إلى عروسه وهما في الطريق إلى العيون في مسيرة من مسيرات الخير، فلطالما أمضى حياته يجوب هذه الفيافي، لكنها اليوم شيء آخر.

إن روح الطمأنينة تسيطر على نفسه، تلهب جوارحه، تحيل حياته إلى إنسان آخر غير ذلك الإنسان.

لقد بدت الابتسامة تطل من بين شفتيه هذه المرة بمدلولها الصحيح وكأنها تعلن عن الشكر لصانع هذه المسيرة.

وفتاته الإسبانية بجانبه تتلقى التهاني من زميلاتها اللواتي عرفن الحكاية، فمع نهاية المسيرة سيكون عقد قران هذه الفتاة على عريسها، ونفسها تصبو للقاء وليفها على انفراد.

لقد شاءت لها الأقدار زفافاً من نوع جديد لم تحظ به أية فتاة، فلم يحصل في التاريخ أن حضر مثل هذا العدد الكبير زفاف امرأة، ولكن زفاف اليوم اقتران بزفاف آخر، فهذه الجموع الكبيرة تمضي في طريقها لتزف للصحراء التقاءها مع المغرب وموريتانيا.

وهو في فرحته الغامرة يكاد ينسى كاترين، ترى أين هي الآن؟

لقد عرف أكثر المسؤولين في المغرب قصة هذه الإسبانية العربية في آن واحد، وهو يريد أن يراها ويرى للارحمة وأصدقاءه في العيون.

وتتحلق الطائرات الإسبانية ترقب سير المسيرة، لكن الناس لم يلتفتوا إليها لأنهم كانوا مؤمنين بما يفعلون.

وفي الليل جاء أحدهم ليوقظ سي مجيد مشيراً إلى المرأة التي أمامه.

هبّ سي مجيد من نومه لتلتقي عيناه بعيني كاترين في هذه المرة، لقد هربت المرأة من دارها في العيون لتكون في استقبال المسيرة وجل همها أن ترى سي مجيد وعروسه الإسبانية، لقد حرمت هي من أن تقترن بأي رجل، وحرمت أمها في الماضي بالاقتران بوالدها، ولهذا فهي اليوم تريد أن تشهد شيئاً حرمتها الأقدار منه ووهبتها لواحدة من بنات جنسها حتى ولو كانت هذه الجنسية عن طريق الأم.

وتلتقي الأيدي، يد الفتاة الإسبانية وسي مجيد وكاترين مع بعض، وتلتف الأجساد الطرية مع جسد المرأة العجوز في عناق أخوي، وترتفع زغرودة إحداهن وهي تطالع هذا المشهد.

أما مضيفة الأمس فقد جاءت على عجل ترقب الصورة الفريدة في شوق، فلقد تعرفت هي الأخرى على حكاية سي مجيد، ويلتم شمل الجميع في دوائر ملتصقة، وينقلب ظلام الليل إلى نهار مرة أخرى.

ويأخذ الجميع في ترديد أغنية النصر، وكأنها الوسيلة على إشاعة الحب في القلوب التي فطرت على الحب.

وتمضي كاترين في حديثها مع صديقتها الصغيرة لتقول في همس:

ـ لقد رأيت والدك في العيون وكأن مصيبة كبرى قد نزلت بساحته، فلقد أدرك أنك في الطريق إليه ضمن هذه المسيرة وهذا ما يحز في نفسه، لقد قال لي إنه يبارك زواجك فهو أمر يختص بك، لكن أن يكون مجيئك رفق هذه المسيرة فهو الأمر الذي لم يكن يرجوه أو حتى يتوقعه.

لقد أمضيت معه يوماً ساخناً تحدثنا فيه كثيراً، وكم كنت أود لو أنني استطعت أن أقنعه بما فعلت، لكنه كان متأثراً غاية التأثر، إنه ينظر إلى هذا الأمر من زاوية كبرياء الإسباني، ومع اختلافي معه في وجهة نظره هذه إلا أنني أحترم كل أفكاره.

والتفت سي مجيد إلى كاترين وكان ينصت إلى الحديث وقال:

ـ وأنا الآخر أحترم وجهة النظر هذه، لكن قلبي مع هذا يحدثني بأنه

سيستقبلنا استقبالاً رائعاً، لا تسأليني عن الأسباب فأنا لا أستطيع أن أقول شيئاً ذا منطق، لكنه مجرد حدس وإحساس أكاد أراه وأحس به.

إن هؤلاء الإسبان يشدنا إليهم الكثير من الأواصر والمودة. وقد ازدادت هذه الأواصر أخيراً ترابطاً وتماسكاً.

ونظر إلى قرينته ضاحكاً وتابع:

ـ لقد علمتني الأحداث أن لا أسير في ركاب ما يجري، وأن أنظر إلى الأمور نظرة تاريخية محضة، فروابط القربى بين العرب والإسبان عميقة الجذور تمتد عبر مئات السنين، إلى ذلك اليوم الذي كان العرب يعيشون فيه على أرض الأندلس، يزرعون حضارتهم ويبنون قصورهم ويشيدون دور العلم يعمرون الأرض.

إن ظواهر الأمور التي تشير إلى أن الحرب قادمة بين الإسبان والمغاربة لا تخيفني لأنها لن تحصل، فمسيرتنا كما نريد مسيرة خضراء تتخذ أسلوباً فريداً ومميزاً، نعلن بهذا الأسلوب عن حقنا في الأرض التي سلخت.

أو ترين هؤلاء الشباب بعضهم من الصحراء تلقوا علومهم في جامعات إسبانيا، فرصهم في اكتساب المراكز الرفيعة في الصحراء كبيرة لو أرادوا وساروا مع إسبانيا في لعبتها، لكنهم رفضوا كل تلك المغريات بإباء وشمم، وجاؤوا كمواطنين عاديين يدخلون أراضيهم رفق إخوة لهم يكنون لهم الحب، وهم فيما يفعلون صادقون لأنه العمل الطيب يأتي من أعماق القلب بعد طول إيمان.

انظري إلى تلك الفتاة التي نضت عن جسدها ملابس باريس ولندن، وتركت مساحيق التجميل في مخدع نومها في الدار البيضاء وارتدت ملابس الجدات، كيف تسير وهي مشدودة الظهر بعد أن نسيت أو تناست الغنى في طريقة مشيتها، إنها تنظر إليك نظرتها لإنسانة حبيبة على قلبها، تسير معها إلى الغاية، إلى الهدف، إلى الأمل المنشود، فتراب الصحراء عزيز عليها.

وتطلعي إلى هذا الرجل صاحب الجلباب الأبيض بابتسامته الوقور، لقد جاء من قلب الصحراء من مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وملء قلبه إيمان بأن في مساندته لإخوته في المغرب إنما يدفع ضريبة الأخوة

والإسلام التي فرضها عليه إيمانه وعقيدته وهو راض بهذا التقشف.

لقد آخى الإسلام بين أبناء هذه الأمة وربط بين قلوبها فآمنت بالعمل المشترك من أجل الصحراء ومن يعيش على أرض الصحراء. إن العالم بأسره يتطلع في دهشة إلى أخبار هذه المسيرة، فهي ثاني مسيرة في تاريخ هذا العالم الإسلامي.

صدقيني إنني أفكر اليوم في مسيرة أخرى ثالثة، ربما يعطينا الله العمر فنصنعها، وهذه المسيرة مسيرة هذه الأمة إلى القدس المغتصبة، ويومها سأكون وعروسي ضمن الملايين التي ستأتي من جميع بقاع عالمنا الإسلامي.

لا تسأليني عن سر تفاؤلي بنتيجة المسيرة لأنني أنا شخصياً لا أدري عن أسباب هذا التفاؤل، لكنني أستطيع أن أجزم بأن حياة جديدة سترتبط بيننا وبين أصدقائنا الإسبان، ويوم تنتهي هذه المشكلة سأسير إلى مدريد برفقة زوجتي هذه لأتحدث إلى الأم الغاضبة عساها أن ترضى، فرضاء الوالدين بالنسبة لنا أمر مهم، وأنا سأسعى بكل جهدي لإعادة الصفاء بين أسرتي وأسرة زوجتي.

وصمت.

الفصل العاشر

وتتتابع الأيام وتمضي المسيرة في طريقها المرسوم تنهب طريق الصحراء في زخم المؤمن الذي يرى أن ما خطط له قد تحقق أو يكاد أن يتحقق.

وأفواج الناس من مختلف الطبقات تنتظم المسيرة التي أخذت خطها المرسوم في عناية وكأنها تعلن بتلاحمها ذلك صورة رائعة للمعاني الخيرة لهذا الدين الإسلامي الذي يحث على السلام وعلى المحبة والتعاون.

والعالم يرقب المسيرة في هلع، وكأنه يخاف من هذه الأيدي التي ترتفع بالسلام والحناجر التي تنادي بالمحبة.

والحسن في قمة مجده يشارك شعبه المسيرة ولسان حاله يقول: اللهم انصر عبيدك فهم قد خرجوا لطاعتك.

وترتفع الرايات خفاقة في كل مكان وكل لون، وكأنها تشير بألوانها الزاهية المتعددة إلى أصحابها الذين جاؤوا ليساهموا في المسيرة بخطوات الواثقين المؤمنين.

وعبد الوهاب بن منصور الشاب المثقف المريض بالقلب الذي ترك عمله في الديوان الملكي ليؤدي واجبه رغم كل ما يعتمل في جسده من مرض، صورة فريدة للإيمان بالأرض والوطن والتراث خلدتها مسيرة هذا الشاب الذي بكته الألوف المؤلفة وهم يوارون جسده تراب الصحراء في مظاهرة علنية، يودعون تلك الأرض سراً من أسرار الإيمان والتضحية والفداء، فكان عبد الوهاب بن منصور أول شهيد يمضي إلى نهايته قضاء وقدراً.

وسعاد الفتاة المغربية التي تركت عملها في الكريستيان ديور في باريس كأجمل موديل، هي الأخرى مع الجموع المؤمنة في طريقها إلى الصحراء.

لقد كانت تضاحك هذا وتمازح ذاك وكأنها عروس شرقية تمضي بقدميها للقاء عريسها في مكان إقامته.

وسناء التي درست الماركسية وعشقت أسرارها وحاولت أن تشيع أفكارها بين بنات جنسها في مارسيليا لم تستطع هي الأخرى أن تنسى أنها مغربية فلبت الدعوة إلى المسيرة ثم جاءت على عجل.

ويستثير الطرب شيخاً عجوزاً أفنى عمره في حقله على مقربة من العاصمة، فيلقي بجسده الضعيف في وسط الحلقة التي تجمع الشباب حولها يهزجون بأغانيهم.

وكاترين من بعيد تنظر إلى هذه الصور لتختزنها في ذاكرتها فلم يبق في العمر سوى بقية، وهي تريد أن تعيش هذه البقية الباقية من عمرها على الذكرى. وتمتد الأيدي لتأخذ بجسد الشيخ الذي عاد فجأة ليرقص على الأنغام هذه المرة رقصة صحراوية أصيلة يعيد بها إلى الأذهان ذكرى الأرض والسنوات التي مضت عليها وهي تحت نير الاستعمار.

وأجهزة الإعلام في العالم بين مؤيد ومستنكر، لكن المؤيدين كانوا من الكثرة بمكان أضاع كل الأصوات المستنكرة.

لا رصاص ولا قنابل.

وإنما أهازيج المحبة ترتفع في كل مكان، تعلنها الأفواه المستبشرة وهي تطل على الطريق.

ويجدّ الرجال والنساء السير، يستريحون هنا وهناك، يساعد كل واحد منهم الآخر في رحلة طويلة.

هكذا أرادتها المغرب لتكون نوعاً جديداً من العمل الجدي من أجل تحرير الأرض وهي في طريقها إلى النهاية.

ويلقي الملك حديثه في احتفال يعد في مراكش لبناء سد، يهب الماء والحياة لجيل المستقبل.

وكأن كل شيء في المسيرة يغري على العمل، والناس كل الناس لا يصدقون ما يجري، فالشعب الذي يعرف كيف يبني جسور المحبة يستطيع أن يصل إلى أهدافه.

ويجتمع مجلس الأمن يتخذ القرارات التي لم تكن بحال من الأحوال ضد هذه المسيرة.

وفي العيون عاصمة الصحراء يؤكد الحاكم الإسباني بأن قواته ستقوم بصد أي عدوان وأن الجيش الإسباني سيحارب بجميع قدراته.

ويتلقى السفير الإسباني في الرباط رسالة تؤكد أن المغرب سيواصل مسيرته مهما كانت الخسائر.

ويتحدث مندوب المغرب في مجلس الأمن ليشير إلى أن المسيرة المغربية مسيرة سلمية يقودها رجال مدنيون.

وتزداد التحريضات وتحاول الأجهزة الإعلامية تشويه الموقف، وكأنها تتصدى لهذه المسيرة بأسلوب جديد.

لكن التحرك الشعبي المغربي يسير في طريقه نحو الهدف، وتثبت المسيرة أنها هي صاحبة الكلمة.

ويعلن الملك الحسن عبر أجهزة الإعلام المغربية أن لا مكان بعد اليوم لمغرض، ويفشل مجلس الأمن في منع المسيرة.

وتطل في الأفق بوادر انفراج جديدة، لقد استطاع المواطن المغربي والموريتاني أن يعطيا صورة جديدة للإيمان بحقهما في الصحراء وأن يكونا على مقربة من إخوانهم، أولئك الذين عايشوا الاستعمار فترة طويلة من الزمن.

وتطل الذكريات، وتبدو في الأفق مظاهر الفرحة، ترتسم على الوجوه التي أدركت بغريزتها بأن لا مانع سيقف أمام قدراتها، ويرتفع صوت المجموعة وهي تنشد في ليالي الصحراء الطويلة قصيدة شعر كتبها شاعر تونس أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وترتفع الأصوات المؤمنة من كل حدب وصوب، تردد صداها الصحراء

الخيرة، وكأنها في تلك اللحظة تتذوق معانيها الجميلة.

وتنحدر دمعة ساخنة على وجه كاترين، فهي ابنة هذا الشعب رغم جنسيتها الإسبانية، وتتمتم بينها وبين نفسها بصلاة الشكر، ثم تنطلق إلى مكان سي مجيد لتلقي في أذنه بكلماتها البسيطة:

ـ لقد قررت أمراً هاماً.

وسأل سي مجيد:

ـ وما هو هذا الأمر؟

وجيب كاترين:

ـ أريد أن أشهر إسلامي.

وضحك سي مجيد ويقول:

ـ اتركي هذا الأمر عند العودة.

وتحتد قسمات وجه كاترين وتنطق كلماتها في عصبية:

ـ لا . . وإنما الآن.

ويمسك سي مجيد بيد كاترين ويمضي بها إلى الشيخ عبد السلام، أحد كبار علماء المغرب والذي لم ترض رجولته أن يبقى في مراكش، إنما جاء مع المسيرة، ويبتسم الشيخ وتنفرج أساريره وتهتز شفتاه وهو يقول:

ـ هو النصر يأتي من عند الله يا سي مجيد.

ويمضي الشيخ في تلقين المرأة الشهادتين ثم يعلن على أسماع الجموع التحاق أخت جديدة بدين الإسلام.

ويحتفل الجميع بهذه المناسبة.

وتتحلق الصبايا جماعات جماعات يؤدين رقصاتهن في انسياب عجيب، ويرتفع صوت المغنية بأنشودة جميلة، لكنها جديدة يسمعها الناس لأول مرة.

وتنساب كلمات الأغنية في آذان الناس الذين يتلقونها ثم يرددونها.

وكأن كلمات الأغنية تسجل تاريخ هذه الحادثة في عفوية:

"ونعود إلى الصحراء

ومعنا كاترين
الأخت الإسبانية
ونعود ونعود
ونعود إلى الصحراء"
ويأخذ صوت المغنية شكلاً جديداً وهي تنشد:
"صحراؤنا الجميلة
أرض الماضي والحاضر والمستقبل
تستقبل الأخت الجديدة
بعد أن لفظت اسمها القديم
واختارت اسماً عربياً
كدمائها العربية"
وتردد المجموعة وراء المغنية:
" ونعود ونعود
ونعود إلى الصحراء، وتعود الصحراء إلينا".

ويحتفل الناس بالأخت الجديدة بأسلوب جديد، كل واحد يدفع إليها بشيء مما يحمله، وتزداد بهجة كاترين، فهؤلاء الناس من معدن غير معدن من تعرفهم.

لكن المفاجأة تلجم لسان المرأة، فها هو سي إبراهيم يتقدم من الجميع طالباً يد المرأة التي أسلمت.

وتندفع دمعة ساخنة على وجه كاترين التي استقبلت النبأ في فرحة غامرة، فلقد تحقق حلمها الذي رغبت فيه، ومدت يدها لتلتقي بيد الرجل، وكأنها تعلن على رؤوس الأشهاد قبولها لهذا الطلب.

وتسير القافلة بعد أن أضاءت طريقها أفراح جديدة، وكأنها مقدمة للفرح المنتظر الكبير والكبير جداً.

الفصل الحادي عشر

الظلام يغمر أرض الصحراء التي اكتظت جنباتها بالألوف المؤلفة من شباب وفتيات المغرب والعروبة، لقد مضى على المسيرة أكثر من ست وثلاثين ساعة كانت جموعها الزاحفة تسير بانتظام نحو هدفها المنشود حيث هجع القوم جميعاً في خيامهم بعد أن داعب النوم أجفانهم بعد يوم طويل قضوه في المشي والتحرك هنا وهناك.

تحت ستار هذا الظلام كانت أنثى فارهة الطول أوروبية الملامح تلتف من رأسها حتى أخمص قدميها بلباس صحراوي داكن اللون اختارته بعناية وكأنها تنتظر هذه الفرصة.

كانت صوفيا واحدة من بنات إسبانيا اللواتي يعشن مع أسرهن في مدينة العيون، حرمتها الأقدار من والدتها التي توفيت وهي صغيرة فانشدت بجميع جوارحها إلى والدها الضابط الكبير في جيش إسبانيا الحاكم للصحراء.

وكانت صوفيا فتاة مدللة ارتبطت سنوات عمرها بحياة ناعمة عاشتها طولاً وعرضاً باعتبارها الوحيدة المدللة لوالدها العريق الأصل والمنبت، فلم يبخل عليها والدها بشيء بل أعطاها من نفسه وحياته كل ما تصبو وتريد، فنشأت مدللة لا تعرف من هذه الدنيا إلا إجابة مطالبها ورغباتها، تنقلت في أكثر من مدرسة في إسبانيا وسويسرا، وتعرفت إلى العديد من الشباب الصحراوي الذي يدرس العلم في إسبانيا، واختلطت بالكثير من النسوة.

وتعشقت حكايات الجدات عن بطولة الصحراوي وقدرته على القتال والمبارزة وصنوف الحرب والصدام. خيالية المزاج، هادئة

الطباع، تمتاز بذهن حاضر وذكاء وقاد، لكنها رغم كل ذلك لم تستطع اجتياز مرحلتها الدراسية في الجامعة، فقنعت بالبقاء في كنف والدها في العيون ترعى مصالحه، ويرعى هو نموها في زهو وفخر. وكان والدها الضابط من ذلك النوع الذي يلقي بأفكاره في ذهن ابنته ويلقنها مبادئه ويستشيرها في كل صغيرة وكبيرة، عرفت فتاة سي مجيد أثناء تواجدها في العيون وتعرفت إلى مشكلتها في مدرستها بسويسرا، فحفظت القصة وتعرفت على جوانبها وتطوراتها بالإضافة إلى كافة المعلومات التي استطاعت أن تعيها أثناء الحديث مع والدها.

وكانت صوفيا من ذلك النوع المحب للسلام الذي يشعر بارتباط إسبانيا مع العرب، فآلمها كثيراً عدم تخلي إسبانيا عن الصحراء للمغرب وموريتانيا، حتى إذا ما جاءت أخبار المسيرة الخضراء فهمت شيئاً جديداً يأخذ طريقه في البروز أمام هذه المشكلة، ولقد تحدثت إلى والدها كثيراً عن هذه المسيرة، وكان والدها من أولئك الذين يتعاطفون في سرهم، رغم علو مركزه، مع المغرب وأبناء الصحراء. وعندما تلقت الإدارة المحلية في العيون الرغبة في الوصول إلى اتفاق مع المغرب حول هذه المشكلة أفضى والدها بهذا السر إليها وحثها على السير ليلاً للإفضاء به إلى صديقتها الإسبانية الأخرى، فجاءت على عجل لتبحث بين هذه الجموع عن خيمة سي مجيد وزوجته الإسبانية، لكن الأيدي الصلبة تلقتها في هدوء لتأخذ بها إلى خيمة سي مجيد بعد أن عرفت حقيقة أمرها في حذر وخوف.

وفي الخيمة تلقّفتها صديقتها في عناق طويل، وبدأ الحديث يأخذ شكلاً آخر غير ما كانت تتصوره الأيدي التي أمسكت بالفتاة.

صرف سي مجيد الرجال الأشداء وقبع مع زوجته ورفيقتها على أرض الخيمة بعد أن أزال عن نفس الفتاة معالم الخوف وقال:

ـ قد يكونون معذورين يا صوفيا فهم يعرفون أن هناك خصاماً لا يزال بين بلدينا، ولهذا قابلوك بشيء من الغلظة، أعتذر لك عنه.

أجابت صوفيا:

ـ لا عليك فأنا معك، لكنني واثقة تماماً بأن الخير الذي سيجيء عن طريق

بلادي لهذه الصحراء كبير جداً، فأبي كما تعرف أعلمني بطريق خفي بما تفكر فيه إسبانيا اليوم، ودفع بي لأن آتي إليك، فأنت أقدر الناس على إيصال هذه المعلومات إلى المسؤولين المغاربة. فعلى الرغم من مظاهر الجفوة إلا أن قراراً يتخذ في الخفاء يعطي المغرب وموريتانيا الحق في التحاق هذه الصحراء بالبلد الأم، وها أنذا أفضي إليك بهذا السر لتعمل من جانبك على تهدئة الخواطر، فأنا كما تعرف صديقتي هذه ـ وأشارت إلى زوجته ـ أحب هذه الصحراء رغم ملامحي البعيدة عنها، أحبها من كل قلبي وآمل دائماً أن يسود الوفاق بين إسبانيا والمغرب لتظل هذه الصلة قائمة الأركان راسخة البنيان.

يقولون إن إسبانيا لن ترضى بإعادة الصحراء تحت ضغط المسيرة، ولكنها جادة على إعادتها إلى أهلها الشرعيين، فلربما رأيت ما يمكن أن يعمل لتعود الصحراء ويعود الحب والوئام بين بلدينا وشعبينا، وسأبقى إذا أردت رهينة لكل كلمة قلتها وسأعود مع هذه المسيرة إلى المغرب حتى تنتهي المشكلة، وتكون في هذه الفرحة ما يجعلني أسعد برؤية بلادكم الجميلة.

وضحكت، وأجاب سي مجيد بعد تفكير عميق:

ـ أنا أثق بكل كلمة قلتها، لكنني لا أضمن ثقة القائمين على شؤون المسيرة، ومع هذا فسأفعل كل ما في وسعي.

سأعلن كل ما قلته لي لهم، وسأضيف إلى كل ذلك ما أحسه تجاه كل كلمة قلتها، فعسى أن يأتي الخير عن طريق التفاهم بين بلدينا، فنحن كما تعرفين شعب يحب السلام ويعتقد أن في حقن الدماء الخير للمغرب ولإسبانيا.

لقد اختار الملك الحسن هذه المسيرة ليعلن بواسطتها عن إيمانه العميق بحق هذه الأمة في الالتحام بأبناء الصحراء، أبناء الشعب المغربي والموريتاني، ولهذا كانت ولهذا كنا نحن فيها.

وصمت، ثم عاود القول:

ـ أما الآن فما عليك إلا أن تأخذي قسطك من الراحة والنوم بجانب صديقتك وسأمضي أنا إلى الخيمة الثانية.

وفي الصباح كان سي مجيد في مجلس السيد أحمد عصمان نائب الملك

الحسن في المسيرة يتحدث في إسهاب عن الوافدة التي جاءت من العيون.

ويبتسم السيد أحمد عصمان ثم يلتفت بعد نهاية الحديث إلى سي مجيد قائلاً:

ـ لقد صدقتك القول هذه الفتاة، فمعلوماتي تؤكد كل كلمة قالتها، إنني كما تعرف على اتصال بالملك الحسن وهو يزمع بين لحظة وأخرى على أن يأمر بعودة المسيرة، لكن متى يصدر الأمر فهذا هو الذي لا أعرفه.

إن المستقبل لهذا الشعب (وأشار إلى الجموع الحاشدة التي أخذت تهب من نعاسها وترتب أمرها في طريقها إلى الهدف)، فبهذه السواعد المؤمنة يتحقق الخير لهذه الأمة.

وتابع قوله:

ـ لقد حاول مجلس الأمن ثنينا عن المضي في هذه المسيرة، لكن الملك الحسن لم يقبل، ولكن عندما تحين الفرصة التي يراها مناسبة سنعود، ويومها تكون الصحراء أختاً للمغرب شقيقة لموريتانيا لأننا حققنا بإرادتنا ما نريد.

وقال سي مجيد:

ـ صحيحة إذن المعلومات التي جاءت بها هذه الفتاة.

أجاب السيد محمد عصمان:

ـ نعم، لكن ما يدهشني طريقة وصولها إلينا، فهي على الرغم من أنها وحيدة والدها، لكنها جاءت.

والتفت سي مجيد وقال:

ـ إن أكثر الضباط الإسبان الذين يعيشون في الصحراء يعرفون تقاليدنا ويفهمون حقيقة وضعنا، ولهذا فأبوها واثق من أن مكروهاً ما لن يصيبها، وهو يعرف أيضاً كيف يحافظ العرب والمسلمون على كلمتهم لا سيما من الحرائر من مثيلاتها.

ويضحك السيد عصمان ثم يقول:

ـ قد تكون المبادرة هذه منها أو حتى من والدها، أما إذا كانت هذه المبادرة خطة محكمة من الإسبان فهذا دليل جديد على قدرة الإسبانيين على

إيصال المعلومات التي يريدونها بطريقتهم وبواسطتك.

ثم يتابع قوله:

ـ ومع هذا فما علينا إلا أن تمضي المسيرة حتى يقضي الله ما يشاء، وعندها سيكون لكل حادث حديث.

ـ ويعود سي مجيد إلى الخيمة لتستقبله زوجته، وترى في تلك اللحظة معالم البهجة تحيط بالوجه الصحراوي وكأنها تطبق عليه من كل جانب.

وتبتسم صوفيا ثم تقول:

ـ أرجو أن يكونوا قد صدقوا ما قلته عن حديثي.

ويطرق سي مجيد لحظة ثم يقول:

ـ بل أكثر من هذا فهم يعرفون الحكاية، يعرفون تفاصيلها.

وتندهش صوفيا من كلماته ويظهر مزيج من الدهشة والفرح، فقد استطاعت أن تساهم في حقن الدماء، وأن تصنع جسراً بين قلوب هؤلاء الناس ومواطنيها في العيون وفي إسبانيا أيضاً، وترتفع بوجهها إلى السماء وكأنها تضرع إلى الله أن يعطيها القوة ويمنحها الصحة لترى بذور الفتنة وقد زالت أشواكها من الطريق كل الطريق.

وعندها يدخل الحاج سعيد بملابسه المكناسية التي اختارها في رحلته لتدلل على موقفه من هذه الجموع يرجو ويلح في معرفة الطريق إلى مكان الطبيب، فالصحراء ستستقبل اليوم أول مولود مغربي على أرضها الطيبة.

الفصل الثاني عشر

التف الناس حول خيمة السيدة صليحة القروية الشابة التي أبت إلا أن تشارك زوجها في رحلة الخير رغم حملها الثقيل، ومعالم الفرحة تعلو وجوه القوم في استبشار انتظاراً للمولود الجديد الذي يعتبر في نظره فألاً حسناً، يمنحهم مزيداً من القوة والقدرة على متابعة السير نحو الهدف المنشود، فالحياة في نظرهم ولود معطاء، ولهذا جاؤوا يشاركون الفتاة القروية فرحتها الغامرة بوليدها الذي أبت الأقدار إلا أن يشارك في المسيرة. وسعاد المغنية الشابة التي طالما غنت بصوتها الرخيم أناشيدها وأغانيها العذبة يرتفع صوتها بالزغاريد هذه المرة وكأنها تعلن عن فرحة القوم بالوليد الذي سيرى النور في لحظات.

والطبيب وممرضته في ملابسهما البيضاء يحيطان بالقروية في حب، تطل من عيونهما الفرحة، فقد آن للصحراء أن تستقبل أول مولود على أرضها من المغرب الشقيق بعد طول انتظار.

كان كل همّ القوم أن تلد صليحة في هدوء وراحة، فلقد أجمعت القلوب المحبة للصحراء على تقدير هذه المرأة التي ظهر عطاؤها للأرض أكبر بكثير من أي عطاء، لكنهم احتاروا في الاسم الذي سيطلقونه على المولود، وهل سيكون اختيارهم لاسم طفل أم طفلة.

وارتفع صوت أحدهم قائلاً:

ـ لنسمه البشير إذا كان طفلاً.

وقالت إحدى السيدات: ولتكن بشرى إن كانت أنثى.

وأجمع القوم على هاتين التسميتين، وزوج القروية يرقب حديث

الجميع في دهشة ممزوجة بالإكبار، فعلى الرغم من أنه الوحيد الأحق بأن يسمي ابنه أو ابنته لا يدري، لكنه سينزل عند رأي هذه الأسرة الكبيرة فتختار الاسم الذي أرادت وفي كلتا الحالتين.

والتفت سي مجيد إلى الرجل ومضى يعانقه بينما تصافح آذان القوم صرخات الوليد التي قوبلت بصيحات الجموع وهي تنادي «الله أكبر»، وخرج الطبيب بعد لحظات معلناً ولادة صليحة مهنئاً الجموع بهبة الله الجديدة التي أعطاها لهذه الأمة، وتقبل زوج صليحة التهاني في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يعطى فرصة من الوقت لتكتحل عيناه بمعالم وجه ابنه وزوجته، لكن الناس الذين كانوا حول الخيمة لم يتركوا له الفرصة إلا بعد لأي، عندما لاحظ أحدهم الرغبة تطل من وجه القروي في رؤية طفله، وطلب منه في هدوء أن يذهب إلى الخيمة ثم يعود لتلقي التهاني.

جاء السيد أحمد عصمان في تلك اللحظة وفي يده برقية يهنىء فيها الملك الحسن صليحة القروية الشابة وزوجها بمولودهما، فاستبشر الناس خيراً، لكنه بعد أن انتهى من تلاوة البرقية قال في حزم:

ـ لقد أمرني جلالة الملك أن أبلغكما (وأشار إلى زوج القروية وإلى صليحة) بأن مولودكما سيكون واحداً من أبناء القصر يتلقى تعليمه مع إخوانه على نفقة أبيه والد الشعب المغربي الملك الحسن، كما أنه أمر جلالته أيضاً بمنحكما أرضاً واسعة وبيتاً طيباً على مقربة من القصر لتكونا بالقرب من ابنكما البشير.

وارتفعت أكف القوم بالدعاء للملك الذي لم تعقه مشاغله عن تحسس مشاكل الناس في بلاده ووطنه.

أما صليحة فقد تمتمت بينها وبين نفسها قائلة:

ـ حقاً لقد جاءك الخير كما توقعت من هذه الأرض.

ثم مضت تنظر إلى زوجها في حب وتقول بينها وبين نفسها: لقد صدق الحلم يا صليحة، وانحدرت على وجنتيها دمعة ساخنة بينما أخذ ثغرها يفتر عن ابتسامة عذبة وهي تنظر إلى الوليد في حنان بالغ. وامتدت يدها بلا وعي لتحمل وليدها إلى صدرها وكأنها بهذا العمل تريد أن تشعر الصغير بحبها وإعزازها له.

وانصرف القوم كل إلى مكانه وبقي سي مجيد يحادث القروية حديثاً طويلاً وكأنه يريد في تلك الجلسة أن يستشف معالم حياتها الماضية، فلقد أحس بخيط رفيع يشد هذه المخلوقة إلى أرض الصحراء ويربطها بها، وإلا لما أقدمت على رحلتها الشاقة وهي في شهرها التاسع.

عرف سي مجيد دقائق حياة صليحة وعرف منها أيضاً أن جذور أسرتها تمتد إلى هذه الأرض عبر سنوات طوال تحدثت بها جدتها إليها، ووصفت لها طبيعة الأرض وخشونتها وقسوتها، ومع هذا أحبت صليحة الصحراء وودت لو تهيأ لها الظروف لرؤيتها.

وعندما نادى الملك الحسن بتشكيل المسيرة طالبت زوجها بإلحاح أن تنتظمها، فكان لها ما أرادت وها هي السماء تجود عليها بأشياء كثيرة وكثيرة جداً.

ورفعت بوجهها إلى السماء وقالت:

ـ ربّ لقد منحتني هذا الطفل ومنحت معه السعادة فلا تبخل على عبيدك أبناء المغرب من عودة هذه الأرض إليهم.

إنك يا رب تعلم ما في قلبي وما في قلبهم، فهم عبيدك على هذه الأرض يأملون أن تعلو كلمتك على ربوعها، وأن ترفرف في أجوائها كلمات التوحيد. ربّ انصر هؤلاء القوم ولا تخذلهم وامنحهم تأييدك الذي بدونه لن يستطيع إنسان أن يصل إلى ما يصبو أو يريد.

ربّ إنك القادر المهيمن على مصائر هذه الأمة فامنحها بركتك، وأحطها بعنايتك وانزع عن نفوس أبنائها زيغ الكفر والإلحاد ووحد بين قلوب أبنائها ليكونوا جيشك المؤمن المسلم؛ يرفعون اسمك على ربوعها ويشيعون المحبة بين أبنائها، ربّ لا تؤاخذ من قصّر منهم أو أذنب في حقك فأنت تعلم ما لا نعلم.

ربّ امنح ابني هذا القوة ليرد صنيع الحسن الذي أولانا إياه. إنك سميع مجيب.

ويرتفع صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، فانهمرت الجموع إلى الساحة الكبيرة التي ارتصت بأجساد الألوف من البشر، جاؤوا يؤدون الصلاة في خشوع وإيمان.

وتطل صوفيا على هذا المشهد العجيب من خيمتها، وتلتقي عيناها بعيني زوجة سي مجيد التي حاولت أن تشرح لها معاني هذا التجمع لأداء الفريضة، لكن صوفيا تبتسم ثم تقول:

ـ قد لا أكون مخطئة عندما أقول بأن في الدين الإسلامي معانٍ كثيرة لا نزال نجهلها. ومع هذا فإن في هذه المظاهرة العجيبة صورة من صور الطاعة لله عز وجل، وشعب يطيع ربه لا بد أنه مطيع لقادته، ومن هنا يجيء النصر.

لقد هزت مشاعري صورة ذلك الشيخ الذي تسربل في ملابسه يهرول في سعادة للحاق بركب المصلين، يندفع في طريقه وكأنه في العشرين من عمره.

لطالما افتقدنا مثل هذه المناظر، فالذين يذهبون اليوم من أبنائنا للكنيسة يوم الأحد قلة ارتبطت بالكنيسة لمجرد العادة، وأنا هنا لا ألوم هؤلاء الناس وإنما ألوم أولئك الذين يقومون على التبشير بمعاني الأديان السماوية، فنحن في حاجة إلى إيمان وإيمان كبير لنستطيع أن نحقق صور السعادة التي نراها اليوم تظهر بوضوح على وجه هؤلاء الناس.

إن الإيمان يا صديقتي هو الطريق الذي يستطيع أن يصل به الإنسان إلى ما يريد.

وهذا الشعب ـ وأشارت إلى الجموع التي تؤدي الصلاة في خشوع ـ سيصل إلى أهدافه ويحققها لأنه شعب مؤمن.

أو تنظرين إلى هؤلاء النسوة، لقد شاهدت أكثرهن وهن يرتدين ملابس تكشف عن النحور والصدور ويتعطرن بأجمل عطور فرنسا ويلبسن أحلى موديلاتها. وها هن الآن كما ترين وقد أرخين جلابيبهن على أجسادهن النحيلة، ينتظمن صفوف الصلاة خلف الرجال في خشوع وضراعة.

إنه الإيمان يا عزيزتي يفعل فعل السحر في النفوس، فمتى يكون لشعبنا مثل هذا الذي أراه وألمسه ويطالعني على صفحة كل وجه.

وتنتهي الصلاة لترتفع أصوات القوم في قوة واعتداد:

الله أكبر، الله أكبر، والنصر للمسلمين.

وتردد الصحراء أصوات التكبيرات تنطلق بها الحناجر، فيما ارتفعت الأيدي إلى السماء في دعاء وتبتل بأن ينصر الله المسلمين في كل مكان وزمان.

الفصل الثالث عشر

مدريد برجالها ونسائها حول المذياع، يقرأون الصحف، يناقشون بعضهم البعض، فالجنرال فرانكو في غيبوبة لا يدري أحد متى تنتهي.

وخليفة فرانكو المنتظر الأمير خوان كارلوس هو الآخر في اجتماعات دائمة يناقش أمور الدولة في صمت، يرقب الأحداث في ترقب.

لقد زار أكثر البلدان العربية وارتبط بمسؤوليها بصداقات كثيرة، وهو يعرف جيداً معنى هذه الصداقات التي تربطه بهؤلاء المسؤولين.

وزوجته الأميرة تبتسم في هدوء وكأنها تخفي إشفاقها على زوجها من تحمل المسؤولية.

وبدأ الحديث بين الأميرة والأمير في القاعة الفسيحة لقصرها في مدريد عن رحلتهما الأخيرة إلى المملكة العربية السعودية.

فهي تذكر تفاصيل رحلتها إلى المملكة، تلك البلاد التي أحبتها وأحبت من خلالها الشعوب العربية وشعب السعودية بشكل خاص، وعاشت في الصحراء على مقربة من الرمال الدافئة التي تتحرك تحت الأقدام في أنغام موسيقية، وشاهدت الفضاء اللانهائي ترمقه في إعجاب وهي داخل الخيمة الكبيرة التي لم تعد تتحمل كافة المدعووين في منطقة خريص وشاركت زوجها في العرضة النجدية التي تعيد للصحراء فرحتها وبهجتها، واستمعت للأصوات العربية تشدو بكلمات تفهم معانيها جيداً من خلال تعبيرات الوجوه الطيبة، وهي تأمل أن ترى الصحراء دائماً لأنها تعشق ليل الصحراء وأسرار هذه الليالي.

لطالما تحدثت إلى نفسها عن مصادر هذه الراحة النفسية التي تحيط بمشاعرها وهي ترتاد فيافي الصحراء ودروبها ورمالها، تشارك زهورها البرية تفتحها وجمالها، واليوم وهي على مقربة من اعتلاء زوجها لعرش إسبانيا، عرش الآباء والأجداد ترى أن من واجبها أن تساهم في حل المشكلة التي يحاول المغرضون بذر شرورها بين البلدين إسبانيا والعالم العربي متمثلة في أحداث الصحراء الغربية، وهي كملكة للمستقبل تعتقد أن الروابط التي تجمع بين العرب وإسبانيا كثيرة ومتداخلة يجب المحافظة عليها وعلى نموها واضطرادها، لهذا أخذت تهمس في أذن زوجها عن أملها في أن تحل المشكلة ويعود السلام إلى الصحراء وتعود وشائج الصداقة بين المغرب وإسبانيا.

لقد أعدت إسبانيا منذ مدة العدة لمشروع دستور يفصل الإقليم الصحراوي عن المغرب، لكن هذا المشروع لم يحقق له النجاح لأن طبيعة العربي الالتصاق بأرضه وبإخوته الذين يعيشون على الأرض المجاورة له.

كما أن جميع الإجراءات الإسبانية لم تصل إلى الهدف الذي أراده لها مخططو السياسة الإسبانية آنذاك، أما اليوم فالأمر مختلف جداً، فالملك الجديد الذي هو زوجها أحوج ما يكون لمساندة هذه القوة الثالثة التي يسمونها العرب، فلقد اتضح في الآونة الأخيرة مدى فعالية هذه القوة وقدرتها على التحرك والإقناع بعدالة قضاياها، وهي بطبيعتها الهادئة تنفر من الشر وتميل إلى الخير وتعمل من أجله.

وتعود بها الذكريات إلى آثار العرب التي تنتظم أكثر مدن إسبانيا، فهناك في طليطلة آثار عظيمة جسدت حضارة العرب على هذه الأرض.

لقد قرأت كتب التاريخ وتصفحت أحداث الماضي وعرفت تاريخ الأندلس بأسره وكيف كانت قرطبة دار العلوم ومحجة العلماء.

لقد ورّثهم العرب بالإضافة إلى الحضارة أشياء كثيرة من مستلزماتها فكانت مدنهم وقراهم تربة خصبة للفنون تناقلها عنهم العالم واستمتع بها الأوروبيون.

وهي اليوم تستمع إلى أبناء المسيرة، مسيرة أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف شخص سوف يندفعون ورؤوسهم على أكفهم في رحلة مع السلام

سيخلدها التاريخ في أوسع صفحاته دليلاً حياً نابضاً على أن العرب هم العرب كانوا ولم يزالوا أمة محبة للسلام حتى عند استرداد أراضيها.

وعند ذلك الحد توقفت الأميرة عن التفكير وهي تستقبل أحد أكبر رجالات الحكومة، جاء إليها ينهي إليها خبراً أثلج فؤادها وهو أن الأمور تجري في الصحراء في جو يؤكد الإخاء بين إسبانيا والمغرب، فها هو زعيم كبرى قبائل الرقيبات الحاج خطري الجماني يعلن في القاعة الفسيحة بمبنى المجلس البلدي بمدينة أغادير ويجدد بيعته ونقل مسؤولية الصحراء إلى المغرب وكأنه قد جسد في هذا الاعتراف حقيقة لم يستطع معها إغراء الانفصال أن يصمد صوت ضميره رغم جميع التجاوزات التي ارتكبها سابقاً.

لقد طرحت المسيرة صيغة جديدة لحل مشكل عالمي في وقت يسود العالم الحروب والمظالم. وهي تذكر كلمات الملك الحسن التي نقلتها الصحف العالمية وهو يقول: "لا نريد أبداً أن نطغى ولا أن نسفك دماء فعانق إخوانك وأصدقاءك الإسبان عسكريين كانوا أم مدنيين، وإن أطلقوا عليك النار فتسلح بإيمانك وقوتك وزد في مسيرتك فلن ترى في آخرها إلا ما يرضيك".

ويدق جرس التلفون معلناً عن حديث طويل يجري بين الملك الحسن والأمير خوان كارلوس والذي أخذ يجمع خيوط السلطة في يده، ويتم الاتفاق إلى صيغة تقضي بانسحاب القوات الإسبانية للداخل ودخول المسيرة ولكن إلى حد معين؛ وتبتسم الأميرة في دعة وكأنها تعلن عن رضاها عن هذا الموقف. وتجري الأمور على نفس المنوال، وتمضي المسيرة في طريقها إلى الهدف المنشود ثم يستأنف الحوار في أغادير، فقد بات المفاوض الإسباني والمفاوض المغربي ليلة كاملة، اجتمع فيها بأحمد عصمان والعراقي وخطري قبل أن يجتمع بالملك واتفق على سحب المسيرة. وأخذ الموقف ينجلي وارتاح الناس في المغرب وفي إسبانيا وموريتانيا. ويأمر الملك بعودة الرجال والنساء، ويستبشر الناس، فوحدة الصحراء والمغرب وموريتانيا قادمة بلا شك كأروع ما يكون اللقاء بين الأرض والبشر، ويزداد حماس الناس وإيمانهم بقدرة الملك الحسن على حل جميع المشاكل مع إسبانيا الدولة التي أبت صداقتها إلا أن تظل الصديق الصدوق لهذا العالم العربي. وتمضي المفاوضات

في جو من الود والأخوة، وتسير الأمور وفق ما يصبو الملك ويشتهي، وتعلن إسبانيا استعدادها للتخلي عن الصحراء في الفترة المتفق عليها، ويأخذ السيد أحمد بن سودة طريقه إلى العيون ليكون أول حاكم مغربي يشارك في حكم الصحراء انتظاراً لخروج الجيش الإسباني. وتنتظم المغرب وموريتانيا مظاهرات تدل على التفاف الشعب بكافة طبقاته حول الملك الذي لم يستطع الشر أن يهدم أي ركن من فناء مقره في الصخيرات. ويعود سي مجيد وبرفقة عروسه الإسبانية وصديقتها صوفيا، وتعود مع القوم سعاد، الفتاة التي هزجت بأناشيدها في كل مكان، وتعود صليحة القروية الشابة وطفلها الوليد، ويعود الأمل مشرقاً خفاقاً يرفرف على القلوب المؤمنة، وتستقبل مدن المغرب عودة أبطال السلام بمظاهر من الفرحة لم يعرفها المغرب من قبل، وتدق الطبول ويتحلق الشباب والشابات في شوارع كل المدن وجميع القرى يشاركون الشعب أفراحه بعودة الصحراء، ويتبارى الشعراء فيقدمون للشعب المغربي ما يخلد هذه المناسبة العظيمة في كلمات وطنية جزلة، ويطل الملك الحسن في حديث طويل يفضي به إلى مواطنيه في لغة عربية سليمة، وتتناقل الصحف ووكالات الأنباء جميع مظاهر هذه الفرحة وحديث الملك، فلقد أطل على المغرب وموريتانيا عهد جديد ظهرت آثاره بعد هذه المسيرة ووحدت صفوفه الأماني المسالمة التي تتطلع إلى غد باسم مشرق يكسر الجمود ويزيل الحدود ويذيب من النفوس كل النفوس آثار الماضي ورواسبه ويقطع ألسنة أولئك الذين تطاولوا على المسيرة فوصفوها بأنها عمل طائش دفع بالأبرياء كالخراف لسكين الجزار.

وفي الرباط، وعلى المائدة الصغيرة التي احتل كراسيها كل من سي مجيد وزوجته وصديقتها وكاترين الإسبانية العجوز وزوجها المغربي في الفندق الكبير كان حديث طويل بدأته الآنسة صوفيا بقولها:

ـ أو لم أقل لكم بأن موضوع الصحراء سينتهي بالأسلوب الذي يناسب المغرب، لقد أثبتت الأيام صحة المعلومات التي سبقتها إليكم وأصبح من حقي أن أتيه فخراً، فلقد حققت الأيام لي ولوالدي أمانينا في لقاء جديد بين بلدينا، ومع هذا فإني أحس بأن هناك لعبة جديدة تحاك ضد المغرب اليوم، ولكن هذه اللعبة ليست من إسبانيا.

فالبوليساريو رجال العصابات في الصحراء يسوؤهم ويسوء غيرهم أن تصل إسبانيا والمغرب إلى اتفاق، وستكشف لكم الأيام صدق ما أقول. والتفتت كاترين إلى صوفيا وقالت:

ـ قد يكون ما تقولينه حقاً، ولنفرض جدلاً أن ذلك سيقع فقدرة المغرب وقوته كفيلتان بإزالة الأشواك عن الطريق.

إن ما يهمني كإسبانية سابقاً وعربية لاحقاً أن لا يكون هناك عداء أو حتى جفوة بين مدريد والمغرب، وبعدها ليكن ما يكون، فالمغرب أقوى على حماية مكاسبه من أية يد آثمة.

وقالت (دولوريس) زوجة سي مجيد:

ـ صدقوني أنني أفكر اليوم في والدي ووالدتي وأختي التي انزعجت من مجرد فكرتي في الاقتران بسي مجيد، ترى ماذا ستقول هي والأسرة عن هذا اللقاء؟

لقد حلمت البارحة بأنني في زيارة الأسرة في بيتنا في مدريد أنا وزوجي، لكن والدتي رفضت أن تستقبلنا على الرغم من جميع جهود الوالد في هذا السبيل، ولقد انزعجت كثيراً لهذا الحلم.

ورد سي مجيد بقوله:

ـ لا عليك هي أضغاث أحلام، مجرد إرهاصات تعيش في وعيك الباطن لكثرة ما لاقيت من تصلب وعناد هذه الأم لكن ثقي أنها سترضى.

وانفرجت أسارير العروس الإسبانية وهي تستمع إلى قول زوجها يطمئنها بكلماته في هدوء.

وارتدى الجميع ملابسهم ومضوا في طريقهم لقضاء السهرة في ملهى الفندق.

كان البرنامج خليطاً من الاسكتشات الفكاهية وبعض الأغاني والصور التي تجسد الحياة في المغرب وإسبانيا.

وأمضى الجميع فترة من الوقت استمتعوا فيه بمشاهدة الرقصات الوطنية عندما أطلت شادية بقامتها المهيبة وابتسامتها الصافية ومضت رفق صديقها إلى

مائدة سي مجيد الذي استقبلها بحرارة هو ومن معه، وبعد حديث ممتع تعرف خلاله بعض الموجودين على شادية فقاموا يطالبونها بأن تقدم لهم بعض أغانيها التي سمعوها أثناء المسيرة، لكن هذه التفتت إلى صديقها وقالت:

ـ سأغني الليلة أحسن ما غنيت في السابق، لكن أغنيتي ستكون جديدة.

ومضت إلى البيست لتمسك بالماكروفون بعد أن ناولت الفرقة الموسيقية النوتة الجديدة الخاصة بالأغنية.

وارتفع صوت الموسيقى في مقدمة رائعة ألهبت أكف الحاضرين ثم مضت شادية تشدو بأغنيتها الجديدة قائلة:

"وحلّ الوئام
بين قلوب الصافية
التي ترمق السماء الزرقاء
بأعينها الجميلة
وحدثت المعجزة
وكان لقاء بين الأحبة
كسر الجمود وألغى الحدود
وحل الوئام"

وارتفع صوت المغنية وكأنها تضغط على كل كلمة تقولها:

" لقد استطاعت الحكمة أن تتغلب
والمنطق أن يسود
وبدا في الأفق حمامات بيضاء
ترفرف بأجنحتها في الفضاء اللامتناهي
ترقص جذلاً وكأنها تغرس في النفوس إحساسات الحب.
في بلد كانت ولم تزل بلاد الحب والجمال
والتقت إسبانيا بالمغرب
في قصة حب رائعة

جسدها التاريخ المشترك
وأبرزها واقع الأمتين اللتين تنظران للمستقبل نظرة تفاؤل.
وحل الوئام
وعاد الصفاء
إلى الصحراء الخيرة
إلى الأرض التي تشرق عليها الشمس
وتحنو عليها السماء
إلى أرضنا العربية المسلمة"

وضجت القاعة بالتصفيق عند هذا الحد من الأغنية وأخذ القوم يهلّلون في جذل، يطالبون شادية بإعادة مقاطع الأغنية، لكن شادية لم تلب هذه الرغبة وإنما قالت في دلال:

- سأغنيها مرة ومرات، لكن ليس هنا وإنما في العيون بإذن الله.

وصفق الحاضرون مرة أخرى في قوة ومحبة.

الفصل الرابع عشر

كل شيء في الرباط يدل على أن المدينة تعيش أجمل أيام حياتها، فلقد انتظمت جميع شوارعها الأعلام المزركشة يتوسطها العلم المغربي، ومظاهر الزينة تحتل كل شارع وحارة.

وأخذت اللافتات المكتوبة تحمل في طياتها عبارات الفرحة التي توجت ببعض آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية مدللة على إيمان الشعب المغربي وتمسكه بدينه وعقيدته.

وفي البيت الأخير بالقرب من القصر الملكي كانت هناك امرأة تجوب حجرات البيت في روبها المغربي مشرقة أسارير الوجه باسمة الثغر، وقد تدلى شعرها الأسود على كتفيها القويتين، وعلى مقربة منها كان طفلها الصغير يلهو في سريره وبجانبه أنواع من الدمى والألعاب الدقيقة الصنع.

على الكرسي الهزاز جلست صليحة تنظر إلى وجهها في مرآتها الصغيرة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة فلقد بسمت لها الحياة وأعطتها أكثر مما تأمل؛ لقد صدق الملك الحسن وعده فاسترد الصحراء وصدق وعده فأعطاها البيت وأقطعها الأرض بالإضافة إلى مرتب شهري هبة منه للوليد الذي رأى النور على أرض الصحراء، وهي في جلستها تلك تستعرض ما مر بحياتها من ذكريات... ترى أين هي من الماضي يوم كانت مجرد فتاة تجري في الحقول تساهم في العمل مع أسرتها الفقيرة مقابل بضعة دراهم أين هي اليوم من تلك الأيام التي مضت أيام طفولتها التعسة لا سيما بعد وفاة والدتها واقتران والدها بامرأة جديدة.

كانت زوجة والدها من ذلك النوع القاسي لا تعرف الرحمة فلم يلن لها قلبها وإنما كانت مصدر شقائها وتعبها بما توغر صدر والدها، ولقد ذاقت الأمرين من هذه الزوجة ولكن صبرها هو الذي أعطاها زوجها الذي ظنت أنها بالاقتران به قد طلقت الشقاء، لكن البحث عن لقمة العيش كانت أقضت مضجعها فقد كان زوجها فقيراً معدماً لا يملك شروى نقير، ومع ذلك فرحت بخلاصها من أسر الحياة في بيت والدها، والتحقت بزوجها وتتنقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة حتى جاء المسيرة فعقدت العزم على أن تكون واحدة من أسرتها الكبيرة. لم تكن تظن أن الحياة ستبتسم لها كما ابتسمت وكان مجرد ما وصلت إليه في تفكيرها هو أن تتمكن وزوجها من العيش بكرامة في قرية من قرى الصحراء الخيرة تفلح الأرض وتجمع الحطب.

ترى أين هي الآن من كل الذي حدث؟ لقد سعدت برؤية الملك الحسن الذي تحدث معها عن قرب وشاهدت وجهه وأعجبت برصانة فكره وعمق عواطفه وصفائها تجاه مواطنيه.

لقد أشاد الحسن بتضحيتها التي قامت بها فلقد شاركت في المسيرة وحملها في شهره التاسع يعيش في أجواء بطنها الذي تكور، ومع هذا لم يثنها عن الحركة والسير مع الجموع والمشاركة في العمل الجماعي، ومضت تنظر إلى بطنها وتبتسم فقد كانت تؤمن بأن المستقبل الباسم سيجيء مع مولد ابنها البكر لكنها لم تكن تتوقع هذا الذي جاء. لقد جاء السعد في إهاب الوليد وها هي الآن في بيتها معززة مكرمة تستقبل زوجها وتودعه بابتسامتها الصافية. ترى ماذا ستقول لوليدها عندما يكبر؟ ستقول له كل شيء عن حياتها وما فيها وعن السعد الذي جاء مع مولده وستحرص أن تكون جديرة بحمل اسم هذا الوليد الذي أسموه البشير.

وارتفع صوت الراديو بأغنية لم تكن تدرك معنى كلماتها يوم كانت تعيش في الحقل، أما اليوم فقد بدأت ذاكرتها تعي فهم الكلمات التي تصل من جهاز الراديو.

وانطلق صوت فيروز يتهادى في أجواء الغرفة يترنم بكلمات شاعرية أحست بوقع كلماتها على نفسها:

(غنيت مكة أهلها الصيدا والعيد يملأ أضلعي عيدا)

ترى هل يقدر لها أن تتحقق أمنيتها الجديدة فتؤدي الفريضة كما تحققت أمانيها السابقة، وسرحت بناظريها عبر الشارع والتقت بالعديد من الشباب يعبرون الطريق في اعتداد ونشاط، وقالت بينها وبين نفسها: سيجد البشير هذا الطريق مرات في طريقه إلى المدرسة والجامعة. ثم عاودت التحدث إلى نفسها قائلة: من يدري ربما يجيء اليوم الذي يكون فيه البشير حاكماً على مدينة العيون وهي ستنتظر هذا اليوم وتترقبه لأنها تؤمن بأنه سيأتي، أو لم تتحقق أكثر أمنياتها.

أو لم تصل إلى ما ترغب وفق ما تصبو وتحب؟ ورفعت بيديها إلى السماء ضارعة داعية للحسن وكان دعاؤها عبارة عن همس ظهر على أثره زوجها في حلته الجديدة قائلاً:

ـ أو تدرين من سيزورنا هذه الليلة يا صليحة.

قالت:

ـ لا.

قال:

ـ والدك وزوجته.

وأطرقت صليحة برأسها قليلاً ثم قالت:

ـ مرحباً بهما فأنا مشوقة لرؤية والدي.

قال:

ـ لا عليك فأنا أعلم ما يعتمل في نفسك تجاه زوجة أبيك وأنت على حق لكني أود أن أسأل سؤالاً، أو تعرفين بماذا استطاع الملك الحسن استرداد الصحراء التي استعمرت سنوات طويلة؟

قالت:

ـ لا.

قال:

ـ بالحب غرسه في نفوس شعبه فكانت المسيرة، وقد آن لنا أن نتعلم كيف نحب، الكراهية يا صليحة شر والحب خير وبالحب نبني ونشيد وبالكراهية نهدم فقط، انظري إلى الحياة التي تعيشينها تجدي أن جميع ما حصلنا عليه أعطانا إياه الحب وحده، فلولا هذا الحب الذي يعشعش في صدر القلب الكبير لوليدنا دون أن يدري به أحد لذهبت تضحيتك أنت الحامل الوحيدة في مسيرة الخير دون أن يعرف بها أحد. ستستقبلينها يا عزيزتي كما تستقبلين والدك ولننس الماضي بكل أحزانه فما خلقنا لنتذكر المآسي. لقد طهرت المسيرة قلبينا من أدران الماضي وعنعناته وبقي علينا أن ننظر إلى المستقبل من خلال ما نحن عليه من بحبوحة لتخمد الظلال القاتمة من سويداء قلبك ولنعد إلى طبيعتنا الخيرة أناساً نؤمن بأن الحياة لا تستحق أن يكون لنا فيها عدو. لقد أراد الله لنا الخير وزادنا في الرزق ومنحنا القوة على عمل الخير فلماذا لا نصنعه! إن أمة تزداد المحبة بين أفراد شعبها جديرة بأن تعيش قادرة على صنع المستحيل.

وصمت والتفتت صليحة بوجهها الضاحك وقالت في دلال:

ـ حقاً ما تقول يا زوجي العزيز.

الفصل الخامس عشر

ارتدت (دولوريس) قفطاناً مغربياً خيطت أطرافه بأسلاك ذهبية لامعة وصففت شعرها على الطريقة المغربية وكحلت عينيها بمرود من الفضة تيمناً بالمناسبة السعيدة التي ستحضرها، ونظرت إلى المرآة فأعجبتها صورتها ثم أمسكت بقرط ماسي طويل وضعته في أذنيها بأناقة وتناولت شالاً غربياً وألقته على كتفيها ثم مضت إلى القاعة الكبرى في الفندق الكبير الذي اختاره زوجها مقاماً لها ريثما يتم انتقالها إلى بيتهما في العيون.

شخصت أنظار القوم إلى المرأة التي تنقل قدميها في رشاقة، وهي في ملابسها تلك قطعة فنية شارك الذوق في إبراز فتنتها وجمالها.

أطلت (دولوريس) على زوجها وأصدقائه بجانب صديقتها صوفيا التي همست في أذنيها بإعجاب قائلة:

ـ كم أنت فاتنة.

وضحكت زوجة سي مجيد وقالت:

ـ لكن فتنتي أقل كثيراً من جمالك يا عزيزتي.

والتفت سي مجيد متسائلاً وقال:

ـ ما هذا الهمس؟ أهناك أشياء تودان إخفاءها عني؟

وضحك. فقالت صوفيا:

ـ لا. لكني كنت أقول ـ وأشارت إلى زوجته: كم هي رائعة، إن الملابس العربية تضفي على المرأة جلالاً وجمالاً وروعة، وأنا

مشوقة لشراء شيء كهذا.

وقال سي مجيد:

- لا عليك ففي الغد سيكون لك مثل هذا القفطان هدية من صديقتك.

وأشار إلى زوجته.

وانطلق الجميع إلى دار السيد أحمد عصمان الذي أقام بهذه المناسبة أمسية رائعة حضرها عدد كبير من كبار الشخصيات التي شاركت في المسيرة.

وفي البيت الذي بني على طراز إسلامي في ضاحية من ضواحي الرباط، اجتمع صفوة القوم في المغرب وعقيلاتهم في القاعة الكبرى التي زينت بعدد كبير من صور المسيرة والتي اختيرت بعناية لتذكر الجميع بمسيرة الخير التي سارها القوم من المغرب إلى الصحراء.

استقبل السيد أحمد عصمان سي مجيد وعروسه وصديقتها بترحاب ظاهر وشد على يد ابن الصحراء مهنئاً بعروسه الجميلة ثم التفت إلى (دولوريس) قائلاً:

- يسعدني يا سيدتي أن أستقبلك هنا في هذا البيت، فلقد حالت الظروف بيني وبين أن أتعرف عليك عن كثب أثناء المسيرة، ومع هذا دعيني أشكرك من كل قلبي، فلقد جسدت بعبورك الصحراء مع زوجك معانٍ سامية كثيرة لا يستطيع أن ينكرها مكابر، وفي مقدمتها ذلك التاريخ الطويل من الحب والتآخي بين العرب والإسبان، فاستحقيتِ هذا الوسام الذي أمرني جلالة الملك الحسن أن أقدمه لك تقديراً وتعبيراً عن العرفان لجميل ما صنعته. إننا يا سيدتي نعترف بالجميل ونقدر صانعيه ونحاول أن نعبر عن هذا الاعتراف بأسلوبنا الذي وجدناه وتوارثناه كابراً عن كابر.

وابتسمت (دولوريس) وقالت:

- صدقني يا سيدي عندما أقول إنني لا أستحق هذا التكريم لأني مجرد امرأة استمعت لنداء قلبها ثم اختارت الطريق الذي سارت فيه؛ لتسمح لي يا سيدي أن أبعث عبرك بأصدق عبارات الإكبار للرجل البطل الذي لا ينسى مواقف مواطنيه فأنا كما تعرف مواطنة مغربية اليوم.

والتفت السيد عصمان إلى سي مجيد وقال:

ـ هنيئاً لك عروسك فهي تحمل بالإضافة إلى جمالها نفساً صافية وقلباً من ذهب.

وتمتم سي مجيد بكلمات الشكر على عادته بينما أخذ السيد عصمان يجامل خيشومه وابتسامات الفرح تطفو على وجوه القوم في صفاء ومحبة.

أما الآنسة صوفيا فقد شاركت الحديث مع أكبر مجموعة من سيدات المغرب، وانتحت دولوريس وزوجها ركناً شاركت فيه مجموعة من فتيات المغرب المثقفات وأخذ الحديث يتناول أشياء كثيرة عن الحياة في الصحراء وعن الطريقة التي كان يحكم الإسبان بها هذه الصحراء، وفجأة أطل أحد الضباط المغاربة على المكان فقد أبت عاطفة الحسن إلا أن يشارك شعبه حفل الانتصار.

وما أطل الملك على المكان حتى ارتفع دعاء القوم بالكلمة المألوفة (الله يطول عمر سيدي). كان الملك الحسن في لباسه المغربي الناصع البياض صورة تجسد صور العربي المسلم بوجهه الباش يلقي بتحيته هنا وهناك بلغة عربية سليمة المخارج والألفاظ، وتحلق الجميع حوله بينما أخذ يتحدث عن مستقبل الصحراء المغربية في إيمان داعياً الجميع إلى التمسك بأهداب الدين والعمل على إعلاء كلمة الله والسير قدماً نحو التضامن الإسلامي باعتباره الوسيلة التي يمكن للدول الإسلامية من خلالها أن تكون شريكة في مجريات الأحداث العالمية.

نهض الملك الحسن بعد فترة ومضى إلى خارج الدار وجميع المدعوّين في ركابه حتى إذا ما غاب موكبه عاد الجميع إلى القاعة يسامر بعضهم البعض الآخر.

وبعد فترة انصرف الجميع وبقي سي مجيد وزوجته وصديقتها وعندها استأذن السيد عصمان من السيدتين وانتحى بسي مجيد ركناً تداولا فيه حديثاً هاماً نقل رغبة الملك في عودة سي مجيد إلى الصحراء ليكون على مقربة من حاكمها الجديد السيد أحمد بن سودة، فلقد اتفق المغرب وإسبانيا على تفريغ الصحراء من الجيش الإسباني وتسليم الحكم للمغرب. وبعد الانتهاء من

الحديث غادر سي مجيد وزوجته وصديقتها القصر إلى الفندق وابتسامة الرضا ترتسم على وجهه معبرة على الأماني التي تجيش بها نفسه تجاه مستقبل الصحراء التي يحبها. وفي الفندق لم يشأ سي مجيد أن يضيع الفرصة وإنما مضى يلملم حاجياته ويضعها في صندوقه بينما أخذت زوجته تجمع ملابسها في صندوقها الأحمر حتى إذا ما انتهيا من هذا العمل أخذا طريقهما إلى شرفة الفندق ليستنشقا الهواء العليل ويطيلا النظر إلى الشارع الأخير الذي هدأت الحركة فيه.

وعلى كرسي خشبي جلس الاثنان يرقبان السماء التي بدت كخيمة زرقاء تزينها نجيمات صغيرة تطل على الأرض في شموخ وإباء.

وامتدت يد سي مجيد لتمسك بيد زوجته ثم قال:

ـ انظري إلى ذلك النجم وهو يبدو قوياً ساطعاً، لطالما جبت الصحراء وهو رفيقي في السفر أما اليوم ـ وضحك ـ فهناك نجمة أخرى ترافقني في تجوالي في الصحراء.

الفصل الأخير

دقت أجراس الساعة الثانية عشر ظهراً عندما وصل سي مجيد إلى مدينة العيون عقب رحلة طويلة جاب فيها أكثر من قرية وتنقل فيها من بيت إلى بيت.

وكان سي مجيد محبوباً من الجميع للدور الذي قام به، وتحدثت عنه الصحافة المغربية كثيراً، فلقد حاول منذ أول يوم تفتحت فيه عيناه أن يجمع بين قلوب مواطنيه ووطنهم الأم المغرب وأحس وهو الآن يتذكر رحلاته العديدة التي قام بها في ظل الاستعمار الإسباني بين الصحراء والمغرب ويقارن بين رحلته الأخيرة بالأمس القريب ورحلته هذه، فحمد الله كثيراً على النتيجة التي استطاع المغرب أن يصل إليها. ونظر إلى البعيد يستلهم الصحراء ووديانها المتشعبة ذكريات عديدة كانت ولم تزل عدته وذخيرته في رحلاته عبر الصحراء وجبالها ووديانها.

لكم أحب هذه الصحراء من كل قلبه وخاف عليها وعلى خيراتها كيف ينهبها الدخيل. أما اليوم فقد تغيرت الظروف وأصبح من حقه أن يقول بأن لا مكان لطامع على هذه الأرض.

والتقى بذكرياته في بدروم البيت حيث كان هناك صندوق خشبي قديم اختار مكانه بنفسه ففي هذا الصندوق كتب عدة وشجرة الأسرة ودفتر كان يدون فيه ما كان يمر به من أحداث.

وعندما اطمأن من وجود كل تلك الأشياء عاد إلى ضيوفه يشاركهم البهجة بهذا اللقاء فلقد أعطته الحياة ما يريد: أعادت إليه صحراءه، ومنحته زوجته، وجمعته ببقية أسرته، وهو يؤمن بأن انتصار هذه الأمة لم يكن سوى وليد إيمانها بحقيقة الحياة على هذه الأرض

وإيمانها فيما تصدر من عمل عن إيمان صادق وعقيدة راسخة.

ومضى يؤدي فريضة الظهر حتى إذا ما انتهى أخذ يدعو بصوت هامس كلماته التي تعلمها وهو صغير: اللهم انصر عبادك المؤمنين الذين يعبدونك على هذه الأرض، وارزقهم من خيراتك ما يجعلهم في غنى عن غيرك، وامنحهم القوة ليكونوا أداة طيعة لنصرة دينك، اللهم إنك تعلم ما يجول في خاطري وخاطر كل حي فامنحني القوة بأن أقوم بواجبي تجاه هذه الصحراء التي تستظل اليوم بظل علم الإسلام. اللهم امنح عبيدك القوة ومتعهم بالصحة ليؤدوا واجبهم تجاه هذه الأرض التي أردت أن تظل رغم مجادلات الإسبان أرضاً إسلامية.

وما انتهى سي مجيد من دعواته حتى قام على الفور إلى مجلس زوجته ليتحدث معها حديثاً قصيراً فهمت منه أن هناك ضيوفاً يفدون الليلة إلى الدار. ولقد حاولت دولوريس أن تعرف من هم لكنه ضحك وقال:

ـ صدقيني، إنني أعدها مفاجأة لك، فالضيوف على ما يبدو أصدقاء يجب الاهتمام بهم.

ومضى إلى خارج الدار في رحلة حول المدينة جاب شوارعها وأزقتها وحاراتها وتوقف مع أكثر من واحد من أصدقائه حتى إذا ما قابل ابن خدوش في مقهاه المعتاد اختارا مكاناً قصياً من القهوة، جلسا فيه يستعيدان ذكريات الماضي القريب والبعيد جداً، وضحكا من كل قلبيهما فها هي الصحراء تعود إلى وطنها الأم رغم ما يثار في الخفاء فالبوليساريو ليسوا على تلك القوة، أوجدتهم ظروف وستقضي عليهم الظروف ذاتها.

إن المغرب العربي في حاجة لأن يؤكد اتحاده وأن يقف وجهاً واحداً ويداً واحدة وكلمة واحدة أمام المشاكل والعقبات ولكن..

ومع كل هذا فالأمر لا يستدعي مزيداً من التفكير. فالصحراء تنتظر في صمت خروج آخر جندي لإسبانيا، وأبناؤها يعتقدون بأن الوقت قد حان لخروج هؤلاء الجنود.

لقد تحققت المعجزة وأصبح من حق الصحراوي أن يرفع صوته أمام الإسباني بعد أن كان لا يستطيع أن يقول أية كلمة.

وعند آذان المغرب توجه الجميع لأداء الفريضة في المسجد القريب حيث

استمعوا بعد الصلاة إلى حديث الشيخ محمد التيجاني.

لقد أكد الشيخ في حديثه معنى التضامن في الإسلام وأسند حديثه إلى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وشدد في كلماته على معاني الحب والتضحية. وكان حديثاً جامعاً ممتعاً استطاع من خلاله الشيخ أن يبسط للعامة كل تلك المعاني في كلمات سهلة بسيطة يستطيع فهمها كل إنسان.

وبعد الانتهاء من الصلاة عاود سي مجيد رحلته حول المدينة في زيارات متكررة لأكثر من مكان.

وفي الساعة التاسعة مساء كان سي مجيد على مقربة من الثكنة العسكرية في انتظار والد زوجته الذي رغب في زيارة ابنته بعد عودتها. وكان لقاء التقت فيه الأيدي وتصافحت فيه القلوب، وبعد فترة من الوقت مضى الاثنان إلى البيت، حتى إذا ما فتحت (دولوريس) الباب وكأن قلبها يحدثها بما هي عليها المفاجأة حتى اندفعت إلى صدر والدها تحتمي به وتشبع وجهه لثماً وتقبيلاً. ولقد اختارت (دولوريس) ملابسها الإسبانية التي ارتدتها لتبدو أمام والدها بالصورة التي يحبها وكأنها تدلل بارتدائها لهذه الملابس قدرة الإنسان الصحراوي على التعايش في جميع الأجواء.

اختارت (دولوريس) أنواع المشروبات التي يحبها والدها بعناية ودار الحديث بين الاثنين في نواح متعددة حتى إذا ما جاءت على ذكر والدتها دمعت عيناها وتساءلت قائلة:

ـ أو تظن أنها ستغفر لي يا أبي؟

فأجاب:

ـ لم تفعلي في الحقيقة شيئاً سوى أنك كنت أقدر الناس على تبيان الحقيقة، فالروابط بين الإسبان والمغاربة يجب أن تبقى وأن تستمر لأن الصداقة يا ابنتي أقوى من جميع معاني القوة والتسلط.

لقد عاشت إسبانيا فترة من الوقت، حكمها المسلمون وعاشت الصحراء فترة من الوقت تحت حكم إسبانيا وقد جاء الوقت لكي يعيش الإسباني والمغربي إخوة متحابين يسعى كل منهم لدعم صلات القوة والحب والجوار؛ إنها الحياة يا عزيزتي فقد كسبت إسبانيا الكثير بخروجها من هذه الأرض: كسبت صداقة المغرب وموريتانيا والأمة العربية والإسلامية أيضاً وهذا ليس

بالشيء القليل.

وأردف قائلاً: سنخرج بالغد من هذه الديار كغزاة ونعود كأصدقاء، سنخرج يا بنتي وسنترك ـ وأنا أول من ترك ـ فلذة من فلذات كبدي أخاف عليها وأحبها وأتمنى لها السعادة في حياتها المقبلة.

ومد يده إلى سي مجيد وقال:

ـ حافظ عليها يا بني فلقد ضحت من أجلك ومن أجل إسبانيا، ستكون أماً لأولادك وسيكون لي عندما أشيع إلى قبري أحفاداً عرباً كما كان في السابق يوم ترك أجدادك العرب إسبانيا، وسيفرح بي أحفادي يوم أجيء لزيارتهم.

وقد خرجت دمعة ساخنة على وجه الضابط الإسباني الذي لم يعرف البكاء وتابع قوله:

ـ سأنزع قريباً عن جسدي هذه الملابس العسكرية إذ إنني سأحال إلى السن التي يحق لي فيها التقاعد، ويومها سأعود إلى هذه الدار لأمضي أكبر وقت فيها.

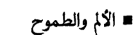
وعندها قال سي مجيد:

ـ ثق يا سيدي بأني سأظل وفياً ما حييت لزوجتي هذه التي أعطتني القوة ومنحتني الصبر لأؤدي واجبي تجاه هذه الأرض فحق لها في الوفاء. إنها كما ترى قطعة من هذا القلب بعد أن كانت جزءاً من قلبك وسنظل يا سيدي أنا وهي على احترامنا للمثل والقيم التي توارثناها. لقد أراد الله لهذه الأرض أن تنتصر وأراد لنا أن نكون أصدقاء وأن نصبح أسرة واحدة، إننا يا أبي ـ وتسمح لي أن أقولها ـ نقدر الجهود التي بذلتها إسبانيا للوصول إلى اتفاق مع المغرب وموريتانيا، وأعطت بهذا الاتفاق معانٍ جديدة للصداقة التي تربطها بالعالم. صدقني يا أبي عندما أقول بأن كل واحد في هذه الصحراء يكن لكم الحب فلقد برهنتم بسياستكم أنكم سادة الساسة وخلصتم إسبانيا والصحراء من شرور الحرب ومآسيها. إن كلمات الشكر وحدها لا تكفي فلقد كنتم عند حسن ظن مليكنا بكم الذي قال في أول لقاء مع جموع المسيرة: أحبوا إخوانكم الإسبان وعانقوهم حيثما ترونهم فنحن نبحث عن الحب في كل مكان، ولقد آن لنا اليوم أن نحتفي جميعاً بعودة الصحراء وحق لي ولابنتك أن نقولها بأعلى صوت: وعادت الصحراء إلى أهلها قوية الجانب موفورة الكرامة.

ليسَ الحُبّ يكفي

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م
ط ٧ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



- الألم والطموح
- رحلت مع الربيع
- عندما لا يخطىء الشعور
- وتعود الطيور المهاجرة
- الشكوك
- الوفاء عندما يتجسد
- طائر السنونو المذعور
- السهل الذي أصبح جبلاً
- شجرة اللوز العتيقة
- الخافق المعذب
- وتبسم الحياة
- الجدة هداية
- العودة
- الفراغ
- موعد مع الحياة
- عندما تتداخل الأشياء
- الذكرى العطرة
- ليس الحب يكفي

الألم والطموح

كثيراً ما تكون ظروف الحياة أقوى من طموح الإنسان فتقضي هذه الظروف على الكثير من الأماني وتزدرد الكثير من الأحلام، وكأن هذه الظروف على موعد مع قسوة الأيام للضغط على نفوس أولئك الذين رزأتهم أيامهم فأصابت أحلامهم فأضاعتها وأمانيهم فافتقدوها.

وهو واحد من هؤلاء الناس، سقط في قافلة الحياة منذ البداية فلم تمنحه الدنيا الفرصة لأن يصل إلى ما رغب في أن يكون واحداً من حملة الألقاب العلمية الكبيرة. ربما كان لكل هذا أثر عند بعضهم، أما هو فلم يكن ذلك الذي يمكن أن تحد الأيام من جذوة أمانيه أو أحلامه، فمضى مع الدرب يقتلع الأشواك من قدميه وإن أدمتها، فهو يعرف بأن الضعف البشري قد يقتل طموح الإنسان وقد يضعفه وهو لهذا يكره الضعف بكل صوره وألوانه.

ولقد آلمه أن يموت أبوه وهو في ذروة شبابه بعد وعكة صغيرة أمضى خلالها أيامه الثلاثة في بيته في الشبيكة، يرمق الطريق بلهفة من يرى أن قدميه تسيران بقوة إلى نهايته المحتومة.

وكانت وفاة والده بمثابة ضربة قاصمة جعلته يعرف بأن سبب مرض أبيه هو خسارته التي مني بها في تجارته الكبيرة، فأصبح بين يوم وليلة لا يملك من أمره شيئاً.

لقد رأى الألم يعتصر قلب أمه بعد ذهاب أبيه، وهو يعرف لماذا، فمعنى وفاة الأب والأسرة على هذه الحال، أن ينبري الابن الأكبر لإعالتها. وكانت أسرته مكونة منه ومن أختيه وأخويه، فشاء

أن يضحي بمستقبله هو الطالب المجد الذي يمضي قدماً في دراسته للسنة الثالثة الثانوية، واكتفى أن ينال هذه الشهادة.

قد يكذب عندما يقول بأنه لم يحزّ في نفسه تركه لدراسته، هو الذي عاش طوال عمره الصغير مثال التفوق، لكنه مع هذا لم يجعل من تركه للدراسة، كما يترك بعض الناس مشكلة كبرى تشغل باله أو اهتمامه، وإنما مضى يعمل في صمت في مكتب واحد من أصدقاء والده يدون له حساباته لقاء مرتب يكاد يكفي بالكاد احتياجات أسرته.

ولقد شعر بأن بقاءه هكذا لن يمنحه الطموح الذي رغب، فهو وإن ترك الدراسة فقد كان حريصاً على أن يتلقى إخوته دراساتهم، وأن يساهم هو من جانبه في تلقي المعلومات التي يدرسونها، على أمل أن يستفيد من كل هذه المعلومات.

ولقد شعر بالسعادة عندما فاتحه صديق والده في أمر فتح فرع لمكتبه في مدينة الطائف، فمضى يهتبل الفرصة علّها تساهم في الوصول إلى أهدافه التي تغيرت بتغير الظروف.

كانت وسيلته في السابق أن يصل إلى أرقى درجات العلم، لتكون هذه الوسيلة الطريق إلى تحقيق طموحه، حتى إذا ما استقر به المقام هناك بدأ رحلته مع الحياة الجديدة بأسلوب متميز، جعله يخطو أولى درجات النجاح بقوة جعلت معلمه ينظر إليه على أنه كنز جديد منحه الله له.

وتمضي خطواته مع السنين قوية، لدرجة جعلته قادراً على أن يصنع ما فاته مع إخوته، فكان أشبه بالوالد الصغير الذي يمنح أولاده كل عمله وثقته أيضاً. وازداد قربه مع إخوانه لدرجة جعلتهم ينظرون إليه على أنه إنسان استطاع أن يصل إلى قمة النجاح، دون أن تكون لديه أدوات النجاح. وأصبح بعد سنوات شريكاً في العمل الذي بدأه، ليكبر مع الزمن ويزداد رسوخ قدميه، حتى أصبح من أولئك الاقتصاديين الذين يعتز بهم من يعرفهم ويفخر. لكنه كان في صميم قلبه يحس بأن طموحه العلمي لم يتحقق، فأقبل مع النجاح على القراءة يستلهم بطون الكتب.

قدرته على الفهم والاستيعاب كانت كبيرة، لدرجة جعلت إحدى الجامعات في بلاده تطلب منه أن يلقي محاضرة في التسويق على طلبة كلية التجارة، هو الذي لا يحمل أية شهادة. ولقد فوجىء بهذا الطلب بادىء ذي بدء، لكنه لم يرفض إجابة الجامعة وإنما مضى إلى تحضير محاضرته بأسلوب يتوخى أن يكون في قمة العلم، ويستوحي من قراءاته ومراجعاته وتجاربه الكثير من المفاهيم التي استطاع من خلالها أن يزيل من أذهان بعضهم عدم قدرة الإنسان على التكيُّف والوصول إلى الهدف ما دام هذا الإنسان واثق من نفسه، مؤمن بما يصنع.

لقد أحسّ بفرحة غامرة عندما رأى أخويه بين مجموعات الحاضرين، وكأنه يستمد منهما العون، هو الذي منحهما حياته ومستقبله.

ولقد امتازت محاضرته رغم جميع المعلومات التي حشدها من أجلها بشيء من الوضوح والتجانس، فقد كان قادراً على أن يربط بين هذين الموضوعين في خيط واحد، وكأنه يستمد من مجتمعه أشياء كثيرة قد فاتت على جميع من كتب في هذا النوع من العلم.

لقد اختار أسلوب المحاضر الذي يمنح المستمع القدرة على الفهم والاستيعاب، لا لأنه كان منطقياً في سرد حججه، وإنما لأنه أيضاً اختار نماذج صادقة لممارسات وتجارب عاشها هو شخصياً.

وقد منحت هذه الممارسات والتجارب المحاضرة الجديد الجديد الذي يفتقده بعض طلاب هذه الكيلة، فمعظم المراجع هي حصيلة فكر غريب استمد مقوماته العلمية من أجوائه التي عاش فيها.

ولقد خرج من المحاضرة سعيداً بما حقَّق من انتصارات، لكن سؤالاً واحداً وجَّهته إليه إحدى الطالبات عبر الدائرة التلفزيونية المغلقة جعله يفكر كثيراً. فلقد كان السؤال في حدّ ذاته صميمياً وإن لم يحس بأي حرج منه، ولكن لماذا لم يجب على سؤال تلك الطالبة...؟

لقد كان السؤال في حد ذاته غريباً بعض الشيء، وكأنّ تلك الأنثى تعرفه حقاً، وتريد أن تعرف السبب الذي لم يكمل من أجله تعليمه.

ويعرف بأنه قد اعتذر عن الإجابة، وإن كان قد أجاب فعلاً عن السؤال،

لكن إجابته كانت غير مقنعة على الأقل بالنسبة إليه.

لقد قال في معرض جوابه بأن ظروف الحياة لم تدع له الفرصة في أن يكمل دراسته فاستغنى عن الدراسة بتثقيف نفسه. وهو يشعر بأنه قد استطاع أن يمسك بخيوط العلم الذي يمارسه بين يديه.

تُرى ماذا تريد هذه الأنثى بسؤالها هذا، ومن هي؟... ولماذا لا يأتي هذا السؤال من طالب وليس طالبة؟

مجموعة من الأسئلة تواردت على ذهنه تنتظر الجواب بلا جواب، حتى إذا ما عاد إلى داره في جدة التي اتخذها مقاماً لسير أعماله، جاءه الجواب مفاجئاً. فلقد قالت له أخته بأن الطالبة التي سألته سؤالها الذي حيَّره، هي ثريا ابنة معلمه التي يعرفها عبر التلفون فقط.

لقد أحسّ فعلاً بأنه قد سمع هذا الصوت من قبل، لكن أين ذلك؟ هذا الذي لم يكن يدريه. وأخذ يفكِّر، لكن أخته قطعت عليه تفكيره قائلة:

ـ أوتدري يا آبي أنها دائمة السؤال عنك؟..

وأجاب دون وعي:

ـ من هي؟

ـ ثريا، ففي كل مرة نتقابل فيها معاً في الجامعة كانت تسأل عنك وتقول كلمات كثيرة...

ـ وماذا تعني كل هذه الكلمات؟

ـ كانت تقول بأن أباها يحبك كثيراً، ويرى في أنك ستصل في وقت قريب إلى أشياء كثيرة في حقل الأعمال.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ وتقول بأن أباها كان يتمنى أن يكون أخوها الذي يدرس الدكتوراة في مثل فهمك، فهو على الرغم من أكاديميته في حقل التجارة لكنه يرى أنك أقدر على العمل وأفهم.

ويبتسم في وجه أخته ويقول:

ـ وأنت ماذا قلت لها؟

ـ لا شيء، سوى أنني كنت أؤمن بكل كلمة تقولها، فأنا أعرف ما صنعت كما تعرف هي، لكنني أعرف شيئاً آخر هو أنك كنت كالجبل تقف أمام المصاعب وتجتازها بقدرة من يعرف الطريق لقدميه.

وتكبر ابتسامته ثم يعاود حديثه مع أخته ويقول لها:

ـ أويمكن أن تصفي صديقتك لي؟

وتضحك وتقول:

ـ عيب يا آبي فهي كما تعرف غريبة عنك. . .

ويضحك ويقول:

ـ لا بأس لكنني أريد منك خدمة صغيرة. .

ـ قل يا آبي. . .

ـ عندما تتحدث إليك ثريا عني أخبريها بأنني لم أصبح على ما أنا عليه لولا أن والدها هو الذي أتاح لي فرصة الوصول إلى ما وصلت إليه، وقولي لها بأن أباها صاحب قلب كبير عزّ أن يوجد مثيله في هذه الأيام.

ـ وماذا أيضاً؟ هل أطلب منها أن تهديني صورتها بعد كل هذا الكلام.

ـ لا.

قالها بحزم، وكأنه ينهي المناقشة. لكن أخته لم تصمت فهي تعرف الحب الذي يكنُّه لأفراد أسرته، فقالت:

ـ ولماذا تريدني أن أقول ذلك كله لها؟

قال:

ـ لعدة أسباب في مقدمتها أن ما تقولينه هو الحقيقة، فوالد ثريا يا أختاه هو الذي أعانني بعد الله على اجتياز كل هذه الصعاب، لدرجة جعلتني أفخر بالانتماء إلى هذا الرجل. أوتدرين أنني لولاه لما استطعت أن أشق طريقي وأصل إلى ما وصلت إليه، فله في عنقي دين كبير يجعلني أحسّ به طوال حياتي، فهو الوحيد الذي مدّ يده لمساعدة ابن من أبناء أصدقائه.

وصمت فقالت أخته:

ـ سمعاً وطاعة سأنقل إليها كل ما قلته.

فقال:

ـ على شرط أن تخبريني فيما بعد بما يدور بينكما من أحاديث.

ونظرت أخته إليه بطرف عينها ثم قالت:

ـ أراك شديد الاهتمام بأن تعرف رأيها في هذا الكلام أم في موضوع آخر لا تود أن تفضي به إلي؟

وأجابها في هدوء:

ـ قد يكون وراء الأكمة ما وراءها فأنا لم أتعود الكذب، لكن عندما يحين الوقت ستعرفين كل شيء.

وصمت، لكنها لم تصمت وقالت:

ـ بل أستطيع أن أقول بأنني عرفت ما تعني.

فقال:

ـ وما الذي عرفت؟

فقالت:

ـ أنت لا تودّ أن أقوله وأنا كذلك، لكننا كلانا على بينة من الأمر. أنت بقرارك وأنا بفهمي لهذا القرار. بقي أن نعرف رأيها.

وانسلَّت إلى خارج الغرفة بعد أن تركته حائراً يناقش نفسه في هدوء.

ترى لماذا يقدم على هذه الخطوة؟ ثم من يدري أن توافق ثريا على ما هو عازم عليه؟

قد يكون أبوها ذلك الإنسان الكفء القادر الذي منحه دروب الحياة، فمضى يصنع حياته بأسلوبه غير قانع بأن يزفَّها إليه، ولكن لماذا؟

ومضى يقلب الأمر من جميع جوانبه، فنجاحه في العمل منحه القدرة على أن يكون نداً لصاحب العمل الذي منحه كل هذه الخطوات وإن لم يفعل.

كانت كلمة عمي تخرج من فمه مع كل كلمة يقولها للرجل، ثم ما المانع أن تزف إليه ثريا وهو يعرف مدى حب والدها له؟ وهل يكفي أن يحبه أبوها

لتقبل هي به؟

وأحس لأول مرة بأنه قد تسرع في طلب ما طلب من أخته، لكنه لم يفقد الأمل، حتى إذا خرج لقضاء بعض أعماله عاد هادئاً، ليجد أخته في مواجهته وهي تضحك.

ـ أراك عدت مبكراً يا أخي.

قال بهدوء:

ـ لا لكنني على ما أظن هذه هي عادتي في العودة إلى البيت.

ـ ربما ما تقوله صحيحاً لكنني رأيت أنك على عجلة من أمرك، فرأيت أن أداعبك.

ـ وبماذا تداعبينني؟

ـ بأن أقول لك كل ما قالت.. أتريد أن أوجز حديثها، أم أنقل إليك كل شيء؟

ـ على رسلك... افعلي ما ترينه صواباً.

واتسعت ابتسامة أخته ثم قالت:

ـ قد يكون الذي سأقوله لك شيئاً لم تسأله لكنني رأيت أن أضيفه بعد أن عرفت كم هي طيبة وحبوبة ثريا.

ـ قولي ولا تزعجيني بثرثرتك.

ـ لا بأس، فلقد تحادثنا أنا وهي كثيراً وقلت لها بأنك تعرف أنها هي التي سألتك في الجامعة، وإنك لم ترغب في أن تقول بأن السبب في وصولك إلى ما وصلت هو والدها حتى لا تحرجها، لأنها لم تقصد بهذا السؤال أن تأخذ هذا الجواب، فهمهمت قليلاً ثم قالت: قد يكون ما قاله أخوك فيه شيء من الصواب، لكنه ليس الصواب كله، فأبي عندما أخذ بيده لم يكن يظن بأنه سيصل إلى ما وصل. كان يعتقد أنه يقدم صنيعاً لواحد من أبناء صديقه الذي أحب، وقد أثبت أخوك أنه القادر الوفي، فمنح عمل أبي دفعات من النشاط جعلت أبي يشعر بالفخر والاعتزاز لما صنع، أو تدرين ماذا يقول أبي عن أخيك؟

لو سألني سالم أي شيء في مقدوري أن أمنحه لما رفضت حتى لو خطبك أنت يا ثريا.

ولقد قلت لأبي قد لا يكون هذا في مقدورك، لأن لي رأياً يجب أن أبديه. فمن يريدني كزوجة لا بد وأن اقتنع به، وقد قال أبي مداعباً سأحاول إفهامك حقائق هذا الإنسان حتى تقتنعي به، وعندما توافقين سأشعر بكثير من السعادة.

وعندها قاطعها أخوها وقال:

ـ ذلك كل ما قالت؟

وهزت أخته رأسها وقالت:

ـ نعم، لكنني أضفت إلى كلامها كلمة صغيرة.

ـ وما هي؟

ـ لقد قلت لها بأننا نفكر في تزويجك وإن أمي رأت أن تعرف رأيها عن طريقي حتى يمكن لأخي أن يتزوجك..

ـ وماذا أجابت؟

ـ قالت: بهذه الطريقة سأرفض لأنني لا أرضى أن أخطب بمثل هذا الذي تقولين، إنني أرغب في من يخطبني أن يكون مقتنعاً بي وأنا مثله..

ـ وماذا قلت لها؟

ـ قلت الحقيقة، وهي أنك أنت الذي أرسلتني لتجس نبضها وتعرف رأيها، ولكنها لم تحتر عندما قلت لها كل ذلك بل قالت: قولي لأخيك بأنني موافقة.

ونظر إلى وجه أخته بكثير من الحنان وقال:

ـ وكيف عرفت كل ما أريد؟

ـ من عينيك، فقد تعودت أن أقرأ كل ما فيهما من حب وحنان ثم بعد ذلك أو تدري ماذا قالت ثريا؟

قال بانفعال:

ـ لا.

فقالت أخته:

ـ طلبت مني أن أزورها الليلة ضمن رفيقات لها لحضور يوم مولدها، وها أنذا قد قلت لك، ولقد أحضرت لها الهدية التي جئت بها إليّ في يوم مولدي خوفاً من أن لا تكون لديك الفرصة لشراء غيرها لضيق الوقت وضحكت.

ـ لا عليك سأشتري لك أفضل منها وأجمل.

ونظر إلى أخته وقال:

ـ أين أمي؟

قالت:

ـ في غرفتها وهي تعرف. .

ـ تعرف ماذا؟

ـ كل شيء ولقد أخبرتها بالحديث الذي دار بيني وبينك وبيني وبينها. .

ـ أنت هكذا، دائماً لسانك فلتان كما يقولون لا تستطيعين أن تحفظي سراً.

ـ وهل هناك أسرار على الذين نحبهم؟ أو تعرف ماذا فعلت أمي؟ لقد شعرت بوجهها وقد طفح بالسعادة عندما أخبرتها بكل شيء.

ـ أعرف ذلك وأقدّره، فأنا أعرف أمي منذ ذلك اليوم الذي غادر فيه أبي حياتنا هذه، فلقد نذرت نفسها لي ولكم واستطاعت أن تمنحنا جميعاً كل هذه الرعاية وهذا الحب. كثيراً ما تكون الأمهات أقدر بحاستهن السادسة على معرفة الطيب والرديء بالنسبة لأفكار أولادهن أو حتى بناتهن، فماذا قالت لك عندما أخبرتها بما فهمت؟

ـ لا أستطيع أن أقول شيئاً عن ذلك لأنها كانت في فترة صلاة طويلة، استطعت بعدها أن أنظر إلى وجهها ولقد رأيت كم كانت سعيدة بما تسمع، فهي تعرف دائماً أنك تستطيع أن تصل إلى ما تريد، ولقد قالت لي إن فيك كثيراً من صفات أبيك، فأبونا كما تعرف كان أقدر الناس على الوصول إلى أهدافه ولهذا أضاع ثروته.

ـ لا تقولي هذا عنه فلقد أضاعها يوم رأى أنها يجب أن تضيع، فلقد

حدثتني أمي عن كل هذا الأمر بحرية. لقد كان والدنا يحس يوم عقد صفقته تلك أنه قد يخسر.

ـ ولماذا لم يدع تلك الصفقة؟

ـ كلمة أعطاها لصديقه فبقي وفياً لكلمته تلك.

وصمت فأطرق برأسه قليلاً وبدأ يفكر في الماضي والحاضر والمستقبل. ربما يكون الماضي أجمل من الحاضر لكن المستقبل في نظره سيكون أنضر وأحلى وأجمل. هكذا قرر وهكذا سيكون لأنه يدري كيف يفكر وكيف يتصرف.

ومضى إلى غرفته يستعيد الماضي ويخلط بينه وبين الحاضر الذي يعيش، فكثيراً ما كان الحاضر امتداداً للماضي، وهو اليوم في قمة سعادته، فلقد عرف رأيها فيه، والتفت ليرى أمه تدخل عليه في غرفته وهي تبتسم، حتى إذا ما قبَّل يديها قالت له:

ـ نعم ما عزمت عليه فلقد عرفت من أختك كل شيء. كان الأولى أن أعرفه منك لكننا نحن العجائز أصبح رأينا غير مهم خصوصاً في مثل هذا الأمور.

قالت كل ذلك في هدوء وكان ينظر إلى وجهها الذي عرف، ليرى وميض العين التي أحب تعلن عن إحساسات بالسعادة تملأ تجاويف قلبها الكبير فقال:

ـ لا عليك يا أماه كنت أود بعملي هذا أن أجنبك رداً لا يليق أن تسمعه أذنك، ولهذا رأيت أن تقوم أختي بجسّ النبض حتى إذا ما تبين الخيط الأبيض من الأسود عند الفجر، كنت أنت الأولى والأخيرة صاحبة الحق في الخطبة. فأنا أثق بصفاء رأيك وقدرتك على الوصول إلى ما ترغبين.

وصمت، أما أمه فقالت:

ـ سأذهب في الغد لأخطبها من أمها حتى إذا ما وافقت أصبح من حقك أن تفاتح أباها في أمر الزواج.

وتغادر أمه الغرفة بعد أن أمطرته بدعواتها، فمضى يرقب الأفق من وراء النافذة وكأنه يرى معالم الغد وقد تجسدت صورة على أجمل ما يكون الغد.

وأخذ يستجمع ذكرياته التي مضت ليرى أن ظروف الحياة رغم أنها أقوى من طموحات الإنسان، إلا أن الإنسان دائماً يعرف طريقه للوصول إلى طموحات أخرى إذا عرفت أقدامه الطريق إليها في قوة واعتداد.

وهو من هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يجسدون أحلامهم بأسلوب يجعل من الأحلام الجديدة وسيلة لنسيان تلك التي علا عليها التراب..

ترى هل يستطيع بعد كل هذا الذي صنع أن يقول لنفسه بأنه قد وصل إلى جميع أهدافه التي حققها بأسلوب مغاير لما كان يريد نفسه عليها؟ ربما لأنه يحسّ بشيء كبير من الرضى والصدق.. فالصدق هو في نظره أولى درجات النجاح، لا سيما عندما يصدق الإنسان مع نفسه ومع غيره أيضاً.

سيحمل له الغد طموحات جديدة يحس بها وهي تشغل باله، فهذا الذي صنع ليس كافياً بعد، وهو يحس بأن في طاقته صنع الكثير والكثير جداً، فهو في مقتبل العمر، وفوق هذا كله يستطيع أن يصدق مع نفسه فيمنحها الجديد من الطموح لتمضي القافلة في مسيرتها قوية ومتماسكة، لا سيما وأن ثريا ستكون برفقته تشدّ أزره وتمنحه من حبها ما هو في حاجة إليه، كزوجة.

وفتح ذراعيه للأماني، للأحلام التي يراها وهي تتجسد أمام ناظريه صورة رقيقة يمسح بها إرهاق الماضي الذي كان يشاغله كثيراً وهو في الطريق إلى أهدافه التي أرادها القدر، بأسلوب يجعله يؤمن بأن الإنسان في هذه الدنيا مسيَّر لا مخيَّر.

رحلت مع الربيع

يفتقد الظلام من يعيش دائماً تحت الأضواء رحلة شاقة ومضنية، فكثيراً ما أحرقت الأضواء الفراشات الضالة وهي تجري حول هالاتها في حالة هذيان راقص ضمخته أحاسيس الجوع الذي ينتابها بين الفينة والفينة.

ففراشات الليل تكره أن تعيش في الظلام بعيدة عن أضواء الحياة، كما تكره النجمة أن يخفت وميضها في أجواء السماء.

نسمات الربيع تلفح وجهه الأسمر، بينما زهور الصباح تتفتح أوراقها وهي تعبق بأريج من العطر، خاله شيئاً جديداً هو الذي تعوّد على أنواع معينة من الزهور بحكم نشأته في الصحراء، فزهور الصحراء نسيج يغاير كل هذه الزهور.

ويتلفَّت فيما حوله ليرى أقدام النسوة تدق على الأرض في عصبية وكأنها تجري في سباق رهيب مع الزمن. وهو يتهادى هنا وهناك على مقربة من قوس النصر في باريس، وكأنه يترك العنان لقدميه تمضي في مسيرتها بتؤدة ودون أي اضطراب، بينما كانت واجهات المحلات التجارية تصطفق بزرافات من البشر مختلفة المشارب والألوان. ففي شارع الشانزليزيه يرى الإنسان أنواعاً كثيرة من أبناء وبنات هذا العالم الذي يموج بألوان من الناس.

لكن ما يشغل باله هذا العدد الكبير من رجال ونساء الشرق الأقصى؛ وهم يسيرون زرافات زرافات في الشارع الأنيق، وفي يد كل واحد منهم خريطة، حتى إذا ما وصل لأحدهم بادره بالسؤال - بالإنجليزية - عن الهدف من هذا التجمع، ولقد أجابه الرجل بشرقية

مهذبة بأنهم في زيارة لأحد متاحف الرسم، حيث يقوم عدد كبير من الرسامين العالميين بعرض لوحاتهم فيه، ومن ضمنهم ـ وأشار إلى فتاة يابانية كانت على مقربة منه ـ وقال:

ـ هذه هي رسامتنا الكبيرة.

ومدّ يده مصافحاً، فهو وإن كان يمارس الرسم كهواية إلا أنه لم يصل إلى درجة الاحتراف.

وسألها إن كانت ترضى بمرافقته لهم فأشارت بالإيجاب. ومضى الجميع إلى متحف الرسم، ليشاهد ألواناً من صور الشعب. ولقد استغرقت جولته أكثر من ثلاث ساعات لم يشعر خلالها بالملل، فهذه الرسوم التي امتلأت بها حيطان المتحف جميلة ونادرة، لكن أجمل ما رأى كانت لوحة صغيرة لطفلة لم تتعد العاشرة وبجانبها العديد من الشفاه، رآها شيئاً مثيراً فلقد استطاع راسمها أن يعبِّر عن كل شفة بأسلوب مغاير للآخر، حتى إذا ما نظر إلى التوقيع عرف أنها بريشة صديقته اليابانية التي ابتسمت في تواضع ثم قالت:

ـ أويعجبك الرسم؟

وهزّ رأسه بالإيجاب فقالت:

ـ لماذا..؟

وأجاب:

ـ لأن الشفاه لا يمكن أن تكذب! قد تخفي العيون انفعالاتها، والوجه إحساساته، أما الشفاه فهي دائماً صادقة تغضب وتحب وتكره وتضحك، وهي في كل هذا تصدق عندما نراها بأعيننا النافذة.

قالت:

ـ ذلك ما أردت أن أقوله، فلقد تعودت أن أضع في كل صورة لمحة لشفة، على اعتبار أن الشفاه فوق ما قلت أقدر أيضاً على التعبير بخلجات النفس في آنية مدهشة، جعلتني أحس بها منذ صغري.

وصمتت لكنه حاول أن ينظر إلى وجهها والصورة ليرى في مجموعة الشفاه صورة شفتها هي فلم يفلح.

وعندما سألها، أشارت إلى الطفلة.

لقد حاولت أن أجسد ما تسأل عنه على وجه هذه الطفلة، فمع الطفولة وعذوبتها نحنّ نحن الشرقيون دائماً لإظهار أنفسنا في أجمل وأعف مظهر، وليس هناك في رأيي أفضل من مظهر البراءة ترتسم على شفة طفلة.

وصمتت لكن عينيه التي أخذت تبحث في المكان منقبة عن صورة أخرى يمكن أن تكون مجالاً لحديث كان بينها وبينه، حتى إذا ما وجدها تساءل:

- وهذه الجياد العربية التي ألمح رسومها على هذه التلال وعلى مقربة من سنابل القمح الخضراء أهي لك؟

وبهزّة من رأسها أجابت:

- نعم. فأنا - ولا بد أن تعرف - جبت أكثر بلاد العالم وأمضيت شهوراً ثلاثة في الخفجي أرسم الطبيعة، وتنقلت في الصحراء، ورأيت كم هي جميلة جبالكم في الجنوب.

- وكيف عرفت أنني من هناك؟

- هذا أمر يسهل على رسامة مثلي بأن تعرف كيف تصل إلى المعلومات التي تريدها عبر كلام وحديث، فلقد راهنت نفسي على أنك من هناك، وقد تحقق حدسي وكسبت في كلتا الحالتين الرهان.

- وما هو الرهان الذي كسبته؟

- أن أرسم وجهك وتعابيره وأنت تنقل عينيك بين مختلف الصور.

- وهل باستطاعتك ذلك؟

- لا أدري لكنني سأحاول، وعندما أوفق لن أبعث لك باللوحة وإنما بصورة عنها، على عنوانك، إذا سمحت..

ومنحها بطاقته ثم قال:

- ولكن قد يقدّر لنا أن نلتقي فأنا هنا لأيام...

- ولكنني أنا التي سأغادر باريس الليلة، فمعرضي في واشنطن ينتظرني، وأنا في حاجة إلى أن أضمّ لهذا المعرض صورة ما ذكرت.

ومدّت يدها مودّعة، حتى إذا ما شد عليها قليلاً قالت وفي همس:

ـ رفقاً بالقوارير.

فضحك وخرج من المتحف يواصل مشيته المتأنية وكلمات الفتاة اليابانية تطن في أذنيه، فهو وإن لم يكن يرى في هوايته ما يجدر فقد جعلته يغير رأيه بعد أن رأى بأم عينيه احتفاء الناس بهذا النوع من الفنون.

جميلة هي حياة الناس في بلاده، ففي كل ركن من أركان أرضها صور رائعة تستطيع الأيدي القادرة أن تجسد ملامحها في لوحات زيتية. رأى بعضاً من الرسامين في بلاده يحاولون أن ينقلوها دون أن يضيفوا إلى هذا النقل لمسات من إحساسهم بمعاني الجمال على تلك الأرض. لكن لماذا يظل يفكر في هذا الأمر هو الذي جاء إلى باريس بحثاً عن الراحة التي افتقد بعد عمل مضن قاسى منه الكثير، لكن نجاحه في عمله وشهرته فيه جعلته يحب هذا العمل لدرجة لم يعد قادراً على الاستغناء عنه.

فظروف المعاناة الفكرية التي أفرغها في عدة كتب نالت نجاحاً منقطع النظير جعلته يدرك بأنه وقد بات على أبواب الشهرة، إلا أن هذه الشهرة لم تمنحه المال، ربما لأن مجتمعه العربي لم يصل الكاتب والأديب فيه إلى تلك الدرجة التي وصل إليها الكاتب والأديب في المجتمعات الأوروبية والأمريكية. وهو يدهش لكون مهنة الأدب في بلاده قد ارتبطت في أذهان الناس بالفقر، ربما لأن هذا الارتباط جاء نتيجة ولادة الشاعر في المجتمعات العربية القديمة، وكيف كان هذا الشاعر يمد يده لهذا أو ذاك من أجل أن ينال نصيبه من مال لقاء ما يقوله من شعر.

ويمضي في طريقه إلى التاكسي الذي نقله إلى مكان آخر في باريس. ففي الحي اللاتيني، رأى جموع الناس تسير زرافات زرافات ترقب جموع الشباب والشابات وقد انهمكوا في رسم لوحاتهم ليبيعوها لقاء فرنكات قليلة. وقارن بين هذا المتحف الذي يراه وذاك الذي رآه، فوجد التباين في الأسلوب والطريقة ومزج الألوان كبيراً وكبيراً جداً.

ونظر إلى أحدهم وهو يتحدث إليه بالعربية قائلاً:

ـ قد أكون رأيتك في المتحف وهاأنذا أراك معي هنا. هل أنت من أهل الفن؟

وأجابه:

ـ لا.

لكن رفيقه تابع قوله:

ـ أو تدري الفارق بين هؤلاء الرسامين وأولئك الذين رأيت صورهم على جدران المتحف؟

ونظر إليه وكأنه يريد منه الصمت، لكن هذا لم يصمت وإنما تابع قوله:

ـ قد يفتقد أحدهم موهبته، فلا يجد الطريق لأن تصل رسومه إلى قاعة المتحف لأنه لا يملك من وسائل العلاقات العامة ما وجده زميله الذي رأينا صوره على جدران متحف الشانزليزيه.

إن دنيا اليوم في حاجة إلى هذا النوع من العمل، فالموهبة قد تكون سبباً لكنها إن لم تستطع أن تجد من يفتح أمامها الطريق تتوه في الطريق، كما تضيع بعض هذه اللوحات التي يشتريها جاهل ثم يحتفظ بها، فإذا قيَّض الله أحدهم لصاحبها فأخذ بيده وأوصله إلى المجد الذي يريد كسب الذي اشترى هذه اللوحة آلاف الفرنكات.

لا تضحك مني عندما أقول هذا لأنني أعرف أموراً كثيرة صنعها الإعلام القادر في طرفة عين، في مجال لآداب والفنون على الأقل. وغاب عن وجهه مع الرخام بينما بدت باريس من قمة المكان شيئاً رائعاً جعله يمد عنقه إلى الأفق يرمق الحركة والنضوج في شيء من التفاؤل، ثم عاود رحلته على قدميه هذه المرة ليصل إلى فندقه بعد أن مرّ بأكثر من مكان وتحدث مع أكثر من إنسان.

كان يجهل أنّ باريس تعجّ بالكثير من المغاربة، لكنهم كانوا هناك بالفعل علامة مميزة من معالم المدينة التي لا تنام، وإذا نامت فإنما تنام على قدميها واقفة. وسعد بهذا التعبير وشاقه أن يبحث في دفاتر الزمن عن ذكريات رقدت في أركان نفسه فبحث عنها وكأنه يلمحها في هدوء.

ويعود إلى فندق «الكونكورد لافييت» ليواجه مرة ثانية بأشكال متباينة من البشر، جلهم مثله أتوا لقضاء فترة راحة. ويمضي إلى غرفته يحاول أن يغفو، لكنّ النوم الذي جافاه طوال ليلة الأمس لم يدع له الفرصة لأن يستريح، فأطلّ من الطابق الرابع والعشرين ليرى الأصيل يكاد يبتلعه الظلام في فترة هدوء وبلا معاناة. وأدار مفتاح التلفزيون ليشاهد برامج كثيرة لم يفهم منها إلا الأداء، فقد كان من أولئك الذين نسوا ما درسوه من اللغة الفرنسية يوم كان على مقاعد الدراسة.

كثيراً ما ينسى الناس أشياء كثيرة مرت في حياتهم وعرفوها ودرسوها، حتى إذا ما كبروا نسوها تماماً. وهو في غرفته يجهد نفسه في العودة إلى الوراء قليلاً، حتى إذا ما أحسّ بالجوع مضى إلى التلفون يطلب شيئاً على عجل. ولقد جاءه الذي طلب، قدمته إليه فتاة صغيرة رأى في وجهها طفولة أخته، فساءه أن تعمل مثلها في مكان ما، ومضى يسائلها في أدب، حتى إذا ما عرف السبب الذي أدّى بها إلى العمل، شكر الله كثيراً، فالحياة في بلاده نسيج آخر يمنح المرأة الجلال، ويصونها من أن تبحث عن لقمة العيش في كل مكان.

فلقد قالت له الصبية إنها من الجزائر، جاءت لتدرس حتى إذا ما وجدت نفسها غير قادرة على إكمال علمها، بحثت عن وظيفة فكانت هذه الوظيفة. وهي سعيدة راضية لأن عائدها أكبر مما كانت تتوقع، ولهذا أصبح في مقدورها أن تمضي في دراستها وتمنح جزءاً من معاشها لأمها العجوز التي تنتظر عودتها على أحرّ من الجمر.

ولقد شاقه أن يعرف ما تدرس هذه الفتاة، فهاله أنها تدرس الطب وهي في السنة الرابعة، أي إنها بعد عام ونصف تكون قد انتهت تماماً من دراستها، وأصبح في مقدورها أن تتدرب كطبيبة.

لكن شيئاً واحداً لم يستطع أن يعرفه، فلقد قالت له «ردينة» وهذا اسمها، بأن ما ستتقاضاه أثناء التدريب لا يوازي نصف ما تأخذه في هذا الفندق، فضحك وسألها:

- وهل ستبقين في الفندق بعد أن تنالي شهادتك؟

قالت بحزم:

ـ لا لكنني أطمح في أن أهاجر إلى أمريكا، فأمريكا في حاجة إلى الأطباء، وهناك كما لا بد تعرف مكان للغرباء أمثالي.

ـ وتتركين الجزائر؟

ـ لا وإنما سأتذكرها من بعيد، فأنا كما تعرف صنعت نفسي بنفسي ولا يمكن أن أفرط فيما صنعت. . .

ـ وأمك يا ردينة؟

ـ سيكون مكانها معي يوم أحصل على الموافقة على الهجرة. .

ولكم أحس بالراحة من حديث الفتاة، لدرجة جعلته يطلب منها أن تسمح له بمرافقتها إلى الأماكن التي يجب أن يراها في باريس، وعندما رأى دهشتها قال:

ـ لا تظني بي شيئاً، فنحن من طينة تغاير طينة غيرنا، نعرف حدودنا فنقف عند هذه الحدود، وننظر إلى الحياة نظرة تجعلنا ندرك الخطأ والصواب فيها.

ولقد أجابته إلى طلبه عندما عرفت أنه من أرض المقدسات، وانقلبت تلك الصبية إلى امرأة متبتلة، وكأنها تستزيده المعرفة عن أرض الإيمان فلم يبخل بأن يزودها بكل ما رغبت.

وانصرفت على أمل اللقاء في الغد، لتكون في خدمته.

وعاد هو إلى أحاديث النفس يودعها أحلامه وأمانيه وأهدافه في هذه الحياة. أما تجاربه فقد كانت تطل بين الفينة والفينة معلنة عن استغرابه لمجريات الحياة.

ففي قلب هذه المدينة باريس، يجد الإيمان بالتعاليم تعشش في نفوس أولئك الذين لم تصل أقدامهم رغم كل متاهات الحياة.

حتى إذا جاء الغد التقى بها في ردهة الفندق، ثم مضى برفقتها يجوب شوارع باريس كسائح أصيل يحاول أن يتعرّف على أجواء هذه المدينة التي يلبس نساؤها أجمل ما لديهن وهنّ في الطريق لشراء ما تحتاجه مطابخهن. ولمّا كلّت قدماه طلب منها أن ينتحيا ركناً قصياً في المقهى الزجاجي لينظر إلى المارة من وراء ستار الحياة يحاول أن يستشفّ من حركات الأقدام ما يمنحه

المعرفة. وعندما ملّ النظر، قال لها:

ـ أو يمكن أن تحدثيني عن أمك؟

قالت:

ـ وماذا يهمك من العجوز التي تحلم بأن تحج؟

قال:

ـ من أجل ذلك أردت أن أعرف كل شيء عنها.

تحدثت له عنها حديثاً طويلاً عرف منه كل شيء. فهذه المرأة الجزائرية العجوز استطاعت أن تقنع واحداً من الفرنسيين بأن يسلم ويحسن إسلامه، حتى إذا ما تأكدت من ذلك تزوجته عن رضى وأنجبت منه هذه الابنة.

وعندما انتهت ردينة من حديثها قال:

ـ أنت فرنسية إذن؟

وانتفضت «ردينة» بلا وعي وقالت:

ـ لا بل جزائرية، إن لم تكن تعرف فوالدي رغم أنه فرنسي لكنه أسلم عندما كانت الحرب تدور بين الجزائر وفرنسا.

ـ ولكنك في نظري صغيرة.

فقالت:

ـ لا تصدق ذلك فوجهي الطفولي ومنظري قد يوحي بما عرفت لكنني أكبر من ذلك فأنا...

وصمتت...

ولم يرد أن يزيد في كلامه بل أخذ يتحدث في شؤون أخرى عن الجزائر والتعريب، وقالت:

ـ صدقني عندما أقول لك بأننا مسلمون ندين بدين الإسلام، ونؤمن بأننا بدون إيماننا هذا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه. أعني كل حرف أقوله فلا تغرنك مظاهرنا نحن الجزائريات اللواتي نعيش في باريس.

لقد حكمت علينا ظروف التعليم والمعيشة أن نكون هنا، ولكننا هنا

بأجسادنا فقط، أما قلوبنا فهي ترمق الأصيل هناك في وهران وفي الجزائر وفي سماء كل قرية من قرانا، نلمح تفاصيل حياتها تطاردنا بحب، لأننا نحب تلك الأرض وحبنا لأرضنا ينبع من حبنا لبلادكم التي هي قبلتنا. فالجزائريات بل المغرب العربي بأسره، برجاله ونسائه، يحنّ قلب كل واحد فيه ويهفو لأن يرى أنوار المسجد الحرام، ويطوف بالكعبة ويمسك بالملتزم، ويقبل الحجر الأسود، ويطالع أضواء المسجد النبوي، ويزور البقيع ويرى آثار أولئك الذين صنعوا حضارة الإسلام وغرسوها في أوروبا وآسيا وأفريقيا وفي كل مكان من هذا العالم.

قد تصغر الدنيا اليوم نتيجة سرعة الاتصالات، لكننا مع كل ما أوجده العصر من أدوات للحضارة، نرى أن العالم يتجه إلى التعقيد ويفقد مع هذا التعقيد أضواء حضارته لأنها مبنية على المادة.

أما حضارتنا فلم تكن كذلك، كانت نسيجاً ربط بين قلوب الأسود والأبيض والأصفر، وصهر هذه القلوب في بوتقة واحدة هي الإسلام.

وصمتت لكنه لم يصمت وإنما بادرها بسؤال:

ـ ولماذا لا تتجهين إلى العمل في بلادنا بدلاً من الهجرة إلى أمريكا ما دمت تحسين بكل هذا الحب لتلك الأراضي؟

ـ ومن قال لك إنني لا أقبل، صدّقني أنني لو خيرت بين الهجرة إلى أمريكا والهجرة إلى ديار الهجرة، لفضلت الثانية لأنني هناك سأكسب الدنيا والآخرة.

ـ وإذا خطبك أحدهم ستقبلين به زوجاً؟

وأجابت بهدوء وكأنّ صوتها يخرج من أعماق التاريخ:

ـ صدقت قد يكون الزواج مطمح كل أنثى مهما بلغت من العلم، لأن المرأة تحن دائماً إلى البيت وترى في تربية أولادها شرف لا يمكن أن يعادله شرفاً، لكننا هنا عندما نتعلم لا نتعلم عن ترف كما يخيل للبعض ذلك، وإنما لأننا نعرف أن العلم وسيلة لإسعاد النفس خصوصاً في بلاد كهذه البلاد تنظر إلى عمل المرأة كضرورة.

ـ وإذا تقدمت لك أنا طالباً يدك هل تقبلين؟

وأطرقت برأسها قليلاً:

ـ قد أقبل وقد أرفض ذلك يرجع إلى طريقة الطلب. فأنا كما تعرف على أبواب التخرج أحتاج إلى وقت أنهي فيه دراستي بالإضافة إلى أنني أعول أمي، وهي عبء على من سأتزوج، يمكن معالجته إذا مارست مهنتي.

ـ ومن قال إنك لن تمارسيها؟ فنحن في بلادنا نحتاج إلى الأيدي المنتجة تعمل من أجل المرأة والأسرة والأولاد.

وأجابت:

ـ إذا كان ذلك ممكناً فالطريق إلى الموافقة مرصوف، لكنه ينتظر أن يعرف كل واحد منا الآخر، هذه واحدة، وأن توافق أنت على انتظاري، وأن ترضى أمي عن هذه الخطبة.

ـ وما دخل أمك في أمر هو من شؤونك الخاصة؟

ـ أنسيت أننا مسلمون نميل دائماً إلى إرضاء الوالدين قبل كل شيء؟ ثم ما الذي يجعلك تطلب مثل هذا الطلب الذي لا أدري جديَّته من جهة، ولكوني لا أدري فقد تكون متزوجاً وعندها لن أقبل ولن أوافق ومعنى هذا أنها لن توافق هي أيضاً.

ـ ولكنني غير متزوج، هربت من ارتباط صنعته إرادة الوالدين في بلدي، فقد أرادوا تزويجي بابنة عمي، لأنها حسبما يقولون مخطوبة لي منذ الصغر.

ـ ولماذا لم تقبل ما فرضاه عليك، وأنت تعرف أن رضاهما ضروري وواجب؟

ـ لأنني أفهمتهما حقيقة مشاعري، فاقتنعا بها وإن لم يقتنع بها عمي وزوجته.

ـ وهي ألم تتحدث معها، وهي ابنة عمك؟

ـ لقد حاولت ذلك فلم أجد الفرصة، لكنني أفهمتها حقيقة مشاعري عن طريق صديقتها «أختي».

ـ وماذا قالت؟

ـ أجابتها بأن لا رأي لها في ما يحصل، ولو كان لها رأي لامتنعت هي الأخرى عن القبول.

ـ المشكلة محلولة إذن.

ـ قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لي ولها ولوالدي، أما بالنسبة لعمي وأمها فالأمر جدّ مختلف. فهما يظنان أن أبي قد نكث بوعده ولم يبرّ بما اتفقا عليه، ولهذا تجدينني هنا أبعد بعض الوقت على أمل أن تهدأ الجبهة التي أوجدها عمي، فلقد أقام الدنيا وأقعد الأسرة على أبي وعليّ.

وضحك، لكنها لم تضحك بل قالت:

ـ هكذا أنتم الرجال تهربون من زواج لترتبطوا بزواج آخر، ومع هذا فصدقني أنني أعني كل كلمة، فعندما أنهي دراستي فسأكتب إليك على أمل أن تأتي وتتزوج، ثم نعود بعدها إلى الأراضي المقدسة أنا وأنت والعجوز.

وضحكت من كل قلبها ثم قالت:

ـ أعتقد أن الوقت قد حان لأن تعود إلى فندقك وأعود إلى غرفتي، فغدا سيكون من الأيام المشهورة بالنسبة لي لأنني سأكون طالبة ومخطوبة في آن واحد.

وفي الفندق، عادت أحاديث النفس تأخذ مجرى جديداً يغاير أحاديث الأمس، حتى إذا ما كلّ ذهنه وتعب جسده ألقى برأسه على المخدة ليطلّ في نومه وجه عمه وزوجته وهما يقولان له: لقد فعلتها أخيراً. ولقد حاول أن يشرح لهما كل شيء دون جدوى.

حتى إذا ما أطلّ الصباح سمع طرقاً على الغرفة، وعندما فتح بابها أطلّت عليه فتاة أخرى غير التي عرفها تحمل رسالة صغيرة كلماتها قليلة، لكنه فهم من رسالة «ردينة» أنها آثرت أن تترك الفندق في إجازة قصيرة تذهب خلالها لرؤية أمها التي أبلغتها بأنها مريضة.

وعندما سأل الفتاة عن «ردينة» قالت:

ـ لقد رحلت مع الربيع، كما أنك أنت الآخر جئت إلى باريس مع الربيع.

وضحكت. أحسّ بشيء من الخجل فهذه الفتاة لا بد تعرف سره مع

«ردينة»، ولهذا صمم على أن يعود إلى بلاده. حتى إذا ما وصل إلى بيته في مدينة جدة، وجد رسالة من «ردينة» تعتذر فيها عما سببته له من إحراج، وتذكر بأنها قصدت أن تقول لصديقتها تلك الكلمات التي قالتها دون أن تفهم المقصود منها، لأنها خافت أن تستجيب لرغبته وتترك كليتها، وهي التي تأمل أن تصبح طبيبة كما أعدت نفسها.

كانت الرسالة خلواً من العنوان وكأن «ردينة» برسالتها تلك أرادت أن تكتب له دون أن تنتظر رداً على رسالتها التي كتبت. فهي تعرف بأنها أحوج ما تكون إلى أن لا يخفق قلبها لأول طارق.

وتدور الأيام وهو منشغل بأعماله يؤديها في حماس دون أن يفكر في «ردينة» التي حاول أن ينساها في زحمة الحياة، لكنها تأبى أن تعطيه هذه الفرصة فقد تسلم منها رسالة جديدة فيها جملة واحدة:

ـ قل لي مبروك فأنا قد نجحت.

لكنها هذه المرة لم تغفل عنوانها بل منحته عن طيب خاطر. فالدكتورة «ردينة» يهمها بأن يأتي، فالربيع على الأبواب وهي على ما تظن تأمل أن لا يكون رأيه قد تغير.

فالمرأة تنتظر الزواج دائماً مع الربيع وفي الشتاء القارص، وحتى في أيام الخريف أيضاً.

عندما لا يخطىء الشعور

كثيراً ما تكون ظروف الحياة بالنسبة لإنسان ما أقسى من أن تجعله يستطيع الانسياق وراء أفكاره وأحلامه وأمانيه. ولهذا يقبع الواحد منا في مكانه في محاولة للالتفاف حول هذه الظروف، ليجعل منها أسلوب عمل وأداة نفع يوظفها من أجل تلك الأفكار والأماني والأحلام.

فلطالما كانت الحياة مجرد طريق طويل شاق وصعب، وكثيراً ما كانت عكس ذلك على طول الخط، لكنها بالنسبة إليه... شيء مغيراً لهذا وذاك، لأنها كانت بين بين، وهو من النوع الذي يرى أن في تجسيد أحلامه حقائق يجب أن تكون، لا لأنها جزء منه ولا لأنه هو الآخر جزءاً منها، وإنما لأنه قد وضعها نصب عينيه في رحلة الألم الطويلة.

قد يصبر ويصابر ويعاند أيضاً، فلقد ورث هذه القدرة على الاحتمال من والده الذي كان يهدهده دائماً، ويلقي في أذنيه بأفكار خلاصة تجاربه، بأمانيه التي لم تتحقق، بأحلامه التي أورثه إياها.

وهو يذكر كل ذلك وكأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً رصفت حروفه من أنجم وضاءة، كانت ولم تزل بالنسبة إليه أمراً هاماً وجليلاً.

فالقادرون هم الذين يستطيعون أن يترجموا أحاسيسهم إلى حقائق، وحقائقهم إلى واقع. جمعوا له كل قدراتهم وإمكاناتهم ليغدو الخيال على صورة نادرة من صور الحياة الجميلة.

ويطوف مع الذكريات عبر أجواء الماضي والحاضر في رحلة طويلة على بساط سندسي أخضر تارة، وتارة في زورق من الإلهام

نسجت خيوط شراعه من أقاصيص الحياة. وحكاياها لوحة فريدة لرسام عبقري خطَّت ريشته بألوانها أجواء القرية والمدينة والناس، بأفراحهم وأحزانهم وقد تسربلوا بملابسهم المزركشة أفواجاً أفواجاً يلتقطون الحكمة من سواد الليل ورعشة الفجر وإشراقة الصباح، وقد بلَّل الندى زهورها البرية.

وتتجسد مع الذكرى صنوف من الحياة عاشها وعايشها، وكأنها تطل من اللاوعي في تسلسل عجيب يروي دقائق وتفاصيل رحلته التي أمضاها يرمق طيور السنونو وهي تهاجر في الشتاء بحثاً عن الدفء أسراباً أسراباً.

ويتطاول بعنقه إلى الفضاء السماوي ليرى من بين السحب البيضاء أشكالاً صنعت الحياة جمالها ومنحتها مع الجمال الجلال.

ترى أو يمكن أن تعود الذكريات في صورها أكثر حركة ونضوجاً من كل الماضي، أم إن خيال الإنسان يضفي في بعض الأحيان على الحقائق من روعة تفكيره وخصب خياله ما يمنح الصورة الخلود أكثر من ذلك الذي مضى؟

لا يدري وإن كان يعتقد أن كثيراً من الخيال يغدو واقعاً، وواقعاً مثيراً، كما أن كثيراً من الحقائق تنسى مع الزمن إذا لم يستطع خيال الإنسان أن يجسدها مرة ثانية.

وتستدرجه أفكاره ليرى هل يستطيع الإنسان أي إنسان أن يعرف معنى وحقيقة هذا الإنسان الذي يعايش المحنة والحب والوجد والشوق والكره والحقد، ثم بعد هذا كله تراه يمضي في رحلة العمر وكأنه يظن أنه سيعيش الحياة كلها.

قد تكون من طبائع البشر أن ينسوا ما حولهم في لحظات، ثم يعاودون تذكرها. فهو من أولئك الذين وضعوا بصماتهم على دروب الحياة في شوق ملح صاغه إلهامه. فهو إنسان نال من الثقافة ما يجعله في غنى عن كل هذه الألقاب لا لأنه أكبر منها وإنما لأنه كان قادراً على أن ينالها.

قد يكون الدأب من صفات النمل لكنه هو نفسه يشعر بدأبه على اجتياز حواجز الحياة في لمحة بصر، باعتباره يعرف معنى تواجد هذه الحواجز وظروف وجودها ويختار الوقت المناسب للقفز عليها دون أدنى ألم.

لقد شدّه الشوق إلى ذكريات الصبا يوم كان له في كل ناد مجلس، فلقد عرف عنه بأنه واحد من أولئك الذين لا يمكن أن ينساهم من يراهم.

ولقد سأله صديقه خالد عن أسباب هذه القدرة العجيبة على ترسيخ مفاهيمه في عقول من يقابلهم فقال:

ـ أو تدري أن الإنسان إذا لم يكن قادراً على وضع شيء بذاته في أفكار من يراهم يكون كالماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة؟ ولهذا تجدني أفضِّل أن أضع في نفوس من أصادفهم شيئاً من أشياء ثلاث: الحب أو الاحترام أو حتى الكراهية. فالناس يذكرون دائماً من أحبوا ومن كرهوا، ويحترمون في قرارة نفسهم من هو جدير بالاحترام. أما إذا لم أستطع أن أضع واحداً من هذه المفاهيم في ذهن من عرفت، أكون كمن سار في الطريق، رآه الناس ولكنهم لا يستطيعون تذكر معالم وجهه، أو حتى ملابسه، لأنه بلا طعم ولا لون ولا رائحة.

يقولون: كل ذي عاهة جبار، وينسى من ضرب هذا المثل بأن إصابة أي إنسان بعاهة ما، تجعله دائماً في حاجة إلى الاستعانة ببقية حواسه لتنمية مواهبها، ليكون قادراً على أن يجعل من عاهته ما يجعلها بعيدة عن متناول الأنظار، فهو يسعى ويسعى لأن يصنع ما يمكنه من أن يكون قادراً على تغطية هذه العاهة أو هذا العجز.

وهو يعرف بأن نابليون لو لم يكن قصير القامة، أعرج المشية، لما استطاع أن يصل ليكون في يوم ما هذا البطل الذي دانت له أوروبا في يوم من الأيام.

ويعرف بأن أديسون أبو الاختراعات لو لم يكن فقيراً، لما استطاع أن يصل بكل اختراعاته التي لا تزال تطل على هذه الدنيا من عليائها معلنة عن عبقرية ذلك الرجل.

ويعرف بأن عباس محمود العقاد لم يكن ليصل إلى هذه القدرة العجيبة في كشف مناهل العلم، وتجريدها ومنحها من الأضواء ما يجعل الكلمة طريقها إلى قلوب الآخرين، لو لم يكن قد فاته قطار العلم والشهادات، فلقد استطاع هذا العبقري أن يصنع من عقدة النقص كما يسمونها عقدة كمال في دنيا تفتقد إلى الكمال.

إن المعاناة في حد ذاتها وسيلة للوصول بصاحبها إلى المكانة التي يريد، إذا كان قادراً على الاستفادة من أثرها وتأثيرها.

وهو واحد من هؤلاء يمشي على دروبهم، يأخذ من يومه لغده، ليأتي الغد في أجمل صورة وأحلاها. يرمق الفجر الناري بعينين وضاءتين لم يلهب جفنيهما بكاء أو عويل، فلقد وطّد العزم على أن يمضي في طريق السعادة رغم عاهته... وهو يذكر السبب الذي جعله هذا يمشي على عكّازيه، بعد لهو صاخب في بستان والده الكبير.

فلقد تعوّد كما تعوّد الكثيرون أن يغطسوا من أول البئر إلى أعماقه في خفة ومهارة. جرّبها كثيراً فكان البارع فيها، لكن دفعة صغيرة من يد صديقه جعلته يفقد توازنه فيرتطم ظهره بماسورة الماء الكبيرة التي أحسّ بها وهي تضغط على كل جسمه، ثم يمضي في طريق الغيبوبة لا يدري إلا أنه على فراش وثير ناعم في إحدى مستشفيات المدينة، تنقل بعدها إلى العديد من المستشفيات دون جدوى، فقد فقدت قدماه قدرتهما على الصمود أمام الحدث المفاجىء. وأصبح وهو في العاشرة يتنقل إلى مدرسته على عكازيه.

كان يرى الحسرة تبدو على وجه أمه وأبيه... فقد كان وحيدهما الذي ذهب ضحية لعب الأطفال، ومع هذا كان يبتسم وفي قلبه غصّة، وفي أعماق أعماقه طموح، ظهرت آثاره في قدرته على المضي في دراسته بشكل جعل الكثيرين يثنون على همته وقدراته، حتى إذا ما تخرج من الجامعة، وذهب للدراسة في ألمانيا لم تمنعه عاهته من أن يؤدي واجب التعليم بصورة مقنعة حببت أساتذته فيه.

حتى إذا ما عاد كطبيب نفسي بدأ في بإنشاء عيادته التي جلب لها جميع الأجهزة والأدوات التي تساعده على أداء هذا الواجب.. ولقد برز في هذا العلم بروزاً جعل الكثيرين يأتون إلى عيادته يتلقون علاجهم.

وهو يعرف بأنه هو أيضاً محتاج إلى العلاج. لن يقول كما قالت الطبيبة النفسانية «جوين ويلاني» في كتابها الذي أصدرته والتي حذرت فيه المرضى النفسانيين من أطبائهم فهم مثلهم، لأنه يعتقد بأن مثل هذا القول فيه كثير من المبالغة، لكنه مدرك أيضاً حالته النفسية التي تجعله يغرق في عمله حتى لا

يكون هناك فراغ من الوقت يجعله يفكر في الماضي والحاضر والمستقبل. لكنه عندما وجد الفرصة مواتية، أخذ يجتر الذكريات وكأنه يريد من وراء كل ذلك تحديد موقفه من هذا الذي كان.

ولقد أحزنه أن تزفّ ابنة عمه إلى واحد من الناس جاء لخطبتها فقبلت، هي التي أمضى معها سنوات الطفولة، حتى إذا ما كبر طمع في أن تكون زوجته، لكن خاف أن يطلب ذلك فترفض، وها هي الأيام تثبت صدق حدسه، فلقد انصرفت عنه بعد أن أصيب بتلك العاهة.

ولكن من يدري فربما انصرفت عنه أيضاً حتى لو لم يصب بهذه العاهة، فقلوب العذارى تخفق في سنوات العمر خفقات كثيرة قد تغاير خفقات صدر الطفولة وبداية الصبا.

ذاك أمر يدركه ويعرف الكثير عنه، فلطالما تحدثت إليه بعض من مريضاته عن تقلبات هذا الخافق الذي ينبض في الصدور.

ولقد استلهم مواقف شجاعة كثيرة أثناء حياته، فلم يدع لأية مشكلة صغرت أم كبرت أن تؤثر في مسيرة حياته التي اختطها، لكن جل همه كان أن لا يرى هذا الانكسار وحدّته يكبر في قلب أمه التي تحبه، فلطالما تحدثت معه عن الزواج، وأبدت له رغبتها في أن تراه أباً لدزينة من الأطفال.

كان يضحك من أعماقه ويقول لها:

ـ الزواج يا أماه قدر ونصيب، يأتي في الوقت الذي يريده الله، فلا تستعجلي.

وكانت أمه تحاوره كثيراً لكنه كان يفحمها بقوله:

ـ صدقيني عندما أجد الفتاة التي أرضى عنها وترضى عني سأطلب منك أن تخطبيها لي.

وكانت أمه تعدد له أسماء الكثيرات، وتسهب في وصفهن لدرجة كان يشعر فيها بالملل، لكن حبه لهذه الأم كان يحول بينه وبين أن يظهر ملله.

ويستعرض شريط ذكرياته التي قفز عليها هكذا فجأة لتطل صور الماضي بدون ترتيب ولا معاناة. فوعيه الباطن الذي يختزن هذه الصور يساعده على تجسيدها.

قد يكون فعلاً أحبّ ابنة عمه هذه في صمت، لكن حبه هذا لم يشغله عن أن يحدّد مصيره من خلال دراسته الشاقة، فلقد أمضى سنوات عشر طوال يتنقل بين مصر ولندن ومدينة جدة في رحلة العلم هذه.

وهو يعرف كم أحبته الفتاة النرويجية التي كانت تدرس معه اللغة الانجليزية في إحدى المدارس، تحسباً منه لحاجته إلى هذه الدراسة في تخصصه. فقد كانت فتاته تلك أنثى شقراء جميلة، في عينيها سهر الليالي، وفي وجهها إشراقة الصباح، ولقد اختارت «سارا» غرفة مجاورة لغرفته عندما كان يدرس في لندن في بيت العجوز «فلورا».

وكانت تعمد دائماً إلى القيام برعاية شؤونه كأم صغيرة، حتى إذا ما طالت العشرة، قالت له، وبصراحة الأوروبية التي تعيش في شمال أوروبا:

ـ لقد أحببتك ومن كل قلبي.

وأجابها:

ـ رغم عاهتي؟

لكن «سارا» قالت:

أو تظن أن العاهة قد تحول بين أن يحب الإنسان من قبل إنسانة مثلي؟

وهز رأسه بالإيجاب فقالت:

ـ غلطان، فكثيراً ما تولّد شعور المحبة نتيجة تواجد مثل هذه الأمور.

ولم تسمِّها. فقال:

ـ عندها لا يمكن أن تسمي ما قلت حباً، وإنما هو العطف والحنان على إنسان يحتاج إلى هذا الحنان.

وضحكت «سارا» وقالت:

ـ أود أن أعطيك مثلاً عن امرأة من فرنسا أحبت رجلاً أعمى من مصر. ومصر قريبة من بلادك، ثم عاشت معه سنوات عمره حتى مات، ماذا تسمِّي هذا؟

قال:

ـ أسميه العطف من جهتها والحب من جهته.

قالت:

ـ قد ينتهي العطف إلى محبة إذا كان ما تقول صحيحاً أما الذي في قلبي لك فهو الحب فأنا أريدك كزوج.

ولقد حاور وداور ليفهمها أنها مخطئة في هذا الشعور، لكنه لم يستطع، فتفاهم معها على أن يكونا صديقين. حتى إذا ما انتهت مدة دراستها عادت إلى بلادها لتواصل مراسلته باستمرار. ويوم التقت بمن خفق قلبها له كتبت إليه تستشيره في أمره وتسأله:

ـ أهو الحب أم العطف؟

فكتب لها برأيه وقال:

ـ لا أدري فلربما قد أصاب الرمد الربيعي قلبك، فقلوب المحبين عرضة لأمراض مختلفة يحسن بصاحبها أن يعرف حتى لا تكون سبباً في إيلامه في المستقبل.

ولكم سعد برسالتها التي جاءت متوجة بكلمة صغيرة من صديقها الذي ستتزوجه يشكره فيها على رسالته، ويطمئنه بأن ما يحس به وتحس «سارا» لم يكن رمداً ربيعياً، وإنما حباً حقيقياً خالط القلب والأعصاب، وقضى على العطف أو الحب الذي أسبغته عليه «سارا» يوم كانت معه في لندن.

ولكم أحسّ بالراحة بعد هذه الرسالة التي أعقبتها دعوة وتذكرة إلى النرويج لحضور حفل الزفاف. لكنه أعاد التذكرة مصحوبة بهدية ثمينة من بلاده، أرادها أن تكون بمثابة ذكرى لصداقة كانت ولم تزل يملأ أريجها قلبه.

ترى أين «سارا» اليوم؟ وهلاّ تزال مع زوجها، أم إن أشياء صغيرة طرأت على حياتهما؟ فهو لم يعد يتسلم منها أي رسالة، كما أنه لم يحاول من جانبه أن يسأل، حتى ذلك اليوم الذي تسلم فيها برقية منها تطلب منه أن يمنحها اسماً لابنها الذي ولدته، فهي تأمل أن يأتي اسمه كاسمها مقبولاً في الشرق وفي الغرب، ولقد احتار بادىء الأمر كيف يرد لكنه أخيراً وجد الاسم المشترك بين الغرب والشرق فبعث به إليها وهو جد سعيد.

كثيراً ما تتحقق الأحلام والأماني، وها هي واحدة من أمانيه في أن تستقر سارا وتسعد قد توصل إليها. لكن ما بقي من أحلام لا يستطيع أن يقول إنها

تحققت رغم كل هذه الهالة من الثقة بالنفس والاحترام الذي يحيط به. فهو متشوق لأن يهدأ وتسكن أمه وتستقر، فأمه تريد له المرأة الصالحة وهو كذلك، لكنه لا يرغب في أن يتزوج كما تزوج أبوه.

فمضى في حياته يرقب ما تتمخض عنه الأيام، حتى جاءت هي سمراء فاتنة، في ربيع عمرها الثالث من أسرة طيبة جاء بها أبوها إليه على أمل أن يعالجها من مرض ضحك هو منه بادىء ذي بدء، فابنته ترفض الزواج لأن أختها طلقت بعد شهرين من زواجها.

ولقد أحسّ بخفقان قلبه عندما رآها، وشعر بأنها هي المرأة التي يريد. لكن كيف الطريق للوصول إلى قلبها هي التي ترفض العديد من الخطّاب؟ ونظر إلى عكّازيه بحسرة.

ربما لو كان بدونهما لقبلت الفتاة. ولقد أحسَّت الفتاة بشرود ذهنه في الجلسة العلاجية الثالثة فسألته:

ـ ما بك يا دكتور؟

قال:

ـ لا شيء إنما أفكر فيك أنت وفي حالتك..

وضحكت «مها» من جوابه وقالت:

ـ قد يكون كل ما رويت صحيحاً لكنك مع هذا لم تقل سوى نصف الحقيقة.

وأجابها:

ـ وما هي الحقيقة يا مها؟

ـ الحقيقة أنك تحب.. يا طبيبي العزيز.

وأجابها:

ـ وكيف عرفت..؟

وأسدلت «مها» عينيها إلى الأرض خجلاً وقالت:

ـ قد تكون هناك جسور من الرؤيا يضطرب بها الفكر في بعض الأحيان،

لكنها تصبح واضحة عندما يتلاقى الشعور بالشعور. فأنا أحس بمثل ما تحس. ولهذا فعندما أفضي إليك بدخائل نفسي لا أكون متجنية فأنت طبيبي..

ـ وهل تحبين أنت يا «مها»؟

وأطرقت برأسها خجلاً وقالت:

ـ نعم يا دكتور..

وأشارت إلى العكازين في ابتسامة وصمتت، لكنه كان يفكر..

ترى ماذا تعني «مها»؟ أو يمكن أن تحبه هذه الإنسانة الرقيقة بعد رفضها للعديد من الخطاب، هو صاحب العاهة؟ حتى إذا ما أطال تفكيره قالت مها:

ـ ما بالك يا دكتور أو لا تريد أن تمضي في العلاج؟

وأجابها بضحكة:

ـ لا أعتقد أن هناك ضرورة لجلسة اليوم فأنا أحس بأنك أميل إلى المزاح أكثر من أي وقت آخر، وهذا يعني بالنسبة إليّ أشياء كثيرة.

ـ ولكني لا أمزح يا دكتور وإنما أعني كل حرف قلته.

قال:

ـ لا بأس سنرى ماذا تستطيع الأيام أن تفعل، فكثيراً ما تقع المريضات فريسة حب طبيبهن النفساني، وأخاف أن تكوني أنت مثلهن. انظري إليّ لتري من أنا، فأنا إنسان صاحب عاهة، قد يكون في ثقافتي وتعليمي ومركز أسرتي ما يعني شيئاً ما، لكنه لا يعني لفتاة مثلك أي شيء..

وتابع قوله:

ـ سأطلب من أبيك أن يمنحك إجازة تسافرين بها إلى الخارج لتدركي معاني ما قلت.

قالت مها:

ـ لا بأس بذلك يا دكتور ويوم أعود هل تسمح لي بزيارة عيادتك؟

قال:

ـ ذاك أمر سأطلبه أنا إن لم تطلبيه لأنني أرغب في أن أعرف تفاصيل ما حدث لمريضتي.

وودّعها وودّع والدها، ومضى إلى البيت يفكر في كل هذا الذي جرى.

ترى أيمكن أن تكون مها صادقة في كلامها أم إنها مجرد تخيلات؟

وأحسّ في أعماق نفسه برغبة جامحة في أن تكون صادقة في كلماتها. حتى إذا ما عادت مها من رحلتها تلقى مكالمتها في بيته واستمع إلى صوتها الناعم ينساب إلى أذنيه في دهشة، لكنه لم يحاول أن يطيل حديثه معها لأنها هي الأخرى كانت كذلك فقد قالت له وبجرأة هذه المرة:

ـ أتود أن أطلب من أبي أن يرجوك لتخطبني يا دكتور؟

ولقد حاول أن يجيبها على كلماتها، لكنها أقفلت سماعة الهاتف وتركته يعيش مع أحلامه في هدوء وبلا ضجة.

ولقد تحدّث إلى أمه بدخائل نفسه، وأفهمها حقائق شعور تجاه مها، وسألها المشورة فقالت:

ـ نعم ما تصنع يا ولدي، فأسرة «مها» قريبة لأسرتنا، فجدتي لأمي هي أخت لجدة «مها» وإن كنا لا تتزاور منذ مدة، لكنني سأعيد الصلة لأرى ماذا يمكن أن أفعل، فالقادرون هم الذين يصنعون حياتهم بأيديهم.

إن «مها» على ما أعتقد امرأة ناضجة التفكير تعرف طريق قدميها في هذه الحياة، ولذلك فهي جديرة بالحب والاحترام، لأنها لم تنظر إلى عاهتك كما تسميها على أنها العائق الذي يحول بينها وبين قلبها، وإنما نظرت إلى أعماق أعماقك لترى فيك الإنسان الكامل الذي يقدر على منحها السعادة. وثِق بأن امرأة على هذه الصفات قادرة على أن تمنح البيت الذي تعيش قمة السعادة.

ومضت لشأنها..

أما هو فقد غادر بيته إلى العيادة ليخلو بنفسه في أجواء الماضي، يقدّر ويفكّر في جميع خطواته التي سيخطوها نحو عش الزوجية، فقد آن له أن يرتاح ويهدأ. وهناك كان حديث رائع بينه وبين نفسه جعله يقتنع بأن «مها» صادقة في أحاسيسها وإلا لما تحدثت إليه.

ولقد شاقه أن يعاود الحديث معها لكن حياءه منعه أن يفعل، فظلّ يحملق في أرجاء الغرفة، حتى إذا ما دق جرس الهاتف أمسك به في وَلَه وكأنه يعرف

من سيتحدث معه، وعندما جاءه صوتها هذه المرة أحس بنبضات قلبه تعلو في سرعة متلاحقة، جعلته يقول في كثير من الاهتمام:

ـ «مها».. أوتظنين أن والدتي عندما تأتي لرؤية أمك ستقابلها أمك بالحفاوة التي تليق بها؟

وأجابت «مها»:

ـ نعم، خصوصاً وأننا كما عرفت من أمي «قرايب» يا دكتور.

وضحكت ثم تابعت قولها:

ـ متى ستأتي..؟

قال:

ـ لا أدري!

فأجابت مها:

ـ ولكنني أعرف فهي ستأتي غداً مساء؟ لأنني سمعت من أمي بأنها ستستقبل قريبة لها يوم غد، وهذا يعني أن أمك أسرع منك في الالتفاف حول أمور كهذه.

ـ ولكن يا «مها» أو تظنين أن أمك وأباك سيقبلان الخطبة؟

أجابت مها:

ـ ولم لا؟ فأنت ملء العين والقلب، ثم قبل هذا أو بعده فإن أبي وأمي يعرفان رجاحة عقلي وسيسألانني رأيي، وعندها لن أصمت كما تصمت الفتيات دليلاً عن الرضى، وإنما سأقولها لهما وبملء قلبي: نعم. أنا راضية.

وأقفلت سماعة الهاتف لتتركه مع أحلامه يرى نفسه في الكوشة، بين فرحة أمه التي تبدو على وجهها ودمعة تنحدر على وجه أمها كلؤلؤة فريدة.

تُرى أهي دموع الفرحة أم الحزن؟ لا يدرك ولا يود أن يعرف، بل يكفيه أن «مها» ستصبح زوجته، وهو في شوق للوصول إلى هذا الذي يرغب وترغبه هي أيضاً، فلقد اختارته عن رضى وحب وإعجاب أيضاً.

وتعود الطيور المهاجرة

ويستقر الطائر في مكان ما بعيداً عن عشه بعد سفر طويل دام عشرات السنين جاب فيها الآفاق، واختار الإطلالة على واجهات المحلات الأنيقة في أزقة الموانىء، يختال تيهاً بفتوته التي جاءت فجأة مع البحر الذي أحب، وذهبت كما جاءت.

فالبحر ذلك الشيطان المارد الأرقط، تستطيب الطيور النزول بشطآنه وموانيه، تجوب دروبه ومشاقه، تتلمظ ذكرياته في سعادة وفي شقاء أيضاً.

وتطل الذكريات عبر عيون الأمس القريب والبعيد معاً، وكأنها تجسد حالات الحب والهجر والبعاد. صور تتلوها صور لم تكن في يوم من الأيام صورة مكررة، فالبحر يأبى أن يكون أسير صورة.

ويتلمس الموج طريقه إلى الشاطىء في انكسارات حادة ورقيقة، وكأنه يعلن عما يعتمل في أجواء النفس البشرية، سكينتها وطمأنينتها وغضبها وحقدها أيضاً.

مجموعات من الأشكال تتباين مع كل ظرف ولا تتحد لأنها نسيج يغاير ما يعرفه الإنسان، ذلك الكائن الذي يجري ويأكل ويطير، ويحب ويعشق ويكره.

يغشى البحر ويلتحف السماء ويمتطي عنان الأجنحة البيضاء من خلف أسوار الغابة، يستهدي النجوم ويقرأ صفحاتها في رحلة الدرب الطويلة.

أو يمكن أن ينسى الطائر تجواله يوم ذهب وإيابه يوم عاد؟ ذاك أمر كان بالنسبة إليه حديثاً صامتاً دارت جميع حروفه في تلافيف مخه

وبين زوايا الماضي وحنايا التاريخ، كلمات وضاءة أعطت طريقه النور ومنحت جسده الدفء وقلبه الحنان وعينه الأمل ونظرته الحياة.

والحياة رغم قصرها أطول من أن تمضي دون غاية، فالغاية هي التي تعيش في أجواء المجهول ذرات رمل بيضاء تحتضنها الطبيعة في جوف كوخ ملأت ممراته الزهور وشركاته الرياحين.

هل رأيتم كوخاً مثل هذا الكوخ ساهمت الطبيعة في صنعه، فمنحته حوافه وسطحه، وذلك البياض الناصع أكسبته إياه نتف الثلج البيضاء تزخُّها السماء في هدوء ومحبة وكأنها تريد أن تغسل عن قلوب سكانه الألم والحزن، وتبعد شبحهما إلى غير رجعة في تلك القرية الصغيرة في جنوب سويسرا؟

وهو على مقربة من المدفأة، ينظر في كتابه الذي أحب، يقرأ بعض فصوله في تأن ولا مبالاة، وكأنه يستعيد كلماته في هدوء من يعي كل حرف فيه. ففي هذا الكتاب قصة عمر طويلة، سنوات حياة مرت سراعاً.

كثيرون الذين يضيعون عندما تنقلب موازين الأمور في عيونهم، بشكل يجعل من الصعب عليهم تذكر كل هذا التأرجح الذي ساد حياتهم.

أما هو، فليس من أولئك الذين تستطيع أن تقتلع جذورَهم هموم، أو تقتل في نفوسهم طموحاً. فلقد تفتحت عيناه على الطيران يغشى مجتمعات الدنيا بصدر رحب وابتسامة شاكرة، يرسمها كما يريد ووقت ما يريد، وكأنه بسُمرة بشرته الصافية أشبه بوافد غريب على أرض الثلوج البيضاء.

ويفتح عينيه ليرى أوراق الشجر وقد بدأت تأخذ طريقها بعد شتاء قارص، وخريف قاسى منه وعاني. لكن إطلالة الربيع تمنح الأشجار والزهور الفرصة للانعتاق من تأثير الأجواء القاسية وعلى مهل.

فأكواب السعادة المترعة تفقد طعمها الرائق إذا لم يعد صفو الإنسان إلى سابق عهده. تلك هي سنة الحياة قد تعطي وقد تمنح، وقد تشح أيضاً، لكنها مع كل هذا تمضي لغايتها وفق نواميس لا يمكن لأي إنسان أن يقف في طريقها مهما بلغت قوة هذا الإنسان وعلا شأنه.

ورحيق الأزهار يمتصه النحل ليمنح من خلال هذا الرحيق رحيقاً آخر،

يغني الإنسان ويعطيه، بينما تمضي الزواحف في سيرها بين غابات الأشجار الكثيفة بحثاً عن طعام.

كل واحد في هذه الدنيا لغاية يمضي إليها بقدميه.

وهو يحب كل هذه الألوان الزاهية في الزهور، في الجبال الملونة، في ملابس النساء الفضفاضة، وهي تضفي على أجسادهن روعة الحشمة، في صفحة السماء الزرقاء، في اخضرار العشب، في عيون الفتيات الصغيرات وجدائل شعورهن، في كل شيء، ولا يخشى أن يفضي بما يحب وما لا يحب، فدخائل النفوس إذا ظلَّت موصدة الأقفال يتعذر على صاحبها أن يلقي بأثقال قلبه بعيداً عنه.

وهو يأمل أن يُمنح الفرصة لأن يتحدث طويلاً إلى هؤلاء الناس، فليس أقدر على الكلمة من تفريج هموم الآخرين.

ترى أيكون السبب في هذا الجوع القاهر الذي يحس به بأن يلقي بأعباء حياته دفعة واحدة هو السبب، أم إن الوحدة تجعل الإنسان أي إنسان يميل إلى الإفضاء بما يعتمل في جوانح نفسه الأسيرة؟

وتتراءى له أصداء الماضي في صوره المتعددة، أشكالاً تثير في نفسه كوامن الشجن. فذكريات الماضي أشبه بنتف الثلج المتساقطة، تعلو وتعلو وهي تتساقط في ليونة وخفة، حتى إذا ما ظهر نور الشمس أخذت جبال الثلج تذوب تحت وطأة حرارة الشمس التي تحاول دون جدوى أن تهب مكانها شيئاً من الدفء. فالهواء الذي يهبّ من الشمال لا يمنحها فرصة الاستقرار.

أو تكون حياته التي عاشها على هذا المنوال؟ ففي القرية ولد وفي المدينة كبُر وعاش وتعلم، وفي الغربة أصبح مقامه وسكنه.

وهو في كل مراحل حياته أشبه بفارس فقد حصانه في الصحراء، ترجَّل عنه في صمت ليمضي في طريق الأحلام، وقدماه تدبان على الطريق، ليحس بحلاوة وقعهما في الأرض.

لشدّ ما أحب القرية بأهلها وناسها وشياهها ونحلها وزهورها وجبالها وصخورها ووديانها، ولقد كان أكثر ما أحب جلسته تلك على مقربة من الغدير

يستلهم الطبيعة وحديثها في غناء عفوي، يستمع إلى صداه يشق بطن الوادي.

وتختلط أصوات الشياه الجائعة بأنغام الناي القديم الذي عاصره فترة طويلة، ثم افتقده ثاني يوم جاء فيه إلى المدينة.

لقد كبر فعلاً، ورأى والده أن الفرصة ستسنح له في المدينة أكثر من القرية، بعد أن لاحظ جَدَّه واجتهاده عند معلم القرية. فلقد عرف جل ما يعرف المعلم في شهور، مما جعله يقترح على أبيه أن يأخذه إلى المدينة، فمدارس المدينة أكثر سعة لزيادة إشباع هذا النهم إلى المعرفة.

وتمضي أيامه في المدينة على وتيرة مغايرة، وكأنه على موعد مع الحظ، يغرف بيديه من كل ركن من أركان نهره الكبير. فلقد استطاع أن يفرض احترام زملائه له، هو البدوي الفقير الذي عايش الحرمان فترات طويلة.

يقولون إن اكتساب المعرفة يمنح الإنسان قدرة على مجابهة الحياة، ويقولون بأن الحرمان يورث الإنسان قدرة عجيبة على التفاعل مع ما يراه مناسباً وظروف الحياة التي يعيشها، لتأتي وفق ما يريد خيراً من الماضي وأفضل، ولهذا كان قادراً على أن يصنع مستقبله بأسلوبه لدرجة جعلته يدرك بأن الطريق إلى الجامعة ممهد أمام قدميه. ولكم اختار في أي كلية سيدرس، لكن وهو يعرف مدى حاجة بلاده إلى الأنواع المختلفة من التعليم جعلته يفكر بأسلوب واقعي وواضح.

ولكم كانت المنافسة العلمية شديدة بينه وبين صديقه الذي اختاره رغم جميع الفوارق في الأصل والمنبت والأسلوب والنشأة. فقد كان صديقه من أولئك الذين ولدوا وفي أفواههم ملعقة من ذهب، لكن هذه الملعقة لم تمنعه أن ينافسه في التحصيل ونتائج هذا التحصيل، لدرجة أعجب هو برشاد وأعجب رشاد به.

ومن يومها وهما لا يفترقان. لقد حاول رشاد أن يسكنه معه في إحدى غرف قصره الكبير لكنه رفض، وآثر أن يظلّ في غرفته الصغيرة ليستقبل أباه وأمه عندما يأتيان من القرية لزيارته.

وهو يذكر كيف كان أبوه يجمع قروشه على بعضها، لتقديمها إليه عندما يزوره.

مسكين هذا الأب. لقد رحل عن هذه الدنيا فجأة، ولم يترك له ما يعينه هو ووالدته أيضاً، وإن كان أبوه قد أبقى له قطعة الأرض الزراعية في قريته الصغيرة في جبال غان. لقد كان ينظر إلى هذه الأرض نظرته إلى كنزه الذي لا يرضى أن يفقده. فعلى الرغم من احتياجه إلى المال بعد وفاة والده إلا أنه لم يمد يده إليها وأبقاها لتظل ذكرى تعبق في أجواء حياته التي عاش.

وتمضي الأيام، وتزداد ثقته بصديقه. ففي الجامعة تغيرت النظرة وأصبح كل واحد منهما في كليته. هو في كلية علوم القيادة ـ هكذا كان يسميها ـ وهو يضحك عندما يسأله أحدهم في أية كلية أنت، ويرفض أن يقول بأنه في كلية التجارة، لأنه يعتبر كليته من الكليات التي تمنح صاحبها قدرة على معرفة علوم القيادة، في عالم يحتاج إلى حسن الإدارة وإلى أنواع كثيرة من الخبرة في النقد والتسويق والاستثمار.

أما صديقه فقد اختار كلية الطب عن حب، لأنه كان يأمل بأن يقدم لإنسان هذا العصر شيئاً لم يسبقه إليه أحد.

وهو يذكر مناقشاته مع صديقه في جوانب الحياة الكثيرة ومطالبها، ويعرف بأن ما ينظم أرضه شيء يحتاج إلى بذل الكثير من العناية ليصل إنسانها إلى الهدف الذي أراده.

ويضحك من أعماقه عندما يتسلم خطاباً من إحدى الإدارات المسؤولة، تطالبه فيها بمراجعتها. فلقد شق طريقٌ أرضَه ومزرعته، وهو لا بد سينال تعويضه عن هذا الطريق.

وتصيبه الدهشة عندما يقف أمام المسؤول وهو يعلن أن نصيبه قد بلغ بضعة ملايين من الريالات، هو الذي يحلم بالآلاف فقط.

لقد تسلم منه الشيك ومضى إلى البنك الذي اختاره في جدة ليودع هذا المبلغ الكبير فيه، ثم يعاود رحلته مع العلم حتى نال شهادته التي رغب، ويوم تسلمها كان يضحك من أعماقه، فلقد ابتسمت له الحياة أخيراً بعد عبوس طويل.

ولكن لماذا لم تشق هذه الطريق عندما كان والده على قيد الحياة؟

ربما كان والده ووالدته أحق بهذه الملايين منه، وهو يؤكد هذا في أعماق نفسه.

ولقد تحدّث عن ذلك مع صديقه رشاد الذي كان يمضي في دراسته قدماً، لكن رشاد ذكَّره بإرادة الله ومشيئته فصمت في عجز من لا يدري ولا يعرف.

وتأخذ بمجامع قلبه أطياف الذكرى، وهي تتهادى مشرعة الأجنحة تعكس صوراً من الحياة التي مضت وولَّت.

ترى لماذا يجيد الإنسان تخيل ما مضى في لحظات قصار رغم طول الأيام والليالي والسنين؟

وتمضي رحلة الذكريات تمنح أجواء نفسه شيئاً من الصفاء، فلقد أصبح له في الحياة ما يخشى عليه هو الذي لم يكن يخشى على شيء.

ويوم ودّع صديقه في هدوء كان يذكر كلمات هذا الصديق وهو يقول:

- سترى الحياة هناك شيئاً جديداً مغايراً لكل ما تراه هنا، لأن ظروف المجتمعات تتغير بتغير مواقع الإنسان فيها.

ثم يصمت ويندفع مرة أخرى فيقول:

- قد تستهويك حياتك الجديدة بما فيها من قشور صنعتها المدينة في ظلال منمقة، لكنها رغم كل هذه الظلال فهي ليست سوى قشور وقشور زائلة.

إن المجتمعات تتوالد كما يتوالد الإنسان وتتعايش أيضاً، وأنت كقروي عاصر دنيا المدينة في بلد لا تعرف الضباب. سوف تكره الضباب وكل تلك الألوان الرمادية التي ستلقاها وتعرفها إلى حين.

ستجد الناس هناك وقد تخلوا عن كثير من القيم، فقسوة الحياة تجعل الإنسان أنانياً مفرطاً فيها لا يعرف معنى الصداقة ولا الحب، لأن أمثال هذه الصفات شيء يمكن أن يقرأوه ولا يفهموا معانيه.

أتصدق بأنك إن مرضت لعانيت من مرضك دون أن يقدم لك جارك يد المساعدة، لا لأنه لا يودّ تقديمها لك ولكن لأنه لا يعرفك؟

ولقد عرف كل هذا هنا في «جنيف» و«لوزان» و«زيورخ» وفي أصغر قرية من قرى الجنوب السويسري، وشاهد أقسى ما شاهد كيف يأخذ الابن أباه وأمه

ليودعهما مأوى العجزة لأن ظروف حياته لا تسمح له بالعناية به أو بها رغم كل ما فعلا له.

ومع هذا، فهو يستمرىء هذه الحياة ولا يحبها، ففي كوخه الذي عاش على مقربة من «لوكارنوا» السويسرية، التقى بالكثيرات اللواتي شغفن به وإن لم يلن قلبه لواحدة منهن.

ربما كانت جذوره، رغم كل ما يصنع، مشدودة إلى تلك القرية على مقربة من المزرعة، يرمق الأفق في صمت لاه، لا يعكره شيء بل تزيد من حلاوته أصوات العصافير.

لقد منحته الأرض المال، وأعطته القدرة على الانطلاق في آفاق هذه الدنيا كطائر مل البقاء في مكان واحد، لكن كل هذا العالم على سعته لا يساوي لحظة هدوء تحت شجرة الزيتون العجوز.

حتى تلك التي أحبها يوم التقاها في رحلته إلى فرانكفورت لم تعبأ به، فقد كانت أنثى من الشرق سمراء فيها جماله ورواؤه وحياء أهله، تباعدت عنه ونأت عندما عرفت ما يرغب به فهي في رحلة علم، ستعود بعدها إلى بلادها في باكستان، لتؤدي ضريبة مولدها وتواجدها على تلك الأرض.

ولقد أسدت إليه «فاطمة» معروفاً لا يزال يحس به ويذكره، فلقد قالت له:

ـ أو تعرف أن من تتزوج من خارج وطنها وأسرتها تظل دائماً أنثى غريبة ينساها أهلها ولا يفهمها أهلها الجدد؟

إن تكامل شخصية الإنسان تنبع من ارتباطه بالأرض التي أعطته الخصب والنماء، ومنحته القدرة على الفهم والاستيعاب. وأنا هنا في رحلة سفر قصيرة لا يمكن أن أطيلها بلا سبب، حتى ولو كان هذا السبب هو أنك تحبني.

لكم كانت رائعة تلك الأنثى بابتسامتها وأنوثتها وعفويتها وشرقيتها وحديثها وانتمائها إلى الأرض التي أنجبتها، والأهل الذين علموها وربوها. أما هو فكان كالضائع الذي فقد طريقه في الغابة كطائر يرفرف بجناحيه يلتمس طريق العودة بلا أمل.

سيعود.. فالعودة إلى الأرض لمن لا أهل له كالعودة إلى الأهل سواء

بسواء. أولم تكفه صداقاته لمن عرف وحبه لمن عاش بينهم؟

أولم تمنحه الأرض المعرفة من خلال إتاحة كل هذه الفرص له؟

ويدير مفتاح الراديو لتنساب إلى أذنيه أهازيج الصباح في نعومة ويسر، أحس بها مصابيح نور تضيء معالم الكلمة التي تعشِّش في قلبه.

لقد ظنّ أن المال عصبُ الحياة، وأنه القادر على إضفاء السعادة على المحروم الذي هو.. ولكن...

أولم يجرّب أنواع المتعة في بلاد هذا العالم الذي يضطرب بأجواء الأنانية، وهي تربض على كل جادة وطريق؟

ومع هذا فهو عندما يقارب بين نفسه و«فاطمة» يجد أنه أصبح قزماً يتضاءل أمام قدرة تلك الأنثى على فهم معايير التواجد على هذه الأرض.

إن الإنسان أي إنسان عندما يمنح قلبه ودمه وحياته لوطنه إنما هو في هذا العطاء يتجاوب مع نداء الإنسانية في أعماق أعماق نفسه.

فالوطن ليس قطعة من الأرض بمقدار ما هو الحياة والأسرة والبيت والبيئة والمجتمع، وأشياء كثيرة ستظل محفورة في ذاكرته.

حتى أولئك الذين يعيشون في مجاهل القطب الشمالي، يفقدون شخصياتهم عندما يتركون قسوة الأرض والشتاء، وندرة الحياة في تلك الأجواء التي عايشوها وعرفوها.

أو يمكن أن يكبر الإنسان على قريته أو مدينته؟ لقد قرأ حديثاً لواحد من الذين عايشوا الحرب العالية الثانية من اليابانيين، وعرف من خلال ما قرأ أن ذلك الإنسان قد أمضى في الغابات أكثر من ثلاثين عاماً يحاول الوصول إلى قريته، وعندما عاد إليها هدأت نفسه والتقط أنفاسه.

غداً سيغادر هذا الكوخ في رحلة من يعود إلى صفاء نفسه بعد سفر طويل دام عشرات السنين، وسيلتقي في قريته الصغيرة بكثير ممن عرفهم وممن لا يعرفهم، فالمزرعة في حاجة إلى اليد التي تبني، وهو قد عرف طريقه إلى البناء بعد فترة تأمل عميق في مجريات الأمور على هذه الأرض التي أحبها بادىء ذي بدء، حتى إذا ما توغلت قدماه في طريق أحراشها اصطدم وعيه الباطن بفلسفة

سكانها، تلك التي تغاير مفاهيمه وبيئته ومجتمعه.

أو يمكن أن يقول إنه لا يحب الأرض؟ إذا أنكر حبه لها يكون كمن يكذب على نفسه، فالأرض التي أهدته هذا المال قادرة على صيانة أفكاره من لسعات الجمال الزائف وبريق الحياة المصطنع.

ويتطلع إلى الأفق ليرى أسراب الطيور المهاجرة تعود مرة ثانية إلى مرابعها مع بداية الربيع، فيرى نفسه وكأنه واحد من هذه الطيور، غادر قريته في الشتاء القارس ليعود إليها مع الربيع ونسائم أيام الربيع. فجمال الحياة على أرضه تضج معالمها بصور تكاد تنطق بالحب والصدق والجمال.

ويمتد بصره عبر آلاف الأميال ليرى سنابل القمح الخضراء، يداعبها النسيم في فجر يوم ندي يذكره دائماً ولا ينساه، فهو يعشق الألوان الزاهية عندما تكسو سفوح الجبال في أشكال زهور برية، فيها الكثير من الروعة، جاءت مع الربيع لتظل دائماً في مكانها حتى عودة الربيع في كل عام.

الشكوك

ـ أتشكِّين كثيراً في حديث المرأة إلى المرأة عندما يختلط هذا الحديث بدمائها فترفضه، وبقلبها فتلفظه، أم إن أموراً كهذه لا بد وأن تكون. فليس كل كلام يمكن أن تقبله المرأة من المرأة.

قالتها «رشا» وعيناها مصوبتان إلى وجه صديقتها التي تحب.

ـ لا أدري يا أختاه عمَّا تتحدثين.

قالتها «سهى» في رويَّة، وكأنها تريد أن تسبر غور «رشا» بهدوء صوتها الذي حاولت أن تجعله بارداً كالصقيع، هادئاً كأعماق بئر، لكن «رشا» لم تقتنع بل تابعت قولها:

ـ أنت تعرفين ما أعني ثم تتجاهلين. لقد مررت بالتجربة واستطعت أن تقفزي على أحزانها ببرودة أعصابك وتجلدك، فكنت كعهدي بك قوية قادرة وآسرة معاً، لدرجة جعلته يعود صاغراً إليك، وفي قلبه جرح ينزف، وفي نفسه ألم صارخ. استطعت أن تصعديه بعينيك في هدوء وروية، ثم بعد كل هذا تقولين عما اسألك عنه بأنك لا تدرين؟

انظري إلى امتقاع وجهك ورعشة أطرافك وسهاد عينيك. ترين المشكلة أكثر وضوحاً مما تظنين لا لأنه أرادها هي، وإنما لأنه استطاع أن يخفي رغبته هذه عنك أكثر من عشرين سنة.

وصمتت ثم قالت «سهى»:

ـ قد أكون عشت معه خلالها كامرأة تافهة، لا تدري من أمر زوجها شيئاً. لم أكن أظن أنها قادرة على اقتلاع جذوره من بيته، هي

التي تزوجت وتركته رغم معرفتها بأنه يحبها. وعندما أقدم على خطبتي رفضت، لكنك أنت التي جعلتني أقبل، فأنا أعرف ماضيه، أذكر حبه ولا أنسى، فنحن كما تعرفين جيران نعيش في زقاق واحد.

وعندما تزوجته ظننت أنه شقي مما ألمَّ به، حتى إذا توفي زوجها تبعها كظلها، يرمم جسور حياتها للصلة العائلية التي تربطه بها، وقد جاء يومها يستأذنني في أن يفعل فلم أبخل عليه، بل قلت له بأن ذاك شيء واجب تمليه ظروف الحياة وتقاليدها. ومنذ ذلك الوقت أحسست بأنه لم يعد ذلك الزوج الذي عرفت لقد عاد الحب القديم يسري في عروقه، وكانت الفرصة سانحة لبذل نفسه معها من جديد.

ـ وهل رضيت أن تتزوجه بعد انتهاء العدة؟

ـ لا أدري. لكن كل من أعرفهن يؤكدن ذلك لي إلا هو، فقد رفض أن يجيب، وتركني أتخبط في حيرتي أعايش الألم وأعانقه، أعنِّف نفسي على قبوله كزوج طيلة كل هذه السنوات.

وتصمت، ثم تعاود الحديث:

ـ كثيراً ما كنا نقول بأن الإنسان عندما يكبر يلفظ بعيداً كل ترهات الماضي، وينسى أخطاءه ويتجنبها، لأنه قد وهب حياته للحاضر الذي يعيش، والمستقبل الذي يأمل.

وتجيب «رشا»:

ـ ذاك أمر لا يمكن أن نختلف عليه، لكن لماذا تأكل الظنون قلبك وأنت أعرف بما يقوله الناس، فكثير من الذي يقال لا طعم له ولا لون، وإن كانت هناك رائحة، ورائحة كل ما سمعته هو أنه يقوم بواجبه تجاهها بعد أن استأذنك، ولو كنت غيورة وخائفة فلم وافقت؟

ـ وافقت لأنني أثق بأنه سيصنع ما يريد، أن طلبه كان مجرد تمثيلية أراد بها أن يغطي موقفاً ما شككت فيه، ولم أمعن الشك فيه كثيراً، لأن الحقائق لا يمكن أن تغيب، وها هو الدوي يملأ أذنيّ، يطنّ، يأكل كل وقتي في التفكير بحقيقته.

ـ لكنني أعرف رجاحة عقلك فأنت زوجته وأم أطفاله، لا يمكن أن يفرط في كل هذا بسهولة، وإن اندفع فإلى فترة يعود بعدها تائباً. هكذا أظن.

ـ أنت أيضاً تعرفين إذن ولا تمنحينني هذه المعرفة، وإلا لما قلت إنك تظنين، فالظن بداية اليقين على ما أعتقد.

وضحكت «رشا» من كل قلبها وقالت:

ـ أو تدرين يا «سهى» أن هذه اللهفة التي أراها تطل من عينيك أكاد أشاهدها في عيني كل امرأة يبحث زوجها عن الجديد، وهو أمر محزن أن نكون نحن الحرائر لعبة هذا الرجل، لدرجة تجعلني أفكر في طريقة نستطيع أن نحارب أنانيته وحبه لذاته.

وتجيب «سهى»:

ـ ولكن الوقت ليس وقت فلسفة، هناك مشكلة واضحة المعالم أمام ناظريك، وتبحثين أنت عن معالجة هذا الموضوع بشكل جذري. قد يكون لدراستك التي تلقيتها في الجامعة دخل في هذا التفكير، لكن ما ذنبي أنا صديقتك أن أغلق عواطفي وأكتم آلامي، وأبقى حبيسة هذا البيت؟ هو لا يقول والناس يقولون الكثير.

وتجيب «رشا»:

ـ هناك أكثر من طريقة لو فكرت بها لوجدت الطريق لمعرفة الحقيقة منه. فالمرأة بدموعها أقوى على استنطاق الصخر إذا أرادت، فهلا استخدمت هذا السلاح؟

ـ وتظنين أن دموع المرأة سلاح كاف للوصول إلى الحقيقة؟

ـ هو في نظري أكبر من هذا وأعظم إذا عرفت كيف تستخدمينه، فليس هناك أشق على الرجل من بكاء امرأة، خصوصاً إذا كانت هذه المرأة زوجته.

ـ أنت على حق! سأحاول أن أعرف كل شيء بنفسي هذه المرة، فلقد ضقت ذرعاً بما يقال، وأصبح من حقي أن أنتزع الحقيقة من فمه انتزاعاً.

ـ هكذا أريدك امرأة قوية، والآن هلاّ سمحت لي بالانصراف فقد حانت عودتي إلى الكلية ولكن..

ـ ولكن ماذا . . يا «رشا»؟

ـ أيمكن أن أطلب منك شيئاً؟

ـ قولي فأنت تعرفين بأنك تأخذين مني كل ما ترغبين فأنت صديقة عمري . .

وتضحك «رشا» وتقول:

ـ احضري الليلة محاضرتي التي سأقدمها على مسرح الكلية، بدلاً من هذا الضياع الذي تعيشين فيه.

ـ سأفعل يا «رشا».

وتتعانق الصديقتان وتمضي «رشا» في طريقها إلى البيت، بينما تبقى «سهى» مع أحزانها التي أخذت تفكر فيها بأسلوب جديد، فلقد منحتها صديقتها أدوات الشجاعة للوصول إلى ما تصبو وترغب. أليست المعرفة هي أولى درجات النجاح؟ وإذا تحقق كل ما خافت منه ترى ماذا سيكون الموقف؟ وتنخرط «سهى» في تفكير عميق، جعلها تنسى نفسها وهي في موقفها ذلك، حتى إذا ما جاء زوجها قالت ببساطة:

ـ أراك قد تأخرت؟

وأجاب كالعادة:

ـ أنا مشغول هذه الأيام وتعرفين ذلك جيداً . .

ـ مشغول بماذا؟

ـ بالضيوف الذين وفدوا إلى الشركة، أنسيت أننا مقدمون على عمل كبير يحتاج إلى التركيز والفهم والمعاناة أيضاً.

ـ وما معنى هذا الكلام؟

ـ معناه أنني لن أكون معكم على العشاء أيضاً؟

ـ لا بأس.

قالتها في هدوء وأردفت:

ـ وأنا سأذهب لحضور محاضرة صديقتي «رشا» في الكلية.

ـ لا بأس فهذه هي أسلم طريقة تستطيعين بها أن تمسكي نفسك عن الثرثرة مع من يسوى ولا يسوى، فكثيراً ما قتل الفراغ حياة الكثير من الناس.

وصمت.

ويمضي إلى غرفة نومه لتظل هي بعيدة عن الغرفة، تنصرف إلى لملمة أفكارها في دهشة واستغراب، فهذه هي المرة الأولى التي يسمح لها فيها زوجها بالذهاب لحضور محاضرة، فقد كان يكره دائماً غياب المرأة عن بيتها ولأي سبب.

ويجيء ولداها، فتقبل عليهما بلهفة، حتى إذا ما انتهيا من أداء واجبهما سألت المربية أن تعتني بهما كالعادة. ومضت إلى خزانة ملابسها تختار واحداً من فساتينها، حتى إذا ما انتهت من انتقاء ما تريد أسلمت وجهها للمرآة لترى كم تغير هذا الوجه.

لقد أحاطت بالعينين هالتان سوداوان، أصاباها بالفزع بادىء ذي بدء، لكنها عندما عرفت سبب تواجدهما، هدأت نفسها واستكانت.

وفي الجامعة، التقت «سهى» بالعديد من صديقاتها اللواتي فوجئن بوجودها، أما «رشا» فقد كانت سعيدة بوجودها، لدرجة جعلتها تحتفي بقدومها في مقدمة محاضرتها التي أعدتها عن المرأة بين الشك والغيرة.

واستمعت «سهى» إلى المحاضرة في نصف ابتسامة، فلقد استطاعت «رشا» أن تصور مظاهر الشك والغيرة في صور متداخلة، أظهرت حقيقتهما كعنصرين يهدمان حياة المرأة العصرية في المجتمع النامي، كما قدمت المحاضرة إحصائيات كثيرة عما يجري خارج البلاد في عرض شيق شد الكثيرات إليه، حتى إذا ما انتهت «رشا» من محاضرتها أخذت صديقتها معها إلى مكتبها لتعطيها بعض الكتب قائلة:

ـ قد تكون المسافة بينك وبين القراءة قد بعدت طوال كل هذه السنوات، لكنني أجد نفسي حريصة على أن أعيدك إليها وأنت في هذه المحنة.

وضحكت، ثم تابعت قولها:

ـ لا استطيع أن أمنع نفسي عن التفكير في حياتنا معاً، ونحن نمضي إلى

المدرسة الابتدائية فالمتوسطة فالثانوية سوياً ثم نفترق، لكن فراقنا لم يكن دائماً، فلقد تزوجت أنت ومضيت أنا استكمل دراستي ثم أتزوج. ونعاود رحلة الصداقة بعد ذلك في هدوء، ولهذا تجدينني أشاركك المحنة، ولكن في خوف، لا عليه منك ولا منك عليه، وإنما من أفكارك على نفسك.

انظري إلى وجهك في المرآة تجديه قد تغير كثيراً بعد تلك الساعات التي أمضيتها معك، والسبب يعود إلى أنك قد استطعت أن تلغي أفكارك السوداء وتبعديها ولو لفترة عن قلبك، وهذا هو ما أريده.

إننا نحن الحرائر أقدر على صنع مستقبلنا بيدنا إذا أجدنا صنع عجينة أزواجنا، قد تقولين بأن الوقت قد فات بالنسبة لزوجك وأنا أخالفك في هذا الرأي.

انظري إلى دخائل نفسك تجدي أن هناك أموراً تافهة تراكم صداها في عقلك وعقله، لدرجة جعلتها تطغى على أحاسيس الجمال في حياتكما ولا أظن أنني كاذبة عندما أقول بأنك قد استمرأت حياة الزوجية، فلم يعد لديك ما تمنحينه له هو الذي يعرف معنى ما تمنحه المرأة.

إن الرجال عبارة عن أطفال كبار إذا لم نمنحهم شغفنا وحبنا، ومع هذه الثقة ما يرغبون فيه ويريدونه نجدهم باحثين منقبين عن أشياء جديدة وهنا يكمن الخطر.

قد تظن كل امرأة أنها عندما تنجب قد استطاعت أن تشد قدميّ زوجها إلى جانبها، وتنسى بأن هذا المولود الذي جاء إذا لم تكن الزوجة قادرة على فهم معاني الزوجية، قد يكون ويصبح أسلوب شقاء ومضايقة بينها وبين زوجها.

كثيرون هم الأنانيون بين الأزواج لكن أنانيتهم تختفي وراء كلمة حب وحنان صادقة تمنحها الزوجة في لحظة فراغ، ولكن قد تكون مشاغل الزوجة أقسى من أن تمنحها فرصة هذا الفهم فتنسى في غمرة مشاغلها أن الرجل مهما كبر هو مجرد طفل وطفل كبير، ليس كما يقال لعبته المرأة وإنما لعبة المرأة الرجل.

انظري إلى المرأة. أية امرأة قد تكون قادرة على كتم عواطفها مدة أطول من الرجل، لا لأنها جعلت من طينة مغايرة وإنما لأن الإرادة الإلهية منحتها

القدرة على تحمل أعباء الحمل والولادة وتربية الأطفال، وهي أعمال في حقيقتها ليست سهلة، فقد ينفر الرجل من بكاء طفله الصغير في الليل، لأن هذا البكاء يزعجه. أما المرأة فتقوم عن طيب خاطر لتهدهد وليدها في نعومة، وهذا في رأيي منتهى قوة المرأة وقدرتها على الصبر والتحمل.

وتعود «سهى» إلى البيت وقد ضخت «رشا» في شرايينها دماء الصبر، في سعادة من يعرف طريقه في هذه الحياة.

فالأنثى أيه أنثى ليست أسيرة أهواء الرجل مهما كان حبها لهذا الرجل، لأن لها كرامتها التي يجب أن تحافظ عليها بأسلوبها الذي تجيد.

وتمضي «سهى» في طريقها الذي رسمت بعد أن ألقت جانباً تساؤلاتها التي كانت تطل من بين عينيها، عندما ترى زوجها وهو يعود إلى بيته منهوك القوى.

لكنها مع كل هذا لم تفرط قليلاً في أي حق من حقوقه عليها كزوج، فهي تعرف حاجته إلى الراحة وتفهم متطلبات معدته، فتعطي كل ذلك له في صمت دؤوب خاله زوجها دهراً، هو الذي تعود على أحاديثها وثرثرتها. ولقد تجاهل ذلك في بداية الأمر لكنه لم يعد يطيقه في نهايته فسألها دون أن تجيب. وإنا مضت تجوب أرجاء الغرفة تمنح عملها جل وقتها في سعادة من يشعر بأنه قد عرف أسلوب التعامل مع الآخرين، فلقد لاحظت أن اهتماماته بها وبالبيت قد أخذت تتجدد. لكنها مع كل ذلك لم تعر ما يصنع أي اهتمام وإنما مضت في سياستها تلك راضية قانعة، حتى إذا ما جاء صوت صديقتها «رشا» عبر التلفون متسائلاً، أجابت ضاحكة:

ـ لقد وجدت طريقي أخيراً فأنا ألمح بأنني قد استطعت أن أنقل الكرة من شباكي لشباكه.

وأجابتها «رشا»:

ـ الحمد لله. هذا هو الذي قصدت ولقد استطاعت حكمتك أن تزيل الأشواك، لكن ـ وأنا هنا أيضاً صادقة ـ لا تزيدي كثيراً فيما صنعت حتى إذا ما عاد إلى فتح الحديث معك هذه المرة تقبّلي ذلك برحابة صدر. دعيه يحكي كل شيء دون أن تعطيه رأيك، فهذه هي الطريقة المثلى التي يمكن لنا نحن الحرائر

أن نعرف ما يصنع أزواجنا بعيداً عنا.

وأقفلت السماعة.

أما هي فقد فهمت كلّ شيء ووعته وآن لها ولقلبها أن يستريح، فالمعرفة في نظرها وسيلة راحة مهما كانت نوع المعلومة التي ستصل إلى عقلها هذه المرة.

ستتقبل الأمر الواقع بشيء من الإدراك لكن هذا القبول لا يعني الموافقة، فهناك أكثر من طريق يستطيع خلالها الإنسان أن ينضو الأشواك عن قدميه، وهي جادة هذه المرة، يملأ قلبها إحساس بالقدرة الواعية المتمكنة.

ويعود زوجها هذه المرة وعلى فمه شبه ابتسامة وادعة، ليلقي عليها التحية في هدوء، حتى إذا ما ردّت عليه قال:

ـ أو لا تسئلينني سبب هذه البسمة التي ترينها على وجهي؟

ـ ومنذ متى كان لي الحق أن اسألك؟

وربت على كتفيها في حنان وقال:

ـ «سهى»، لا أدري كيف ابدأ حديثي معك.

وصمت فقالت:

ـ لا عليك فأنا لم أعد راغبة في سماع شيء.

وأجابها زوجها:

ـ لكن الأمر في هذه المرة في غاية الخطورة أو تدرين ما تريد الأخرى؟

وأجابت في شيء من السخرية:

ـ ولكنني أعرف ما لا تريد وهذا يكفيني.

وصمتت، ولكن زوجها لم يسكت بل قال:

ـ لقد طلبت مني بعد أن أنهت عدتها أن تقترن بي، ولقد حاولت أن تزين لي هذا الزواج وتعدد مزاياه.

ثم صمت.

ـ ولماذا لم تجبها إلى رغبتها؟

ـ وأنت والأولاد وحياتنا التي نعيش، هل أدعها طعماً للغيرة؟ ثم بعد كل هذا وذاك هناك أشياء أخرى لا أريد أن أثقل عليك بسماعها إذا كنت لا تودين سماع ذلك.

وأطرق برأسه إلى الأرض قليلاً فترة من الوقت فقالت:

ـ لا بأس أفرغ كل ما في جعبتك فأنا أنتظر كل كلماتك هذه منذ زمن.

ثم نظرت إليه نظرة أسى وحسرة فقال:

ـ لا عليك فأنا أعرف أنك على حق في كل ما تقولين وحتى في نظرتك إليّ، لكنني أنا الآخر محق فواجبي الأسري تجاهها يملي عليّ الموقف الذي وقفت، أما الآن فكل شيء تغير بعد أن سمعت منها ما سمعت.

لقد أجبتها بكلمة واحدة بأنني سعيد بزوجتي وبيتي وأبنائي، ولا أريد أن أهدم كل هذه السعادة بأحلام يقظة تعيشها أنثى مات زوجها، فأرادت أن تستبدل وحدتها بأسلوب يمنحها الحياة، بينما يمنح الآخرين القسوة. ولهذا قلت لها أنت حرة في أن تتزوجي من تريدين. أما أنا وإن كنت قد فكرت في يوم من الأيام وقبل أن تتزوجي بالاقتران بك، فلأنك تمثلين في نظري شيئاً تساقطت ذكرياته مع الأيام، ولم يبق منه حتى الهلام، ومضيت إلى الخارج، وصورتك يا سهى تملأ الطريق أمامي.

أتدرين بأنني كنت حريصاً على أن آتي إلى هنا لأقول لك كل شيء، فأنا بدونك ودون هذا البيت لا أحس بأي معنى من معاني السعادة.

وصمت، لكنها آثرت هي الأخرى أن تشاركه صمته، ومدت يدها إلى يده وأخذت تضغط عليها في حنان، ونظراتها كلها مصوبة إلى الوجه الذي أحبَّت، وجه زوجها الذي عرف كيف يستردّ قلبها مرة ثانية، بعد فترات من الشكوك قاتلة ومضنية.

الوفاء عندما يتجسد

ويستعيد الفارس قدرته على امتطاء جواده بعد فترة من الزمن مرت بطيئة مملة، كان يحس خلالها بأنه قد أصبح كالكم المهمل أسير فراشه، بعيداً عن حلبة السباق التي اعتاد أن يغشاها سنوات طويلة، فقد كانت هوايته أن يكون على مقربة من جواد.

ويتطلع إل فرسه بشيء من الوله، يستمع إلى صهيله، وكأنه يرحب بمقدمه بعد طول غيبة، فيبتسم من أعماق قلبه، فها هو صديقه الصامت يحاول أن يتحدث إليه.

ويمد يده ليربت عنقه في كثير من الحنان، بينما تمتد يده الأخرى إليه بقطعة من الحلوى التي أحبها والتي كان يقدمها لفرسه دائماً وفي كل مناسبة.

ومضى يجوب الحلبة في هدوء على ظهر فرسه الذي أحس هو الآخر بحاجة صديقه إلى مشية متأنية، فهو بعد لم تندمل كل الجراح التي أصابته وهو في طريقه إلى الإسطبل راكباً سيارته الجديدة.

لقد شعر يومها بالإغماء نتيجة التصادم الذي جعله يرقد بضعة شهور في المستشفى، يرمم الأطباء كسور جسده وقلبه معاً، لكن أكثر ما كان يحزّ في نفسه أن صديقه الذي اصطدم به يومها، قد أودت الصدمة بحياته نتيجة رعونته في قيادة السيارة.

لطالما حذر صديقه من هذه الرعونة، لكنه كان يضحك من كلماته ويقول:

ـ العمر واحد يا صديقي.

كلمة يسمعها الإنسان دائماً، ويرددها كل واحد منا دون فهم أو إدراك لأبعاد هذه الكلمة ومعانيها.

لكنه مع كل هذا يجد في نفسه مجالاً ليتذكر كل شيء، دقائق ما جرى، أيام حياته التي أمضاها في المستشفى، وجه الممرضة «سهير» الذي كان يطل بين الفينة والفينة عليه، أحاديث أمه وأبيه وإخوته الذين كانوا يعودونه أثناء مرضه.

وهو يعتقد بأنه ولد من جديد، وإلا ماذا يمكن أن يقول عن هذا الذي جرى له؟

لقد شاهد أصدقاؤه السيارة بعد حادثة الاصطدام، فلم يصدقوا أن من كان بداخلها يعيش ويتنفس يتحدث، ويعود مرة ثانية لركوب صهوة الجياد ذاك أمر يعرفه ويعرف أكثر منه، ولكن..

وتطل في تلك اللحظة صورة صديقة فريد وهو يضحك من قلبه عندما يراه، وقد تعلقت رجله ويده بأثقال وموازين كثيرة، وبدا وجهه من خلال الضمادات البيضاء أشبه بكرة ثلج كبيرة، ويستمع إلى أول كلمة يقولها في وداعة:

ـ عمر الشقي بقي يا إبراهيم..

وينظر إليه في هدوء وكأنه يتلمس في وجهه معاني كلماته فلا يعرف، لأن وجه صديقه الباسم لا يمكن أن يعطي لكلماته أكثر من معنى، فلقد جبل على المزاح يختاره حتى في أحرج الأوقات تلك صفاته وهو لا يمكن أن يحيد عمَّا آمن به.

ويتمتم بينه وبين نفسه بكلمات قليلة، لكن صديقه يأبى أن يستمع إلى هذه التمتمة، وإنما يقول له في تفاؤل:

ـ صدقني فأنا أعني ما قلت. ستقوم من هذه الوعكة وستعود إلى الحلبة كحصان يركب حصاناً آخر:

ويستمر في القهقهة.

إنه يحب هذا الصوت، ويحب كل هذا التفاؤل، ويرى أنه مقدمات لأشياء كثيرة يود أن يقولها له صديقه.

ويستمع إليه وهو يقول:

ـ لا ستموت في فراشك فأنا أرمق في فناء المستشفى وجوهاً جميلة، أكاد أراها كفراشات بيضاء تجعلني أغار منك عليها.

ويستمر في الضحك ثم يتابع كلامه:

ـ ليتني كنت مكانك فأنا كما تعرف أحب أن أعيش في مكان كهذا أجد العناية من ملائكة الرحمة. انظر ها هي واحدة منهن تدخل علينا، تطل بوجهها الصبوح أشبه بفراشة ملت الزهر، فجاءت ترمق الأشواك، والأشواك تدمي، وأنا وأنت منها.

ويصمت..

ويطل وجه «سهير» بابتسامته العفوية وهي تقول:

ـ صدقني لم أكن أظن أن أحداً عندك في الغرفة.

ويجيبها صديقه:

ـ وماذا في الأمر؟

فتجيبه:

ـ لأنه سيأخذ الحقنة التي أمر بها الطبيب.

ويعاود صديقه كلامه:

ـ لا بأس فوجودي هنا لن يؤخر أو يقدم فيما ستصنعين، لكن صدقيني يا سيدتي فهو بعد أن يأخذ الحقنة منك سيجد نفسه أحسن حالاً، لأن هذه اليد التي تمنح الدواء قادرة على أن تمنح العافية.

وضحك، لكن «سهير» لم تضحك بل قالت في هدوء:

ـ غلباوي صديقك هذا..

وأجاب صديقه:

ـ نعم بل أكاد أن أكون مدمناً على ما ذكرت فلا تؤاخذينني.

وأدار رأسه وكأنه يمنحها الفرصة لأن تدفع الحقنة في ذراعه بهدوء حتى إذا ما انتهت قال لها في عذوبة:

ـ شكراً أيتها الآنسة على ما صنعت.

والتفتت سهير إليه وقالت:

ـ ولكنني لم أصنع شيئاً سوى عملي.

فأجابها:
ـ كثيراً ما يجيد الإنسان صنع عمله فيشكر.
ونظرت إليه «سهير» نظرة جانبية أحس بمعانيها هو الذي يرقد على السرير، أما صديقه فلم يعر تلك النظرة انتباهه، ومضى يثرثر معه حتى إذا ما جاءت أمه لزيارته مضى على أن يعود في الغد.
ولقد أمضى تلك الليلة مع «سهير» التي شعرت بكثير من الإزعاج لأحاديث صديقه الذي لم يعجبها. ولقد حاولت طوال تلك الليلة أن تتعرف إلى جوانب كبيرة من حياة صديقه الذي يعرف.
ولقد أفهمها كل شيء في براءة، وكأنه يلقي بتقريره إلى رئيسه في الإدارة التي يعمل فيها.
وكان جلّ همه أن يبعد «سهير» عن محيط صديقه بشتى الوسائل، لكنه شعر أخيراً بخطئه، فالمرأة لا يمكن أن تسأل عن إنسان أي إنسان إذا لم يكن هذا الإنسان قد خطا عدة خطوات إلى قلبها.
أو يمكن أن يقول بأنه أحب «سهير» لطول العشرة؟ ذاك أمر لا يمكن أن يقرره شاءت الظروف أن يلتقيا في المستشفى.
إن ظروف الحياة التي يمارسها الإنسان كثيراً ما تصنع جسور المحبة، وفي بعض الأحيان قد تكسرها أيضاً، وهو يريد أن تظل جسور المحبة بينه وبين هذه الفتاة قائمة، فلطالما ساعدته على السهر والراحة، وكثيراً ما قرأت له في بعض الكتب وأشعرته بإنسانيته هو الذي أحس بهذه الإنسانية تكبر بين أيدي الأطباء والممرضات.
مسكينات ذوات اللباس الأبيض، تخفق قلوبهن بالحب وهنّ عنه لاهيات، لأنهن يشعرن بمسؤوليات الواجب وفروضه، فلا يتذكرن سوى ما يريده الطبيب ويحتاجه المريض.
ترى هل تعامل «سهير» جميع مرضاها بمثل ما تعامله؟ ولقد فاجأها يومها بهذا السؤال فقالت:
ـ صدقني نحن لا نتأخر عن أداء واجب أبداً، لكننا وإن كنا لا نفرق في المعاملة، إلا أننا نحس بشيء من الراحة عندما نؤدي واجبنا تجاه أحدهم بشكل أكبر.

ـ وهل أنا واحد منهم..؟

ـ نعم.

قالتها وانسلت إلى خارج الغرفة في هدوء، حتى إذا ما جاء صديقه عاودت سهير المجيء إلى غرفته، وكأنها تأمل أن تحتك به أكثر فأكثر. حتى ذلك اليوم الذي جاءت فيه سهير قائلة:

ـ أو تدري بأنني قد خطبت يا فؤاد؟

ولم تدعه لدهشته بل تابعت قولها:

ـ ومن صديقك بالذات؟

ـ أي الأصدقاء تعنين؟

ـ ذاك الذي كنت أراه معك يملأ أجواءك بضحكاته. لم أكن أظن أنه على هذه الدرجة من الجدية.

ـ أو تعرف ما صنع؟..

ـ لا يا «سهير».

قالها وكأنه يحاول أن يعرف بقية القصة:

ـ لقد تحدّث إلي مدير المستشفى في أمر صديقك فأنت تعرف أنني من بلد قريب، لا أهل لي هنا ولا أسرة، وقال إن صديقك يريدني زوجة وطلب منه أن ينقل هذا الأمر إليّ، بعد أن أرفق بطلبه ورقة ها هي معي وضع فيها كل شيء عن نفسه.

ـ وأنت ما رأيك يا سهير؟

ـ لقد قرأت كل ما كتب وسألت المدير عن الذي كتب فقال: إن كل حرف خطه فريد عن نفسه صادق فيه.

وألقت إليه بالورقة ليقرأها، حتى إذا ما اطلع عليها قال:

ـ لقد قال لك فريد في ورقته هذه كل شيء إلا عن ثروته فهي لا تقدر..

قالت:

ـ أعرف ذلك قاله لي المدير لكنني شخصياً لا يهمني أمر الثروة، وإن كانت الخطبة في حد ذاتها قد فاجأتني من جهة، وكانت المفاجأة الثانية في أسلوبها، ولكنني بعد تمعن عرفت بأن صديقك إنسان صادق لا يريد أن يختار

عندما يرغب في شيء أوضح الطرق.

قال:

ـ هو كذلك واضح الشخصية ولكن الذي يزعجني، هو أنه لماذا لم يطلب مني ذلك.

ـ لقد سألت المدير عن ذلك فقال، وأنا هنا أكبر صديقك، فهو قد طلب منه أن ينسى كل شيء إذا عرف أنك راغب فيّ. ولهذا خاف إحراجك فطلب ما طلب من المدير وهو صديقه كما تعرف.

ـ وأنت ما رأيك يا سهير؟

ـ أتصدق إذا قلت بأنني أميل إليه بعض الشيء، لكنني وأنا الوافدة الغريبة لا يمكن لي أن أتزوج في الغربة لأن لي كما تعرف أو لا تعرف قضية.

ـ وما هي قضيتك؟

ـ قضيتي أنني أعول أمي وإخوتي الصغار، وهم في حاجة إلى مرتبي الذي سينقطع بعد الزواج.

ـ قد يقبل صديقي بأن تعلمي وتساعدي أسرتك بمرتبك أو يتحمل هو نفقات عائلتك، فكما تعرفين هو ميسور الحال.

وأجابت سهير:

ـ الأولى لا يقبلها هو، والثانية أرفضها أنا..

ـ والحل..؟

ـ الاعتذار. هكذا سأقول للمدير كما أقوله لك. قد أكون راغبة في الزواج وقد يكون صديقك عريس لقطة، كما نقول، لكنني لا أملك من أمري ما يجعلني قادرة على الموافقة.

عجيب أمر هذه الدنيا، فالإنسان فيها أسير ظروفه لا يمكن له أن يحيد عن هذه الظروف.

إن ظاهرة التعقيد بالظروف ظاهرة تملأ كل مكان في هذا العالم، فظروف هذه الأنثى تجعلها دائماً تقفل على قلبها فلا يخفق، لأن أسرتها في حاجة إليها وإلا لماذا تغربت وبعدت عن عائلتها؟

ويجيء صديقه على غير عادته متجهم الوجه وكأنه لم ينم تلك الليلة

فمضى يداعبه قائلاً:

- أو يفعل الحب في قلب الإنسان ما فعل؟

والتفت إليه صديقه يسائله:

- ماذا تعني؟

ويجيب هو:

- أعرف كل شيء، ولكن معرفتي لهذا الأمر تزيدني تعلقاً ومحبة لك، فأنت يا صديقي صاحب قلب كبير كما هي أيضاً كذلك..

وتابع قوله:

- إنها إذ ترفض لأسباب أسرية، فهي كما تعرف في حاجة إلى مرتبها وتأبى في الوقت نفسه أن تعيش أسرتها عالة عليك..

- ولكنني كما تعرف ميسور الحال أستطيع أن أقدم هذا المبلغ اليسير لأسرتها إذا أرادت.

ويجيب هو:

- هذا هو الشيء الذي ترفضه وأعتقد أننا عندما نستجيب لرغبتها إنما نصنع معها معروفاً..

- وقلبي هذا الذي يخفق إنه يريدها يا صديقي.

- سيصمت عندما يعرف معنى التضحية فهي في تضحيتها رائعة، تمنح وتهب ولا تأخذ وأنت أيضاً كذلك، لكن تظل تضحيتها أكبر وأعظم، فهي تعرف أنك ستكون لها من أفضل الأزواج، لكن رسالتها في الحياة تقتضي أن تظل على ما هي عليه.

- والحل يا صديقي؟

- النسيان نفرضه على أنفسنا برغبة ودون رغبة، تلك هي سنة الحياة ونحن إلى هذه السنة مشدودون أو ليس كذلك؟

- ربما.

قالها في هدوء وانسلّ إلى خارج الغرفة بعد أن ودعه على أمل أن يلقاه

بعد عودته إلى البيت، فقد رأى بأن من لوازم ما طلبت أن لا يعاود زيارة المستشفى وقد كان.

وها هو يعود إلى صهوة جواده وأفكاره تتجمع كسيل منهمر عن تلك الفترة العجيبة التي أمضاها. لقد مرت به كثير من التجارب عرف خلالها النفس البشرية على حقيقتها هو الذي عاش وفي فمه ملعقة من ذهب..

وأطل وجه «سهير» من وراء أسوار الحلبة واسع الابتسامة، وكأنه يهنئه على نجاته وعودته إلى فرسه ثم يختفي، فيحادث نفسه..

ترى أهو الآخر يحبها أم ماذا؟ ويجيء الجواب هذه المرة مزيجاً من التقدير والاحترام، فهذه الأنثى في نظره تساوي الكثير من الرجال لا سيما أولئك الذين يتنصلون من أداء واجبهم وهم قادرون.

ويتذكر قصة صديقه سمير الذي قطع كل صلاته بأهله بعد تخرجه من الجامعة، لأنه تزوج بفتاة من أسرة كبيرة يهمها أن لا تكون على اتصال بأسرته الفقيرة.

ولقد انصاع سمير لرغبة أسرة زوجته بلا مناقشة، فنأى وبعد عن البيت الذي آواه والأم التي أرضعته والأب الذي جعل منه هذا الإنسان.

هكذا الناس تختلف معادنهم بمقدار ما يحملون في أجسادهم من قلوب وعقول وفهم وإدراك لمعاني التواجد على هذه الأرض.

ويعاود مشيته المتأنية إلى قلب النادي، ويترجل عن فرسه بعد أن أطعمه ما اعتاد من حلوى، ويمضي إلى خارج الحلبة ليلتقي بواحد من أصدقائه القدامى الذين لم يرهم منذ مدة، ويرى إلى جانبه فتاة شقراء، فيتحاشى أن تلتقي عيناه بعينيه، لكن محمداً لم يرض بذلك وإنما أخذ يناديه حتى إذا ما وقف إلى جانبه قال:

ـ لقد حمدت الله على نجاتك فقد سمعت بالذي حدث لك وأنا في فرنسا.

ثم استدار إليها وقال:

ـ «كريستين» تعالي أقدمك إلى صديقي..

ومدّت يدها إليه محيية حتى إذا ما انتهت قال صديقه:

ـ لقد بعثت إليك ببطاقة صغيرة أؤكد فيها عليك حضور حفل التعارف الذي أقمته لأصدقائي بمناسبة زفافي من «كريستين».

ويتساءل في عفوية:

ـ وأخيراً تزوجت.

وضحك محمد وقال:

ـ ذاك أمر لم أكن أنويه وأنت تعرف رأيي في الزواج. لكنها استطاعت أن تدخلني القفص بسرعة، أو تصدق أنني تعرفت إليها أثناء عودتي من أمريكا وتزوجتها في بلدها باريس. لقد كنت في رحلة جماعية أتعرف عن طريقها على معالم الحياة في هذه المدينة، وكان حظي رائعاً عندما كانت هي الدليلة التي تعرّف السياح بمعالم آثار باريس، ويومها دعوتها للعشاء فلم تمانع وهكذا انعقدت صداقتي بها، وبسرعة تم زواجي بعد أن تعرفت إلى أمها الطيبة العجوز. أو تدري ماذا قالت لي أمها؟

ـ لا.

قالها بصدق..

ـ لقد قالت: هي التي بقيت لي من أسرتي الكبيرة، ولولا مرتبها الذي تتناوله لقضينا جوعاً في هذا البلد الذي لا يرحم، ومع هذا فأنا موافقة على أن تتزوج ما دامت تلك رغبتها ورغبتك.

ـ وأمها ماذا سيكون حالها؟

وضحك صديقه وقال:

ـ لقد اتفقنا أنا وهي على أن تعمل كمدرسة في إحدى مدارسنا في أبها، وبهذه الطريقة تتكفل «كريستين» بإرسال ما تتسلمه إلى أمها، وبهذا قبلت الزواج مني وأبت أن أدفع شيئاً من عندي لأمها.

وتمتم بينه وبين نفسه:

ـ صورة جديدة للوفاء تتجسد على هذه الأرض.

فسأله صديقه:

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء.

قالها دون اهتمام، وكأنه يود أن ينهي حديثه، ثم ألقى نظرة متمعنة على كريستين فرآها سعيدة فلم يقل شيئاً سوى كلمة مبروك، وغادر النادي في سيارته الجديدة إلى بيته.

ترى متى يتزوج هو الآخر؟ وهل سيرضى بزواجه؟ زواج تطالبه به أمه منذ سنوات..

سيطلب من أمه أن تبحث له عن إنسانة رقيقة يمكن لها أن تواكب مسيرة العمر في حب وحياء.

وسيسعد عندما توفق أمه فتوجد هذه الأنثى، فهذه الحياة لا قيمة لها بدون الأسرة التي تملأ البيت بأطفالها، فكما تعب أبوه وأمه في تربيته وإخوته، سيتعب هو أيضاً ولكن في لذة يراها تخامر نفسه في هدوء.

وتابع حديثه إلى نفسه قائلاً:

جميلة هي الحياة عندما يتجسد الوفاء على ظهر هذه الأرض بألوانه وصوره وأشكاله المتعددة.

فالوفاء سمة من سمات العصر يجيد صنعه أولئك الذين رزقهم الله قلباً كبيراً مملوءاً بالحنان والحب والتضحية.

وأخذت صورة «سهير» و«كريستين» تملأ الغرفة في وضوح ما بعده وضوح. أما صورة صديقه الذي انصاع لرأي زوجته فنأى بنفسه عن أهله عن أمه وأبيه، فقد بدت باهتة مشوشة تدل على الأنانية وحب الذات.

طائر السنونو المذعور

يشوقه أن يلمح مع الصباح وجهاً يرمق الضياء بوجد عاشق، يرى في النور ومضة حب حارقة تملأ جوانحه في صمت، وكأنها تعيد بيدها الحانية أحاسيس الرغبة وهي تمتلىء في النفس التي آمنت بأن مصيرها يرتبط دائماً مع الضياء، تنعكس إشراقاته على الأرض في رؤى تتصارع في الأجواء، سلسلة عطرية يصيب ريحها وشذاها كل من يرى في معالم الحياة الحرية التي أحب، والهدوء الذي عشق، والجمال الذي يصبو إليه.

صورة يكاد يلمحها تطل من عليائها في رتابة من لا يعرف معنى الرتابة، لأنها انطلاقة فجر وهمسة ضوء، وبوح يمامة ضلت طريقها بين فروع الأشجار بحثاً عن وليف هارب رأى أن يستظل من حرارة الضوء ببرودة مياه البحر الراكدة، حتى إذا ما عرفت طريقها إليه نظر إليها في هدوء، وابتسامة الخضوع ترتسم على منقاره الأبيض، وعيناه مصوبتان نحو الأفق يترسم من وراء خطوات الأمس يوم سار فيها على الدرب في أصالة من يعرف الطريق.

والغمامة الصغيرة تتسربل بأسمالها، تتجاذبها الرياح على أمل أن تفت في عضدها، لتتحلل ثم تمضي. لكنها وهي العليمة بأسلوب الرياح، تعرف كيف تُجمع نفسها كتلة واحدة حتى لا تدع الفرصة لأن تذروها الريح، فالريح تذهب بالغيوم بعيداً وكأنها تفرق بين الأحبة.

وهو من هو؟ إنسان يغشى مجتمعه بلا رغبة، وكأنه يرى في الصمت الراحة، وفي الهدوء المنتجع، حتى إذا ما أطل الليل عادت أفكاره تراوده في تسلسل عجيب، تجعله يرمق ضياء النجوم وهي

تتسربل وراء السجف ألواناً بيضاء زاهية، يزداد ضوؤها بمقدار ما تستطيع أن تهب وتعطي.

ترى من منكم أحسّ بالأمل يراوده في وميض خاطف، حتى إذا أصر على أن يمسك بخيوطه وجد يده تقبض على المجهول؟

ومن منكم صنعت أحلام اليقظة في أعماق أعماقه رؤى لا يكاد يحس بها، تنطلق في أجواء نفسه حتى يراها بعيدة عنه؟

لكن صورة ذلك الوجه بتقاطيعه الدقيقة قد يمنحه الصبر، فيجعله قادراً على أن يمعن في تفاصيل كل تلك التقاطيع، في حملقة تثير ولا تنفر وكأنه المجهول عندما يرى ويقابل ويتحدث مع المجهول أيضاً.

يقولون بأن صحوة النفس لا تأتي هكذا فجأة دون أية مقدمات، إن لم تسبقها صدمة تجعلها تبدو في إطارها شيئاً مثيراً يمنح صاحبها القدرة على التعرف إلى ذاته أولاً، ومن خلال هذه المعرفة يتسنى له أن يتعرف إلى الآخرين.

فلكم أثلجت المعاناة صدر عاشق، ولكم أفرحت أيضاً قلب حبيب. منحته الفرصة لأن يرى مواقع الفرحة في عيون الصبايا تلمع في وميض خافت غير مسرف في صنع الجمال الذي تميزت به بعض العيون.

إن دوائر الزمن أشبه بهالات عرس، إذا كانت هذه الدوائر في مستوى يشيع في الأجواء المحبة، تلك التي تكمن في قلوب العذارى يمرحن تحت شجرة صفصاف عتيقة، قرب نهر دافىء شُبعت مياهه بطحالب صغيرة لا يمكن أن تراها بالعين المجردة.

فالرمال الحمراء في ذراتها الصغيرة سنابل قمح تستوي على سيقان زهرة يحط عليها سنونو مذعور. فكثيراً ما كانت قسوة الحياة أسلوب عمل تمارسه القلوب التي صدئت وأصابها الهزال نتيجة ضعف حاد في قدرة العين على رؤية مكامن هذه القسوة.

وهو في انطلاقته تلك مع الحياة والليل والضوء والظلمة ووميض النجوم ولمعانها، في سفر طويل يحس به كما تحس الغيمة بمطاردة الرياح لها في

رحلة عمرها الطويلة والقصيرة معاً.

وإلا ماذا يمكن أن يقول عن كل هذا الذي حدث؟

إن النظرة المتأنية إلى دوار الشمس ترى في انعطاف هذه الزهرة علامة من علامات الحياة، تتألف قسماتها وجذورها من وراء التفافها حول الشمس، كما أن في استقبال القمر أضواء الشمس وإشعاعاتها في محاولة للاستنارة بهذه الأضواء، هو الآخر وسيلة لفهم معاني حقائق الحياة.

فالإنسان عندما يمسك بقطعة خشب في خضم بحر هائج، يموج بشتى الانفعالات، يزداد صمته لدرجة يفقد معها كل انفعالاته. تلك هي سنة الحياة، فقدر الإنسان على هذه الأرض محتوم مقرر يراه ويتعرف إليه، ولكن لا يستطيع أن يمسك نفسه عن أن يضحك في أعماق أعماقه عندما يرى ضعفه وقد زاد، وعلته وقد عظمت، ومرضه وقد كبر.

إن الضعف البشري كان ولم يزل حصيلة هذه الحياة، يقفز على حواجزه أولئك الذين يصمدون على قسوتها فيمضون في طريقهم غير آبهين، تظلل نفوسهم غمامة حسب تجعلهم قادرين على التكيف وفق مقتضيات العصر. ذلك أن الإنسان هذا المارد الجبار، يخشى أن يصاب بالذعر عندما يرى عواصف الإعصار الدامي تقتلع جذور الأشجار في قسوة من يعرف الطريق جيداً بين عواء الذئاب وضجيج المارة وصفير الريح وخوار الدنيا.

صورة رديئة لواقع هزيل صنعته الأيدي التي لا ترحم في عتمة الليل، بعيداً عن أضواء الصباح وبزوغ فجر يوم ندي، ضاعت بهجته في زحمة تصاريف الطبيعة، التي كثيراً ما تنسى أسماء مسمياتها عن عمد وسبق إصرار.

وهو كقشة في مهب الريح تتقاذفها أجواء الدنيا في مرح باطنه ألم، لأنه وليد أتراح جاءت مع الخريف في ليلة نادرة التوقع، وإلا ماذا يمكن أن يقول عن نفسه وحياته وظروف نشأته؟

لقد كبر مع الهمّ وعاش مع الألم، وساهم في صنع الأسى هذا الذي يحيط بقلبه كالسوار. فمنذ تلك اللحظة التي أعرض فيها عن رؤية بوادر الخير تتفتح بواديه. وهو يعيش في مجاهل الحياة، كسنونو مذعور في جزيرة من جزر المحيط تحيط به المياه كأسوار عالية.

لقد فقد سفينته في الظلام بعد أن ضل طريقه في الليل، فهذه الوظيفة التي قبل بها في أواخر أيام حياته قد تدع له فرصة التفكير.

فهو كالشمعة يضيء معالم الطرق للسفن الضاربة في بحار الحياة. مسكين هو الإنسان عندما يعيش على جزيرة صغيرة من الأرض في فنار يرشد الناس إلى الطريق دون أن يستطيع إرشاد نفسه إلى الطريق.

وتتمثل له صور الأمس القريب والبعيد معاً وهي تحاول أن تطل من بين أمواج البحر الهادئة وكأنها تعلن عن سلسلة من أفلام طويلة عرف دقائقها ولم ينس تفاصيل كل تلك الدقائق.

أبوه، أمه، حياته، جيرانه، أصدقاؤه في مدينة أملج التي عرف. لقد جاب البحر كبحَّار، وعرف الموانىء في بلدان كثيرة، وذاق أطايب الطعام، وعرف كثيراً من النساء. وقد كان يكره أن يبقى أسيراً لزواج طويل يهدمه برحلاته ليعاود الكرة دون أن ينجب، حتى عرفها، فأوقف مجدافه فترة من الزمن، بنى بها وعاش لها سعيداً راضياً، يصلح شباك الصيد لزوارق الرجال الذين كانوا يرحلون مع الفجر، في رحلتهم إلى البحر.

ويوم جاء ولده كان مولده بالنسبة إليه شيئاً جديداً، جعله ينظر إليها بمزيد من الحب، ويوم حملت في المرة الثانية طلبت منه أن يسمح لها بأن تذهب لتلد عند أمها في ينبع، فلم يبخل بل أمسك بيدها ليوصلها إلى الساعية، ثم يستودعها أمانة لدى قبطانها صديقه، بعد أن كتب رسالة طويلة إلى أسرتها يأمل فيها أن يأتي هو الآخر ليشهد مولد ابنه أو ابنته كلاهما عنده سواء.

ولقد ذهبت مع ولدها وبقي هو يرمق البحر في كثير من النشوة. فغداً سيذهب إليها وفي هذه المرة لن يعود إلى أملج بل سيبقى في ينبع. فالأعمال على ما سمع كثيرة. لكن كل ما خطَّط له ذهب مع الريح، فقد غرقت الساعية وذهب ولده وذهبت زوجته ومعها أيضاً حملها الذي لم ير النور.

لقد استمع في كثير من الهدوء إلى أخبار غرق الساعية، وكأن الأمر في حقيقته لا يعنيه وإن لم يكن كذلك. ولقد حاول أن يتلقى العزاء من أصدقائه دون جدوى، فلقد خرس لسانه وأصبح يميل إلى الوحدة.

ولقد نشد السلوى في العودة إلى البحر مع رفاقه مرة ثانية، لكنه وهو

البحّار العتيق كان يكره أن ينزل كما ينزل البحارة إلى الموانىء. كان جل همّه أن يتطلع إلى الأفق، يراقب طيور البحر في صمت ما بعده صمت.

حتى جاء ذلك اليوم الذي ملّ فيه السفر واستقرّ رأيه على أن يبقى في هذا الفنار الصغير، يطالع صفحات الموج في النهار ويرقب نجوم الليل في السماء، لا يعكر صمت حياته سوى هدير الموج الذي كان يراه أشبه ببيت عتيق أمضى سنوات عمره فيه، وعلى مقربة منه سنونو مذعور لا يدري أين يختبىء، فمضى إليه ليمسك به، وكأنه يرى في استكانته وهو بين يديه صورة من حياته. فهو اليوم أشبه بهذا السنونو المذعور، يعيش في صت الأيام والليالي دون أن يأبه حتى بأن يعد تلك الأيام والليالي.

وأخذت صور الحياة تتداعى أمام عينيه صورة صورة، وهو في مكانه يرقب حركة السنونو الذي أخذ يأنس إليه، بعد طول وقت.

ترى هل يعاود الإيناس قلبه بعد فقدان أسرته؟ ذاك أمر لا يدريه، وإن كان يوده، فلقد منحه هذا السنونو قليلاً من الشجاعة تجعله يواجه بها مصاعب الحياة.

واستقر رأيه على أن يأخذ إجازة طويلة بعد أن أمضى في مكانه أكثر من عامين، يرقب الأمواج والبحر والسماء وطيور البحر.

وعندما وصل إلى هذا الحد، استلقى بجسده على رمال الشاطىء، واستغرق في نوم طويل. لا يدري كيف واتته نفسه على أن ينام كل هذا الوقت، حتى إذا ما أفاق من نومه، نظر إلى السنونو فرأى في عينيه الخوف عليه، فأحس بالراحة ومد يده ليربت جناحه في هدوء وصمت. وأخذ يحادث عصفوره، أحاديث كثيرة جعلت زميله الذي يحضر له احتياجاته يشكّ في قواه العقلية، فعاد من حيث أتى ليجلب معه نجدة من المدينة تأخذه والسنونو إلى المدينة هذه المرة، ليقبع على سرير أبيض نظيف.

لكن بقاءه في المستشفى لم يكن مسلياً، فلقد حرمه أصحاب المستشفى من صحبة طيره الذي أحب، فأحس هو الآخر بنفسه كطير يعيش في قفص من ذهب رغم كل أسباب الراحة.

وعندما فحصه الطبيب لم يجد لديه أية علة، فأذن له بالخروج. وعند بوابة

المستشفى سأل أحدهم عن عصفوره، فقيل له بأنه عاود رحلته مع الفجر، منذ ذلك اليوم الذي دخل فيه المستشفى، فأحس بكثير من الحزن يغمر قلبه لدرجة جعلته يمضي إلى أقرب ميناء ليعاود رحلته على ظهر أول سفينة، كبحَّار هذه المرة وليس كسنونو مذعور.

ترى هل يشفيه البحر من الصدمة التي لحقت به، أم إنه سيزيد شقاءه؟

لا يدري وإن كان يود أن يعرف، فطائر السنونو المذعور غدا أشبه بأرنب جريح يمتص الطعنة التي أهديت له في الظلام.

فعلى صفحات مياه البحار الدافئة والباردة، تطل دائماً صورة الزوجة والابن اللذين ابتلعهما البحر في صمت مروع، وكأنه والبحر دائماً على موعد. فالحياة تأبى أن يعيش الإنسان فيها على النقيض، وكأنه يتمثل بالشعر القائل:

«وداوني بالتي كانت هي الداء».

كثيرون هم الذين ينظرون شروق الشمس ليروا في هذا الشروق بزوغ يوم جديد، أما هو فلم تعد تهمه لا الأيام ولا الليالي ولا السنين. جل ما يهمه هو أن يعمل فقد يجد في العمل بعض العزاء وشيئاً من السلوى، والتفت إلى يد صديقه وهي تربت كتفيه ويقول:

ـ لقد حان وقت الغداء يا حامد..

ويجيبه حامد:

ـ ولكنني لا أرغب في تناوله، فأنا كما ترى يكفيني منه القليل.

ـ لكنك بحَّار والبحر يأكل الفتوة إن لم تمنحها ما يمكنها من البقاء.

ويبتسم في وجه صديقه ويقول:

ـ ومن قال لك بأنني متشوق لأن تظل فتوتي؟ قد أرمق الأيام دون أن أعدها، وأحسب سويعات حياتي هنا على صفحات هذا الموج الذي تراه ينهد من علوه الشاهق في مرح الأطفال الذي آمل أن يعود إلى هذا القلب الذي كبر وشاخ.

ويضحك منه صديقه ويقول:

ـ قد تكون مصيبتي أكبر من مصيبتك، لكنني كما تراني أتفاءل بالوافد من

الأيام، لأن التفاؤل هو فرصة العمر نستقطعها من لحظات السعادة.

وصمت ولكنه هو الآخر لم يصمت بل طالب صديقه بأن يحدثه عن قصته، فلربما وجد فيها شيئاً من العزاء. وعندما أخذ صديقه يردّد حكاياته كان هناك سنونو آخر ولكنه غير مذعور يطل على سارية السفينة وكأنه يناديه، ويطلب منه أن يهدأ فلقد آن لوجيف قلبه أن يهدأ هو الآخر.

وأحس بانتعاش في ذاكرته، جعلته يحدق في الطائر بكثير من الشوق وفي ذهنه حكايات الماضي، وقد بدأ يسدل عليها ستاراً من النسيان، خاله في بادىء الأمر مجرد نكتة أو وهم، لكنه بعد طول عشرة لصديقه الذي رافقه أخذ ينسى وينسى في غمرة مشاكله كل الذي كان، وبدأ يفكر في بناء بيته الجديد، فلربما رزق هذه المرة بدستة من الأولاد يحجبون عنه آلام الماضي وأحزانه الكبيرة.

ويمد عنقه بين جموع الناس الذين امتلأت بهم الحديقة، ليرى أشكالاً متنافرة من الوجوه التي شاهت أبصارها وكلّت، فلم تعد ترى في الحياة بارقة أمل، وكأنها في رحلة الوهم الخانق أشبه بسفينة في مهب الريح، تتقاذفها أمواج البحر دون أي أمل في الرسوّ على شاطىء الأمان.

أو يمكن أن يفقد الإنسان أي إنسان سيطرته على نفسه، فيمضي في حياته بأسلوب من يعي مسؤولية تواجده على هذه الأرض، أم أن هناك نوع من الحياة يمارسها هؤلاء الناس في صمت عابق بضجيج واضح، تظهر آثاره جلية في برودة الصقيع، في أيام الشتاء القارس؟

ويوشوش الزهر القمر، يمنحه أسراره تلك التي أرادها أن تظل في صدره عابقة بذرات الأرض التي تحتضن الجبل، ذلك الذي يبدو من البعيد البعيد شامخ الرأس تعلو هامته كل القمم، فمن روافد الطريق تلملم النجمة ضياءها تمنحه لأولئك الذين ينتظرون وميضها في لهفة.

ترى كم منا أولع بنجمة؟ وكم نجمة ملأت سفوح الجبال بأقدامها العارية؟ لا يدري وإن كان يظن أن رواسي الجبال قد تمنح القلوب الصلدة قدرة عجيبة على الصبر والتحمل، وقد تعطي الخوف للآخرين. ذاك أمر شاهده بعينيه وهو ينظر إلى الوجوه التي شاهت، وإلى الأجساد التي شاخت، وإلى العقول التي كلّت وبليت، وإلى النفوس التي هانت وذلت. فالإعصار الدامي يقتلع جذور الأشجار من سفوح الجبال يحملها بعيداً ليلقي بها في جوف النهر، والنهر

هائج كالثور لا يقطع ثورته إلا انسيابه في جداول صغيرة.

وهو في مكانه، يرمق الأحداث بعين نصف مفتوحة. فما عاد في الحياة ما يبكي عليه الإنسان أو تطرف له عين. لقد علمه المرض أن أجمل سويعات الحياة هو صفاء هذا العقل وقدرته على البحث والاستقصاء والاسترشاد في زوايا الحياة التي يحب ويكره أيضاً.

ويرتفع بفكره عن الأرض كطائر أليف يود أن يجوب العالم في رحلة علم، بعد أن كان في رحلة هم طويلة.

يحس بالصوت العائد يمنح الحياة أبعادها وصورها وشكلها وجمالها، فيرتفع صوته بكلمات يشعر أنها جاءت بعد مخاض طويل قاسى منه وعانى. وما أكثر ما يعانيه البشر، في مثل هذه الأجواء العاتية يضربها الريح ويلفها الإعصار، وتغسل أطراف أقدامها مياه الفيضان. ومع كل هذا يجد أن كثيراً من الناس قد لفهم الإعصار وقتلهم مياه الفيضان، وأطبق على أعناقهم صراخ الريح وعويله لدرجة أودت بعقولهم وحياتهم في كثير من الأحيان.

ويعود إلى الأرض، إلى المكان الذي يعيش مرة ثانية، على أمل أن يهتدي إلى طريقه بين الأشواك والورود والأزهار والثعابين وأيضاً.

يقولون إن بين العبقرية والجنون خيط رفيع.

ويقولون بأن بين العقل والجنون، خيوط غير مرئية يشعر بها بعض الناس ولا يحس بها البعض الآخر.

ثم ماذا يعني أن يذهب عقل إنسان ما في فترة ما؟ وهل يمكن أن يعود العقل لممارسة نشاطه بعد إجازة طويلة؟

قد تكون قدرات العلم أقوى اليوم من مظاهر هذا المرض الظالم، الذي إذا حط بإنسان ما ضاع إنسان هذه الأرض، لأنه مرض العصر والحيوية. وينظر إلى البعيد في تطلع ملهوف، وكأنه يحاول أن يقرأ كتاباً لا يعي حروفه إلا صاحب صنعة، وهو قد فقد إحساسه بهذا الوعي منذ فترة، افتقده لحظة غضب، فلم يعد يدري ما أصابه.

وينظر في عيني رفيقه قبالته وهو يقهقه بصوت عال، فيه الكثير من

السخرية، جعلته يعيد موقفه وتفكيره، ويتطلع إلى وجهه في إمعان ثم يقول:

ـ ماذا جدّ حتى تضحك هكذا؟

وأجابه رفيقه:

ـ وهل تظنّ أنني أضحك؟ لا أنت مخطىء فأنا أبكي. .

ـ ولماذا تبكي بهذا الصوت الهامس؟

ـ لأن الإنسان في هذه الدنيا قد أصبح حماراً، تداركته الأيدي لتمسح عن عقله ضبابيات الماضي لكنه رفض هذه المساعدة.

ـ وهل أنت واحد من هؤلاء الحمير؟

ويجيبه رفيقه:

ـ لو كنت كذلك لفكرت بأسلوب آخر مثلك يجعلني أرى الأشياء عكس ما هي عليه، فأقول عن الذي يبكي إنه يضحك. .

ـ وماذا في كل ما قلت إذا كان مغايراً لحقيقة ما؟ أوليس الإنسان منا عرضة للخطأ؟

ويبكي رفيقه فيقول له:

ـ ما بك تضحك؟

فيجيبه:

ـ أضحك من غبائك. ألا تعرف بأنني مجنون وأن هذه الحديقة التي تراها أشبه بسجن صغير لهذا المستشفى الذي تراه؟

يظنون أنهم يعالجون أمراضنا في دقة، وهم أنفسهم يحتاجون إلى العلاج. انظر إلى الطبيب إنه يضع سبابته في أذنه بدلاً من أن يضعها في فمه، كما يفعل الأطفال، ومع هذا هل تجرؤ أنت أو أنا أو كل هؤلاء العقلاء أن يقولوا عنه إنه مجنون؟

ويستعيد صفاء ذهنه في جلسته تلك، ثم يمضي في إلقاء نظرة متمعنة على أشكال هؤلاء الناس.

فها هو الامبراطور بملابسه المتسخة، وقد امتلأت بأنواع كثيرة من

غلافات البيبسي والسفن أب وغيرها، إلى جانب بعض الأغطية الخاصة بعلب الكونسروة، يتهادى على صدره وعلى رأسه قدر قديم حفلت جوانبه بمجموعة متنافرة من أوصال التنك القديم، يمشي وكأنها تعزف سمفونية غربية يخالها تدخل إلى أذنيه دون استئذان، وصوت الرجل يزبد ويرغي ويعلو، وهو يأمر جنوده باجتياز البحر ليكونوا في مواجهة الأعداء في قوة وصبر وعناد.

ويقارن بين هذا الرجل ونابليون وهتلر، فيجد كثيراً من التشابه، وإن اختلفت المواقع، فلقد قاد الأول والثاني أمته إلى انتصارات وهمية أعقبتها انتكاسات قاسية.

ويحاول أن يضع الرجل في مكان هذين اللذين يذكرهما التاريخ ليرى هل سيفعل مثل ما فعلاً، أم إنه سيكون نسيجاً آخر من مجانين هذه الدنيا؟

ويخرج من صمته على صوت أحدهم وهو يقول:

ـ تعال، فنحن نحاول أن نجمع الجموع ليقاتلوا اليهود في فلسطين.

وعندما لا يجيب، يحاول رفيقه أن يهزه من كتفيه وهو يقول:

ـ أنت دائماً جبان تخاف الحرب، ولولا تواجد أمثالك لما ضاعت منا فلسطين، ولما استطاع البلاشفة اجتياز أية أرض مسلمة كما يفعلون اليوم في أفغانستان.

ويلتفت إليه متسائلاً:

ـ من أين أتيت بهذه الأخبار؟

ويشير إلى الراديو ويقول:

ـ لشد ما أنت متأخر لأنك لا تستمع إلى الأخبار، أما أنا فلا أضيع وقتي في متاهات الصمت، بل أتابع في قوة أحداث هذه الدنيا لأنني جزء منها. أو نسيت أنني صحفي، أمضيت حياتي أرقب الأحداث وأدوّنها، حتى إذا ما رأيت أنني قد بدأت أمل ممارسة ما أعرف جئت إلى هذا المكان للراحة؟

وأجابه في سخرية:

ـ وهل وجدت الراحة التي افتقدت؟

قال:

ـ ألمح في صوتك رعشة حب ساخنة رغم سخريتك التي تبدو قاسية الملامح في كل نبرة من نبرات حرفك، ولهذا سأسمح لنفسي أن أنسى القسوة، وأتذكر الرعشة فالرعشة دليل الحنان، وهل يمكن أن يرتاح عاقل في مكان كهذا مليء بصنوف الناس من المعذبين في الأرض، ولا أقول المجانين، لأنها كلمة كبيرة أود أن لا أنطق بها لأي إنسان فالعقل كما يقولون زينة يتحلى بها الإنسان أي إنسان في أي مجتمع.

وتابع قوله:

ـ قد يهرب الواحد منا من واقع حياته إلى خياله، ومن خياله إلى ترهاته، فيفقد عبر هذا التنقل شخصيته الصريحة، لأن تباين الصور يمنح الشخصية أبعاداً قد لا تكون هي في حاجة إليه، فيغلب عليه اليأس أو القنوط أو كليهما معاً، ثم ينصب على هذا اليأس والقنوط إحساس بالمرارة يلهب فم الإنسان، لكنه لا يمنعه أن يبدو من خلال الصورة الجديدة إنساناً آخر يقول عنه الآخرون إنه مجنون.

وضحك ثم تابع حديثه:

ـ كثيرون أمثالي أصيبت نفسياتهم بشروخ، لكنهم لم يستطيعوا علاجها، فازدادت نسبتها حتى طغى تأثيرها على وعيهم الباطن، فانطلق من عقاله في رحلة الهمّ الكبيرة. وأنا اليوم أعيش رحلة هذا الهم، أتلمَّس طريقي بين أشواك العقل وضروريات منطق الحياة الآنية، التي يسمونها ويلقبونها بالعصرية، وهي من العصرية براء.

إن ضغوط الحياة تمنح الإنسان الفرصة لأن ينفك من عقالها إذا كانت حساسيته لهذه الضغوط أكثر بكثير مما هو مطلوب، ولهذا تجد الكثيرين يمضون في طريق الهروب باللاهروب، وإلى المعقول باللامعقول، وأنا واحد من هؤلاء الناس أما أنت فمن. . .

واستمع في كثير من الهدوء لكلمات الرجل، لكنه آثر بعدها أن يصمت فلا يجيب، وعندما أحس رفيقه برغبته في إطالة سكوته انطلق يبحث عن فريسة أخرى يملأ هدوءها ضجيجاً.

ويزرع أرض الحديقة سعياً وراء المجهول، وكأنه يلمح صورته تظهر في

خياله ثم تختفي، حتى إذا ما وقف بمجموعة من الرجال آثرت أن تختفي بمولد القمر، دون أن يكون للقمر وجود، في فترة غامرة ظهرت آثارها واضحة على وجوههم التي كانت تنطق بآثار المحنة رغم جمال الموقف، فلقد اختار كل واحد منهم أداة من الحديقة يضرب عليها بيديه لتخرج أصواتاً لا يدري كيف يفسرها، لكنها وإن كانت متنافرة بعض الشيء إلا أن كلمات الأغنية قوية المخارج، جزلة المعاني. وأمسك بأقربهم إليه فسأله:

ـ ماذا تفعلون؟

وأجابه رفيقه:

ـ نغني للقمر، للحياة، للأماني، التي تجيش في صدورنا، للسهل الذي كبر فجأة، لكل شيء.

ثم جره من قميصه ليساهم معهم في إحياء ذكرى مولد القمر، لكنه آثر أن يبقى بعيداً، يرمق مظاهر الفرحة وأصوات الغناء وكلمات المغنين في دهشة من يرى أن هذه الدنيا دنيا المجانين، ليست أقل في مظاهرها وعفويتها وطهارة قلب سكانها من الحياة التي عاش.

ترى بعد كل هذا الذي يحس به هل يمكن أن يقول عن نفسه بأنه واحد من هذا الجمع المضطرب؟ لا يدري! وإن كانت كلمات بعضهم إليه هي الأخرى تدفع عنهم مثل هذه التهمة. لكنه يواصل رحلة الألم الطويلة جرياً وراء ما افتقد، وكأنه يرى بأن واجبه أن يصل إلى نهاية المعركة، معركته مع الوعي واللاوعي والفهم واللافهم، والمعرفة واللامعرفة، والإدراك واللاإدراك، وهو لا يريد أن يتذكر تفاصيل حياته بالقدر الذي يرغب أن يعرف أسباب وصوله إلى هذا المستشفى.

قد تكون مثاليته وحساسيته المفرطة وحبه في أن يكون إنساناً لا غبار عليه، يتمسك بالمثاليات في دنيا ملأى بضروب النفاق، جعلته يبدو في تصرفاته شاذاً مغايراً لأصدقائه ومعارفه.

ولقد أحس بالود المقطوع يتطاول أثره يوماً بعد يوم معه ومع معارفه، وكأن صراحته وحبه لقول الحق وما يؤمن به شيئاً لا يستحب أن يقوله لدرجة أصبح ينكر هو على نفسه بعض هذه الآراء.

وهو لا يخلط مطلقاً بين سنوات الدراسة وسنوات العمل. تلك كانت أمراً زاهياً يذكر تفاصيله بكثير من الحب، لأنها في نظره أجمل فترات العمر، حتى إذا ما غدت به سنوات العمر أطبقت الدنيا على عنقه لأنه فقد القدرة على المجاملة.

ومجتمعه يرى أن هناك فارقاً بين المجاملة والنفاق.

لكنه يرى عكس ذلك، ويظن بأن الصدق في القول يجب أن يكون رغم صعوبته رائد أي موقف.

وتشتد به أزمات الصدق والصراحة، لتشكل في مجموعها أخطاراً جديدة، هددت حياته العملية ووضعت أمام قدميه الأشواك. ولقد حاول أن يقتلع الأشواك من طريقه بلا جدوى. فالناس كل الناس ينظرون إلى الصراحة على أنها أسلوب فج، يجب أن لا تجد طريقها بالشكل الذي استخدمه.

وبدأت مشاكل الحياة تضغط على عقله لدرجة جعلته يبحث عن المنقذ، وهو كإنسان عايش الكلمة وقرأ الكثير من الكتب عن الأمراض النفسية حمل نفسه بنفسه إلى أول طبيب نفساني.

كان جل همه أن يعرف عقدته ليحلها، لكن الأمر ازداد سوءاً. وبعد علاج طويل وسقيم، وجد نفسه على حافة الهاوية، فلقد ازدادت نظرته إلى الحياة بكل ما فيها من مآس ومشاكل، على أنها شيء أكبر بكثير من طاقته، فقرر الهروب من واقعه ليعايش المحنة بأسلوب من يرى بأن من المفروض والمتوقع أن يكون حاله على ما هو عليه.

وتراءت له أحلامه وأمانيه كحبات من الملح ذابت كلها أثناء ليلة ممطرة، زادتها العواصف والرعود سوءاً على سوء. وبدت الحياة أمام عينيه صورة رديئة لواقع مرير، هزيل لا يستحق أن يعاش من أجله، هو الذي عايش الحياة بكل حلاوتها، يوم كان يجلس على مقاعد الدراسة في جامعة كامبردج.

وهو يذكر ظروف حياته كلها أثناء تلك الفترة ولا يشعر بالحرج من تذكر جميع ما صنع، فللشباب نزواته العابرة التي لا يمكن أن يظل أثرها أو تأثيرها في النفس، ما دامت لا تعكس هذا الأثر والتأثير على غيره من الناس.

ويوم أحس كما أحس رفيقه بأن السهل قد أصبح جبلاً، رأى أن يأتي إلى هذا المستشفى، علّ أصحابه يستطيعون أن يقنعوا عقله بالعودة إلى الماضي.

ولقد أمضى شهوراً وشهوراً، يرمق كل هؤلاء الناس، يستفتيهم، يتحدث إليهم، يشاركهم آمالهم وأمانيهم وأحلامهم، يحزن لحزنهم، ويسعد لأفراحهم. لكنه مع كل هذا حزين وحزين جداً، فرحابة المستشفى وقدرة أطبائه على العلاج، لم تعد تمنحه القدرة على الاسترخاء، فوعيه الباطن الذي خرج من عقاله يأبى أن يعود ليستقر.

هل يمكن لأي إنسان أن يعرف الفوارق بين العقلاء والمجانين؟ وهل كل هؤلاء الأطباء الذين يراهم في ردهات المستشفى وأروقته من العقلاء، أم إن عدوى المرض قد أصابت بعضهم بالاحتكاك؟

ثم هل كل هؤلاء الذين يراهم في غرف المستشفى قد فقدوا عقولهم؟ وما هي أسباب ذلك إذا صح هذا الأمر؟

أسئلة كثيرة تتبادر إلى خلده، وهو يأمل أن يجد لكل أسئلته أجوبة حقيقة.

قد يكون السبب في ازدياد نسبة الجنون بين بني البشر يرجع إلى ضغوط الحياة التي يعيشها الإنسان، فهو قد قرأ بأن هذه النسبة ترتفع في المجتمعات المتقدمة عن المجتمعات البدائية.

لكنه وهو يعرف خطوط حياته وخطواتها، لم يحس بهذا الضغط الذي يتفلسف به «فرويد» وأمثاله ممن أرادوا استكشاف الإنسانية من خلال أفكار تبدو في نظره وبالنسبة إليه شيئاً سخيفاً.

فالإنسان هذا الكائن الحي الذي منحه الله فرص السعادة، ليجعله قيماً على هذه الأرض، أورثه أيضاً متناقضات كثيرة أراد بها أن يختبر قدرته على العطاء، من خلال الخير والشر الذي تحفل بها دنيا البشر. وهو يسعد عندما يرى الإنسان قادراً على إبراز صفات الخير المفروضة والمتوارثة، والتي يجب أن تطفو على السطح لتعلن عن إنسانية البشر جميعاً، وليكونوا في مستوى يتناسب وتواجدهم على هذه الأرض.

لقد حكمت ظروف الحياة على هذه الأرض نواميس سماوية، منحتها

الفرصة للاختيار. فإذا أساء الإنسان اختياره بالأسلوب والطريقة كان الذنب ذنبه، لأنه لم يحسن الاختيار. ذلك أمر يعرفه ويدرك كل مراميه، ولهذا فهو يؤمن بأن تقلبات الظروف، وابتعاد البشر عن طريق المحبة يعني اختلال الموازين، واختلال الموازين يعني عدم قدرة الإنسان على التكيف مع ظروف بيئته الصحيحة. ولهذا كثيراً ما يفقد الإنسان عقله عندما يرى أنه في ظروف لا يسنح له فيها بأن يمنح من ذاته كل تلك المثل والقيم فيصبح كالسهل الذي أصبح جبلاً بلا إرادة ولا تكوين.

ترى هل فقد هو الآخر عقله فعلاً، أم أن ما جرى كان مجرد استراحة قصيرة أمضاها بلا رغبة؟

لا يدري وإن كان يأمل أن يعرف يوماً ما حقيقة هذا الذي أصابه وأصاب الكثيرين ممن يراهم هنا في حديقة المستشفى. فالعقل عندما يكون في إجازة يصبح الجبل سهلاً والسهل جبلاً أيضاً.

شجرة اللوز العتيقة

لا جديد يمكن أن يثير في نفسه التساؤل، فلقد خبِر الحياة، جاب أرضها طولاً وعرضاً، وتعرف إلى مواطن الفتنة والجمال فيها، وذاق حلوها وعرف مرّها، وساهم في صنع هذه المؤسسة الفريدة، التي أصبحت علماً من أعلام الصناعة في بلاده، ملّ بعدها كرسي الرئاسة الدوّار، واختار أن يبقى بعيداً في الظل، يجتر أحداث الماضي وذكرياته في هدوء، وهو يستظلّ تحت شجرة اللوز العجوز التي غرسها أبوه بيديه يوم كان طفلاً في فناء الدار القديم على مقربة من الساقية وعلى بعد بضع خطوات من شجرة التين التي أحبّ ثمارها، وتعهدها برعايته، طوال الفترات التي كان يقضيها في مدينته التي أحبها من كل قلبه.

وهو يذكر رحلته مع الحياة، منذ ذلك اليوم الذي دخل فيه كتاب سيدي مالك والمدرسة السعودية وتحضير البعثات، وكأنها كتاب مفتوح يقرأه بصوت عال.

لطالما قنع بالتردّد على بستان والده الكبير مع أصدقاء الصفا في أيام الحر القائظ الذي اشتهرت بها مدينته، يطفىء لهيب ذلك الحر في جوف بركة الماء الكبيرة التي كانت مرتع لعبه وأصحابه طوال أيام الصيف.

وهو يحنّ للماضي، إلى باب المصري، (وجوا المدينة)، وزقاق الزرندي، وشقيقة الرصاص، وشارع العيتية، وزقاق الطوال، يرى في تلك الأماكن ذكريات كثيرة طالما سهدت عليه ليله وأرقته وهو في ديار الغربة يتلقى الدراسة في القاهرة وبيروت وأمريكا أخيراً.

ويوغل سيره تحت أشجار النخيل التي عرف، وكأنه يذكر مولد كل شجرة على حدة، فلقد وضع تحت جذع كل واحدة منها اسمها وتاريخ عرسها ونوع فصيلتها، وكأنه لا يعرف في الدنيا سوى هذه الهواية فقط.

ويوم سافر إلى مكة طلب منها أن تحافظ على سجلات الذكريات، كما كان يسميها، فلم تبخل ومضت بهيجة على الدرب تواصل تسجيل ما يستجد في بستان أبيه في قباء.

وهو يعرف كل شيء في البستان. يعرف كما أعطت هذه الشجرة وكم شحت تلك ولماذا ماتت الأخرى.

وكان يحزن عندما تكتب إليه بهيجة عن موت نخلة أو شجرة من أشجار الليمون والتين والرمان. ويبكي في ألم وهو في غربته يتلقى رسائل ابنة عمه التي آلت على نفسها أن تواصل مسيرته في رعاية الأشجار والنخيل والكروم والبيت القديم، إلى حين.

لقد كبرت بهيجة هي الأخرى وانقطعت صلتها بالأشجار بعد أن تزوجت وأنجبت، وأصبح وقتها ملكها للبيت الجديد الذي انتقلت إليه. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد رسائل بهيجة ابنة عمه وأخته في الرضاعة تصله إلا لماماً، لأنها لم تكن قادرة على أن تكتب إليه دون أن تعطيه أخبار الأشجار والنخيل.

وتطلّ الذكريات وكأنها سيل منهمر يحاول من خلاله استرجاع الماضي بدقائقه وتفصيله. كيف كانت حياته في القلعة بمكة المكرمة؟ وأين هم أصدقاء الأمس؟ وكيف كانت حلقات الدرس في المسجد الحرام تستجمع أشكالاً متباينة من الناس، جلهم جاء ليستمع إلى أحاديث العلماء، أولئك الذين كان يحبهم الناس ويحترمونهم؟

وكان يسعد بحديث السيد علوي المالكي، ويحب مجالس السيد أمين كتبي وتلاميذه، ويرى كيف يلتف الناس حول ذلك الرجل صاحب اللحية الكثة والوجه المهيب والنظرة الباسمة.

وكان يأمل أن تطول به الأيام ليعاود زيارته، فقد انقطعت أخباره عنه فترة من الزمن.

ترى أو لا يزال مجلسه على ما هو عليه أم أن الأيام قد حدّت من جذوة نمط ذلك الرجل الفاضل؟

ويتحسر لوفاة الشيخ ضياء الالدين رجب ذلك الشاعر الفحل الذي امتاز بقدرته على إقناع الناس بكل كلمة يقولها، ويتذكر لازمته (يا أمان الخائفين) وهي تتردد على لسانه بعد كل حديث وعند كل حديث.

ففي مجلسه تعرّف إلى الشيخ عبد الرؤوف الصبان، والسيد علي عامر، والسيد عبد الوهاب أشي، وعلى العديد من الناس الذين تخرجوا من مدارس الفلاح وما أكثرهم. ولا ينسى أستاذه السيد أحمد العربي وقدرته على إضاءة معالم الطريق أمام طلابه. فلقد عايش هذا الأستاذ سنوات أربع كان له بمثابة المثل الذي يأمل أن يكون مثله يوماً ما. ويودّ لو يعرف عائلة الشيخ الأستاذ أسعد مامو المراقب الداخلي لمدرسة تحضير البعثات، أول مدرسة ثانوية في مكة المكرمة.

لقد كان ذلك الرجل أكثر احتكاكاً به وبزملائه بحكم عمله. كان الرجل برّاً بهم كريماً يمنح من نفسه وذاته كل شيء أكثر مما يمنحه لأسرته، ليته يستطيع أن يقدم شيئاً لتلك الأسرة التي لا يدري عن مقرها شيئاً، فلقد انقطعت صلته بالرجل بعد أن عرف بوفاته.

قد يكون كل شيء في بلده قد تغير إلى الأحسن فجأة، لكنه مع هذا لا يزال يذكر كيف كانت أيام الأعياد يتناوب فيها سكان الحوائر معايدة الآخرين، بعد أن قسمت أيام الأعياد إلى الحوائر الأربع في بلده.

ولكم أحبّ معلم الانجليزية وهو بعد في مدرسته الابتدائية يوم كانت الانجليزية تدرّس في المدارس الابتدائية، ويعرف عنه الكثير، فلطالما استمع إلى أشعاره بالعربية والانجليزية أيضاً. لقد مات أستاذه منشي كرامة الله، واستشهد أستاذه في الأدب العربي أحمد رضا حوحو في حرب الجزائر، وتوفي أستاذه محمد عالم الأفغاني بعد مرض عضال أذهب نضارة شبابه وقدرته على معاينة الكلمة.

ذهبوا جميعاً، ومعالم المدينة لا تزال على ما هي عليه. ترى لو أنهم يعيشون لأدركوا ما أدرك ورأوا ما رأى، ماذا سيقولون؟ لقد سمع أحاديثهم وأمانيهم وعرف أحلامهم التي أخذت تتحقق في هذا التطور الشامل الذي يكاد يغزو كل مدينة وقرية في بلاده.

لطالما افتقد أحاديث المركاز يستمع إليها مع والده من موسى الحيدري

وأمثاله من شيوخ المدينة الذين خبروا تاريخها الطويل وحفظوا كل سيرتها.

ولكم أحس بالشوق لرؤية الشيخ سليمان رفة، وذلك الذي يعرف طريق دكّانه عندما ترسله جدته لإحضار وصفة من وصفات الطب العربي. لكم أحبّ ذلك الرجل، وهو يتنقل في دكانه الصغير باحثاً متعباً عن أشيائه التي كان يلملمها هنا وهناك في أسلوب الصيدلي المقنع.

لكم أعجبته طريقة الشيخ العجوز في تهيئة وصفاته، وهو دائم البسمة وكأنه يعطي جزءاً من نفسه مع وصفاته الشعبية.

ترى هل يعرف أبناء هذا الجيل كل ما عايش؟ فثلاثون عاماً في زمن التطور ليست شيئاً مذكوراً، لكنها بالنسبة لبلاده كانت أكثر من كل ذلك، لأنها استطاعت أن تغير معالم الحياة وأسلوب المجتمع تغييراً جذرياً لا يدركه إلا أمثاله من المخضرمين، الذين عاشوا تلك الفترة وهذه الأيام.

لكم سعد بصحبة العديد من الأدباء الذين قادوا معالم هذه النهضة الأدبية، في فترة ركود، فلم تنتظم بلاده هذه المطابع والصحف، وإنما كانت اجتماعاتهم تعقد على كراسي الشريط في المسفلة بالقرب من بركة ماجد، يتبادلون الآراء، ويتحدثون عما قرأوا وعرفوا.

ولكم أثلج صدره قراءة بعض المحاضرات التي كانت تلقى في جمعية الإسعاف بمكة، واستمع إلى ما كان يتبادله القراء حمزة شحاتة وصديقه الشاعر حسن عوّاد ويطرب لما يسمع رغم قلة ما سمع.

ولكن أو يمكن للإنسان أن يعود بذاكرته إلى الماضي على مثل هذا المقدار من التطلع، رغم كل ما يحيط بأرضه من مظاهر الراحة والابتعاد عن مسار الحياة التي يعيشها الناس، وفي هذه الفترة بالذات التي انهمك فيها الناس كل الناس جرياً وراء المادة التي عاش سنواته يجمعها، حتى إذا ما توفرت لديه بالشكل الذي يرغب دفع بها إلى أبنائه، في محاولة لأن يعيش بعيداً مع ذكرياته؟

لكم خفق قلبه في رحلته الطويلة لهواجس كثيرة أثارت في نفسه يوم كان في طور التعلم، فعلى الرغم من أنه كان من أوائل الذين واصلوا علمهم في مصر وبيروت وأمريكا، لكن كل تلك السنوات التي عاشها كانت مجرد حياة عابرة أمضاها على أمل أن يعود إلى مسقط رأسه مرفوع الرأس، موفور

الكرامة، غير عابىء بمواطن الفتنة التي هدهدت نفوس بعض زملائه لدرجة جعلتهم يوغلون فيها، حتى إذا ما أطبقت عليهم بفكيها، طأطأوا رؤوسهم للواتي أدرن رؤوسهم، فعادوا بهنّ على أمل أن يستطعن التأقلم مع أجواء هذه البلاد وتقاليدها.

أما هو فقد كان دائماً رابط الجأش، قادراً على امتلاك إرادته وتسييرها وفق تلك التقاليد التي ورثها، فلم يرتبط بأنثى رغم محاولات الكثيرات إيقاعه كما وقع غيره، ليعود موفور القدرة على أداء الواجب الذي كان ولا يزال يؤمن بأنه ضرورة من ضرورات الحياة يجب أن يمنحها الواحد منّا لمجتمعه وأهله وعشيرته.

وبدا البناء صغيراً لدرجة كان يشعر خلالها بضآلة ما صنع، لكن إيمانه وحبه وقدرته وكفاءته على أداء هذا النوع من العمل، كمهندس يجيد أحدث نظريات البناء الحديث، جعلت الكثيرين يندفعون إلى مؤسسته يستلهمونها قدراتها على تشييد بيوتهم ومساكنهم. حتى إذا ما استتب له الأمر وأصبح قادراً على إعالة أسرة، طلب من أمه أن تبحث له عن عروس يمكن لها أن تشاركه حياته، وكان له ما أراد.

لكن حياة زوجته لم تكن معه طويلة كما أمل، فقد كانا على طرفي نقيض في كثير من الأمور، لدرجة جعله يقدم على أبغض الحلال عند الله، الطلاق.

ولقد جاءت خطوته تلك بعد ولادة ابنيه اللذين أصبحا اليوم مكانه في المؤسسة التي رعاها ونماها حتى كبرت، وبعد أن أحس بالوحدة أخذ يتطلع إلى الحل الذي يمكن أن يقدم عليه.

أتراه يمكن أن يعيد الكرة فيتزوج مرة أخرى؟

أم ينتظر الفرصة فلربما استطاع أن يلتقي بها، تلك التي رآها مرة في إحدى رحلاته إلى تونس؟

وتعاوده ذكريات تونس، هذا البلد الذي أحب، من خلال صداقته لواحد من أبنائه يوم كان على مقاعد الدراسة في أمريكا.

لقد زار ذلك البلد أكثر من مرة، وكان في كل مرة يزوره يلتقي بأصدقاء جدد يعقد معهم صداقات لا زالت تشدّه إليهم حتى يومنا هذا.

وتطوف به الذكريات إلى لقاء «زينب» أخت صديقه الصغرى، التي أمضت

أكثر سنوات عمرها في تلقي العلم في أرقى جامعات باريس. لقد اختارت تلك الأنثى إدارة بيت الأسرة رغم كل ما حصلت عليه من شهادات، وكان يحدّثها في هذا الشأن فتضحك وتجيب:

- وهل هناك مكان للمرأة سوى البيت، مهما بلغت من العلم؟

- والزواج يا زينب؟

- هبة الله يمنّ بها على من يشاء إذا كان موفقاً.

- وأنتِ ألا تفكرين في الزواج؟

- وهل هناك أنثى يمكن أن لا تفكر بهذا الحدث الهام الذي يغير معالم حياتها؟

- ولماذا لم تتزوجي حتى الآن؟

- ربما لم يجد الرجال في «زينب» تلك الأنثى التي يرغبون.

ترى لماذا تذكر في موقعه كل هذا الحديث والأحاديث الأخرى؟

أو يكون السبب أنه تلقى رسالة من صديقه يشعره باعتزامه وأخته على أداء العمرة؟ ربما تكون صورة زينب لا تغادر مخيلته وكأنها ترابط في تلافيف مخه.

قد تكون الآن في الخامسة والثلاثين من العمر، لكنها على أية حال أقدر على إراحة نفسه من أية أنثى أخرى.

لقد اختار العزوبية بعد زواج من أجل الأولاد، أما اليوم فقد آن له أن يختار ما رغب. ولكن ما يدريه أن زينب هذه سترضى به زوجاً؟ ولماذا تلح عليه فكرة الزواج بهذا الشكل. أيكون قد ملّ حياة العزوبية إلى هذه الدرجة، هو الذي كان يتباهى به أصدقاؤه على قدرته بالبقاء بمفرده مع أولاده.

أم إن لهذه الشجيرات المورقة أثر كبير في تغيير مفاهيمه في الحياة بعد كل الذي صنع؟

ثم أليست زينب واحدة من الغريبات على مجتمعه؟

قد يكون هذا صحيحاً بعض الشيء، لكن هناك أكثر من أسرة تونسية ومغربية تعيش في مسقط رأسه منذ مدة طويلة، لدرجة استطاعت أن تكسب احترام الجميع وحبهم.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، فهو لا يزال قادراً على إقناع نفسه

بنفسه عندما يرغب في إتمام شيء ما. هذه عادته وهو يعرفها جيداً، وهو اليوم مصمم على طلب يد «زينب»، ولكن ما يدريه، أو لا يمكن أن ترفض زينب قبول هذه الفكرة، فكرة الاقتران به؟

وأطرق برأسه قليلاً يفكر في الأمر ويقلبه، وكأنه يأمل أن يستشف من وراء السجف ما يمكن أن يحدث.

لتكن إرادة الله، فهو يعرف بأن هذه الإرادة أقوى من كل تقدير أو تفكير.

ومضى يزرع أرض البستان في حيوية خالها وقد أعادت أيام صباه إلى سابق عهده بها.

أو يكون مجرد التفكير في الزواج قادر على منحه كل هذه القوة وهذا القدر الكبير من السعادة؟ أولم يجرّب حظه مع امرأته التي عايشها رغماً عنه طوال السنوات التي كانت بقربه؟

قد تكون الدنيا كما يقولون حظوظاً، ويومها كان حظه مع الزواج سيئاً، ومع العمل شيئاً آخر. وهو اليوم هنا في هذا البيت الذي عرف والأرض التي مشى عليها يعايش وحدته في صمت وهدوء. قد تكمل سعادته إذا رضيت «زينب» بهذا الزواج وهو يعتقد أنها ستقبل فقلبه يحدّثه بذلك.

زينب امرأة تحبّ أن تكون على مقربة من أرض النبوة، هكذا عرفها يوم كان يزور أخاها في تونس للمرة الثانية، فلقد تحدّث إليها طويلاً في موضوعات كثيرة، شعر من خلالها بأن مدينة باريس وحضارتها لم تفسد من معدتها، على الرغم من أنها أمضت سنوات وسنوات طويلة فيها.

قد يعود السبب إلى تمسك أسرتها بأهداب الدين، هو الذي جعلها تحافظ على نقاوة معدنها في ذلك الخضم البشع من دنيا الحرية.

فباريس المدينة، ملأى بأنواع وأشكال من الناس عرف بعضهم زيف المدينة وأشكالها المتعددة، فلم يقووا على الانعتاق من أسرها.

ولكن لماذا يصرّ على تذكر كل هذه التفصيلات؟ ألأنها قادمة برفقة أخيها إلى بلاده؟ سيعمل المستحيل ليجعلها ترضى بالحياة معه هنا على أديم هذه الأرض الطيبة سيبدو في الغد إنساناً آخر غير هذا الإنسان، وسيختار ملابسه بعناية.

ولكن لماذا يستبق الأحداث هكذا؟ أو لا يترك الأمور تجري وفق إرادة الله؟ فلقد علمته الحياة بأن كل شيء فيها أسير إرادة الخالق، الذي يأمل أن يمنحه القدرة على إقناع الوافدة بأفكاره، هي التي لم ترض أن تتزوج طوال هذه المدة.

وجاء الغد، يحمل مع تباشيره أحاسيس فرحة غامرة، شَعَرَ بها وهي تتسلل إلى قلبه في هدوء.

ومضى إلى المطار في سيارته الأنيقة، وكأنه على موعد مع حياة جديدة بدت تتكشف أمام ناظريه، معلنة عن سعادة غامرة تاول أن تتسلل إلى أعماق نفسه، حتى إذا ما وصل إلى المطار، أحس بوجيف قلبه وهو يدق، فبعد دقائق يلتقي بصديقه، ويلتقي بها وسيرى إذا كانت سنوات عمره الخمسين تمكنه من أن يمضي في تنفيذ ما ارتآه بعد تفكير عميق.

وعندما التقى بصديقه ورآها شعر بأنها ترمقه هي الأخرى في لهفة لا يدري لها سبباً، وامتدت يده تصافح يدها في رقة.

وفي البيت كان هناك أكثر من لقا، بينه وبينها استطاع من خلاله أن يعرف رأيها فيما هو مقدم عليه بأسلوب غير مباشر.

أما صديقه فلم يخف عنه الأمر، وإنما تحدث إليه في صراحة شعر بعدها بموافقته إذا رضيت «زينب».

ـ وكيف ترضى «زينب» يا موسى؟

ـ تحدّث إليها أمامي وفي مواجهتي فهي غير صغيرة ثم لا تنس أنها رفضت الكثيرين ممن تقدموا إليها على أمل أن تكون لنا، أما اليوم وبعد أن تزوجت أنا لم يعد لها أي حق بأن تظل بلا زواج.

ـ ولكن أتراها تقبل؟

وأجاب موسى:

ـ الذي أعرفه عن زينب أنها صادقة مع نفسها ومع الآخرين، وهي كما تعرف تحب هذه الأرض وتتمنى أن تعيش فيها، فلربما حان الوقت لأن تزف، وتزف إليك يا صديقي.

وجاءت زينب فسكتا فقالت لهما:

ـ عمّ تتحدثان؟

وأجاب أخوها:

ـ عنك يا زينب...

ـ عني أنا؟ وماذا فعلت حتى تتحدثان عني؟

وضحك أخوها وقال:

ـ لا حاجة لأن تفعلي شيئاً يجعلنا نتحدث عنك، وإنما...

وأشار إليه:

ـ يريد أن يطلبك زوجة لنفسه فماذا تقولين؟

وأجابت زينب:

ـ ولكنك فاجأتني بهذا الطلب الذي لم أكن أفكر أو أحلم به، رغم حبي بأن أظلّ طوال سنوات حياتي هنا بجانب المسجد النبوي، لكن دعوني أفكر قليلاً، فلقد عقدت العزم على أن لا أتزوج، لكن حديثكما فتح شهيتي لأن أفكر في العرض.

وأجاب هو:

ـ ومتى تنال جوابك يا زينب؟

ـ غداً يا صديقي فأنا في عجلة من أمري، فلقد حان وقت الصلاة، وأريد أن أمضي إلى المسجد لأكمل الأربعينية التي آمل أن لا تفسدها بخطبتك.

وضحكوا جميعاً، ومضت هي إلى المسجد النبوي، وكأنها تريد أن تخلو بنفسها في أكرم مكان من أمكنة العبادة. حتى إذا ما عادت إلى الدار والبستان لتناول طعام الغداء قالت:

ـ أو تريد أن تعرف جوابي يا حسين؟

ـ نعم وآمل أن يكون بالقبول فأنا لا أقوى على رفضك لطلبي.

وأجابت زينب:

ـ لا عليك فأنا موافقة ويكفيني بموافقتي هذه أن أعيش هنا على هذه

الأرض التي تمتلىء بطاحها بآثار أولئك العظام الذين آثروا العلم بسواعدهم وعقولهم وقلوبهم وإيمانهم، أو يكفيك هذا؟

وأطرق حسين برأسه قليلاً وقال:

ـ نعم ما قلت يا «زينب»، فعلى هذه الأرض تاريخ أمة قدمت للعالم الكثير الكثير.

وأخذ بيدها بعد تناول الغداء إلى حيث شجرة اللوز العتيقة، وكأنه يود أن يريها أحب الأشجار إليه.

وهناك كان حديث طويل وطويل جداً لم ينته، فقد فتحت زينب شهيته للحديث ومنحته ذلك الأمل بأن يعيش على أرض هذا البيت، وتحت شجرة اللوز العتيقة، يحلم بحياة أفضل من تلك التي أمضاها يعمل من أجل الولدين ولكن. .

ـ ولكن ماذا؟

ـ إننا إذا أنجبنا مرة أخرى، أو لا يعني أن أعود إلى العمل من أجل الذين سيفدون إلى هذه الأرض؟

وضحكت زينب وقالت:

ـ صدقني لو لم يكن لديك من الأولاد ما يكفيك لما رضيت أن أتزوجك لأني ـ وهذا سر ـ أهمس به في أذنك أنا امرأة عاقر لا يمكن أن ألد، وهذا السر هو الذي جعلني أرفض أي ارتباط بإنسان أي إنسان من كل أولئك الذين تقدموا إليّ. أو يكفيك هذا لتعيش في سلام؟

ـ نعم أيتها الحبيبة.

قالها في هدوء واستسلام وكأنه يستعيد ذكريات الماضي وأمانيه وآماله التي تجسدت هنا تحت هذه الشجرة التي يحبها. . . شجرة اللوز العتيقة التي أهدته رفيقة رحلة عمره الجديدة.

الخافق المعذب

ويستمر الخافق المعذب في دقاته وكأنه يعلن عن مولد لقاء جديد، على أرض جديدة، فلقد مل البقاء مع شريط الذكريات طوال كل هذه السنوات التي مضت، والتي كان خلالها يلم بمعالم الطريق، تلك التي ضاعت معها أقدامه يوم كانت تضيع الأقدام في دروب الحياة، ومسالكها، وصخورها، وأوعارها، ووديانها، وسهولها. وينظر إلى الأفق ليرى من وراء سجف الماضي صوراً وألواناً متعددة لحياة طويلة عاش أكثرها وحيداً، يرمق الخطوات الصغيرة وهي تدق على الأرض بإصرار وعناد من يرى أنه قادر على أن يمسك بخيوط الحياة بين يديه.

وتلوب في أعماق أعماقه ذكريات الأمس القريب والبعيد معاً، وكأنها تود أن تقفز من القاع، لتطل على الأرض مشاهد وصوراً كثيرة متباينة، فيها من الرواء والجمال مثل ما بها من الفزع والألم والقسوة، فالحياة لا يمكن أن تظل على وتيرة واحدة لأي إنسان مهما كان هذا الإنسان.

ويواصل تحديقه في الفضاء وكأنه يساير انسياب أفكاره التي أخذت تراوده في عمق من يرى تصاريف الحياة على كثرتها شيئاً جديراً بالتعمق، والتأمل، والتبصر. ويرى من خلف نافذة الطائرة كتل الغيوم البيضاء والسوداء أيضاً، تأخذ طريقها من تحته في حركة عجيبة، لم يفطن لها بادىء ذي بدء، فلقد انصرف بكل ذهنه إلى تتبع خطوات هذا الخافق الذي يدق بسرعة مذهلة جعلته ينسى حتى صورة السيدة التي كانت تجاوره في رحلته من جدة إلى باريس.

قد لا تكون هذه الرحلة بالنسبة إليه هي الأولى، لكنها مع كل هذا يشعر بها ويحس، وكأنه يعايش كل حركة من تحركات الطائرة التي أقلته. ربما لأن انشغال فكره بالعودة إلى الماضي جعله لا ينسى الحاضر لفترة، فهو يلمح مع انشغاله مع هذا الخافق المعذب كثيراً من الضيق والتذمر.

قد يكون طول الرحلة هو السبب، أو قد لا يكون، لكنه مع كل هذا يظل صامتاً كالدهر، لا يلوي على شيء، حتى إذا ما التقت عيناه بعيني السيدة التي بجواره صافحت أذنيه كلماتها وهي تقول:

ـ قد تكون مشغولاً لدرجة كبيرة، تجعلك تفكر باستمرار، لكن أصدقاء الرحلة دائماً في حاجة إلى من يتحدث إليهم، وأنا واحدة من اللواتي لم يتعودن أن يظل فمي مقفولاً، لا لأنني امرأة، فقد وصفت المرأة بالثرثرة، وإنما لأنها العادة. ففي الطائرة يحلو دائماً الحديث، أفلا تزال مصراً على صمتك؟

وضحكت، لكنه لم يضحك، وإنما قال:

ـ ربما تكون ما تقولين صحيحاً إلى حد بعيد، لكنني كما تعرفين من بلاد يحاول أهلها أن لا يزجوا بأنوفهم مع من لا يعرفون، خصوصاً إذا كانت من تجاوره المقعد امرأة.

قالت:

ـ أعرف ذلك، ولهذا تجدني مصرة على أن أتحدث إليك، فأنا مهندسة أمريكية، أعيش في جدة، إلى جوار زوجي الذي يعمل كطيار، وهو قائد هذه الطائرة، ولهذا تجدني أكثر ارتياحاً، فلقد تعودت أن لا أسافر على أية طائرة يقودها غير زوجي، فأنا أثق بقدرته وكفاءته، وأعرف أنه حريص جداً على أداء واجبه على أكمل وجه.

قال:

ـ قد يكون هو كذلك، لكن الذي أعرفه بأن الكثيرين من الأوروبيين والأمريكيين يفضلون السفر على طائرة مغايرة للطائرات التي تسافر عليها أسرهم، خوفاً من الحوادث، وتحسباً للمستقبل.

وصمت، لكنها نظرت إليه وقالت:

ـ أو تعرف أنني أخالف كل هؤلاء نظرياتهم، فأنا أؤمن بأن الإنسان قد تحدد يوم موته منذ أن ولد، لهذا فأنا لا أهاب الموت، فالذين لا يموتون هم الذين لم يولدوا بعد.

ـ لكن كلامك هذا يغاير ما سبق وقلت من أنك تثقين في قدرة زوجك، ولهذا تفضلين دائماً أن تكوني معه في رحلاتك.

قالها في هدوء، لكنها أجابت هي الأخرى:

ـ لك الحق في أن تنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية التي لم أقصدها، فهناك فارق كبير بين الخوف والراحة، وأنا عندما أقول بأنني أرتاح قت أكون معه في طائرته، لم أعن الخوف من الموت مطلقاً، فالموت أمر محتم يجيء في حينه عندما ينتهي عمر الإنسان.

انظر إلى كل هؤلاء لذين هم من حولك، تجد ابتسامة التفاؤل تبرز على شفاههم، رغم أنهم جميعاً يعرفون أن الموت نهاية الحياة، ومع هذا يعيشون حياتهم وكأن الموت بعيداً عنهم، حتى إذا ما جاء مضوا إلى غايتهم في هدوء.

وتابعت قولها:

ـ إن أمر هذه الدنيا العجيب جداً، فأنا بالرغم من تربيتي الكاثوليكية إلا أنني أشعر بأنني مشدودة إلى ما قرأت عن الإسلام.

لقد منحتني أيامي التي أمضيتها في جدة فرصة ذهبية لم أكن أحلم بها، فلقد خالطت الكثير من النسوة، وتعرفت إلى العديد من الفتيات المثقفات، وقرأت الكثير من الكتب، وتعلمت أشياء مفيدة في مقدمتها هذا الإيمان العميق بما يخبئه الغد لنا نحن بني الإنسان. ترى أو تكون أنت مثلي، أم أنك من نوع مغاير؟ فأنا ألحظ على وجهك معالم الحيرة وهي تحيط به رغم هدوئك الذي ألمسه وصمتك الذي قطعته بثرثرتي عليك.

إن هذا الفضاء اللامتناهي يمنحني الثقة في أن أفكر في الحياة والموت في آن واحد، ومع هذا تجدني أتفاءل بكل ما أفكر فيه ولهذا أرى من واجبي أن أرعى أسرتي بأسلوب يغاير رعاية أسرتي لي، أنا التي عشت سنوات عمري في بلاد يعتز مواطنوها بحضارتها، حتى إذا ما قارنت حضارة بلادي بحضارة

بلادكم تضاءلت أمام عيني معالم كل تلك الحضارة.

صدقني أنا لا أمالىء، أو أنافق، أو أداجي، فأنا لا أعرف من أنت، كما أنني لست في حاجة إلى هذه المداجاة، لأنني في غنى عنها بما أملك ويملك زوجي من مقومات من يعرف طريقه في الحياة.

أو تدري بأنني أحس بك وكأنك من أولئك الذين ضاعت أقدامهم في الطريق.

ـ ولماذا تقولين هذا؟ وكيف تسنى لك أن تحكمي علي بهذا؟

ـ من طريقة جلوسك، ونظراتك وما يرتسم على وجهك من تعابير، أخالها تنطق بما في داخلك، فأنت في نظري كتاب مفتوح، يستطيع قراءة محتوياته كل من أعطي شيئاً من البصيرة. إن هذه الحيرة التي تغلف نظراتك لم تكن وليدة الإحساس بالخوف من المجهول، بمقدار ما هي وليدة شعور طويل رافق سنوات عمرك في صمت حاولت أن تقطعه دون أن تقدر.

ـ وبعد هل هناك شيء آخر تودين أن تضيفيه؟

ـ لا، لكنني أود أن أعرف إن كنت قد أخطأت في كل ما قلته، أم كنت على صواب؟

ـ ولماذا تريدين معرفة ذلك؟

ـ لأنني أود أن أعرف حقيقة نفسي، وقدرتي على التعمق في أعماق الآخرين.. ولكن...

وقطع عليها حديثها حديث زوجها الذي غادر مكانه من غرفة القيادة، ليترك الدفة لزميله، حتى إذا ما التقى بوجهه وصافحته كلماته، مد يده إليه وكأنه يعرفه منذ أمد طويل، ومضى الزوج يتحدث إليه في هدوء:

ـ ترى هل أزعجتك زوجتي بتخيلاتها عن الناس؟

ـ لا.

قالها في صدق، لكن زوجها ضحك وقال:

ـ هذه هي أول مرة أصادف فيها صديق طريق لا تزعجه هذه المهندسة.

وتابع طريقه بعد أن تركه يفكر ويفكر.

ويمضي في رحلته مع أفكاره التي أخذت تتجسد أمام ناظريه في صور متتالية، وكأنها تؤكد تواجدها على أديم هذه الطائرة التي تأخذ طريقها فوق السحاب.

ليته يستطيع أن ينأى بعقله قليلاً، وتفكيره أيضاً عن ظروف أيامه التي مضت، وسنوات عمره التي انقضت.

لكن ذكريات الماضي تأبى إلا أن تطل من جديد في عفوية جعلته ينسى رفيقة السفر، لفترة خالها سنوات وسنوات.

أو يمكن للذاكرة أن تستعيد في لحظات شريط حياة الإنسان بكل أبعاده، وظروفه وجمال هذه الظروف، ومآسيها أيضاً؟

وترد عليه صديقة الرحلة وكأنها تقرأ أفكاره، بالإيجاب ثم تواصل ابتسامتها في صفاء، وكأنها لم تجب قبل لحظة على تساؤله، لكنه لم يدعها تخلد إلى صمتها، بل بادرها بتساؤله:

ـ وكيف عرفت كل ما أفكر فيه؟

وأجابت بصدق:

ـ أنت تعلم الطريقة التي يستطيع بها الإنسان أن يقرأ أفكار الآخرين، فالتلبثية علم يدرس في بعض جامعات أمريكا وأوروبا، لكنني أنا شخصياً لم أدرسه، وإنا جاء هكذا عفو الخاطر، لقد دربت نفسي على قراءة أفكار زوجي، ثم واصلت عملي حتى وصلت إلى ما وصلت، أتريدني أن أتحدث إليك عما يشغل بالك؟

وهز رأسه موافقاً فقالت:

ـ سأقول لك عن مشكلتك باختصار، فأنت في طريقك إلى باريس، لتعود بقريبة لك كان لها في قلبك مكانة حب كبيرة، فرطت هي فيها دون أن تعرف، وتزوجت غيرك، وقد مات زوجها في إحدى مستشفيات باريس، وها أنت اليوم تذهب لتعود بها، وبجسد زوجها أيضاً، أليس كذلك؟

وأمن على كلماتها بتمتمة لما قالته المرأة، وهو لا يعدو سوى الحقيقة، وأخلد قليلاً إلى الصمت، وكأنه يفكر فيما سيصنع، ثم قال:

ـ وما هو رأيك فيما أفعل؟

ـ عين الصواب، لكنني لا أدري إن كانت ستقبل المرأة التي أحببتها بالزواج منك، لأن ذلك خارج عن دائرة قراءة أفكارك.

قد تحدث نفسك بهذا كثير، وتقلب الأمر على أوجه كثيرة، ثم تخرج في النتيجة على أنها ستقبل، هذا رأيك. أما هي فلا أدري لأنها بعيدة عن نطاق قراءاتي لما يجول في خاطرك باعتبارها بعيدة عني، لكني، ثق بأنني سأساعدك إذا طلبت مني المساعدة يوم تهبط في باريس وأراها وتراني.

ـ أو تظنين ذلك ممكناً؟

ـ نعم فما أمارسه ليس مجرد كلام، وإنما هو علم استطاعت نظرياته أن تعطي علامات فارقة في دروب الحياة، لدرجة أستطيع أن أقول فيها عن نفسي بأنني هاوية، أو على الأصح تلميذة صغيرة في بداية مراحل تعليمها.

وصمتت..

أما هو فقد أخذ يبحث في ذاكرته عن الماضي، يوم كان هناك يلهو ويلعب بالقرب من شجرة النبق العجوز، هو وتلك الطفلة التي كبرت معه.

لم يكن يعي أسباب كل ما كان يصنعه يومذاك، فقد كان حفياً بـ«يسرى» يصنع من نفسه وقلبه كل ما يستطيع، ليدخل السرور إلى قلبها.

وكان يضحك ملء شفتيه، عندما يرى ابتسامتها تطفو على وجهها الأبيض الدقيق القسمات. هكذا عاشا سوياً، وكبرا سوياً، في بيت واحد. فيسرى هي ابنة عمه، وأخته، وصديقة طفولته، لم يكن يفكر في يوم من الأيام أنهما سيفترقان عن بعضهما حتى دب الخلاف بين والده وعمه، فاستقل عمه بسكنه الجديد، وذهبت معه إلى تلك الدار يسرى أيضاً. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يرى يسرى، أو يسمع عنها شيئاً، حتى قدر له أن يراها وهو في عودته إلى المدينة، بعد رحلة دراسية قام بها إلى جدة.

لقد كبرت الصبية وأصبحت أكثر من جميلة، ولقد تحدث إليها طويلاً يومذاك في بيت عمه، فأخبرته بخبر خطبتها إلى سعيد، ذلك الرجل الثري، الذي يعرفه.

لم يصدق الخبر بادىء ذي بدء، لكن عمته أكدت له ذلك، ولقد حاول أن يتحدث إلى أبيه في هذا الأمر دون جدوى فقد كان والده من أولئك الذين لا يمكن لأي إنسان أن يناقشه في أمر قد أبرمه، ولهذا قبل الأمر الواقع، كما قبلت يسرى هي أيضاً.

ومضى في حياته يجتر ذكرياته في رتابة، حتى إذا ما توفي والده، استطاع أن يعاود مسيرته فيرى عمه ويناقشه ويحادثه في كثير من الأمور، إلا يسرى، فلقد حاول أن يبعد طيفها عن عينيه، وإن لم يكن يقدر، فلقد حال طيفها بينه وبين أن يقترن بأية واحدة من كل الفتيات اللواتي عرضت أمه وعمته أمرهن عليه.

كان يسوف في هذا الموضوع على أمل، وها هو الأمل قد تحقق، ومع هذا فهو يشعر بالحزن يكاد يغمره، فلربما استطابت يسرى حياتها التي عاشتها، فلم تعد تذكر شيئاً من أيام الصبا التي مضت.

لقد عاش طوال سنوات حياته التي مضت على الذكرى، وهو يدرك أنه سيبقى إلى الأبد، حتى النهاية بلا زوجة.

وفجأة يعود الخافق المعذب إلى دقاته، بعد أن فجعت يسرى بوفاة زوجها، ذلك الذي لم يكن يحبه وإن كان لا يكرهه، لا لأنه أخذ منه يسرى، وإنما لأنه أخذ منه حبه، وطفولته وصباه.

ترى أو يمكن أن يعاود مسيرته في هذه الحياة مع يسرى..؟

هل يمكن.. أم أن الصدمة التي تلقتها بوفاة زوجها وبعد وفاة أبيها، قد أوقفت قلبها عن الخفقان مرة أخرى؟ ذلك أمر لا يمكن أن يعرفه، فهو في طريقه إلى باريس ليعود بها إلى المدينة التي أحب، بعد أن أصبح هو كبير العائلة.

ويعاود الحديث إلى نفسه هذه المرة فيقول:

ـ قد تصفو الحياة مرة ثانية، فيستعيد طفولته وصباه وشبابه، من خلال عودة يسرى ابنة عمه إليه. أليس هو اليوم أحق بها، هي التي لم تصل إلى سن تمنعها من الزواج؟ وهو ألم يكن وفياً على عهده الذي قطعه على نفسه بينه

وبينها، دون أن تدري بأنه لن يبني بأية امرأة سواها؟

من يدري؟ قد تعاود الحياة مسيرتها مرة ثانية، في خط متواز مع إحساسه وشعوره بمعاني هذه الدقات التي يشعر بها تطغى على أذنيه ولكن..

أو يمكن أن تتغير نظرته إليها بعد كل هذه السنوات التي لم يرها فيها؟ أم أن هذا الخافق المعذب قد آن له أن يريح ويستريح؟ ذلك أمر لا بد سيعرفه بعد لحظات.

واسترق النظر إلى جارته التي غادرت كرسيها لفترة أحس فيها بشيء من الراحة، فلقد استطاع أن يناقش نفسه بهدوء بعيداً عنها، هي التي أقحمت نفسها عليه وعلى عقله وإحساساته وتفكيره، فكانت أشبه بمن يقرأ ما يراود أفكاره ككتاب مفتوح ومفتوح جداً.

وأغمض عينيه لفترة، وأحس بها وهي تهزه برفق، قائلة:

ـ لقد وصلنا أخيراً إلى بداية المطاف ونهايته في آن واحد.

بدايته بالنسبة إليك، ونهايته بالنسبة لي، فمنذ اللحظة سنفترق، وآمل أن أراك معها يوم تعود بها إلى جدة.

وضحكت لكنه لم يضحك وإنما مد إليها يداً باردة، وكأنه يصافحها لتذهب بعيداً عنه بعد أن أثقلته بكل ما قالت.

ومضى هو إلى خارج المطار، وصورة يسرى تراود مخيلته في شكل كل أنثى تصافحها عيناه التي عاشت تنتظر هذه اللحظة منذ أمد طويل، وطويل جداً.

ـ مسكينة سعاد، لا حظ لها في هذه الدنيا، فلقد كتب عليها أن تظل عانساً مدى الدهر.

ـ ولماذا يا أماه؟

ـ لا أدري يا بنيتي، فأنا كما تعرفين أحبها، ولا أفرق بينك وبينها في قليل أو كثير، ولكنني أرى أن حظ أختك المسكينة هو السبب في كل الذي حصل.

ـ وماذا حصل يا أماه؟

ـ تقولين ماذا حصل وأنت تدركين أن ثلاثة من الخُطاب قد جاؤوا لخطبتها، حتى إذا ما رأوها وتحدثوا إليها، ذهبوا من حيث أتوا؟

ـ وهل الذنب ذنبها يا أماه؟ إذا كان ما تقولينه أصبح حقيقة، فمن يدري ربما كان في هذا الخير لها، لسعاد.

ـ ولكن كلام الناس لا يرحم، فهم يتحدثون عن أختك وخطابها وانصرافهم عنها بكثير من السخرية.

ـ وما يهم سعاد من كلام الناس إذا كانت هي لا تشعر بأي أثر لذهاب هؤلاء الخطاب عن بابها؟ إنني أراها وأحادثها وأعايشها ومع هذا لم ألحظ بأنها كانت منزعجة لكل ذلك.

ـ ربما يكون ما تقولينه صحيحاً يا بنيتي لكن أنا التي أحس بالانزعاج، لأني أمها وأعرف معنى انصراف الخطاب عن باب أية فتاة، وأعرف ما يقوله الناس وما يتناقلونه، وهو بلا شك أكبر من أن

أتحمله أو تتحمله أعصابي.

وتضحك سعاد ملء شدقيها، وهي تستمع إلى حديث أمها وأختها، وتمضي ليأتي صوت أمها ضعيفاً لا يكاد يسمع:

ـ أو تدرين يا سهاد؟ إن أم عدنان قد جاءت تطلب مني يدك لابنها قبل أختك، وهذا في رأيي أمر سيعقد المسكينة، ولهذا لن أوافق، وأعتقد أنك أنت أيضاً لن توافقي. لقد طلبت منها أن تنتظر قليلاً، فلربما جاء الخطيب الرابع وأخذ سعاد.

وتعود سعاد إلى مكان أمها فجأة لتقول لها وهي تضحك

ـ لماذا كل هذا التعب يا أماه؟ وما ذنب أختي لتظل بلا زواج حتى يأتي العدل لي كما تقولين؟

ـ أو سمعت يا سعاد ما كنا نتحدث عنه؟

ـ كلمة بكلمة، وأنا أضحك في سري لغباء الناس وأحاديثهم، فأنا لا أرضى أن تبقى أختي أسيرة ريثما أتزوج.

لقد تغير الحال في بلادنا يا أماه، وأصبحت الفتاة أكثر إدراكاً لما تريد، فلا تثقلي على نفسك بكلام الناس، فأنا لا أهتم لما يقولون، وتوكلي على الله، واقبلي خطبة أختي، فلربما كان زواجها فأل خير، فجاءني من يرضى عني.

ـ وتقولينها يا سعاد؟

ـ ولماذا لا أقولها يا أماه؟ وأنا أعرف سبب انصراف هؤلاء الخطاب عن بابي فأنا السبب.

ـ أنت السبب! بماذا يا ابنتي؟

ـ في أشياء كثيرة، كنت أحاول أن أخيف بها خطابي فيهربون، لأني لا أرغب أن أتزوج. أو نسيت بأنني في السنة الثالثة من كلية الطب؟ وأنني رفضت أن أقترن بمن كنتم تحاولون أن أقترن به، وأقول لكم دعوني، فلا تقبلون، وعندما رأيت إصراركم على الرفض حاولت بأسلوبي أن أبعث الرعب في قلوب الخطاب بمرضي المزعوم. كنت أحاول أن ألقي في آذانهم بعفوية خبر

مرضي، وإصابتي بالسل تارة، ومرض القلب مرة أخرى، وكانوا هم يصدقون ما أقوله فيهربون ويخلو الجو لي، أفهمت الآن لماذا أضحك؟ إنها رغبتي يا أماه، فأنا لا أريد أن أتزوج الآن. أو يكفيك هذا لتقدمي على قبول خطبة أختي! لقد قررت أن لا أتزوج قبل أن أتم رسالتي العلمية، ولا أعتقد أنك بعد كل هذا الذي قلت تجدين غضاضة في أن تقدمي على تلبية رغبة صديقتك.

إنني أبارك خطوبة أختي، ومن كل قلبي، ولهذا تجدينني سعيدة وسعيدة جداً، فالزمن يا أماه قد تغير، ولم يعد هناك مكان لتقاليد بالية أورثكم إياها مجتمع مغلق، يوم كانت المرأة مجرد كم مهمل تنتظر العدَل.

ـ ولكن؟

ـ ولكن ماذا يا أماه؟ أعرف ما ستقولين، كلام الناس، وهل يهمني، أو يهم بعد كل الذي قلت كلام الناس؟ إنني راضية بمصيري، وما قررته بنفسي، فلا تزيدي إحراجي بما فعلت.

وضحكت سعاد من كل قلبها، ومضت إلى غرفتها، لتذاكر دروسها بحيوية.

ترى لماذا تفكر الأمهات بهذا الأسلوب؟ أو يكفيهن أن بعض بناتهن يرفضن الزواج لسبب حتى إذا ما ذهب هذا السبب أقبلن عليه في رغبة.

ولكن هل يمكن أن يتغير الناس بعد كل هذه السنوات الطوال التي مرت على تعليم المرأة؟ إنها تجد نفسها في الموقف نفسه، فتاتها الكبيرة ترفض الخطاب، وترى أن من واجبها أن تمضي في أداء رسالتها التعليمية حتى النهاية.

وهي على الرغم من أنها صاحبة باع طويل في تهريب الخطاب، فلقد استطاعت في النهاية أن تنال زوجاً تحس أنه من خير الأزواج على الإطلاق. ولكنها على الرغم من كونها طبيبة وهو طبيب، لكن ما مر بها من تجارب، جعلها تشعر بأن سنوات كثيرة من عمرها ضاعت دون زواج، وكان من الأفضل لها أن تقبل أول واحد، ثم تمضي في أداء الرسالة.

ولكن من يريدها؟ قد لا يرغب خطبتها إذا رأى إصرارها على المضي في

تعليمها، وقد يخاف بعضهم رغبتها تلك، لكنها على أية حال تشعر بأن زفافها كان متأخراً بعض الشيء، وهي لا تريد لابنتها أن تتزوج وهي في مثل سنها، فسنوات الإخصاب بالنسبة للمرأة قصيرة، والمفروض أن تنتهبها الأنثى كل أنثى.

لكن فتاتها ترفض هي الأخرى كل حديثها، وتناقش حججها وتفندها وتفوت عليها صلابة موقفها، فماذا تفعل؟

ليتها تستطيع أن تقنع هذه الابنة بأن سميراً إنسان يمكن أن يُعتمد عليه، وأنه سيرضى بأن تواصل زوجته المشوار رغم طوله، لكن رجاء ترفض بإصرار وتطلب من أمها ومن سمير إذا رغب أن ينتظر حتى نهاية الشوط، فهي راغبة بأن تصل إلى ما وصلت إليه أمها.

فلا يكفي أن تكون واحدة في هذه الأسرة طبيبة قلب مشهورة، أو يمكن للأيام أن تعيد فصول الرواية التي مثلتها هي؟ ومن يدري أن سميراً قادر على الانتظار.

وتجيب رجاء:

ـ ليكن، فهذا شأنه أما أنا فمن معدن لا يقل صلابة عن معدنك. . .

ـ ولكن أخاف أن تضيع أجمل سنوات عمرك في التحصيل، أنا التي أريدها أن تكون في الزواج والتحصيل معاً.

ـ ولكنني أرفض ما تشيرين عليّ به يا أماه، فأنا أعرف أن للزواج ضريبة يجب أن أدفعها من قدرتي واندفاعي نحو العلم.

وتصمت سعاد، ثم تعاود التذكر. فها هي رجاء صورة جديدة عنها، هي التي استطاعت أن تبقي نفسها حتى يوم التخرج دون ارتباط بأي رجل.

ومع هذا هل يمكن أن تصل رجاء إلى أهدافها يوم تتخرج فتلتقي بزوج مثل والدها؟

لا تدري، وإن كانت تود أن يحصل كل هذا. وهي غير واثقة، فظروف الحياة في بلادها اليوم لا تتيح للفتاة العربية الجمع بين العلم والزواج. وهي تأمل أن تستفيد ابنتها من هذه الفرصة، فلا تركب رأسها كما فعلت، وقد يكون

حظها كبيراً فهي التي استطاعت أن تقترن بزميلها الطبيب وهي في سنها المتأخر.

لكن هل يمكن أن تجد ابنتها طبيباً مثل والدها يمكن أن يمنحها السعادة كما منحها لها هذا الزوج؟ وتسترسل في ذكرياتها عن الأيام والليالي والسنوات التي مضت كيف كانت، وماذا أورثتها تلك الليالي من آلام وأماني وآمال.

وتتناثر صور تلك الأيام أمام عينيها بتلاحق غريب يعيد إليها ذكريات شبابها حيث أضاعت أكثر سنواته في تحصيل العلم. لكن ما يغريها أنها أصبحت شيئاً مذكوراً يمنحها الثقة في قلوب مرضاها، ويغريها أيضاً أنها استطاعت أن تصل إلى قلب هذا الزوج الذي أصبح عاملاً هاماً ومفيداً لها كامرأة وطبيبة.

تُرى أو يمكن أن تكون بدونه على ما هي عليه من فهم وإدراك؟ وابتسمت بينها وبين نفسها، ولم تلحظ في تلك اللحظة وقوف زوجها بقامته المديدة على مقربة منها، ينظر إلى وجهها في المرآة دون أن تراه حتى إذا ما التقت عيناها بعينيه ضحكت وقالت:

ـ أو تدري أن التاريخ يعيد نفسه هذه المرة وبشكل آخر؟

فأجابها:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ابنتك رجاء، فهي كما ترى ترفض أن تتزوج قبل أن تصبح طبيبة مشهورة كأبيها.

ـ وماذا في الأمر؟ أولم تكوني أنت القدوة لها؟

ـ نعم ولكني أرغب أن تستمتع بحياتها ودراستها في وقت واحد.

ـ أو يعني أنك آسفة على ما أضعت من عمر؟

ـ إن شئت الحقيقة نعم، آسفة لأني لم ألتق بك منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه أول خاطب لي. ولو قُدر لي ذلك لما تأخرت عن الاقتران بك، والمضي في دراستي.

وابتسمت لكن زوجها لم يبتسم، وإنما قال بجدية:

ـ دعيها فهي أقدر منا على تقرير مصيرها.

وأجابت:

ـ أو تعني أن تتركها بلا توجيه؟

ـ ليس هذا ما أقصد، ولكنها عندما ترى أن من الأفضل لها أن تمضي في دراستها حتى النهاية، فهذا يعني أنها قادرة مثلك على اقتناص الفرص.

ـ ومن يدري؟ إنها قادرة أيضاً على اقتناص زوج طبيب ومثالي مثلك؟

وضحك زوجها من قلبه هذه المرة، وقال:

ـ أنتن هكذا دائماً، تفكرن بعقل المرأة، حتى لو كانت المرأة طبيبة أمراض نسائية مشهورة وكبيرة مثلك، لكن ثقي أن فرص الحياة بالنسبة إليها أوسع وأعم وأشمل، فلا داعي للخوف، فرجاء أكثر رجاحة عقل مني ومنك. أو ليست ابنتنا يا سعاد؟

وضحكا سوياً، ومضيا إلى خارج الغرفة يناقشان بصراحة محاضرة الغد التي ستقوم بإلقائها الدكتورة سعاد وزوجها بهدوء وبلا ضجة، وكأن كل ما كان لا يهمهما مطلقاً. فقد ابتسمت الحياة لها وله، وأعطتها وإياه هذه المكانة العلمية المرموقة، والابنة العاقلة التي تريد أن تمضي على الدرب في أناة وصبر.

الجدة هداية

جدتي امرأة سوداء مهيبة الطلعة، تملأ وجهها تجاعيد كثيرة أورثها إياها الزمن، في صورة فريدة تمنحها الجلال أكثر مما تعطيها الدمامة.

أسنانها جيدة رغم سنواتها المئة التي أمضتها حسبما تقول وهي تضحك، لأنها لا تعرف كيف تحصي سنوات العمر. كل الذي نعرفه أنها ولدت هناك في جنوب السودان، في قرية صغيرة، ملكها رجل اسمه (علي دينار). هكذا كانت، وهكذا ظلت تتحدث عن سنوات الصبا يوم كانت تخرج لملاقاة الأسود بأسمالها بالية تضعها على يدها التي كانت تخفي في باطنها سكيناً حادة النصل، حتى إذا ما هجم عليها الأسد، ناولته يدها لتمعن في فمه بسكينها القاطع وهي تضحك.

ولكم سعدنا كثيراً بحكاياها ونحن صغار، نتحلق حولها في سرور بالغ واندهاش يبدو مثيراً، لأننا كنا نخاف، ونحب ونكره، مع كل كلمة تقولها، وحسب موقفها، لا ندري من أمرها إلا أنها قصص ذات دلالة. لم نكن نظن أن كل ما تحكيه جدتنا هو الصدق، لأنها كانت تحكي قصتها، قصة حياتها، رحلة عمرها الطويل وهي تمضي مع القافلة، مشياً على الأقدام تدور حول هذا العالم، حتى تصل إلى مكة مع ابن عمها وزوجها الذي شاء أن يبيعها في ذلك الزمن، في زمن الأتراك.

وهي تعرف نشأة المملكة، منذ ذلك اليوم الذي شاءت إرادة الله أن تمنح موحد هذه الجزيرة القدرة على تنفيذ ذلك الحلم الكبير،

لأنها شاركت في تقديم المؤونة لجيشه مع رجال الشيخ إسماعيل بن مبيريك صديق أسرتنا العتيد وحليفها.

ومع جدتي كانت هناك سندولتها دادا فائقة، التي جاءت من اليمن هرباً من القحط والفقر، تلك باعها زوجها وهذه باعها أبوها، دادا فائقة لا تنسى تلك اللحظة التي جاء بها إلى سوق المدينة في ذلك الزمن البعيد، يوم كان الإنسان يستطيع شراء أخيه الإنسان.

ولقد اشترت جدتنا الكبرى جدة هداية، فجعلتها تربي ابنها الذي هو والدي، واشترت الثانية لتربي بناتها اللواتي جئن بعد ابنها الكبير.

ولهذا كنا نسمي الأولى جدة هداية، ويسمي الثانية دادا فائقة. الأولى هادئة كريمة صادقة يحبها الكل، وترعى الكل، والثانية لا صبر لها ولا طاعة. والكبار في بيتنا يذكرون كيف ألقت بماء السماور الحار على رأس والدها يوم عنّت له زيارتها بعد سنوات طويلة من الغياب. وكنا نتحدث إلى الجدة هداية عن هذه القصة، فتضحك وتقول:

ـ مصيبتي أقل من مصيبتها، فأنا باعني زوجي، أما هي.

وتنظر إليها، فتبتئس دادا فائقة لأنها لا تريد أن تذكر القصة، فتصمت جدتي هداية.

ولقد بكت جدة هداية سيدتها، وابن سيدتها، وأبكت معها الكثيرين والكثيرات من رجال وسيدات الأسرة، وبقيت هي تنتقل معنا من المدينة، إلى جدة، فالطائف، فالرياض، فالمدينة، مرة أخرى.

وجدتي هداية تاريخ متحرك، عاصرت عهوداً كثيرة، حتى عهد الزاهر، ولهذا فهي تقارن بين أول حجة قامت بها في عهد الأتراك عندما كان عدد من رجال الشيخ إسماعيل بن مبيريك يحمون القافلة في طريقها إلى الحج، وبين حجتها الثانية في العهد السعودي، عندما غادرت مع الأسرة المدينة إلى مكة على الشقادف، دون أن يكون معهم حارس.

وهي تعرف أكثر رجالات المدينة بالاسم، لأنها حسب قولها طالما قدمت لهم أطايب الطعام في بيتنا الكبير في زقاق الطوال، أمام قبر والد الرسول عليه الصلاة والسلام.

في سيمائها الشيء الكثير من الرجولة، لدرجة تدرك هي نفسها أنها لو خلقت رجلاً لكان ذلك أفضل لها وأجدر. وهي تعرف *ابن إبراهيم أمير المدينة* الصارم، وتتحدث عنه بحب. فلقد استطاع هذا الرجل أن يسيطر على جميع رجال البادية، ويشيع الهدوء في قرية القريش المعروفة.

وقد كان الحجاج حسبما تقول جدتي، قبل العهد السعودي، يأتون إلى المدينة وكل واحد منهم يحمل كفنه على جسده، فلربما مات في الطريق برصاصة غادرة من أولئك الذين كانوا يروعون الحجيج، حتى أصبح الحج في ذلك الزمن الغابر شيئاً لا يمكن أن يصل إليه إلا من باع نفسه من أجل أداء هذه الفريضة، لدرجة جعلت الكثير من الحجاج يودعون أهاليهم قبل سفرهم، فلربما بقوا إلى الأبد بين رماد الصحراء وفي جوفها.

وهي تذكر قصة ذلك البدوي في زمن الأشراف، والذي تحسر على رصاصته التي أطلقها وأصابت أحدهم فقتلته، فذهبت سدى لأنه لم يجد مع الحاج أي شيء.

وتحزن جدتي عندما تتحدث عن مقتل جدنا، زوج سيدتها برصاص أحدهم. وهي تذكر أسرة الرجل بالاسم، وتعرف بأن جدي لم يكن المقصود بالقتل بمقدار ما كان المقصود بالقتل أخوه أسعد. فلقد اختلف أخو جدي مع أحد جيرانه على بيعة جواهر خرج منها بنصيب الأسد، فقد كان جدي وأخوه من كبار تجار المجوهرات، وتذكر أيضاً كيف أن أخاه قد اشترى من العبيد عدداً لا يستهان بهم، أمام كل واحد منهم بندقيته وزاده وما يحتاج إليه، وطلب منهم بأن يسعوا وراء القاتل، حتى إذا ما أخذوا الثأر منه أصبح العبيد أحراراً.

وتتذكر السنتين اللتين أمضتهما في بيتنا، في باب الشامي حيث نزل القوم بجوار البيت في خيام كبيرة، تنحر من أجلهم الذبائح فلا يأكلونها حتى يأخذوا العاني.

والعاني كما تقول جدتي: الأمان للقاتل من القتل بالشروط التي تؤمن له الحياة.

ولقد حاول عم والدي أن يتخلص من أولئك الذين أمضوا أكثر من عامين حول دارنا، فاشترط أن يأتي القاتل فيحلق رأسه، ثم يمشي من الدار إلى

المسجد النبوي على يديه وقدميه حاملاً أكبر أولاد المرحوم على ظهره جيئة وذهاباً، ومع هذا لم يكفه هذا الشرط، وإنما أضاف إلى الشرط شرطاً آخر بأن لا يبقى القاتل ولا أحد من أسرته في المدينة، وأن من يبقى فيها فدمه يذهب هدراً.

كان عم والدي يعتقد أن القاتل وأسرته سيرفضان كل هذه الشروط، لكنه فجع عندما عاد إليه أصحابه بقبولها، فرضي على مضض ونفذت الشروط، ولم تعد أسرة المعلم إلى المدينة إلا بعد الحكم السعودي.

وتنقل جدتي بعض الصور إلى أذهاننا، والتي كنا نتطلع إلى كل كلمة تقولها في حب وشغف ووله أيضاً، فتذكر كيف كان التماسك بين تجار المدينة يمضي بأسلوب جميل تتحسر عليه لأنه انقضى ومضى.

وتذكر جدتي أحاديث كثيرة عن حجة فاطمة سندولتها الثانية التي عاشت في بيت كريم فقد صاحبه ماله ثم مات ليترك زوجته وطفلين. لكن الأم لم تلبث هي الأخرى أن توفيت. وانبرت المسكينة تخدم في بيوت الناس، ليبقى البيت على وجاهته، وتستمر في عطائها للطفلين، حتى يصلا إلى نهاية المطاف، ويحملا شهادة «الدكتوراه» ويعودا إلى بلدهما.

وتذكر جدتي عن أحدهما، الذي أصبح سفيراً لبلاده في إحدى الدول الأوروبية، والآخر الذي شغل منصباً كبيراً في الدولة، فتضحك من أعماقها وتقول بأنها يستحقان ما وصلا إليه، فلقد عمدا من صغرهما إلى العمل، وهي تعرف نوع العمل وتصفه لنا، لأنها كانت تمر بهما وهما يديران عجلة مطبعة جريدة المدينة التي كانت تدار باليد في أحد دكاكين شارع العينية.

ولا تنسى جدتي في غمرة حديثها يوم مولدي، فقد جاءت ولادتي على أثر وفاة أكثر من أخ وأخت لي، وتضحك عندما تذكر كيف أن جارتنا أم جميلة قد حملتني بملابسي المرقعة (المرقعية)، تشحذ بي عند باب السلام، لدرجة جعلت والذي يهرب من أمامها حتى لا يعرف الناس من هي هذه المرأة، وأن هذا الطفل هو ابن له.

لقد قالوا لأمي إنها أفضل طريقة لإبعاد العين عني، فقد كان الجهل مخيماً على نساء المدينة في ذلك الزمن.

أما اليوم فقد تغيرت الحال لدرجة جعلت أمي تستدرك أمامي وتقول:

ـ كيف سولت لي نفسي أن أصنع ما صنعت؟

وتستعيد جدتي ذكريات الماضي، عندما كنا نصيف في الرفيعة والجلونية والزهرة وغيرها من بساتين المدينة. فقد كان من عادة أهل المدينة ولا تزال، عادة شراء نتاج الصيف لبيعه والاستفادة بثمنه، وتمضية الصيف في بيوت البساتين الأنيقة، برواشيها الخشبية الدقيقة الصنع، وكانت أشجار النخيل والليمون وكروم العنب تلفها وتحيطها من كل جانب.

وجدتي تعرف جميع أسر المدينة الطارئة وغير الطارئة، وتتحدث عن رحلة والدي أيام حرب (سفر برلك) إلى عنيزة، بينما اندفع جميع أفراد العائلة للسفر (بالشمندقير) إلى دمشق.

وتهمس في أذني كيف أن والدي قد تزوج بواحدة من بنات عنيزة قبل أن يقترن بوالدتي، وإنه لم يعد إلا رغماً عنه، لأنه كان قد أحب الناس وعنيزة وحياته فيها.

ويسمع أبي همسها فيطلب منها أن ترفع صوتها، وكأنه يريد أن يتذكر تلك الأيام التي مضت.

أما أمي فكانت تغضب قليلاً، وتواري غضبها خشية أن تنزعج جدتي، فقد كان كل واحد في البيت يحترمها ويكبرها، ويخاف من إزعاجها هي الوافدة الغريبة، التي ملأت أرجاء بيتنا حباً ومودة.

ولا تنسى جدتي حديثها عن الخسارة الجسيمة التي مني بها والدي يوم غرقت له أكثر من عشرين ساعية في بحر ينبع، ونهبت قافلة الأرزاق التي حملت بضائع هذه السواعي قبل شهور من دخول الحكم السعودي، رغم تحالفه مع الشيخ إسماعيل بن مبيريك أمير رابع، والرجل القوي في طريق المدينة آنذاك.

وتذكر كيف كان أمير المدينة يفد إلى دارنا، يحمل برقيات الملك عبد العزيز واستفساراته عن الرجل الذي ساهم في مساندة الجيش السعودي أثناء حملته على الحجاز. وتقول:

ـ لم أكن أستطيع أن أتصور معنى الوفاء، حتى عرفت ما عرفت عن ملك لم يشغله الحكم عن سؤاله عن أصدقائه. ولقد منح الملك عبد العزيز أمير رابع داراً في مكة المكرمة، بجوار باب العمرة، كنا ننظفها معه عندما نأتي للحج ويقوم على خدمتنا واحد من رجاله.

كانت حريصة على أن ترى موكب الملك عبد العزيز، وهو يسير في عفوية بين مظاهر الحب والولاء كواحد من أبناء المدينة المقدسة.

ولقد وجدت جدتي أمام الشيخ إسماعيل عدة أكياس مملوءة بالذهب سألته عنها، قال بأنها هدية الملك إليه، وعندها امتدت يدها إلى واحد من الأكياس لتلتقطه، لم يرض الرجل، وإنما منحها كيساً آخر، وقال لها:

ـ هذا لك مني، وذلك هو لك منه.

وتذكر جدتي بأنها لم تبك مثلما بكت يوم وفاة والدي، والملك عبد العزيز، والشيخ إسماعيل بن مبيريك، وتقول عن الأول والثالث بأنها تعرفهما ويعرفانها، أما عن الملك عبد العزيز فتقول بأنها تعرفه وإن لم يكن يعرفها.

وتكره جدتي كل من يداعبها بأن يقول لها: لماذا لم تتزوجي بعد زواجك الأول؟ فتقول وعقدة المشكلة تطل من بين تجاعيد حلقها: ومن يدري أنه طلقني ذلك الخائن الذي باعني ساعة ضيق؟ ثم ما قيمة الزواج، إذا كان ربي قد رزقني بأسرة وأولاد، هم أحن وأرأف بي من أي ولد؟

وتذكر جدتي أختها التي جاءت بحثاً عنها بعد أكثر من عشرين عاماً، واصطحبها معه زوجها الذي قال لها إنها أبت العودة معه، ثم باعها إلى واحد من كبار أثرياء المدينة، وهرب. ولقد دفع جدي ثلاثة أضعاف ما دفعه ذلك الثري لتكون بجانب أختها في دار الأسرة، لتموت بعدها على يديها.

وقد شاخت جدتي وكبرت، وإن لم تحد الأيام ولا السنون من جذوة نشاطها ولمعان فكرها وذاكرتها التي تختزن أحداث المدينة كلها.

فالذين يعرفونها على كثرتهم يحبونها ويحترمونها ويودعونها أسرارهم، ويطالبونها بحل مشاكلهم.

ويوم ماتت والدة أم جميلة جارتنا في زقاق الطوال، أصيبت ابنتها بلوثة عقلية خفيفة جعلتها تشك في وفاتها، وأنها لا تزال حية كما هو الحال مع أبي الذي كانت تحترمه. وكانت جدتي تسايرها وتسامرها وتحادثها وتقضي كثيراً من الوقت في تدبير شؤونها، حتى ماتت هي الأخرى وتركت ثروتها أمانة عند بعضهم ممن تذكرهم جدتي ولا تتحدث عنهم، فالمسكينة لم يكن لها ولد ولا وريث. وهي تتحدث في حزن عن ذلك اليوم الذي توفي فيه موحد هذه الجزيرة وتذكره، فقد كانت في زيارة أختي في مدينة الطائف، ولقد أصرت يومها على زوج عمتي أن يحملها إلى مطار الحوية، لتودع الجسد الذي ذهب بعد أن أودع هذه الأرض بصماته الكثيرة وعلى كل شيء فيها.

وحضرت وفاة ابن إبراهيم أمير المدينة عندما لقي وجه ربه في القاهرة، وكانت تزوره في مستشفاه كما يزور الرجل الرجل. فقد كانت جدتي نسيجاً مغايراً لكل هؤلاء النسوة، تترحم عليه، فقد كانت قسوته أثناء حكمه على المدينة مجرد رداء يخفي تحته قلباً طيباً، لكن أساليب الحكم حينذاك كانت تقضي بأن يتظاهر بكل تلك القسوة مع أولئك البدو الذين كانوا يثيرون الرعب في قلوب الحجاج.

وهي تقارن بينه وبين ابن جلوي، أمير الشرقية، فترى بأن رفاق عبد العزيز استطاعوا أن يمنحوا تحت رايته وفكره كل هذا الأمن والاستقرار، ولهذا لم تكن ترى في القسوة سوى معاني أداء الحكم كوسيلة لتطهير النفوس من شوائب الإجرام التي كانت تعشش في نفوس أولئك الذين كانوا يصطادون الحاج كما يصطاد الصياد فريسته بلا رحمة ولا هوادة.

وتبتسم وهي ترى الحياة وهي تصفو بطعمها اللذيذ في ظلال هذه الأرض الواسعة التي أمكن لعبد العزيز أن يصنع منها هذا الكيان الكبير الممتلىء قدرة وإمكانات، من أجل الوصول إلى تلك المكانة التي كانت لها هذه الأمة في صدر التاريخ.

ويوم أصدر الملك فيصل أمره بتحرير العبيد ابتهجت وقالت:

ـ لن يكون لدى الأزواج والآباء ولصوص الإماء الفرصة بعد اليوم على صنع ما صنعوا في السابق.

وتقول:

ـ كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

وتأمل في أن ترى زوجها ووالد (سندولتها) فائقة في السجن جزاء لما اقترفا في حقها وحق أختها وسندولتها.

وكثيراً ما سألها من لا يعرفها، من أي بلد أنت وأين ولدت؟ فتقول مستغفرة:

ـ أنا من بلد الرسول، فيه ولدت وفيه سأموت.

وهي تؤكد، بأن يوم مولدها هو ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى طيبة الطيبة.

ولقد فقدت جدتي كثيراً من معالم الأرض التي عاشت عليها، وهي تعرف بأن زقاق الطوال والزرندي وباب المصري وجوة المدينة وسقيفة الرصاص وباب المجيدي وسيدي مالك، كلها دخلت في عملية توسيع المسجد النبوي، وتشعر بسعادة عندما ترى اكتظاظ المسجد رغم جميع توسيعاته بهذه الآلاف المؤلفة من المسلمين، وتتذكر أول يوم أدت الصلاة فيه في مكان يسمى قفص النساء.

كانت تشعر يومها أنها كالطير الحبيس في ذلك القفص بين مئات من جنسها، أما اليوم فقد تغير كل شيء، وأصبح المكان المخصص للنساء رحباً يضيق رغم رحابته، بالأعداد الوافدة إلى طيبة الطيبة.

لشد ما تغيرت ظروف الحياة في بلادنا، فجدتي التي عاشت حياة ما قبل الكهرباء، كانت تمضي أكثر من ساعتين في تغيير اللمبات، والأناريك وتنظيفها، وهي تصنع كل ذلك يومياً. وتأخذ حاجتها من المياه من خلال البئر الموجودة داخل الدار وتتصرف في الدار آمرة ناهية، تأمر هذا بجلب البرسيم، والآخر بحلب البقر، وتلك بصنع العيش.

أما اليوم فكل شيء جاهز، لم يعد للمرأة ما تصنعه سوى أن تجلس ساعات وساعات، إما في قراءة كتاب، أو في التطلع إلى وجهها في المرآة. وهي تضحك عندما تقول كل هذا، وتشعر بفراغ هائل لا تدري ماذا تصنع به.

وهي تذكر كُتَّاب خوجه هانم، فلطالما حملت فتيات الأسرة إلى رحابه. . ولكن. . أين كتاب خوجه هانم من هذه المدارس المنتشرة؟ لقد عاشت جدتي ورأت أختي منى وقد تخرجت من كلية الطب، وافتتحت عيادتها في جناح ملاصق للفيلا التي تعيش فيها في جدة، ورأت أبناء وبنات الأسرة يتزوجن بعد إكمال الدراسة، فتتحسر لأنها جاءت في زمن سبق هذا الزمن.

وتتفلسف جدتي مع منى وتقول لها:

ـ قد تكونين أنت طبيبة ماهرة، لكنك لو عدت القهقرى قليلاً لرأيت كم كانت وصفاتي مفيدة لك أثناء مرضك وأنت صغيرة.

وتضحك أختي منها وتجيب:

ـ لا عليك يا جدتي، سأبقى كل يوم نصف ساعة إلى جانبك، لأدون وصفاتك في كتاب، فلربما احتاج الطب إلى هذه الوصفات مستقبلاً.

فتشعر جدتي بالسعادة. ولقد نعمت جدتي بجميع وسائل النقل، استخدمت قدميها في أول رحلة لها إلى الحجاز، وبعدها تنقلت من الشقدف، إلى السيارة، فالطيارة، وعرفت أنواعها من الداكوتا حتى التراي ستار. .

وهي تنطق أسماء الطائرات بشيء من الطرافة، فلا يزال لسانها يحمل لكنة صغيرة لم يستطع ملح المدينة أو مكة أن يزيلها.

هكذا تقول جدتي عن لكنتها، وتقارن بينها وبين سيدتها ـ التركية ـ أم والدي، التي ظلت حتى وفاتها لا تجيد نطق بعض الكلمات العربية، وتقول بأن نطقها لا يزال أفضل، ثم تترحم عليها وعلى جدي ووالدي ووالدتي، فلقد ذهبوا جميعاً، وبقيت هي ترمق الأفق في انتظار يومها الذي تأمل أن يجيء في المدينة على خير ما تريد.

وجدتي امرأة ذات حساسية مفرطة تجاه ما يذاع في الأخبار، لدرجة جعلتها تعرف كثيراً عن الزعماء والسياسة.

وتقول عن السودانيين الذين لم ترهم منذ أن فارقت قريتها في جنوب السودان، بأنهم في لهجتهم أقرب إلى لهجة أبناء الحجاز. وتضيف جدتي بأن الروابط الأسرية في بلادها رغم بعدها عنها، هي التي أعطتها الفرصة لأن

تجعل الرئيس عبود يتنازل عن الحكم تحت تأثير العصبية لا المدافع.

وجدتي تكره العنف، وتعتبره نوعاً من الضعف، فالقوي يملك من أساليب القوة ما يجعله قادراً على أن ينأى بنفسه عن استعمال العنف.

وجدتي تفهم في هندسة البناء، وتعتقد بأن التطور لا يعني استخدام النوع نفسه الذي يستخدمه الآخرون، ولهذا تضيق جدتي بالعمارات الشاهقة، وتعتقد بأن ظروف الأسرة في بلادنا تقتضي نوعاً من التخطيط، تستطيع أن تربط به بين الماضي والحاضر.

وتكره جدتي المرأة الشقراء، إلا إذا كانت تركية، وهي عندما تقول هذا تعني كلماتها تماماً، وتعتقد أن أجمل العيون لدى النساء في الدنيا كلها هي عيون بنات هذه الجزيرة. لهذا فهي تحبها صاحبة لون أسمر، تفتك عيناها بقلوب من يراها، وهي تعتقد أن امرأة الجزيرة أجمل امرأة، وأصدق امرأة، تمنح زوجها كل ما يرغب من أجل الوصول إلى أهدافه.

ولقد عاشت جدتي على أمل العودة إلى المدينة لتدفن فيها، ولهذا أوصت بأن يصرف على جنازتها من خلخال ذهبي اشترته لها جدتي ذات يوم، ولقد أوصت عمي بذلك.

أو تدري كيف قضت جدتي نحبها؟ ذلك أمر كان ولم يزل حديث الجيران. فعندما أعلن «التلفزيون» عن احتلال الفئة الباغية للحرم المكي، نظرت جدتي في وجهي ثم قالت:

ـ لا أريد أن أعيش بعد أن سمعت ما سمعت.

ولقد حاولت أن أناقشها في هذا الأمر إلا أنها قالت:

ـ هؤلاء الذين يصنعون المحنة قرامطة جدد، وأنا لا أحب أن أعيش في عهد القرامطة.

ولما قلت لها بأننا سننتصر عليهم، قالت:

ـ ذاك أمر لا شك فيه، لكنني ـ وأنا كما تعرف ـ أريد منك أن تسمعني جيداً، فيوم تنتهي هذه الفئة يمكن أن تدعو الناس إلى الثالث والثامن والأربعين من أيام وفاتي.

ومضت جدتي إلى غرفتها صامتة تفكر في هذا الحدث، وتركتنا جميعاً في حيرة من صمتها. حتى إذا ما أصبح الصباح، وجدناها ميتة. لكنني عندما نظرت إلى وجهها، رأيتها أشبه بامرأة نائمة تراودها الأحلام.

وقد طاف الموت بغرفتها بهدوء وكأنه يمشي على أطراف قدميه. هذه المرأة السوداء أحبت أرضي وبلادي أكثر من أي إنسان في هذه الدنيا.

أو تدرون ماذا صنعت بعد أن عرفت أن هذه الجدة قد توفيت؟

لا أكون مغالياً لو قلت إنني وددت لو كنت أنا مكانها لتظل كما نعرفها جميعاً على رأس هذه الأسرة التي احتلت مكانتها فيها عن جدارة.

ولقد بكيت كثيراً لدرجة لم أبك فيها لا على أمي ولا أبي بهذه الحرقة، وإنما عليها هي الغريبة التي منحتنا الحب، وقد كنا دائماً نجري وراء هذا الحب الذي أمِلنا أن لو منح لأهل هذه الجزيرة لكفاهم.

ومع ذلك دعونا نقرأ الكلمة التي كتبتها جدتي، فقد نسيت أن أقول بأنها قد تعلمت أن تكتب قليلاً، ولقد قالت لي أختي بأنها كانت إلى جوارها حتى الهزيع الأخير من الليل. وعندما طالعت كلمتها وجدتها كالآتي:

(دعوني أموت فأنا لا أستطيع أن أعيش في زمن تمنع الصلاة في المسجد الحرام. إنهم قرامطة، وعليكم أن تقتلوا كل هؤلاء القرامطة).

ولقد قالت لي أختي منى بأنها عندما لفظت أنفاسها الأخيرة كانت تتمتم وتقول:

- ستخرجونهم من المسجد الحرام، كما أخرج أجدادكم الخوارج والقرامطة.

الأزمة التي أصبحت جزءاً من حياته في الآونة الأخيرة، تكاد تجعله يحس بكثير من الحرج أمام أصدقائه، أولئك الذين كانوا يعرفون خفة دمه وسلاطة لسانه، وكثرة نكاته، لدرجة أصبح فيها غير قادر على تمثيل الدور الذي كان يجيده بحرية. ولهذا فهو معذور عندما يتهرب من لقائهم، ولو لفترة، يفكر في هذا الطارىء الذي أفسد حياته، وأحالها إلى كتلة كبيرة من الهموم، تكاد تشغل باله وتهد حيله.

وينظر إلى الأفق، وكأنه يستلهم السماء القدرة على الجلد، ليبدو كما هو، لا شيء يمكن أن يثير في نفسه إحساسات الغيظ والحزن والقرف أيضاً، وإلا ماذا يمكن أن يقول عن كل هذا الذي يلاقيه من ابنه سماح وبعد كل ما صنع؟

ترى أو يمكن أن يعصي بعض الأولاد آباءهم كما فعل سماح؟ أم إنه هو الوحيد الذي رزىء بهذا الأمر؟

أو يمكن أن يرفع سماح راية العصيان في وجهه بهذه القوة والقسوة أيضاً؟

لطالما كان سماح الابن البار، الذي يترجم حبه لأبيه وأسرته في أشكال وصور متعددة، يخالها وهو يراها حقيقية، جديرة بالتقدير. لكن ما صنعه سماح أخيراً جعله يشك في سلامة تفكيره وقدرته، وهو على معرفة بنوايا هذا الابن الذي لا يرضى أن يسميه عاقاً مهما فعل.

قد تكون ظروف الحياة أقوى من عقل سماح في هذه المرة، لدرجة جعلته يعلن أفكاره على أنها أمر مفروغ منه، وإلا لماذا لا

ينتظر عودة ابنه إلى مسقط رأسه، ليتناقشا معاً في هذا الأمر بهدوء وروية كما كانا يفعلان دائماً فيما يستجد من أمور؟

ومضى يقارن بين نفسه وبين ابنه. ربما كان أبوه أقدر على شد الحبل بالنسبة لأولاده أكثر منه، فلقد اختار أسلوباً جديداً مارسه مع أبنائه على اعتبار أنه الأسلوب الذي يمكن أن يوصله في النهاية إلى ما يرغب ويصبو.

عامل سماح كما يعامل الأخ أخاه، واسشاره في الكثير من الأمور، وأفضى إليه بكل آماله وأمانيه، ورأى فيه صورة أكثر قدرة على تحسس كل تلك الأماني من أخويه.

وتعود به الذكريات، إلى الأيام التي كان يهدهده فيها على ركبتيه هو وأخويه. كم كانت جميلة، لكن هم الأولاد كما يقول المثل يكبر معهم عندما يكبرون، وإلا ماذا سيقول عن هذا الذي جرى من سماح؟

قد يكون هو الأقدر في بناء شخصية أولاده، وقد سعى بنفسه لمنحهم كل إمكانات بناء هذه الشخصية من خلال ما كان يوحي به إليهم من ثقة عاب بعضها الكثير من أصدقائه الذين كانوا يظنونهم إخوته، لا أبناءه.

فلقد تعهدهم بالرعاية، ومنحهم الحب، وأعطاهم كافة ما يرغبون من حرية، لتأتي شخصياتهم وفق أحدث أساليب التربية التي قرأها هو الذي لم تتعد دراسته المرحلة الثانوية، واختار لهم أفضل المدارس، وبعث بهم إلى أرقى الكليات في بيروت وأمريكا.

لم يبخل عليهم بشيء وإن بخل بالكثير على نفسه، لأن كل همه كان في إمكانية تربيتهم وإسعادهم ومنحهم حبه ووقته وآماله وأمانيه؟ لم يرض لواحد منهم أن يقبل يده كما كان يفعل مع والديه، وكان يختلف كثيراً مع زوجته في طريقة معاملته لهم لدرجة كان يضحك منها دائماً وبصوت عال عندما تطالبهم أن يقبلوا يدها دائماً.

وهو يذكر كلماتها له جيداً:

ـ ستأسف يا سامي على هذا التدليل المفرط حيال معاملتك للأولاد.

أو تنسى أن الاحترام من الولد لأبيه وأمه أمر مطلوب ومحبب ومرغوب

فيه؟ إنك تفسدهم بما تصنع، وتظن نفسك واحداً من عباقرة التربية في هذا العالم.

وتطن كلماتها في أذنيه، فهذه الزوجة التي لم تنل حظاً وافراً من التعليم كانت أبعد منه نظراً، وأقدر على فهم واقع الحياة على هذه الأرض التي يعيش عليها.

وإلا لماذا يشعر بكل هذا الألم الذي انتاب نفسه؟ ألأن ابنه سماح الذي عرف قد غيرت حضارة أمريكا ومدنيتها الكثير من أخلاقه وعاداته، وجعلته يفكر طويلاً في البقاء إلى الأبد في مدينة «دنفر»؟

ثم أو ليست بلاده اليوم أحوج ما تكون إلى كل العقول التي استطاعت أن تصل إلى الدرجات العليا في العلم؟

صحيح أنه يشاهد تسرب الكفاءات العلمية من الجامعات السعودية إلى أماكن عمل، لكنها مع كل ما فيها من مآخذ إلا أنها أماكن عمل في وطنه وبلاده.

أو يمكن أن يسمح لعالم كسماح تلقى شهادة الدكتوراه في علوم الذرة أن يبقى ويستقر في أمريكا؟ ولماذا؟

وهل يكفي كل هذا الكلام المنمق الذي بعث به في رسائله إليه، عن حاجته بأن يكون على مقربة من معامل الأبحاث التي هي جديدة على بلاده، أم أن هناك امرأة وراء كل هذه الرغبة في البقاء؟

ربما، من يدري؟ إذ لا يكفي أن ينسلخ الإنسان من مجتمعه وتقاليده وأرضه لمجرد أن بلاده ينقصها مثل هذه المعامل.

ومن يبني هذه المعامل؟ ومن يصنع الأبحاث إذا هرب أبناء البلاد إلى بلد آخر.

لقد قرأ كثيراً عن هجرة العقول إلى أمريكا، وهو خائف على ابنه أن يكون هو الآخر قد ذهب ضحية إغراءات المجتمع الذي عاش فيه طوال سنواته التي مضت، وإلا ماذا يمكن أن يقول عن هذه الرغبة المفاجئة التي لم يمهد لها سماح في البقاء لفترة يعمل خلالها في أمريكا.

قد تكون مدن أمريكا أقدر على جذب هذه العقول التي اختارت البقاء في ظل الحياة الجديدة، تمنحها قدرتها على تنمية حضارتها في الوقت الذي تحتاج فيها بلدانهم جميعها لهم، ولكن لماذا؟

أو يكفي أن تكون الاستعدادات العلمية والأجهزة الدقيقة، والحياة الناعمة، والنظام الذي يسير عليه العمل في مثل هذه الأجهزة هو السبب؟ أم أن هناك عوامل أخرى تشارك هذه الإغراءات العلمية؟

لقد قرأ كثيراً عن أولئك الذين اقترنوا بزوجات أمريكيات ساعدن في تثبيت فكرة الهجرة والبقاء الدائم لأزواجهن في تلك الأجواء.

وقرأ عن الترغيب والترهيب الذي تمارسه بعض لأجهزة العلمية لاجتذاب هذه العقول إليها واستقرارها بصورة دائمة لخدمة الفكر الأمريكي.

وقرأ وقرأ وهو مع كل هذا لا ينسى ما قرأ، لكنه لا يدري كيف يضحي هؤلاء الشباب بأوطانهم وأهلهم، ليعيشوا على أرض غريبة، يعطونها من أنفسهم وقلوبهم وعلمهم الشيء الكثير.

ليته سمع كلام زوجته، فلم يسمح لسماح بالسفر إلى أمريكا، قبل أن يقترن بابنة عمه التي لا تزال تنتظر عودته بفارغ الصبر. ولكن هل تنفع كلمة ليت في هذه المصيبة التي يحس بها وكأنها تزلزل كيانه، وتزرع في نفسه كل هذه الآلام؟

ولقد عز عليه أن يفرط سماح بكل مثله وقيمة، ينساها أو يتناساها فجأة، وكأنه لم يرضعها منذ صغره.

إن بلاده التي قطعت شوطاً كبيراً في التعليم لا يمكن أن تسمح لأي واحد من أبنائها أن يبعد أو ينأى عنها، وهو أيضاً كذلك، لكن كيف يبدأ خطوته مع هذا العنيد؟

لقد كتب إليه أكثر من رسالة ذكره فيها بأرضه، وبيته، وأسرته، وحاجة بلاده إلى أمثاله، وكتب وكتب، لكن سماح لم يجب عن كل تلك الرسائل، وكأنه قد استغنى بكتابه الذي بعث عن الإجابة على رسائله التي بعث بها إليه.

وهل يمكن أن يدع ابنه يمضي في خطوته التي اقتنع بها، دون أن يصنع

شيئاً ليثنيه عن هذا العزم؟

إن دوامة الشك في صدق نوايا سماح تجعله يعتقد بأن بقاءه في أمريكا ليس لفترة كما ذكر، وإنما هي أعذار واهية اتخذها مدخلاً لحياته التي أرادها لنفسه.

قد ينكر سماح كما أنكر في السابق ارتباطه بأية أنثى، لكنه في رسالته الأخيرة لم يشر لا من قريب أو بعيد إلى ابنة عمه، رغم أنها كتبت إليه. حتى الرد على رسالتها لم يصل، وكأن سماح قد قطع كل ما بينه وبين أسرته، لماذا؟

ألا يريد أن يتذكر هذا الغادر بأن أباه وأمه وأسرته وابنه عمه ينتظرون أوبته بفارغ الصبر؟ أم إنه نسي كل هذا في غمرة الحياة التي عاشها أكثر من ثمانية أعوام، كان خلالها يتردد بين الفينة والفينة على أرضه وبلاده.

ولقد لاحظ في السنوات الأخيرة أن سماح لم يكن كعادته، فقد كان يستعجل العودة إلى أمريكا بأعذار كثيرة كان يقبلها كما تقبلها أمه.

لطالما اعتذر لهما بضرورة أن يكون على مقربة من أستاذه الذي يشرف عليه في رسالته، وكان يعتقد بأن ما يقوله ابنه هو الصدق بعينه.

أما اليوم فهناك أكثر من دليل يشعره بأنه لم يكن صادقاً في كل الذي قال. أو يمكن أن يبيع الابن أباه وأمه وأسرته من أجل أنثى أو أن في الموضوع ما هو أكبر من ذلك؟

قد يكون ابنه قد بنى بامرأة وإن هذه المرأة قد أنجبت له أولاداً، ولهذا السبب فهو لا يستطيع أن يفارق أولاده، لأن زوجته لا ترغب في المجيء، أو لأنه يهاب أن يقف مثل هذا الموقف أمامه وأمام أمه وابنة عمه.

وارتاح بعض الشيء لهذا التفسير، ولهذا فسيكتب له من الغد وبكل صراحة، وسيطالبه في رسالة بأن يشرح له أسباب هذا التقاعس في العودة والرغبة في البقاء.

وسيطلب منه أن يأتي بزوجته وأولاده، إن كان قد تزوج أو رزق بأولاد، وسيحاول كل شيء من أجل أن يعود الغائب، ولكن!!

أيمكن أن ينسى سماح سهاد ابنة أخيه التي هي بمثابة ابنته؟ لقد مات أبوها وتركها أمانة في عنقه. ترى كيف سيكون الأمر بالنسبة إليها إذا تحققت جميع ظنونه؟ وأحس بالألم يكاد يمزق فؤاده، فهو يحبها ويعرف كم تحب سهاد ابن عمها سماح، وهي تحلم بذلك اليوم الذي تزف فيه إليه، وتعيش وتشقى من أجل تلك الليلة.

قد تضيق الدنيا ببعض أولئك الذين اختارتهم الحياة، ليكونوا هدفاً لها تتقاذفهم كما تتقاذف الرياح أوراق الطريق الحائرة.

وهو يشعر بأن تقاليد أسرته وبيئته قد اهتزت جميع مقوماتها، وبدت أشبه ببيت تصطفق أبوابه نتيجة هبوب العواصف والأنواء التي أطلق سراحها ابنه سماح من كل جانب. وهو يسعى لأن يزيل كل هذا الألم الذي ستمتد آثاره إلى أفراد العائلة بأسرها، إن لم يفعل شيئاً.

سيتحدث إلى سهاد بصراحته التي تعهدها، فهو يؤمن برجاحة عقلها وقدرتها على التفكير، ولهذا سيأتمنها على ما يجول بخاطره، ويقاسمها آلامه، فلربما استطاعت أن تنير الطريق أمامه بما أوتيت من حكمة وقدرة على الصبر والمصابرة.

وارتاحت نفسه وهدأت بعض الشيء، فقد توصل أخيراً إلى الخيط الذي يمكن له من خلاله أن يصل إلى هدفه، ونام ملء جفنيه حتى إذا ما فتح عينيه على صوت سهاد وهي تقدم القهوة إليه قال لها:

ـ أو تدرين يا سهاد كم أنا مهموم ومتعب؟ لدرجة أحس بأن من الضروري أن يشاركني في همومي إنسان مثلك.

وأجابت سهاد:

ـ قل يا عماه فعساني أتمكن من دفع هذا الضيق الذي أراه يلازمك هذه الأيام.

وأجابها:

ـ أو تكتمين السر فلا تقولين لأم سماح شيئاً؟

وأجابت سهاد:

ـ هذا يعود إلى رغبتك أنت يا عمي!

ـ إذن اقرئي.

ودفع إليها برسالة سماح، بينما أخذت عيناه ترمقان وجهها وكأنه يرغب أن يعرف أثر ما تقرأه.

لكن سهاد كانت أقدر على ضبط انفعالاتها فمضت تقرأ الرسالة بهدوء، وكأن الأمر لا يعني شيئاً، حتى إذا ما أتمتها قالت:

ـ وما هو رأيك يا عماه؟

ـ إذا شئت الحقيقة، قد يكون في الأمر فتاة يا سهاد، وهذا كما تعرفين يؤلمني كما يؤلمك.

وأطرقت سهاد رأسها إلى الأرض ثم قالت:

ـ ليكن ذلك، المهم أن يعود سماح.

وأجابها بهدوء:

ـ هذا ما أفكر فيه، لكن كيف ذلك؟ هذا هو الذي لا أدريه. قد تستطيعين مساعدتي يا ابنتي في هذا الأمر؟

وأجابت سهاد:

ـ الأمر في نظري غاية في البساطة، لماذا لا تسافر يا عمي إلى أمريكا، وترى سماح دون أن يعرف بقدومك، وعندها ستكتشف جميع تفاصيل المشكلة أمام ناظريك؟

وأجاب عمها:

ـ حسناً تقولين، فهذا الرأي في نظري هو الطريقة التي يمكن أن تعطيني الحقيقة. سأتدبر أمري من الغد، وسأسافر لأرى سماح، وأتعرف إلى جوانب الأمور كلها بنفسي. لكن أو لست متكدرة الخاطر يا سهاد؟

ـ وهل يمكن أن يغير كدري أو انزعاجي من حقيقة الأمر شيئاً؟ لقد أراد سماح أن يبقى، وهو في هذه الرغبة كما يبدو من رسالته جاد جداً، وهذا يعني أنه لا يريدني.

وصمتت لحظة ثم أردفت:

ـ لكننا جميعاً نريده.

قالها عمها في صوت مبحوح.

ـ نعم هذا صحيح، لكنني أفكر في شيء واحد فقط، هو كيف يعود سماح إليك وإليها فأنتما أحق مني به مهما كان الأمر.

ـ سأدع الأيام تدمل جراح هذا القلب، أنا التي كنت النظرة الشاردة، التي أبدتها سهاد وهي لا تدري.

لكن دمعة رقيقة انحدرت على وجنتيها في صمت وكأنها تترجم أحاسيسها كلها، وتجمعها في تلك الدمعة، جعلت عمها يحس بآلام الدنيا كلها تتجمع بتلك اللحظة من خلال النظرة الشاردة، التي أبدتها سهاد وهي لا تدري.

ـ سهاد يا بنيتي لا تدعي الحزن يشغل حيزاً كبيراً من تفكيرك، فنحن لا نعرف من أمر سماح شيئاً، وعندما نعرف سيكون لكل حادثة حديث.

قال عمها.

لكن سهاد أجابت:

ـ لا عليك يا عماه، فسماح اليوم وغداً ليس لي مهما كان الأمر، لأنني أحاول أن لا أدع طيفه يتسلل إلى قلبي بعد كل الذي قرأت، ومع هذا فأنا أود ومن كل قلبي عودته إليك، ولو كانت هذه العودة برفقة زوجته وأولاده أيضاً، لأنه ابن عمي، وهذا أمر لا يمكن أن أنساه.

ـ أنت أصيلة يا سهاد.

قالها عمها ومضى يرتب أمره لرحلة طويلة، بعد أن رجا سهاد أن لا تذكر حقيقة ومكان الرحلة، لأنه قد عقد العزم إلى مداهمة ابنه في معمله، والتعرف على المشكلة بصورة مباشرة.

ترى كيف سيكون لقاؤه بسماح هذا الذي سهد ليله وأرقه؟

وتنهد من أعماق قلبه وقال:

ـ سامحك الله يا سماح، فلقد كنت أظنك أكثر رجاحة عقل، فلا تدفع بي إلى ركوب كل هذه الصعاب. قد يكون عزوفه عن السفر شيئاً لازم حياته كلها، أما اليوم فسفره إلى أمريكا أصبح أكثر ضرورة. سيتجه رأساً إلى عنوان ابنه إلى

«دنفر»، وسيرى بنفسه فيما إذا كانت هناك امرأة، هي السبب في هذا القرار. ولكن ماذا سيفعل إذا كان الأمر كذلك؟

وجاء الجواب هذه المرة على لسانه مفاجئاً.

سيقبل الأمر الواقع، وسيطالبه وزوجته وأولاده إذا كان الأمر كذلك بالعودة، فهو يعرف بأن علاج الخطأ لا يمكن أن يتم بخطأ جديد.

وهو ليس على استعداد لأن يخطئ بمقدار ما هو مستعد لتحمل أخطاء سماح. ترى أو يدرك الإنسان إنه في كثير من الأحيان عرضة لأن يغير أفكاره مثل ما يغير ملابسه؟

لو قال له سماح إنه سيتزوج بأجنبية، لأقام الدنيا وأقعدها عليه، ومع هذا، وبعد أن قرأ رسالته الأخيرة، يجد نفسه موافقاً على زواجه إذا كان أو لم يكن، فهو لا يمكن أن يقبل بفراق ابنه على هذا الشكل بهذه الصورة.

ويواصل رحلته من جدة إلى باريس، ومنها إلى نيويورك فدنفر، مخترقاً مدناً وقرى كثيرة لا يدري من أمرها شيئاً لأنه في حالة ذهنية لا تسمح له باستيعاب تحركاته.

وعندما حطت به الطائرة في مطار «دنفر»، انطلق إلى عنوانه ابنه ليفاجأ بأنه قد غادر شقته إلى مكان آخر. وبعد أن أمضى أكثر من ست ساعات يتنقل هنا وهناك بين عناوين أصدقاء سماح، توصل أخيراً إلى بيت ابنه، على مقربة من مشارف المدينة.

كان البيت أشبه بفيلا أمريكية، رآها كثيراً في صور المجلات، تحيط بها حديقة خضراء، يلعب في فنائها طفل في السادسة وطفلة في الرابعة من العمر، رأى فيهما صورة ابنه رغم ملامحهما الغربية.

ولقد أدرك الصبي لهفة الغريب، فجاء ليسأله عن طلبه، لكنه لم يجب، بل سأل الطفل عن اسمه، واسم الطفلة، فقال له بالانجليزية:

ـ اسمها سهاد، أما أنا فاسمي شريف.

ـ وما اسم أبوك يا ولدي؟

ـ سماح.

قالها الطفل في براءة..

ـ وأين هو الآن؟

ـ في الكلية، رافق والدتي لكن من أنت يا سيدي؟

ـ أنا.

ورددها وكأنه يخاف أن ينطق باسمه:

ـ أنا جدك والد سماح..

ـ أنت إذن جدي حسن؟

ـ نعم ولكن كيف عرفت باسمي؟

ـ من أبي فلطالما حدثني عنك.

ـ وكيف وجدتني؟

ـ أجمل مما ذكر وأصغر، فهو يخافك كثيراً، لكن نحن لا.

ونادى أخته وأمسكا يده جدهما وأدخلاه البيت الذي فرغ من سكانه، ومضيا يريانه غرفه بكل ما فيها، وكأنهما قد التقيا بعزيز غائب قد عاد.

وانهمك الطفل والطفلة في إحاطة جدهما بحبهما البريء، أما هو فقد أخذ ينظر إلى المكان وكأنه يبحث عن السبب الذي جعل سماح ينسى سهاد ويتزوج أمهما، فلم يجد سوى مجموعة من الشهادات العلمية، وقد علقت في الصالون، وكلها تنطق بقدرة مارغريت العلمية.

وعندما التقت عيناه بصورتها أحس بأنها امرأة ليست غريبة، مكتملة الأنوثة ناضجة التفكير، هكذا رآها لأول وهلة من صورتها وعسى أن لا تكذب الحقيقة ما ارتسم في مخيلته من صور.

لكن الطفل قطع عليه تأملاته قائلاً:

ـ لماذا يا جدي لا ترضى عن زواج أبي؟

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ سمعت أبي يحادث أمي في هذا الشأن أكثر من مرة..

ـ لا عليك، فأنا إنما جئت لآخذك أنت وأختك وأمك وأبيك إلى وطننا يا

ولدي . .

ـ صحيح يا جدي.

قالها الطفل، وهو يصفق بيديه فرحاً . .

ـ إذن سنرى وطننا معك؟

ـ نعم.

قالها الجد بهدوء، في الوقت الذي فتح فيه الباب ودخل إلى الغرفة سماح وزوجته. وسرعان ما ألقى سماح بوجهه على صدر أبيه قائلاً:

ـ عفوك يا أبي، فلم أرد إزعاجك إلى هذا الحد.

ـ لا بأس عليك يا ولدي، لكن ألا ترى بأن اللياقة تقضي أن تعرفني إليها، أعني زوجتك؟

وابتسم سماح وقال:

ـ إذن عرفت أسباب المشكلة؟

ـ نعم عرفتها ونسيتها، ولهذا جئت إليك، فنحن نأمل بل كلهم هناك يأملون أن يرونا جميعاً بينهم في أقرب وأقصر وقت ممكن.

وأجاب سماح:

ـ الدكتورة مرغريت أستاذة قسم الذرة في جامعة «دنفر» زوجتي.

والتفت إلى زوجته وقال:

ـ وهذا هو والدي، الذي تحدثت لك عنه كثيراً.

وابتسمت الدكتورة مرغريت وقالت:

ـ كنا نود لو استقبلناك في المطار، لكنك لم تمنحنا هذا الشرف.

لكن حسن قال:

ـ لا بأس. أعرف أنكما مرتبطان بأعمالكما، فلم أرد إزعاجكما وجئت بنفسي لأكون في استقبالكما، فأنا مشوق لأن أرى زوجة ابني وأطفاله.

وأجابت مرغريت:

ـ وكيف رأيت حفيديك؟

ـ على ما أحب وأرغب، لدرجة جعلتني أحس بأنني أرى سماح وهو صغير.

وأشار إلى حفيده بيده:

ـ أما هذه فصورة لأم سماح، أو ليس كذلك يا سماح؟

ـ نعم يا أبي..

ـ والآن أريد أن أتحدث إلى زوجتك، فأنا أشعر أنها أكثر قدرة على فهم مشاعري منك..

لقد أثارت رسالتك في نفسي الكثير من الألم، لأنني لم أكن أظن بأنك ستفكر في يوم من الأيام بأن تكون بعيداً عن وطنك وأسرتك إلى الأبد.

ـ ومن قال ذلك يا أبي؟

ـ أنت قلتها بلا مواربة، ورفضت أن ترد على رسائلي التي كنت أبعث بها إليك، وكان بإمكانك أن تخبرني بما صنعت.

ـ لو أخبرتك يا أبي بعزمي على الزواج لما وافقت، فرأيت أن أعمد إلى هذه الطريقة، علها تجعلك قادراً على فهم ما صنعت عن طريق المواجهة. وها أنت قد فهمتها.

وأكمل:

ـ ثق بأننا أيضاً ننتظر قدومك لتقضي معنا بضعة أسابيع هنا، نبحث خلالها أمورنا ثم نعود.

ـ وبرفقتي يا سماح..

ـ وسهاد ماذا سيكون شأنها؟

ـ إذا قلت إنني أستطيع أن أجيب على هذا السؤال أكون غير صادق معك ومع نفسي، ولكنني أؤمن بأنك أنت القادر على إفهامها حقيقة ما جرى قبل أن تعود، فأنا أكره أن تحمل المسكينة لي في قلبها أية ضغينة.

ـ لا بأس عليك فلقد هيأتها نفسياً لكل هذا الذي رأيت، وكأنني اقرأ كتاباً مفتوحاً.

ـ وماذا قالت سهاد يا أبي؟

ـ لا شيء سوى أملها أن تعود لنا، ولنا وحدنا، يا ولدي الحبيب.

وأطرق سماح برأسه قليلاً، ثم قال:

ـ كم هي كبيرة القلب تفرض احترامها على الجميع.

وصمت لكن زوجته سألته:

ـ من هي هذه يا سماح؟

ـ سهاد ابنة عمي التي حدثتك عنها طويلاً...

ونظرت مرغريت إلى زوجها ثم قالت:

ـ كم أنا مشوقة للقائها لكثرة ما سمعت منك عنها.

ونظر الأب إلى ابنه وكأنه يسائله عما قاله عن المسكينة، لكن سماح قال لوالده بهدوء:

ـ ثق أنني لم أخف عنها شيئاً، بل أخبرتها بكل شيء، وعلى هذا فهي تعرف أن سهاد كان يمكنها أن تكون مكانها في هذا البيت. لكن ظروف الحياة قد تغير كثيراً من المفاهيم، فأنا اليوم بحاجة إليها ـ وأشار إلى زوجته ـ لا لأنها زوجة وإنما كزميلة يمكن أن تساعدني على أداء رسالتي تجاه ما صممت عليه. فبلادي يا أبي بحاجة لنا أكثر وأكثر نحن الذين يمكن أن نكون في المستقبل أداة نفع لا بأس بها.

وضحك من أعماقه ومضى يقبل رأس أبيه، وكأنه يعتذر عن كل ما صنع، لكن والده كان ينظر في تلك اللحظة إلى حفيده ويداعبه ثم يقول:

ـ آمل أن لا تفعلها أنت الآخر مع أبيك عندما تكبر، تتزوج وتنجب دون أن تدعوه..

لكن شريف لم يسكت وإنما تساءل في براءة:

ـ ولماذا فعل ذلك أبي يا جدي؟ أما كان الأجدر به أن يخبرك؟

وأجابه جده بجدية وكأنه يريد أن ينهي الحديث:

ـ قد تكون ظروف والدك هي التي لم تمنحه الفرصة لدعوتي ـ أنا جدك ـ لحضور زفافه.

والتفت الطفل إلى أبيه بسذاجة وقال:

- آمل أن لا تتزوج مرة أخرى يا أبي دون أن تخبر جدي بما عزمت.

وضحك فضحكت أمه وقالت:

- أو تريد أباك أن يتزوج مرة أخرى غير أمك؟

وقال الطفل في هذه المرة وبعفوية:

- لا يا أماه، أولا يكفيه أنك أنت زوجته؟

- إذن لماذا قلت ما قلت لجدك؟

أجاب الطفل مرة ثانية وهو يضحك:

- مجرد كلام يا أماه جاء على لساني فقلته إرضاء لجدي حتى يرضى ويأخذنا معه، فأنا مشوق لرؤية جدتي أيضاً، وبلادي التي لم أرها بعد. يقولون عنها هنا إنها بلاد البترول، لكن والدي يقول عنها بأنها أرض الحب، والأمن والاستقرار، وهذا ما يجعلني أحلم بأن أعيش هناك، على أرضها في حب وأمان.

الفراغ

ويتوه في الزحام بين المناكب الشابة التي أخذت طريقها بقوة، وبين الأعداد الكبيرة من الناس الذين بادروا منذ الصباح الباكر متجهين إلى أعمالهم وكان كل واحد منهم في عجلة من أمره إلا هو، فلا شيء يهمه سوى أن يسير في الطريق بلا هدف ولا غاية، فالفراغ الذي تركته أسرته بغيابها الطويل، جعله يحن لأن يلتقي بوجوه الناس، يتحدث إليهم بنفسه عن قرب.

كثيراً ما يحلو للإنسان أن يكون مجرد رقم، رقم صغير، يضيع بين مئات الأرقام. وهو في الطريق يحاول أن يتفلسف مع نفسه في حديث طويل، لم يعده هو بمقدار ما جاء عفو الخاطر، هكذا فجأة، لكنه يراه يطل عبر ذاكرته بإصرار لا يدري كنهه. فلقد حاول كثيراً أن يبعد عن نفسه كل تلك الهمسات التي كانت توسوس في أعماق أعماقه في صبر وأناة.

ترى لماذا يحاول بعض الناس التجاوب مع أفكارهم رغم أنها قد تكون مغايرة لكل ذلك الذي عرفوه ولمسوه طيلة حياتهم؟

وألقى بناظريه على أقرب معرض، ليرى كيف تتجمع النساء في هذا الصباح الباكر حول أشياء كثيرة تافهة، ربما كانت متوفرة في بيوتهن وربما لا.

ومن المثير أن حمى الشراء قد لسعته هو، فمضى يدخل إلى المعرض لشراء أول شيء تراه عيناه، حتى إذا ما وضعه البائع في يده، نظر إليه بلا مبالاة وهو لا يدري لماذا قام بشرائه.

كانت زوجته تكفيه عناء شراء مثل هذه الأشياء، أما اليوم فهو

يعيش وحيداً تفصل بينها وبينه آلاف الأميال. فلقد اختارت زوجته برضاه أن تظل مع ابنيها في «فورت كولنز» بولاية «كولورادو» حيث اختارا دراسة الهندسة النووية.

وهو كزوجته يحب ولديه، ولا يرضى لهما أن يبعدا عنه، لكن ظروف تعليمهما قضت أن يذهبا، وأن تذهب معهما أمهما، زوجته التي أحب.

ولقد تحدثت إليه زوجته عبر جهاز التلفون حديثاً طويلاً حاولت خلاله أن تقارن بين هذه القرية التي يعيش سكانها على خدمة طلاب الجامعة، وبين مدينة الطائف. ولقد أحس بمعاني الدهشة تطل من بين نبرات صوتها، وهي تصف برودة الجو لدرجة جعلته ينسى كل ما عرفه عن أجواء العالم.

وهو يذكر حديثها كلمة كلمة يطن ويرن صداه في أذنيه، هو الذي يعرف زوجته، ويعرف أنها كانت تأبى أن تغادر مدينة جدة يوم كان الأولاد في مدارسهم وجامعاتهم.

كان كل الذي يهمها، أن تمضي أيام الصيف في مدينة الطائف، على مقربة من برحة بني العباسي في بيتها القديم الذي ورثته عن أمها، ورفضت هدمه أو إعادة بنائه.

فقد كانت تحافظ على كل ما تبقى لها من حاجيات وأدوات كانت أمها تستخدمها، حتى مشطها الخشبي، كان مشطها المفضل تسرح به شعرها بقسوة.

كيف تسنى لهذه المرأة أن تتركه وتمضي مع ولديها؟ أهو الخوف عليهما من الحياة التي سيعيشانها، أم الحب الذي حدا بها لأن تجعلهما في ركابها دائماً؟

وهل ستصبح عبئاً على الولدين اللذين تعرف حاجتهما إلى التفرغ؟ فدراسة الذرة ليست أمراً سهلاً، وإنما علم اختاراه عن رغبة، فقد كانا يرغبان في نوع من العلم، يستطيعان أن يبرزا فيه وقد كان ما أراداه.

ويتوه في الزحام مرة أخرى، وكأنه في رحلة الزحام هذه يحاول أن يدفع عن نفسه وقلبه وعقله أفكاراً كثيرة تراوده، وتطرح نفسها عليه، لتكون في

مواجهته بقوالبها العادية، وغير العادية. وينظر إلى واحد من أصدقائه قدم له يده مصافحاً ليشدها في هدوء ثم يمضي.

ربما يعرف هذا الإنسان، هذا الرقم، لكن اسمه ورقمه سقطا حتماً من ذاكرته، وإلا لاستطاع معرفته، رغم إحساسه بأنه صديقه.

هل يستطيع الإنسان أن يستمر وفق إحساساته ونوازعه؟ أم أن الأمر يحتاج إلى سيطرة عقلية وجدانية يتسنى للمرء بعدها أن يصل إلى غايته بأسلوب من يدرك الطريق، وقساوة الطريق، ورفاهية الحياة ونعومتها؟

أشياء كثيرة تراود مخيلته، تطل من بين عينيه رؤى صامتة ومتحركة، وهو في الطريق والطريق مليء بالناس، جلهم جاء لأمر معين وبعضهم مثله لا يدري ماذا يريد.

لقد هرب من فراغ الحياة وقسوة هذا الفراغ على نفسه، فلقد كان يعيش في بيته سعيداً بأسرته تملأ جوانح نفسه أفكاراً كثيرة، وقد استطاع أن يبني نفسه، ويبني معها هذا البيت على قواعد قوية، حتى إذا ما شب ولداه عن الطوق، سارع لمنحهما جميع أسباب السعادة، لم يحرمهما من حبه وحنانه، كان جل هدفه أن يشقا طريقهما في الحياة بسواعدهما.

وهو يذكر يوم تخرج ولداه من جامعة الملك عبد العزيز، فلقد حضر هذا الاحتفال المهيب الذي شارك فيه معه صفوة من أصدقائه، جاؤوا برفقته ليروا هشام وحسام (التوأمين) اللذين أحبهما، ينالان شهادة البكالوريوس في الهندسة النووية، بتفوق مع درجة الشرف الأولى.

وأحس بالصالة تضيق أرجاؤها بحرارة التصفيق الذي انبثق من جميع المدرجات، كان جله وافداً من مدرجات الطلبة وزملاء ولديه اللذين أحس أنهما لا يمشيان على الأرض بالعباءة الجامعية السوداء، وإنما يقفزان في الهواء، لتلتقي أعينهما بعينيه اللتين طفرتا بدموع فرح انحدرت كلؤلؤ أصيل، أحس بها وهي تضفي بلسعتها الحارة فرحة جديدة تغمر قلبه، هو الذي لم يشارف على متوسط العقد الخامس.

وهز رأسه عندما سمع صديقه يقول له:

ـ لقد كبر الأولاد يا صديقي، وأصبحنا ننحدر إلى سن الشيخوخة بسرعة.

لكنه لم يرد على صديقه، وإنما ابتسم، ومن كل قلبه وقال لنفسه:

«صحيح عندما يقول الناس لا شيء يفرح في الدنيا ويسعد أكثر من لذة الانتصار، كما أن منتهى النصر أن يصل أولادنا إلى أهدافهم بجدارة».

وهو يعرف بأنه لو خير ساعتها بين كنوز الدنيا وأموالها لهانت كل هذه الكنوز أمام ما ناله ولداه من مجد علمي، قفز بهما كل الحواجز.

وانحسر التصفيق بعد فترة غير قصيرة، وسرحت عيناه فشاهد طوابير المتخرجين، وفي ذهنه أنهم كلهم أولاده.

أوليسوا هم أبناء هذه الأرض التي أنبتت على شطآنها بوادر الخير؟ وتفتحت على سهولها زهور الياسمين؟ وعلى جبالها الخزامى والشيح والكاري؟

قد يحب الآباء أولادهم، هذا أمر لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أو يصيبه شيء من الوهم، لكن كل حب هؤلاء الآباء لأبنائهم، لن يكون في المستوى الذي أحب به هو أولاده. فلقد كان ينسى نفسه وأحلامه وأمانيه، وكل شيء في هذه الدنيا عندما يرى على وجه أحدهما شيئاً من السأم أو الضجر.

ولقد حاول أن يجنبهما جميع ظروف الحزن، حتى عندما مات أبوه في مدينته التي ولد، ذهب مع زوجته لتشييع جثمانه دون أن يقول لهما عنه أية كلمة.

لقد داهم الحزن قلبه يوم موت أبيه، لكنه لم يرض أن يشارك ولداه في هذا الحزن، لدرجة جعلته يخفي أمر وفاة جدهما، رغم إلحاحهما في أن يرياه، فلقد تعودا أن يزوراه في المدينة، وأن يراهما هو في جدة، وعندما غاب عنهما أفهمهما أنه على سفر.

أوليس الذين يموتون على سفر دائم؟ كثيراً ما يفتقد الإنسان أكثر الناس التصاقاً به، يفتقدهم بالموت وبالغياب الطويل والقصير معاً، ويبكي بحرقة، ثم ينسى في غمرة انشغاله بأمور هذه الدنيا كل هؤلاء.

قد تكون هذه سنة الحياة، ليعيش الإنسان على هذه الأرض وإلا لما أمكن

لكل هؤلاء الذين يمرون أمام عينيه في الطريق، أن يؤدوا واجبهم تجاه الأرض التي يعيشون عليها.

ويوم عرف ولداه بوفاة جدهما، أصيبا بما يشبه الانهيار، لأنهما كانا على حب كبير له لما كان يغمرهما به من صادق الأحاسيس. فأبوه من أولئك الرجال الذين يتركون بصمات الحب على قلوب معارفهم، وأصدقائهم، وأسرهم بشكل خاص.

ترى لماذا يذكر كل هذا؟ أو يهاب الموت؟ ومن منا من لا يهاب الموت، ويخشى ذكراه؟ أم أن السبب في خفقان قلبه أن يموت هو بعيداً عن زوجته وولديه؟

لكن الحياة، حياة الإنسان أشبه بالسراج الوهاج، الذي لا يمكن أن ينطفىء دون أن تنتهي آخر قطرة من الزيت الذي يحمله.

لقد أراد الله لهؤلاء الناس جميعاً أن يظلوا بعيداً عن معرفة اليوم الأخير في حياتهم، ولهذا نراهم يغرقون في طلب الدنيا، ولا ينسى أكثرهم أن يكون في طلب الآخرة أيضاً.

أوليس هذا الأمر بالنسبة إليه محل تفكير؟ لكن ما يشغل باله هو أنه وحيد يهيم على وجهه في هذه الدنيا، يختلس النظر إلى أولئك الذين يسيرون بحيوية، وكأنهم في رحلة تسلية.

والطريق يزدحم بالمناكب الشابة التي أخذت تمضي في مسيرتها بقوة واعتداد، وهو يمشي هنا وهناك بلا هدف ولا غاية، سوى أن ينأى بنفسه ولو قليلاً عن الفراغ الذي يحيط به من كل جانب.

وترتفع شتى التساؤلات بينه وبين نفسه. لماذا يظل هكذا يعيش في هذا الفراغ الذي يكره؟ أوليس بإمكانه أن يذهب هو الآخر إلى حيث تقطن زوجته وولداه؟

ويمتد صمته بعض الوقت، لا لأنه كان يفكر في هذا الذي يقوله، وإنما لأنه يعرف بأن الجواب عن هذا التساؤل يكمن في أن هناك روابط كثيرة تشده إلى هذه الأرض، وتمنعه أن يطيل بقاءه في «فورت كولينز» كما فعلت زوجته.

فالإنسان مهما حاول تبسيط ظروفه وأوضاعه، يجد نفسه غير قادر عن الانفكاك عن حياة مارسها طيلة سنوات طويلة.

وهو من أولئك الذين تتشابك مصالحهم مع ظروف تواجدهم على الأرض التي عاشوا عليها، ولهذا يجد من الصعوبة بمكان أن يصنع مثل ما صنعت، وتعود به قدماه إلى الفراغ الذي أحب وكره في آن واحد.

ففي كل ركن من هذا البيت له ذكرى، لملمها في أعماق أعماق نفسه طوال كل هذه السنوات.

أتراه يمكن أن ينسى أويقات السعادة وساعات الصفاء؟ وهل يمكن أن يحيل الفراغ الذي يحسه والوحشة التي تلم بالبيت بكل تلك الذكريات الجميلة؟ لا يدري، لكنه يعرف أنه متشوق لأن ينهي هذه الوحدة بأية طريقة.

وأدار مفتاح «التلفزيون» ليجيء برنامجه المفضل، ففي قصص الأنبياء أشياء كثيرة قرأها وهو صغير، وأحبها وهو يراها تمثل في حلقات.

لقد أعجبه كثيراً تمثيل بعضهم لولا الكثير من الهيئات، فهو يؤمن بأن مثل هذه البرامج يجب أن تعطى مزيداً من العناية لتأتي صورة قادرة على إيصال ما أراده التاريخ، ذلك الذي لا يزال أكثره يعيش في بواطن الكتب.

وامتدت يده بلا وعي إلى أحد «الألبومات» الكثيرة، لتصافحه صورة أولاده في أوضاع وأعمار مختلفة، لكنها كانت كلها سجلاً فريداً لأجمل أوقات الصفاء والسعادة.

وأخذ ينظر إلى الصور في وله عجيب، وكأنه يعيش في تلك اللحظة كل لحظات السعادة لدرجة نسي فيها الفراغ والوحدة، واستغرق جل وقته في ترديد أغنيته التي سمعها صغيراً يوم كان يعيش هناك في المدينة مع والديه، وارتفع صوته بمقاطع حلوة أحسها كذلك، لولا أن صوته الأجش بدا له مغايراً لصوت الصبا.

أين صوت «عبد الوهاب» صاحب هذه الأغنية من هذا الصوت الذي يردد هذه الأغنية بشكل لا يمكن أن يغاير اللحن وإن بدا الصوت مهدجاً بعض الشيء؟

وانبسطت أساريره عندما أدار مفتاح المذياع، لتأتي الأغنية نفسها وكأنه على موعد مع الليل، وأدخلت إلى نفسه نشوة عارمة، وهو يتذوق كلمات الأغنية:

«عندما يأتي المساء ونجوم الليل تظهر.

اسألوا الليل عن نجمي متى نجمي يظهر».

وشرع باب «البلكونة» ليطل منها على الحديقة التي امتلأت عن آخرها بأشجار عالية، أرادها لتحجب عن أسرته وبيته الأنظار.

وطالع السماء ليجد نجمة صغيرة تلمع من بعيد، وكأنها ترمقه بنظرة لاهية، فأحس بالكثير الكثير من الراحة.

واستلقى على الأريكة الصغيرة يرمق الأفق في نهم بالغ، فلقد طلق منذ أن سافرت زوجته وولداه هذه الجلسة، حتى إذا ما أوغل الليل، جاءه صوت صديقه يناديه من خارج السور في لهفة جعلته يعدو على سلالم البيت ليلتقي بوجهه وهو يضحك قائلاً:

ـ كنت أخاف أن لا أجدك فالليل يكاد ينتصف، وأنا كما تعرف أخشى أن أنام بمفردي في بيتي بعد أن هجرته زوجتي، فهل تقبلني ضيفك الليلة؟

وهز برأسه إيجاباً وقال:

ـ تفضل، ولكن أين ذهبت زوجتك؟

وأجابه صديقه في سخرية:

ـ إلى إحدى بناتها، فأنت تعرف بأنني كما تسميني ـ أبو البنات ـ وقد تزوجن جميعاً وبقيت معها بمفردي، لكن حمى الولادة صارت تجذبها إلى بيوت بناتها. لقد حملت همومهن صغاراً، وهأنذا أحمل أو بالأحرى تحملني زوجتي همومهن بعد أن كبرن وتزوجن، وغدا سنحمل همّ أولادهن.

وضحك، لكنه لم يضحك، وإنما قال:

ـ تلك هي الحياة يا صديقي، يزرع آباؤنا لنأكل، ونزرع ليأكلون.

ومضى هو وصديقه إلى داخل البيت، وإحساسات السعادة تغمر وجهه، فهو على الأقل لم يطرق بعد بيت أي صديق.

وعاودته ابتسامته عندما عرف بأنه قد أخطأ بحق نفسه، وحق الكثير من الناس، فالإنسان لا يمكن في أي يوم من الأيام أن يكون مجرد رقم، ورقم صغير ما دامت كل هذه التضحيات، يقدمها كل واحد لأسرته ولمجتمعه وأبناء جلدته. فالإنسان هو الذي أورث هذه الأرض ليملأها عدلاً ومحبة وإيماناً وخيراً، ومطلوب منه أن يؤدي الأمانة على أكمل وجه.

وانفرجت أساريره عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير، وضحك من أعماقه وصديقه يرمقه في دهشة، لا يدري لماذا كل هذه القهقهات، حتى إذا ما انتهى من ضحكاته قال له:

ـ أو تدري أننا في الهم سواء؟ زوجتك تسافر هنا وهناك وراء بناتها، وزوجتي في أمريكا ترعى الصغيرين، وأنا هنا أرمق الأفق والطريق والزحام، وأنتظر لمّ الشمل يوم تأتي الإجازة.

ونظر إلى التقويم فعرف أنها جد قريبة، فبعد عشرين يوماً ستأتي زوجته وأولاده، وسيسعد بهم لفترة ثم يعود إلى الفراغ مرة ومرات.

ولكن على أمل اللقاء التالي.

موعد مع الحياة

كل شيء هادىء في المدينة الجميلة «أبها»، شوارعها الأنيقة تملأ ساحاتها وطرقاتها أضواء الكهرباء، التي أخذت مساراً جديداً لم تكن تعرفه.

السماء الصافية تملأ هي الأخرى المدينة بهجة على بهجتها. وهو في طريقه يجوب الشوارع والطرقات في رحلة طويلة بعد يوم أمضاه في دار والده على مقربة من الطريق الإسفلتي الممتد إلى خارج المدينة.

الجو يميل إلى البرودة، لكنه لا يشعر ببرودة الجو وهو الذي عايش المدينة سنوات طفولته، وأيام صباه، يوم كان يتلقى العلم في مدارسها آنذاك.

كانت المدينة أشبه بقرية صغيرة، تتعالى من حولها الأبنية الحجرية والطينية، في نظام بديع، يراه اليوم يشمخ بين مختلف أنواع العمران الذي ساد المدينة.

وتطوف به الذكريات عبر سنوات طويلة مضت، وهو في ديار الغربة حتى إذا ما قدر له أن يعود، عاود الغربة إلى غربة أقل وطأة، لأنه وإن لم يقدر له أن يعود إلى مدينته، إلا أن سنواته التي أمضاها في مدينة الخبر كانت كافية لتلهب شوقه لرؤية مسقط رأسه ومرتع لهوه يوم كان طفلاً صغيراً.

أو يمكن أن تتغير الحال هكذا فجأة، فتنسى المدينة وتكبر، كما تنمو الأشجار الأصيلة وتكبر فروعها، ويشتد ساقها، ويمتد جذعها ويرسخ؟

أم إن مانعاً كان وفق خطة لم يدركها لأنه كان بعيداً عن مدينته، عن مسقط رأسه الذي أحب؟

لطالما أحس بالحنين لرؤية كل جزء من أجزاء هذه المدينة. .

فهو يذكر كل شيء في المدينة القديمة، ويتوق إلى رؤية مصافي النحل العتيقة، ليجدها لا تزال هي أيضاً على ما كانت عليه، أم أن يد التطور قد امتدت هي الأخرى، لتعطي هذه المصافي أسلوب عمل جديد غير الذي يعرف؟

والناس البسطاء من جيرانه هم الآخرون أين أصبحوا؟

أيمكن للسنوات أن تفرق شمل الكثيرين، أولئك الذين عاشوا في هذه المدينة وبين أسرهم وفي بيوتهم؟

وأسواق المدينة، هل لا تزال على أسمائها كما كانت؟

فهو يذكر سوق الخميس، باعتباره الفرصة الوحيدة التي يستطيع من خلالها ولوجه، والتعرف إلى أهله وناسه.

ولكن قد تتغير أشكال الناس ومظاهرهم وتبقى سحناتهم كما هي، رغم طراوة العيش، تعلن بإصرار عنيد معان كثيرة يلمسها ويراها تطل من بين الوجوه الممضة التي عايشت قسوة الحياة، يوم كانت الحياة في مدينته عملاً يدوياً محضاً.

ومع هذا يرى أن مظاهر الفرحة والاستبشار بالجديد تكاد تقفز من على صفحات هذه الوجوه السمر المعروفة التي كدها الدهر ثم جاء عليها الزمن فأعطاها من أطايب الحياة ما هي في حاجة إليه.

وهو يعرف كل هذا ويدركه، ويؤمن بأن يد التطور استطاعت أن تغرس في العقول الذكية معالم حياة جديدة، يراها وكأنها تكاد تحتوي القديم بجميع مظاهره، وإن لم تستطع أن تقضي على بعض تقاليده الطيبة.

لطالما افتقد صوت الحدري، والشحرور، وصوت الناي، والبوصي، أثناء رحلته الطويلة في ألمانيا. فأغاني الناس وموسيقاهم تعبر في حقيقتها عن أخلاقهم وعاداتهم، وهذه الأشياء لها جذور تاريخية عميقة لا يمكن أن تنسى

بسرعة، رغم ما يشاهده الإنسان من مختلف أنواع التجديد والحضارة.

وهو يميل إلى أغاني بلاده، ويعتقد أنها أقرب إلى قلبه من كل أغاني الدنيا، لكن هذا الحب لم يمنعه من أن يستمتع بأغاني الجاز، وموسيقى باخ، وبيتهوفن، وغيرهم من الفنانين العالميين.

لقد جمع عدة أشرطة تمثل مراحل مختلفة لأغاني طالما استمع إليها، لكن ما تبقى من هذه الأشرطة شريط واحد يجب أن يضيفه إلى مكتبته، هذا الشريط هو أغاني بلاده، الحدري، والمجرور، والموال، وناي الراعي الصيفي الذي استمتع به عندما كان على هذه الأرض.

أو يتشابه الناس في سحناتهم وصورهم، وإن اختلف المنبت؟ ذاك شيء يكاد يذكره ولا ينساه، ففي مدينة نابولي وعلى مقربة من شاطئها الأزرق، التقى بصورة ناطقة لصديقه حمد الذي عرفه.

أحس بالسعادة لرؤياه، حتى إذا ما اقترب منه، وتحدث إليه وجده لا يعرف أية كلمة مما قاله. ولقد حاول يومها أن يتحدث معه بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، لكن هذا الآخر لم يكن يعرف سوى لغة قومه الإيطالية، فساهم أحدهم في نقل حديثه إليه الذي جعله يعود بذاكرته إلى المثل الذي يقول: «يخلق من الشبه أربعين».

لقد عرف من الفتى أنه من صقلية، وأن أجداد أجداده جاؤوا من باطن هذه الجزيرة، ولهذا ظلت سماته سمات ابنها ومن عاش على أرضها.

تتوالى الذكريات وهو في سيارته الفارهة، يتطلع إلى كل من حوله، ثم يقارن بين أرضه وجبالها وأوديتها وأشجار الزيتون المتعالية، والزهور البرية ذات الألوان المختلفة، وبين جنوب سويسرا، حيث تقع بحيرة كومو على مقربة من الجبال التي امتلأت قممها بأشجار كثيرة متنوعة الأصل والفروع، يعرف بعضها ولا يدري عن أكثرها شيئاً. وخرج من المقارنة بشيء واحد هو أن جبال بلده وأرضها وودیانها وأزهارها وسماءها وجوها أجمل وأحلى وأنضر من أي شيء في هذه الدنيا المترامية الأطراف.

يقولون عن بلاده بأنها صحراء قاحلة، وينسون ما تمتلىء به جبالها من خضرة وصفاء ونقاء جو وجمال، فهذه الأرض الطيبة التي تنحدر في استواء

على شكل مدرجات من أعلى الجبل إلى الوادي لا تختلف عن تلك التي رآها في سويسرا، وجنوب إيطاليا، وفي كلورادو بأمريكا، وغيرها من البلدان.

لكن إنسان هذه الأرض مزيج مغاير لكل أولئك الناس، فهو رغم ما يحيط به نفسه من مظاهر التطور والتقدم، يخلد دائماً للحفاظ على مثله في ظل إيمان عميق بضرورة المحافظة على كل تلك المثل.

لقد حدثه والده عن الطريقة التي يعالج بها التجار في هذه المدينة ضعف أحدهم وفقره، فيفرز كل واحد منهم جزءاً من تجارته ليكون ربحها لذلك الذي أصابه الضر، حتى إذا ما اجتمعت لديهم الكمية الكافية من النقود، دفعوا بها إلى صاحبهم ليعاود رحلته مع الحياة.

ترى ألا يزال حال التجار في بلده كما كان؟ أم أن ظروف الحياة وطغيان المادة أصاب نفوسهم بشروخ كبيرة أو صغيرة لا يهم؟

قد يكذب عندما يقول بأن الحياة في بلده لا تزال على ما كانت عليه، فقد شاب أجواءها أشياء جديدة بدت مع التطور فازداد تكالب بعض الناس على المادة، وانفرط عقد الأسرة نتيجة إحساسات بعضهم المرهقة تجاه هذه المادة، وإلا ماذا يقول عن تلك الأسرة التي عاشت سنواتها الطويلة في وفاق، حتى إذا ما مر الطريق الإسفلتي بالأرض الكبيرة التي يملكونها أصاب بعضهم السعار نتيجة ارتفاع قيمة سعر الأرض من جهة، ومطالب الحياة الجديدة من جهة أخرى، ووصلت حكاياهم إلى المحاكم؟

ترى لماذا يذكر كل هذا الآن، وهذا الجمال الرائع يحيط به من كل جانب، يدفع في صدره أماني وآمال طالما جاشت بها نفسه؟

فهو يرغب أن يرى أرضه ومدينته، صورة رائعة من صور تلك المدن والقرى التي رآها، ولكن بأسلوب آخر يتميز بالإيمان والقدرة على صنع الخير وعمل المعروف وإسداء النصيحة.

يقولون إن ضحايا المدينة في كل بلد من بلدان العالم تزداد نسبتهم وتقل حسب ظروف إنسان تلك المدينة أو ذلك البلد.

وهو يأمل أن تأخذ مدينته بكل أسباب المدنية والحضارة دون أن تدفع

ضريبة هذه المدنية أو هذا التطور، وإن دفعتها فليس على حساب تلك التقاليد التي عرفها صغيراً واستأنس بذكرها كبيراً.

ويرتفع صوت المذياع في السيارة الأنيقة، من محطة «مونت كارلو»، وهو يحب المحطة، لا المدينة التي يعرفها، فأصحاب تلك المحطة قادرون على اقتناص الكلمة بأسلوبهم الإعلامي المستنير، وقد يصح أن يقال عنهم إنهم تجار كلمة إذا صح هذا التعبير.

وابتسم في أعماق أعماقه عندما وصل إلى هذه النتيجة، بينما كانت كلمات المغنية الشابة تصل إلى أذنيه في إنجليزية سليمة. وتداعت جميع أفكاره وكأنها تحاول أن تجعله ينساها بعض الوقت ليستمع إلى كلمات الأغنية التي كانت في نظره جزءاً مكملاً لإحساساته.

كانت كلمات الأغنية مزيجاً فريداً من العاطفة المشبوبة المشوقة للجزيرة التي جاء منها، أو جاءت منها كاتبتها. وابتدأ صوت المغنية يوشوش «المايكرفون» ـ مكبر الصوت ـ في هدوء بالغ، بينما أخذت الموسيقى تصور هدير البحر، وقساوة الحياة، وضراوة الليل وحلاوة الناس، في تلك الجزيرة.

وتسلل الصوت الدافىء إلى أذنيه، معلناً ببساطة قصة تشبه قصته، وحياة تماثل حياته، كانت كلمات الأغنية تقول:

«ويعود الوافد الغريب إلى جزيرته.
ليرى أنها على عهده بها خضراء جميلة.
تغلف سماءها المحبة، ويقبل أقدامها الموج.
والناس في الطريق، لا هم لهم إلا أنهم في الطريق.
يملؤون طرقات المنحدرات..
بعضهم يلهو، وبعضهم يفكر.
هو وحده الذي جاء مع الفجر ليرقب الحياة على أرض الحياة».
ويصمت صوت المغنية لتعاود الموسيقى سيرتها ثم تكمل:
«سواد الليل يفقد ظلمته مع نجمات السماء الجميلة.
والقمر يبدو شاحباً وقد تسربل برداء.

نصف اكتسبه من ضباب الأمس. . .

والبحر يبدو هادئاً يعلن عن ترحيبه بالوافد الغريب، العائد إلى الجزيرة. .

فهو في الطريق يلتقي مع أحلامه وأمانيه. .

يقرؤها ككتاب مفتوح ليعرف ما تحقق منها وما لم يتحقق. .

والرياح الباردة تلهب وجهه برفق. .

وكأنها تدغدغ إحساسه الباطن ليذكر. .

ألطف الذكريات. .

تهدر كالأمواج في ظلمة الليل. .

تبحث عن المنفذ في دنيا جديدة. .

لا يدري الوافد الغريب الذي جاء إلى الجزيرة شيئاً عنها».

ويصمت صوت المغنية، لتعاود الموسيقى حديثاً صامتاً أحس بأنه أكثر وضوحاً من كلمات الأغنية.

وبدأ هو الآخر يغني بكلمات خالها بادىء ذي بدء غير مفهومة، لكنها كانت غير ذلك.

وأحس بحاجة إلى أن يكتب ما تقول، فجاءت كلماته على النسق التالي:

«ويعود الوافد الغريب إلى مدينته. .

وقد امتلأت نفسه سعادة. .

فالناس في مدينته على سابق عهدهم.

رغم ما أحاطهم من مظاهر ألفها ولم يحبها.

بسطاء يحبون أبناءهم ويعشقون حياتهم. .

لأنهم توارثوها منذ الأزل، منذ قدم التاريخ، منذ ذلك اليوم الذي ولدت فيه المدينة».

وأقفل المذياع لتهدأ نفسه بعض الوقت، لكن ما يثير التساؤل في نفسه بدأ يكبر، وكأنه على موعد مع أيام طفولته وشبابه، يوم كان كثير الكلام قليل العبث.

ترى كم من هؤلاء الأطفال يعرفون المدينة «أبها» التي يعيشون على أرضها كما يعرف؟

وجاء الجواب كالعادة: هم قلة ولا شك، لأن من يسكن على الأرض ينسى مع الزمن أن يمنح أطفاله معرفة كل شي عن الماضي.

أولم يفعل هو ذلك أيضاً؟ فقد كان يصف مدينته لأطفاله وصفاً مُغايراً لما كانت عليه، وإن كان قريباً لما هي عليه الآن.

أو يمكن أن يخجل الناس من الماضي، حتى ولو كان هذا الماضي جزءاً من تاريخ المدينة؟

لا! قالها لنفسه وهو يستمع إلى صوت ناي يصدح به طفل، فأوقف سيارته على مقربة منه، وراح يستمع إليه. كان اللحن صورة دقيقة للحن راعي الغنم الصغير، حتى إذا ما انتهى الطفل من عزفه، نادى عليه وقال:

ـ أو تصدقني إن سألت من علمك هذا اللحن؟

وأشار الطفل في براءة إلى الوادي، والجبال، والسماء ثم قال:

ـ لم يعلمني إياه أحد، إنما التقطته أذناي منذ صغري فأجدت عزفه بأسلوبي، ولكن لِمَ تسأل يا عم؟

وأجاب:

ـ لأنني سمعت هذا اللحن منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً يوم كنت طفلاً أعيش على هذه الأرض.

وقال الطفل:

ـ إذن أنت من أبناء هذه المدينة، عدت بعد غياب طويل!

وهز عبد الرحمن رأسه وقال:

ـ نعم عدت بعد غياب طويل..

والتفت الطفل وقال:

ـ مرحباً بالعائد، أتود أن تقضي الليلة معنا في دار أبي؟

ـ ومن هو أبوك؟

ـ سعيد الأسمري، أتعرفه؟

وأجاب عبد الرحمن:

ـ نعم فهو صديقي..

وقال الطفل:

ـ إنه هناك يعيش على تلك الربوة في البيت القديم بعد أن ترك داره الجديدة لأبنائه، فهو يحب هذا البيت، ومن كل قلبه.

وضحك عبد الرحمن وقال:

ـ أنا مثله يا بني أحب البيت القديم، وصور الماضي في هذه المدينة، وأختلف عنه عندما أقول أيضاً بأنني أرحب بالجديد الذي يبقي على القديم ذكراه العطرة.

والتفت الطفل إلى عبد الرحمن وقال:

ـ صدقني أن كلماتك هي نفس كلمات أبي، صديقك الذي تقول تعال يا سيدي.. فهو سيفرح بك لأنه سيرى صديقاً قديماً عاد إلى مدينته التي أحبها بعمق وصدق وحنان تعال يا سيدي.

ومضى عبد الرحمن والصبي إلى البيت القديم في هدوء، وكأنهما يذهبان إلى موعد مع حياة جديدة.

عندما تتداخل الأشياء

أضواء مدينة دنفر الأمريكية تشع في كل مكان، تعطي الزائر معان كثيرة، فهذه المدينة التي تعتبر من أصغر مدن أمريكا، أشبه بغابة من الأنوار الكثيفة، يكاد يراها وهي تلامس شغاف قلبه وهو في الطائرة التي أقلته من مطار بلتيمور القريب من مدينة واشنطن، والذي وصل إليه قادماً من باريس فنيويورك فواشنطن، والليلة في دنفر.

ولقد أحس بضخامة المدن الأمريكية ونظافتها بعد أن فُتن لأول مرة برؤية المدن الأوروبية، وهاله أن تكون كل هذه المدن صورة أنيقة لمظاهر حضارة جديدة قرأ عنها كثيراً. وقارن وبين نفسه بين هذه الحضارة وحضارة بلاده يوم كانت بلده تتربع على القمة في مواجهة أحداث العالم، وتسيّرها وفق ظروفها وما تراه مناسباً.

لقد انحسر ظل تلك الحضارة فترة من الزمن، لدرجة شعر فيها بالغيرة تدب في أوصاله. لكن الذي جعله يهدأ بعض الشيء هو أن حضارة الأمم أشبه بسلم طويل يستخدمه الإنسان درجة درجة، حتى إذا ما وصل إلى القمة، ومنح هذه القمة كل قدراته وإمكاناته، عاد مرة ثانية يستخدم درجات الهبوط ليعود مرة أخرى إلى السفح.

وهو يعرف كل هذا عن الحضارة التي سبقت الحضارة الإسلامية، ويثق بأن حضارته، رغم انحسارها فترة من الوقت، ستعود لأنها فعلاً قد وضعت بصماتها على هذا العالم.

ويستمع إلى صوت قائد الطائرة، وهو يعلن عن هبوطها بصوت قوي، أحس به وكأنه يعود به إلى حقيقة ما يرى بعد كل هذه التهويمات التي شعر بها وهو يطالع غابات النور تسطع من كل مكان

في هذه المدينة.

ترى هل سيجد أخاه في انتظاره في المطار؟ وإذا لم يكن موجوداً فماذا يصنع؟

وأخرج خطاب أخيه من جيبه، ليلقي على عنوانه نظرة عجلى، فلربما احتاج إلى العنوان إذا لم يجد أخاه في استقباله.

وحطت الطائرة على أرض المطار، وشعر بصدمة العجلات أقسى مما كان يتصور، فعاد يواصل قراءته بهدوء يتمتم بها بين شفتيه. وعندما توقف أزيز الطائرة، وانفتح بابها، خرج مع الذين خرجوا لينقلهم أوتوبيس المطار إلى الساحة الداخلية. هناك فوجىء بأخيه مع شابة أنيقة. نظر إلى وجهها في تمعن، لكن أخاه لم يدع له الفرصة، وإنما مضى يشبع وجهه بقبلاته، حتى إذا ما انتهى من ذلك، قدم أخاه إلى رفيقته سوزان بهدوء.

وانسل مع الجميع إلى خارج المطار في طريقهم إلى المدينة.

وكانت سوزان تقود سيارتها بهدوء جعله يفكر في أمر هذه الفتاة وصلتها بأخيه، لكنه أرجأ كل ذلك إلى وقت آخر. وعندما وصلوا إلى الدار التي يقطنها أخوه، أدارت الفتاة المفتاح في الباب الرئيسي لينفتح الباب على أثر ذلك، ثم يدخل الجميع إلى المصعد ليحملهم إلى الدور الخامس.

ولقد استخدمت الفتاة مفتاحاً آخر، ودخلوا إلى الشقة التي شعر بأنها أنظف من أن تكون شقة لطالب. وأرشده أخوه إلى غرفته التي يعيش فيها، وقال له:

ـ هذا هو سريرك، وهذا سريري، أما غرفة النوم الأخرى، فهي لسوزي.

واستغرب حمود هذا الكلام من أخيه، ولكنه لم يعقب عليه وإنما مضى يرتب حاجياته في الدولاب الصغير، حتى إذا ما انتهى من كل ذلك وارتدى لباس الراحة، غادر الغرفة إلى الصالة، فوجد أخاه وسوزي ينتظرانه لتناول الإفطار الذي وجده أكثر شهية من طعام الطائرات. وبعد أن انتهى من تناول طعامه التفت إلى أخيه سائلاً:

ـ هل تزوجت يا حمدان؟

وضحك أخوه وهز رأسه بالنفي!

ـ إذن من هي سوزان هذه؟ وكيف يحق لها أن تعيش في شقة معك؟

أجابه أخوه:

ـ هي زميلتي في الكلية رأت أن تعيش معي في الشقة كزميلة، لتدفع نصف مصاريف الشقة وأدفع أنا النصف الآخر، ولهذا فهي مسؤولة عن شؤون الطبخ، وأنا مسؤول عن الغسيل وشراء لوازم البيت.

ـ وهل في عاداتنا وتقاليدنا ما يسمح بهذا الأمر؟

وضحك منه أخوه وقال:

ـ لا عليك فنحن هنا في أمريكا، ولسنا في الهفوف.

وتابع قوله:

ـ قد ترى شيئاً من المساواة التي لا يمكن أن نؤمن بها في بلادنا بين الرجل والمرأة لدرجة ستدهشك، والفتاة التي تراها هي ابنة صاحبة هذه العمارة، ولكن أمها رفضت بعد أن وصلت إلى سن النضوج أن تبقيها معها، وإنما طالبتها بأن تستقل بنفسها، وهكذا فعلت سوزي، فهي تدرس فصلاً دراسياً وتعمل فصلاً آخر من أجل أن تدخر من المال ما يجعلها قادرة على أن تصرف على نفسها أثناء دراستها.

ونظرت سوزي إلى حمدان وقالت بلهجتها الأمريكية:

أراكما تُطيلان الحديث بالعربية لدرجة جعلتكما تنسيان تواجدي.

أجابها حمدان بأنه يناقش مع أخيه أحوال الأهل والبلد، ولذلك لم يرغبا في أن يشركاها بتلك الهموم.

فضحكت واستأذنت عائدة إلى غرفتها بين فضول حمود واستغرابه، فهذا الذي يراه والذي سيراه جديداً عليه.

ومضى أخوه يحادثه بهدوء وكأنه يحاول من خلال الكلمات المختارة أن يعيد جسور الثقة التي رأى موازينها وقد اختلفت في عينيه، فهو يعرف أن الصداقة بين المرأة والرجل أشبه بصداقة الهر والفأر، فالهر يستطيب لحم الفأر ويفضله ولهذا لا يمكن أن يعيشا معاً.

لكنه مع كل هذا لا يريد أن يلقي بأحكامه جزافاً مذ أول يوم، وهو الوافد الجديد على هذه الأسرة التي تعيش بعيداً عن بلده آلاف الأميال. وشاء أن ينهي الحديث حول سوزي على أمل أن يعود إليه عندما يرى الوقت المناسب للمناقشة.

وينخرط في دراسته، ويدهش بادىء ذي بدء، فالمسؤولة عن دراسته في جامعة دنفر امرأة وصلت إلى أرقى درجات العلم، ومع هذا العلم، كان عقلها في رأيه غير ناضج، وإلا فكيف تقبل أن تمتهن امرأة ـ أية امرأة ـ كرامتها فتدخل مسابقات ملكات الجمال؟

ويشعر بأن أستاذته معجبة بجمالها، فقد كسبت في عام ٦٩ لقب ملكة جمال أمريكا، ولهذا فهو مشدود لهذا التناقض بين الفكر العلمي والاتجاهات النسوية العادية. وهكذا فهو يعتبر ضعف أستاذته كأنثى، يدل فعلاً على أن المساواة الشاملة بين المرأة والرجل مجرد هراء، فطبيعة الأنثى الرقيقة تظل دائماً بحاجة إلى درع يقيها شرور الأيام والليالي، بالإضافة إلى المتاهات النفسية التي تحملها المرأة نتيجة تكوينها كأنثى.

وتمر الأيام وتستمرىء نفسه أموراً كثيرة كان ينظر إليها على أنها شيء يثير الإشفاق في نفسه. فهذه الجموع الكثيرة من الفتيات اللواتي يتلقين العلم معه في الجامعة، كان ينظر إليهن في ملابسهن على أنهن عبء كبير على المجتمع لأن رجال «الموضة» قد استطاعوا أن يمتهنوا أنوثة المرأة فألبسوها «المكسي والميني» وكأنها في سباق لإبراز مفاتنها للرجل.

لكنه بعد أن تعود على كل تلك الأشياء، لم يعد يعطيها أكثر مما تستحق، فهو قد جاء إلى هذه القارة ليأخذ أطايب ما عندها ثم يعود.

ولكم حاولت أكثر من أنثى أن تعقد معه صداقة كما عقدت سوزي صداقتها مع أخيه، لكنهن أخفقن في لفت نظره، فأطلقن عليه كلمة (كيمل بوي) على غرار (كاو بوي).

وكان يستمع إلى هذه الصفة ويشعر بالفخر، فهو وحده الذي استطاع أن ينأى بنفسه عن شرور الصداقة بين المرأة والرجل.

لقد أحب أمه وأخته وأحب كثيراً من نساء الأسرة كأخوة، واعتقد أن

المرأة في بلده أوفر حظاً، لأنها قادرة على امتلاك مقدراتها بعيدة عن ظروف المعاناة الصعبة التي تعيشها المرأة في أمريكا بدعوى التحرر.

لقد ظلم الرجل المرأة في أوروبا وأمريكا وخدع عقلها، فصدقت هي بسذاجتها معاني التحرر، حتى استطاع الرجل أن يأخذ منها ما يريد بلا تمنع وبرضا منها بدعوى المساواة.

ولقد حاول أن يناقش هذا الأمر بادىء ذي بدء مع أستاذته، ثم واصل طريقه مع أكثر من واحدة لكنهن جميعاً كن ضد ما يقول.

أما سوزي فهي الوحيدة التي كان يتجنب الحديث معها في مثل هذه الموضوعة على الرغم من أنه يقضي الكثير من الوقت معاً، بحكم سكنها في الشقة ذاتها التي يعيش فيها مع أخيه.

ولما قدر له أن يسمع حديثها مع أخيه، صدم بكل حرف قالته سوزي.

لقد كان يظن أن علاقة ما تربط بين أخيه وبينها، لكن حديثها إلى أخيه أسقط كل هذه التكهنات، والتي كان يظن أن أخاه يخفي أمرها عنه.

وقد جاء حديثها بمثابة ضربة قاصمة. فهو وإن كان لم يصدق بادىء ذي بدء تعلق امرأة ما بإنسان لم يعطها أي جزء من اهتمامه، إلا أن تصوره كان خاطئاً، فقد يحدث نتيجة اللامبالاة أن تحن المرأة إلى من لا يمنحها شيئاً من وقته، ولقد قالت سوزي لأخيه بصراحة:

ـ صدقني لقد بدأت أشعر بشيء يجذبني إلى أخيك، لدرجة جعلتني أصارحك أنت الصديق الذي أحسنت اختياره، بعد أن سقطت أكثر من مرة في اختيار الصديق، ولطول عشرتي معك لم أسمع منك أية كلمة تخدش كبريائي كامرأة. فقد كنت تعاملني معاملة أشعر معها بأنني أنثى، وأنثى مرغوبة، لكنك مع كل ما كان يبدو منك من أماني وآمال تحاول أن تترك للأيام تحقيقها، لكنك لم تفه بكلمة منها. وأظن أن السبب يعود إلى تربيتك التي لا تمنحك الفرصة لأن تبدي ما تخفي، ولهذا عشنا كل هذه الشهور معاً، نتجاذب أطراف الحديث في أمور شتى، إلا أحاديث الحب.

وصمتت قليلاً ثم عاودت حديثها قائلة:

ـ لو أنك جربت قبل أن يأتي أخوك إلى هنا، لكان في الإمكان أن أنجذب إليك كما انجذبت إلى أكثر من صديق، لكنني وبعد أن عرفت حمود، أجدني مشدودة إليه، ولقد حاولت أن أتجاهله كما يتجاهلني دون جدوى، لدرجة جعلتني أتحدث فيها إلى أمي عن هذا الوضع الذي أعيشه. وقد أشارت عليّ أمي بأن أتحدث عن كل ذلك معك فلربما دللتني على الطريقة التي أستطيع فيها أن أستميل قلب أخيك بها.

وأجاب أخوه في شيء من اللامبالاة أحست بها من نبرات صوته وهو يقول:

ـ ذلك شأنك، فأنت قادرة على أن تنصبي شباكك حوله، فإذا استطعت اقتناصه وهذا ما أشك به، فعندها يمكنك أن تمضي في خطتك لتصلي بعدها إلى هدفك.

ـ ومن قال لك بأن لي هدفاً؟ إن هدفي الأول والآخر أن أعايش تجربة جديدة في حياتي مع إنسان أشعر بميل شديد إليه، ومع هذا أحب أن تتأكد رغم كل هذا الميل الذي أحس بأنه يضع العراقيل أمام حريتي إلا أنني لم أصل إلى التفكير في أن أكون له إلى الأبد.

وأجابها أخوه:

ـ أو تظنين أنه يرضى عن هذه الأفكار الفجة؟ فأخي من نوع يغاير كل أصدقائك الذين تعرفت إليهم. فهو عندما يميل إلى أية فتاة سيخطبها ثم يتزوجها.

إن ظروف الحياة التي عشناها في بلادنا تحتم بأن تكون طريقنا نحو المرأة واضحة المعالم، ولهذا لم أشأ أنا شخصياً مفاتحتك رغم ميلي إليك بشيء من هذا، لأنني أعرف أنني وأنت من طينة تختلف كثيراً في تقدير ظروف حياتنا على أساس واحد.

وصمت فعاودت سوزي حديثها:

ـ ولكنني أريده..

وأجابها أخوه:

ـ وهل يكفي أن تريدي ذلك؟ إن مجرد صدور هذه الكلمة منك تعني أنك طفلة وطفلة صغيرة لم تتعد سنواتها العشر عندما تريد لعبة تراها في واجهة معرض من المعارض.

إن التطابق في الرغبة أمر ضروري في مثل هذه الأمور، ومع كل ما ذكرت، دعيني أذكرك بشيء واحد، فأنت كفتاة تدين بديانة أهل (المورن) قد تكرهين كثيراً من الأمور التي تمارسها الفتيات، فأنت لا تشربين، وهذا شيء جيد، كما أنك تتحلين بصفات طيبة، لكن هذه الرغبة المشبوبة تجعلني أحس بأنك لا تختلفين عن أية فتاة مراهقة.

ـ دعنا والحديث عن الدين، فأنا أعرف أنكم تستطيعون الاقتران بكتابية.

وأجاب أخوه:

ـ ولكنك رغم كل الفضائل التي تتحلين بها لست كتابية، هذه واحدة، والثانية: لا رغبة لك في الزواج، والثالثة: ما يدريك أنه هو الآخر لا يريدك؟

وصمت.

لكن سوزي أجابت:

ـ دعني أجرب حظي، فنحن النساء نملك من وسائل الإقناع ما يجعلنا قادرات على الوصول إلى أغراضنا بأية طريقة.

وقال أخوه:

ـ لكننا نحن من طينة أخرى غير طينة هؤلاء الشباب الذين تقضين معهم أوقاتاً طيبة، ولهذا أشك بأنك ستصلين إلى غايتك.

وصمت، فقالت سوزي:

ـ أراك تغار علي منه، وإلا لما قلت ما قلت، فأنا أشعر بأنك تريدني.

وأجابها أخوه:

ـ أنت كاذبة ولو كانت لي رغبة بك لاستطعت منذ زمن، فأنا إنسان صريح اخترتك لتسكني معي لأنني بحاجة إلى امرأة تضفي لمسات النظافة على البيت الذي أعيش فيه.

قالت:

ـ كان من الممكن أن أبقى مع أمي بعد وفاة والدي، رغم أن مجتمعنا لا يسمح لي بالبقاء، لكنني لا أعتقد أن في إمكاني أن أعايش امرأة قد بلغت من العمر أرذله، ومع هذا تعيش مع صديقها الذي يصغرها بثلاثين عاماً، وكأنها تشتري فتوته وصباه.

أو تدري أن ذلك الصديق قد حاول أن يصنع معي بعض ما يصنع مع أمي، فرأيت أن لا أفسد حياة العجوز، وأن أبعد عن البيت، ولم أخبر أمي بمحاولة صديقها حتى لا تكرهه.

وأجابها:

ـ أو تحبين أمك إلى هذه الدرجة؟

قالت:

ـ لا ولكنني أحب أن أرث كل ما تملك يوم تموت، ولهذا أحاول أن أرضيها حتى لا تفكر في انتزاع هذه الثروة مني، وتعطيها له، وأنت أعرف بمهازل الوصايا في بلادنا، فكثيرات من أمثال والدتي ذهبت أموالهن للقطط والحيوانات.

أو تصدق يا حمدان بأنني كلما قرأت ترجمة معاني كتابكم المقدس أحس بالراحة، فحقوق المرأة فيه واضحة، كما أن قانون الميراث لا مثيل له إطلاقاً.

وأجاب:

ـ هذا هو الفارق بين ما نؤمن به وما تؤمنون.

وأجابت سوزي:

ـ ولماذا يعيش المسلمون هذا الضعف وقد منحهم دينهم كل معاني القوة؟

ـ ذاك أمر لا يمكن أن أقول عنه إلا أنه نتيجة ظروف المعاناة التي عايشها الوطن الإسلامي، فلقد تكالبت قوى الشر عليه فأغمض عينيه عن معالم القوة بالجهل الذي توارثه حقبة من الزمن.

ولهذا تجدينني أنا وأخي هنا نأخذ من العلم بالقدر الذي يمكننا من أن نستعيد صفاء ذهننا، وقدراتنا للعودة بالإنسان المسلم إلى طريق الصواب.

وضحكت سوزي، وقالت:

ـ ربما أكون قد أثقلت عليك لأول مرة بحديثي هذا، لكنني أود أن اسألك أين أخوك؟

وأجاب حمدان:

ـ لا أدري، وإن كنت أعتقد أنه في غرفته.

ـ ولماذا لم تقل لي عن ذلك، أفلا تظن أنه قد سمع حديثنا كله؟

وأجاب:

ـ قد يكون ذلك إذا كان في الغرفة، أما إذا لم يعد بعد فلن أنقل إليه أية كلمة.

واستأذنت سوزي لتذهب إلى غرفتها، ومضى أخي يرتب كتبه فترة من الوقت، حتى إذا ما انطلق إلى غرفتنا وجدني أغط في نوم عميق، فاختار هو أيضاً أن ينام، وظللت وحدي أغالب التفكير في الحديث الطويل الذي سمعته.

أو يمكن أن يصبح حال الأنثى في هذه القارة على ما هي عليه؟

أم أن جل ما سمعت لم يكن سوى نزوة عابرة لفتاة لا يمكن من خلالها أن تحكم على أخلاق الآخرين؟

ذاك أمر لا أدريه، لكن كل الذي طلبته عندما أفقت، أن أقنع أخي بأن نسكن سوية بعيداً عن صحبة أي أنثى، فلم يمانع طلبي هذا، ومضينا من الغد نبحث عن شقة أخرى، تبعد عن شقتنا، لنكون بمنأى عن أية تجربة يرفضها عقلنا وتلفظها تقاليدنا، فلقد تداخلت الأشياء في عقل هذه الأنثى لدرجة لا يمكن لنا أن نعيدها إلى صوابها. وهذا في نظري أقسى الأمور وأصعبها، فالمرأة التي تعيش على تلك الأرض أقدر على نفث سمومها بكافة الوسائل وشتى الطرق.

أما أخي فلم يسألني عن السبب، وإن كان في قرارة نفسه يعرف بأنني سمعت كل كلمة قيلت رغماً عني، لأنني لم أقصد استراق السمع في تلك الليلة.

ولقد أحسست بنوع رهيب من التفكير يخامر ذهني، فهو قد يكون أحب هذه الأنثى التي اسمها سوزي، وقد لا يكون، لكنه لم يكن ليظن بأنها

ستفضلني أنا الذي لا أعرف من أمور الحياة ما هو أفضل منه، ولهذا كان كل هذا بالنسبة إليه شيئاً جديداً.

أما أنا، فرغم جهلي بأمور الحياة وظروفها ومعايشتها في أمريكا، إلا أنني أعرف شيئاً واحداً سمعته من أبي وهو يتحدث، فقد كان يقول دائماً:

ـ المرأة أقدر الناس على تبديل نظرتها بمقدار ما هي قادرة على استدرار دمعتها.

وسمعته يقول:

ـ قد تكون المبالاة دائماً طريقك إلى قلب المرأة التي أحببت، أو لم تحب، فالمرأة ذلك الكيان المجهول الذي لا يستطيع أن يعرف ما في قلبها كل إنسان، تميل دائماً إلى اكتشاف أثرها في نفوس أولئك الذين يتجاهلونها.

وقد يكون ذنبي أنني تجاهلت سوزي، فأحبت هي أن تكشف المجهول الذي هو أنا.

لكن هذا المجهول يرفض أن يكون مبتذلاً في أرض الغربة، تلعب به وبعقله وشبابه فتاة أية فتاة.

ربما لأن هناك من العوامل ما يجعلنا نحن أبناء هذه الأرض أصلب عوداً، وأقدر على كسر حدة ما يصادفنا من مغريات، وهي حقيقة لا يستطيع أن ينكرها إنسان عرف معاني تواجده على هذه الأرض.

لكنني مع كل هذا لا أنكر بأنني قد أحسست بنوع من الارتياح بأن تفكر بأمري أنثى، أنا الذي لا تزال في طباعي بقية من أصالة أبناء القرية.

وعدت بالذاكرة إلى حديث سوزي، فرأيت أن أفعل ما يمكن أن يصنعه مثلي، ليس تغيير الشقة بمقدار ما يقوم بتغيير المدينة والكلية، فقد يكون في هذا التغيير ما يدفع عن نفسي لعبة التهور في أشياء لا يريدها عقلي ولا قلبي، فقد تعاهدت مع نفسي على أن أبقى طاهر الذيل نقياً، لأعود إلى بلادي وملء قلبي إحساس بأنني قادر على اجتياز الحواجز رغم أشواك الطريق وقذارة بعض من يمشي في الطريق.

الذكرى العطرة

أحزان الشوق أشبه بالدماء المتحركة، تشدها إلى من يحركها خيوط كثيرة، يكاد لا يراها إلا من يدقق في حركاتها المنمقة، ليرى من وراء السراب تلك الخيوط الرقيقة تمتد طويلاً لتصل إلى الأصابع الرقيقة الناعمة التي تقبع خلف الأستار، يفصل بينها وبين من يرى الدمى أستار وأستار.

ودموع العذارى تنحدر على صفحات الوجوه الغضة، أشبه ما تكون بلآلئ غادرت أصدافها فجأة بعد طول انتظار. يراها من ينظر إليها في كثير من الأحيان أشبه ما تكون بحلية رائعة جاءت دون انتظار، وفي أروع صورة، وبأشكال وألوان متناسقة، دون أي تنافر.

فظروف الحياة تمنح الناس الراحة من أحزانها في ظلال دمعة، أو حتى في صدى إجهاشة باك ترتفع في همس خافت، يسمعها من ترتبط بذاكرته نفس الظروف.

وهو في الطريق إلى الوادي في سيارته الفارهة، يستمع إلى صوت المغنية الفرنسية، وهي تنطق كلمات الأغنية في شدو باك، يذكره بصورتها التي رآها تحييه على مسرح الأولمبياد في باريس، يوم كان هناك يرمق الفتنة وهي تمشي وتجري وتلهو وتبكي، وهو عن كل ذلك لاه بآلامه يجترها في صمت.

فالهروب من المحنة قد يكون أصعب وأدق من لقائها، ولقد عاش سنوات عمره في فرح لا يدري من أمر حياته إلا أنه يأمر فيجاب. كان ذاك شأنه منذ أن كان صغيراً، يلعب في الجداول الرقراقة وهي تنساب في السهول بين أشجار النخيل الباسقة في بستان والده الكبير.

حتى إذا ما تغيرت ظروفه وأوغل في سنوات العمر، رأى أن الحياة رغم كل ما يملك هذا الإنسان أو ذاك، ليست دائماً على هواه، لأنها تأبى أن تظل على وتيرة السعادة. فالورود على أغصانها تحمل هي الأخرى أشواكاً دامية قد تجرح من يقطفها إذا لم يكن خبيراً بقطف الورود.

الذين يصفون المرأة الجميلة بالوردة لا محالة ينظرون قبل كل شيء إلى أظافرها، فأظافر المرأة أشبه ما تكون بأشواك الورود الدامية تدمي إذا لم تعرف كيف تتوقاها.

ولقد جرب الحب، جربه كثيراً، وحاول أن يعرف معنى هذا الحب الذي يمكن أن يصل بين إنسان وإنسان، وأن يفصل بين إنسان وإنسان أيضاً، وخرج من كل تجاربه بمعارك لا زالت أسيرة وعيه الباطن، يراها تنطلق بين فترات الصمت الواهية التي يعيشها أشبه بفقاعات تأخذ ألواناً متميزة.

ويطل على الطريق ليرى من بعيد صورتها في أبهى زينة وأجمل صورة، فيفاجأ بخفقان قلبه الذي أخذ يدق في صوت مسموع حاول أن يهدئه دون جدوى.

وصورتها في إطلالتها الجديدة تضفي على الشارع الأنيق معالم فتنة لا تزال آثارها تظهر في مخيلته بأسلوب الشاعر الذي يجيد وصف كلماته، ينحتها بإزميله، من فيافي الحياة جمالاً وروعة وإبداعاً.

أو يمكن أن يحب هذه الأنثى؟ وإذا أحبها أو يمكن أن تكون هي الأخرى قد أحبته؟

لقد عرف أنها إنسانة بلا قلب، تبتسم وتضحك وتقهقه وتشعر كل من حولها بأنها سعيدة وهي في قمة الشقاء..

لماذا تفعل كل هذا؟ ألأنها أنثى؟ ولقد تحدث إلى صديقه عنها فقال له:

ـ أو تعرف؟ قد تكون هي على هذه الصورة الرائعة من الجمال في الشكل، في الصورة، وفي الحديث، وفي الأسلوب، لكنها رغم نعومة ملمسها أشبه بأفعى تستطيع في لحظة واحدة أن تقضي على كل من يقاومها.

وهو يحب أن يفتعل المعارك حتى في الحب، يعتبرها أداة من أدوات

الحرية والانطلاق، وأحياناً يظن أنها من ضروريات الحياة، أن يمسك الإنسان أي إنسان بمقود من يحب إذا كان قادراً، لتأتي حياته ومعاناته صوراً مغايرة لصورة ذلك المحب الخنوع الذي يقوده حبه للانصياع الكامل.

فلسفة قد تكون صحيحة وقد لا تكون كذلك، وهو لا تهمه صحتها أو عدمها وإنما يهمه أن يقتنع بما يفعله فقط وهو مقتنع بكل ما يصنع.

وتطل من وراء الأفق صور كثيرة كان يختزنها في وعيه الباطن، يقسو لأن تبقى هاجعة ساكنة لا تتحرك.

إنه وهو في مكانه هذا يرى سنوات حياته وقد مرت، أشبه بذلك الإنسان الذي يرى بوادر الأمل تظهر من خلال الذكريات، ربما لأنه يريد أن ينطلق من إسار الماضي بتذكره، فسنوات العمر مهما طالت في نظره قليلة إذا لم يمنحها القدرة على البقاء بما تكتسبه خلالها من سعادة وشقاء وجمال وقبح وإرادة ولا إرادة.

فحوافر الزمن تترك على الوجوه بصماتها القاسية حيناً، والرقيقة حيناً آخر يختلف مرآها بين وجه ووجه، وإنسان وإنسان.

قد يكون قد تزوج فعلاً بمن أحب، وقد تكون سنوات زواجه القصار أجمل سنوات العمر، لأنه استطاع أن يعرف كيف يمنح نفسه ويمنحها هي أيضاً الهناء الذي افتقده في فترة الخطبة، فالمرأة كالمهرة الأصيلة لا تلقي بعنان قيادها لفاشل.

وهو من أقدر الناس على كبح جماح مهرته الأنيقة، لكنه بعد كل تلك السنوات التي أمضاها معها، يجد نفسه فجأة بدونها.

ولقد شقي كثيراً يوم ماتت زوجته، وضاعت في نفسه بهجة مولد ابنته التي كان ينتظرها على أحر من الجمر، حتى إذا ما هدأت نفسه، واصل الدرب على أمل أن يرى صورة من أحب في هذه الطفلة التي يحب.

وتتكاثر الظباء على داره بأمل، لكنه كان قد افتقد هذا الأمل، نسيه يوم مضت، ولم يعد يعرف في الدنيا شيئاً سوى هذه الصغيرة التي تكبر مع الأيام.

ولقد حاول أن يصنع من خفقات قلبه جسراً بينه وبينها، يحاول من خلاله

إبعاد شبح الحزن الذي يحيط بمعالم هذا الوجه الذي يحب دون جدوى. فقد كانت حساسية ابنته المفرطة تجاه ما جرى، تجعلها دائماً في عزلة عن الناس، حتى ذلك اليوم الذي تسنى له فيه أن يستمع إلى حوارها مع واحدة من أعز صديقاتها:

ـ ترى ماذا يشغل بالك إلى هذه الدرجة؟ فيجعلك تنصرفين عن ارتياد المجتمع أنت التي يحسدك الناس على الحياة التي تعيشين، والأب الذي يملأ حياتك حباً وحناناً؟

وتجيب بسمة:

ـ قد يكون ما تقولينه صحيحاً، فأنا أنظر إلى أبي نظرة مقدسة تجعلني أحس بالضآلة عندما أرى بأنني مسؤولة عن هذا الحزن الذي أحاط بقلبه، منذ ذلك اليوم الذي ولدت فيه وذهبت أمي.

لقد عرفت مدى الحب الذي كان يكنه أبي لأمي، حتى إذا ما كبرت أفرغ حبه كله في كأسي أنا، لكنني مع كل هذا الحب والحنان أحس بأنني قد ظلمت هذا الإنسان، وحرمته من أجمل من أحب.

وتجيبها صديقتها:

ـ أنت مجنونة عندما تفكرين بهذه الطريقة، فنحن في هذه الدنيا لا نختار موعد ولادتنا، ولا نختار أيضاً وقت موت من نحب. إن الدنيا هي الدنيا، تسيرها قوى قادرة، تريد لهذا العالم الخير، وهي أدرى بمصلحة الإنسان من الإنسان نفسه.

إنني أعرف تدينك وتمسكك بتعاليم وأهداب هذا الدين، فأستغرب أن تكون رؤيتك للأحداث على هذه الشاكلة. أو تدرين أننا لا نعرف ماذا يخبىء لنا الغد حتى نستعين على قضاء أمورنا عندما نعرف، وهذه فضيلة يجب أن نأخذها هكذا دون حساسية، فالحساسية المفرطة ليست سبباً في إزعاجك أنت وحدك، وإنما تكون سبباً في ضياع من تحبين ويحبك أيضاً.

إن أباك هذا الذي يقبع في غرفته، على مقربة منك، يعرف أن حياته اليوم لن تستمر إلا بتواجدك أنت معه، فإذا لم تكوني قادرة على إضاءة شموع البهجة

في نفسه، فمن يستطيع إضاءتها؟ اخرجي من غرفتك وأخرجيه هو أيضاً منها، وحاولي أن تخطبي له واحدة ممن تعرفيهن، فلربما استطاع أن يسلو بزواجه وحبك.

ـ وهل تظنين أنه سيرضى؟

ـ ولم لا؟ إذا عرفت كيف تمضين في خطوتك الجديدة مع الحب بعيداً عن الألم. إن الإنسان الذي يحب يجب أن ينظر إلى الأمور من زاوية هذا الحب، فيمنح من أحب السعادة والحنان والقدرة على التخلص من مآسي الماضي، إذا كنت تعتبرين وكان يعتبر ما جرى مأساة.

وتصمت صديقة ابنته ليأتي صوت بسمة هذه المرة قوياً ضاحكاً:

ـ وكيف يمكن لي أن أصل إلى بعض ما قلت؟

ـ لا شيء! تفرغي له وتحدثي معه، وعامليه كطفل فأنت الآن في سن النضوج، فلربما أحس بأنك قد نسيت الماضي، وأن صفحة جديدة تبدأ إطلالتها على هذا البيت، وعندها ينسى هو الآخر أحزانه.

ـ ويتزوج؟

ـ ولِمَ لا . .

ـ وهل تقبلين أنت الزواج به؟

وتضحك صديقتها وتقول:

ـ لو كان الفارق بين عمري وعمره أقل مما هو عليه الآن لما تأخرت، لكن هناك الكثيرات ممن يرغبن فيه، وأنت أقدر على معرفة هؤلاء مني بعد أن تبدئي الخطوة الأولى.

وفتح باب غرفة ابنته وكأنه يأمل إنهاء هذا الحديث، ليطل عليه وجه ابنته وقد ذهب عنها حزنها، فيعتذر ويقول:

ـ لم أكن أظن أن صديقتك معك في الغرفة.

ومضى إلى غرفته يفكر ويفكر، فأحزان الأمس قد بدأت تنحسر عن هذا البيت بهدوء.

ترى هل يمكن أن يظل تأثير هذا الحديث العابر عالقاً بذهن ابنته؟

لا يدري وإن كانت جميع أحاسيسه تؤكد له بأن صفاء وجه ابنته وهو يراها في تلك اللحظات القصار يؤكد له ذلك.

وأخذ يستعرض تفاصيل الحديث بروية، وكأنه يأمل أن يستشف منه معاني جديدة أكثر مما استشف، ويحس بشيء من الراحة، فبسمة لا بد وأنها في الطريق إلى غرفته بعد أن سمع صوت أقدام الضيفة تغادر البيت.

وأرهف سمعه قليلاً ليسمع صوت قدمي ابنته أشبه بموسيقى ضاحكة، فللأقدام في كثير من الأحيان لغة مشتركة يستطيع الإنسان من خلالها معرفة ما ترمي إليه صاحبتها أو صاحبها. واستمع إلى طرق خفيف على باب غرفته فأذن لها بالدخول قائلاً:

ـ بسمة هل ذهبت ضيفتك؟

وأجابته ابنته:

ـ أنت أدرى مني بهذا، فلقد سمعت صوت قدميك وأنت تستمع إلى حديثنا.

وضحكت أما هو فنظر إلى وجه ابنته بشيء من الحب وقال:

ـ لا بأس، وماذا بعد؟

ـ أريد رأيك في الحديث.

ـ قد يهمني الحديث كما يهمك أنت أيضاً، لكن أكثر ما يهمني هو هذه الإطلالة المشرقة التي أراها على وجهك بعد كل هذه السنين.

ـ أصحيح يا أبي أنك غير حانق على مجيئي لهذه الدنيا؟

ـ ولماذا يا ابنتي؟

ـ لأن مجيئي حرمك من بقائها. كنت أعتقد هذا وأظنه، ولهذا عشت طوال كل هذه السنوات رغم جميع ما تصنع معي وما تمنحني إياه من حب أحس بعقدة الذنب هذه.

ـ وما ذنبك أنت يا ابنتي في ذهابها؟ إنها كما تعرفين إرادة الله تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي. قد أكون بالفعل قد افتقدتها وقد تكونين أنت أيضاً، فنحن في افتقادنا لمن أحببنا سواء، أنا لأنني أعرفها، وأنت لأنك

لم تريها قط، ومع كل هذا فأنا وهي وأنت وكل هذا العالم إلى زوال.

قد يعز علينا أن نفارق من نحب وقد يكون من الوفاء لمن نحب أن نبقى على ذكراه بيننا عطرة، وأنت في نظري الذكرى العطرة التي أبقتها لي أمك.

وصمت.

وأقبلت عليه ابنته وقد بدت في طلتها تلك أكثر وثوقاً، وأجدر عمقاً، تقبله في صمت، ودموع الفرح تنهمر على خديها برقة، حتى إذا ما انتهت من إجهاشتها تلك، قال:

ـ الآن يمكن لنا أن نواصل حياتنا بلا أحزان، فلقد استطاعت صديقتك التي رفضت أن تقترن بعجوز مثلي أن تعيد لك ثقتك بنفسك من جهة، وأن تعيدك أنت إلي أيضاً، وأن تمنح هذا البيت الفرحة والسعادة.

وضحك ثم عاود سؤاله:

ـ أو تظنين أنك إذا كررت طلب الزواج ستقبل هذه المرة؟

وأجابت:

ـ ولماذا لا تقبل وأنت على ما عليه من شباب؟ لكنني أخاف إذا قبلت هي أن تنشغل بها عني، ولهذا فأنا التي سأرفض هذه المرة.

وانخرطا في ضحك متواصل وفي هدوء، هذه المرة.

وعاود النظر إلى الأفق ليرى حمامة بيضاء ترفرف بعيداً، ومن خلفها أفراخها في رحلة مع الحياة جديدة ومثيرة أيضاً.

وأحس بشيء من الطمأنينة، فلقد عادت إلى نفسه إرهاصات الصفاء الذي افتقد، وغمر وجهه ضوء حالم، أحس به يطفو من وراء سنوات العذاب، كزورق عرف طريقه بين الأمواج المتلاطمة في هدوء.

فالربان الماهر يعرف كيف يدير دفة الزورق بإيمان من يجيد صنع الحياة. وتضمحل صور الماضي وتبهت أمام ناظريه، وكأنها غدت جزءاً من تلك الأيام التي مضت، وينظر إلى ابنته بسمة في كثير من الحب والحنان، فقد خرج أخيراً من المعركة سالماً معافى بعد طول صبر وكثرة انتظار.

ليس الحب يكفي

الناس نيام وهو في غرفته، في فندق الهدى شيراتون، ينظر إلى القرية التي يعرفها بكثير من الحب، فعلى أرضها ولد، وتحت سمائها عاش، وفي جبالها ووهادها نما وترعرع. يعرف كل مكان فيها، فقد تعبت قدماه وهو صغير في رحلات متعاقبة مع أصدقائه يلعب هنا وهناك، يوم كانت الهدى ملأى بالعديد من البساتين الصغيرة.

ولقد أحس بالجمال وهو يرى زهور التفاح والسفرجل تتفتح على أشجارها وتستقبل نسائم الفجر بحرية، وكأنها تغني بتمايل أغصانها مع النسيم أغاني السعادة. ووالده بشكله المعروف، وملابسه الفضفاضة، يجري وراء الإبل بحركة دائبة، مع خرير السواقي التي تجلب الماء إلى بستانه الصغير.

ووالدته في لتمتها اللطيفة تطوف أرجاء البيت الطيني تنظف أركانه بهمة ونشاط، وعلى وجهها سيماء السعادة.

وهو يذكر مدرسته في وادي محرم على مقربة من الطريق، ويذكر جل مدرسيه، ولا ينسى أويقات قطف الورد والياسمين، وعملية تقطيرهما في أوان صغيرة.

لطالما وقف في الطريق يبيع زجاجات الكادي، والشيح، وزيوت عطر الورد، والياسمين للذين يجوبون الطريق الترابي في زيارة إلى قريته.

كل هذه المعالم انداحت فجأة، ذهبت، وكأن ليس لها ظلال في هذه القرية التي عشقها فلقد مستها يد التطور لدرجة أصبح يشعر بأن الطرق والكباري الموجودة على أرضها شبيهة بتلك التي رآها في

رحلتيه إلى أمريكا.

ويمد بصره عبر الجبال ليرى كم من التلال أودت بها قوافل التطور، فهذا الإنسان قادر على تفتيت الصخر وصنع ما يريد بأسلوب من يعرف طريق قدميه نحو الهدف.

ترى هل كان يظن أنه سيجد على مقربة من الصخور التي لعب فوقها مع زملائه وتزحلق عنها هذا الفندق الذي يطل في شموخ، وكأنه يصور إيمان صاحب هذه الأرض وقدرته على صنع جميع وسائل الحضارة لتكون في متناول يد إنسان هذه الجزيرة؟

ذاك أمر لم يكن يظن أنه قد يراه، فالأعوام التي قضاها بعيداً عن القرية لا تزيد كثيراً عن العشرة أعوام، ومع هذا فمعالم القرية القديمة تضيع من عينيه، تبدو وكأنها حكايا من حكايات الأمس.

ويحن لسماع ناي الراعي الصغير الذي طالما حاول تقليده بلا جدوى، فالهدوء الدافق يملأ أجواءها في عفوية بعد أن أحال العمران جزءاً كبيراً منها بيوتاً ذات ألوان وأشكال زاهية يخجل منها بيته الطيني القديم.

واستمد قواه، وغادر الفندق في رحلة على الأقدام، شاء بها أن يرى على الطبيعة ما افتقد.

لكن ما افتقده لم يعد له وجود، حتى المزرعة الصغيرة قسمها الطريق الإسفلتي إلى قسمين، ولم يبق على بيته، وإن أبقى على بعض معالم الماضي.

وعند باب المزرعة الجديد، التقى بأم حسين التي سألها عن أصدقائه ومعارفه، فلم تكد تعرفه بادىء ذي بدء، حتى إذا عرفته سألته بعفوية عن أمه وأبيه فلم يجب.

ففهمت جوابه عن سؤالها، فالحياة لا يمكن أن تدوم أو يدوم فيها إنسان. ولقد عاتبته كثيراً لأنه لم يقصد دارها، ما دام هو هنا في الهدى وحاولت أن تطعمه الطعام الذي أحب، لكنه كان في عجلة من أمره، فأخبرها بمكانه وقال: لها بأنه سيعاود زيارتها مرة ثانية.

ومضى يجوب القرية، يطالع تلالها، وزهورها، وأوديتها، حتى إذا ما

استمع إلى صوت الحداء من بعيد، شده الصوت حتى وصل إلى مكان الرجل الذي انقطع عن الغناء فجأة بعد قدومه فقال له:

ـ لماذا لا تتابع غناءك؟ فأنا مشوق لأن أستمع إلى هذه الأصوات التي افتقدتها.

ـ ومن أنت؟ وهل تعرف هذه القرية؟

ـ نعم. فأنا ابن من أبنائها شاءت ظروف حياته أن يمضي عنها بعيداً.

ـ ومن أية عائلة أنت؟

وعندما ذكر له اسم أسرته، أمسك به الرجل بكلتا يديه، وقال:

ـ إذن أنت الدكتور ماجد! فقد عرفت من بعض أصدقاء والدك قصة الحادث الذي أودى بحياة أبويك رحمهما الله، وعرفت معها المجد الذي حققت، فقد استطعت أن تملأ أسماع هذه القرية بنجاحك كجراح.

ـ لكنني مع كل هذا النجاح لم استطع أن أصنع شيئاً لوالدي.

ـ تلك إرادة الله يا ولدي.

وصمت، لكن ماجد لم يصمت، بل سأل الشيخ:

ـ وأنت يا عماه، من أنت؟

ـ ألا تعرفني يا بني؟ فأنا جارك. وإن شئت التدقيق، فأنا جار أسرتك «أبو مها»، صديقة طفولتك. لقد ذهبت مها مع زوجها وهي تعيش اليوم في الرياض، أستاذة في كلية التربية، أما زوجها فهو صديقك حامد، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الرياض. ألم ترهما هناك؟

وأخرج من جيبه خطاباً وقال له:

ـ هاك عنوانهما، فقد تسنح له ظروفك وظروفهما أن تعاودا الصحبة مرة أخرى.

حتى إذا ما صمت، نهض من مكانه وأصر عليه بأن يذهب معه، ليرى أم مها.

وفي البيت أمضى سويعات جميلة أعادت إلى نفسه هدوءها وإشراقها،

فلقد عادت الذكريات تطل من جديد.

وتحدثت إليه أم مها، وشتى الانفعالات تسود وجهها الأسمر، ودموعها تترقرق من مآقيها بانهمار. شعر بالحب الذي يربط بين هذه المرأة وأمه، فلقد أحس من كلامها بثقل الفاجعة على نفسها، وعندما هدأت نفسها أخذت ترحب بمقدمه لدرجة عجز فيها أن يعتذر عن تناول الطعام معها، حتى إذا ما وافق ابتسمت له وقالت:

ـ سأطعمك تلك الأكلة التي أحببتها يوم كنت صغيراً. . الهريسة.

قالتها بحيوية. ومضى هو يدردش مع أبي مها بأشياء كثيرة شعر معها بأن العجوز يحس بالتطور، ويعايشه ويلمس أثره وتأثيره، ويراه شيئاً هاماً وضرورياً.

لكنه مع كل هذا يرى أن يظل على سجيته في بيته نفسه. . ولقد قال له بأن ابنه عامر الذي أصبح مهندساً في التخطيط يعيش في فيلا أنيقة على مقربة منه وقد حاول أن يأخذه وأمه إليها دون جدوى، فلقد ارتبطت ذكرياته مع هذا البيت، ولهذا سيظل فيه حتى يموت.

ترى هل استطاع كل هذا الجديد الذي يحتل كل مكان في القرية والمدينة أن يحد من كثير من التقاليد التي عرفها؟

الذين يعايشون المجتمع السعودي يقولون بأنه كان من أقدر المجتمعات على تقبل الجديد، لكن كل هذا الجديد لم يستطع أن يلغي الحب، ولا الصداقة، ولا معاني الإلفة، والجيرة، بين أفراد المجتمع.

ربما لأن جذور مجتمعه كانت أقوى وأنظف، وربما لأن طبيعة المواطن على هذه الأرض تجعله يستمد مقومات حياته من عقيدته، تلك التي تحث على الفضائل.

وانصرف من بيت الشيخ عائداً إلى فندقه وكأنه يقارن بين الجديد والقديم، فلقد منح الجديد الكثير من البهاء لقريته، وصنع أشياء كثيرة لم تكن موجودة في الماضي، لكن هذا الجديد جاء بأناس من كل حدب وصوب، استطاع المجتمع أن يصهرهم هم أيضاً في بوتقته فأصبحوا جزءاً منه يعايشونه بأساليبه

لدرجة عجيبة.

وأحس بحاجته لأن يستعرض أيام حياته التي مضت، فقد كان فيها أشياء كثيرة مثيرة، وفقد تنقل من القاهرة، إلى ألمانيا، فأمريكا، وراء طلب العلم.

لكن ما يشغل باله اليوم، هو أنه قد أخطأ بزواجه من زميلته في الدراسة، التي لم تستطع أن تعيش معه في بلاده فطلبت الفراق، وهو كرجل لم يستطع أن يرغمها على البقاء، فمضت في صباح يوم عادي أحس خلاله بأن شيئاً من الضيق ينتاب نفسه، لدرجة يكاد يطبق عليها، وقد اختار أن يعود إلى قريته، لقضاء بضعة أيام على أمل أن يسلو التي ذهبت.

وهنا أحس بكثير من الراحة تتسلل إلى قلبه، فلقد عادت أيام الطفولة رغم مظاهر القسوة أحياناً، وهي تعيد إلى هذا القلب قدرته على الصبر والتحمل، وهو اليوم في أمسّ الحاجة إلى هذا الصبر والتحمل من أيامه الماضية.

وتمر أيامه في فندق الهدى الشيراتون على وتيرة واحدة، لا يقطعها إلا عدد ضئيل من النزلاء الأجانب الذين تعرف إلى معظمهم، فوجد أن أكثرهم لا يحلم في يوم من الأيام أن يقضي في بلده أياماً في مثل هذا الفندق، لكن كثرة العمل وحاجة البلاد للأيدي العاملة جعلت العديد منهم يأتون إلى هنا يلبون حاجة البلاد للتطور.

ولقد سعد يوم رأى واحداً من أعز أصدقائه جاء مع أسرته المكونة من أمه وزوجته وأخته لقضاء بضعة أيام في الفندق، وأحس بكثير من الراحة بهذا اللقاء، فقد أعاد إليه صديقه ذكريات الدراسة.

فجميل، أو الدكتور جميل من أبناء مكة المكرمة، درس معه الطب في ألمانيا، واختار إكمال دراسته العليا فيها، فانقطعت صلته به. وها هو يراه هنا مع زوجته وأمه وأخته التي تعمل مديرة لإحدى مدارس البنات في مكة، ولقد فكركثيراً في هذا الأمر، فالبنات في بلاده يؤدين الرسالة ذاتها التي يؤديها الشباب، ولهذا أخذ يسأل صديقه كثيراً عن أخته، لكن هذا بطبيعته المرحة سأله:

ـ أو تريد أن تتزوجها؟ إذا كنت تريد ذلك فقل لي دون مواربة فأسئلتك يخيل إلي أن وراءها ما وراءها.

وأجاب صديقه:

ـ قد يكون الأمر كما تقول، لكن ما هي الفائدة في أن تكون هذه رغبتي إذا لم تكن رغبتها هي؟ خصوصاً وأنني عرفت منك أنها قد رفضت الكثيرين..

أجابه صديقه بعفوية:

ـ ربما لأنها كانت تنتظر وجهك العكر.

وضحكا قليلاً ثم قال لصديقه:

ـ قد لا تعرف ظروف حياتي، ولهذا أوجزها لك، فأنا لا أرغب في أن أكون كاذباً في يوم من الأيام...

وأوجز لصديقه جميع المعلومات عن حياته وأسرته وكل شيء، حتى إذا ما استأذن صديقه للعودة إلى أسرته، بقي هو مع نفسه قليلاً يحادثها. ترى ألا يمكن أن ترفض سناء هذه الخطبة؟ وإذا رفضت ألا يزيد هذا في إضافة شيء من العناء إلى العناء الذي يلاقيه؟

وأغفى قليلاً ليرى في منامه صورة والديه وهما يباركان الخطبة، فسر بهذه الرؤيا وقام من نومه على طرقات باب الغرفة، وعندما التقت عيناه بعيني صديقه قال له الآخر في عفوية:

ـ صدقني لم أجد أي شيء من العناء في أن أجعلها تقبل خطبتك، لكنها اشترطت أولاً أخذ رأي والدي الذي سيصل إلى الفندق هذه الليلة، وعلى هذا فأنت مدعو للعشاء معي ومع والدي، فهل توافق؟

ـ موافق على طول الخط، وسأنتظر الموعد على أحر من الجمر.

وضحك صديقه وقال:

ـ كأني أراك الآن كما أرى نفسي يوم تقدمت لخطبة زوجتي، فقد كانت عجلتي السبب في أنني لم ألق أجمل النساء وإن كانت أفضلهن.

لا تؤاخذني على حريتي وصراحتي معك، فأنا لا أزال أنظر إليك وإلى نفسي وكأننا لا نزال على مقاعد الدراسة، نتناقش سوياً في أمورها بلا حدة.

وتابع قوله:

ـ لقد غيرت السنوات الكثير من ذلك الذي أعرفه عنك، ومنحتك سمات من الوقار أكاد أحسها حتى في خطواتك.

ـ أما أنا فكما عهدتني لا هم لي إلا التفكير والمشي والحركة أيضاً.

وضحك ثم قال:

ـ وهل تأذن لي يا سيدي الطبيب، ويا صهر المستقبل، بأن أمضي الآن، فزوجتي قد تشغل كثيراً لغيابي، خصوصاً عندما أعمل كخاطبة. لقد زوجت خمسة من أصدقائي، وأنت السادس، لكنهم كلهم لا يذكرونني إلا عندما يدب الخصام بينهم وبين زوجاتهم فيلقون اللوم على الخاطب الذي هو أنا، ولذلك آمل أن لا تكون أنت مثلهم.

وضحك ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء. وتركه مع أفكاره يحلم بالراحة بعد عناء، فلقد أعجبته صراحة وصدق صديقه، فكثيراً ما قيل ليس الحب يكفي لبناء بيت الزوجية، ذاك أمر أدركه ولا يزال يحمل في قلبه الكثير من الشجون.

ربما كانت الظروف أقوى وأقدر على تضميد الجراح من جهة، ومنح هذا القلب ما يملأ جراحه هدوءاً كهدوء هذه القرية التي أحب.

وكثيراً ما تخون الهموم أصحابها فتمنحهم الراحة، وهو من هؤلاء الذين قُدر لهم أخيراً أن يصلوا إلى بر الأمان، فسيدة اليوم امرأة لا يدري من أمرها إلا ما رأى وشاهد، وإن كان يحس أنها كما يقولون ضلع من ضلوعه، ولهذا فهو ينتظر على أحر من الجمر لحظة لقاء الوالد ليقول كل شيء ويتحدث عن كل شيء، فالحياة تأبى أن يعيش الإنسان على وهم التجربة مشرد الفكر، مشتت الذهن، كما عاش يوم عاد إلى هذه القرية.

لطالما عزفت أصابعه على أجساد البشر ألحان العافية، فهو طبيب والطبيب يعرف الكثير عن تفاصيل الحياة التي يعيشها هذا الإنسان على هذه الأرض، وهذه المعركة قد تمنحه القدرة على إضاءة شموع السعادة في نفسه،

وقد يطفئها. لكنه بعد لقاء صديقه وأخته يرى بأن شموع السعادة تحاول اليوم أن تأخذ نصيبها فتعلن في تراقص بديع ذروة إحساسها من لمسات الوفاء تدفع بها الريح في شرايينه هو الآخر.

وفي المساء يلتقي بصديقه ووالده حول مائدة الطعام، التي حاول صديقه فيها أن يكون خفيفاً على المعدة والعقل معاً. وكعادة صديقه تحدث في عفويته إلى والده، وكأنه يلقي بمعزوفة يجيدها عن رغبته في خطبة أخته. ولقد سأله والده عما إذا كان قد رآها فهز برأسه بالإيجاب وقال:

ـ من وراء العباءة.

لكن والده لم يكتف بهذا وإنما سأل ابنه:

ـ وهل نقلت لأختك رغبة صديقك؟ فأنت تعرف رأيها في الزواج؟

فهز رأسه إيجاباً..

ـ وماذا قالت؟

ـ لا شيء، سوى أنها تشترط شيئاً واحداً، وذلك أن يقوم صديقي هذا ـ وأشار إليه ـ بإجراء عملية تجميل لأنفها الكبير.

وضحك. لكن والده لم يضحك، وإنما قال له:

ـ أريد جواباً لسؤالي، فأنت لم تشعرني بذلك عندما أتيت حتى أسألها.

والتفت صديقه إليه وقال:

ـ أتريدني أن أكذب على والدي أم أقول الحقيقة؟

وتعجب صديقه وقال:

ـ طبعاً الحقائق في مثل هذه الأمور أفضل وأنصع، فأنت أعرف بأننا نحن الأطباء نعيش دائماً مع حقائق الحياة، نمارسها بأسلوب من يعرف كم هي تمنح من الراحة والاستقرار الكثير.

وصمت، لكن صديقه تابع قوله لأبيه هذه المرة وقال:

ـ صدقني يا والدي عندما أقول بأنها لأول مرة لا تجيب على ما طلبت منها، وقد كانت في العادة ترفض عندما أحادثها في أمر الزواج.

وقال أبوه:

ـ إذن فمعنى صمتها أنها موافقة؟

ـ هكذا يقول الناس عن الحرائر عندما يسألن في أمر كهذا.

وصمت، أما والده فقد التفت إليه وقال:

ـ لا أستطيع أن أقول شيئاً أكثر مما قاله هذا الضاحك.

وأشار إلى ابنه.

ـ لكنني مع هذا أقبل بأن تكون زوجاً لابنتي فإن هي رضيت، رأيت وجهي في الغد، وإلا . . .

ـ وإلا ماذا يا عم؟

ـ لا شيء، وإنما هي كلمة أردت أن أؤكد رغبتي وإعجابي بك، فأنا لا أجرؤ أن أرفض طلباً تتقدم به، خصوصاً بعد كل ما عرفته عنك.

وانتهى العشاء على أمل لقاء جديد. .

ومضى ماجد إلى غرفته، يرقب النجوم في هدأة الليل، فليالي الهدى نسيج يعرفه ويحبه، لكنه في هذه الليلة كان يرى أنه قد أصبح إنساناً على مفترق الطرق، وهو لا يدري لماذا أصبح متعلقاً بإنهاء هذه الخطبة، ألأنه خرج من زواج فاشل؟ ومن يدريه أن زواجه هذا لن يكون كسابقه؟

ومضى يقلب الأمر على جميع وجوهه، فهو لا يستطيع أن يؤكد بأنه قد أحب هذه الإنسانة التي لم يرها إلا لبرهة، لكنه يؤمن بأنه سيسعد، وهو يشعر بأن قلبه سيصدق معه هذه المرة.

ويمضي الساعات تلو الساعات يفكر في أمر القرية وأهلها، والحادثة التي أودت بوالديه، ومقدمه إلى هذه القرية، وأحاديثه مع كل أولئك الذين عرفهم، ثم مقابلته لصديقه، وأخته وزوجته، وأخيراً أحاديث هذه الليلة، ويحاول أن

ينام دون جدوى.

ويرن جرس التلفون هذه المرة، فيحس بأن هناك شيئاً ما لا يدريه، ويتحفز لإمساك سماعة التلفون، ويأتي صوت صديقه وهو يقول في مداعبة:

ـ أعرف أنك لم تنم، ولهذا رأيت أن أساهم بحقنة مورفين لتجعل مريضي ينام، كما نفعل نحن الأطباء عندما نجري جراحة ما.

وضحك ثم قال:

ـ دع هواجسك بعيداً، وألق بهمومك، فالحياة لا تساوي لحظة هم نضيعها فيه، واستمع لي جيداً، فأختي موافقة على خطبتك يا صديقي.

وأقفل السماعة دون أن يدع له أية فرصة ليرد عليه. وما كان منه إلا أن ألقى برأسه على وسادته وغط في نوم عميق تخللته أحلام هادئة وطويلة أيضاً.

غُرَبَاء بلا وَطَن

(رِوَايَـة)

ط ١ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م
ط ٣ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

كثيراً ما يكون المستقبل أكثر إيلاماً للنفس التي جبلت على الراحة والهدوء والطمأنينة والاستقرار، لا سيما تلك التي اختارت بعد طول عناء أن تستظل إلى جانب الأسوار العتيقة في رحلة دائمة مع عالم النسيان.

وهو من هذا النوع الذي جرب أنواع الحياة، وعرف حلوها ومرها، وشارك في صنع الأحداث واكتوى بنارها، فلم تبق الأيام من جذوة اندفاعة سوى ذلك المظهر اللامبالي، وكأنه يسير على حبل مشدود أقيم على مقربة من الأرض، ليستطيع اللاعب أن يصل إليها في سلامة دون أية إصابة حتى ولا بخدوش صغيرة.

ترى أين هو من الماضي؟ لقد ذهب الشباب وولى.. أكلته السنوات السود ولكنها لم تأكل قلبه.. ذلك الذي أصيب بشرخ كبير.

هذا الشرخ الذي أصاب قلبه ونفسه ولا يمكن أن يعود بحياته إلى سابق عهدها.. فلقد أدمت الأحداث قلبه الخافق وفكره الناضج، وأصبح مجرد رجل هدمته الأيام وجرحته أحداثها فلم يقو على تحملها كما كان.

وتطوف الذكريات داخل أعماقه وهو يمشي في غرفته الحقيرة في العمارة الشامخة على مقربة من شارع ماسبيرو في القاهرة، ينظر هنا وهناك إلى الشارع الجديد الذي رصف بإتقان، وأمام ناظريه صورة جميلة رسمتها يد فنان بارعة، وأضفت عليها من الجلال والجمال ما يأخذ بلبه.

فهو يحب هذا النيل ومياهه التي تنساب في رقة وعذوبة، ويعشق

صورة هذه اللوحة الملأى بأشجار النخيل الباسقة التي غرستها أيد مصرية صميمة.

ومن الخلف تبدو عشش الترجمان وكأنها تطأطىء برأسها خجلاً من المنظر الثاني.. وهو يمشي كثور ذبيح أردرته أكثر من سكين غادرة في غرفة كل أثاثها سرير مصري قديم، وسجادة إيرانية أكل الدهر عليها وشرب ملقاة على الأرض بلا مبالاة، وعدة كراس خشبية صنعت بها الأيام ما صنعت.

ترى أين هو اليوم من الماضي القريب والبعيد حقًّا؟

لقد شارك في ثورة مصدق، فكان يدها التي يضرب بها من حديد، وفكرها الذي يحدد سياستها أمام رجال الإعلام. ولقد اختار يومها عدداً كبيراً من كبار الشخصيات اعتقلهم في هدوء.

بضعة أيام كان خلالها أشبه بملك متوج.. لكن هذه الأيام لم تكن كافية لأن يمسك وزملاءه بالسلطة، بل ذهب بعد أن عرفت الجموع من أبناء إيران أن الهدف الذي قامت عليه هذه الثورة لم يكن كافياً لما فعلت.

لقد أعدم أكثر من ستة عشر ضابطاً، علق جثثهم على الأشجار، ثم مضى يخطب في الجموع الهادرة التي انفكت من عقالها في سعار ما بعده سعار.

هو لا يريد أن يعود إلى الحديث عن مسببات الثورة وأسبابها، فلقد استطاعت الشرعية في إيران أن تقضي على جميع معالم الظلم في ذلك الجزء من الوطن الإسلامي وعادت الثقة إلى مواطنيها.

وهو يعرف هذه الحقيقة ويعيها. يعرف أن الطريق الذي سلكه لتصحيح الأوضاع كان مجرد نزوة، لأن ما جرى بعدئذٍ على أرض فارس كان أكبر مما يحلم.

لقد وزعت الدولة الأراضي، وأغنت الفقير، وشاركت في بناء اقتصادياتها على قاعدة راسخة من التنظيم، وتسلمت مقدرات الزيت في بلادها، ومضت في أسلوبها التنموي جادة في صنع ما أحال تلك الأرض إلى ما كان يريد وأكثر مما يريد. ليته سمع كلام والدته العجوز يوم قالت له: «يا بني لا تستبق الأحداث فالأمور لا يمكن أن تأتي فجأة».

لكنه كان يريد التغيير لمجرد التغيير، فخانته القدرة وذهبت به الريح في رحلة طويلة مع الآلام.

لقد ذهب مصدق، وقتل «فاطمي»، وانتهت الثورة وبقي شيء واحد هي الأرض التي أحبها، وهو مع كل هذا لا يستطيع أن يصل إليها!

لطالما تمنى أن تقدر له العودة إلى إيران ليقبل أول حفنة من ترابها بضمة، لكن هذه الأحلام لم تتحقق.

ترى أين هو الآن مما مضى؟ فهو مجرد طبَّال صغير، عازف على الرق، يحمل أكبر درجة علمية في القانون.

أودت به أحلامه، فأردته إلى هذا الدَّرْك. وهو مع هذا يريد أن يتذكر، ويقلب أوراقه القديمة ثم يبدأ في قراءة ما كتبه على صفحات ذلك الدفتر.

وهو يذكر بوضوح رحلته الطويلة مع المجهول، كتبها بدمه. لقد استطاع الهروب من إيران في ملابس امرأة، واختار إحدى البواخر العتيقة ليصل إلى الكويت.

وفي الكويت أعطاه بعض أصدقائه بعض النقود، ساعدته فترة من الوقت للإقامة في هذا البلد، حتى إذا ما شارك في إحدى المظاهرات التي كان يغذيها بعض الساسة الغرباء عن هذا البلد، ألقي القبض عليه ورُحِّل إلى دمشق ومنها جاء إلى مصر، وعرض نفسه على رجالاتها الذين استقبلوه بشيء من التكريم، فقد كانت مصر أيام عبد الناصر على خلاف مع كثير من البلدان وفي مقدمتها إيران.

ولقد طاب له المقام في هذه البلاد، يتلقى أجر ما يبثه في إذاعاتها من سموم، حتى إذا ما نضب زيته، ألقي به في زاوية مهملة أسدل عليها ستار النسيان.

حتى أصدقاء الماضي الذين كانوا يستقبلونه في مكاتبهم لم يعودوا يستقبلونه.

لقد كانت حقبة جميلة من حقبات حياته، فلقد تخصص في انتقاء الخادمات الجميلات ليدفع بهن إلى المجد بأسلوب أو بآخر، وقد حقق

للكثيرات منهن أحلامهن.

وهو عندما يعود بذاكرته إليهن، إلى خادمات الأمس، يجد أن أكثرهن اليوم يقبضن على مركز الصدارة في عالم الرقص (هز البطن والوسط). لم يكن موسيقيًا محترفًا، وإنما كانت له أذن موسيقية تعرف طريقة عزف الأجساد الشابة ألحانها، ولهذا انصرف بكل جوارحه إلى عمله الجديد، يوفق بينه وبين ما يقدمه من شتائم عبر الإذاعة.

حتى جاءت آخرهن، فتاة بيضاء، ممشوقة القوام، سطحية التفكير، عميقة الهدف والتفاهة، تحمل أفكاراً كثيرة عن الحياة في القاهرة وقد اختارته بعد درس، لأنها كانت تأتي لزيارة صديقتها، خادمته السابقة، حتى إذا ما تخرجت تلك وخرجت عن دائرة الظلام إلى دائرة الضوء اختارت مكانها في بيته عن رضى.

وكانت سهاد فتاة ذكية لولبية الجسد، تجيد بالإضافة إلى طهي الملوخية وسائر المأكولات المصرية الرقص بجميع فنونه وأشكاله.

ولقد أحبها من كل قلبه، وشارك في صقل مواهبها في هدوء. وكانت سهاد من ذلك النوع الذي يأخذ ولا يعطي، فأخذت منه كثيراً، ولم تعطه شيئاً سوى النزر اليسير.

ومع هذا كان راضياً عنها، يجتهد في تعريفها على صفوة القوم من الفنانين الذين كانوا يؤمون داره، وكان يقدمها لهم على أنها صديقة، وصديقة جداً بعد أن اختار لها من الملابس ما هي في حاجة إليه. ويوم خرجت من داره أَفَلَ نجمه فاستغنى من كانوا يقدمون إليه المال عن خدماته، فغادر داره السابقة إلى هذه الغرفة، وأخذ يفكر في سهاد في إمعان وفي هدوء أيضاً.

ولقد حاول أن يجد أي عمل يستطيع أن يقوم به بلا جدوى، وطرق الأبواب دون أن يجيبه أحد، وعندها قر عزمه على أن يطرق بابها.

لقد مضى على غيابها عن داره أكثر من عامين، ومع هذا فقد استقبلته ببعض البشاشة يوم أطل عليها في شقتها الجميلة التي تقع في عمارة النيل، وأمضى معها أكثر من ثلاث ساعات حاولت خلالها أن تكون شيئاً جديداً مغايراً لما كانت عليه. وعندما عرض عليها أن يعمل كمدير أعمال لها رفضت

بإباء وشمم وقالت في تهكم:

ـ لا يوجد لدي مثل هذه الوظيفة، لكنني أعرض عليك عملاً تجيده، فأنا في حاجة إلى طبال يمسك لي «الوحدة» وأنت تجيد هذا العمل لطول ما مارسته معي في بيتك.

وخرج من دارها لا يلوي على شيء، ثم أمضى أياماً طويلة بلا أكل ولا نقود. وعندما عضه الجوع بأنيابه، وافق أن يعمل معها كطبال، وهو اليوم شبه سعيد لأن هذه الوظيفة تتيح له أن يرى جسدها عن قرب، وتتيح له أيضاً أن يمضي أوقاته مع أصدقائه، عجائز الساسة القدامى في كافتيريا الشيراتون.

وهو يمضي الليل في خدمة معشوقته التي أصبحت تعامله بفظاظة.. ويمضي النهار فيتحدث إلى مجموعة من زملائه، أولئك الذين اختاروا الالتقاء بعيدًا عن ديارهم كلاجئين.

لقد نسي كل شيء ولم يعد يذكر إلا أن بقية من العمر يجب أن تمضي، ومع هذا فهو يفكر، ترى لو قدر له أن يموت، من الذي سيقوم بمراسم دفنه؟ هؤلاء العجائز من أمثاله الذين جمعتهم ظروف واحد أم معلمته الراقصة خادمة الأمس التي تستخدمه في فرقتها كطبال محترف؟

ولم يطل به التفكير، وإنما بصق على الأرض، ونظر إلى المرآة المكسورة، وقال لنفسه: «لا عليك! لتأكل الكلاب هذه الجثة عندما أموت فحرام على الإنسان أن يهرب من بلاده ويصبح لاجئاً في أية بلد مهما كانت الأسباب والمسببات».

ومضى إلى داخل الغرفة يصلح من شأنه، فقد أزف موعد العمل في حانات الليل في شارع الهرم، ومعشوقته تعمل في أكثر من مكان.

وأسرع إلى الشارع ليلقي بجسده على أقرب كرسي في الأتوبيس، بعد أن باع سيارته القديمة في طريقه إلى الكاباريه الذي افتتحته صديقته في طريق إسكندرية، فاليوم هو يوم الافتتاح الجديد.

وعندما أعلن المذيع عن رفع الستار عن الراقصة اللولبية، كان صديقنا الدكتور سعادة وراء الراقصة يضرب بأصابعه على الدف الذي بين ركبتيه ليخرج

إيقاعه في هذه المرة قوياً، وقوياً جداً.

وفجأة رأى مجموعة العجائز من أصدقائه يختارون ركناً قريباً من المسرح، حتى إذا ما شاهده أحدهم ألقى إليه بالتحية، لكنه لم يستطع الإجابة، وإنما تسمرت عيناه على البقية الباقية من أصدقائه الذين التصقوا بكراسيهم، ونفرت الدماء من عروقه إلى وجهه لتصبغه بحمرتها القانية. وما هي إلا دقائق حتى أسلم فيها صديقنا الروح.

لكن أحداً في القاعة لم يحس بالمشهد، إذ سرعان ما جرى بعض رجال الصالة إلى المسرح يمسكون بالجسد الذي همد، ثم يلقونه في أقرب مكان دون أي تكريم أو حراسة.

الفصل الثاني

كل شيء في كافتيريا شيراتون بالقاهرة في مكانه. الكراسي والطاولات والآنسات اللواتي يجبن الكافتيريا في نشاط بملابسهن الزرقاء وعيونهن التي أتعبها الكحل، ووجوههن التي عبثت بها مستحضرات التجميل.

وهي على كرسيها المرتفع تداعب آلتها الحاسبة، تضع أرقاماً ثم تضيفها على أوراق الحساب التي تقدمها لها كل مضيفة. تنظر إلى المرآة التي تواجهها ليطالعها وجهها الذي حاولت أن يبدو ناعماً، فقد أمضت أكثر من نصف ساعة تحت الدوش تأخذ حمامها البارد بعد سهر متواصل في حفل دام ساعة متأخرة من الوقت، شاركت فيه مجموعة من الغرباء احتفاءهم بنجاح واحد من الطلبة، ساهم الحظ لأول مرة في إعطائه هذه النتيجة.

لقد ضحكت كثيراً وهي تستمع إلى تشنيعات زملائه على هذا النجاح غير المتوقع، فهو من أولئك الطلاب الذين لا يستعجلون النجاح. يمضي أكثر من ثلاث سنوات في كل سنة دراسية. أما هذا العام فقد كان نجاحه غير متوقع ومن أول سنة، وهو نفسه لا يدري كيف تم هذا.

وابتسمت نجاح عندما بدأت تستعيد تفاصيل الحفلة في تلك اللحظة، وابتسمت أكثر عندما شاهدت مجموعة اللاجئين يأخذون طريقهم إلى المائدة التي التصقوا بها منذ أول يوم افتتح فيه هذا الفندق. يأتون في الساعة العاشرة ويغادرونها عند الساعة الرابعة ظهراً. وكانت في كل مرة تضبط ساعتها على قدوم أولهم، وكان

سوري الأصل يمضي ساعات طويلة في صالة اللعب في الدور الثاني من الفندق. وهو على الرغم من سهره العجيب يجيء في موعده، وكأنه قد نام طوال الليل في استغراق، يمشي في هرولة وكأنه على موعد هام. لعمل هام أيضاً.

والتأم شمل القوم حول المائدة التي لو نطقت لتحدثت بأسرار عجيبة.. فعلى هذه المائدة خرجت أحاديث كثيرة تناقلتها الأسماع في ثقة فترة من الوقت، كثقة الدولة المضيفة بهؤلاء الضيوف.

ويوم سحبت الدولة ثقتها من هؤلاء العجائز، تناسى الناس أخبارهم وأصبحوا مجرد ديكور يمكن من خلاله أن يتعرف الوافد على جنسياتهم المختلفة.

لقد ضاقت مصر ذرعاً بمجموعات اللاجئين الذين استضافتهم بسبب ودون سبب، أما اليوم فلا حاجة لمصر لمثل هؤلاء الناس، فالسياسة تغيرت، وأساليب الساسة في مصر هي الأخرى تغيرت، أخذت ترى الحياة والحقيقة بشكل يختلف عن رؤيتها السابقة.

وباتت مصر في حاجة لإعادة الثقة في نفوس الشعوب العربية التي أحبتها ولا تزال. قد تكون صورة حفلة الأمس صورة مصغرة لما تراه، فشخصيات الذين حضروا، وتعدد جنسياتهم هي هي.. لكن أولئك الشباب على الرغم مما يفعلونه يظلون بالنسبة لهؤلاء الناس شيئاً جديداً مغايراً.. فهم بفنونهم وأحلامهم ينظرون إلى المستقبل.. أما هؤلاء الناس، وأشارت بعينها إليهم، فقد فاتهم القطار، نسيتهم الدنيا ونسيهم حتى أولئك الذين كانوا يقدرونهم يوماً لأنهم لم يعرفوا قيمة الوطن، معنى التصاقهم بالأرض، فهربوا مع أول زوبعة ليكونوا أداة من أدوات خصوم بلادهم.

لقد اندفعوا في ذلك واستمر أول اندفاعهم هذا حتى أصبحوا مجرد نماذج بشرية لا نفع فيها ولا ضرر، تأكل وتشرب وتتلمظ عندما ترى وجه فتاة شبه جميلة أو ساقاً حلوة، لا يملكون من الحياة إلا هذه النظرة المنكسرة من أهدابهم المرتخية، وهي تختفي وراء نظاراتهم الطبية الملونة.

لقد تكرمشت أجسادهم، فبدوا في بذّاتهم العتيقة وكأنها لم تكن يوماً

لأجسادهم، وبدا كل واحد منهم يثير الحزن والإشفاق في النفوس التي اعتادت أن تترحم على الماضي وذكريات الماضي عندما يرونهم.

فهذا سفير سابق جاء من العراق على عجل لمجرد خلاف بينه وبين حكومته، وهذا نائب سابق فضل قضاء عمره على ضفاف النيل بدلاً من بردى والشام، وثالث جاءت به طائرته من الجزيرة العربية لحظة طيش، ورابع وخامس وهكذا.

مجموعة غريبة متنافرة في السلوك والطباع، لكن رابطة واحدة كانت أقوى من كل هذا التنافر: الغربة والضياع.. ومع كل هذا فقد غاب عن مائدتهم واحد منهم.

ترى أين هو الآن؟ إنها المرة الوحيدة التي يتغيب فيها عم سعادة.

لطالما أحبت لغتها لغريبة التي ينطقها ملء فمه، وكأنه يتحدث العربية بالفارسية، وأعجبت بنكاته التي كان يلقي بها في أذنها كل يوم. أيكون المرض هو الذي حال بين صديقها سعادة وأصدقائه؟ لكنه ليس من هذا النوع فلطالما جاء إلى مكانه المعهود هذا، وهو يحمل بصمات المرض في وجهه وجسده بلا ملل.

وتعود إلى المضيفات الواقفات أمامها تدفع بأوراق الحساب في آلتها، ثم تعاود تفكيرها في الرجل.

ترى أين هو الآن؟ وتمد رأسها إلى قدامى الزبائن في فضول، لترى أن الصمت يحيط بالوجوه المتعفنة وكأن على رؤوسهم الطير.

لم يكونوا كعادتهم، فلطالما استمعت إلى أحاديثهم وثرثراتهم، إلى تعليقاتهم الهادئة والجريئة على كل امرأة تصل إلى الكافتيريا بمفردها. أما إذا كانت المرأة مع رجل، سواء أكان هذا الرجل زوجها أو عشيقها أو صديقها، فلا حديث وإنما نظرات غامضة يلقيها الواحد تلو الآخر على وجه المرأة وجسدها، وكأنه يريد بهذه النظرة أن يحيط بتفاصيل جسدها وما ترتديه من ملابس داخلية.

لقد أفسدت السياسة بينهم وبين بلدانهم، فلم يعودوا يهتمون بهذه

السياسة. إنهم يقرأون عناوين الصحف ليبحثوا في طياتها عن فضيحة جديدة ارتكبتها أنثى لتكون مادة لحديثهم الشهي.

لطالما استمعت إلى بعض من هذه الأحاديث بحكم قربها من مكانهم. . . وكانت تختلس النظر إلى كل وجه من هذه الوجوه لدرجة تستطيع معها أن ترسم كل هذه الوجوه دفعة واحدة. ليتها تفعل هذا! فهي بحكم هوايتها تجيد هذا النوع من العمل، لكن الصورة تظل ناقصة فها هوذا أحدهم قد غاب.

وتحاول نجاح أن تتذكر تفاصيل وجه الغائب دون جدوى. هي التي تعتز بأن ذاكرتها أقوى ذاكرة، وهي لا تدري لهذا من سبب، وتجهد ذاكرتها، علها تساعدها في احتواء الصورة. لكن معالم وجه صديقها غابت في اللحظة التي غاب فيها عن أصدقائه، وتستغرب نجاح هذا الأمر ثم تمضي إلى مكان المجموعة لتسأل عن صديقهم أين هو الآن؟ لكنها لا تسمع سوى كلمة واحدة رددتها الأفواه دفعة واحدة أيضاً:

ـ مات. . .

وتساءلت:

ـ أين مات؟. ومتى؟. أمس؟

ـ أما أين، فهذا الذي لا نستطيع أن نقوله.

وانفرد أحدهم يهمس في أذنها بكلمة:

ـ لقد مات وهو ينقر على طبلته في الكباريه.

ونظرت إليهم، ثم سالت:

ـ أو حقيقة ما أسمع؟

واهتزت الرؤوس بلا جواب لكن صمتهم لم يكن مقنعاً. فكيف يموت الدكتور سعادة هذه الميتة. فهو دكتور ومتخصص في القانون. لو كانت وكان يعزف على القانون لكان معقولاً. ثم تذكرت أن القانون غير آلة القانون التي يعزف عليها.

وحاولت استدراجهم لمعرفة الحقيقة، لكنهم جميعاً لاذوا بالصمت.

وعادت هي إلى كرسيها تتمتم مع نفسها: «لقد مات. . مات وهو يعزف على الطبلة». وسمعت البنات كلماتها تلك، فجئن مهرولات ليعرفن من الذي

مات.. وعندما عرفن، كانت حكاية تناقلتها أفواه البنات في كافتيريا شيراتون بنشاط.

وتساءلت إحداهن:

ـ ومتى سيشيعون جنازته؟ وهل سيشيعونها من مسجد عمر مكرم أم من مكان آخر؟

لكن أحداً من العجائز لم يقل شيئاً سوى أنه مات، مات جرياً وراء خادماته اللواتي صنع لهن المجد. أما جثته فلا بد أنها في طريقها للكلاب.

سألت نجاح:

ـ وهل تأكل الكلاب جثث الموتى؟

وأجاب أحدهم:

ـ نعم يا بنيتي، عندما لا يكون للإنسان أرض وأسرة وبيت، ثم يموت في الغربة تأكل الكلاب جثته لأنه لن يجد من يقدم له حتى ذلك الشبر من الأرض هدية منه لغريب.

إنها الحياة يا نجاح وستظل سراً مغلقاً على الكثيرين، وأنت واحدة من هؤلاء. لقد جرحتني الصدمة فبت أفكر في الموت أنا الذي لم أفكر مطلقاً فيه قد يكون السبب أنني وأصدقائي رأيناه وهو يموت، وقد نكون نحن السبب في موته.. لكنه سبب لا أستطيع أن أقوله لقد مات ويكفي هذا.

وانطلق عائداً إلى مكانه يتابع صمته مع المجموعة. حتى إذا ما أطلت إحداهن وكانت شقراء دعجاء العينين.. تمتاز بقوام طويل رائع وجسد صنعت مقاييسه بشكل خاص، استدارت الرؤوس ترمق الوجه والجسد والذراعين والساقين دفعة واحدة، ثم بدت الشفاه وكأنها تتلمظ المنظر. وفجأة عاد الحديث يطل من بين الشفاه المكتنزة المتعفنة التي جابت فيها فؤوس الأيام والليالي والسنين جيئة وذهاباً وكأن شيئاً لم يكن.

أما نجاح فقد ضربت كفاً بكف واستعاذت بالله من هذا الذي تراه. فهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم ساسة ومثقفين ألهتهم عن مصيبتهم إطلالة امرأة جاءت على عجل وخرجت على عجل، وكأنها على موعد مع الحياة.

أما هؤلاء، ونظرت إليهم، فإنهم على موعد، موعد مع الموت طبعاً.

الفصل الثالث

ألقت سهاد بذراعيها البضتين على الوسادة الحريرية الناعمة بعد أن وضعت على رأسها منديلاً مزركشاً صنعته لها خصيصاً إحدى صديقاتها . . وارتدت «روباً» هفهافاً يميل لونه إلى الزرقة الخفيفة، ورسمت على شفتيها ابتسامة مصطنعة بعد أن طلت خديها بشيء غير يسير من البودرة الحمراء، وأضافت إلى كل ذلك نقطة سوداء في أعلى خدها الأيسر، وأخذت تدردش مع إحدى صديقاتها عبر التلفون.

كانت الساعة تدق السادسة مساء وهي في شقتها في عمارة النيل، تنتظر زيارة الصحفي حسنين، الذي تحدث إليها في فترة سابقة طالباً هذا الموعد.

وهي الآن على الرغم مما مر بها، تشعر بأنها في أحسن حالاتها. فلقد مات ذلك الرجل الذي يعرف كل تفاصيل حياتها، وأصبح من حقها أن تختلق القصة التي اختارتها عن رضى، عن حياتها وأسرتها ووالدها الذي قضى نحبه لأنها اختارت الرقص كمهنة.

كل شيء في الشقة الصغيرة يدل على ضعف في الذوق وإفراط في اختيار الأشياء الثمينة دون ما حاجة، وكأنها تريد أن تثبت لزائريها أنها أصبحت تمتلك الكثير من الثروة. فإلى جانب الفاز الضخم في صالون الشقة، كانت هناك صورة كبيرة رسمها فنان مجهول في إطار صغير تشاركه على الجدار عدة صور للراقصة في ملابس متعددة وبألوان مختلفة. أما أثاث الصالون فكان هو الآخر

من النوع الفخم الذي لا ينسجم مع الديكور الذي اختارته ولا الألوان التي فرضتها.

أما غرفة النوم فكانت مزيجاً من عدة أذواق في الأثاث فإلى جانب الذوق الإسباني في كراسي الجلوس، كان سرير النوم من ذلك النوع الإيطالي المحفور، كما كانت تسريحة الغرفة من النوع الإنجليزي القديم، وكانت الراقصة قد اشترت كل هذه الأشياء من عدة مزادات باعت فيها بعض الأسر العريقة بعض ما لا تحتاجه لتدفع عن نفسها الحاجة والعوز.

وكانت سهاد من ذلك النوع الذي يلتقط الكلمات ويستعملها حتى دونما فهم لمجرد أن يعرف عنها بأنها مثقفة.. ولقد حاولت طوال سنواتها الماضية أن تفك الخط لكن هذه المحاولة لم تتح لها سوى التوقيع على العقود دونما قراءة.

عرفت بين الوسط الفني بأنها من ذلك النوع الذي لا يصاحب إلا من يجاملها ويتحدث عن فضائلها وفضائل أسرتها ـ العريقة. ولهذا استطاعت أن تستميل واحدة من قدامى الراقصات كانت بالنسبة لها الأم والمرشدة، وهي اليوم بمفردها في هذه الشقة لأن صديقتها قد غادرتها في زيارة قصيرة لأسرتها في الريف.

دق جرس الشقة، فقامت سهاد على أثره تفتح الباب للصحفي في تيه ودلال، تتدلى عبر روبها الواسع أشياء كثيرة من جسدها المكتنز وكأنها هي الأخرى ترحب بالصحفي، وتفتح له آفاقاً جديدة للكتابة عن الراقصة الكبيرة وفنها العريق.

وأخذت بيد ضيفها إلى غرفة الجلوس، ثم مضت إلى البار الصغير لتصنع شيئاً ما لها ولضيفها الذي كان يرمقها بنظرة فاحصة، وكأنه يقارن بين شكلها الحالي وما تظهر به أثناء رقصها.

لكن سهاد لم تلتفت إليه، وإنما تركت فخذيها يأخذان راحتهما في حضرة الضيف فربما ساهما هما أيضاً في ترسيخ معان جديدة يضيفها لريبورتاجه عندما يكتب عنها.

وانتقت بعض الصور الملونة التي دفعت بها إلى الصحفي والتي التقطت

لها على مهل وبعد أكثر من بروفة وقالت:

ـ ربما يساعدك النظر إلى هذه الصور في اختيار العناوين المناسبة للريبورتاج.

وأجاب الصحفي:

ـ ولكني قادم لشيء آخر.

وقالت الراقصة:

ـ أعرف هذا.. لكنه لن يكون قبل أن أقرأ ما تكتب.

وقال الصحفي:

ـ ولكن ما أريده غير ذلك الذي تفكرين فيه.

والتفتت إليه في دهشة وقالت:

ـ وهل تعرف ما أفكر فيه؟.

قال:

ـ نعم...

وضحك.

وأجابته:

ـ إذاً هيا قل ماذا تريد.

وقال الصحفي:

ـ أريد أن أعرف الصلة بينك وبين الدكتور.. هذه واحدة... ثم أريد معروفاً آخر.. أن تعطيني كل أوراقه.

فنظرت إليه في قسوة ثم قالت:

ـ لا أعرف الكثير عنه سوى أنه واحد من المعجبين، آثر أن يعمل كطبال في فرقتي على شهادته الكبيرة.

وأجاب الصحفي:

ـ قد يكون ذلك حقيقياً، وقد لا يكون.. المهم يجب أن أعرف الحقيقة.

وأجابت الراقصة:

ـ حقيقة ماذا؟

ـ حقيقة العلاقة بينك وبين الدكتور سعادة.

قالت سهاد:

ـ ولماذا تريد أن تفسد علينا بهجه بمثل هذا الحديث؟ سأقول ذلك لك يوماً ما عندما تشاركني كتابة مذكراتي. . .

وضحكت، لكن الصحفي لم يضحك وإنما قال:

ـ ولماذا لا نبدأ ذلك منذ الآن؟

أجابت سهاد:

ـ لا تزال هناك بقية من العمر أستطيع أن أضيف بها إلى صفحات المذكرات صفحات جديدة. وأنا إنسانة لا أريد أن أقدم ذكريات حياتي بالقطاعي.

وتابعت قولها:

ـ لقد كنت أظن أنك قادم لعمل ريبورتاج فني معي. . ولم أكن أتصور أنك تبحث عن شيء آخر.

وأجاب الصحفي:

ـ لا عليك. . لنبدأ من حيث ترغبين.

ومضى الحديث مملاً تافهاً بين الاثنين، حتى إذا ما جاء ذكر الدكتور سعادة قالت الراقصة:

ـ صدقني. . لقد كان صديقاً حميماً لوالدي وكنت أنا الطفلة أهتم كثيراً بوجوده في عزبتنا لأنه كان على درجة كبيرة من العطف. ويوم كبرت وعملت راقصة، حاولت أن ألقاه ليعيد الجسور التي تهدمت بيني وبين أسرتي ولكنه لم يفعل، بل ذهب إلى أبعد من هذا. لقد أحبني العجوز من كل قلبه، ورضي أن يعيش إلى جانبي مجرد طبال صغير في فرقتي الكبيرة.

ويوم مات شعرت بشيء من الارتياح لا لأنه ذهب، بل لأنني كنت أخاف نظراته وهي تلهب جسدي كسياط من نار، وأنا أدور وألف على خشبة الرقص.

كنت أشعر بها دون أن أراها فكم كانت رهيبة وقاسية نظراته تلك. ومع هذا رضيت أن أعطيه ما يريد ورضي هو بهذا العطاء. ولا أريد أن أظلم الرجل، فقد كان دكتوراً في القانون ودكتوراً في العزف على الطبلة.

وضحكت...

وقال الصحفي:

- لكن معلوماتي على نقيض ما ذكرت.. ومع هذا فسأتناساها مؤقتاً، ولن أفصح لك عنها إلا بعد أن أتحقق من كل ما عندي.. ويومها سأعود إليك. فإن صدقتني القول كتبت بطريقة لا تجرح، وإن لم تصدقيني تصرفت وفق ما يملي علي ضميري.

وأجابت الراقصة بدلال:

- ولماذا تمسك بالسلم من العرض؟ ألا يكفيك أنك معي؟

وحاولت أن تطوق عنقه بيديها، لكن الصحفي دفع باليدين البضتين بعيداً ولملم نفسه وأوراقه ومضى إلى الباب في طريقه إلى الدور الثاني في فندق شيراتون للقاء صديق آخر من أصدقاء الدكتور الذي مات فلربما استطاع عن طريق هذا معرفة ظلال جديدة في حياة الدكتور سعادة الذي أحبه يوماً ما. وأخذت أحداث ذلك اليوم الذي تلاقى فيه مع الرجل الذي مات تطل من بين ذاكرته في صور متسلسلة. فهو يعي بلا شك مراحل ذلك الحاديث الذي أثر فيه كثيراً وكثيراً جداً.

لقد قابل الدكتور سعادة في البيت والكافيتيريا وفي مداخل استديوهات الإذاعة المصرية، وكان في كل مرة يقابل فيها الرجل يشعر بشيء من الحد لهذا الغريب الذيي يمضي حياته وحيداً.

لكنه لا ينسى أول لقاء يوم اصطدمت سيارته بسيارة الدكتور بالقرب من فندق هيلتون وهو في عجلة من أمره لحضور اجتماع وزراء البترول العرب الذي يعقد هناك.

لقد ابتسم الدكتور وأعطاه بطاقته في عفوية رغم أنه هو المخطىء وقال له:

ـ سامحني يا حبيبي فأنت كما ترى كنت تسير خلفي فلم أرك، ولهذا اصطدمت سيارتك بسيارتي ولو كنت أمامي لاختلاف الأمر. ومع هذا فلا تدع هذه الحادثة تفسد عليك ما أنت قادم من أجله. خذ يا صديقي هذه البطاقة واتصل بي في الوقت الذي تراه مناسباً فقد أجد في صحبتك شيئاً من السلوى لغريب يعيش في القاهرة بمفرده.

وضحك ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء.

ومن يومها اجتمع إلى الدكتور سعادة أكثر من مرة وعرف منه أشياء كثيرة منها أن الكثيرات من راقصات مصر الذين يراهن هن من خريجات مطبخة.

ولقد قضى الدكتور سعادة نحبه تحت إقدام واحدة منهن، لكنها لم تكن الأفضل ولا الأجمل.

الفصل الرابع

ازدانت صالة اللعب في الدور الثاني بفندق شيراتون بالعديد من جميلات العالم العربي وأوروبا وأمريكا واليابان من أولئك اللواتي بهرهنّ نيل مصر وآثارها العظيمة المتناثرة في كل مكان من مدن وقرى. كما ازدحمت الصالة بعدد وفير من أصحاب رؤوس الأموال وطلاب الحظ ممن جاؤوا يجربون حظهم في الألعاب المختلفة.

وعلى كرسي عال جلست فتاة دقيقة تفاصيل الوجه والجسم، ترتدي كيمونو غالي الثمن، على مقربة من رجل أنيق تدل ملامحه على أنه قادم لتوه من الشرق الأقصى ترقب دوران الكرة وهي تجري على عجلة الروليت لتستقر على الرقم ١٣.

وكانت عينا الحسناء هي الأخرى تجري وراء الكرة يمنة ويساراً وكأنها تستعطف في تلك اللحظة الكرة الصغيرة بأن تقف على الرقم الذي اختارته. وعلى مقربة من الفتاة الشرقية الملامح، كانت هناك أنثى شقراء اختارت ملابسها بعناية وكشفت عن نصف ظهرها في لا مبالاة، ترفع خصلات شعرها المتناثر بيدها في عصبية ترمق الرقم الذي حطت عليه الكرة في أمل، حتى إذا ما تبين لها أنه كان رقمها المفضل افتر ثغرها عن ابتسامة.

وامتدت يد اللاعب لتضيف إلى مجموعة الفيش مجموعات كبيرة تناولتها الشقراء بلا مبالاة، ثم نظرت إلى صديقها الذي كان يرمق ربحها في إعجاب.

كما كان في الطرف الآخر مجموعة من الرجال والنساء من شتى الجنسيات يجربون حظهم في لعبة البكاراه بمبالغ خيالية سال لها

لعاب الصحفي الذي تسلل إلى الصالة بأكذوبة صغيرة، فقد كان ممنوعاً دخول المصريين إلى هذه الصالة.

وأخذت الساقيات بكؤوسهن المترعة ولباسهن الغريب الذي يكشف أكثر مما يغطي أجسامهن يجرين هنا وهناك، يلبين أوامر السادة الذين شدت أجسادهم إلى كراسيهم وكأنهم في معركة المنتصر فيها مهزوم في نظر اللاعب.

والتفتت إحدى السيدات العربيات لتنادي بصوتها الرخيم:

ـ دجلة!

والتفت معها أكثر من شخص لأن الاسم كان غريباً.

لكن دجلة أجابت على الفور وكانت واحدة من ساقيات الصالة:

ـ نعم.

وألقت السيدة بأوامرها في تعال، ثم انصرفت إلى معاودتها اللعب في هدوء بينما أخذ الصحفي حسنين يتحدث إلى الساقية قائلاً:

ـ أهو اسمك أم إنه مجرد اسم تعارف عليه بعض هؤلاء الناس؟

وأشار إلى السيدة... قالت:

ـ لا. بل هو اسمي الحقيقي الذي أعطانيه أبي، فقد كان أبي واحداً من المدرسين الذين عملوا فترة في العراق وكان يرافقه في عمله هذا أخوه الذي سمى ابنته بالفرات، وهي كما ترى تقف هناك. إنها تعمل معي منذ أكثر من عام ونصف، وأنا، كما لا تعرف، أهوى هذا النوع من العمل لأنه مربح وسخافات الزبائن تهواها هي الأخرى.

وضحكت دجلة وقالت:

ـ أظنك لم تقرأ قول الشاعر: «والغواني يغرهن الثناء»؟ وأنا بطبعي فتاة استعراضية جربت أنواعاً كثيرة من العمل الذي يعطيني فرصة استعراض أنوثتي وجمالي لكن.. وهذا هو المهم، ولك أن تصدقني أو لا تصدق فأنا فتاة محافظة أبحث عن زوج.

وضحك حسنين وقال:

ـ وهل تعتقدين أنك ستجدينه هنا؟

وقالت دجلة:

ـ لا أدري، لكن قلبي يحدثني بأنه سيأتي.

وضحكت ثم قالت:

ـ ربما تكون أنت.

وأجابها حسنين:

ـ بودي أن ألبي هذا الطلب لولا أنني متزوج، ومصري.

وقالت دجلة:

ـ خسارة أن تكون متزوجاً. لكني لا يمكن أن أصدق بأنك مصري لأن هذه القاعة محرمة على المصريين.

وأجاب حسنين:

ـ لا عليك.. عرفت كيف اختار طريقي إليها بلا عناء. فأنا صحفي وبودي أن ألقاك يوماً ما فأنت مادة ثمينة لريبورتاج يظهر في صفحات المجلة التي أعمل بها.

ثم قال:

ـ صدقيني فأنا أبحث عن رجل لا امرأة.

وقالت دجلة:

ـ وما اسمه؟

الأستاذ:

ـ زياد.. من سوريا.

وضحكت دجلة ثم قالت:

ـ ستجده هنا بعد ساعة عندما يحصل على قيمة ما يلعب.

وقال حسنين:

ـ وكيف يحصل على ذلك؟

وضحكت دجلة وقالت:

ـ إنه كما تعرف من اللاجئين السياسيين الذين أضناهم الدهر، أدمنوا

القمار، حتى إذا بخلت عليها الدنيا بالمال لجأ إلى الوساطة ليلعب أما إذا لم يكن معه أي شيء فيكفيه أن يمضي، فنحن كما ترى في هذه القاعة لا نقبل من يلعب بغيرها. وعندما تتحقق له بعض الأرباح عن هذه الطريقة يأتي ويلعب. أما إذا لم يكن معه أي شيء فيكفيه أن يمضي وقته يتطلع إلى الروليت في شغف يتابع الرابح والخاسر ويحصي ربح الرابح، وينسى في غمرة إحصاءاته جميع من يخسر. إنه نسيج وحده أعرفه منذ أن عملت في هذه الصالة. يأتي بميعاد ويخرج بميعاد، ويظل دائماً مشدوداً إلى هذه الآلة.

ـ وأنت يا دجلة هل جربت اللعب؟

وضحكت دجلة ثم قالت:

ـ على قلوب بعضهم ممن يلقون بها بين أيدينا، فأنا يا صديقي فراشة من فراشات الليل أهوى الأضواء لكنني لا أقترب منها بالدرجة التي تستطيع أن تحرقني.

وقال حسنين:

ـ أنت فيلسوفة علمك الليل أسراره. فلم يبخل بها عليك، فهل«فرات» مثلك على هذه الدرجة من الذكاء؟.

وغمزت بعينيها إلى الفتاة التي أصبحت بجانبها وقالت للصحفي:

ـ لقد كانت أستاذة عظيمة علمتني أسرار الحياة انظر إليها لتراها وهي على مقربة منك فهي أنثى عظيمة صاحبة تجارب حاولت أن تجنبني هذه التجارب لا لأنها كانت أكبر مني سناً، وإنما لأنها كانت أقدم مني في العمل فنحن في سن متقاربة، وستعجب عندما أقول لك بأن هذه الفتاة التي تراها بجانبك قد أدت فريضة الحج، وكأنها بأدائها الفريضة تريد أن تكف عما فعلت، وهو ليس بالشيء الكثير.

وضحك حسنين وتابع قوله:

ـ أتعرفين الدكتور سعادة؟

وقالت فرات:

ـ ومن الذي لا يعرف الدكتور؟ لطالما قدم إلى هذه الصالة مع الأستاذ زياد ومع بعض معارفه من أبناء إيران. لكنه كان مع كل هذا لا يشرب ولا

يلعب. تأسره الكلمة الحلوة واللفتة الجميلة والعيون الناعسة. وهو يجيد تنسيق الكلمات إجادته للأكلة الإيرانية المعروفة: «شالو كباب» التي كان يصفها في تيه لبعض أصدقائه. لقد ذقت هذا النوع من الطعام يوماً ما قبل ثلاث سنوات. أما في هذه الأيام فقد اختفى الدكتور، ويقولون إنه عاد إلى بلاده بعد أن رضيت السلطات هناك عن عودته.

وقال حسنين:

- لا. فالدكتور لم يعد وإنما مات، مات وهو يطبل تحت أقدام راقصة.

وقالت فرات:

- أوتضحك مني أم تهذر معي؟

قال:

- لا، ولكنها الحقيقة.

ونطقت الفتاتان في وقت واحد:

- رحمه الله، فقد كان طريفاً محدثاً لبقاً يجيد إلقاء النكتة رغم لكنته الفارسية. لكن ترى لماذا لم يقل لنا ذلك الأستاذ زياد؟ لقد سألناه عنه فقال بأنه عاد إلى بلاده.

وفي تلك اللحظة دخل الأستاذ زياد في بدلته القديمة وجسمه النحيف يضع على عينيه نظارته الطبية السميكة، يمشي وكأنه يحمل هموم الدنيا، فنادت عليه دجلة وقالت:

- أستاذ زياد.. أستاذ زياد.

والتفت إليها الرجل فتابعت قولها:

- هذا صديق يريد أن يراك.

ومضت في طريقها لتلبية رغبة الشقراء التي ألقت أوامرها في خشونة، وكأنها بكلماتها تلك تستعجل ما طلبت، بينما أخذ الأستاذ زياد يقلب نظره فاحصاً وجه الصحفي حسنين الذي التفت إليه بهدوء وقال:

- حسنين؟

وأجابه الأستاذ زياد:

- مرحباً.. ولكن هل تعرفني؟

وقال حسنين:

ـ ومن الذي لا يعرف جهادك في سبيل القضية؟ لقد قدر لي أن أقرأ كل ما فعلت يوم كنت شيئاً مذكوراً.

ونظر إليه الرجل في استغراب وقال:

ـ شيئاً مذكوراً؟ أو تظنني الآن غير ذلك؟

وأجاب حسنين في اعتداد:

ـ نعم.

ورد عليه زياد:

ـ ولماذا إذن تريد أن تراني ما دمت قد أصبحت شيئاً منسياً؟

وأجاب الصحفي:

ـ ربما لأنني أريد أن أعرف حقيقة ما فعلت بك الأيام، ليكون درساً لغيرك من أولئك الذين يهربون من أرضهم إلى أوطان الآخرين. ربما.

وكتم الأستاذ زياد غيظه وقال:

ـ ومع هذا، فأنا لن بخل عليك بما تريد إذا عرفت هويتك.

قال حسنين:

ـ أنا صحفي من أخبار اليوم، جئت أتتبع حياة الغرباء في أرض الكنانة.

لكن الأستاذ زياد عندما سمع كلمة صحفي ترك الرجل في مكانه وانصرف، وكأن ألف عفريت قد ناخ بكتفيه.

وهرول حسنين ليلحق به، لكن الأستاذ زياد كان أسرع منه في الهروب، فلم يستطع اللحاق به، وبقي يفكر في الرجل الذي تعود الهروب من المواقف السهلة والصعبة معاً.

ترى أتكون البقية الباقية من أصدقائه على هذه الشاكلة؟ ونظر إلى ساعته ثم مضى في طريقه إلى بيته وهو يفكر في أحداث الليلة التي أمضاها. لقد كانت ملأى بالعديد من الصور استطاع أن يصل إليها دون عناء، ومع هذا فهو يأمل أن تكتمل صور الغرباء في ذهنه، ليقدمها إلى قرائه الذين لم يتعودوا على هذا النوع من الناس.

الفصل الخامس

أمضى الصحفي حسنين طوال الليل في مكتبته الصغيرة يقلب أكواماً من الصحف يطالعها في أناة، وكأنه يبحث عن شيء ما في هذه المجموعات. وكان يدفع بما يراه مناسباً له إلى طرف المنضدة الصغيرة التي اكتظت بأوراق كثيرة هنا وهناك في فوضى عجيبة.

لقد أمضى ما يزيد عن أربع ساعات يبحث وينقب عما نشرته صحف تلك الأيام عن أصدقائه الغرباء، وينتقي ما يراه مناسباً ليطالعه في أناة.

وها هي صفحات الصحف تتراكم على منضدته هي الأخرى، وكأنها تمد بلسانها له وتحثه على قراءتها.

ترى لماذا يتغير حال الناس هكذا؟ من الضوء إلى الظل ومن الظل إلى الأضواء دفعة واحدة؟

قد يكون الدكتور سعادة واحداً من أولئك الذين عاشوا فترات حياتهم في الظل، لكنه يوم طفا على السطح، وظهرت صورته كاملة تحت الضوء كان أكثر من صحفي يجري لاستلهام مواقف هذا الرجل. وهو هنا لا يريد أن يكون حكماً على ما يختاره الناس لأنفسهم من مواقف، لكن ما يريده هو أن يعطي قراءة صورة حقيقية لواقع الحياة التي يعيشها كل الناس.

لقد جبل الناس على النسيان، لأن ذاكرتهم وهي تشيخ مع أعمارهم تؤكد هذه النتيجة، فالذاكرة عبارة عن غربال تنفتح عيونه عندما يريد الإنسان أن يلفظ ما لا يريد أن يتذكره. وهو غير هؤلاء، فلقد اعتاد أن يصنف كل ما يعرفه في ذاكرته، وكأنه يصنع لمن يراه

من الناس ملفات خاصة يستخدمها وقت اللزوم، وهو اليوم أحوج ما يكون لمزيد من المعلومات عن الرجل الذي قضى نحبه.

كيف كانت حياته؟ وأين عاش؟ وما هي تصوراته للحياة التي مارسها؟ وشعوره نحو الذي فعله يوم استولى على مقاليد السلطة؟ وطريقة هربه، والسنوات التي أمضاها كمقاول في مدينة الكويت؟ وما هو نوع أصدقائه الذي كان يعاشرهم؟ وطريقة تفكيره، ووصوله إلى القاهرة؟ أشياء كثيرة يريد أن يعرفها عنه وعن بقية الغرباء؟ هكذا أسماهم وهم جديرون بهذه التسمية.

ولقد قابل أكثر من واحد من أبناء الجالية الإيرانية في مصر، لكن كل من قابلهم لم يشفوا غليله، وإنما أضافوا إلى معلوماته عن الرجل معلومات هزيلة لا تعطيه القدرة لأن يتبين الخيط الأبيض من الأسود لدى الرجل.

أما عن حبه للخادمات وتفضيله لهن، فقد عرف أسباب هذا الحب ومسبباته، عرفها بعد أن قرأ قصة حياة والدته. فهي على ما يبدو واحدة منهن، اقترن بها أبوه خوفاً من الفضيحة. ومع هذا فقد استطاعت هذه الخادمة أن تسيطر على زوجها، وأن تنفخ في صدر ابنها، فترسخ معاني الثورة في نفسه على الحياة التي تعيشها الأسر الناعمة في إيران رغم أن أباه هو الآخر كان من هذا النوع من الأسر الغنية.

كما غرست أمه في نفسه حب المشاكسة، فكان في كل يوم يفتعل حادثة ما مع واحد من زملائه من أبناء الأسر الغنية في مدرسته الثانوية. ولقد هدد بالطرد من المدرسة أكثر من مرة، لكن والده استطاع في كل مرة أن يجنبه هذه النتيجة.

وعندما وصل مرحلة الدراسة الجامعية التحق بأكثر من حزب، وشارك أفراد الحزب الشيوعي اجتماعاتهم، واستمع إلى خططهم ومخططاتهم، وعرف ما يريد أن يعرف عن رجالات هذا الحزب. ومع هذا فلم يبق طويلاً في انتماءاته لهذا الحزب، وفضل عليه انتماء جديداً لحزب بدأ يتبلور. كان يسمي هذا الحزب تسمية مغايرة لما يسميها الآخرون لأنه يعتقد أن مستقبل إيران هو الذي يجب أن يحدد هوية هذا الحزب.

ويوم اجتمع إلى مصدق أعجب بالرجل، فشارك في الالتصاق به

وبمؤيديه، حتى غدا شخصاً مرموقاً يعتمد عليه ويعتد بآرائه. وكان يبني كل أفكاره على أن الغرب ينهب خيرات بلاده، ولهذا يجب عليه أن يوقف مسيرة هذا النهب.

لقد قرأ أكثر من كتاب، ودرس جميع الثورات، بما فيها الثورة الفرنسية ذاتها، ونسي أن من قام بهذه الثورة لم يحقق شيئاً، وأن الحياة لو استمرت في فرنسا كما كانت أيام الملكية، لوصلت فرنسا إلى أكثر مما وصلت إليه دون إراقة هذه الدماء الغزيرة التي روت أرض باريس وشوارعها المختلفة.

معلومات كثيرة استطاع أن يصل إليها وهو يبحث وينقب، يناقش كل من يقابله، يقرأ جميع أفكار الرجل وكلماته التي تناقلتها الصحف. ومع هذا، لشد ما تغير الرجل في أخريات حياته، فلقد كفر بجميع المبادىء التي اعتنقها وكان يضحك وهو يقول:

ـ لقد استطاع الشاه أن يفتت كل مبادىء وآراء الثورة وأعطى شعبه أكثر مما يرغب.

إن نظرة واحدة على شعب إيران يشعر معها كل صادق مع نفسه بأن الشاه استطاع أن يغني شعبه ويوفر له إمكانات العيش بكرامة بأسلوب علمي أعطى أكله وظهرت صوره، واستمر هذا التطور الملموس في العمران، في الصناعة. في تربية المجتمع والجيل الجديد الذي يتطلع إلى المزيد من هذه الأعمال.

لكن ترى ما هو موقف صديقنا الآخر الأستاذ زياد من الحياة التي يمارسها اليوم؟

لماذا يصل الغرباء في مصر إلى الهاوية بلا عناء؟ وما هو موقف الآخرين من حياتهم التي يمارسونها اليوم؟ أو تكون قسوة الحياة قد أخفت جذوة أحلامهم التي كانت تجيش في صدورهم، أم أن شيئاً لا يدري كنهه ساعد في صنع هذه النهاية لهم؟

وسرح بناظريه إلى المائدة الصغيرة التي يتجمع عليها هؤلاء السادة في فندق الشيراتون كل يوم من الساعة العاشرة صباحاً وحتى الرابعة ظهراً، وقر عزمه على أن يفاجىء القوم في جلستهم المريحة يوم غد، وانخرط في نوم لذيذ لم تقطعه عليه سوى أحلام متفرقة أظهرت صور القوم على أشكال متباينة لكنها

ظريفة، وظريفة جداً.

وقام في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثاني وقد استعاد وجهه سابق بشاشته، وأمضى بعض الوقت يحلق ذقنه ويرتدي ملابسه، ثم مضى في طريقه إلى الموعد الذي ضربه مع نفسه غير عابئ بصيحات والدته التي كانت ترجوه أن يتناول إفطاره بلا جدوى.

استقبلت ناديا الصحفي حسنين بابتسامتها اللاهية ووجهها الأسمر وقامتها الطويلة، ثم مضت تسمعه آخر نكتة سمعتها من واحد من أبناء الخليج نقلها إليها في كلماته البسيطة، لكن حسنين لم يضحك كعادته في كل مرة وإنما مضى يبحث بناظريه عن أصدقائه الذين يعرفهم جيداً وإن كانوا لم يعرفوه. كانت المائدة خلواً من أكثر الأصدقاء، ولم يجد أمامه سوى واحد منهم بكرشه المنتفخ يدخن سيجارة في شراهة.

نظر الصحفي حسنين إلى إحدى المضيفات وقال في هدوء:

ـ فنجان من القهوة يا آنسة ابعثي به إلي على تلك المائدة.

كان الرجل يتصفح له، وعندما شعر أحس بشيء من الانزعاج، فهو لم يتعود على مصاحبة غريب رغم الغربة التي يعيشها. وعندما عرف اسمه ابتسم في هدوء وقال:

ـ ماذا يريد صديقنا الصحفي؟

وقال حسنين:

ـ لا شيء سوى أن أضيف إلى معلوماتي شيئاً جديداً ينقصها. فأنا يا سيدي أعرفك جيداً، فأنت من بلاد الشعراء، من العراق الشقيق كاتب لك الصولة والجولة، ولكنك رضيت أن تتنازل عن هاتين الصفتين لأمور ما قد لا أدري كنهها، ومع هذا ورغم أنك شاعر، وشاعر مجيد فإن الناس طوال سنوات لجوئك لم يسمعوا منك أي بيت من الشعر.. لماذا؟

وصمت.

وقال الرجل:

ـ لقد تحدثت في سابق عمري بما فيه الكفاية.. وأنا اليوم أعطي عقلي

وقلبي وقلمي راحة طويلة. ولقد استمرأ شيطان شعري هذه الراحة فلم يفتح علي بعد طول صمت بأي بيت من أبيات الشعر.

لقد مر بي من المناسبات والأحداث ما هو جدير بالتسجيل، لكن قلمي يأبى أن يطاوعني هو المطواع الأول لي في مقتبل عمري. انظر إلى تلك السيدة بوجهها المشرق وابتسامتها اللاهية ومظهرها الطفولي. أليست جديرة ببيت شعر يصف جمالها ويجسد جسمها؟

وضحك. لكن حسنين لم يضحك، وإنما تابع قوله:

- ليس هذا ما أردت أن أعرفه منك وإنما أشياء أخرى تجهلها. فأنت كما أرى ميت حي ترمق الأيام لترى دورتها بلا مبالاة بعد أن كنت على غير ما أنت عليه.. فلماذا هذا التبدل؟

وأجاب الرجل قائلاً:

- لا تنكأ الجراح يا هذا.. فلقد ذهبت جذوة الشباب، وشاركت محنة الحياة في كسر طوق النجاة بالنسبة لنا نحن الغرباء.

لقد غرر بنا.. بل الأصح أننا غررنا بأنفسنا فلم نبق على الخيط الرفيع الذي يشدنا إلى بلادنا. واستنفد من استنفد ما يريده منا. وعندما لم يعودوا في حاجة لنا ألقوا بنا هكذا، كما تلقي أنت أية ليمونة بعد عصرها على طبقك.

هكذا كانت الحياة بالنسبة لنا، فقد جرينا وراء شعارات رفعناها قضت على شعار فلسطين وأزاحته، بل وساهمت في إخراجه من الساحة. وكانت هذه الشعارات بالنسبة لنا شيئاً هاماً، لكن وبعد طول زمن عرفنا حقيقة هذه الشعارات، لا لأنها أزاحت الشعار الفلسطيني من المعركة، وإنما لأن الهدف من إقامتها حرمنا من أي عمل جاد.

لقد خسرنا حرب ٥٦ و ٦٧ ويوم كسبنا حرب رمضان، قامت مشكلة لبنان لتجسد أطماع السادة الذين انحسر تواجدهم على أرضنا بأسلوب جديد آثار الحفائظ بين المسلم والمسيحي، وحتى بين الفلسطيني والفلسطيني، وكأن المشكلة هي مشكلة العيش على أرض لبنان، بينما المشكلة الرئيسية في نظري هي فلسطين وطريق العودة إليها.

لقد غررت بنا طفولتنا السياسية فلم نر المستقبل ولا حتى الطريق إليه. وقمنا عن رضى كأداة طيعة لأفكار وأهداف جانبية استفاد بها بعضهم، حتى إذا ما انتهت استفادتهم منا ألقوا في الطريق.

صدقني. إنني أضحك من كل قلبي كمعتوه على هذه النتيجة. فلقد قالها لي أحد أصدقائي من الساسة المرموقين، لكنني كنت يومها في قلب المعركة فلم أع حقيقة قوله، ويوم عرفتها أجد نفسي في ضحك متواصل في أعماق نفسي، لا لأنني مجنون، وإنما لأنني كنت مغفلاً، ومغفلاً كبيراً.

وصمت.

ـ ولكن ألا يكفيك يا صديقي أنك تعيش؟.

قالها حسنين، فأجاب الرجل:

ـ نعم عيشة من ينتظر الموت بين لحظة وأخرى. أنا أعرف ما تقصد من كلمتك ولكن صدقني عندما أقول لك بأن الدكتور سعادة قد استراح من هذه الحياة. فأنا صادق. فمتى أرتاح أنا الآخر؟

وأطرق الصحفي برأسه ولم يرد، وإنما مضى يرتشف فنجان القهوة الذي جلبته المضيفة في هدوء، وملء رأسه كلمات كثيرة آثر أن يبقيها في صدره فترة من الزمن.

لكن الرجل لم يصمت بل تابع الحديث:

ـ أبحث بين صحفك ومجلاتك عن مواقفنا، ولا أدري إلى أية نتيجة سينتهي بحثك. لكن ثق أنه مهما كان قولك عنا فإني أعتبره أقل بكثير مما أحس به وأشعر.. لقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا شعوبنا وآن لنا أن نكفر عن هذا الظلم. إن الصدق بمعناه الواسع يتمثل في صدق الإنسان مع نفسه، ولقد بلغت هذه الدرجة من الصدق بعد فوات الأوان، فأنا عندما أقول ذلك كله أؤمن به وأعتقده.

انظر حولك إلى العربي، ستجد أن هذه الخريطة التي أردناها موحدة قوية لا تزال كما هي.. ومع هذا ورغم مظاهر القوة التي نلاحظها تنمو في بعض البلدان العربية، إلا أن المستعمر الذي خرج من بلادنا من أوسع الأبواب يعود

اليوم من النافذة إذ الإنسان، أي إنسان، لا قيمة له خارج وطنه.

وأنا عندما أقول هذا أؤكد حقيقة توصلت إليها لأنه إذا آن للإنسان أن يموت، فليس داخل بيته وعلى أرض موطنه بدل من هذا الموت البطيء الذي يمارس علينا اليوم.

لقد كرهت القراءة، ومع هذا أحاول أن أتسلى بقراءة ما ينشر، وأنت تعرف الفارق بين القراءة للتسلية والقراءة للاطلاع، وعندما أقول بأنني أقرأ اليوم لأبعد عن نفسي شبح هذا الضيق فأنا صادق.

قد يكون الماضي بجميع أخطائه بالنسبة لي شيئاً هاماً، فقد خرجت من دراسة الماضي بنتيجة واحدة هي: أن لا يهرب الإنسان من وطنه مهما كانت الأسباب والمسببات.

قد تكون أنت اليوم في مقتبل عمرك أكثر تجربة من بعضهم، لأنك قادر على فهم حقيقة المواقف أكثر منا، وربما لأننا نحن الذين عبدنا طريق الفهم أمام أمثالك. فعندما كنا في مثل عمرك كنا أكثر اندفاعاً وراء ما يرفع من شعارات وطنية براقة. لكنني بعد هذا العمر، وبعد دراستنا المتأنية لكل هذه الشعارات، خرجنا بنتيجة واحدة هي أن الأذكياء هم المستفيدون الأكثر ممن يرفع هذه الشعارات، على اعتبار أنهم عندما يمسكون بأيديهم على زمام السلطة ينسون كل شيء. ولا يهمهم سوى أن يتشبثوا بالبقاء على الكرسي أكبر مدة ممكنة.

لقد حاربنا الشرعية في بلادنا مدفوعين بما كنا نتوارثه عمن كانوا يسمون أنفسهم بالتقدميين، فهدمنا الهيكل على رؤوسنا، كما هدم اليهود هيكل سليمان. ولولا بقية من حب البقاء، لفقدنا عقولنا بعد أن فقدنا المنطق.

إننا عندما نفكر في أخطاء أولئك الذين حاربناهم فترة من الزمن، نجد أن ما ارتكبوه من أخطاء يمكن أن يقوَّم أما أخطاؤنا نحن فهي التي ستظل على جبيننا تلتصق به كوصمة عار لا يمكن للزمن أن يمحوها.

لقد أنستني حياتي التي أعيشها، وخوفي من مجيء اليوم الذي يلي يومي، على غير ما مر به يومي يجعلني دائماً كطائر جريح فقد قدرته على التحليق والطيران وظل أسير جراحه على الأرض الصلبة يرمق المجهول الذي ينتظره.

قد تغرك يا صديقي نظراتنا التي نرمق بها شباب أية امرأة تجيء إلى هذا المكان، لكن هذه النظرات ليست سوى مظهر من مظاهر تشبثنا بالحياة التي جرينا وراءها.

لقد طلقت السياسة يا صديقي، وطلقت الشعر وكفرت بمعاني الكلمة، ونسيت قلمي في أحد أدراج مكتبي العتيق منذ سنوات طويلة بلا أسف. وهل يأسف مثلي على فقدان هذا القلم الذي خططت به كلماتي الملتهبة، وأشعاري النارية وخطبي التي كانت تتناقلها صحف الحزب ويتداولها الناس؟

لقد نسي الناس كل ما قلت وجميع ما كتبت، وأملي أن تظل يا صديقي في ذاكرة الناس عندما تتقدم بك السن، فليس أقسى على الكاتب والأديب والشاعر أكثر من نسيان الناس له.

لكنها حقارة المجتمع الذي نعيش، أو حقارتنا نحن، سيان ذلك عندي لأننا لم نستطع أن نصل إلى المبادىء التي نؤمن بها بأسلوب البناء لا الهدم، والعمل لا التجريح.

أوتدري لماذا مات صديقنا الدكتور؟ لذلك في نظري قصة سأقصها عليك يوماً ما.

ولملم الرجل نفسه ثم مضى إلى خارج الكافتيريا تاركاً حسنين ينظر إليه في بلاهة دون أية كلمة وداع.

الفصل السادس

أمضت سهاد جل وقتها منذ الرابعة عصراً وحتى السادسة عند صالون الأسطى إبراهيم مصفف الشعر المعروف والذي اختارته مؤخراً بعد أن عرفت بأن غريمتها رباب تصفّف شعرها عند هذا المزين النسائي الذي درس فنون التزيين في باريس مدة عامين، والذي اشتهر بقدرته العجيبة على اختيار أحدث الموديلات النسائية المستوردة.

واستخدم الأسطى إبراهيم مجموعة من الحلاقين الشباب الذين أطالوا شعورهم، وهندسوها وفق أحدث موجات الموضة ليكونوا بمثابة ديكور لصالونه الفخم الذي امتاز أيضاً بوجود فتاتين يونانيتين، يخال الناظر إليهما أنهما جاءتا لتوهما من أثينا، بينما واقع الحال يؤكد بأن الفتاتين من سكان حي الظاهر القريب من حي الفجالة.

وقد أجادت كلا الفتاتين عملية المونيكير والبوديكير وأصبحتا بارعتين في طلي أظافر النساء وتقليمها وفق خطوط الموضة.

ويقع الصالون على مقربة من شارع سليمان باشا، هذا الشارع الذي يكتظ بصنوف من الناس جاء أكثرهم للفرجة على من يسيرون بهدف وبلا هدف.

وكانت سهاد جد راضية عن اختيار الأسطى إبراهيم لتصفيفة شعرها الجديدة، فلقد أضاف إلى شعرها الأصلي عدة بوستيجات أضافت إليه شيئاً من الكثافة واللمعان، ودفعت سهاد قيمة هذه البوستيجات مضاعفة عن رضى، ثم نفحت صاحب الصالون وأجراءه مبلغاً غير يسير من المال كدليل على ثرائها وقدرتها على الدفع،

وكانت تظن أنها بعملها هذا تستطيع أن تستميل الأسطى إبراهيم، الذي عرفت من إحدى صديقاتها أنه من عشاق غريمتها رباب. ومضت إلى خارج الصالون تتبختر في مشيتها الجديدة التي نقلتها عن إحدى الممثلات الأجنبيات بعد أن شاهدت فيلمها في سينما ديانا، وكانت في ذلك الوقت أشبه بطاووس جميل، تفانت أيدي صاحب الصالون في إبراز نضارته، بما أضاف إلى وجهها من كريمات ومن لوازم أخرى ساهمت في إعطائه ذلك البريق الذي لم تكن تراه أو حتى تحلم به. فالأسطى إبراهيم إنسان حاذق الصنعة، يجيد مزج ألوان شتى من مواد التجميل بعضها ببعض، ويضيف إليها من اختراعاته أشياء ليشد بهذه الطريقة زبائنه للعودة إلى صالونه عن رضى وغبطة.

وتابعت سهاد طريقها إلى خارج الصالون في حيوية لتستقل سيارتها الأنيقة في طريقها إلى رحلتها الليلية.

إنها تشعر بحاجتها الماسة لأن تعمل شيئاً لأخريات أيامها، فعمر الراقصة في بلد كمصر لا يتعدى أصابع اليدين.

صحيح أنها استطاعت شراء الأرض التي ستقيم عليها عمارتها الجديدة، وصحيح أيضاً بأن المهندس سعيد عبد الواحد قبل أن يقدم لها رسومات العمارة هدية متواضعة منه، لكن تكاليف المبنى ومستلزماته هي الأخرى تحتاج إلى بعض المال الذي سيأخذ منها بعض الوقت لجمعه، ومع هذا فلتبدأ.. فمسيرة الحياة كما يقولون تبدأ بالخطوة الأولى، وهي كإنسانة ذاقت مر الحياة حريصة على أن يظل طعمها الرائق في فمها طويلاً وبأية طريقة.

ومضت في طريقها لا تلوي على شيء، وأخذت تنظر إلى «الأفيشات» التي ارتفعت هنا وهناك بصورها كإعلان عن الكازينو الذي افتتحته مؤخراً. وقارنت بين صورتها الحالية وبين ما كانت عليه وهي تنتقل من بيت إلى بيت تلبي رغبات أصحابه في خنوع. لقد مرت في حياتها السابقة بأكثر من مأزق وكانت تتسلل من هذا البيت إلى الآخر في هدوء عندما تجد أن حياة الخدمة أصبحت لا تطاق.

لقد تغيرت نظرتها إلى الحياة منذ ذلك التاريخ، وأصبحت تتطلع إلى مكانة أرفع من مكانة الخادمة، وقد أعطاها الدكتور هذا الحق.. ومع هذا كانت لا

تسمح للدكتور أن يصل إلى ما لا تريد.

وهي لا تريد أن تتذكر طفولتها في قرية شبين الكوم فقد كانت أياماً قاسية مريرة، شاركت هذه القساوة في طريقة معاملتها لبعض الناس، فهي تعتقد أن ما حرمت منه في السابق يجب أن تأخذه الآن وبقوة، وبأية طريقة.

وعندها لاحظت الصحفي حسنين يسير على مقربة من الشارع الذي يؤدي إلى الانتيكاخانة، توقفت بسيارتها بعض الوقت ونفخت في بوق السيارة ليلتفت إليها الصحفي فأشارت إليه داعية، وعندما وصل إليها طلبت منه أن توصله إلى الذي يريد، لكنه ضحك وقال:

ـ شرط أن تكوني صادقة معي هذه المرة.

والتفتت سهاد إليه وقالت:

ـ وهل تعتقد أنني كنت في يوم من الأيام كاذبة معك؟

وقال حسنين:

ـ لا ولكنك تبخلين عليَّ بما تعرفين عن الدكتور سعادة.

وقالت سهاد:

ـ ولماذا يظل هذا الرجل يفسد علي حياتي حتى بعد موته؟

وأجاب الصحفي:

ـ أنت ظالمة. قد أكون أنا الذي أريد أن أفسد حياتك عليك، أما هو فكما ترين أعطاك القدرة على الوقوف بمفردك في هذه الحياة.

وضحك، ولكن سهاد لم تضحك وقالت:

ـ لا عليك. أين تريد أن أوصلك الآن؟

وفي هدوء قال الصحفي:

ـ إلى بيتك!

وتبسمت سهاد، فها هي الفرصة قد جاءتها هذه المرة، فلتعمل على اقتناصها فهي أحوج ما تكون إلى قلم واحد مثل هذا الصحفي إلى جانبها.

وعندما وصلا إلى مدخل العمارة الكبيرة، ترجل الاثنان ومضيا إلى

المصعد في طريقهما إلى الشقة، حيث دار حديث جديد هذه المرة ساده شيء من الصراحة، شاءت بها سهاد أن تصل إلى قلبه هذه المرة، وقالت:

ـ لا أدري ما هو الهدف من إلحاحك على معرفة تفاصيل حياة الدكتور سعادة، لكني أمام هذا الإصرار أجد نفسي مضطرة للحفاظ على صداقتك وهذا يدفعني إلى أن أقول لك كل شيء عنه وعني شرط أن تراعي عندما تحاول نشر ما تعرف إخفاء الجانب المظلم في حياتي فأنا.

وصمتت.. وقال حسنين:

ـ سأكون عند حسن ظنك وسأفعل وفق رغبتك، ولكن ما يهمني هو الجانب الخاص بحياة الرجل الذي مات. أما ما يتصل بك فأنت حرة في الإفضاء به إلي أو إخفائه.

ونظر إليها نظرة ذات معنى تحدثت على أثرها سهاد قائلة:

ـ لقد كان الدكتور سعادة رجلاً من نوع فريد، يواجه مشاكل الحياة بابتسامة لاهية، وكأنه لا يعنيه ما يلاقي. ومع هذا يمضي أكثر ليله ساهراً، ولا سيما في تلك الليالي التي كان يمر به زائر الليل، يطلب منه الاعتكاف في منزله لأن شخصاً سياسياً من بلاده يقوم بزيارة مصر.

وكانت مثل تلك المطالب تثير في نفسه الكثير من القرف والاشمئزاز، فهو يعرف معنى بقائه كلاجىء في مصر، ويحترم بينه وبين نفسه معنى هذا التواجد.

أو تدري ماذا كان يتقاضى من الدولة أول أيام لجوئه؟ خمسمائة جنيه مصري كان يعيش بها في بحبوحة. لكن هذه الجنيهات تبخرت فجأة، وأصبحت في النهاية عشرين جنيهاً فقط. وكان هذا التناقص في إيراده يؤلمه جداً.

ويوم حاول أن يعمل، قيل له بأن أبواب العمل في مصر لأمثاله ممنوعة، فآثر أن يعيش بهذه الجنيهات القليلة وتنازل أول ما تنازل عن سيارته القديمة، فباعها، ثم بدأ يبيع ما يتواجد لديه. وعندما أحس بأن ما يدفع له لا يفي بحاجاته الضرورية غادر شقته السابقة واختار غرفة حقيرة في البناية نفسها.

وتابعت سهاد قولها:

ـ أوتدري يا حسنين بأن ضميري يؤنبني على ما فعلت تجاه الرجل؟ لكنني يوم أقدمت على ما أقدمت كنت أظن بأنني أنتقم لنفسي من جميع ما مر بحياتي من شظف عيش وضنك ومشاكل، وكنت سعيدة وأنا أرى وجه الرجل وهو يتألم كما كنت أتألم أنا يوم كنت مجرد خادمة جاهلة ترقص له ولأصدقائه في بعض الأحيان.

لقد حاول أن يعلمني القراءة والكتابة وقد أفلح معي قليلاً، لأنني كنت أيامها أرى أشياء أخرى غير أن أتعلم، وكنت أعرف كيف أرتدي الفساتين الجميلة وأستخدم أدوات التجميل لأنها كانت هوايتي. ولقد تعرفت إلى كثير من أصدقائه من الفنانين عرفتهم بحكم أني صديقة له لأنه كان يصر على هذه التسمية. ويوم وجدت الباب للمستقبل بالنسبة لي مفتوحاً تركته بلا عودة.

وأطرقت سهاد برأسها قليلاً:

ـ هذا كل ما أعرفه عن صديقك فماذا تريد بعد ذلك؟

وأجاب حسنين:

ـ ولكن أين هي أوراقه؟ ألم يطلب منك أن تحافظي له على شيء منها؟

وقالت:

ـ لا لم يعطني شيئاً مما ذكرت وكان يقول دائماً ما فائدة المذكرات إذا كان كاتبها لا يستطيع أن ينشرها؟ وما فائدة كتابتها ونشرها إذا كان صاحبها لا يستطيع أن يقول كلّ ما ما عنده؟ لقد كان الرجل على ما يبدو يشكو شيئاً ما في داخل نفسه لم أحاول أن أتعرف عليه لأنه لم يكن يهمني في شيء. أتصدق يا حسنين؟ لقد حاولت في بداية حياتي معه أن أحبه، لكن قلبي لم يطاوعني على أن أفعل، وأصبح الرجل بالنسبة لي مجرد جسر أستطيع أن أعبر عليه لأشياء نلتها بعد ذلك.

وقال حسنين:

ـ وهل أنت الآن سعيدة بعد كل الذي حصلت عليه؟

وأجابت سهاد في ثقة:

ـ لا . . ولكن السعادة في نظري أنا التي عرفت معنى العوز والفاقة، هي

أن لا يعود العوز يلاحقني ولا الفاقة ترافق حياتي.

إنني أدخر قرشي الأبيض لليوم الأسود الذي لا شك أنه قادم، فعمرنا نحن الراقصات تحت الأضواء قصير وقصير جداً.

أو تعرف يا صديقي؟ إنني أتوق إلى بيت يضمني مع زوج يغفر لي كل أخطائي، وأولاد يملأون البيت أنساً وبهجة، ومع هذا فأنا أتلفت يمنة ويساراً علّي أجد هذا الملاك الذي يقبل أن يقترن بأنثى مثلي فلا أجده، وإذا وجدت من يقبل بي فمن شروط قبوله الاستمرار في حياتي كراقصة. أليس هذا شيئاً محيراً يا صديقي؟

وهز رأسه في هدوء ولم ينطق ببنت شفة، وإنما ترك لأفكاره أن تتحدث في دعة وهدوء إلى المرأة التي أمامه.

الفصل السابع

قلة نادرة تلك التي عرفت قصة ذلك القاضي اليمني الذي غادر بلاده طمعاً في الحرية، حتى إذا ما جاء يومها إلى مصر أرسل بكلماته التي أصبحت علماً يشار إليه بالبنان:

«لقد كنا في اليمن نبحث عن حرية القول، وها نحن اليوم في سجن مصر نبحث عن حرية البول».

لقد أفرزت ثورة اليمن العيد من الرجال الذين جاؤوا إلى مصر هرباً من رجال هذه الثورة لتعنتهم وصلفهم وجبروتهم، وكانوا يعتقدون آنذاك أن مصر ستظل بالنسبة إليهم كما كانت بلد الحرية. لكن ما واجههم في حياتهم الجديدة جعلهم يدركون الخطأ الكبير الذي ارتكبوه، فعادوا يترحمون على العهد الذي مضى وولى في اليمن.

هذه الحقيقة جعلت الصحفي حسنين يبحث طويلاً عن هذا الرجل، فهو حريص على أن يمضي في محاولاته لمعرفة حقيقة الغرباء في مصر في عهدها الذي ولى ومضى.

وكان حسنين من أولئك الذين لا يفت في عضدهم الوصول إلى ما يريدون، فذهب يبحث وينقب عن مكان الرجل الذي قرأ كثيراً عنه وعن شعره، حتى إذا ما تهيأت له الظروف التقى بالرجل في مبنى رابطة الطلاب العدنيين يلقي محاضرته التي أعدها بمناسبة عودة الأوضاع الطبيعية بين اليمن الشمالي وعدن بعد فترة قلق وضياع وتشرد.

لقد بدا الرجل في ملابسه اليمنية أشبه بواحد من علماء الأزهر

منه إلى الساسة أو العاملين في حقلها، يتمنطق في وسطه بخنجر يمني معكوف اعتاد أن يصاحبه منذ طفولته فلم يفارقه إلا أيام السجن التي أمضاها في العهد الماضي، إذ حرمه رجال السجن وقادته من مصاحبة هذا الخنجر.

يطلق كلماته بصوته الجهوري ولغته العربية السليمة، وكأنه ينتقي هذه الكلمات في ظل العديد من هؤلاء الشباب الذين لم تتهيأ لهم الظروف لقراءة تاريخ اليمن، ومعرفة حقيقة الحرب التي عاناها شعبها طوال مدة من الزمن أكلت الأخضر واليابس.

وما إن انتهى الشيخ القاضي من محاضرته حتى اندفع حسنين للقائه مرحباً ومهنئاً. مرحباً بوجوده على أرض الكنانة، ومهنئاً إياه على هذه القدرة العجيبة في الشرح وإغناء الموضوع.

وكان الشيخ على درجة كبيرة من خفة الظل، فقال للصحفي:

ـ لا عليك، فأما التهنئة فأنا الذي أزجيها إليك باعتبارك واحداً من مواطني هذا البلد الذي استطاع أن يستعيد حريته، فالحرية في نظري هي أثمن ما في هذا الوجود. أما الترحيب، فقد نلت منه الكثير على أيدي السجانين في مصر. لقد جئت إلى الكنانة جرياً وراء ما افتقدته في بلادي، لكنني بعد أن عرفت الحياة ولونها وطعمها هنا في تلك الفترة واستضافني أكثر من سجن، شعرت بأنني أخطأت في خروجي من دياري.

لقد استقبلوني أول ما استقبلوني بمثل ما استقبلتني به أنت من ترحاب كنت أود أن يكون صادقاً لولا أن الأيام أثبتت لي عكس ذلك، فعندما يعود الوفاق بين رجال سياستكم السابقين ورجال الساسة في بلدي، أجد نفسي فجأة ودون مقدمات نزيل ساحات أحد سجون مصر التي عرفتها لطول ما عاشرتها، وأصبحت أصنف كل نوع من هذه السجنون حسب المقاييس والموازين التي تصنف بها وزارة السياحة في بلادكم فنادقها المريحة وإن انعكست الآية.

وضحك.

ـ لقد حاولت كثيراً أن أتناسى تلك الفترة التي مرت بي، لكنني وأنا الرجل المسن أجد من الصعب علي أن أنسى لأننا نحن أبناء اليمن من طينة أخرى غير طينة هؤلاء الناس. ولكن لأن كثيراً من الشعارات التي ارتفعت في

كنانة الله يوماً من الأيام لم يكن هم معلنيها إلا الاستفادة بها شخصياً، ولا أحب أن أطيل عليك فأنا كما ترى في عجلة من أمري وأنت كذلك.

وتحلق الشباب حول القاضي والصحفي الذي قال:

ـ لكنني يا سيدي جئت إليك خصيصاً لأنني أريد أن أؤرخ لهذه الحقبة.

وقال القاضي:

ـ ولمن تؤرخ لماذا؟

وأجاب حسين:

ـ للمواطن المصري، للشعب العربي في هذا الوطن العربي الكبير الذي من حقه أن يعرف مراكز القوى في مصر، وكيف كانت تتصرف. وأنا يا سيدي كصحفي لا أريد أن أظلم أحداً، وإنما جل همي أن أعطي الصورة الصحيحة لواقع لا أريد أن أسبق الأحداث فأصفه اليوم، وإنما سأترك لقرائي وصفه كل بأسلوبه.

وتابع قوله:

ـ لقد كان لك حضورك. . وقد قرأت أشياء كثيرة عنك وعن خلافك مع الإمام أحمد عن ظروف حياتك في مصر، عن ثقافتك، وبقيت الحلقة المفقودة التي لا يمكن أن أجدها في الصحف. . هي تلك الأيام التي أمضيتها في مصر.

قال القاضي:

ـ قد أكون واحداً من المحظوظين الذين استطاعوا الهروب من الحياة في بلادك فترة من الوقت، ولولا هذا الهروب لكنت كغيري من عجائز الساسة الذين تمتص أوقاتهم فناجين القهوة في كافتيريا شيراتون.

لقد رأيت هذا النوع من الناس الذين كنت أجل وأقدر، لكنني اليوم أترحم على طاقاتهم التي هدرت، فقد كان بإمكانهم منحها لبلادهم، بدلاً من هذا الضياع الذي يمارسونه. . لقد قلت ذلك لأكثر من واحد لكن قولي هذا جاء متأخراً بعد أن أصبح كل واحد منهم كالخشب المسندة، وشدت ظهورهم إلى كراسيهم، وأمتعتهم حياة التواكل التي استمرؤوها.

وأشار إلى ذقنه:

ـ صدقني فأنا رغم شيبتي هذه، أحس بأنني قد أجرمت، ليس في حق نفسي فقط، وإنما في حق مواطني الذين كان من المفروض علي أن أدافع عنهم. لكنني كنت أحذق من الآخرين وأقدر على رؤية الصورة، فانجلى الموقف أمام عيني ووعت نفسي حقيقة ما يراد فهربت بعظمي عن هذه البلاد بعد أن أطلقت جملتي المشهورة التي تعرفها.

وضحك، وتابع قوله:

ـ قد يكون من أصعب المواقف على الرجل أن يهرب من بلده مهما كانت أسباب هذا الهروب. لقد جربت السجن في اليمن يوم كان سعيداً، وقارنت بينه وبين سجونكم في الأيام السالفة، وخرجت من هذه المقارنة بأننا في سجون اليمن أكثر حرية في القول وفي البول أيضاً. أما هنا، فقد حرمنا من الاثنين في وقت واحد.. وهذه هي المصيبة. أوتدري يا صديقي أين ذهبت يوم هربت من هنا؟ لقد ذهبت إلى المملكة العربية السعودية، وأنت تعرف مدى ما كان بيننا من خلاف ومع هذا قوبلت على أنني ضيف رغم ما فعلت.

قد تكون الصحراء هي التي تعطي قيمتها للمواطن في ذلك الجزء من الوطن العربي، وقد يكون الإيمان هو الآخر يجعل من قادتها أناساً متفهمين لما يجري فلا يأخذون الواحد منا بجريرته، وإنما يحاولون أن يعرفوه بواقع بلادهم.. حتى إذا ما رأى كل شيء، استطاع الحكم في حرية، وهكذا كنت.

لقد خرجت من رحلتي إلى تلك البلاد، وبقائي فترة من الوقت في الطائف أشعرني بأنني إنسان أمارس حريتي في شكل جديد لا يحصي حركاتي مراقب، ولا يجري ورائي بوليس.

كنا مزيجاً فريداً من الناس صنعت الأيام بنا ما صنعت. ومع هذا كنا نجتمع سوياً في أماكن عديدة نتحدث عن واقع اليمن أيام حرب اليمن دون أية ضغوط. لقد تعلمنا يومها معاني الحوار وقيمته بيننا، نحن الذين كان لكل واحد منا اتجاهه الخاص وآراؤه الخاصة، لكننا جميعاً آمنا بأن لا كرامة لمواطن خارج بلاده إلا في المملكة العربية السعودية.

وأنا عندما أقول هذا أعتقد أن السبب يكمن في أن لنا في هذه البلاد قبلة واحدة، ولهذا لا نعد عندما نكون فيها غرباء. وعى قادتها دورهم، فلعبوه

بذكاء، وعرفوا كيف يضعون قاعدة الحرية في بلادهم، حتى جاء الوقت الذي فرغت فيه سجونهم من أي سجين سياسي، وأنا اليوم كما ترى أتنقل في حرية كفلتها لي قدرتي على قراءة المستقبل. هذه القراءة التي أتاحت لي أن أهرب بجلدي في الوقت المناسب، بعد أن غرقت لفترة من الوقت في تيار الحرية.

واستدار القاضي إلى الشباب الذين كانوا حوله وقال للصحفي:

ـ لقد مرت بعالمنا العربي فترة من الوقت كنا نعتقد أن الحيف والجور والظلم سينقشع عن أرضنا بالإرهاصات الجديدة التي بدأت تطفو على سطح هذه الأمة، بعد حرب ٤٨ التي أعطتنا القوة لأن نعرف مواقعنا. ولكن آمل أن تصدقني! لقد كنا مخطئين في هذا التصور لأن من قفز على السلطة في بعض ديار العرب لم يكن همه إلا أن يحكم. . نسي المبادىء والمثل، ونسي كل شيء وأصبح عبئاً ثقيلاً تهون معه أعباء الماضي.

يقولون إن الأمم تغير جلدتها كل قرن، أما نحن أبناء هذه الأمة العربية فقد كانت بعض بلداننا تغير جلدتها كل ستة شهور، الأمر الذي لم يعط هذه البلدان القدرة على الاستقرار. وبعضها ممن جثم على قلبها كثائر غدا ديكتاتوراً بفعل الزمن، إذ أخذ الظلم في عهده يزداد ويتسع حتى شمل أقرب المقربين إليه، وإلا ماذا يقال عن أولئك الذين كانوا في سدة السلطة ثم انتحروا، والذين انزووا في بيوتهم بعد أن اعتقلتهم كلمة قالوها بصدق؟ لكن الحاكم لم يقبلها فكانت شوكة في حلوق قائليها. . أو لم تقرأ ماذا قال الصامتون عندما قدر لهم أن يتكلموا؟ لقد قرأت هذا الكتاب، وأستطيع أن أقول بأن ما قاله الصامتون كان أقل القليل بحكم معرفتي للواقع والتصاقي به. لقد كنت أعرف أكثرهم، كانوا زملاء لعبد الناصر في رحلته مع التغيير، ومع هذا لم يبق لهم سوى الذكرى التي نقول عنها إنها ضرورية، لأن أية حياة لأي إنسان بدون هذه الذكرى سيكون ذلك شيئاً غريباً.

لقد احترمت عبد الناصر في أول حياته واحترمه معي الكثيرون، ومع هذا فأنا عندما أحمله نتيجة ما حدث، أعتقد تماماً بأن الزعيم أي زعيم، مهما كان، يجب أن يتحمل مشاكل معاونيه وهذه هي الحقيقة.

قد يقول قائل إن كثيراً من الأمور لا يدري عنها، فإذا صح ذلك فمعناه أن

أي زعيم لا يدري عما يجري حوله غير جدير بهذه الزعامة.

صدقني يا حسنين لقد نكأت الجروح فلم يعد لدي صبر على أن أكتبه. قد يقال ما يقال عن حياة الملك فاروق، قد يقال ما يقال عن نوري السعيد، لكنني أحس بأننا ظلمنا الاثنين فحكمنا عليهما أحكاماً جائرة.

إننا في عالمنا العربي أحوج ما تكون إلى تبين حقيقة الأمور وليس إخفاءها. فالعالم العربي قد تأخر تكنولوجياً بمقدار ما استفاد إعلامياً، لأن الإعلام إذا أقيم على غير قاعدة أعطى نتيجة ما فترة من الوقت، ثم بعدها تنكشف الحقائق فلا يعود هناك مجال لإخفائها.

لقد تطور المواطن العربي وتطورت أفكاره رغم كل هذه القيود، ومعنى هذا أن حكم هذه الفئات سيكون ناجحاً نجاح أفكاره.

قد يكون شعبنا في اليمن أضعف ثقافة من غيره لكنه مع هذا الضعف أقوى وأقدر على تبيان حقيقة الأمر. فهو يعي ويعرف ويوظف ما يعرف لصالح بلاده. وهو عندما يثور، يثور عن أصالة لأنه شعب عربي أصيل. وهو يشعر بأن عروبته أقدم من عروبة أي إنسان، ولهذا يثق بالعروبة.

إن جل ما نعرف حقيقة واحدة يعود منها الفضل إلى عبد الناصر رغم كل ما فعل، هو تأكيده الدائم على عروبة مصر، لأن مصر قلب العروبة النابض كما أن مكة قبلة العالم الإسلامي والرياض حصنها المنيع. وعندما يكون هناك توافق وامتزاج بين القبلة والعروبة يتحقق الخير، وهذا ما يفعله شعب مصر حالياً وأرجو أن يتحقق له ما يريد. فهذا الشعب في نظري ورث تركة مثقلة بالديون ينوء عن حملها أقدر الشعوب. ومع هذا يبدو أنه صامد كالطود وأعتقد أن قوته مستمدة من إيمانه بالقوة الأولى في هذا العالم، قوة التضامن الإسلامي الذي نادى بها شهيد العروبة، ويحاول اليوم الملك خالد أن يسير بها على الطريق نفسها.

وتابع الرجل قوله:

ـ لقد أطلت عليك الحديث ولكنها رغبتك.

وقال حسنين:

ـ بقيت نقطة واحدة أريدك أن تجلوها وهي ما هو موقفكم أنتم أبناء اليمن من أوضاع اليمن الحالية؟

وأجاب الرجل:

ـ موقفنا واضح فلقد وصلنا إلى نتيجة، هذه النتيجة تتمثل في أن عالمنا العربي الذي أصبح يملك بالإضافة إلى سلاح النفط سلاح النقد، أحوج ما يكون إلى الاستقرار. والبناء يا صديقي لا يمكن أن يتم إلا من خلال هذا الاستقرار الذي تحاول المملكة العربية السعودية أن تشيعه في الخليج وفي اليمن وحتى في اليمن الجنوبي.

وافترق الرجل والصحفي على أمل في لقاء آخر مع بقية الغرباء هذه المرة.

أما حسنين فقد قال لنفسه: ترى هل صدقني الرجل بكلماته تلك وحقيقة ما يحس ويشعر؟ ومع هذا فأنا من موقعي لا أستطيع إلا أن أصدقه، فالرجل كما يبدو صريح، وصريح جداً ومع هذا تظل علامات الاستفهام تطل أمام ناظريه وكأنها تنتظر الجواب بلا جواب.

ومع هذا تظل ذاكرته مشدودة إلى هذا الذي يجري في مصر اليوم، فلا يدري ماذا يقول عنه؟ ترى هل قدر لشعب مصر دائماً أن يحمل كل هذه المصائب على رأسه؟ فالذي يجري في مصر يجعله يحس بأن شرايين رأسه تكاد تنفجر بلا أمل، سوى بصيص من نور يراه يتجسد في أولئك الذين يعرفون حقائق الحياة في أرض النيل، لكنهم أين هم؟ ذلك شيء يكاد يلهب خياله بلا جدوى.

الفصل الثامن

التقى الصحفي حسنين وهو في طريقه إلى مبنى الجامعة العربية، لحضور اجتماع وزراء الإعلام، بواحد من أصدقائه الذين أمضى معهم سنوات الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية الأستاذ محمد عبد الفتاح المخرج بإذاعة صوت العرب، الذي نقل إليه في كلمات قليلة لقاءه بواحد من الغرباء الذين يبحث عنهم صديقه.. فاستبشر خيراً، فها هي الفرصة تواتيه في سرعة عجيبة، هو الذي يبحث عن هذه النماذج.

واتفق مع صديقه على أن يوافيه في داره بشارع قصرالطاهر بمصر الجديدة في الساعة الخامسة من بعد عصر اليوم نفسه، على أمل استكمال ريبورتاجه عن هذا النوع من الناس.

وأخذ يفكر في الطريقة التي سيبدأ بها حديثه مع الرجل، لكن صديقه محمد عبد الفتاح قطع عليه تفكيره قائلاً:

ـ عدني يا حسنين بأن أقدم هذه النماذج التي تكتبها في سلسلة تقوم إذاعة صوت العرب ببثها..

وضحك حسنين وقال:

ـ لا يحتاج الأمر مني إلى وعد، فأنا صديقك، لكنك عندما تقدم هذه النماذج وكأنك تهيل التراب على أحاديث هؤلاء الأشخاص الذين احتفظت مكتبة صوت العرب ولا تزال تحتفظ بها.. أنسيت بأنكم في هذه الإذاعة قد شاركتم في تضليل الرأي العربي؟

وأجاب صديقه:

ـ قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكنني لم أكن أنا الذي فعلت هذا، فأنت تعلم بأننا في تلك الفترة كنا ولا نزال على كراسي الدراسة فلماذا نحمل أنفسنا ذنوب غيرنا.. لقد تعلمنا الصدق وعرفنا الصراحة وهذا الصدق يعني بالنسبة لنا تصحيح المفاهيم أليس كذلك؟

وأجاب حسنين ضاحكاً:

ـ أو تعرف يا صديقي لقد ذكرتني بحديث كنت سمعته من واحد من خبراء الإعلام في العالم العربي، لست في حل من ذكر اسمه.. لقد استطاع هذا الشخص أن يأخذ في تلك الفترة ـ فترة خلاف بلاده مع مصر ـ من صوت العرب ما يريد بأساليب إعلامية أعطت أكلها دائماً.

وتساءل السيد محمد عبد الفتاح:

ـ وما هي هذه الطريقة؟

وأجاب حسنين:

ـ كان الرجل من القدرة على إرسال كل كتاب يكتب ضد ما يصنع في مصر إلى القائم بأعمال الإذاعة مع رسالة صغيرة يكتبها أحد موظفيه يذكر فيها اشمئزازه مما قرأه وعندما يصل الكتاب يقوم المسؤول في الإذاعة بتقديم ما كتب مضيفاً إليها كلمات من اللغة البدائية البذيئة التي تساعد على ترسيخ مفهوم معاني الكتاب أكثر من مخبره، وبهذه الطريقة يعرف المواطن المصري ما يقال عن قادته في الوقت الذي صنع هؤلاء القادة سياجاً من حديد حال دون تسرب صوت أية إذاعة إلى مصر. وكان أيضاً يبعث بأخبار غير قابلة التصديق عن بلاده فتقوم إذاعة صوت العرب ببثها على العالم الذي يستمع إليها. وأول ما يستمع مواطن ذلك الرجل الذي يصدم عند استماعه لهذه الأخبار، لا لأنها غير قابلة للتصديق وإنما لأنها أيضاً غير قابلة للتحقيق، فتفقد إذاعة صوت العرب مستمعيها، وتصبح على حد قول القائل كمحكمة المهداوي التي أقامها في العراق لينذر بها الناس في الوطن العربي. أو تعرف يا صديقي مقدار الغباء الذي كان يرتكبه إعلامنا ذلك الوقت؟

وضحك، وأمن صديقه على قوله، وافترقا على موعد.

وفي الوقت المحدد كان حسنين في طريقه إلى دار صديقه الذي استقبله هاشاً وقال له:

ـ لقد كان حظك أكبر مما أتوقع، فلقد وعد صديقي أن يأتي برفقة نموذج آخر قد تجد لديه ما تريد.

ومضيا إلى الداخل.

وفي الصالون الذي أعد لاستقبال الضيوف حيث أطلت من المكتبة الصغيرة كتب كثيرة، تبحث عن أصول الدين والشريعة رصت بعناية، قال حسنين:

ـ لم أكن أعرف بأنك قد التحقت بأي حزب، فلقد عشنا أنا وأنت طوال عمرينا فكرة الانتماء إلى أي حزب، ولكنني أشعر من خلال ما يطالعني هنا من كتب أنك قد انتميت إلى جماعة الإخوان المسلمين.

وأجاب صديقه:

ـ هي تهمة لا أود أن أنفيها أو أثبتها، لأنني بالفعل لا أنتمي إلى أية جمعية من هذا النوع، لكنني بعد أن كبرت أصبحت حريصاً على قراءة هذا النوع من الكتب. أوتدري يا صديقي أن الإيمان الذي كان يطل من قلوب إخواننا في ساحة المعركة في حرب رمضان، كان هو القاعدة التي ارتكز عليها انتصارنا؟ إننا أمة نخسر جميع مواقفنا عندما ينحسر هذا الإيمان عن قلوبنا، ولهذا رأيت من واجبي أن أثقف نفسي لأستطيع أن أعطي لمستمعي في الإذاعة شيئاً مما أعرف.

لقد استمعت إلى الكثير من القصص التي نقلها لي أكثرمن واحد من الثقات، كيف كان الجندي المصري يحارب على القناة وهو يردد كلمات الإيمان الخالدة من أعماق قلبه، فكان النصر في كل معركة يخوضها حليفه، لأنه آمن بالله وبحقه في وطنه فمنحه الله القدرة على انتزاع النصر من أنياب أولئك الذين كانوا يصورون جنودهم بأنهم جنود لا يقهرون.

لقد حقق الله لمصر في هذه الحرب بعض ما تريد، واستطاع العرب أن يعطوا الصورة الحقيقية لتضامنهم. ومع هذا فمحاولة المغرضين تواصل

جهودها لتفتيت الجهد ووضع العراقيل أمام الكيان الذي أخذ يرتفع. لقد أعطى التضامن العربي أجمل صورة في حرب رمضان، وعلينا نحن العرب أن نحافظ على الصورة الجميلة التي صنعناها أثناء وبعد هذه الحرب، وأن نقطع الطريق على ما يدبر لنا في الخفاء.

انظر إلى صورة التعايش في لبنان كيف استطاعت هذه الأيدي أن تمتد إليه وأن تفرق بين المواطن اللبناني وأخيه. وهي إذ تصنع كل هذا تضع في حسبانها ضرب عصفورين بحجر واحد: أولها إزالة أي تفكير في إقامة الدولة الفلسطينية التي تدعو إليها منظمة التحرير، وثانيها إزالة صورة التضامن العربي الحقيقة من أذهان الرأي العام العالمي، وإحلال صورة الشقاق والنزاع بين أبناء الوطن الواحد على هذه البقعة الجميلة التي قام رئيس جمهوريتها بتقديم منظمة التحرير الفلسطينية إلى الرأي العام العالمي يوم قبلت في هيئة الأمم كمراقب.

وينقطع الحديث بين الاثنين بدخول الضيفين معاً ليهبا للترحيب بهما. ويحس حسنين من ضغطة يد أحدهما على يده انتماء هذا الشخص الذي قدم نفسه باسم وائل إلى الماسونية لكنه لم يكترث، وإنما مضى يتفرس في وجهيهما وكأنه يريد أن يكتشف من نظراته تلك شيئاً لا يدري كنهه.

لقد أحس بالاشمئزاز والقرف وهو يطالع تفاصيل البدلة الأنيقة التي ارتداها أحدهما، فقد كانت مزيجاً من عدة ألوان صارخة لم يعتد رؤيتها قبل على أي رجل. وكان يعتمر على رأسه باروكة داكنة السواد تغطي أجزاء كثيرة من كتفيه، ويبدو في مشيته المتأنية كإنسان فقد عدة سنتيمترات من إحدى رجليه، فركز بكل ثقل جسمه على الرجل الثانية. ومع هذا يظل مقبول تقاطيع الوجه.

أما الثاني فقد كان ممشوق القامة واضح تفاصيل الوجه، دق الجدري أكثر من علامة في عدة جهات من وجهه ويديه. غائر العينين تبدو على ملابسه آثار الضنك والعوز والحاجة.

وبدا له كل واحد من الشخصين وكأنه نقيض الآخر. ومع هذا فقد لاحظ انسجاماً ما يطل من عيني الاثنين عندما يتحدث أحدهما عن الآخر، يترك له الفرصة ليبدأ في الحديث.

ومضى سعيد يواجه الصحفي في صراحة قائلاً:

ـ قد أستطيع أن أقرأ ما بداخل نفسك الآن لكنني لست في حاجة ماسة لأن أطيل قراءتي، وإنما أقول لك وبكل وضوح، فأنت حائر في معرفة أي منا هو اللاجىء؟ فملابسي كما ترى تدل على العوز والفاقة بينما ملابس صديقي رغم غرابتها تدل هي الأخرى على الشبع والاستغناء.

وتابع قوله:

ـ لا تغرنك المظاهر، فأنا وهو في حاجة إلى القروش القليلة نسد بها أود هذه البطن التي تطالبنا كل يوم بالطعام، ولكن ظروف صديقي الجديدة هي التي فرضت عليه هذا النوع من الملابس. فهو كما ترى سيزف قريباً إلى واحدة من بنات شارع محمد علي، ولقد اختارت عروسه له هذا النوع من الملابس، ومنحته إحدى باروكاتها التي تكمل الشكل الذي يناسبها.

وضحك، ثم قال:

ـ لقد علمني أحمد هذا معنى الوطنية، فحاربنا الإنجليز ونحن أطفال في مدينة عدن، حتى إذا ما جاء الحكم الوطني كان لنا شأن ووزن. لكننا لم نستطع القبض على زمام الأمور، ففلتت من يدنا بعد أن أخذها غيرنا ممن كانوا يشاركوننا العمل من أجل السلطة. وسجنت أنا ورفيقي سنوات طويلة في عدة سجون، حتى قيض الله لنا واحداً من المسؤولين شفع لنا لدى السلطة فسمح لنا بالخروج. وها أنت ترانا اليوم هنا في مصر. لقد حاولنا أن ننضم إلى قافلة اللاجئين، لكن طلبنا رفض. ومن الذي سيقبل طلباً لأناس يأتون من بلاد صغيرة كبلادنا؟ أوتدري ما نفعل؟ ننام النهار في غرفتنا الحقيرة ونسهر الليل في أي مكان. فلقد استمرأنا هذا النوع من العمل، ولولا صديقك هذا الذي سمح لي بأن أكون ممثلاً دائماً في تمثيلياته الإذاعية لقضي علينا جوعاً.

وكان صديقي يشاركني رحلتي إليّ ماسبيرو أثناء التجميل وينتظرني في أروقة المبنى حتى أنتهي، فنمضي في حياتنا حسبما نريد. وفجأة أطلت على صديقي إحداهن وهو في انتظاري تهمس في إذنه بعنوانها. أوتدري ماذا قال لي هذا الصديق؟ لقد طالبته بزيارتها في بيتها. ومع هذا فقد رفض بإباء وشمم أن يمضي إلى لقائها، لكنني طلبت منه في إلحاح أن يذهب، ومن يومها ترى

صديقي على ما تراه يأخذ منها ليعطيني.

لقد اختارت له هذه الملابس فعارض ارتداءها، لكنني زينت له أن يفعل وفق ما تريد صديقته، فنحن يا صديقي نحب أن نحافظ على شعرة معاوية بيننا وبين هذه المخلوقة العجيبة، فإبقاؤنا عليها يحمينا من الجوع.

وقال حسنين:

ـ ولكن طريقة تحيتك لي جعلتني أظن أنك واحد من الماسونيين؟

وقهقه الرجل وقال:

ـ ليتني كنت واحداً منهم، فهم كما تعرف لا يتركون أصدقاءهم حيارى، وإنما يساهمون في إسعادهم بأية طريقة. لقد اعتدت هذه الطريقة في التحية لكثرة ما أقابل من فتيات في مبنى ماسبيرو، فلربما سنحت لي الفرصة ومنحتني إحداهن الحب لأشق طريقي أنا الآخر. إننا يا صديقي كما ترى بعيدون عن بلادنا بعد أن تحطمت جميع آمالنا وأمانينا ونسينا كل شيء، ولم يعد من حقنا إلا أن نحافظ على المستوى المتردي من الحياة التي نعيشها.

وقال حسنين:

ـ لكن أليس في مقدوركما العودة إلى الديار؟

وأجابا بصوت واحد:

ـ ليت الأمر بمثل هذه السهولة، فبلادنا يا صديقي لا تقبل اليوم أمثالنا ممن قبض على السلطة خوفاً منه على السلطة ذاتها.

وأضاف أحمد قوله:

ـ هي الحياة.. تجمع وتفرق.. تعطي وتأخذ.. تمنح وتتمنع.. ونحن اليوم مع هذه الحياة في أقصى درجات الحرمان لولا هذه المرأة التي آمل أن تظل صديقة إلى الأبد، وأن لا تمل رؤية وجهي.

وقال سعيد:

ـ لقد تعود صديقي شذوذ ملابسه لأنها الوسيلة لأن نعيش.

وأشار إلى زميله:

ـ أوتدري يا صديقي كيف يقضي هذا ليله؟ إنه يمضيه بجانب الراقصة في كواليس المسرح الذي تتعامل معه، حتى إذا ما دقت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل مضى برفقتها إلى شقتها في عمارة النيل، يمضي بقية الوقت معها ثم يتركها تغط في نومها ليجيء إلي ببعض الطعام الذي يجده في ثلاجتها. وهو مشوار أصبح جزءاً من حياته وحياتي. فالراقصة على ما يبدو لا تطيق رؤية وجهي لسبب لا أدري كنهه، لكن هذا ما قالته لصديقي يوم زرته في بيتها على غير موعد.

أو تعرف يا صديقي أقصى حالات الحسرة والحزن والألم؟ إنها الساعات التي نعيشها هنا على هذه الأرض نضحك بينما تقطر قلوبنا دماً، ونمازح الآخرين ونلون أصواتنا بكلمات نحاول اختيارها لندلل على أن الحياة لا تزال طيبة معنا بينما هي غير ذلك. إن أقصى الحرمان بالنسبة للإنسان أن يعيش بلا أمل ولا وطن، ونحن يا صديقي كذلك.

وعندها تساءل حسنين قائلاً:

ـ ما اسم هذه الراقصة؟

وضحك الرجل وقال:

ـ أخاف أن أقول اسمها فتخطفها أنت لأنك على ما يبدو أفضل سحنة من هذا الصديق، ولكن لا بأس فاسمها سهاد إن كنت تريد أن تعرف.

وسرح حسنين ببصره بعض الوقت، وتحدث بينه وبين نفسه قائلاً:

ـ لقد قتلت هذه المرأة واحداً من أصدقائها، وها هي الآن تمضي في لعبتها في امتصاص دم الثاني.

والتفت إليه الرجل وقال:

ـ ماذا تقول؟

وأجاب حسنين:

ـ لا شيء يهم.. إنما أنا أفكر في هذا الذي أسمع.

وأجاب الرجل:

ـ ولكنك بلا شك مستغرق في التفكير.. أوتعرفها يا سيدي؟

وقال حسنين:

ـ من تقصد؟

وقال الرجل:

ـ صديقة صديقي التي تأمل أن تتزوجه.

وأجاب حسنين:

ـ نعم أعرفها، وأعرف كل شيء في حياتها.

وقال الرجل:

ـ منذ متى عرفتها؟ وهل كانت معرفتك بها مثل معرفة صديقي هذا؟

وأجاب حسنين ضاحكاً:

ـ لا.. وإنما عرفتها لأنها كانت إنسانة تحب دائماً أن تكون رفيقة لغريب.

وقال الرجل:

ـ أهي الأخرى غريبة مثلنا؟

وأجاب حسنين:

ـ لا.. لكنها عاشت في ظل واحد من أمثالكما، وعندما مات الرجل لم تشأ إلا أن تكون صداقتها للجديد استمراراً لذلك الذي مات يا صديقي، وكأنها عقدة الذنب هي التي تسيرها.

ولزم الجميع الصمت فترة من الوقت كانت كافية لأن تنقل الحديث إلى موضوع آخر غير الذي جاء من أجله حسنين.

الفصل التاسع

احتدمت المناقشة بين ميرفت وسناء حول العمل الذي يمارسه الرجل الذي انضم إلى مائدة الغرباء هذه المرة. وكانت نجاح ترقب المناقشة وهي تضحك في كمها من وراء ملابسه الصارخة الألوان بالإضافة إلى سمرته الغامضة ومشيته المتأنية. كل هذه الأمور تجعل من المستحيل على أية أنثى معرفة نوع العمل الذي يمارسه مثل هذا الرجل.

وكانت ميرفت قد تصورت بأن أحمد لا بد وأن يكون فناناً وفناناً كبيراً جاء من جنوب إيطاليا لعمل سينمائي ضخم. أما سناء فقد كانت تصف الرجل بالشذوذ، وترى في أن ما يرتديه أحمد دليل صارخ على هذا الشذوذ.

لكن الاثنتين لم تقدرا على سؤال الرجل عن عمله، وإنما أخذتا تفكران في الطريقة التي يمكن أن تشبعا فضولهما في هذا الصدد، حتى إذا ما أطل حسنين رأت ميرفت بأن الفرصة مناسبة لتقوم فترحب به وتسأله عن الشخص الذي انضم إلى مائدته. لكن حسنين لم يجب، وأشار إلى ميرفت ببعض الطلبات التي لبتها على عجل وعيناها لا تفارقان وجه الرجل وملابسه.

وأحس أحمد بما يعتمل في ذهن المضيفة، فتحدث إليها بالعربية. . لكن حديثه هذا زادها فضولاً لمعرفة الرجل ونوعية عمله، فقد كانت من الفتيات اللواتي يحلمن بالعمل في السينما، وتعتقد اعتقاداً جازماً بأن وجهها الجميل صالح للتصوير، وأنها ستكون في يوم ما ممن يشار إليهن بالبنان. وكانت ميرفت تنتهز كافة الفرص

للتعرف على مجموعات الفنانين الذين كانوا يرتادون الكافتيريا، وتتحبب إليهم وتعمل على إرضائهم وراحتهم بلا جدوى، فلقد دعاها أحدهم إلى زيارته في شقته لبحث إمكانية إسناد أحد الأدوار إليها وقد خرجت من هذه التجربة أشلاء أنثى. ومع هذا فقد خاب ظنها في الرجل الذي استسهل اقتناصها حتى إذا ما بخلت عليه بتلبية بقية طلباته تركها تنعي الأويقات التي أضاعتها معه.

ومع كل الذي حصل لها ظلت تعتقد بأن فرصتها لا بد وستأتي. وهي اليوم أشد إيماناً بأن هذه الفرصة في الطريق إليها. وهي تذكر كل هذا بلا مبالاة، وتعتقد بأن الدرس الذي تلقته من صديقها كفيل بأن يمنحها القوة لأن تمضي في تحقيق أمنيتها تلك. وهي أيضاً تؤمن بأن الطريق إلى السينما ليس ممهداً أمام أمثالها إذا هي لم تساير هذا وتجامل ذاك.

ولقد وعدها حسنين بنشر صورتها في مجلته ذات مرة، وقد بر بوعده. وأصبح من حقها أن تثق به وأن تصدقه. وهي تطمع اليوم في المزيد، فلربما جاءت فرصتها على يد هذا الرجل. وأشارت إلى أحمد، لكن أحمد لم يكن واعياً لما يدور في ذهن المضيفة، وإنما انصرف بكل حواسه إلى حسنين الذي لبى دعوة لقائه ولقاء صديقته سهاد هذه المرة. ولقد أصدق أحمد القول لحسنين، فأخبره بجميع ما دار بينه وبين سهاد من حديث فهي ـ أي الراقصة ـ تثق بقدرته كصحفي على إعطائها مزيداً من الأضواء والشهرة. وهي أيضاً حريصة على أن تظل صديقة له رغم كل ما حصل بينها وبينه، فقد كانت تعتقد بأن إشارة صغيرة من يدها كفيلة بأن تأخذ ما تريد من أي رجل.

لكن حسنين كان بالنسبة إليها شيئاً مغايراً لمجموعة الرجال الذين تعرفت عليهم واستسهلت اقتناصهم، ولهذا فهي تؤمن بأن فرصتها لا تزال بالنسبة لما تريد قائمة.

لقد تحدثت كثيراً إلى صديقها أحمد، وأفضت إليه بجميع أسرارها وأسرار عشاقها الكثر. وكان هدفها من هذا الحديث أن يلم أحمد بتفاصيل حياة صديقته، فلا ينسى عندما يتزوجها بأنه قد تزوج فنانة كثيرة العشاق.

وكانت سهاد صريحة مع صديقها فيما أفضت به إليه. أما أحمد فلم يحاول أن يعطيها ما في لبه، بل ظل يستمع إليها بلا كلل، وكأنه يبحث عن

مخرج من هذه الورطة التي تردى فيها. ومع هذا يظل يماطل في عقد صفقة الزواج على أمل أن تعطيه الأيام فرصة الانفكاك من أسر المرأة. ولقد اشترط عليها لإتمام الزواج إعطاءه الفرصة للعمل في حقل السينما ليصبح زواجهما متكافئاً، فقبلت سهاد هذا الشرط، ومضت تبحث مع معارفها عن الفرصة التي تستطيع من خلالها مساعدته.

وهي اليوم على موعد مع منتجها المفضل لبحث هذا الأمر. وقد خرجت من شقتها مبكرة على غير عادتها لتصل إلى نتيجة محددة ثم تعود إلى الاجتماع بصديقها والصحفي. وها هما أحمد وحسنين ينتظران الراقصة في الكافتيريا، حتى إذا ما أطلت عليهما عن بعد، رمقتها أعين الفتيات في غبطة. وكانت ميرفت أسرعهن لاستقبالها والسير بجانبها حتى أوصلتها إلى مائدة أحمد وحسنين.

وتطلعت سهاد إلى حسنين بنظرة ممزوجة بالتفاؤل، فها هي فريستها تقترب منها هذه المرة، وهي تأمل أن تلقي شباكها بقوة عليه فلا تدعه يفلت منها أبداً، مهما كانت الأسباب. وألقت بطلباتها في وجه ميرفت بشيء من الفتور، لكن هذه امتثلت للرغبة ومضت تحضر القهوة للنجمة الساطعة التي تحب رقصها وإثارتها.

ومضى الحديث بينها وبين حسنين في عتاب ناعم، بينما أخذ أحمد يستمع إلى كلمات صديقته في شيء من اللامبالاة.

وتساءلت سهاد قائلة:

ـ أولم تر فيلمي الجديد يا حسنين؟

وأجاب حسنين:

ـ قرأت أخباراً عنه في بعض الصحف الفنية، ومع هذا فأنا أشعر بأن ما كتب يعطيك حقك كفنانة.

وطربت سهاد لهذه الكلمة وقالت:

ـ ولماذا لا تشاهده وتكتب عنه؟ إن نسخة من الفيلم موجودة لدي، وبإمكانك أن تراه في بيتي في الوقت الذي يناسبك.

وأجاب حسنين:

ـ هذا شرف لا أستحقه، ومع هذا فسأحاول جدياً هذه المرة أن أراه وأراك وأرى صديقي أحمد وصديقه هو الآخر في بيتك.

وقالت سهاد في دلال:

ـ خير البر عاجله. سنتعشى هذه الليلة سوياً في بيتي، وسأعتذر عن الذهاب إلى الملهى إذا وافقت وجئت في الموعد.

لكن حسنين أجاب راجياً تأجيل الموعد إلى الليلة القادمة مشترطاً في الوقت نفسه دعوة جميع الغرباء للعشاء معه.

وعندما وافقت سهاد على هذا الطلب أملى بقائمة الأسماء على أحمد، وطلب من الراقصة أن تترك بطاقات الدعوة لدى نجاح لتقوم بتسليمها إلى المدعوين. وعندها طلبت سهاد من أحمد شراء مجموعة من البطاقات من الدكان المجاور للكافتيريا، وبدأت تخط على كل بطاقة اسم ومكان الدعوة، ثم جمعت كل هذه البطاقات في مظروف وطلبت من ميرفت تسليمها لنجاح بعد أن رغبت منها تسليمها للمدعوين بأسرع ما يمكن. وعندما سألتها ميرفت أليست هي الأخرى مدعوة لهذا الحفل؟

أجابت سهاد بلا اكتراث:

ـ يمكنك أن تأتي ولكن بمفردك.

وتهلل وجه ميرفت وقالت:

ـ نعم سأحضر، وسأحضر شقيقتي معي إذا سمحت.

وقال حسنين في تهكم ظاهر:

ـ إذا كانت شقيقتك على ما أنت عليه من حسن وجمال فلا بأس بحضورها.

وأجابت ميرفت:

ـ لا بل هي أجمل مني بكثير. إنها اليوم في السنة النهائية في كلية الطب، وستكون في خدمة السيدة ومراعاة صحتها عندما تتخرج.

وقالت سهاد هي الأخرى في سخرية:

ـ وهل لدى الطبيبة وقت لإضاعته في ارتياد الحفلات؟

وأجابت ميرفت:

ـ وهل رؤية نجمة كبيرة في بيتها يعتبر إضاعة وقت؟ إنه في نظري ونظر شقيقتي شرف أوليتنا إياه فشكراً.. وألف شكر.

ونظرت سهاد بطرف عينيها إلى حسنين وكأنها تقول:

ـ ليت هذا الرجل يسمع ما يقال عني بين الفتيات هذه المرة.. أما ما يقوله الرجال فلا أعتقد أنه لم يسمعه.. لكنه يتجاهله لماذا؟ لا أدري! أولا تروق نضارة وجهي وجسدي هذا الرجل؟

الفصل العاشر

مستشفى بهمان بحلوان يغص بالعديد من الأسر المصرية، التي جاءت تعود مرضاها أثناء الوقت المحدد للزيارة. وهو في الطريق مع هذه الجموع، يتأبط صحيفة قديمة كانت قد نشرت صورة المريض، يطالعها بين الفينة والفينة وكأنه يريد أن يستجمع دقائقها في ذاكرته.

وملائكة الرحمة بملابسهن البيضاء منتشرات في الحديقة الواسعة، يراقبن المرضى بهدوء. وعلى مقربة منهن بعض الرجال الأشداء الذين تمرسوا العمل في مثل هذه المستشفيات.

مزيج من أشكال وألوان مختلفة من الناس، تحس وأنت تطالع وجوههم أنهم في أمس الحاجة إلى الرأفة والشفقة علهيم. تختلف درجات المرض بينهم من كآبة وقلق وأرق متواصل، إلى شتى أنواع الأمراض العصبية الأخرى.. كانفصام الشخصية وغير ذلك من الأمراض التي يحاول الطب اليوم أن يجد لها علاجاً.

الهدوء يغلف أجواء الحديقة على الرغم من كثرة الزوار الذين شاءت تعليمات المستشفى إفهامهم حقيقة هذا المرض في كلمات يطالعها الزائر في كل مكان من ردهات المستشفى.

وهو يتطاول بعنقه ليرى صديقه بين هذه الجموع فيمر بعينيه على أكثر من مريض ومريضة، لكن بحثه لا يجدي، فينصرف في هدوء إلى غرفة الاستعلامات ليطالع وجه الممرضة التي هبت لاستقباله متسائلة:

ـ هل أستطيع أن أقدم أية خدمة يا سيدي؟

وأجاب حسنين:

ـ ليست خدمة بالمعنى المفهوم.. فأنا أبحث عن صديق سعودي اسمه عبد الرحمن.

ـ وهل أنت من أفراد أسرته يا سيدي؟

وأجاب حسنين:

ـ لا وإنما أنا صحفي أدركتني متاعب المهنة فجئت ألهث في البحث عن أمثاله.

وأجابت الممرضة:

ـ ولكن التعليمات لا تسمح لغير أفراد الأسرة أو الأصدقاء بزيارة المريض.

وقال حسنين:

ـ اعتبريني واحداً من أصدقاء الرجل فهل النظام يسمح بملاقاته؟

وأجابت نهاد وكان هذا هو اسمها الذي قرأه على اللافتة الصغيرة الموضوعة على المنضدة:

ـ قد يسمح.. لكن بعد أن تتفضل بمراجعة طبيب القسم المعالج، وأظنه في الحجرة المجاورة.

شكر حسنين للممرضة صنيعها، ومضى على الفور إلى غرفة الطبيب الذي استطاع أن يتفهم موقفه، فمنحه الإذن مع توصية رقيقة للممرضة التي هبت على الفور معه إلى غرفة في آخر المستشفى.. فتحتها في هدوء.. ثم قالت:

ـ تفضل...

لم يصدق حسنين منظر الرجل الذي بدا الهزال يحيط بجميع أجزاء جسده. وقد تطاول شعره حتى أصبح يغطي أكبر جزء من كتفيه، وملأت وجهه ذقن رمادية مدببة تركها المريض على حريتها.

نظر حسنين إلى وجه المريض الذي بدا عليه الخوف والاصفرار، لكن الممرضة استطاعت أن تهدىء من روع المريض، وقالت في كلمات ناعمة:

ـ هو صديق يريد رؤيتك يا عبد الرحمن. لقد كلفته أسرتك أن يراك.

وأجاب عبد الرحمن في صوت متقطع:

ـ وأين هي طائرتي؟

قالت الممرضة:

ـ لا تزال في مكانها على الأرض. انظر إليها!

وكانت هناك طائرة «لعبة» تقبع على الأرض وقد تكسرت واجهتها ولحق بعض أجزائها الكثير من الضرر.

وقال المريض:

ـ ليست هذه الطائرة ما أقصده، وإنما الطائرة التي جئت بها من بلادي يوم لجأت إلى مصر. أين هي؟

وأجاب حسنين:

ـ هي موجودة على أرض المطار تنتظر إبلالك من مرضك.

وضحك المريض وقال:

ـ إبلالي من مرضي؟ أوتصدق هذا؟ حتى إذا شفيت، فما هي الفائدة؟ لقد أضعت شبابي وحياتي سدى.

ونظر حسنين إلى الممرضة التي قالت على الفور:

ـ إنه على الرغم من مظهره فهو في حالة صحو، وكلماته كما ترى تدل على هذا الصحو. أو أتركك معه تكمل حديثك؟

وقال حسنين في رجاء:

ـ بل أتمنى أن تبقي معي لحظة.

وتابع حديثه مع المريض:

ـ لقد رأيت من واجبي أن أزورك بعد أن عرفت أنك هنا.

وقال المريض:

ـ ومن الذي دلك على طريقي؟

وأجاب حسنين:

ـ صديقي وصديقك عبد اللّه.. أو نسيته هو الآخر؟

وقال المريض:

ـ لا بل هو الذي نسيني، ولولا ذلك لكان معك في زيارتك لي. إنني يا سيدي أعيش أحرج فترات حياتي، فلقد أمضيت سنوات عمر لا أدري كم هي، أكافح المرض الذي تراه.. وأنا عندما أقول لك بأن إصابتي ليست في عقلي، وإنما في إحساساتي وأعصابي، صدق ما أقول!

وصمت...

ـ أصدقك.

قالها حسنين في رتابة، لكن المريض لم يهضم هذه الرتابة، بل اندفع إلى الممرضة يطالبها بخروج الضيف بأسرع ما يمكن.

وخرج حسنين ليتابع قصة المريض مع الممرضة التي تحدثت عن حياة الرجل السابقة وأيامه في المستشفى. وعرف حسنين أشياء كثيرة عن هذا المريض، الذي لجأ إلى مصر في فترة بعيدة من الزمن بطائرته الصغيرة، عابراً البحر الأحمر في رحلة مع الضياع لا يزال يعيشها حتى الآن.

أما بقية القصة، فقد قرأها في الجريدة التي نشرت استقبال الطيار يوم لجأ، وكيف طبلت الصحف وزمرت لهذا العمل القومي الجريء.

ويهز حسنين رأسه ثم يقول للممرضة:

ـ أو تعتقدين أنه سيشفى؟

وتجيب نهاد:

ـ لا أستطيع أن أؤكد أو أنفي شفاءه. لكن ما يلاحظه الطبيب هو أن المريض عازف عن العودة إلى الحياة الطبيعية.

ويتابع حسنين سؤالها:

ـ وهلا يزوره أحد من أفراد أسرته؟

وتجيب الممرضة:

ـ لا.. فهو كما ترى غريب عن هذه المدينة، ولا أظن أن له أهلاً، لقد قطع الصلة بينه وبين مجتمعه فنسيه كل الناس.. هكذا أظن.

وصمتت.

وشكر حسنين الممرضة ثم مضى في طريقه، تصافح وجهه وجوه المرضى، ويلتقط كلماتهم وهو في ذهول حتى بعد أن أصبح خارج المستشفى، يستنشق هواء حلوان في حرية.

وأخذ يحادث نفسه بصوت مسموع لم يحرص على إخفائه. لكنه وبعد أن لفت نظره واحد من المارة شعر بخطئه هذه المرة.. فلربما أعاده هذا الذي رآه إلى المستشفى، باعتباره واحداً من هؤلاء المرضى هرب خلسة.

وأخذ يحث خطاه إلى سيارته، وملأت قلبه ذكريات دامية عن لحظات قصار، أمضاها في غرفة الغريب المريض الذي لا يزال وجهه يطالعه بين وجوه هؤلاء الناس الذين يمر بهم في طريقه إلى القاهرة.

وعندما وصل إلى مكتبه، أخذ يدون في كتابه ملاحظات كلها في هدوء، ثم أخذت الأفكار تنساب من وراء ما تخطه يده على الأوراق البيضاء التي أخذت حجماً كبيراً. وفي تلك اللحظة قطع عليه تفكيره صوت جرس التليفون الذي حمل إليه صوت نجاح وهي تقول:

ـ لقد سلمت بطاقات الدعوة لكل واحد من أصدقائك.

ويرد حسنين في اقتضاب شاكراً.. لكن نجاح تحاول أن تجر لسانه ليفيض إليها ببعض المعلومات عن الحفلة التي ستقيمها سهاد، ويمضي حسنين في إفهامها بأنه لا يعرف السبب دون جدوى.

وتمر ثوان من الوقت كافية لأن تبعد أفكار الصحفي عما كان يخطه قبل دقائق، فيتصفح النقاط التي كتبها ثم يلقي بالأوراق في باطن الدرج في هدوء.

وفي تلك اللحظة يرن جرس التليفون مرة أخرى، معلناً أن السيدة سهاد على الخط الآخر، فيقول لعاملة السنترال بأنه غير موجود، ويمضي إلى سبيله وفكره يجري وراء ما رآه في مستشفى بهمان. فلقد أثر فيه منظر المريض تأثيراً لم يستطع أن ينساه، وإنما ظل يراود مخيلته فترة من الوقت كشبح. وقال بينه وبين نفسه: ترى متى يأذن الله لهذا المريض أن يشفى؟ لكم كان بودي أن يشاركنا عبد الرحمن حفلة الغد، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. لقد صح

المثل وأصبح من واجبه أن يبحث عن حقيقة وظروف وأوضاع هذا المريض فلربما استطاع أن يضيف إلى ما يكتب شيئاً جديداً عن هؤلاء الغرباء في ديار الغربة.

إن صورة هذا الشبح الذي لقيه اليوم مغايرة لذلك الذي كان يضج فتوة وقوة.

لقد اختلطت الصورتان في ذهنه، فلم يعد يعرف أيهما يرى وأيهما يظل... لكنه مع كل هذا يلقي اللوم على عاتق الشباب الذي هرب مع أول قطعة حلوى قدمت له.

ليته كان يعرف أنها قطعة حلوى مسمومة ستحيل حياته إلى جحيم وعقله إلى فراغ.

ليته اطلع على ما يخبئه القدر له من تصاريف، لقنع بالبقاء في ظلال أشجار تلك الأرض التي استظل في سمائها وشرب من مائها.

لكنه كان غراً، فانجرف مع أول شعار تلقفته أذنه بلا فهم أو حتى وعي. ومع هذا فهو يحس بالشفقة عليه، على الماضي الذي ذهب والحياة التي يعيش، أما المستقبل فأمره بيد الله.

ترى لو قدر لهذا الرجل أن يعاود حياته من جديد، هل يسعى للمجهول الذي صادفه وللعذاب الذي لقيه؟

قد يدري.. وقد لا يدري.. ومع هذا ليته ينسى صورة الرجل البائس الذي اسمه عبد الرحمن.

الفصل الحادي عشر

ارتدت سهاد أجمل فساتيها وانتعلت في قدميها خفاً شارك فستانها ألوانه المتداخلة، والتي كانت مزيجاً متناسقاً من ألوان قوس قزح. وتميزت تسريحتها بألوان متقاربة، يخال من يراها أنها شيء جديد مغاير للتسريحات التي تشاهد في صالونات التزيين.

وكانت سهاد قد اختارت هذه المناسبة لاستعراض جسدها الجميل ووجهها الأسمر بعد أن أضافت إلى فستانها حزاماً أبيض عريضاً تدلت من جوانبه أجراس صغيرة تعطي إيقاعاً أخاذاً عندما تتحرك جيئة وذهاباً.

وازدانت القاعة بثريات كهربائية جديدة مختلفة الألوان أضفت على المكان شيئاً من البهجة. كما كانت أركان القاعة تحمل بصمات جديدة لمهندس الديكور المعروف «ادوار» الذي أغنى المكان.

كما ساهمت معلمة تنسيق الزهور اليابانية بإضافة لمساتها على أشكال الزهور المتعددة التي وضعت في أكثر من مكان بأناقة.

وظهرت الشقة بديكورها الجميل وأنوارها الخافتة صورة مغايرة لصورتها بالأمس، وكان أول الحاضرين المضيفة ميرفت وأختها الطبيبة.

استقبلت سهاد الأختين بنظرة فاحصة، ونقلت عينيها بسرعة على ملابس الفتاتين، وكأنها تقارن بين فستانها وفستان الفتاتين، وأسرّت في نفسها الاعتزاز والثقة فقد كانت المقارنة في صالحها، ورحبت في رضى بالفتاتين وغمزت الشقيقة الصغرى لميرفت بشيء من الحنان، وانجذبت إلى مصافحة وجه الصغيرة.

كانت سهى أشبه بدمية شقراء دقيقة تفاصيل الوجه والجسد معاً يحيط بوجهها شعرها الأشقر الكثيف، وتطل من عينيها معالم الدهشة بلقاء الفنانة التي تحبها، ومضت تتحدث في إلفة قائلة:

ـ لقد صح ما توقعت. . فأنت يا سيدتي أحل وأجمل من جميع صورك التي رأيتها، فهذا الوجه الأسمر النيلي يزخر في نظري بخيرات مصر التي نحبها. ولقد كنت كريمة جداً معي ومع أختي عندما دعوتني وإياها للقائك.

وأجابت سهاد في عفوية:

ـ بل الفضل في الحقيقة لك أنت. فعلى الرغم من انشغالك بالدراسة، فها أنت تشرفينني بقبول هذه الدعوة. وأنا سعيدة لأن تكوني صديقة لي تزورين بيتي في الوقت الذي تريدين.

وأجابت سهى:

ـ أوصحيح ما أسمع؟ لقد أخافوني من نظرات التعالي والاستكبار التي سألقاها منك، وها أنت تبددين مخاوفي، وتعطينني الثقة على أن الفنان في بلادي إنسان وإنسان أصيل.

وضحكت سهاد وقالت:

ـ أوتحبين الأضواء يا سهى؟

وأجابت بهزة خفيفة من رأسها وقالت:

ـ نعم.

ـ قد تكون الفرصة مواتية لك الآن. . فأنا مقدمة على إنتاج فيلم، فهل ترغبين مشاركتي في أحد الأدوار على شرط أن تتركي دراستك؟.

وانتفضت سهى وقالت بلا تردد:

ـ لا. . لكنني أقبل ما تعرضين إذا كان هذا العمل لا يعرض دراستي للخطر.

وعاودت سهاد ضحكتها وقالت:

قد يكون لما تقولين معانٍ كثيرة، فأنت لا تطمئنين لما نمارس من عمل، بينما لا ترفضين ذلك في حالة أن يكون هواية وهذا يدل على أن الفن حتى

الآن في بلادنا لا يعطي الإنسان ما يريد على الرغم من جميع ما أعطاه لبعضهم. وتابعت قولها:

ـ لا تغرنك الأضواء، فكثيراً ما أحرقت الفنان. قد لا تصدقينني عندما أقول بأنني أغبطك.. فأنت تمضين في دراستك، وعندما تنتهين ستمارسين عملك عن رغبة.. وفي رأيي لا ترى معالم الصورة التي تطالعها، وإنما ترى نفسها لأهدافهم مهما طالت المسافة أو قصرت، ومع هذا فعمر الفنان، أو على الأصح الفنانة، قصير جداً ولهذا يعز عليها أن تتركه أو تفارقه فتظل على إصرارها حتى يملها أو ينساها الناس ويومها ستعيش على الذكرى فقط.

ومع هذا انظري إلى وجه ميرفت شقيقتك وهي تطالع مجموعة الصور المنتشرة على الجدران. إنها في رأيي لا ترى معالم الصورة التي تطالعها وإنما ترى نفسها وكأنها هي التي في داخل الصورة.

إننا نقول عن مثيلاتها بأنهن مجنونات شهرة واستعراض، وعندما تحين الفرصة ويأخذن طريقهن للعمل الذي أحببنه، ساعتها سيراجعن أنفسهن لأن طريق الفن لم يكن أبداً مفروشاً بالورد.

لقد جاهدت كثيراً، وضحيت أكثر من أجل هذه الهالة التي ترينها.. لكني مع جميع مظاهر الحياة التي ترينها وجمالها، أتوق في قرارة نفسي إلى زوج يحميني من ذئاب الطريق، ومع هذا لا أجده، لأن الرجال يا صديقتي يحببننا كما نحن، لا كزوجات وعندما يقدم واحد منهم على الاقتران بنا.

وهنا يظهر أحمد، وتشير إليه سهاد:

ـ كهذا مثلاً، يضع نصب عينيه حاجته لمثيلاتي فلولا هذه الحاجة لهرب.

وأجابت سهى:

ـ لو تعرفين يا سيدتي بأنني أزداد لك حباً وإكباراً بعد كل كلماتك، فأنت في نظري جميلة الوجه والقلب معاً.

وشارك أحمد في الحديث فقال:

ـ قد يكون ما تقوله سهاد صحيحاً مائة في المائة، لكنه لا ينطبق علي.. فأنا على الرغم من كل ما قالت، أشعر بأن ما يشدني إليها هو الحب وليس

شيئاً غيره. لقد تركت بلدي وتركت فيه أجمل ذكرياتي، ومعنى هذا أنني عندما أقول ما أقول أقوله بصدق ورغبة ومع هذا فالحساب بيننا بعد...

وضحك...

وأجابت:

ـ لا عليك يا صديقي.. قد يكون ما قلت هو مجرد إشارة عابرة رأيت أن أضعك مثالاً لها، لأنك موجود.. وأنا أعرف في قرارة نفسي أنك من معدن غير معدن الآخرين، لكن لا بأس فهل تسامحني؟

وقال أحمد:

ـ لا بأس فأنا لا أريد أن أفسد بهجة هذه الليلة بهذه الترهات، فالرفاق قادمون.

وأطل حسنين بقامته المديدة تسبقه ابتسامته العريضة، ويمضي يصافح الموجودات في حيوية ويقول:

ـ قد نكون نحن أحرص على الموعد من كل هؤلاء الغرباء، وحتى يكون الوقت بالنسبة للرفاق غير ذي موضوع وكذلك فهم لا يهتمون به.

لكنه لم يكمل كلامه حتى توافد بقية المدعوين. كانوا خليطاً من الغرباء ورجال الفن والسينما وبعض سيدات المجتمع. وقد حاولت كل سيدة ارتداء أجمل فساتينها والكشف عن أكبر مساحة من مفاتن جسدها، وكأنهن في مباراة للجمال. أما الرجال فقد بدا عليهم الارتياح للجو الذي وجدوه، وأخذ كل واحد منهم يتحدث إلى رفيقه أو رفيقته. عندها نادى حسنين بصوته على القاضي اليمني يطلب منه إسماع الموجودين قصيدته «الرائد» التي شهر بها هجومه على الاشتراكية، لكن القاضي اليمني اعتذر في براعة وأدار دفة الحديث إلى نوع آخر من شعر الغزل، قام بإنشاده بلهجته المحببة، وكأنه في تلك اللحظة يحيي كل أنثى من الموجودات بمعنى من معاني شعره الجيد. حتى إذا ما انتهى طلبت واحدة منهن إهداءها قصيدة شعر.. ومضى القاضي يكتب بقلمه الأسود بيتين من الشعر على يد الأنثى مستخدماً أصدق عبارات الغزل.

أما الشاعر العراقي السابق فقد اختار مجلسه بجانب ميرفت، التي كانت

تتململ في جلساتها تتطلع إلى المنتج الكبير على أساس أنها فرصة مناسبة يمكن من خلالها أن تصل إلى أهدافها.

وانصرف الغريب السوري وهو في أحسن حالاته إلى الحديث مع الدكتورة سهى التي كانت تستمع إليه في استغراق قطعته عليها ميرفت وهي تدعوها من مجلسها طالبة منها التوجه إلى مكان المنتج الذي كان يقف مع واحدة من فتيات الوسط الفني المجهولات.

وعندما أحس المنتج بميرفت وأختها في طريقهما إليه، تقدم إليهما مصافحاً بعد أن ترك رفيقته بمفردها. ومضت ميرفت تتحدث عن فيلمه الأخير بطريقة ذكية، مستخدمة كلمات المديح والإطراء مما جعل المنتج يتيه فخراً بما قدم.

واستطاعت ميرفت أن تستعرض أمامه معلوماتها وما قرأته عن فن السينما، بأسلوب أنثوي أثار حفيظة رفيقة المنتج التي انضمت إلى الجميع بعد فترة.. أما المنتج فقد تحدث بأسلوب العالم المتمكن عن هذه الصناعة، مشيراً إلى مقدرته الفائقة في خلق النجوم بشكل ألهب خيال ميرفت التي تصورت نفسها واحدة من أبطال فيلمه القادم.. حتى إذا ما دعي الجميع إلى العشاء، اختارت ميرفت مكانها بجانب المنتج الذي قدم لها رقم برقم تلفونه وعنوان مكتبه، على أمل لقاء يتسنى له من خلاله دراسة إمكانيات ميرفت السينمائية توطئة لإسناد دور لها فيه.. وفي تلك اللحظة تقدمت سهاد إلى المنتج وقالت لميرفت في دلال:

ـ لا أريد أن أقطع عليكما الحديث، لكنني على الرغم من أني لم أسمع حرفاً منه إلا أنني أراهن بأنه حول السينما.

وأجابت ميرفت بكلمة نعم.. فتابعت سهاد قولها:

ـ لا شك أنك ستصبحين نجمة يشار لها بالبنان إذا ما قدر لهذا الرجل أن يصدق في كلامه معك. لكنني أريد أن أقول لك شيئاً.

وضحكت:

ـ فصديقي هذا لا يمنح إمكاناته لأنثى دون ثمن.

وقال المنتج:

ـ أنت هكذا دائماً يا سهاد، تحاولين الإساءة إلي بقصد ودون قصد، ومع هذا فأنا إنسان لا يمكن أن يكذبك أو حتى يكذب على نفسه، فالحياة نفسها أخذ وعطاء وبدون هذا الأخذ والعطاء تصبح الحياة خالية من أية متعة. وضحك. وضحكت ميرفت وسهاد.. وقالت:

ـ ها أنت تسمعين بأذنك ما قال فهل أنت موافقة؟

وطأطأت ميرفت برأسها إلى الأرض وقالت:

ـ أوافق ولكن بشروط.

وأجاب المنتج:

ـ وما هي الشروط؟

لكن ميرفت لم ترغب أن يستمر الحديث، وإنما قالت هذه المرة بدلال:

ـ غداً عندما نلتقي سأستمع إلى شروطك وتستمع إلى شروطي.

وتركته إلى مكان آخر تتابع حديثها مع واحد من الغرباء.

والتفتت سهاد إلى المنتج وقالت:

ـ ما رأيك فيها؟

وأجاب المنتج:

ـ رائعة.. وروعتها تكمن أكثر في أنها ذكية تعرف ما يجب أن تمنحه.

وقالت سهاد:

ـ قد لا يهمني أمرها بمقدار ما يهمك، لكنني أردت أن أعرف رأيك في هذه المجموعة التي دعوتها. أو يصلح أن تكون شريحة لفيلم يتحدث عن قصة هؤلاء الغرباء؟

وقال المنتج:

ـ الفكرة رائعة.. لكن من يكتب القصة؟

ونادت سهاد حسنين الذي لبى نداءها وقالت:

ـ سيكتبها الأستاذ حسنين.

وقال حسنين:

ـ ماذا أكتب؟

وقالت سهاد:

ـ قصة هؤلاء.

وأشارت إليهم.

ـ على أن أقوم وصديقي هذا بإنتاجها في فيلم سينمائي.

وأجاب حسنين:

ـ أوافق... بشرط أن أقدمها إلى القراء أولاً.

والتفتت سهادإلى حسين وقالت في ضراعة:

ـ كل ما أرجوك هو أن لا تقسو على البطلة، وأن تراعي ظروف حياتها، وأن تحاول تقديمها في إطار جديد يجلو عن نفسها إحساسات الندم الذي يطل من بين عينيها عندما تكون وحيدة.

وقال حسنين:

ـ سأفعل كل ما بوسعي لإرضائها لكن ليس على حساب الحقيقة.

وقالت سهاد:

ـ الحقيقة.. الحقيقة.. جميع الكتاب وأنت يا حسنين منهم يرددون هذه الكلمة.. ولكن أين هي الحقيقة في جميع الروايات التي تنشر؟ فالمطابع كل يوم تقذف بالعديد من القصص التي أشك أن الحقيقة فيها.

وقال حسنين:

ـ صحيح ما تقولينه.. لكن النوع الذي أعالجه شيء آخر، فهو يعتمد دائماً على حقيقة المواقف التي يعيشها كل واحد من أبطال القصة وصراعه مع نفسه.

وقالت سهاد:

ـ وهل تعتقد بأن ما يقوله أي واحد من هؤلاء الغرباء صادق فيه؟

وقال حسنين:

ـ قد يقولون الصدق وقد لا يقولون إلا أجزاء صغيرة منه.. لكنني ككاتب لا أعتمد على ذاكرتهم في القول، وإنما أبحث بأسلوبي عن الطريقة التي

توصلني إلى ما أرغب. وعندما أصل إلى ما أريد أحاول أن أدون ما توصلت إليه في كتاباتي ليقبلها القارىء الذي أصبح متعطشاً لمعرفة أسرار الحياة التي عاشتها مصر في فترة من أحلك فترات حياتها. لقد ناء الشعب المصري بظروف الحروب التي عاشها وبمشاكل الأمة العربية التي خاضها قادته دون وعي أو تفكير، وأصبح يحن إلى أن يقارن بين الأمس واليوم.

فها هي مشكلة لبنان تطل علينا بأحداثها الدامية، ومع هذا يصر قادتنا اليوم على أن لا يشارك أي جندي مصري في قوة السلام العربية ما دامت أراضي مصر محتلة.

هذا الموقف إذا قارناه بموقفنا في حرب اليمن التي خاضها جيشنا باندفاع قادته دون دراسة أو تدبير، نجد أننا قد تعلمنا درساً لن ننساه واستطعنا أن نستفيد من هذا الدرس. إن بلادنا في حاجة إلى كل هذه الأيدي التي تحمل السلاح لنستطيع من خلالها ـ بالحرب أو السلام ـ استرداد أراضينا التي فقدناها.. وهذا في رأيي عمل يدل على أن بلادنا قد اجتازت مرحلة المراهقة السياسية ووصلت إلى النضج المطلوب.

لقد بدأ العالم العربي والإسلامي يعاود اتصالاته الطيبة مع بلادنا بعد أن انقطعت وغدا اسم مصر شيئاً مغايراً لاسمها بالأمس، وهذا في نظري مكسب آخر لم نستطع الوصول إليه إلا بعد تخطيط سليم. لقد نعم هذا الشعب بالحرية السياسية، ولولا هذه الحرية لما حكم القاضي على أحد كبار رجال المخابرات بالسجن عشر سنوات لأنه جلد صاحب قلم.

إن الفارق بين حياة الأمس واليوم كبير جداً.. وهذا في نظري يمثل أصالة هذا الشعب الذي فطر على الطيبة.. فلقد صبر وصابر أكثر من ربع قرن ليرفع عن نفسه الضيم، وها هو يدفع الضيم بيد حديدية تعرف معنى قيمة الفرد في هذا المجتمع الصبور.

إن المعاني الإنسانية لكل ما يجري اليوم على أرض مصر، يعني أن الظلم والظالم لا مكان لهما اليوم على أرض مصر. وهذا السيل من الكتب السياسية إنما يحكي تاريخ فترة يجب أن يعرفها الأبناء لأنها كانت نقطة سوداء في صفحة هذا الوطن الذي جاهد كثيراً أثناء الاستعمار البريطاني وغيره وسيظل

يجاهد حتى يصل إلى ما يريد.

إنها العزيمة تصنع المستحيل وتتحدى جميع العقبات.. وأنا عندما أبحث عن صور من حياة الغرباء في مصر، إنما أدلي بدلوي لكتابة تاريخ مصر في الحقبة التي مرت بها.

وصمت.

وقالت سهاد:

ـ لا أريد أن أدخل في تفاصيل هذه المتاهات التي تتحدثون عنها.. فأنتم أدرى وأعرف بما تريدون، لكن ما يهمني في الأمر أن يجيء فيلمي القادم صورة شيقة أفضل وأعم وأشمل من فيلم «الكرنك» الذي حكى شيئاً عن تاريخ الحياة السياسية العصيبة في مصر، كما أنني أود أن أقول لك شيئاً: لا يغرنك ما يجري على الساحة في مصر، فكثيراً ما تنقلب الأمور رأساً على عقب.

وقال المنتج:

ـ أنت على حق.. فالمهم هو تجسيد الدور على الشاشة ليستطيع أن يشد المشاهد إليها في قوة، وهذا يعني القدرة على استيعاب الحدث بالكلمة والصورة معاً وتحليله بشكل أو بآخر أمابقية ما ذكرت فلا شأن لنا به.

وضحك حسنين وقال:

ـ لنترك ذلك إلى الغد القريب.. ويومها ستطالعون القصة كاملة شاملة، وقد وفت بجميع الأغراض التي تريدونها، فأعطتني المجد الأدبي الذي أريده، وأعطتكم أنتم المجد الفني الذي تبحثون عنه.

وقالت سهاد:

ـ ومع المجد هناك شيء يجب أن لا يغيب عن البال: المال، فبالمال وحده يعيش الإنسان في دنيا ملأى بالوحوش. لقد حاولت أن أفهم معنى الحرب العربية التي قرأت عنها بعض الشيء عام ١٩٤٨، وكيف استطاع بعضهم أن يقفز على السلطة نتيجة المآسي والمهازل التي ارتكبت بعد هذه الحرب، ولم أفهم معنى كل هذه المهازل إلا أن الشعوب العربية مجتمعة لم تستطع أن تحقق الانتصار فزرعت إسرائيل في قلب العروبة كأمر واقع.

وضحك حسنين وقال:

- ومن أين استطعت أن تحصلي على كل هذه المعلومات؟

وقالت سهاد:

- سمعت أكثر من واحد من أصدقائي يقولها هنا في هذه الشقة.

وقال حسنين:

- وماذا سمعت أيضاً؟

قالت سهاد في جدية:

- قد يكون ما سمعته لا يتناسب وهذا الحفل الذي أقيمه، لكن لا بأس. لقد كانت السلطة في نظر بعضهم وسيلة لاكتناز المال والجاه أيضاً فكانت النتيجة أن جرى بعضهم وراء الجاه والمال، فتعطلت الحياة في مجتمعات بعض بلادنا العربية في الوقت الذي استمر التطور في البلدان التي ظلت الشرعية فيها مصونة.

وكانت حروب كلامية ساحتها الإذاعات العربية المختلفة، حتى أصبح الرأي العام العالمي يعرف ما نقوله عن بعضنا البعض وما يلصق به بعضنا بالآخرين من نعوت وصفات.

وابتذلت الكلمة لدرجة أصبح بعض الساسة يستخدمونها في خطبهم التي كان الشعب يستمع إليها ويصفق لأنها كلمات معروفة يتبادلها بعضهم مع بعضهم الآخر. وتبع كل هذه الحروب الكلامية استهتار بالقيم الإنسانية، فجاب مصر وغيرها زوار الليل، يلتقطون ضحاياهم من بيوتهم ليودعوهم السجون المختلفة، وكانت حرب ٥٦ و ٦٧ التي استطاعت فيها الصهيونية احتلال الأرض والنفس معاً، وأصبح العربي يخجل من انتمائه إلى هذه الأرض، واستأسد اليهود في جميع أنحاء الدنيا، وزادوا تلطيخ الصورة العربية بما يملكون من إمكانات إعلامية، حتى جاءت حرب رمضان، فمنحت العرب أسلوباً جديداً في تحسين الصورة الملطخة. ومع هذا لم يستمر هذا التحول كثيراً، وإنما جاءت حرب الجزائر والمغرب على الصحراء تؤكد أن العرب لا يتفقون مطلقاً.

وزاد الطين بلة هذه الحرب الأهلية التي يتناقل أخبارها الرأي العام العالمي في لبنان، لتزيد في سواد الصورة مرة أخرى وكأن التضامن العربي لم يكن سوى قشة هشة استطاع العدو إحراقها في أول بادرة.

وقال حسنين:

ـ صدقيني يا سهاد أن كل ما قلته في عفوية صحيح، وللأسف، لكن ماذا يستطيع المواطن العربي أن يفعل؟

قالت سهاد:

ـ يستطيع الكثير.. لكنه يبخل بالقليل لحل مشاكل العروبة... ومن هذا القليل الصدق والصراحة عند معالجة القضايا سياسياً بعيداً عن معاني المجاملة والمزايدة أيضاً. إن الفكر العربي على ما يبدو أصبح عاجزاً عن اختيار الوسيلة التي يستطيع بها وقف هذا النزيف في لبنان، لأن كل بلد من البلدان العربية يرى المشكلة من زاوية تغاير ما يراها الآخرون.

ولو تناست بعض الدول مصلحتها الخاصة، ونظرت إلى معالجة وضع هذا النزيف الدموي وإيقافه، لعمدت إلى الصراحة مع جميع الأطراف المتنازعة وإيقاف كل واحد منها عند حده.

وتابعت سهاد قولها:

ـ إن نشيد التضامن الذي نحاول أن نعزفه اليوم أصبح نشازاً لأننا، وبكل أسف، هذه المرة لا نريد أن نصل إلى الحد الذي نقضي به على مشاكلنا داخل هذه الجامعة التي يسمونها بالجامعة العربية.

يقولون إن العرب طلاب وحدة.. وأقول أنا إن العرب بالأمس كانوا لا يجيدون إلا الكلام. أما اليوم فحتى هذا الكلام أصبح في خبر كان، لأنهم لو استطاعوا إجادة الكلام لأقنعوا المتحاربين بضرورة إيقاف هذه الحرب في لبنان.

إن هذه الدماء التي أهرقت على أرض لبنان، وهي كثيرة، لو أنها أهرقت على أرض فلسطين لأعطتنا زخماً جديداً نضيفه إلى صورة حربنا في رمضان، ولأقضت مضاجع الصهيونية في كل شبر من المدن والقرى المحتلة، لكننا

نبخل بدمائنا على أرض فسطين، ونهدرها هكذا في بيروت بلا جدوى ولا هدف، إلا إذا كان الانفصال هو المكسب الذي سيناله شعب لبنان.

أو تدري يا حسنين أن المنتصر في حرب لبنان هو الخاسر. مهما كانت النتيجة؟ لنوقف هذه المذبحة ولنبحث عن حل يرضي الأطراف المتنازعة فذلك أبقى وأجدر لأمتنا التي لا تزال في حالة حرب مع إسرائيل.

وصمتت.

وران الصمت فترة من الزمن على جميع المستمعين. لكن هذا الصمت لم يدم طويلاً، وانطلق الجميع في حديث آخر هذه المرة لا يدمي القلب ولا يوجعه.

وفي البيت أخذ حسنين يقلب فكره في حديث سهاد.. هذه الأنثى التي تجيد صنع جمالها في أعين رواد الليل وسماره. لقد تحدثت إليه حديثاً مستفيضاً عن مشاكل كان يظن أن الناس بعيدين عنها بعد الأرض عن السماء ولا سيما هذه المرأة.

أما أن تجيد سهاد صياغة أفكارها بهذا الأسلوب، فمعنى هذا أن المشكلة ليست عسيرة الفهم على بعض الناس بمقدار ما هي عسيرة على أذهان بعض الساسة الذين يحاولون إشعال الفتيل بشكل أوسع وأعم بحيث يخدمون من حيث لا يعرفون مرامي الصهيونية العالمية وأهدافها المقيتة.

ترى لو يقدر لهؤلاء الاستماع لما يقوله البسطاء والسذج من أبناء الوطن العربي عن هذه الحرب، وما ستجره على العالم العربي من كوارث هم في غنى عنها ماذا سيكون الحال؟ وهل سيواصلون ضغطهم على الزناد لزيادة إشعال الفتيل؟ أم إنهم سيساهمون في حل المشكلة؟ ومع هذا يظل صوت سهاد يملأ أذنيه في قوة واعتزاز هذه المرة.. فهذه الأنثى على بساطة تفكيرها أقدر على تصوير الموقف من الكثيرين الذين لا يود ذكر أسمائهم الآن. وأخلد للراحة وفي ذهنه أمر، لكن هذا الأمر سيتركه إلى الغد.

الفصل الثاني عشر

احتدم النقاش بين الصحفي حسنين وبين الأستاذ زياد اللاجىء السوري، الذي أخذ يعدد المزايا والأسباب التي من أجلها زجت سوريا بجيشها في لبنان لفض النزاع وإعادة الأمور إلى نصابها. وكان حسنين من أولئك المعارضين لدخول الجيش السوري على اعتبار أن دخول هذا الجيش انتصار لفئة دون أخرى.

وكان الشاعر العراقي أول المستمعين للنقاش.. كما بدا القاضي اليمني بملابسه البيضاء متكئاً على ساعد الكرسي الذي بجانبه يتطلع إلى سماء الكافتيريا في بلاهة وكأن الأمر لا يعنيه في شيء.

وبدت ميرفت في لباسها الوردي الجديد الذي اختاره الفندق لمضيفاته أجمل بكثير من صورتها السابقة.

ومضى أحمد يداعب مسبحته الزرقاء التي تسلمها مؤخراً هدية من سهاد، وكأنه هو الآخر لا يعنيه ما يقال في قليل أو كثير. وأخذت نجاح تنقر بأصابعها على آلتها الحاسبة لحن أغنية جديدة استمعت إليها عبر راديو مونت كارلو.

بينما غصت الكافتيريا بألوان شتى من الرجال والنساء من مختلف الجنسيات، يتحدثون فيما بينهم بلغات كثيرة مفهومة وغير مفهومة، في الوقت الذي أطلت فيه صباح المطربة اللبنانية وشلتها المكونة من أكثر من واحدة من بنات أسرتها، بالإضافة إلى أحد كبار العازفين في فرقة المرحومة أم كلثوم.

واختارت إحداهن ـ وكانت من بنات البحرين ـ منضدة قريبة

راحت تستمع منها إلى حديث الصحفي والأستاذ زياد.

وتشاغلت ميرفت بعض الوقت وهي تختار المكان المناسب للمنتج الذي حدّد لها الموعد الذي لم تف به، فجاء يسأل عن الأسباب.

وانتشر شيء من اللغط عندما أطلت داليدا المطربة الفرنسية المعروفة، وهي في طريقها إلى ركنها المفضل لتتناول كوب العصير المعتاد. وحاولت أكثر من فتاة التحدث إليها لكنها في جلستها تلك كانت أكثر من متعالية، فهي تعرف حقيقة وضعها السابق على هذه الأرض، وكيف كانت مجرد «كومبارس» صغير في الأفلام المصرية. واليوم وبعد أن ابتسمت لها الحياة وحيل بنيها وبين قضاء بعض الأويقات في بيروت، جاءت إلى مصر لتعلن على رؤوس الأشهاد وضعها المالي الممتاز ومكانتها الفنية الكبيرة.

والتفت حسنين يحيي داليدا التي أجابت على التحية بفتور، وكأنها لا تعرف من يحييها في الوقت الذي كان حسنين يمسك بما كتبه عن هذه المطربة في مجلته.

وقام حسنين من مكانه مستأذناً لدقائق حيث قدم المجلة إلى المطربة داليدا، التي أخذت تتصفحها ببرود، وبالقليل من الاهتمام حتى إذا ما انتهت منها أعطته إياها.. لكنه طلب منها الاحتفاظ بها فقبلت بعد تردد.

شاهدت ميرفت هذا المنظر وأعجبت به، وتمنت لو أنها وقفت كما وقفت داليدا. ورأت بعين خيالها نفسها وقد أصبحت شيئاً يشار إليه بالبنان في عالم الفن، وتمنت أن تعامل حسنين بنفس الطريقة والأسلوب. بينما مضى المنتج يدردش مع صديقه الذي بجانبه في موضوعات تافهة وعيناه ترمقان جسد ميرفت وهي تروح وتغدو، وميرفت ترقب كل ذلك وتضحك في كمها، فلقد وقع الفأر أخيراً في المصيدة.. ومضت تحادث نفسها بعد أن استعادت في ذهنها تفاصيل تجربتها السابقة مع صديق الأمس.. فها هي الفرصة مواتية لها الآن وسوف تنتهزها فعلاً.. لكنها في هذه المرة ستختار أسلوباً آخر يحقق لها رغبتها، وعندما تتحقق هذه الرغبة فلا مانع لديها من أن تعطي.

ومضت ميرفت إلى المنتج بطلباته، لكن هذا استوقفها بعض الوقت مستفسراً عن الأسباب التي أدت بها لعدم المجيء في الموعد المحدد.

واختارت ميرفت أن تقول بأن الظروف هي السبب، فهي تعرف أساليب أمثالها ولهذا فقد قررت أن لا تأتي لأن النتيجة معروفة.

لكن المنتج حاول أن يقول شيئاً آخر هذه المرة مظهراً أنه من طينة تغاير الآخرين طينة من يأخذ ويعطي وعلى هذا فيمكنها، أي ميرفت، أن تأتي غداً في الساعة الرابعة إلى مكتبه للتوقيع على العقد وأخذ مقدم الأتعاب والدور.

قالت ميرفت وهي تضحك:

ـ أوتعني حقاً ما تقول أم إنها العادة تملي على الإنسان أي إنسان بعضاً من المواقف؟

وأجاب المنتج:

ـ الدور ذاته الذي تقومين به في حياتك، دور المضيفة، فأنت كما تعلمين ناشئة في هذا الفن ويجب أن نقدمك على مراحل.

وفكرت ميرفت بينها وبين نفسها ثم قالت:

ـ لا بأس.. إلى الغد.

ثم مضت إلى مائدة الغرباء لترى حسنين وقد عاد إلى مكانه، فطلبت منه أن يعلن في مجلته خبر توقيعها على عقد الدور الجديد في الفيلم القادم للمنتج سليم. لكن حسنين لم يصدق بادىء ذي بدء، فجاءت ميرفت بالمنتج الذي أنهى إليه صدق كلامها، فوعد بالنشر، ومضت ميرفت في عملها وهي تحلم بالحياة الجديدة التي ستمارسها من خلال تجربتها في عالم السينما.

وقارنت بينها وبين داليدا، فوجدت أن من الصعب إيجاد أي نوع من المقارنة، فهذه المرأة التي قضت طفولتها في حي شبرا الشعبي، استطاعت أن تقف على قدميها في باريس ومن حولها مئات الذئاب، وأدركت أن مستقبلها رهن بتصرفاتها مع الآخرين وقدرتها على مقاومة تلبية رغباتهم قبل إتمام الصفقة.

في الوقت الذي مضى فيه حسنين يفند أخطار الحملة السورية على لبنان، هكذا أسماها. فهو من أولئك الذين يحملون سوريا مغبة تردي الأوضاع في لبنان، على اعتبار أن المشكلة لم تكن لتتسع لولا مساهمة هذه الأخيرة في دعم

المسلمين أولاً، ومنحهم القوة على الوقوف أمام المسيحيين من جهة ومساندة لقوى التقدمية والفلسطينية، حتى إذا ما اشتد ساعدهم واستطاعوا نشب أظافرهم قلبت لهم ظهر المحن واختارت الظهر الثاني.

لكن الأستاذ زياد لم يقبل كل هذه التحرشات.. فهو على الرغم من أنه على غير وفاق مع رجال الحكم في سوريا، إلا أنه يرى بأن سوريا يمكن أن تكون سنداً للبنان كجارته وشقيقته.

وأنها، أي سوريا، على مختلف العهود لا تريد الشر لمسيحيي لبنان وإنما إيماناً منها بوحدة الأرض حاولت المساعدة للحفاظ على هذه الوحدة.

وهو يرى بأن سوريا وجيشها قادران على إخماد الفتنة لكن المعلومات التي وصلت إليه لم تعطه الفرصة للقضاء على رؤوس الفتنة في لبنان ولهذا سقط العديد من الشهداء على أرضها.

وأنها، أي سوريا، لو كانت حريصة على احتلال لبنان لما رضيت بالإجراءات الخاصة بالقوات العربية لحفظ السلام.

لكن الصحفي حسنين لم يوافق على ما قيل، وتابع قوله بأن الرمال المتحركة التي يتصف بها الموقف في لبنان هو الذي أجبر سوريا على قبول قوات السلام العربية، وضحك.

لكن الأستاذ زياد لم يوافق على ذلك وإنما قال في إيمان:

ـ صدقني فنحن في سوريا نؤمن بالوحدة، صنعناها مع عبد الناصر، ونحن نعرف مواطن الضعف في هذه الوحدة ويوم انتهت هذه الوحدة بكى عليها حتى صانعو نهايتها تلك. فشعب سوريا شعب يؤمن بأن قوة العرب في اتحادهم ووحدتهم لكن المشكلة هو هذا اللباس الذي يرتديه كل جندي وهذا الذكاء الذي يطل من عيني كل مواطن. فأبناء الشعوب الذكية لا يسهل حكمها، كالطالب الذكي الذي يعتمد على ذكائه فلا يصنع شيئاً ثم يأتي الامتحان ليخذله.

انظر إلى الشعب الألماني والياباني.. هما من الشعوب المتوسطة الذكاء يمكن قيادتها. أما شعب فرنسا فلأنه ذكي فلم يستطع حتى ديجول أن يحكم

هذا الشعب مدة أكثر مما رغب. إنها مشكلتنا يا صديقي. فالذكي إنسان فردي لايحب أن يعمل مع المجموعة وإذا عمل مع المجموعة فالرئاسة مكانه. وعلى هذا فهو لا ينجح. إن العالم الجديد والقديم معاً لا يمكن أن يصنع حضارته من خلال الذكاء وحده، وإنما يجب أن يساهم مع الذكاء الاستمرارية في العطاء وتناسي الأخطاء الصغيرة حتى يسهل للقادة المضي في المسيرة.

ـ والشعب المصري يا صديقي أين مكانه من الشعوب العربية؟

سأل حسنين.

وأجاب زياد في عفوية:

ـ شعب طيب يعبر عن أفكاره لكنه عندما يثور تكون ثورته عارمة، ثورة جيل. لقد أعطى قيادته لعبد الناصر ويوم أخطأ عبد الناصر وخسر حرب ٦٧ لم يرض أن يخذله وإنما مشى من وراءه لا يصدق من يقول إن تلك المظاهرة كانت مهيأة بجميع فصولها.. لكن هذا العدد الكبير من المتظاهرين كانوا مع عبد الناصر في البقاء على رأس الحكم حقاً ولو لم يكونوا معه لما استطاع رجال المخابرات جرهم إلى التظاهر.

وقال حسنين:

ـ أوتعني أنهم تظاهروا ليخلصهم عبد الناصر من شرور الحرب ويعيد لهم الأرض؟

ـ نعم.. لكن الأيام لم تمهله وإنما راحت وألقت بالعبء على من جاء بعده.

ـ وهل تصدق أن عبد الناصر كان قادراً على إعادة الأرض التي نهبت؟

وأجاب زياد:

ـ لا أستطيع أن أؤكد أو أنفي ذلك لكنني أؤمن بأن الدروس التي تلقاهاالرجل ساهمت في أن يغير من أساليبه، وأن يضع يده في يد أكبر خبير عملاق خبر السياسة الدولية وعرف خباياها، وأعني به الملك فيصل الذي كان ولا بد سيساعد مصر في استعادة الأرض بالأسلوب الذي تميز به هذا الرجل. لقد أعطى فيصل مصر في مؤتمر الخرطوم ما لم يحلم به عبد الناصر رغم كل

ما فعل عبد الناصر مع هذا الرجل وفي صمت أيضاً. ومع هذا لماذا تريد أن أعود إلى الحديث في السياسة؟

لقد تغيرت ظروف الحياة في عالمنا العربي، وأصبحنا قوة كره مني لها.

لقد تغيرت ظروف الحياة في عالمنا العربي وأصبحنا قوة بفعل سلاح البترول ولقد أضاف هذا السلاح إلى العرب سلاحاً جديداً.

فالعالم يعرف أن العرب سيملكون في عام ٨٥ ثلثي احتياطي النقد في العالم، واليهود يعرفون ذلك ولهذا فهم يخططون لاستيعاب هذا المال حتى لا يكون له تأثيره على سياستهم التي يضعونها.. وهم يا صديقي قد بنوا قوتهم على المال، فهل يسمحون اليوم بأن يأتي هذا المال العربي لسحب السجادة من تحت أقدامهم؟ إنهم يستميتون لتخريب أكثر من جزء في عالمنا العربي، وبدأوا تخريبهم هذا من لبنان، وكانت جميع الأطراف في هذه البلاد مهيأة لمساعدتهم يصنعون ما صنعوا فيها.. حتى إذا ما انتهت هذه المشكلة عادوا لوضع بذور الفتنة في مكان ما من الأرض العربية.

إنهم يعرفون بأن التعايش مع الإنسان العربي ليس هدفهم، ولا حتى مع الرأسمال العربي، ولذلك يريدون أن يستنفدوا قوته ويصرفوها في بناء ماخرب لتضيع هباء منثوراً.

إن عالمنا العربي يا صديقي في حاجة إلى الاستقرار، وبهذا الاستقرار نستطيع أن نبني ونشيد، ولكنهم لا يريدون، ولهذا تراهم يضعون عصيهم في عجلة حياة شعوبنا ليوقفوا مسيرة تقدمنا وانطلاقنا. فالزمن مع هذه الأمة وإن لم يكن معي يا صديقي.

وضحك...

ـ أو تدري كم حاربت «فيصل» يوم كنت واحداً من صناع السياسة في بلادي؟ لقد أدميت بناني في كتابة العديد من المقالات في صحف الثورة ضد هذا الرجل، أما اليوم وبعد أن وضحت حقيقة الأمور أمام عيني أجد نفسي على خطأ وأصحح هذا الخطأ بما أقوله لك لأنني بعيد عن السلطة وهو بعيد عن الحياة.

لقد وضعنا أيدينا في يد عبد الناصر، فقبلنا أخطاءه على أنها حسنات، ولو كنا قوّمنا هذه الأخطاء وواجهناه بها لما جرى ما جرى في مصر وغير مصر.

لقد فقد أبناء مصر أسلوب الحوار مع عبد الناصر بعد أن قلمت أظافرهم دويلات المخابرات وغيرها، تلك التي أقاموها لحماية الثورة فكانت لحماية الاستبداد.

لقد بدأ النور الأخضر يغلف معالم الطريق في مصر بهذا السيل الجارف من الكتب التي كانت ولم تزل تصور الأخطار وتنتقدها لتكون درساً وعبرة للذين يقودون المسيرة اليوم. إننا عندما نواجه التاريخ سنجد من المآسي أشياء كثيرة ارتكبت باسم المحافظة على الثورة، بينما لو عدنا إلى ثورة مصر يوم قامت لرأينا أن السبب في قيامها هي قضية فلسطين. فهل استطاعت جميع الثورات التي قامت في عالمنا العربي أن تعيد فلسطين إلى العرب؟

إنها يا صديقي قميص عثمان استخدمه كل من رغب وأراد، حتى بعض الفلسطينيين هم الآخرون يستخدمون القضية لصالحهم دون تفكير. إننا يوم نصل إلى الوعي الحقيقي الذي به نستطيع تغليب مصلحة قضايانا الوطنية على مصالحنا الذاتية، سنصل إلى ما نريد ونتمكن من أن نصلي في القدس كما أراد الملك فيصل رحمه الله. إن هذا الرجل في نظري كان صادقاً مع نفسه قبل أن يكون صادقاً مع الآخرين، فاستحق حب مصر وغيرها من بلاد العرب الذين رأوا في شخصيته شخصية الأب الذي يعرف مشاكل أسرته.

ومع هذا فقد لاقى الرجل ربه بيد واحد من أقرب الناس إليه، ولقد تلقيت خبر وفاته بانزعاج كبير أنا الذي كنت ضده في مقتبل حياتي، فأنا أخاف على هذا العالم العربي من أن يقضي على ساسته المجانين والأغبياء كما قضي على فيصل.

وصمت الرجل قليلاً ثم عاود حديثه:

ـ قد تكون لي من المساوىء ما أخاف أن يعرفها عني أكثر الناس لكن من حسناتي وأنا هنا أعلنها على رؤوس الأشهاد أنني صادق في إحساساتي التي

أقولها. فأنا سوري وأنت مصري وبقية الناس الذين حولنا لا يوجد فيهم سعودي واحد سوى عبد الرحمن، الذي يقضي بقية حياته في مستشفى بهمان ولهذا فأنا لا أحاجي ولا أجامل وإنما أقول ما أؤمن به بعد طول عناء.

ثم صمت...

وعندها يدخل سعيد يحمل تحت إبطه جريدة، ما كاد يفردها أمام أصدقائه حتى نظر بعضهم إلى وجه البعض الآخر.

فلقد مات بالأمس ثاني الغرباء في مستشفى بهمان وكأن موته كان بداية لراحة ذلك الجسد المتهالك.

وصمت الجميع فترة من الوقت، ونظر كل واحد للآخر وكأنه يرغب في معرفة من الذي سيلي الذي مات، لكن صمتهم لم يطل وإنما عاد الحديث يأخذ شكلاً آخر هذه المرة.

إذ سرعان ما أطل سرب من الحسان البيروتيات، جئن بأجمل ملابسهن لتزجية الوقت في الكافتيريا.

وامتدت الأعناق ترمق الجميلات بشيء من الحسرة والضيق، وأخذت ميرفت تجري نحوهن تستعجل طلباتهن، بينما قال القاضي اليمني قولته الثانية المشهورة وبظرفه المعروف:

ـ أو تعرفون من هن هؤلاء الجميلات؟

وقال الجميع بصوت واحد:

ـ لا.

وعندها تنهد القاضي وقال:

ـ هناك أكثر من حيلة تجمعكم بهن فهن يا أصدقائي مثلنا جئن هرباً من جحيم الحرب في بلادهن سعياً وراء الراحة.

انظروا إلى وجوههن الباسمة، وإلى ملابسهن الأنيقة وأجسادهن الرشيقة تعطيكم فكرة عن صور اللجوء السياسي الجديد في هذه الحقبة الحرجة التي تعيشها أجمل بقعة في ديار العرب.. لبنان.

لقد أصاب هذه الرقعة الجميلة من الوطن العربي ما أصابها من حرب

وشرور حرب، ومع هذا تظل العيون الناعمة أقدر على تحمل مصائب وويلات هذه الحروب منا نحن الرجال لماذا لا أدري!

انظروا إلى تلك الشقراء التي اختارت ملابسها كفنانة ترونها أجمل بكثير وهي تضحك، ولهذا فهي لا تبخل بابتسامتها على أحد، وكأن أمر الحرب في بلادها لا يعنيها.

ومع هذا فسأحاول أن أتحدث إليها، لأتعرف إلى وجهة نظرها في هذه الحرب الضروس التي تأكل الأخضر واليابس في بلاد الأرز.

وقام من مجلسه وتوجه إلى مائدة الجميلات وتقدم من إحداهن في جدية قائلاً:

ـ أتسمح لي سيدتي أن أجلس قليلاً هنا؟

وأشار إلى الكرسي، وتطلعت الجميلات إلى وجهه في دهشة وأجابت إحداهن:

ـ تفضل.

وعندما جلس قدم نفسه إليهن وقال:

ـ صدقوني.. فعلى الرغم من الألم الذي يعتصر قلبي لما يجري في بيروت التي أحبها، إلا أنني سعيد برؤية هذه الوجوه الجميلة في أرض الكنانة.. فهل ستطول مدة بقائكن على هذه الأرض؟

وعندها قالت الشقراء:

ـ من الصعب علينا الإجابة على هذا السؤال، لكننا مع كل ما يجري على أرضنا نأمل أن لا تطول إقامتنا لا لأننا نحب بلادنا فحسب ونتمنى العودة إلى أراضيها، وإنما لأننا أيضاً ضقنا ذرعاً بالحرب المعقدة.

لقد استطاعت السياسة أن تفرق بين أبناء الأسرة الواحدة، وهو أمر لا أستطيع أن أصفه لك وإنما أقول شيئاً واحداً: لقد استطاع الشيطان أن يتسلل من خلال النفوس اللبنانية فهدم المنطق والعقل فيها، ثم دفعها إلى الهاوية رغماً عنها.

يقولون إنها الحرب بين المسلم والمسيحي، بين اليمين واليسار، وأنا

أقول لك إنها شيء آخر. انظر إلى هؤلاء السيدات اللواتي حولك، تجدهن من مختلف الطوائف اللبنانية جئن معي هرباً من شر الحرب الأهلية التي لا تعرف سبباً لها غير ما يقال عنها.

وما يقال يكذبه هذا الواقع الذي نعيشه. لقد أرادوا هدم صور هذا التعايش بين مختلف الطوائف في بلادنا، فجئنا اليوم نجسده على أرض الكنانة، وفي الغد سنتحدث عن هذا التعايش إلى الصحافة العالمية، ليرى الرأي العام العالمي أن ما يفتعل في لبنان لم يكن بيد أبنائه وإن كان هؤلاء الأبناء هم الآخرون ملومون لأنهم انساقوا وراء ما بيت لهم ولوطنهم الصغير.

صمتت...

وقالت الثانية:

ـ لقد عاش المواطن في لبنان إلى جانب أخيه الفلسطيني في وئام منذ حرب عام ١٩٤٨، يساند القضية الفلسطينية ويعمل لها. وها هم اليوم يلصقون بنا نحن اللبنانيين بأننا ضد هذه القضية. صدقني يا سيدي فأنا قد أفهم في العطور والأزياء أكثر مما أعرف عن السياسة، ومع هذا فقد أضافت الشهور التي مرت على الحرب الأهلية في لبنان إلى ثقافتي أشياء كثيرة عن هذه السياسة.

أوتعرف يا سيدي أن حرب لبنان ليست سوى محاولة من العدو لتفريغ القوة العربية من قدراتها الكبيرة نحو الاتجاه إلى قضيتها الأساسية فلسطين، وصرفها إلى قضايا صغيرة جانبية بالإضافة إلى إضعاف موقفها السياسي والإعلامي أمام الرأي العام العالمي الذي بات ينظر إلى العرب على أنهم قوم يقاتل بعضهم البعض الآخر لأتفه الأسباب؟ لقد كان لبنان بلد الأحرار يستقبل بذراعيه كل غريب ويحنو عليه.. وها هو اليوم في حاجة إلى من يحنو على غرباء بلاده.

لقد أدمت هذه الحرب قلوبنا الشابة.. فلا يغرنك ما تراه من مظهرنا اللاهي، لكن أليس من حقنا أن نعيش؟ لقد رفضنا حمل السلاح في الوقت الذي لا يمكن لإنسان أن يأمن على نفسه بعض الشيء بدون هذا السلاح ولهذا ترانا اليوم هنا على أرض الكنانة في انتظار ما تتمخض عنه الأحداث، فلربما

عاد المنطق إلى رؤوس المتحاربين على الأرض الخضراء.

وصمتت... ثم تابعت قولها:

ـ لقد فقدت أخي في هذه الحرب، وأصيب ابني الصغير بطلقات طائشة في قدميه وها هو يعالج اليوم في مستشفيات القاهرة.

أو تدري ماذا يقول الصغير عن هذه الطلقات التي أصابته؟ يقول عنها بأنها أوسمة أهداها إليه أحد المجانين الكبار في بلد الأرز الصغير.

لقد كرهت من كل قلبي أصوات طلقات الرصاص التي كنت أستمع إليها من بيتي في الأشرفية، فأنا مسيحية. ولكن قبل كل هذا وذاك فأنا عربية لبنانية، تؤمن بوحدة لبنان وتعايش شعبه، ومع كل هذا فنحن يا سيدي لا يمكن أن نصف وجودنا على هذه الأرض بأنه هرب من لبنان ولجوء إلى مصر.

إننا نرى أن الأمر بالنسبة إلينا غير هذا أو ذاك.. فنحن في رحلة قصيرة لقلب العروبة النابض، نعود بعدها إلى بلادنا بعد أن يعود إليها الهدوء، ويذهب عنها ما أصابها من شرور وآثام.

إننا يا سيدي نحب كل جزء من أجزاء بلادنا، ونعتقد أن ما جرى في لبنان يمكن أن يجري في أي بلد عندما تستطيع الفتنة أن تسري وتتسلل إلى قلوب أبنائه.. ومع هذا فنحن نحلم بالعودة إلى لبنان قريباً وقريباً جداً.. فهل تحلم معنا يا سيدي بهذه العودة؟

ونظر القاضي إلى المرأة نظرة شعر من خلالها بضآلة موقعه، فعلى الرغم من كل ما يجري تحلم هذه المرأة بالعودة إلى بلادها. أما هو فقد غابت عن عينيه جميع أحلام العودة إلى أرضه وأهله.

ترى ماذا سيخبىء الغد له من آلام هو وهذه الصفوة من عجائز السياسة أصدقاء العمر؟

ونظر إلى أصدقائه نظرة ذات مغزى تقبلها أصدقاؤه كل واحد منهم بمعنى.

أما حسنين فقد كان في مكانه ينقل ناظريه بين هؤلاء الغرباء، وبين اللاجئات اللبنانيات اللواتي جئن إلى مصر هرباً من جحيم معارك الحرب

الأهلية، التي تجري على ذلك الجزء من الوطن العربي الكبير، وملأ قلبه إحساس بالألم يعصره ويدمي فؤاده.

فلقد تردت الأوضاع في لبنان أكثر مما يتصور، ومع هذا فهو يأمل أن يعود الهدوء إلى البلد الذي أحب، إلى لبنان الصغير كما كان يسميه. ولملم أوراقه ومضى خارج الكافتيريا ليضيع في خضم الأجساد التي تسير في الشارع الكبير بهدف وبلا هدف.

وفي باطن أعماقه تساؤل: ترى هل استطاع أن يتعرف إلى جميع جوانب حياة هؤلاء الغرباء في بلده؟ وهل هو معهم في غربتهم عن ديارهم تلك أم لا؟ وهل كان من المفروض عليهم البقاء في أوطانهم يساهمون في بنائها كل بطريقته؟

أسئلة كثيرة تطل من ذاكرته وتطن في أذنيه وهو يعدو في الشارع ومن خلفه آلاف الناس.

وفجأة يختلط الحابل بالنابل في الطريق، ويتجمع الناس حول الجثة الضخمة التي انقلبت على وجهها والدماء الغزيرة تنزف من أكثر من مكان.

وينظر إلى الوجه. إنه يعرفه، يعرفه جيداً فهذه الصورة ليست غريبة عنه. ويتقدم البوليس من جثة الرجل يقلبون أوراقه، فلقد ذهب الغريب العراقي ضحية سيارة داهمته وهي في عجلة من أمرها. وينشط عقل حسنين وتثور في نفسه حاسة الصحفي، ويبدأ في مطالعة الوجوه التي التفت حول المكان وإلى جانبها السيارة التي داهمت المجني عليه.

ويلتفت حسنين إلى مكان السيارة ليحيي اليد التي امتدت تشاور إليه، وكأنها تتحدث معه حديثاً صامتاً. وينظر إلى الوجه فيرى سهاد وهي تناديه، حتى إذا ما وصل إلى مكانها قالت في تعلثم:

ـ قد تكون السيارة التي صدمت الرجل سيارتي لكنني لم أكن أقودها، بل هذا!

وأشارت إلى السائق الذي بدا مسترخياً في مكانه ينتظر نتيجة التحقيق في الخطأ الذي ارتكب.

أما حسنين فقد كان يفكر في صمت هذه المرة ويقول:

ـ عجيبة هي الأقدار.. فبالأمس يموت الدكتور سعادة وهو يعمل في فرقة سهاد، واليوم يموت الغريب العراقي بصدمة من سيارتها. ترى كم من الغرباء ستقتلهم هذه المرأة؟

وتحس سهاد بما يعتمل في ذهن حسنين، فتبادر إلى القول مؤكدة:

ـ صدقني لم أكن أنا التي أقود السيارة عندما صدمت الرجل.

لكن حسنين لم يجب، وإنما بدأ في تجميع جوانب الحادث من أكثر من شخص من المجتمعين حول الجثة. وهو يعرف كيف يكتب هذا الخبر في جريدته بالطريقة التي سيسبق بها جميع الصحف، فحياة الرجل وسهاد، وماضيه وماضيها، وأحلامه وأحلامها، يعرفها جيداً وبشكل لا يتسنى لغيره من الصحفيين أن يعرف ما يعرف.

وسار في الطريق وأفكاره تسابق وقع قدميه، وكأنه في سباق معها هذه المرة. لقد أحس بأن هذه المرأة التي يسمونها سهاد، رغم جميع ما يحيط بها من عز ومال ومجد فني، فهي في حاجة إليه وسيفعل ما يستطيع لتكون في منأى عما يكدر صفو حياتها. لقد لعبت الصدف في حياة هذه الأنثى أكثر من دور، وهو بدوره لا يريد أن يعيد إلى الأذهان جميع ما مضى ومر.

وأحس بالراحة عند هذا الحد من التفكير، ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، وعلامة استفهام صغيرة تراود مخيلته في إصرار.

ترى على مَن مِن الغرباء سيكون الدور هذه المرة؟ وهو لا يريد أن يفكر في هذا الموضوع، لا لأنه خائف أو حزين، وهل يخاف أحد من الناس على الغرباء أو يحزن؟ لا يدري ولا يريد أن يدري.

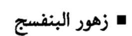
وتاه في الزحام بين جموع المواطنين مجرداً من جميع صفاته التي يحملها، كرقم صغير في هذا الخضم الكبير من الأجساد الفارهة، التي خرجت مع الصباح الباكر في رحلة جديدة مع عجلة الحياة التي لا تريد التوقف.

ألقاك غداً

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م
ط ٣ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

■ ألقاك غداً
■ الصدى
■ نانسي
■ العذارء
■ تامارا
■ بعد فوات الأوان
■ المشوار
■ ويضيع الزمن
■ كما تريد يا أبي



■ زهور البنفسج
■ إنهم يقتلون العصافير
■ عندما تتراكم الأخطاء
■ الغد الذي نرمق
■ مواء القطط
■ وجه تحت الماء
■ الشهادة الكبيرة
■ الثرثارة الكبيرة

ألقاك غداً

ألقاك غداً، في دروب الحياة المهجورة، نغماً حائراً يبدو صداه بين أشواك الزمن وأقدام النخيل، ولواذع النحل وزقزعة العصافير. فدروب الحياة ليست كلها خلواً من الناس لكنها معي أصبحت كذلك شيئاً مثيراً رغم هدأة الليل وضياء القمر وروافد الحياة الخيِّرة الكبيرة. ألقاك لأتحدث إليك عن أماني الحب التي تعشعش في خيالات الزمن رؤى متحركة تتسابق إلى الظهور وكأنها على موعد مع فجر نديّ يطل مع الربيع وزهوره ووروده ورياحينه.

فالزمن ذلك الذي يصنع التجاعيد على الوجوه يخطها بريشته القاسية في أناة وصبر، وكأنه يرى في لوحاته التي يخطها أحداث الماضي وعبر الأيام كفيل بأن يدفن جراحات الماضي وآلامه، ليبعث الدفء في الأماني والأحلام.

وأنت أنت، كالدهر تقف عند أقدام الشاطىء بالقرب من تلك التلة الصغيرة، ترمق البحر في نشوة الظافر، تنظر إليه من عليائك في قسوة من لا يحس بخفقان من أحبه، وكأنك مع رحلة الوهم الصغيرة، أشبه بفارس فقد سلاحه في معركة هو القادر على أن يمسك وباستمرار بهذا السلاح.

ألقاك وأتحدث إليك حديث القلب للقلب، وأنا على مقربة من كوخك الصغير ترفع ذراعيك وتشد صدرك، وكأنك تحزم أمرك على شيء لا تدريه أنت وأعرفه أنا. لكنني أظل مع كل هذا أرمقك بعيني، أنظر إلى وجهك وكتفيك لألتقط من بين حبائل الأمس الغابر ذكريات وذكريات مرت سراعاً، وكلي أمل في أن تعود لسابق بهائها وإشراقها

وطلائها، صورة صادقة للحب الكبير الذي يربط بين قلبينا. أيها الفارس الذي لم يكبُ جواده أو يعرف معنى أن يترجل الفارس عن فرسه، ثم يستلقي على رمال الشاطىء يرمق الشمس بعين نصف مفتوحة، قد تنسى أن تجيب عن تساؤلي ولكن..

ظروف الحياة قد تقسو عليّ، لكنها تلين لك، ورجائي أن تعطف أيضاً وفي استحياء. ففي هدوء الليل تتكاثر طيور السنونو، وفي مخادعها تلتمس الدفء من بقايا أوراق الشجر التي لملمتها في هدوء وأنا وحدي أحس بفراغ الليالي والأيام بعيدة عنك.

والكوخ في مكانه يربض على الأرض في صمت قاتل لا يقطعه سوى هدير الموج وهو ينحسر عند أقدام الشاطىء بعد غياب ضوء القمر عن الرمال الناعمة التي أحببتَها، وأحببتُها أنا أيضاً معك، وأنفاسك اللاهثة تعلو وتهبط وكأنها سمفونية يعزفها موسيقار تائه فقدت قدماه الطريق، وإن لم تضل معالمها بعد.

يقولون: لا يعرف الشوق إلا من يكابده، لكنك أنت في مكانك الذي اخترت أكبر من الشوق وأجمل من الضياء وأحلى من الحياة، تختار ضحاياك في حرية، وكأنك تحلم بالمجد يكتبه التاريخ في أساطير مبطنة تتناولها الألسنة والشفاه الملونة أحاديث طويلة يحكيها الليل، ولا ينساها النهار، لأنها حصيلة ليالي الشتاء الطويلة.

ألقاك في الغد متسربلاً بلباس من الورود تعبق به نسائم الفجر في صبُحية رقيقة يتناسى فيها الناس جمال كل هذه الورود والطيور والأشجار، ولا يتذكرون سوى حلاوة اللقاء.

ألقاك وفي عيني بسمة حب، وفي قلبي رعشة عشق، وفي دمائي فورة إحساس بذلك الأمل الذي أراه يتجسد على شفاه الغد، أراه في حمرة الخدود الرقيقة عندما تلفح وجوهها نسائم ليالي الربيع الحانية.

أنغام الماضي تطل من عينيك، وحلاوة الحياة تصورها ابتسامتك، وجمال الزهور تبدو على شفتيك قطوفاً دانية لا يمكن للغريب ولا القريب أن يلمسك بها لأنها زئبقية الحركة، لولبية الخطى، رشيقة، أكاد أزرعها على مخدتي عندما أهجع لأراها من بعيد ذكريات تخالط دمي وقلبي وفؤادي وأحشائي التي

تضج دائماً لعذوبة اللقاء، ذلك الشيء الذي أنتظر، فحياة الأمس تظل بالنسبة إليّ أشبه بجدول ماء رقراق رسمته يد الطبيعة الحنون على الأرض الطيبة المعطاء، صورة تحكي قصة الزرع والضرع والنماء والسقيا.

أوتدري كيف سألقاك وأنت متسربل في ثياب العافية تنضو عن نفسك آلام الماضي، تدفع بها لأن تهرب من العيون السوداء، في رحلة صمت وروية يكاد يخالها من لا يعرفك أنك تريد أن تنساها رغم أنها محفورة في سويداء قلبك بأزاميل صنعتها الأيدي الناعمة بعد أن طرزت حواشيها بأسماء كثيرة لأماكن كنت أنا وأنت من روادها يوماً ما.. أوتذكر أم إنك في استغراقك الصامت تدفع بذكريات الأمس من وراء حنايا الليالي، لتصهر حروفها أشعة الشمس المحرقة وأن تستقبلها كعادتك محسور الرأس وخصيلات الشعر الفاحم تتدلى في حرية على الجبهة المشرقة.

لي ولك اللهُ يا فارسي الذي انطلق حصانه يجوب الفيافي بعيداً عن مواطن الحقد يلتهم ما يواجهه من أفكار، وهو في طريق العودة بعد أن ضلت قدماه الطريق وتاه هو في الزحام.

ألقاك في وجوه الأطفال الذين ألتقيهم في طريقي إليك وإحساس السعادة يغمرني حتى أخمص قدمي، فأنا مدينة لما أحس لذلك الترياق السحري الذي تناولته ذات ليلة وافتقدته ذات يوم كان عدد النجوم في السماء أكثر مما أتصورها وتتصورها عيناي التي ترمق الأفق من وراء سجف الماضي، ألواناً زاهية تتضاءل أمام روعتها كل الألوان التي يأتي بها قوس قزح. ومع هذا، كانت يد القدر أقوى مني ومنك، فنأيت وبقيت أنا وحدي، أراقب الليل والنجوم والشمس والقمر والزهور عسى أن أجد فيها صدى لأيام الصفاء التي عشتها بقربك.

ويقرأ رسالتها التي جاءت بلا موعد وهو في مكانه، بجانب المدفأة، يصطلي بوهجها الذي تنعكس صورةُ على المرآة القريبة.

فليالي كانون شديدة البرودة وهو يشعر بجسده يضطرب وقلبه يخفق ويديه ترتعشان.

وينظر إلى الأوراق الزرقاء يتابع حروفها بعينيه حرفاً حرفاً، وكأنها تحاول أن تبرز من وراء السطور، معالم حكاية طويلة يعرف بعضها ولا يرضى أن ينسى البعض الآخر..

فرحلة النسيان التي أرادها لا يمكن أن تصنع له ما رغب، فحروف الأيام وكلمات الزمن تواصل سيرها وراءه في شوق غامر، تختار ألفاظها بعناية وكأنها تبحث عن المعنى من وراء كل حرف.

ترى أو لا تزال وداد على سابق عهدها وحبها ووفائها له رغم كل ما فعل وفَعَلت؟

يقولون إن المرأة أقدر على تلمس الأعذار لرجلها عندما تحب..

ويقولون إن الأنثى أقدر على هضم المشاكل إذا أرادت، أما هو فقد هرب من المشكلة ليأتي إلى هنا، ولم يحارب من أجل أن تكون معه.. أو يكفي أن يقبع في مكانه في هذه القرية الصغيرة قريباً من (فورت كولينز) بكلورادو، يلملم ذكرياته من وراء السجف وهو في صراع دائم، مع الماضي وذكرياته والحاضر وآلامه والمستقبل الذي يجهل تفاصيله، ويعاود قراءة كلماتها في روية وكأنه يأمل أن يحفظ حروفها في أعماق أعماقه، فدموع المرأة لآلىء بيضاء تتناثر على صفحات الورق لتظل عائشة حتى عندما تجف، فهو يراها، يلمحها تطل عليه في كل سطر من سطور الرسالة الأنيقة.

وتلتهم عيناه (ألبُوم) الذكريات لتظهر أمام عينيه صورة وداد في أوضاع كثيرة. لكم هي جميلة وفاتنة، هذه الأنثى التي أحب..

فوجهها الأبيض المستدير وعيناها السوداوان والواسعتان وجبينها الأبلج وشعرها الأسود المسدول كشلال على الأكتاف يرمقه في وله وكأنه يجسد أيام الماضي، يوم كان معها هناك في مدينة جدة.

ثلاث سنوات أمضاها معها كزوجة لم يشعر خلالها بالراحة رغم كل مظاهر الحب الذي يربط بين القلبين الشابين فأمها التي كانت تقف كالحائط المسدود كانت تحول بينه وبينها في أن يستمرئا الحب ويسيران مع تياره في طريق السعادة لماذا..؟

أيكون السبب في كل هذا أنه لم يستطع فهم حقيقة حماته؟ فوداد وإن كانت الابنة الوحيدة لها، إلا أنها أكثر من ذلك، فلقد جاهدت تلك المرأة كثيراً لتكبر فتاتها بعد طلاقها من زوجها إثر زواج فاشل لم يدم سوى سنوات ثلاث فقد عادت بعدها مع الفراغ تعيش حياتها في خواء لولا وداد التي أفرغت كل حنانها وحياتها من أجلها لتكبر ثم تتزوج.

ويوم تزوجت منه تغير كل شيء فلقد شعرت المسكينة أنها فقدت جزءاً هاماً ومثيراً من شخصيتها، وهي ترى ابنتها وقد ذهبت عنها بعيداً.

وكأي امرأة منحت حياتها لابنتها التي عاشت معها، أخذت تتخبط في حياتها حتى استقر أمرها على أن تتدخل في حياتها وحياته هكذا لتعاود رحلة مسؤوليتها تجاهها وبكل ثقلها.

ولقد حاول أن يثنيها عن عزمها هذا فلم يستطع ولم تستطع وداد لأنها كانت قد وطدت نفسها على أن تكون وداد لها ولها وحدها. لطالما أشعرها بأن ما تصنعه معه ومع وداد يجعله يتألم في صمت لكنها كانت لاهية.

وهو يذكر أحاديثه معها يوم قرر السفر إلى أمريكا لإكمال دراسته فلقد حاول أن يفهمها معنى هذا السفر، ولماذا، والنتائج التي ستعود على حياته ووداد ومع هذا كان يوماً عاصفاً ومثيراً خرج بعده من البيت إلى بيت الأسرة وعيناه تتلمس وجه وداد الذي لاذ بالصمت وهي ترى أمها تعارض في قسوة كلبوة كاسرة أن ترافقه ابنتها رحلته تلك. ولكم أحس ساعتها بالخنجر المسموم وهو يصوب إلى صدره وصدر وداد، فقد كان رفضها ضربة قاسية لحياة كلها تدخّل من جانب حماته في بيته ومع زوجته.. ورأى وداد بوجهها الشاحب ونظراتها الزائغة ووجيف قلبها المسموع كله يطالعه في هلع وصمت يراه بعينيه ويتلمسه بقلبه فهو يعرف مدى الحب الذي يربط بين قلبه وقلبها ولكن...

قد تكون موافقتها على رغبة أمها ناتجة عن أنها لم تكن تأمل أن تعصيها هي التي عاشت كل حياتها لها حتى كبرت وتزوجت، ولكن ما ذنبه هو بأن يتحمل عنعنات هذه العجوز؟

ولقد حاولت وداد أن تتحدث إليه كثيراً في هذا الموضوع تلفونياً وبواسطة أخته وترجوه أن يهدأ قليلاً فلربما استطاعت تبرير أمرها لكنه أصم أذنيه ومضى

في طريقه إلى أمريكا بدونها وإن كان يفكر فيها كثيراً..

وتمر الأيام، وهو كالدهر صامد لا يلين لكنه مع كل هذه القدرة العجيبة على الصمت، فقد كانت أحاديثه لنفسه عن وداد كثيرة ومتعددة.

لطالما رآها وهو يسرح بناظريه في جداول المياه الجارية، تبتسم في استكانة وكأنها تبثه لواعج شوقها.

وكثيراً ما أحس بروحها ترفرف حوله في كل شفة تتحدث إليه في صمت وعيناها المنكسرتان تكادان تلتهمان وجهه وأنفاسها تحيط بمكانه حتى إذا أفاق من أحلام يقظته وجد نفسه مع الفراغ، دون وداد.

ولقد آلى على نفسه أن ينأى عن مصادقة أي أنثى، لدرجة أصبح خلالها معروفاً لدى زملائه وزميلاته بأنه إنسان معقد يعيش لنفسه، وهو فوق هذا أو ذاك ضد المرأة، أو عدوها على الأصح.

حتى جاءت سعاد، فتاة عربية سمراء اللون رشيقة القامة في وجهها طلاوة الشرق وحلاوته وفي حديثها هدوءه وجماله تشاركه الدراسة ولقد تعرف إليها في المكتبة ومن يومها أحس بشيء ما يجذبه إلى هذه الإنسانة لدرجة جعلته يتخلى عن عاداته ويلقي عليها تحيته عندما يراها في اقتضاب لتقابله بابتسامتها الرقيقة وهي تطل من وجهها وشفتيها في هدوء وراحة، ولقد كانت إطلالة سعاد عليه بداية عهد جديد جعله يلاحقها بنظراته فيحس بأن فيها شيئاً من تلك التي ابتعد عنها، فيشعر بالراحة والدفء والهدوء. حتى ذلك اليوم الذي رأى أن يتعرف أكثر إلى الوافدة الجديدة فجاءت الفرصة في ليلة السمر التي أقامتها الجامعة، هذه الفرصة التي رآها مواتية ورأتها هي كذلك فقد كان هو العربي الوحيد هناك فبادرته بالتحية بعد أن اختارت مكانها بجانبه وهي تلقي بجسدها على الكرسي المجاور لكرسيه.

ونظرت إلى وجهه فرأته يبدو رغم مظاهر الصلابة شيئاً مثيراً وغريباً في آن واحد وثورة الشك الغريبة التي داهمته جعلتها تسأله:

ـ ترى لماذا تخاف لقاء أمثالي؟ وما هي أسباب هذا الانطواء الذي تمارسه مع الأخريات فأنا وإن كنت عربية الأصل والمنبت أشعر بالراحة عندما أتحدث معك ومع الآخرين ثم لا تنس أرضي فهي تجاور بلدك، لهذا أجد

نفسي على حق عندما أتطفل عليك وأثقل بكل هذا الكلام الذي أرجو أن لا تعتبره سخيفاً فأنا أحسن بأنك أشبه بفارس ترك صهوة جواده فجأة وارتضى أن يبقى في الظل ينتظر ما تمنحه إياه الأيام دون أن يصنع شيئاً من أجل ما افتقده.
والتفت إليها وقال:

ـ ربما كان فيما قلت الحقيقة لكن ما أستغربه أنك تستعملين تعابيرها وألفاظها ذاتها.

وصمت، والتفتت إليه بدهشة وقالت:

ـ ومن هي تلك التي تراني قد استخدمت جملها أو كلماتها أو تعابيرها على حد قولك؟

وأجابها بلا مبالاة:

ـ وداد زوجتي..

ـ وأين هي الآن؟

ـ هناك في مدينتي ترمق القمر من وراء نافذتها الصغيرة في أناة وصبر وهدوء. ثلاث سنوات طويلة لم أرها ولم ترني إلا على الورق وفي الأحلام.

ـ ولماذا لم تأت معك؟

ـ لهذا الأمر حكاية طويلة لا أريد أن أخبرها الآن على الأقل.

ونظرت إلى وجهه وقالت:

ـ أتصدقني عندما أطلب منك أن تعتبرني أختاً لك، فأنا وأنت من طينة واحدة، نعايش الغربة رغبة في طلب العلم، لأن بلادنا في حاجة إلينا بعد أن نبلغ شأونا في تلقيه، فلا تبخل على أختك بالحديث بما يضايقك فربما استطعت أن أقرب بينك وبين وداد.

ـ ومن قال لك إنها بعيدة عني؟

ونظرت إليه في استغراب ثم قالت:

ـ وكيف تكون قريبة منك وبينك وبينها آلاف الأميال؟

ـ لكننا مع كل هذا نكاد لا نفترق.

وضحكت سعاد وقالت:

ـ يقولون بأن مجنون ليلى مجرد حكاية ترويها الكتب لكني بعد أن استمعت إلى ما استمعت منك أكاد أجزم بأن هناك الكثيرين من أمثال قيس وأنت أولهم.

وضحكت.. لكنه لم يضحك وإنما دفع إليه بالرسالة التي وصلته من وداد فمضت سعاد تقرأها في هدوء حتى إذا ما انتهت من قراءتها قالت:

ـ لقد فهمت ما عنيته ولكن.. أوتدرك معاني ما قرأت؟

وبهزة من رأسه أجاب بنعم..

لكنها قالت:

ـ لا أعتقد أنك قد فهمت ما تعنيه وداد من رسالتها إليك فهي تؤكد أنها في الطريق إليك...

والتفت إليها وقال:

ـ وكيف عرفت؟

ـ من كلماتها (ألقاك غداً)، فمعنى هذه العبارة، يدل على أنها قد استطاعت أن تختار طريقها بقدميها وتأتي..

ـ وكيف ذلك؟

ـ دع ذلك للغد فلربما جاءك من الأخبار ما يؤكد صدق حدسي ولربما كنت أول من يبشرك بمقدمها.

وصمتت، وخرجا من الحفل بين استغراب الكثيرين الذين شدتهم رؤيته وهو يحادث هذه الأنثى حتى إذا ما أوصلها إلى غرفتها في حرم الجامعة عاد إلى غرفته في المبنى المجاور.

واستقر به المقام في غرفته وهو يعاود قراءة رسالة وداد وملء قلبه إحساس بالسعادة يكاد يحس به يطفو على وجهه، فغداً لا بد وأنه سيلتقي بها كما قالت سعاد.

ترى ماذا سيقول لها عندما يراها وهل ما زالت على عهده بها أم إن سنوات الفراغ قد أضفت على وجهها شيئاً جديداً من الحلاوة والجمال؟

ذلك ما سيتركه إلى الغد، فالغد بالنسبة إليه سيأتي وهو علة يأتي هذه المرة

سيأتي ومعه وداد الزوجة التي أحبها وافتقدها كثيراً ولكنه مع كل هذا الحب سيناقشها طويلاً في كل كلمة من كلماتها التي بعثت بها في رسالتها ألقاك غداً.

وأغفى بعض الوقت حتى إذا ما أفاق من الغد، طرقت بابه سعاد هذه المرة وفي يدها مظروف، فتحه على الفور ليجد كلمة واحدة عرف منها أن وداد ستلقاه غداً كما قالت، فهي في طريقها إليه بعد كل هذه السنوات.

ونظر إلى سعاد نظرة شكر وعرفان بالجميل ثم قال لها:

ـ أوتأتين معي إلى المطار لرؤيتها؟

وضحكت سعاد وقالت:

ـ لا فأنا أخاف عليك من غيرتها عندما تراني برفقتك فالمرأة يا صديقي تعرف مشاكل المرأة ولهذا تجدني أجنبك وقوف هذا الموقف.

وبضحكة أخرى هامسة قالت:

ـ ولكن ها هي وقد عرفت قدماها الطريق هذه المرة إليك فلا بد أنك ملاقيها والبسمة كلها على شفتيك.. ويوم أراها سأعرف حتماً الحقيقة منها دون أن أزعجها، إنني عندما أدعك تستقبلها لوحدك لأنني أعرف بأنك ستستقبل أيامك ولياليك الجميلة التي ضاعت منك ومنها لمجرد أن والدتها أرادت ذلك لكما.. قد تكون المسكينة قد عانت ما عانت طوال هذه السنوات الثلاث لكنني أعتقد بأن الأيام القادمة كفيلة بأن تذهب جراحات الماضي ليس بالنسبة لها وحدها وإنما بالنسبة لك أنت أيضاً. ويوم تأتي زوجتك يا صديقي إلى هنا، وتستقر سآتي للقائها ورؤيتك.. لأنني مشوقة لرؤية تلك التي ستلقاك في الغد، فجمال الغد يأتي دائماً ومعه فجر السعادة والحب والحنان فالغد يا صديقي يضمد دائماً الجراح ويلقي على الماضي ستاراً من النسيان نحن في أمسّ الحاجة إليه.. لتستمر الحياة في عطائها، والأرض في دورانها، والإنسان في مسيرته.

ومضت بعد أن ودعته وقد نضت عن روحه آلام الماضي وأحزان الليالي وخطواتها الرشيقة تدق على السلم في رتابة موسيقية وهي في طريقها إلى الجامعة. أما هو فقد ظل بمفرده يجالد عواطفه وهو يستعيد ذكرياته بقراءة رسالة وداد هذه المرة بصوت تخالطه أنغام موسيقية عذبة خالها كذلك وإن لم تكن هي كذلك.

وتلتقي عيناه بعينيها اللتين أثقلت المساحيق جفنيهما الأسودين فبدت أشبه بهرة أليفة فقدت طريقها فجأة.

ترى أو يمكن أن تصبح هذه المرأة التي يلتقيها تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تضج حركة وهي على مقاعد الدرس في قاعات الجامعة الأميركية في بيروت؟

يقولون إن الحروب تغير كثيراً من عادات الشعوب والأفراد، تغرس في أعماق أعماقهم مآسيها الدامية، كخنجر مسموم يصيب الأكباد اليائسة على حين غرة، ويقولون إنها أيضاً تورث الحقد والعناد والكراهية. لكن هذه التي أمامه لم تكن سوى مزيج من هذا كله، وقد اختلطت الرؤى في دمائها فلم تعد تعي ظروف وتصاريف دهرها الذي تعيش.

وتبتسم لكن ابتسامتها تظل باهتة لا حياة فيها، ولا روح. وكأنها أشبه بدمية فرغت لتوها من مصنعها، لماذا؟

ذلك شيء كان يود أن يتعرف إليه ويتحدث معها فيه ويناقشها أمره، فهو وإن كان يلتقي بها هنا في هذا الشارع الأنيق على مقربة من ماربل آرش، إلا أنه لم يكن يتوقع هذا اللقاء، فلقد فقد أثرها منذ أن اندلعت حرب لبنان التي بدأت مع الفجر، يوم كان هناك، في بيروت يرمق القمر وهو يغسل أقدام الشاطىء في حنان، ولقد هرب فزعاً من أصوات القنابل التي اندفعت تتساقط هنا وهناك فغادر المدينة التي أحب رغماً عنه، وذكريات الماضي تطل من بين عينيه ليلتقيها في وجه كل أنثى ورجل.

ويمد يديه لتلتقي بيدها التي أحس برعشة الترحيب وهي تسري في دمائه كعادتها عندما يراها ويقبل عليها، ولكن. . .

كل شيء في وجه أنثاه قد تغير، حتى نظرتها الحالمة وشوقها المتجدد للحياة خفت آثاره تحت وطأة الحياة القاسية، وهي على ما يظن تعرف أيضاً بأنه قد أحس بأنها تغيرت. فقالت:

ـ مرحباً.

ثم صمتت، وقطع عليها صمتها بقوله:

ـ لقد طالت غيبتك لدرجة فقدت فيها الأمل في أن أراك. وعندما لمحتك أحسست أنك أنت التي عرفت حتى إذا ما التقت عيناي بعينيك عاودني إحساس الحنين لأن نعود لسابق عهدنا. لقد تغيرت كثيراً يا ريم لدرجة أصبحت أحس بثقل الأيام على كتفيك.

ـ وأنت أيضاً كبرت ونضجت على ما يبدو وأصبحت رجلاً.

واتسعت البسمة على شفتيها في هدوء، ثم تابعت حديثها قائلة:

ـ أوتذكر يا هشام أيام الدراسة كيف مضت؟ لطالما تذكرتها في غربتي فأتحسر لأنني كنت آمل أن أظل طالبة إلى الأبد. إن الحياة في واقعها قد تصبح أكثر إيلاماً لنا نحن الذين نأينا عن أوطاننا في غربة طويلة لم يكن لنا فيها يد، فشياطين الإنس الذين انفكوا من عقالهم، استطاعوا أن يزرعوا بذور الفتنة في المروج الخضر.

كثيرون هم الذين يغتربون عن ديارهم عن رغبة. يسافرون هنا وهناك، طلباً للعلم أو الرزق أو كليهما معاً، أما نحن فقد كانت غربتنا رغماً عنا، لأنها الحرب التي أرادوها لأجمل بقعة جعلتنا، نحن أبناء الأرز، نعيش في متاهاتها، لا ندري من أمرنا شيئاً.

وصمتت، لكنه لم يصمت وإنما طلب منها أن تمضي برفقته إلى أقرب ركن في المقهى المجاور، حتى إذا ما أخذا مكانيهما، التفت إليها وقال:

ـ ثم ماذا بعد كل الذي قلت يا ريم؟

ـ لا شيء.

قالتها وكأنها تريد أن تخفي عن عينيه أحداثاً كثيرة بدت تطل من بين جفنيها المثقلتين بالألم والأمل أيضاً، فبادر إلى إعادة سؤاله في أسلوب جديد:

ـ والأسرة أين هي الآن؟

وأجابت ريم:

ـ لا أدري فعلاً، لا لأنني قد قطعت صلتي بها، وإنما لأنها، أي الأسرة، رأت بعد أن استقر بها المقام في فرنسا أن تتناساني، وتتناسى أن لها ابنة باعدت الحرب والظروف ومشاكل الحياة بينها وبينهم.

أوتعرف كم كنت رسامة بارعة؟ لكنني في غربتي فشلت أن أجسد آثار الحرب في لوحاتي. فلم أستطع بيعها رغم ما بذلت من جهود، ويوم عرفت هذه الحقيقة تنازلت عن ريشتي لأمارس الكتابة. وحتى هذه لم تعطني الخبز الذي أريد، ويومها قررت أن أمارس هوايتي كراقصة باليه، فأنت تعرف أنني أجيد هذا النوع من العمل، مارسته وأنا طالبة صغيرة، ولقد ناقشت أسرتي طويلاً في هذا الأمر وطلبت منها الموافقة على ممارستي هذه الهواية كعمل، لكنها رفضت وطلبت مني أن أتزوج. أتدري ممن؟ من أول من يطلب يدي فرفضت، على أمل أن تعود. فقد كنت أود أن تخطبني رغم أنني لم أتحدث لك عن ذلك، واختلفنا أنا والأسرة فتركت البيت وباريس وجئت هنا إلى لندن. سأكذب عليك إذا قلت بأنني لم ألاق من المشاق ما ينوء به كاهل أي رجل، فكيف الحال بي أنا الأنثى؟ وكنت أرجو وأنا أعيش في غرفة رطبة في (بيدروم) إحدى العمارات في (كونيز واي) في لندن رفقة صديقة في عزلة تامة عن العالم أفكر فيما أصنع، ويومها.

وصمتت، فقال:

ـ ثم ماذا يا ريم؟

وأجابت:

ـ أوتدري أن اسمي قد تغير هو الآخر، فأنا اليوم أدعى سَمَر، ولهذا التغيير قصة طويلة أجد من المناسب أن أنساها أيضاً لأتعرف إليك، فأنت لم تتحدث عن أي شيء عنك، وتركتني أتحدث عن نفسي.

ويجيب في هدوء.

ـ لا جديد أستطيع أن أعطيك إياه عن حياتي، فلقد أمضيت كل تلك السنوات في هدوء بعيداً عن موطني أتلمس طريق العلم في قوة من يؤمن بأنه الطريق إلى ما أريد، فأنت تعرفين أفكاري التي أفضيت بها إليك يوم كنا معاً، وهي وإن تغيرت بعض الشيء إلا أنها لم تأت بجديد.

ـ أوتعني أنك قد نلت شهادة الدكتوراه التي كنت تحلم بنيلها..؟

ـ نعم، ومعها شهادة أخرى، بحسن سيرتي وسلوكي طوال مدة الدراسة في أمريكا.

وضحك فقالت:

ـ أنت هكذا دائماً تمزج الجد بالهزل، لكنني مع كل ما أعرفه عنك أجد هناك خطوطاً جديدة تظهر آثارها من تحت جفنيك أنت الذي لم تكن تحب السهر.

ـ ولكن سهري كان كما ذكرت من أجل نيل العلم ومعرفة الحياة والناس وبلادي.

ونظرت إلى يده، فقال:

ـ أعرف ما تبحثين عنه، فأنا كما ترين لم أرتبط بعد مع أية أنثى.

ومد يده ليريها إياها، فقالت:

ـ ولكن عدم وجود خاتم الخطبة أو الزواج لا يعني أنك لا تزال عازباً، أوَنسيت حديثنا يوم قلت بأنك تكره القيود؟ ولهذا لن تستخدم خاتم الخطبة أو الزواج عندما تعتزم ذلك؟

وضحك فضحكت هي وقال:

ـ ها أنت تذكرين. ولهذا أود أن أقول بأنني صادق فأنا طليق القلب حر من أي قيد أو ارتباط، ولو فعلت لما حاولت أن أحبس عنك ذلك لأنك تعرفين صدق قولي دائماً.

وأطرق برأسه قليلاً إلى الأرض وكأنه يريد أن يستمع إلى بقية حديثها الذي بدأته.

قالت:

ـ لا أشك لحظة في صدق ما قلت ومع كل هذا فأنا مجرد زميلة عاشت معك أيام الدراسة لا حول لها عليك ولا طول لكنني أردت فقط أن أتعرف إلى شيء من حياتك، فلربما لو عرفت أنك قد ارتبطت بإنسانة ما لقصرت حديثي معك لأنك في نظري ملك لها، هي الأحرى لا يصح أن تأخذ بعضاً من وقتك امرأة أخرى.

ـ ولا أنت؟

قالها في هدوء.

ـ ولا أنا. أولست أنا أيضاً امرأة وإن عشت حياتي في الغرب بعيدة عن قيود المجتمع الشرقي بحكم مولدي على أرض لبنان الذي عرف بالانطلاق والحرية؟ إلا أنك أنت من أرض غير تلك الأرض علاوة على أن سنوات حياتي التي عشتها بعيداً عن أسرتي، فيها الكثير مما لا أرضى عنه، لكنني مارسته بحكم مكان تواجدي على خريطة هذا العالم، ولكني أظل طاهرة القلب نقية الضمير، لأنني لم أذنب حتى ولا في حق أسرتي التي تنكرت لي يوم طلبت منها أن أمارس رقص الباليه..

ـ وهل مارست هذا العمل طويلاً..؟

وضحكت ريم ثم قالت:

ـ أوتدري أننا نحن النساء في المجتمع المتقدم ضحايا أنانية الرجال؟ يستخدموننا كإماء في زمن ذهب فيه عهد الإماء لكنه الرجل يصنع ويزين لها ما يزين.

انظر إلى كل هذه الإعلانات التي تراها في مجلتك. لقد اتخذوا من وجه المرأة وجسدها وكل شيء فيها أداة للإثارة وكأنهم يعرضون بضاعتهم عن طريق إذلالها. هذه واحدة. أما الثانية فدعني أتحدث إليك عنها عندما نتقابل مرة أخرى فأنا على موعد لا بد أن ألبيه.

ـ أوتذهبين هكذا سريعاً؟

ـ لا، وإنما إلى لقاء، لقد عرفت منك عنوانك وسأتصل بك لنجدد اللقاء

ونتحدث، فأنا في حاجة إليك لأفضي بكل دخائل نفسي أنا الأنثى الحبيسة التي تعيش في ضباب لندن، وقلبها يخفق بحب تلك القرية الوادعة (عين عنوب) ألا تذكرها؟

ـ وكيف أنساها وقد أمضيت مع أسرتك فيها أيام العطلات، أرمق الفتنة وهي تسير على الطريق في وجوه الصبايا، وأنت أولهن؟

ومضت بعد أن ودعته تنقر بقدمها على الأرض وهي تبتسم، وبقي هو في مكانه يرمقها وهي تبتعد.

وأطلت ذكريات الماضي هكذا فجأة وبلا مقدمات. لشد ما تغيرت ريم، فهذه المساحيق الكثيرة التي رآها على وجهها لم يكن يعهدها، أما أسلوب حديثها فعلى ما يبدو أنا قاست كثيراً في حياتها الجديدة لدرجة جعلتها تبدو أمامه كأنثى عانت أهوال المجتمع الذي تعيش.

وتطل مع الذكريات ذكريات الحرب التي تدور على الأرض التي أحب رغم أنه لم يكن ابناً من أبنائها لكنها بالنسبة إليه كانت جزءاً مهماً ومثيراً يجعله يتطلع إليها في وله.

لقد خربت الحرب نفوس الكثرين كما خربت جسد مدينته الجميلة بيروت، فالأحداث الجسام تتناقلها وسائل الاعلام عبر أجهزتها المختلفة تشير إلى الدمار الذي أصاب وجه هذه المدينة.

ونظر إلى الطريق، وكأنه يأمل أن يلتقي بوجه من تلك الوجوه التي عرف، فسنوات الدرس التي أمضاها في بيروت منحته الفرصة لأن يتعرف إلى الكثيرين والكثيرات في تلك المدينة التي تبدو على الرغم من جمالها الرائع وكأنها تهب حبها حتى لأولئك الذين عاثوا على أرضها فساداً، فكم من الرجال لفظتهم أوطانهم فغادروها إليها بعد أن حاربوها كثيراً، ومع هذا استقبلتهم بيروت ليعيشوا على أرضها أعزاء، رغم أنهم أرادوا لها الإذلال والعبودية.

ويمضي في تأملاته تلك عن حياته التي مضت، فذكريات السنين الخوالي تكاد تقفز من مخيلته في صورها وألوانها أشبه ما تكون بلآلىء مخزونة في أجواف أصداف مغلقة ألقيت في غياهب البحر مدة من الزمن، حتى إذا ما آن لها أن تنطلق، خرجت تطفو على السطح في صورها الزاهية تعلن عن حالة

صحو دائمة افتقدها عندما كانت عيناه ويداه وشفتاه وكل شيء فيه يلتقي بزميلة الدراسة ريم.

لطالما حسدها على حياتها يوم كانت طالبة، أما اليوم فقد بدت عيناها أشبه بعيني هرة مكسورة الخاطر، تاقت نفسها إلى الحرية حتى إذا ما التقتها وجدت نفسها في الطريق بلا أمل، حتى في العودة إلى الطريق.

ويدفع بورقة الحساب إلى (الجرسونة) الصغيرة التي لم يتعد عمرها الثامنة عشر، حتى إذا ما انتهى من ذلك سألها عن اسمها، فقالت:

ـ كاترين.

لكنه لم يكتف بهذا الجواب، وإنما عاود سؤالها مرة أخرى:

ـ أوتعملين هنا دائماً؟

قالت:

ـ لا. وإنما ليومين فقط، أجمع فيهما ما يكفيني لأن أمضي في رحلة الدراسة فأنا على ما تعرف ابنة رجل هرب من بيته بعد أن ترك بناته في كنف أمهن دون رحمة.

واكتفى بهذه الإجابة، ثم منحها (بقشيشاً) كبيراً تلقته الفتاة بكثير من الدهشة. فقالت:

ـ أهو لي؟

قال:

ـ نعم، ولكن لماذا تسألين؟

فأجابت:

ـ لأنها المرة الأولى التي أتلقى فيها مثل هذا المبلغ، أيودّ سيدي شيئاً مقابل عطائه هذا؟

وهز رأسه نفياً، ثم قال:

ـ لا يا بنيتي.

ونظرت الفتاة وقالت:

ـ ولكنك لست في سن والدي حتى تناديني بهذا الوصف. .

فقال:

ـ لا عليك، لكنني أود أن أسألك لماذا سألتني هذا السؤال؟

وأجابت كاترين:

ـ لأنني وإن لم أتعود على تلقي مثل هذا المبلغ، فقد كان كل من يدفع لي (بقشيشاً) أعتبره مناسباً، وإن كان أقل من هذا بكثير يحاول استدراجي إلى موعد، فأقبل تارة وأرفض أخرى، فأنا على ما يبدو مزاجية الإحساس، أنطلق في تصرفاتي بعفوية.

ـ وكيف تستطيعين أن تفرقي بين إنسان وإنسان، وموعد وآخر؟

وضحكت الفتاة وقالت:

ـ ذاك أمر من السهل عليّ أن أعرفه، فأنا كما ذكرت لك أنحدر من أم تملك من التجربة ما يجعلني أعرف كل شيء.

ولقد حكت لي أمي المسكينة حكايتها مع الرجال ومع أبي، وعندما كبرتُ عرفتُ كيف أستفيد من تجاربها، ولكن من أي بلاد أنت؟

وأفهمها حقيقة موطنه، وكيف أن المرأة في بلاده تعيش بأسلوب مغاير لأسلوب عيشها هنا حتى بدا عليها الاستغراب، ثم غادر المقهى إلى فندقه وهو يفكر في ريم، والحياة، وكاترين أيضاً.

وفي الفندق عاوده الحنين إلى لقاء كاترين مرة أخرى لكنه أبعد ذلك كله عن تفكيره ومضى ينتظر الغد موعده مع ريم هذه المرة.

ترى هل يمكن لريم أن تأتي أم أنها أرادت أن تمنحه فترة من الوقت للتفكير في أمرها؟

لا يدري وإن كان قلبه يحدثه بأنها ستفي بوعدها، فهي، كما عَهِد، صادقة في مواعيدها وأحاديثها.

وأخذ يناقش نفسه في هدوء، وما يدريك أن سنوات الحرب قد غيّرت من طبائعها؟ فالحروب، دائماً وإن كانت أدوات تخريب مادي فهي كذلك ذات طابع تخريبي معنوي.

ويجيبه وعيه الباطن بأنها ستأتي، فينام على أمل اللقاء بها مكتفياً بما مارس من تفكير، حتى إذا ما أطل الصباح جاءه رنين الهاتف، ليتسلل إلى أذنيه صوت ريم كعادته هادئاً جميل النبرات وهو يقول:

- آمل أن لا أكون قد أثقلت عليك بالأمس، كما أرجو أن لا أكون أيضاً قد أيقظتك من نومك.

وأجاب:

- أوتريدين الحقيقة؟

- ذاك مطلبي دائماً.

- إذن قولي بأنك أيقظتني من أحلامي لأحلام كنت أنتظرها.

وضحك، فقالت:

- سأكون عند وعدي معك في صالة الفندق بعد نصف ساعة، فقد رأيت أن أستفيد من بعض الوقت في الحديث مرة أخرى معك، فلربما أعدنا لأحلامنا ذلك الرواء الذي افتقدناه. أو يمكن أن أقول لك بأن عينيّ قد عرفتا طعم النوم الرائق بعد أن التقيتك؟ ولا تظن بي عندما أقول ذلك الظنون، فأنا أعني ما قلت وبحسن نية.

وأجابها:

- أما أنا فقد جفاني النوم قليلاً لأنني كنت أفكر فيك وفي كاترين.

- ولكن من كاترين هذه؟

فأفهمها حقيقة (الجرسونة) التي التقاها. فضحكت وقالت:

- مثيلاتها كثيرات على هذه الأرض، فلا تكن شرقي التفكير، فالمرأة في هذه الأرض مخلوق مستعبد، كما قلت لك، ومع كل ما قلت دع بقية الحديث إلى لقائنا فقد يكون فيه ما يساعدني على أن أعرف طريق قدمي بين هذه الدروب الوعرة.

ولأول مرة في تاريخ حياته أخذ ينتقي ربطة عنقه ولون جوربه ليتناسب ولون البذلة الجديدة التي اشتراها من شارع اكسفورد، حتى إذا ما انتهى من ذلك ألقى برذاذ من العطر على يديه، هو الذي لم يكن يستخدمه إلا بعد أن

يحلق ذقنه، ومضى إلى صالة فندق الهيلتون ينتظر الوافدة التي أتت في لباسها الأنيق صورة مغايرة لصورة الأمس. فوجهها المتعب بدا وقد خلا من المساحيق، أما عيناها فقد كانتا تلمعان في حيوية افتقدها في لقائه العابر معها. ومد يده ليتسلم يداً بضة رخصة حتى إذا ما شد عليها قالت:

ـ لقد اخترت مكاناً للقائنا بعيداً عن زخارف الحياة التي تعيشها.

ومدت يدها وكأنها تبحث عن يده حتى إذا ما التقت بها أخذتها، ومضت به إلى الهايد بارك صامتة.

وفي أحد الأركان المنزوية تحت شجرة سنديانة كبيرة وعلى أحد الكراسي الخشبية جلست أشبه بأنثى شرقية وهو على مقربة منها، لا يكاد ينبس ببنت شفة حتى إذا ما طال الصمت قطعته ريم قائلة:

ـ بمَ تفكر؟

وأجاب في عفوية:

ـ في الحياة والناس والمرأة والشرق والغرب وفي كل شيء فإنسان هذا العصر قد أصبح ممزق العواطف في عالم ينتابه الضياع أو ليس ذلك صحيحاً؟

وأجابت ريم:

ـ أوتصدقني عندما أقول لك بأنني أنا الأخرى أفكر في الموضوع نفسه فنحن نلتقي في أفكارنا رغم طول البعد؟

وابتسمت، فقال:

ـ ثم ماذا يا ريم؟

والتفتت إليه بجسدها وقالت:

ـ دعني أنظر إلى وجهك لأرى نضارة أيامي التي مضت والتي لا أظن أنها ستعود.

ـ ولماذا يا ريم؟

ـ الحياة يا صديقي لا تمنحنا نحن الذين قذفت بنا الحرب بعيداً عن بيوتنا تلك الراحة التي كنا نحس بها يوم كنا صغاراً، وذلك الأمل الذي عشنا سنوات حياتنا نترقبه.

ـ ولكنك لست وحدك في هذه الحالة فحتى أولئك الذين ترزأ بلدانهم بالحرب قد يعايشون نفس الحالة فيحسون بقسوة الحياة فالحياة يا صديقتي لا تفرق بين إنسان وإنسان.

وأجابت ريم:

ـ فرق بين أن يفرض عليك شيء وأن تختار أنت نفسك هذا الشيء.

ومن قال بأننا نختار أسلوب حياتنا عندما نكبر؟ قد نحلم ونأمل ونبني ونعمل، لكننا مع كل هذا نجد أنفسنا في متاهات الحياة نعايش ظروفها في صدق وحرية حيناً، وفي ألم وضنى وعذاب حيناً آخر.

ـ وهل عايشت أنت الألم؟

سألته ريم...

وأجاب:

ـ قد يصهر الألم النفوس ويطهرها ويفجرها حناناً وحباً.

وصمت، لكن ريم قالت:

ـ وقد يملأها حقداً وهماً تتصاعد أبخرته إلى عنان السماء، ليصبح ضباباً رمادياً أشد دكنة من هذا الضباب الذي يلفنا. انظر إلى هذا الحمام الذي يبحث عن رزقه في هذه الحديقة، قد لا يختلف في مظهره عن حمام الحرم الذي أريتني صورته يوم كنا هناك. لكنه هنا في هذا الجو القاسي يختلف حتى في طبيعته عن ذلك الذي يعايش الهدوء، يمارس حياة الحب بعفوية.

وصمتت، ونظر إلى عينيها، فرآهما مخضلتين بالدموع، لكن شفتيها افترتا عن بسمة فقال:

ـ أوتدرين كيف أشبه موقف بكائك وابتسامتك في آن واحد؟ هي في نظري أشبه بزخات المطر القوية تدفع بها غيمة صغيرة لم تستطع أن تغطي وجه الشمس، لذلك نجد السماء في صحوها وهي تمطر، وأنت كذلك تبكين في عز ابتسامتك.

وصمت، فقالت ريم:

ـ إذا قلت لك ما يبكيني ويضحكني في آن واحد ستجدني مجرد أنثى

حمقاء. فأنا أبكي للصدفة التي رأيتك فيها وأبتسم لأنها منحتني هذا اللقاء الذي كنت لا أطمع فيه لأنني سأكذب عليك إن قلت إنني كنت أنتظر أن أراك. لقد تذكرتك كثيراً وكتبت لك أكثر من رسالة.

ـ ولكنها لم تصلني.

قالها في لهفة.

ـ لأنني لم أقذف بها في صندوق البريد، وإنما دفعت بها طعماً للنيران، ومع كل هذا كنت أشعر بالسعادة بعد كل رسالة أكتبها إليك وكأنني أفضي بدخيلة نفسي إليك ثم أضن عليها أن تبدو لأفتقد شخصيتي وطريقها إلى قلبك.

ـ أوتعنين صورتك؟

ـ لا يا صديقي، فالصورة ليست سوى موقف، أما الشخصية فهي الأثر. وأنا لا أهاب الموقف بمقدر ما أهاب أثر وتأثير هذا الموقف.

ـ ثم ماذا؟

ـ أوتريدني أن أكمل بقية لحديث الذي بدأناه؟

ـ نعم!

قالها في لهفة وهو ينظر إلى وجهها الذي ظللته شتى الانفعالات، فقد كان مزيجاً من الأمل والألم، يتصارعان في قسوة داخل شرايين ذلك القلب الذي طغت عليه قسوة الحرب وآلام الغربة. وبدت أمام وجهه صورتها يوم كانا على مقاعد الدراسة في الجامعة الأمريكية، فأخذ يقارن بين الماضي والحاضر، ليرى كم يتغير الناس وتتغير ظروفهم وأساليب حياتهم، فهذه الأنثى التي نضت عن وجهها جميع المساحيق التي رآها تحملها في أول لقاء أقرب إلى قلبه من تلك.

وأخذ يتطلع إلى الصدر الذي أخذ يعلو ويهبط بينما كانت عيناه تجوسان أرجاء وجهها الذي بدأ يحكي حكايا الأيام والليالي والسنوات حتى إذا ما طال صمته، قطعته هي بحديثها قائلة:

ـ أظنك قد وصلت بعد كل هذه النظرات إلى مقارنة صحيحة بين الماضي والحاضر.

ونظر إلى وجهها وقال:

ـ كيف عرفت؟

ـ لا جديد في هذا، فأنا وأنت صديقان، عرفنا بعضنا منذ سنوات، ثم التقينا فجأة، ولهذا فأنت تقارن بين من عرفت ومن ترى، وأنا كذلك، لكنك ما أظن خرجت من مقارنتك هذه بأفكار أظنها ليست من صالحي، بعكس مقارنتي أنا، فقد كانت نتائجها في صالحك، فأنت أهدأ وأعقل أكثر رزانة من ذلك الذي عرفت، عركتك الأيام بينما كانت تطحن كل شيء فيّ.

وصمتت فقال:

ـ وماذا في هذا الأمر؟ فالناس يا صديقتي نوعان: نوع يطحن فتسحقه الأقدام. ونوع آخر يسمو فوق المأساة مهما كبرت، وأنت على ما أظن من هذه الطينة، فأنت قادرة على صنع مستقبلك بأظافرك ولا أقول بأناملك، فأنامل المرأة في هذه الديار لا يمكن أن تنحت الصخر، هكذا علمتني الحياة في ديار الغربة كما أرجو أيضاً أنها علمتك هذا، والآن قولي ماذا تصنعين؟

وأجابت في هدوء:

ـ فراشة من فراشات الليل أرقص للأضواء في صمت لأحترق في النهار، لكم حلمت بهذه الفرصة حتى إذا ما جاءت كرهتها ومن كل قلبي، فلقد حرمتني الكثير من الراحة، وعلمتني أن أظل دائماً مفتوحة العينين يقظة لكل ما يجري من حولي. فالناس يا صديقي معادن، فيهم الغث والثمين، لكنهم عندما يلتفون حولنا، نحن الفراشات، يرونها فرصة سانحة للاقتناص، ولهذا تجدني في حرب دائمة مع كل هؤلاء.

قد لا أكتمك بأنني كنت أعشق هذا النوع من الرقص على اعتبار أنه أداة من أدوات التعبير يمكن لي من خلاله أن أمنح من حولي الراحة والهدوء، لكني ومع طول الوقت بدأت أعرف شيئاً واحداً هو أن حب الاستعراض الذي يعيش في أغوار المرأة يستغله الرجل بأسلوبه بعد أن يدغدغ إحساساتها بكلمات جوفاء. إن عمر الراقصة وعارضة الأزياء وممثلة السينما قصير جداً، ولهذا فكل ما يقال عن الفن هو مجرد هراء. فالرجل الذي استطاع أن يغرس في نفس الأنثى حب الاستعراض عرف كيف يستخدم هذا الحب من أجله وأجل أبناء

جنسه، بالإضافة إلى أشياء أخرى لا أود أن أذكرها، فسماجات الرجال وسخافاتهم التي يرتكبونها في حق الأنثى أكبر من أن تحتمل، خصوصاً في هذه المجتمعات التي يسمونها متقدمة. انظر إلى ذلك الركن القصي من هذه الحديقة الكبيرة. إنهم يمارسون عاداتهم بطريقة فجة، أخالها أنا ابنة القرية وراقصة الباليه شيئاً يشعرني بالقرف، أما هم فلا لأنهم يعشقون هذا الأسلوب ويصفونه بالحرية. قد تكون الحرية في نظرهم هي حرية الرجل بأن يضع القيود والأغلال في أعناق الأنثى بأسلوبه، فيقدم على تقبيل يدها احتراماً وتقديراً، لمجرد إرضائها حتى إذا ما تهيأت له الفرصة للانقضاض عليها لم يتورع عن ذلك. كثيراً ما جرف التيار هؤلاء الفراشات فأصبحن نهباً لرغباتهم حتى إذا ما نالوها نبذوها جانباً كالكم المهمل.

كم من الممثلات الشهيرات ألقين بأنفسهن من شاهق بعد أن فقدن ميزات الحسن نتيجة عوامل الزمن والتي كانت تدير رؤوس الرجال في فترة ما... وكم من عارضة للأزياء ماتت جوعاً وعرياً بعد أن كانت ترتدي أجمل الملابس.

إن هذا المجتمع الأوروبي الذي نعايشه أهان المرأة ودهس كرامتها في أوراق من السلوفان بدلاً من أن يصونها ويكرمها، فباسم الحرية يغتالون أنوثتها وباسم الجمال يصورونها في أوضاع شاذة وغريبة وكأنها سلعة في سوق النخاسة الجديد

وصمتت، فقال:

ـ إذا كان هذا رأيك، فلماذا تسيرين في دروب الفن المملوءة بالأشواك والأوحال والقاذورات وأنت آسفة؟

وأجابت:

ـ أوتظنني لم أبحث عن عمل غير هذا الذي أمارس؟ لكنني حتى عندما أجد العمل الذي يلائم فطرتي أصطدم برغبات أصحاب العمل فأعود إلى ممارسة الرقص لأنني أجيده، وأجيد في الوقت نفسه استخدام أسلحتي في رد عدوان أي صياد. ولقد وفقت طوال سنواتي حتى هذه اللحظة، فكنت أشبه بلبوة كاسرة تدفع عن نفسها الأذى، ولقد وفقت كثيراً. أما عن الغد، فلا أدري

ما يخبئه، لكنني مع كل هذا أحن إلى العودة إلى الأهل، وهم يرفضون.

ـ وماذا لو تحدثت أنا معهم؟

ـ لن يقبلوا توبتي، فأسرتي على ما تعرف عنيدة عندما تجد أحد أفرادها قد حاد عن جادة الحياة التي أرادوها لها، أو له. تلك حقيقة تجعلني أحس بالغصة، ولولا موعد الأمس لبقيت معك أكمل لك بقية حديثي.

ـ لكن أمر هذا الموعد قد حيرني هو الآخر؟

ـ أوتدري ماذا يريد صاحب الموعد؟

ـ وكيف أعرف وأنا لم أكن برفقتك؟

ـ يريد أن يصور فيلماً لي كراقصة باليه، ولقد حدثني عن المجد الذي سينتظرني إذا وافقت.

ـ إذا وافقت على ماذا؟

ـ أن أمنحه ما يطلب، وأن أكون له خير رفيقة..

ـ وماذا كان جوابك؟

وأجابت ضاحكة:

ـ أعلنت عليه الحرب، لكنها ليست قاسية كقسوة حرب لبنان على أهلها، وصاحب الموعد وأحد من أبناء بلدي شاء أن يهدر كرامتي في بلاد الغربة، حتى إذا ما رفضت ضحك من غباوتي ساخراً، ولكن لماذا يصنع هذا القريب ما يصنع، مع واحدة من بنات بلاده؟ لا أدري ولا أود أن أطيل الحديث في هذا الموضوع فقد يكفيني ويكفيك ما سمعت مني حتى هذه اللحظة. أما الآن فتعال انظر إلى هذه الأشجار، إنها لو نطقت لتحدثت عن أسرار كثيرة أعرف بعضها وتعرف أنت بعضها أيضاً، ويعرف الآخرون بعضاً آخر.

وضحكت، وقال:

ـ وهي يمكنني أن أصنع شيئاً لك اليوم؟

ـ لا!

قالتها بحزم، وتابعت حديثها:

ـ سأعود إلى غرفتي، وستعود أنت إلى فندقك، لكننا سنلتقي ويوم نلتقي سيكون لقاؤنا على أرض لبنان، وعندها سيكون لي معك شأن آخر.

ـ وما هو هذا الشأن؟

وأجابت بابتسامة:

ـ سأخطبك لنفسي إذا ظللت عازباً..

ـ وإن تزوجت؟

ـ باركت لك زواجك وظللت بالنسبة إليك زميلة صف وراقصة باليه عرفتها عن قرب وعن بعد أيضاً، أوليس هذا يكفي؟

وانصرفت بعد أن ودعته، وبقي هو يفكر في أمرها دون أن يجد الجواب لكل ما يشغل باله تجاه هذه الأنثى التي عرف والتي يأمل أن يلتقي بها كثيراً وكثيراً جداً.

فكثيراً ما آلمت الغربة نفوس أولئك الذين اختاروا هجران بلدانهم رغماً عن أنوفهم أو حتى عن طيب خاطر، ونظر إلى مواقع قدميه، فرآها تسير على الأرض في همة ونشاط، وكأنها على موعد جديد، لا يدري من أمره شيئاً بعد، حتى إذا ما أصبح على مقربة من المقهى الصغير تذكر كاترين، تلك الصغيرة التي حاول أن يتناساها في رحلته الصغيرة، لكن صورة وجهها بدت أمامه وكأنها تناديه في صمت وشوق ظنه بادىء ذي بدء مجرد خرافة.

وقد كان يظن بأن فتاته الصغيرة لم تعد تتذكر معالم وجهه، لكن ظنه قد خاب، فما إن ألقى بجسده على الكرسي حتى خَفَّت إليه متلهفة وكأنها تعرف حقيقة عودته وأسبابه.

ونظر إليها وقال:

ـ أوتتذكرينني؟

وأجابت كاترين:

ـ نعم، وكيف يمكن أن أنساك؟ فلقد كانت تلك اللحظة القصيرة التي أمضيتها متحدثة إليك ذات شأن ووزن في حياتي إذ ساقني أن أتعرف على الكثير من حياة المرأة في بلادك، ولقد تحدثت في هذا الأمر إلى أمي التي

حذرتني من أصحاب القفازات الحريرية، وقالت: هذا الصنف يا ابنتي من الرجال يتسللون إلى قلوب العذارى بأساليب الكبار الذين يعرفون مواقع أقدامهم على الأرض، يبحثون عن الفريسة حتى إذا ما تخبطت في شباكهم انقضوا عليها في قسوة.

ولقد ضحكت منها كثيراً. ولأول مرة في حياتي أجد أن خبرتها التي نالتها مع الأيام لم تعد تعنيني فتيلاً. لقد ناقشتها الأمر، ورأيت أخيراً بعد أن اختلفت آراؤنا حولك الاحتفاظ برأيي فيك لنفسي، وها أنذا أراك مرة ثانية، وربما لمرات، فقلبي يحدثني بأنك إنسان طيب، بينما تقول أمي عن أبناء جلدتك قولاً لا أود أن أردده على مسمعك لأنه يغاير ما أراه فيك.

وصمتت، فقال:

ـ قد تكون أمك صادقة في نظرتها للكبار الذين يعرفون كيف يتسللون إلى قلوب العذارى، لكنها معي وفي حياتي هذه قد جانبت الصواب، فأنا كما ترين لا أرغب أن أكون ذلك الصياد الماهر الذي يعرف كيف يصل إلى غايته، لأنه لا غاية لي ولا هدف معك.

ونظرت كاترين إلى وجهه ثم قالت:

ـ وماذا في الأمر إذا كنت أنا شخصياً موافقة على أن ألقاك؟ فلربما أتاحت لي رؤيتك معرفة أشياء كثيرة عن شرقكم الغامض، إنهم هنا يلبسونه ملابس كثيرة شيقة ومضحكة في آن واحد، وأنا إنسانة أود أن أتعرف إلى الحقائق من مصادرها.

وقطع عليها حديثهما طلب أحدهم (الجرسونة) الصغيرة فقالت:

ـ أيود سيدي شيئاً يشربه؟

وبهزة من رأسه طلب كوباً من الشاي، ذهبت لإحضاره بينما مضى هو، ينظر إلى عيون المارة وأجسادهم، وكأنه يأمل أن يتعرف من بين ملامح من يراهم ظروف حياتهم حتى إذا ما عادت إليه بكوب الشاي قالت:

ـ أويمكن أن أراك غداً؟ فأنا في عطلة.

والتفت إليها في هدوء وقال:

ـ أين ومتى؟

قالت:

ـ هناك على مقربة من قاعة التزلج على الجليد يوجد مقهى آخر يمكن أن ألقاك فيه في الموعد الذي تراه مناسباً؟

وخرج من المقهى بعد أن اتفق معها على الموعد وهو يفكر ويفكر كثيراً . .

ترى ماذا تريد هذه الصغيرة؟ وماذا يريد هو الآخر منها؟ حتى إذا لم يجد الجواب لتساؤله مضى يستحث خطواته في طريقه إلى الفندق وصور الماضي تطل من بين تلافيف عقله تعلن في هدوء صور الأيام والليالي التي مضت وهي تلهب خياله، فلقد أصبح موزع القلب بين ريم صديقة الأمس التي آلت على نفسها أن لا تلتقي به إلا على أرضها يوم تعود تلك الأرض لسابق روائها كما كانت، وبين هذه الطفلة التي يمكن أن يصفها كذلك، فهي على الرغم من صغر سنها أكبر عقلاً وتجربة من أية أنثى في مثل هذا العمر.

ترى ماذا يريد من كاترين تلك ومن أين يمكن له أن يعرفها؟ لأن قدميه اللتين أخذتاه إلى المقهى مرة ثانية كانت تسير إلى مكانها بلا هدف وكأنهما مرغمتان على السير واللقاء بأشواك الحياة التي تغرسها الأيام على شواطىء القلوب الصغيرة.

وأخذ ينقل نظره بين الناس دون ما أمل في أن يلتقي بريم، لكنه في قرارة نفسه يحس وكأنه يخونها بهذا الموعد الذي ضربه لهذه الأنثى، ولكن، ربما جاء الغد بأشياء جديدة وتجارب مثيرة يمكن أن يضيفها إلى تجاربه في هذه الحياة التي يعيشها.

وفي الفندق كانت هناك صورتان تأخذ الواحدة مكان الأخرى في تسابق لدرجة جعلته يلقي برأسه على المخدة، ثم يغلق جفنيه وكأنه يسترحمهما بعضاً من الراحة والهدوء، واستغرق في نوم عميق، أفاق منه على طرقات الباب فقد كانت واحدة من فتيات الفندق جاءت لترى ما تستطيع أن تصنع لغرفته التي دبت فيها الفوضى، حتى إذا ما نظر إلى وجهها رأى نضارة كاترين وريم تطل من بين عيني الفتاة في آن واحد، وهي تعتذر، لكنه ابتسم فقد أحس بأن هذه

المرأة قد جاءت في موعدها لإيقاظه فقد بقي على موعده مع كاترين بعض من الوقت هو في حاجة إليه لكي يلملم نفسه خلالها.

وشعر بشيء من الحيوية والنشاط يدبان في جسده بعد أن انصرفت المرأة وانصرف هو إلى ارتداء ملابسه وكأنه في عجلة من أمره، حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى إلى المصعد في خطوات واثقة، وانطلق إلى خارج الفندق سيراً على قدميه ففي الزمن بقية من الوقت، رأى من الأفضل له أن يمضيها مع نفسه في حديث صامت طويل.

وفي المقهى، كانت كاترين قد سبقته إلى المائدة، وهي تبتسم حتى إذا ما وصل إلى مكانها قالت وهي شبه ضاحكة:

ـ لقد تأخرت عن موعدك أكثر من دقيقتين، فهل تفعل هذا مع كل امرأة أم معي فقط؟

ونظر إلى ساعته ليريها أنه قد جاء في موعده، فاختلاف الوقت ربما كان ناجماً عن اختلاف الساعات فقط.

وضحكت كاترين ثم قالت:

ـ سأسامحك هذه المرة لأن ساعتك على ما يبدو رغم أنها سويسرية الصنع إلا أنها ليست في دقة مواعيد ساعتي اليابانية.

ثم واصلت ضحكتها في براءة جعلته ينظر حوله كالخائف، فها هو ذا يجلس الآن أمام طفلة هو الذي تخطى الحلقة الثالثة من عمره لكنه فضّل الصمت بعضاً من الوقت يلتقط فيه أنفاسه، حتى إذا ما هدأ وجيف قلبه قال:

ـ صدقيني هذه هي أول مرة أجلس فيها إلى من هو في سنك بعد أن كبرت.

وأجابت كاترين:

ـ ولماذا تذكرني دائماً بفارق العمر بيننا؟ فهذا الأمر لا أهمية له عندي، فأنا امرأة، والمرأة تسعى لأن تلتقط السعادة في مجتمع كمجتمعنا مع أي إنسان، كبر عمره أو صغر ما دامت تحس بأنها قادرة على امتلاكها في جوار من يستطيع أن يرفع عن كاهلها قسوة الحياة وماديتها رغم كل ما يحيط بها من

جمال وجلال، فالحياة تبدو من خلال صورها التي نراها أكثر روعة وبهاء. وتصاريف الزمن لا يمكن أن تظل على وتيره واحدة، هكذا عرفت الدنيا وحالها.

وتابعت حديثها:

ـ أوتظن أنني لو لم أكن أود أن ألقاك لتناسيت رؤيتك يوم عدت وعندما أقول هذا أكون صادقة لأنني أعرف بعضاً عن بلادك، فأنتم هناك تصنعون للمرأة أقفاصاً من ذهب تلبسونها ما تريد وتمنحونها من أدوات الزينة ما ترغب، ثم تبخلون عليها بالحرية بأن تختار طريقها في الحياة.

وصمتت، فنظر إلى وجهها نظرة تمعن وقال:

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ ذلك ما عرفته عن الشرق حتى الشرق المتقدم، فالمرأة في اليابان مثلاً جارية جميلة للرجل، تمنحه ما يريد وفي الوقت الذي يرغب.

ـ وهنا ماذا يمكن أن تقولي عنها؟

ـ لا شيء إلا أنها تكدح وتكدح ثم بعد كل ذلك تدفع بما تملك لأي إنسان يرضى أن يرتبط بها، وعندما يرتبط معها بوثاق أي وثاق تجد نفسها في أمسّ الحاجة لأن تمضي في مسيرتها تلك لتضمن بقاء أليفها، حتى إذا ما اطمأنت إليه هرب أيضاً هو الآخر.

ـ أوكل الرجال كذلك؟

ـ لا، لكنهم، وأعني هذا النوع من الناس الذين وصفتهم، أكبر عدداً في مجتمعنا المتقدم.

ـ أما ما ذكرت عن المرأة في بلادي وكيف تعيش فهو مجرد كلام لا أصل له اليوم لأن المرأة في بلادي تعمل..

ـ وتكسب أيضاً؟

ـ وتكسب فعلاً، كما أنها عندما تعمل تعمل من أجل بنات جنسها فقط.

ـ أوتعني أنها تحتفظ بنقودها لنفسها؟

ـ نعم، وليس هذا فقط وإنما تحتفظ بلقبها عندما تتزوج. إن المرأة في

بلادي وقد وصلت إلى درجة كبيرة من التعليم، تجدينها جرّاحة قلب وأستاذة جامعة، ومع هذا تظل محافظة على كيانها وطبيعتها كأنثى جميلة وهادئة تجدل حياتها بيديها، وهي في حماية زوجها أو أخيها أو والدها.

ـ غريب ما تقول، فقد كنت أظن بأن المرأة في بلادكم متخلفة علمياً لا تستطيع صنع شيء سوى أن تتزوج وتنجب..

ـ وحتى هذا، أليس بالأمر اليسير لأن الموضوع ليس موضوع زواج إنجاب طفل بمقدار ما هو كيف تستطيع ترويض رجلها وتربية طفلها.

ـ هذا أمر لم يدر بخلدي، فقد كنت أعتقد غير ذلك وها أنت اليوم تصحح معلوماتي ولكن من يستطيع تصحيح معلومات الآخرين؟

وأجاب في هدوء:

ـ الزمن كفيل بذلك خصوصاً وأن سرعة الاتصالات فيما بين بلدان العالم ستتيح كل هذه المعرفة.

ـ ولكن لماذا نضيع وقتنا في مثل هذا الحديث وماذا تريد أن تعرف؟

ـ الجديد في هذا المجتمع.

وضحكت كاترين وقالت:

ـ قد نختلف في تفكيرنا عندما نناقش أحوال المجتمع على هذه الأرض حينما أرى أنا بأن الحياة في بلادي رغم قسوتها على المرأة أكثر حرية وتناسباً مع أمانينا نحن الذين نحب أن نعب من الحياة مقدار ما نستطيع، لكنني مع كل هذا الحب أشعر ببعض الخزي تجاه الإرهاب والإجرام الذي يمارس على أرضنا ضد مثيلاتي. فنحن هنا أسرى مزاج الرجل الذي يعرف كيف يستطيع أن يفرض رأيه علينا، بحب وبقسوة أيضاً.

انظر إلى دور الأزياء ستجد أنها ملك للرجال. كما أن أكثر المنتجين الذين يستغلون حكايا المرأة، هم من الرجال، أما نحن فمجرد أدوات تستخدم من أجل رفاهية الرجل الذي لا يزال يستعبد المرأة حتى إذا ما مل هذا الاستعباد سعى إلى قتلها كما يفعل مجرم يوركشاير، فالضحية الجديدة قد لاتكبرني، لكنها ذهبت، قضت عليها نزوة رجل.

وأطرقت رأسها قليلاً ثم تابعت:

ـ قد يكون قولي هذا نابع من إحساسي بظلم الرجل الذي هو أبي لأمي، ولهذا لا أريدك أن تحكم بصحة كل ما تسمعه مني فهناك الكثيرات ممن يتمتعن بحياة كلها رفاهية، لكنها قلة، أشك أنها في منتهى السعادة لأنني أحس بأن المرأة في المجتمع الصناعي قد ضاعت قدماها في الطريق بعد أن تفككت أواصر الأسرة وأصبح من حقها أن تدفع قيمة اللقمة التي تأكلها.

قد أبحث عن زوج لكنني أريده من بلد بعيد، غير هذه البلاد لكني لا أريدك أن تظن بأنني أخطبك لنفسي، أو حتى أعرض نفسي عليك. لكنها الحقيقة، فأنا أطمع بأن أعيش في بيت يضمني وزوجي وأسرتي بعيداً عن متاهات العمل وآلامه، فقد فاض بي الكيل وأصبح من حقي أن أعيش كأنثى تملك من الإرادة ما يمنحها الحق بأن تمارس أنوثتها في حرية صادقة، لا الحرية التي تراها تسود أرضنا اليوم.

انظر إلى هذه الوجوه الملونة وهذه الشفاه المكتنزة وهي تبتسم ثم فتش في دخائل قلوبهن ستجد أكثرهن مثلي، تتوق نفوسهن إلى حياة الأسرة التي فقدناها منذ أمد طويل.

وصمتت. فصمت هو الآخر احتراماً لهذه الأنثى، ونظر إلى وجهها مرة أخرى فرأى إشراقة ابتسامها تطل من الشفاه الملونة فقال:

ـ لا أدري ما الذي سأقوله لك بعد كل هذا الحديث إلا أنني أود أن أؤدي لك أية خدمة يمكن لي أن أقدمها لك.

والتفتت إليه وقالت:

ـ أوحقاً تقول...؟

وهز رأسه إيجاباً، فقالت:

ـ ابحث لي عن عمل في أي مكان في هذا العالم فيه من الميزات مثل ما هو موجود في بلادك، فقد يتيسر لي أن أصل إلى رغبتي التي أفضيت بها إليك.

وأعاد النظر إلى وجهها مرة أخرى وقال:

ـ قد أستطيع أن أفعل هذا لك يوماً ما لكنه على أي حال لن يكون سريعاً

كما تتصورين.

قالت:

- لا بأس، سأظل أنتظر.

ودفعت بعنوانها إليه كاملاً، واستأذنت في مغادرة المقهى في طريقها إلى المعهد الذي تدرس فيه وقالت:

- آمل أن أراك قريباً بعد أن تصلني رسالتك.

لكنه أجاب:

- سأحاول ولكن ليس على الأقل قبل وقت من الزمن قد يطول أو يقصر فأنا كما ترين في طريق العودة إلى بلادي بعد سنوات طويلة قضيتها بعيداً عنه.

وصمت، بينما أخذت كاترين طريقها إلى الخارج وهو يرمق خطواتها الرشيقة وهي تقفز على الطريق في حيوية، وملأ قلبه إحساس بالخوف على المرأة في هذا العالم المضطرب الذي لا تزال فيه الأنثى مجرد أنثى يستخدمها الرجل من أجل سعادته بأسلوب فج ومقيت أيضاً.

وتوالت شتى الصور تطوف بذاكرته التي يأمل أن تكف وتهدأ لكن صورة ريم وكاترين وفتاة الفندق أخذت تطل أمام عينيه وهو بينهما ينظر إلى السقف دون أن يعي معاني تلك النظرة، سوى أنه يعيش بين الوهم والحقيقة.

ترى أويمكن له أن يرى كاترين وريم مرة أخرى؟

وجاءه الجواب قاطعاً في هذه المرة فقد كان قلبه يأمل في أن يراهما أما عقله فقد كان يرى أن يتناسى الأمر، وإلى الأبد.

فكثيراً ما أضحت الحقائق أكثر إيلاماً وأشد قسوة حتى من الوهم نفسه.

فالإنسان ذلك المجهول الذي يمضي حياته في هذه الدنيا في تمازج غريب بين الخيال والوهم، والصدى والحقيقة، قد يعيش في فراغ قاتل وقد ينسى.

وهو واحد من أبناء هذه الأرض، عايش الوهم فكرهه والخيال فأحبه والصدى الذي عايشه ربما منحه الحقيقة، وصداها الراحة لقلبه والهدوء لخياله والطمأنينة لنفسه والاستقرار لقلبه الذي بدأ يخفق في إصرار وعناد.

وعاد إلى الفندق ليلتقي بفتاته داخل غرفته تعمل في انتظام حتى إذا ما

التقت عيناها بوجهه تمتمت بكلمة اعتذار، لكنه طالبها أن تمضي في عملها، وأخذ ينظر إلى الوجه الأبيض الغض والقامة الممشوقة وكأنه يرى فيها صبا ريم فقال وكأنه يعتذر:

ـ أويمكن أن أسأل سيدتي عن اسمها فأنا في حاجة إلى التحدث مع أي إنسان. ولقد ساقتك الأقدار لأن تكوني أنت فهل تقبلين؟

ورفعت وجهها إليه من خلف الباب الزجاجي، وقالت:

ـ اسمي بيلوندا، وأنا جزائرية عربية بحكم الانتماء، لكنني لا أعرف العربية، ولدت في مدينة الجزائر وعشت بضع سنوات من عمري فيها.

واستغرب قولها، فقال:

ـ كيف يكون ذلك؟

وأجابت الفتاة:

ـ لهذا الأمر حكاية طويلة فأمي بريطانية الجنسية تزوجت في رحلة عمل يوم كانت في الجزائر من واحد من أبنائها عاشت معه ثم أنجبتني وأختي التوأمين، وبعدها . . .

قالت في هدوء:

ـ دبّ الخلاف بين الأب والأم لاختلاف الأمزجة والعادات فانقطعت الصلة بينهما بالطلاق وعدت أنا وأختي وأمي إلى لندن، حتى إذا ما كبرت تفرغت للعمل في هذا الفندق، فأنا خريجة مدرسة الفنادق بسويسرا.

ـ وهل يعرف أبوك ذلك، هو العربي الذي يأبى أن تظل بناته في كنف أمهن مهما كان الأمر؟.

وابتسمت الفتاة وقالت:

ـ عارض بادىء ذي بدء، ثم وافق وتركنا أمانة في يد أمي التي لم تتزوج إلا البارحة بعد أن كبرنا أنا وأختي، ولهذا تجدني أحترم مشاعرها وحبها لنا، وأحترم أيضاً مشاعر أبي الذي وافق على بقائنا معها وبارك زواجها بعد أن كبرنا جميعاً وأصبحنا في غير حاجة لرعايتها أو لرعايته.

ـ ولماذا لا تعودين إلى بلادك ما دمت جزائرية الأصل؟

وأجابت:

ـ أتصدق بأنني جربت ذلك لكنني وجدت نفسي في الأيام التي قضيتها هناك مع أبي رغم حبي وتقديري له أشبه بأنثى ضائعة فالحياة تغاير الحياة التي عشتها هنا، ولهذا أصبح من العسير علي أن أظل هناك بعيداً عن هذه الأرض.

ـ وهل رضي أبوك بعودتك هكذا دون أية معارضة؟

وأجابت:

ـ لا، لأنه حاول أن يزفني لأحد أقربائه، فقلت له كلاماً طويلاً أستطيع أن ألخصه لك في جملة واحدة..

ـ وما هو هذا الكلام؟

ـ قلت له بأنني أخاف أن يكون مصيري كمصير أمي أتزوج ثم أنجب وبعدها أطلق لأعود إلى هنا. ولقد أفهمته وجهة نظري التي قبلها على مضض لكنه اشترط علي شرطاً واحداً علي أن أقبله وأحترمه في آن واحد، هو أن لا أتزوج بأي إنسان هنا لا يرضى هو عنه مهما كانت الأسباب ولقد أعطيته وعداً بذلك فقبل..

ـ وما معنى كلامه هذا؟

ـ معناه أنه يريدني أن أتزوج إنساناً مسلماً. ولقد احترمت هذه الرغبة بعد أن عرفت ماذا يقصد من ذلك فأنا بحكم مولدي إنسانة مسلمة لا يحق لها إلا أن تتزوج رجلاً مسلماً، أويكفي هذا يا سيدي؟

ـ لا.

قالها في تكاسل، وهو ينظر إليها في روية:

ـ أوتعرفين معنى أنك مسلمة، أنا الذي كنت أظن بأنك انجليزية لحماً ودماً، ثم هناك أمر آخر لا يقل أهمية عما ذكرت هو وعدك لأبيك، فهو كما أظن أمر لا يمكن التساهل فيه، فنحن المسلمين لا يمكن لنا أن نزف بناتنا لغير المسلم. قد يكون هذا الأمر فيه تحقيق لكرامة المرأة المسلمة وإنسانيتها.

وأجابت بيلوندا بهزة من رأسها وقالت:

ـ نعم، ذاك أمر تناقشنا فيه كثيراً وعرفته جيداً، بل أستطيع بأن أقول بأنني

عشقت معانيه في قلبي وفكري ودمي أيضاً لكنني أتساءل في براءة:

من أي بلد أنت يا سيدي؟

وأجاب في ابتسامة:

ـ من بلد يتجه المسلم أمثالك إليها في صلواته خمس مرات يومياً. .

وانفرجت أسارير الفتاة وقالت:

ـ إذن أنت من الوادي المقدس، من مكة المكرمة من أرض الأماني والأحلام والعمل الجاد الصامد من أجل الإنسانية. .

وأجال بصره في وجهها لفترة وقال:

ـ أوتعرفينها؟

ـ نعم، أعرفها جيداً لكثرة ما تحدث عنها أبي لي، بالإضافة إلى الكتب التي قرأت. أوتعرف أنني أجيد قراءة القرآن، ولديّ في بيتي أكثر من مصحف فأبي رغم ثقافته الفرنسية مسلم بفطرته، يعتز بدينه، يعمل بوحي من تعاليمه رغم مظاهر الحياة التي عاشها في شبابه في مرسيليا وكان ونيس وباريس.

أوتصدق بأن الأيام التي أمضيتها معه قد أضاءت معالم الطريق أمام قدمي الشابتين لدرجة جعلتني أحبه وأحترمه وأقدره أنا الذي عشت بعيدة عنه في كنف أمي التي لا تزال تكن له الكثير من الحب رغم كل الخلاف الذي طغى يومذاك على السطح وأدى بهما إلى الانفصال.

قد يهمك أن تعرف بأنني شديدة الالتصاق بالمركز الإسلامي هنا في لندن أزوره بين الفينة والفينة وأشارك في اجتماعاته وأتحدث إلى إخوتي المسلمين من جميع الأجناس، فلقد آخى هذا الدين بين أفراد هذا العالم، كما أنني أطمع أن ألتقي فيه بمن أستطيع أن أصل معه إلى بر الأمان فأنا كأنثى أتطلع إلى الزوج المخلص، وهذا بالنسبة لي أمر ليس من السهولة في بلد كهذه البلاد، لولا تواجد مثل هذا المركز.

لا أكتمك بأنني أتطلع إلى ذلك اليوم بكثير من اللهفة فقد أستطيع أن أخلص بنفسي بالزواج بالشاب المسلم الذي أرضى به ويرضى بظروف حياتي التي أعيش.

وصمتت، فقال:

- تتخلصين من ماذا؟

وأجابت:

- من العمل في هذا الفندق.. والبعد عن تفاهات بعض ساكنيه وسماجاتهم فكثيراً ما أوذيت من بعض النزلاء الذين ينظرون إلينا نحن فتيات الفنادق نظرة خاطئة، ويعتقدون بأن من الممكن لهم اقتناصنا، وصيدنا، وينسون بأن لنا قلوباً تخفق وعيونا ترى، وآذاناً تسمع، وعقولاً تفهم وتقدر، كما أنهم يتناسون أيضاً بأن لهم مثيلاتنا بناتاً وأزواجاً وأخوات.

- وتقولين كل هذا يا بيلوندا؟

- نعم يا سيدي، والسبب في ذلك هو حديثك الذي منحني الحرية لأن أفضي ما في دخيلة نفسي، فأنا كمسلمة رغم أنني أعيش هنا ضد هذه الحرية التي تمنح المرأة الاختلاط مع الرجل وفي كثير من الأعمال.

ونظر إليها في تقدير، وشدّ على يدها، وهو يأمل أن توفق لكل ما تطلب وقال:

- يكفيني منك هذا، فسأقفل فمي لتتمكني من إنهاء عملك.

قالت:

- لا، بل أنا في حاجة إلى المزيد من الكلام، أعرف به واقع الحياة التي أعيش وأتعرف إلى ما يجري في هذه الدنيا، فأنت يا سيدي من معدن غير معادن من رأيت، وهم على كثرتهم أضاعتهم ذاكرتي أما أنت فستظل هنا.

وأشارت إلى رأسها.. وتابعت قولها:

- سأتذكر كل الكلمات التي قلتها أنت فأنا إنسانة أتمتع بحس مرهف نتيجة ظروفي ومعايشتي للحياة وسأظل أذكرك رغم قصر معرفتي لك لأنك إنسان فريد هيأت الظروف لي أن ألقاه

وصمتت، ثم قالت:

- استأذن سيدي في أن أنهي عملي فقد أطلت البقاء معك...

وأجابها إلى طلبها، ثم غادر الغرفة بعد أن استأذن منها ومضى هو إلى

خارجها حتى إذا ما وصل إلى كافتيريا الفندق، واصل تفكيره في الحياة وظروفها ومآسيها وجمالها وكل شيء فيها . . وصدى الذكريات يطل من بين تلافيف وعيه الباطن الذي انطلق من عقاله يصوّر أوضاع الحياة على حقيقتها كما رآها دون أي تزويق حتى إذا ما شحت ذاكرته وضنت بالباقي الذي يرغب أن يراه تحدث إلى نفسه قائلاً :

ـ غريب أمر هذه الدنيا فهي تهب، وتشح، وتعطي، وتمنح، وهي عندما تمنح الذكريات القوة على الانطلاق تعطي صداها الحق بأن يطوف عبر عقولنا نحن الذين عشناها بالطول وبالعرض ننظر في أمرها دون أن نجد حلاً لكل هذه المعميات التي نراها، وهي تعيد الخلود لهذا الإنسان الذي يعيش على هذه الأرض غريباً عن وطنه تارة وقريباً منها تارة أخرى.

وانطلق مع أفكاره في رحلة صدى طويلة مع الذكريات لا يدري متى يعود منها إلى مكانه على هذه الأرض التي أحبها رغم جميع متناقضاتها. أوليس الإنسان هو خليفة الله على أرضه؟

نانسي

من منكم جرب أن يعيش وحيداً بين الناس عن رضى. ثم خرج بعد طول تفكير منه وهو راض عما قرر؟

أو أكون أنا اليوم إنساناً غريب الأطوار بعيداً عن متع الحياة كما يصفونني، أم أنني على حق؟

لقد اخترت الوحدة بعد أن جربت الصخب.. عشر سنوات من عمري كلها أهبها للناس، لا أطيق البقاء ولو لدقائق بمفردي..

أيام عمري التي مضت قد تكون هي السبب فيما آل إليه حالي. فلقد عشت كل تلك السنوات أبحث، من خلال الصخب الذي عايشت عن حقيقة هذه الحياة فلم أصل إليها.

الناس في المدينة ينظرون إليّ في غرابة، وكأنهم يرون واحداً قد جاءهم من مجاهل افريقيا.. أنا الذي كنت ملء القلب والبصر..

كثيرون هم الذين ينسون حكايتهم مع الزمن، أما أنا فلا.. وكيف أنسى ولم يبق لي في هذه الدنيا إلا أن أتذكر؟

طفولتي كانت مزيجاً من الفرح والكدر، مثلي مثل أي طفل: ماتت أمي مبكرة وكفلتني خالتي التي أرادت رغماً عنها أن تحل مكان الأم لتبعد عني وعن أختي شبح زوجة الأب.

هل كانت خالتي قادرة على صنع دورها، أم إن زمام الأمور قد أفلتت في بعض الأحيان منها؟

أحاول أن أتذكر تلك الفترة، فلا أنسى أنني وأختي كنا لها بمثابة الابن والابنة حتى إذا ما رزقت بطفلها تغير الحال، ولقد

حمدت الله على أن ذلك قد تم، وأنا في طريقي للدراسة خارج بلادي حتى لا أرى التفاوت في المعاملة بيني وبين ابنها.

لو أن أبي رضي بقسمته فمنحها حبه كما كان يفعل مع أمي دون أي عناء لارتاحت، فقد كان من أولئك الذين يسهل قيادهم.

وتزوجت أختي أحد أصدقائي فجأة، فكان زواجها بالنسبة لي راحة من قلق عظيم، فقد خفت أن يصيبها الألم بعد سفري.

هكذا غادرت المدينة المنورة في طريقي إلى لندن أدرس في جامعتها وأتعلم. كانت أياماً جميلة خفتها بادىء ذي بدء، كذلك فقد كان كل شيء غريباً عليّ، لكنني ما لبثت أن ألفت الحياة والقوم والمكان والجامعة وكل شيء، وسارت حياتي على وتيرة واحدة، لا يشغل بالي سوى أن أصل إلى الدرجة العلمية التي وطدت عزمي على الوصول إليها، لم يثنني عنها صحبة الفتيات اللواتي كن يعجبن بسمرتي وشبابي، فلم أكن ذلك الفارس الذي يرى جل همه مطاردة الفتيات.

حتى عرفتها.. ويومها تغير حالي.. شقراء ناضجة فيها ملاحة بنات أوروبا الشمالية وشقاوتهن. جاءتني وهي ترجو أن أعلّمها لغة قومي، فقد كان شغوفة بدراسة اللغات.

كانت نانسي من أولئك الفتيات الرضيات، تحب اللهو وتميل إلى البساطة وتشعّ في وجهها علائم البراءة والطفولة، لدرجة لا يستطيع إنسان أن يعرف عمرها الحقيقي.

توطدت أواصر الصداقة فيما بيننا، فعرفت عنها كل شيء.. فهي فتاة من أسرة متوسطة تعمل لتعيش وتدرس.. وهي اليوم طالبة في جامعة لندن بعد أن أمضت سنوات ثلاثاً تعمل كمترجمة في إحدى الشركات السويدية وجمعت بصبرها بعضاً من المال ليعينها على الاستمرار في تلقي العلم.

ولقد تحدث نانسي عن حياتها وأسرتها وكل شيء عنها بشكل مفتوح، استطعت من خلاله أن أصل إلى حقيقة أمرها بوضوح.

ويومها لم أكن أفكر في شيء سوى أنني قادر على تلقينها لغتي التي

أرادت تعلمها. كنت أقارن بينها وبين فتيات بلادي فأخرج من المقارنة، بترجيح كفة الفتيات في بلادي ومجتمعي.

كانت تسائلني عن الحياة والناس والمجتمع في بلدي فأنقل إليها صوراً صادقة عنه بلا تزويق.

حتى كان ذلك اليوم الذي جاءت تقول لي فيه بأنها تحبني ولا تدري إن كنت أبادلها حبها أم لا؟

ولقد فوجئت بكلامها يومها، لأنني لم أكن أفكر في شيء كهذا. لكن حديثها المفاجىء جعلني أفكر كثيراً.. أما هي فلم ترد أن تستعجلني الجواب وأسرعت خارجة من غرفتي وهي قائلة:

ـ سأدعك تفكر وأنتظر جوابك.

ولقد حاولت طوال أيام الأسبوع الذي غابت فيه نانسي عني أن أقلب الأمر على جميع وجوهه، فلم أنتهِ إلى نتيجة.

كيف أحبتني المسكينة؟ وماذا أغراها فيّ حتى تحبني؟ هذه واحدة. أما الثانية.. فأنا من أولئك الذين وطدوا العزم على أن ينأوا بأنفسهم عن تفاهات الحياة ولهذا لا يمكن لي أن أجاريها بحب مزعوم.

ثم ما هي نتيجة هذا الحب؟ هل أنا قادر على الزواج منها بعد كل الذي عرفت؟

يقولون في أوروبا إن الفتاة حرة في ماضيها.. ونقول نحن بأن الحرية ليست أن تهب الفتاة أعز ما عندها لمن هبَّ ودبَّ، نحن نعيش لنقدس الرباط المقدس، وهم يقولون ذلك، وإن اختلفت وجهة النظر حول هذا الموضوع.

وجاءت نانسي هذه المرة، وكلها تساؤل، لكنها لم تجد في وجهي وعيني أي جواب.. فقد وطدتُ العزم على أن أسألها وبكلمات قليلة:

ـ وما هي نتيجة هذا الحب؟

وأجابت نانسي:

ـ لا شيء. لن أكلفك كثيراً كل الذي يهمني أن تبادلني حبي بحب.

ـ ولكننا ننظر إلى هذا الأمر نظرة تغاير نظرتك يا نانسي.. فالحب يعني الزواج.

وأجابت نانسي:

ـ قد يأتي هذا أو لا يأتي، المهم هو أن تبادلني الحب إذا كنت واثقاً بأنك في حاجة إليّ.

ولقد طردتها من بيتي بعد هذا الحديث. طردتها وأنا أفكر: هل أصبحت حياة الأسرة في أوروبا على هذا المقدار من التحلل؟

لقد صدمني واقع الحياة وإن كانت نانسي لم تبال.. بل حتى لم تعر كلماتي أي شيء. وطلبت مني أن أواصل تعليمها لغتي، وكأن كل ما قيل لم يقل أبداً.

واستغربت كل هذا البرود من الفتاة، لكني لم أقو على الرفض.. ومضيت في تدريسي لها لغة قومي، وهي لا تنبس ببنت شفة.

حتى كان ذلك اليوم الذي خرجت فيه نانسي ولم تعد.. ولقد سألت عنها في كل مكان، لكنني لم أصل إلى نتيجة، فحاولت أن أنسى أمرها بعد أن فهمت أنها غادرت لندن عائدة إلى بلادها.

لقد مر على غيابها عني أكثر من عامين، عرفتُ خلالها الحياة على حقيقتها في لندن.. فكرهتها لأنها كانت نسيجاً يغاير نوع الحياة في بلادي.

حتى ذلك اليوم الذي عادت فيه نانسي إلى لندن.. لم أكن أعرف بالخبر حتى رأيتها أمامي صورة مغايرة لما كانت عليه بالأمس.. لقد فقدت المسكينة براءة وجهها وطفولته، وأصبحت أشبه بامرأة تلبس من الثياب أغلاها وأثمنها.

ولقد تحدثت إليّ حديثاً طويلاً، عرفت فيه أنها قد تركت عملها، واكتفت بأن تكون واحدة من فتيات فرق المسارح، تعرض جمالها وفتنتها على الناس بلا خجل.

وكعادتها قالت لي كل شيء، لدرجة شعرت فيها بالأسف على هذه الأنثى التي لم تستطع أن تقاوم حبها، فحاولت أن تشغل نفسها بعمل تافه قد يجر عليها الوبال إن هي مضت فيه.

ولقد حاولت أن أقنعها بتركه.. لكنها ضحكت ضحكة أشعرتني بأنني أمام إنسانة أخرى غير تلك الإنسانة، وقالت في تصميم:

ـ لقد كنت أطالبك بالحب فقط يومذاك، أما اليوم فإن كنت تريد أن تنتشلني مما أنا فيه فلن أقبل إلا بالزواج.

ـ هكذا إذن؟

وأجابت بلا مبالاة:

ـ لقد كنت أنت السبب في كل هذا، ولكنني غير نادمة على ما أنا فيه.. فهذا طريقي أسير فيه بعزم وتصميم وإرادة..

وألقت بتذكرة، ثم قالت:

ـ قد ترى من المناسب أن تراني على المسرح.. فهذه التذكرة تسمح لحاملها أن يزور المسرح الذي أعمل فيه في أي وقت.

ـ ولكنني...

قلتها ولم أكمل.. لأن نانسي لم تترك لي فرصة لأن أقول شيئاً وإنما مضت ورائحة عطرها تملأ أجواء الغرفة.

وبدأت أفكر كثيراً في هذا الذي جرى. أويمكن للمرأة أن تضل قدماها الطريق لمجرد أنها لم تصل إلى غايتها؟ أم إن أوضاع المرأة في أوروبا شيء لا نعرفه؟

ولقد حاولت طوال الأسبوع الذي تلا زيارتها أن أنسى أمر التذكرة، حتى جاء صديقي محمود فأخبرته بالحكاية.. فضحك وقال لي:

ـ لا عليك، دعنا نراها فأنا مشتاق لرؤية نانسي. أوتعرف بأنني قد حاولت طوال مدة الدراسة أن أرتبط معها بصداقة فلم أوفق، فقد كانت جادة أكثر من اللازم.

وذهبنا لرؤيتها، وهالني بشاعة ما تصنع، وأحسست بالغثيان لكوني أنا السبب في وصول هذه الأنثى إلى هذا الدَّرْك الأسفل من الحياة.

ولقد حاولت نانسي أن تحتفي بنا، لكنني فضلت الخروج من حياتها إلى الأبد والعودة إلى بلادي.. وهذا أنذا على ما أنا عليه أفكر في أمر المسكينة.

قلت له:

ـ أويكون الذنب ذنبي في أنني ألقيت بها إلى هذا المصير؟

وضحك وقال:

ـ لا عليك فأنت لا ذنب لك في كل ما صنعت نانسي.. فهي على ما أظن مهيأة لهذا النوع من العمل ولو لم تكن أنت لكان غيرك.

ونظرت إلى وجهه وقلت:

ـ لا تحاول تعزيتي، فأنا أؤمن بأن الذنب ذنبي. فلو تزوجتها لما حدث ما حدث..

قال:

ـ لكنك لم تخطىء فما حدث يجب أن يحدث حتى لو فعلت ما قلت.

قلت:

ـ أوتقول ذلك حقاً؟

قال:

ـ ومن كل قلبي، فحقائق الحياة لا يمكن أن يهرب من مصيرها الإنسان أي إنسان. لقد اخترت الطريق الأفضل.. لكنك بما تصنع، تجعل من نفسك كبش فداء لفتاة مثل نانسي.. وأمثالها كثيرات، أولم تر المسرح عندما زرته وهو يمتلىء بمثيلاتها؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ وهل أنت السبب في وصول هؤلاء الفتيات إلى هذا الدرك الأسفل كما قلت؟

قلت:

ـ لا.

قال:

ـ هي طبيعة الحياة في أوروبا، تجعل للمرأة الحق في أن تصنع بنفسها ما تريد ما دامت غير قادرة على الصمود أمام مغرياتها. وهكذا كانت نانسي.

ونظر إلى وجهي، وكأنه يحاول أن يستلهم آثار كلماته عليّ، وإخراجي من هذه الوحدة القاتلة التي حاولت أن أربط بها نفسي بلا سبب. وصمت، فقلت:

ـ قد يكون كل ما ذكرته صحيحاً، لكنني مع كل هذا أرى من واجبي أن أهدأ وأفكر قليلاً بعض الوقت.

وتركت صديقي بمفرده ومضيت إلى حال سبيلي، وأنا أفكر وأقدر كل ما جرى لي منذ مجيئي إلى هذه المدينة وحتى اليوم، وخرجت من تفكيري بعد هنيهة بإيمان، وقد تجسد في أعماق أعماقي صحة نظرية صديقي وكلماته وكأنني كنت أنتظر أي إنسان يقول لي مثل هذا الكلام، وقد كان هذا الإنسان هو صديقي الذي أحب.

أشعر بالحسرة والندم لأنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في ظروف الحياة التي مرت بي طوال سنوات عمري الذي مضى وانتهى، فأنا وإن كنت في ريعان الصبا والشباب إلا أن ما مر بي من تجارب يجعلني أبدو أكبر سناً من عمري الحقيقي، ذلك الذي يكاد يبدو أمام ناظري أشبه بشريط من الذكريات يمر تباعاً وكأنه يجسد كل حركات الماضي وسكناته في أسلوب لا يمكن أن أقول بأنه نابع من اختزان الذاكرة، فالذاكرة مهما كانت قدرتها على الاستيعاب إلا أنها أقصر من أن تتمكن من تقديم كل تلك الصور التي أحس بها تنطلق اليوم من عقالها من أعماق أعماق وعيي الباطن الذي يرمق هو الآخر أن يشارك في تجسيد الحادث وصوره بجميع أبعاده المختلفة.

قد تكون قسوة الحياة هي التي تمنح الإنسان قدرته على استيعاب أحداثها، وقد لا تكون لكن ما يهمني وأنا هنا في غرفتي أقلب سجل الذكريات لأرى الحياة تطل من خلف ذلك السجل الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصلح ليكون ملكاً للأحاسيس التي أراها تزمجر داخل قلبي الذي يدق ونبضه الذي يخفق.

يقولون بأن الإنسان ليس مجرد كتلة لحم ودم، وإنما هناك شيء آخر يخالط هاتين الكتلتين وينفذ بينهما داخل الشرايين الدقيقة يستمرىء السير والتجوال والتحرك في حرية.

ويقولون بأن أعصاب الناس ليست على درجة واحدة من الكفاية والمقدرة وإنما تختلف كفاية: كل عصب وقدرته عن الآخرين. وإن

هذا الاختلاف لا دخل للوراثة فيه، لأنه شيء فطري ولد مع الإنسان ويموت معه.

وينسى كل هؤلاء بأن الألم في حد ذاته يورث فضائل وخصائص تختلف درجة كل واحدة منهما بمقدار أصالة الإنسان وطيب عنصره.

أشياء كثيرة أكاد أراها وألمسها وأحس بها تطن في أذني، تضج في فكري، تنبض في صدري، تشاركني أحلامي ويقظة شعوري ونومي وحتى لهوي!

وأنا من أنا؟ إنسان كريشة فهي مهب الريح اختارتها الأيام والشهور والسنون لتكون لعبتها المفضلة.

وإلا ماذا يمكن أن أسمي ظروف حياتي منذ يوم مولدي ذلك الذي لا أكاد أذكره رغم أن الكثيرين يذكرون يوم ميلادهم بأسلوب أو بآخر؟

ولماذا أنا وحدي اختارتني الحياة لأكون لعبتها المفضلة في دنيا ملأى بالجدة والجمال؟

أويكون السبب في كل هذا أنني ولدت في أسرة فقيرة لا تملك شروى نقير أم إن جمال وجهي ونضارة شبابي هما السبب؟

قد أكون أنا نفسي السبب فيما آلى إليه حالي، فالأذكياء هم الذين يعرفون كيف يتأقلمون مع الجديد ينسجون من واقعه لباساً لهم.

أما أنا فلم أكن كذلك.

من أنا، وكيف ولدت، ولماذا صنعت بي الحياة كل الذي صنعت؟

أيام طفولتي وشبابي أكاد ألمح تفاصيل تدق في عنف لتطل بكل دقائقها تعلن عن واقع أيام كانت بالنسبة لي مزيجاً من الشقاء والتعاسة والألم والحزن أيضاً.

فأنا الطفلة الخامسة التي ولدت بين أكناف الفقر في بيت تميز بكثرة البنات وأب قليل الحيلة لا يعرف كيف ليتصرف، وأم تنظر إلى ما يجري في بيوت جيرانها في لهفة وتحسر.

وكان مولدي مع بداية أشهر الشتاء القارصة في مكان ما من تلك المدينة

التي يسمونها (ضبا) من شمال المملكة.

كان البيت يومها خلواً من سيدهِ الذي رحل في قاربه وشباكه يحارب البحر ليقبض من بين أنيابه رزقه ورزق بناته. ويوم عاد، كان صوت بكائي ونحيبي يملأ الغرفة.

لكن أبي كما تقول أمي لم يتحمل هذا البكاء والنحيب، فراح يضحك من أعماق قلبه لمولدي، هو الذي كان يأمل أن يكون آخر ذريته ولداً!

لكنه أحنى رأسه للقدر ومضى يكابد في الحياة من أجل أسرته في صبر، حتى ذلك اليوم الذي بلغت فيه الرابعة عشر من عمري، أمضيتها في خنوع وصبر ومذلة بعيدة عن أترابي في الكتاب والمدرسة، وكأنني أشعر بالفارق بين أسرتي وأسر أولئك الفتيات.

حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه أبي معلناً خطوبتي إلى أحدهم، وكنت لا أعرف من معاني الزواج إلا أنه وسيلة للخروج بي من هذه الحياة التي أعيشها في ضنك، فلم أهتم كثيراً لما كان يجري بين أبي وأمي من حديث وإن كنت سمعت بعض رذاذ منه، فقد كانت أمي تخشى عليّ من فارق السن بيني وبين الزوج المنتظر، لكن أبي كان يطمئنها بوعود الرجل وكلماته وأحاديثه وما يملك وما ينوي أن يفعله من أجلي، بل من أجل العائلة.

ويوم زففت، أحسست أنني انتقلت من بيت أب إلى بيت أب آخر، فقد كان العم منصور، هكذا كنت أناديه، في سن والدي، بسمت له الحياة وأعطته، فأراد أن يجدد شبابه بعد وفاة زوجته التي لم تنجب.

انتقلنا أنا والأسرة إلى «جدة» لنعيش في بيت فاخر في حي العمارية، لا أعرف من أمور الدنيا إلا أن ملبسي ومأكلي وحياتي كل هذا قد تغير.

وظللت سنوات ثمان أرفل في سعادتي تلك كعذراء. فقد كان زوجي لا يملك من قدرة لأن يحيل حياتي إلى أنثى، فكان يكتفي بالنظر إليّ، والاستمتاع بمرأى جمال وجهي ونضارة شبابي.

قبل أن يتوفى العم منصور كتب أشياء كثيرة من ثروته باسمي وكأنه يحاول

بهذا العمل أن يعطيني شيئاً من حقي، وحق السنوات التي عشتها معه في صمت.

واستطاع أبي بما اكتسب من مهارة أن ينمي تلك الثروة ويجعلنا نعيش في بحبوحة من العيش، تزوجت خلاله جميع أخواتي وبقيت أنا العذراء التي تزوجت أنتظر فارس أحلامي بعد أن عرفت معنى الحياة على حقيقتها.

ويوم جاء سعيد لخطبتي شعرت بأنه وإن كان شاباً في مثل عمري إلا أن إحساساتي كانت كلها تقول بأنه أتى طمعاً في الثروة التي نلتها والحياة التي أعيش فيها، فرفضته وأصررت على الرفض.

أتريدون الحق؟ لقد كنت من سكان الأكواخ، ويوم أن انتقلت إلى سكنى القصور لم أشعر بكثير من الفوارق!

ربما لأن من عشت معه لم يكن يعرف من معنى الحياة إلا المأكل والمشرب والتطلع إلى وجهي والنظر فيه.

ولقد أحسست بشقاء أبي وهو يراني في البيت، بعد أن فرغ من جميع أخواتي وكأنه يأمل أن أفارقه أنا الأخرى، فقد كان يعتقد بأن تضحيتي من أجل الأسرة كانت كبيرة، لكنني على الرغم من كل الذي فعلته لم أحس بهذه التضحية إلا بعد فترة، وعندما أحسست بدوار يصيبني ويلفني من رأسي حتى أخمص قدمي.

أوتدرون عندما يعرف المريض مرضه كم يعاني من شقاء بعد أن يلقي الطبيب بتشخيص ذلك المرض؟

كنت يومها مثل ذلك المريض الذي لا يرجى شفاؤه، فأحسست بالشقاء والحسرة والندم لأنني على الرغم مما أنا فيه لم أستطع منع نفسي من التفكير في ظروف حياتي وما عانيت.

يقولون إن حياة المرأة تنتهي عندما تصل إلى سن الزواج بمن هو أهل لها وفي مثل سنها.

وأقول أنا بأنها البداية لأنني جربت الزواج وجربت جميع ظروفه وعايشت العم منصور وعرفت فضائله وخصائصه وتتلمذت على يديه في أشياء كثيرة.

أحس بالحيرة وهي تطل اليوم من ذاكرتي في سخرية، وكأنها تهزأ من أيام العز التي اشتراها أبي بشبابي وجمالي وعذريتي الباقية.

أويمكن أن ترضى عني الحياة فتمنحني ثقتها ورضاها وتعطيني ما أرغب، أم أنها كعادتها تمنع وتشح، لتلهو بي أنا الأنثى التي أحس بسياطها تلهب جسدي وخيالي؟

وأمي ما بالها تنظر إلي في تحسر، وهي تعلم بأن ما آلى إليه حالي ليس من صنعي وإنما من صنعها وصنع أبي؟

لطالما أحسست بالشفقة على كثيرات عندما أدعى إلى زفاف إحداهن، فأرى أن زوجها يكبرها سناً بشكل ملحوظ، وكأنني أرى فيها ما مر بي وأحزن، لأنها لا تدري، فقد تصبح هي الأخرى مثلي عذراء دائمة.

ولقد أصبحت أهاب الزواج وكان كل من يتقدم لي من أمثال سعيد وسنه. قد أكون مخطئة، وقد لا أكون، لكن ظروف الحياة التي مارستها جعلتني أتلمس بإحساساتي المفرطة أشياء قد تكون حقيقة وقد لا يكون لها أي ظل من الحقيقة.

أويمكن للمرأة أن تتزوج ثم تظل عذراء، وإذا كان هناك أخريات مثلي فأين هن؟

كثيراً ما خاطبت نفسي في هذا الشأن، وتحدثت إليها في إسهاب بهذه الأحاديث عما يعتمل داخل أعماق أعماقي.

وأنا اليوم كما ترون أعايش الذكريات أنظر إليها أتفحصها أبحث في سجلها عن صور كانت وانتهت، وعن أخريات ظلت واضحة المعالم تسخر مني وتمد لسانها في وجهي، ومعالم الأنوثة الناضجة تطل من بين عيني وعلى وجهي وكأنها تشير إلى ظلم الحياة لواحدة من بنات حواء التي هي أنا.

قد أفكر كثيراً في مواقف ارتجلتها الحياة ارتجالاً، ومع هذا كانت ولم تزل هي الحقيقة بالنسبة لي أنا العذراء الدائمة.

ربما لست الوحيدة التي أصابها ما أصابني لكنني مع كل هذا لا أعرف أخرى حالتها تشابه حالتي.

أويمكن أن تقسو الحياة فجأة بأشياء كثيرة تحتاجها المرأة وتسخو بأشياء لا تحتاجها بالمرة؟

لا أدري، فلقد فقدت فضيلة التفكير بأسلوب واع يمكن لي من خلاله أن أصل إلى لب الحقيقة ومعاني الحياة، فتداعي الأفكار في رأسي الصغير لم يعد يمكنني من أن أتعرف إلى مواقع قدمي في خضم الحياة التي أعيشها وأعايشها.

فذكريات الماضي تعشعش في خيالي تعلن عن حقيقة واقع مضى مارسته بروح رياضية، لكنني مع تواجد هذه الروح لم أستطع أن أصل إلى نهاية الشوط، فبقيت على ما أنا عليه، لا أعرف رأسي من قدمي، وينظر إلي الكثيرون فيحسدونني على النعمة التي أرى أنها ليست شيئاً ذا بال بالنسبة لي، فأنا أعشق أن يكون لي بيت وزوج وولد وأن أطلق هذه العذرية إلى الأبد مع فارس أحلام صورته خيالاتي، وانطبعت صورته في أعماق ذاتي، صورة جميلة لشاب في مثل سني، يؤمن بمعاني الحياة وقيمتها ويبني عشه في إيمان وحرية واعتداد.

وهذا أنذا أنتظر هذا الفارس في تحد بالغ، وكأنني أؤمن بأنه سيأتي ويومها صدقوني ستكون بداية الحياة بالنسبة لي كامرأة عذراء ترى في الزواج بمن يماثلها سناً وتفكيراً فضيلة وأية فضيلة، فهل يأتي ذلك اليوم؟

لا أدري، وإن كنت أرجو أن لا يطول أو يتأخر مجيئه، فأنا ومثيلاتي في الانتظار، وعلى أحر من الجمر، فقد آن لهذا الخافق المتعب أن يرتاح وهذا الجسد المكدود أن ينصف.

ويومها لن أشعر بالحسرة والندم وسأمنع نفسي عن التفكير في ظروف الحياة التي مرت بين وأتطلع إلى المستقبل بصدر مفتوح ويد مسدودة.

وكأنها تستقبل مع تباشير الفجر الجديد، فجر حياتها التي ضاعت بعض سنواتها هباء.

وعندها صدقوني سأقول بكل ثقة وإيمان، وملء قلبي..

وعادت الحياة وطعمها الرائق في فمي، أنا التي عشت طوال سنواتي الماضيات أنتظر هذا الطعم الرائق في أناة وطول صبر.

تامارا

الشارع في المدينة الكبيرة أشبه بغربال ضخم لا يحتفظ على أرضيته بمكان لعابر، يجمع بين جنباته أشكالاً ونماذج يغاير بعضها الآخر في الشكل والهيئة والسحنة وحتى الأخلاق.

والطريق الطويل يمتد في رتابة مملة يكاد ظلها الثقيل يطبق على صدره، فعلى الجانبين واجهات المحلات الزجاجية امتلأت بأنواع كثيرة مما يحتاجه الإنسان في هذه المدينة، وارتصت على جانبيه عمارات ضخمة تطاولت لتصل إلى حد يكاد يزعج الوافد الغريب على هذه المدينة الكبيرة التي يسمونها نيويورك.

وهو في الشارع الأنيق تبهره لافتات الدعاية التي تفنن فيها خبراء الدعاية بشكل يجعلها هي الأخرى مثيرة تضغط على أعصابه فلا تعطيه الفرصة للتفكير بأسلوب يريح هذه الأعصاب المشدودة.

لطالما أحس برنين اسم برودواي يطن في أذنيه، فلقد قرأ عن أمجاد الشارع أشياء كثيرة ظل أكثرها عالقاً بذهنه ونسي بعضها، تثير إحساساته هواجس الغربة التي أرادها لنفسه، فلقد عشق الترحال منذ أن عرف الحياة بمعناها الحقيقي كإنسان يرى في زيارة مدينة ما لا يراه في جميع ما كتب عن هذه المدينة أو تلك.

والطريق زاخرة بأنواع من البشر عرف بعضها، وها هو ذا يحاول أن يتعرف إلى البعض الآخر، لكن الناس في الشارع الأنيق لا يهمهم أمر الغريب الوافد فهم يرون في الطريق وسيلتهم للوصول إلى أهدافهم، كل حسبما يرى ويرغب.

هو وحده الذي يمشي كسائح يريد أن يتعرف إلى الشارع

والطريق والناس والمدينة وكل شيء، هذا هو هدفه ولكن، هؤلاء العجائز من النسوة اللواتي يسرن إلى جانبه ينظرن إليه بسخرية واستخفاف وكأنهن يرين فيه إنساناً جاء من مكان سحيق، وإلا لماذا يتسكع هكذا، والطريق يحتاجه رواده وهم على ما يرى تتزايد أعدادهم بدرجة يكاد يحلظها، ولا يستغرب؟

لقد ضحك من أعماقه عندما تذكر إخوانه وزملاء دراسته عندما كانوا يطلقون على مصر بأنها أم الدنيا، فهو واحد من الذين تلقوا تعليمهم فيها يوم كانت القاهرة تستقبل كل راغب في التحصيل والعلم، أما اليوم فقد تغيرت الظروف. ففي بلاده أكثر من سبع جامعات تعمل جميعها في خدمة إنسان بلاده.

ولكن لماذا يتذكر كل هذا؟ ألأنه يحس بأن هذه المدينة العجيبة التي تستوعب نهاراً عدداً لا بأس به من ملايين الناس لا تضيق بوافد أو غريب ومع كل هذا لا يسمونها كما يسمي زملاؤه القاهرة أم الدنيا.

ولقد قرأ يوم كان صغيراً شيئاً كثيراً عن هذا العالم الصغير في صحف بلاده، لكنه لم يكن يظن أو يعتقد بأن هذا العالم الذي استطاع أن يصل إلى أوج حضارته في مدة قصيرة قادر على الاحتفاظ بهذه الحضارة، فهؤلاء الذين يقبضون على أكثر اقتصاديات هذه البلاد هم من القطاع الحر، وهذه في نظره ميزة يستطيع بها أي بلد أن يحقق ما يرغب لو عرف ذلك الذي يريده، ولقد أثبتت الأيام عقم النظريات الاشتراكية وبعدها عن واقع الحياة، وقضاءها على أية إمكانات للانطلاق إلى الأفضل رغم بريق شعاراتها الزائفة.

ومع هذا، تراه في طريقه يعمل فكره في كل هذا الذي مر بذاكرته. لقد زار أمريكا أكثر من مرة، وكان في كل مرة يمر بهذه المدينة التي يسمونها نيويورك دون أن يراها وكأنه يهابها، فلقد قيل بأنها معقل اليهود، وهو يكره اليهود من كل قلبه، ويرى أن من أسباب مشاكل هذه البلدة تواجدهم على أرضها.

ويغذ السير، تواجهه لافتات الإعلان المزركشة، ومجموعات من الناس هي الأخرى مثله تسير بخطى سريعة في الطريق وكأنها على موعد، إلا هو، فلم يكن ساعتها على موعد مع أحد إلا مع نفسه. ولهذا أخذ يتسكع هنا وهناك

وكأنه بهذه المحاولة يحاول أن يقطع الوقت ويتعرف إلى الناس لكن الناس لا ينتظرون، فكل واحد يمضي إلى غايته.

حتى هذه الفتاة السمراء التي تتصفح وجهه بنظراتها الغامضة، يحس بأن وجهها ليس غريباً عليه، فهو يعرف تفاصيل هذا الوجه جيداً، لكن كيف ذلك؟ إنه أمر لا يدريه. لقد مرت الفتاة من أمامه أكثر من مرة وكأنها تريد أن تتيقن من معالم وجهه وكأنها تعرفه، حتى إذا ما تيقنت من معرفته التفتت إليه وملء وجهها بسمة فاتنة قائلة:

ـ أنت هنا إذن يا طارق؟

ـ نعم ولكن من أنت؟

ـ أولم تعرف هذا الوجه أم أن الأيام أنستك إياه؟

ـ لا هذا ولا ذاك، فلقد شعرت منذ أول لحظة رأيتك فيها أنني أعرفك لكن أين ومتى ذلك الذي أكاد أجهله؟ أأنت امريكية زنجية؟

ـ لا!

قالتها بحزم:

ـ ولكني من بلاد الامبراطور هيلاسلاسي.

وصمتت، فمضى يقدح زناد فكره حتى إذا ما أحس بأنه عرفها قال:

ـ إذاً أنت (نورا)...

ـ نعم أنا هي.

ـ وماذا تفعلين هنا؟ وما هذه الملابس المزركشة التي ترتدينها، هل ورثت الملايين عن أبيك أو أحد أفراد أسرتك؟

ـ لا هذا ولا ذاك..

ـ إذن ماذا؟

ـ أوتعرف بأنني بعد أن تركت الخدمة في بيتكم تزوجت..

ـ لا!

قالها هو الآخر بحزم..

ـ تزوجت واحداً من الفيليبين ممن يحملون الجنسية الأميركية وقد جئت مع زوجي إلى هذه البلاد.

ـ وبعد يا نورا؟

ـ أوتريدنا أن نتحدث في الطريق؟ لماذا لا تأتي معي؟ فالمحل الذي أملكه على قيد بضع خطوات من هنا..

ـ لا بأس يا نورا..

ـ ولكن اسمي هنا قد تغير.

ـ وما هو اسمك الجديد يا نورا؟

ـ تامارا يا عزيزي، فهو كما ترى أقرب إلى مفهوم المهنة التي أمارسها من اسمي القديم.

ـ وما هي المهنة التي تمارسينها؟

ـ سترى كل ذلك بنفسك فلا تستعجل.

ولكن كيف تطلب منه هذه الأنثى أن لا يستعجل في فهم الحقيقة وهو الذي عجز عن أن يخمن حقيقة مهنتها على هذه الأرض بعد أن رآها ترفل في ثيابها الحريرية المزركشة؟

إنه يذكر كيف كانت تعمل في بيتهم مجرد خادمة تكسب رزقها بكدها، عاشت أكثر من ثلاثة أعوام في داره لدرجة أحبتها خلالها أخته الصغيرة وافتقدتها يوم ذهبت.

والتفتت إليه فجأة وقالت:

ـ أراك تستغرق في التفكير، لماذا؟

ـ لا شيء.

قالها في هدوء وأردف قوله:

ـ ربما عاودتني ذكريات الماضي، فانجرفت معها بتفكيري.

ـ أوتصدق أنني أنا الأخرى لا أنساها رغم قساوتها وحلاوتها معاً فلطالما تحدثت مع زوجي عنها في فترات فراغنا.

ـ وزوجك أهو هنا أيضاً؟

ـ إنه المدير الفني للمحل الذي أملك وستراه بعد لحظات.

وضحكت، ثم مدت يدها وأمسكت بيده وكأنها تستحثه على المشي قائلة:

ـ إنك تمشي بطريقة أهل الشرق وهو أمر يجعلك هنا أضحوكة أمام الناس..

ـ لماذا يا تمارا؟

ـ لأن كل من يمشي هنا يمشي وكأنه يريد اللحاق بشيء إلا أنت.

ـ ولكنها الحقيقة فأنا لا أريد اللحاق بأي شيء في هذه المدينة..

ـ ولا حتى رؤية ما أصنع قالتها تامارا؟

ـ قد أكون في حاجة لأن أعرف كل شيء عنك فأنا هنا أشعر بشيء من الوحدة، وحشة الغريب الذي لا يعرفه أحد.

وصمت.

ـ ولكنك لست وحيداً الآن، فأنا معك وبعد ثوان سيكون هناك أكثر من واحد يعرفك، أوليس هذا عجيباً؟

قالتها تامارا وابتسامة المشفق من الدهشة التي ستصيبه تعلو شفتيها حتى إذا ما وصلا إلى الباب الصغير الأنيق الذي تعلوه لافتة صغيرة كتب عليها بحروف ذهبية تامارا بروفسيرة في الرقص الشرقي. أحس بشيء من الضياع يلفه من رأسه حتى أخمص قدميه. أويمكن لنورا أن تصل إلى هذا الدرك؟

لكن تامرا لم تدعه يتم تفكيره وإنما ضحكت من أعماقها وقالت:

ـ لا عليك دعنا ندخل.

ودلفا إلى المكان بعد أن خف لاستقبالهما زنجي بملابس سوداء رسمية فتح الباب لهما في احترام بالغ وانسابت أصوات الموسيقى من هنا وهناك، تدق سمعه في هدوء ورتابة أحس بها لأول وهلة وكأنه يسير إلى حانة صغيرة، لكن نورًا وكأنها تقرأ أفكاره قالت:

ـ ليس ما ذكرت صحيحاً لأنه (وأعني المكان) شيء آخر.

أولم تسمع عن معاهد الرقص في العالم؟ قد يكون معهدي هذا واحداً منها لكنه على أية حال يمتاز عن الآخرين بأنه لا يقبل تلميذاته إذا لم يكن حملن على الأقل درجة علمية مؤكدة.

وتابعت قولها وهي تسبقه إلى مكتبها الذي أحس بأنه أشبه بمكتب مدير عام لشركة كبيرة، وطلبت منه أن يرتاح على أحد الكراسي: هذه هي حقيقة المعهد الذي أديره فأنا اليوم أعلم المثقفات من بنات أمريكا (الرقص الشرقي).

وضحكت. .

ـ وكم عدد اللواتي تخرجن حتى الآن من هذا المعهد؟

ـ أكثر من خمسة آلاف طالبة كلهن يحملن إلى جانب الشهادة العلمية شهادة أخرى تحمل توقيعي، تؤكد أنهن قد اجتزن الدراسة ونجحن في امتحان هذا المعهد. أوليس هذا جميلاً يا صديقي بعد كل تلك الأيام التي قضيتها في الخدمة في بيوت جدة أصبحُ البروفسيرة تامارا؟

انظر: هذه هي سجلات المعهد تؤكد ما قلت. طالعها بنفسك وستجد بأنني رغم ضعف ثقافتي استطعت أن أعطي كل هؤلاء المثقفات شيئاً جديداً هن في أمسّ الحاجة إليه.

وضحكت ضحكة صافية ثم تابعت قولها:

ـ لقد قتلنا الفقر يا صديقي بأصغر أداة وأجمل أسلوب. . هكذا تراني وزوجي نعيش في بحبوحة من العيش تكاد تحسها من ضخامة الديكور الذي يحيط بهذا المكان، فهذه الأركسترا على ما تراها جلها جاءت من الشرق جمعنا أفرادها بعناية من يريد أن يصنع شيئاً، وقد استطعنا صنعه بكثير من الحزم والعزم معاً. ولكن في أي فندق تنزل في نيويورك لأذهب أو ليذهب زوجي لأخذ أمتعتك إذ لا يصح أن تبقى في فندق ولك بيت هنا فنحن على ما ترى نتعامل بشرقيتنا التي تعرف.

انظر إلى هؤلاء الفتيات اللواتي يتدربن في ساحة المكان، إنهن مع شبابهن وأنوثتهن وجمالهن فهن أيضاً من أسر منحتهن القدرة على الوصول لدراسة ما

يرغبن من علوم وفنون.

ـ ولكن أوترغب كل فتاة من هؤلاء الفتيات ممارسة المهنة بعد الحصول على الشهادة.

ـ لا!

قالتها تامارا:

ـ وإنما هي موضة العصر في هذا البلد الذي وصل إلى ما وصل من رقي وحضارة، يرون الحاجة في تعلم كل شيء جديد وظريف، ولهذا تراهن يقبلن على الدراسة بشغف.

ليت أهل بيتك في جدة يرون نورا أو تمارا وكيف تعمل. قد تكون الوسيلة التي اخترتها للعيش في هذه المدينة الصاخبة في مستوى لا تقره، لكنني مع هذا ألا أعجبك بقدرتي على أن أكون شيئاً ما، أنا الخادم الخجول التي كنت؟

أوليس معنى هذا أننا أبناء الشرق نقدر على تلمس طريقنا في الحياة في أي مكان؟ فمن يملك الوسيلة لا يمكن أن يحرم نتائجها ما دام قادراً على العمل، والعمل وحده.

ولقد تحدث إلى زوجها الذي قال في منتهى الجد:

ـ سيكون كفاحنا هنا لفترة، ويوم يصبح لدينا ما يكفي من المال، سأعود وأسرتي إلى الفيليبين لأساعد أبناء جلدتي المسلمين في محنتهم، رغم أنني أحمل الجنسية الاميركية، فقد تساعدني هذه على أن أسير في الطريق الذي رسمت. لقد عشت فترة كافية من الزمن في بلادك أتعلم منها أشياء كثيرة، في مقدمتها أن يخلص الإنسان لعقيدته ومبادئه، وأنا هنا وفي هذا العمل الذي أمارس أجد نفسي ضائعاً بعد أن أضعت الهدف والمبدأ، ولكن لا بأس ـ فقد تبرر الغاية الوسيلة ـ كما يقول مكيافللي مؤلف كتاب الأمير.

قالها وكأنه يعتذر عن إنشاء زوجته لهذا المعهد الذي اضطرت لإنشائه بعد أن رأى ورأت هي أنها الوسيلة التي يستطيعان من خلالها تحقيق ما أراداه.

أما تامارا، فلم تكن ترى حاجة في أن يعتذر، وهذا يكفيها وفي قمة كل ذلك أنها تمنح هؤلاء الفتيات شهادات تحمل توقيعها يحتفظن بها بجانب

الشهادات العلمية الأخرى.

أما هو فقد كاد ينسى في غمرة انفعاله بما يرى شيئاً هاماً ومثيراً. فلقد كان للشرق في تلك المدينة سحر، وأي سحر، ولولا هذا السحر لما استطاعت تامارا أن تحقق أهدافها.

مساكين هؤلاء الفتيات فلقد علمتهن المدينة الجري وراء أية (موضة)، حتى (موضة) الرقص الشرقي الذي أصبح يقرأ عنه في كثير من الصحف التي قدمتها له تامارا وهي تبتسم وقالت:

ـ أوتظن أن عوامل النجاح لأي إنسان قاصرة على المعرفة أم أن هناك أشياء كثيرة يجب على المرء أن يدركها لتوصله إلى ما يرغب؟

وعندما لم يجب تابعت قولها:

ـ قد لا أكون متجنية عندما أقول لك بأن العزم معرفة كاملة لواقع الحياة وما يحتاجه الناس رغبة صادقة في تحقيق الهدف، ولقد بدأت عملي الذي تراه من الصفر.

وصمتت..

وعندما قال:

ـ وستنتهين إلى الصفر أيضاً يا تامارا...

ـ كيف تقول هذا يا صديقي؟

وأجابها قائلاً:

ـ قد يكمن في استسهال الوسيلة القدرة على سرعة الوصول، لكن عملاً كهذا أنت أعرف به مني كالموجة أو كالفقاقيع تظهر وتختفي في نفس اليوم الذي تختفي فيه حاجة هؤلاء المجانين إلى شهادتك، وعندها ماذا تفعلين؟

وأجابت تامارا بلا مبالاة:

ـ أي شيء أرغب فيه، فالنقود كثيرة وهي بلا شك ستحميني من أن أعود مجرد خادمة وخادمة فقط في بيتك يا صديقي القديم، أو قد نسيت ذلك يا عزيزي طارق؟

ـ وهل يمكن أن أنسى أن نورا الخادمة في جدة أصبحت بعد عدة سنوات

البروفسيرة تامارا؟

وأجابت ولكن بعد تفكير وجهد وعمل:

ـ أليس كذلك؟

ـ قد يكون هذا أو ذاك صحيحاً، ولكن المهم أن المال الذي يأتي كما تعرفين بسهولة يذهب بسهولة.

ـ ربما يكون ما تقول صحيحاً هو الآخر إذا كنت تعتقد أن ما جاءنا من المال قد أتى بسهولة، إننا يا صديقي وبعد أن أجلنا فكرنا في الطريقة والأسلوب استطعنا أن نصل إلى الهدف، وإذا لم تصدق ما أقوله لك فإليك هذه النشرة.

أوترى كم من المعاهد المماثلة لمعهدنا في مدينة نيويورك. ولكن معهدي ـ وهذا سر لا أفشيه إلا لك ـ هو الوحيد الذي يتناول أجراً عن كل طالبة يماثل خمسة أضعاف ما يأخذه أي معهد آخر لأننا صنعنا كل شيء وفق خطة رائعة لأنها كانت خطة محكمة.

ـ ولكن زوجك يرغب أن يقفل المعهد عندما يصل إلى المال الذي يريد...؟

ـ هذا رأيه، أما أنا فلا، فلقد أحببت هذه المهنة وهذا الاسم، ولن أتخلى عنهما مطلقاً..

ـ وتقولينها؟

ـ ولماذا لا أقول ما أعتقد ما دمت أثق بقدرتي على تنفيذه؟

ـ عجباً لك يا نورا، أو تغير نيويورك المدينة كل شيء فيك لهذه الدرجة؟

ـ ولماذا لم تقل بأنني أنا التي استطعت أن أعطيها شيئاً جديداً لم تعرفه؟ قد لا أكذب عليك عندما أقول لك بأنني وفي بداية عهدي هنا فكرت أن أفتتح مطعماً أقدم فيه مأكولات بلادك بما فيها أكلة الجراد التي تعرفها.

وضحكت، وتابعت قولها:

ـ ولكني أغفلت كل ذلك بعد أن وفقت في صنع هذا المكان الرائع الذي يجمع صفوة من الفنانين جلبتهم من كل مكان لتثقيف الفتيات، وهذا أنت ذا

ترى كيف استطاعت من كانت مثلي أن تصل إلى أهدافها.

ـ وتظنين أن ما صنعت كان شيئاً رائعاً؟

ـ نعم، فلولا إصراري على الوصول إلى غرضي لما تسنى لي أن أستضيفك.

وأطرقت برأسها قليلاً. أما هو فلم يعد في حاجة إلى مزيد من المعرفة عن حلم نورا الذي تحقق فقال:

ـ أوتسمحين لي أن أنصرف؟

وأجابت تامارا:

ـ إلى أين؟ أولم تقبل ضيافتي؟

قال:

ـ لا عليك، قبلتها لفترة وها أنذا أرفضها الآن، فأنا كما تعرفين لا أحب أن أكون ضيفاً على إنسانة استطاعت المدينة الزائفة أن تغريها وتغل يديها وقدميها وعقلها.

وأجابت تامارا:

ـ لا بأس عليك فأنت بعقليتك التي عرفت لا يمكن أن تفهم كل ما صنعت. قد يكون لك الحق في أن تفكر في الأمر بأسلوبك، وقد يكون لي أنا الأخرى الحق أن أفخر بما حققت، ولهذا تراني هنا، أمضي على الدرب وفق إرادتي التي أعتقد أنني صادقة فيها على الأقل مع نفسي.

أوتصدق عندما أقول لك بأنني فخورة لأن كلماتك لم تستطع أن تحرك ساكناً أو تجعلني أحيد عن الطريق الذي رسمته؟ فحياتي اليوم ملكي كما كانت بالأمس ملكي أيضاً.

لقد تعذبت كثيراً لسنوات طوال، كنت خلالها أمثل دور الخادمة في الوقت الذي أعرف أنا من أنا.. ولهذا لم أرد أن أقول شيئاً يوم كنت هناك في جدة، لكن عندما سنحت لي الفرصة عرفت كيف أقول كل ما في نفسي.

لقد كان بإمكاني تجاهلك وأنت في الطريق لولا أنني أحسست بحاجتي لأن أعود بذاكرتي لأيام أسقطتها من حياتي فترة.

لكن مجيئك لم يدع لي الفرصة لأن أنساها، ورأيت من واجبي أن أقوم بضيافتك فلقد سعدت رغم كوني خادمة بحياة لا زلت أذكرها بكثير من الامتنان، فأنتم تعرفون كيف تعاملون الإنسان في بلادكم بأسلوب يغاير كل الناس، وهذه هي الحقيقة. أو تصر بعد كل الذي قلت على أن ترفض ضيافتي؟

ـ لا أدري.

قالها طارق بصدق، وأخذ يفكر في كل ما سمع بعمق وروية، وكأنه يستعرض الماضي والحاضر والمستقبل.. ومضى إلى الباب في خطوات ثابتة ليلتقي بوجه نورا يطل بين الزحام بابتسامة غامضة حاول أن يصل إلى معرفة أسبابها ومسبباتها دون جدوى، فقد كره ساعتها أن يعود إلى المكان الذي خرج منه، وحث الخطى، وكأنه مشدود للتفكير في كل ما رأى وسمع، ولم يفق إلا على صوت عجوز تهز كتفيه وتقول له:

ـ أويمكن للنائم أن يمشي في الطريق؟

وتطلع إلى وجه العجوز وقد أحاطت به أنواع التجعدات وقال:

ـ لا عليك يا سيدتي ففي هذه المدينة يمكن للنائم أن يحلم وأن يحقق أحلامه مهما كانت تفاهة أحلامه.

لكن المرأة العجوز لم تستمع إلى بقية كلماته وإنما أخذت تدب بعكازها على الأرض في دقات رتيبة مملة قطعت عليه أفكاره بعضاً من الوقت وأنسته كل ما كان يفكر فيه.

وسار في الطريق ليلفه زحامه، لا يلوي على شيء لكن وجه نورا لا يزال يطالعه في وجوه كل من يراهم، وكأنها تمد لسانها له هذه المرة في شيء من الاستخفاف أحس به وشعر بالغضب، بلا فائدة.

بعد فوات الأوان

عندما تسيطر الأحزان على الإنسان تفقده القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، تمضي به بعيداً عن شط الأمان في زورق قديم متهالك فقد ملاحه مجدافه فجأة في وسط الأنواء العاتية تتقاذفه الرياح لتلقي به في خضم البحر المائج، تغطيه الأمواج العالية وهي تتكسر في غضب فوق جسده المسجى في قاع الزورق ينظر إلى السماء في بلاهة ويصطنع المواقف ويفلسفها بلا تجاوب وكأنها مجرد بقايا حكايات تلملمها ذاكرته التي بدا عليها الكبر حتى من قبل أن تشيخ.

زرقة الماء التي اختلطت بزرقة السماء تكاد تراها حمراء قانية من خلف بقايا دموع تبدو وتطل، تشح وتهطل بمقدار إحساساتها بالألم وشعورها بالأسى ذلك الذي يغمر قلبها، ويغلفه بأوراقه الصفراء وقد نالت منها أشعة الشمس وخريف العمر ما نالت.

أويمكن أن يصبح قلب الإنسان عندما يمتلىء بأحزانه مجرد ورقة تتقاذفها الرياح دونما رحمة، تنهال عليها زخات المطر بلا هوادة وكأنها تحاول أن تخفف من سيرها الحثيث وراء المجهول الذي يسيطر على أجواء النفس الحزينة؟

ليت أولئك الذين عرفوا عنها ما عرفوا، يرونها اليوم على حقيقتها شيئاً جديداً مغايراً لإنسان الأمس الذي كان شعلة ذكاء ونبرة صوت وقوة إرادة تجري وراء الزهور، تحنو عليها كما تحنو الطيور على صغارها.

ولقد قصرت حبها للزهور والورود.. للجمال، للحياة، لكل ما

كانت تعتبره فريداً ومميزاً حتى عندما فقدت الابتسامة التي كانت من بين شفتيها في محبة، وفقدت معها خفة روحها وحبها للنكتة. أتراهم يستطيعون عند رؤيتها معرفتها بعد كل هذا التغير الذي طرأ على حياتها فجعل عاليها أسفلها.

حتى البسمة التي كانت تجيد التقاطها من بين الشفاه الناعمة ضاعت في زخم الحياة وزحام الطريق، داست عليها أقدام المارة، قذفت بها رياح الأحزان بعيداً لتخرج عن دائرة الضوء والحياة والحركة.

لماذا؟ لا تدري وإن كانت تؤمن بأن أسباب هذا العناء الذي يلازمها هي أزمة سريعة جاءت بها الأيام وستذهب بها الأيام لكنها مع كل ما تعرف، تظل ساهمة تكاد لا تتبين عيناها انبلاج الفجر من وراء الأكمة الصغيرة التي شاءت الأقدار أن تضعها في طريقها.

لطالما جمعت الزهور حول المشرقية القديمة في دارها العتيقة على مقربة من نهر بردى تلتقط نسائم العصارى وهي تهب على وجهها بسعادة.

أين هي اليوم؟ من كل الذي كانت فيه؟ ذهب الوالد والوالدة، ومضت أيام السعادة سراعاً قاسية الظل والأثر تطل بين الفينة والفينة في شكل ذكريات تدمي قلبها ولا تمنحه الصفاء لأنها تثير في النفس شعور الخوف والهلع من حاضرها الذي تعيشه ومستقبل أيامها الذي لا تدري شيئاً عنه.

كم من الضحكات أطلقتها في ذلك البيت مع أترابها تستقبلهن بحفاوة. تمضي أويقات حياتها تلك في هدوء صنعته من أحلامها وجدلته كضفيرة شعر شقراء جميلة ذهبت بروائها الأيام والليالي وأطاحت بجمالها السنون. لم تدر ما سيخبئه لها القدر.. كانت عن كل ذلك جد لاهية، تمعن في دلالها، وتنفض يديها من كل طارق يحمل قلبه على يديه يقدمه إليها قرباناً على مذبح الزواج. فقد كانت تؤمن بأنهم جميعاً ليسوا على ذلك الشكل الذي رسمته في خيالها لفارس أحلامها الذي لم يأت بعد، وهي تعرف اليوم أكثر من ذي قبل أنه لم يأت ولن يأتي.

فلقد غذت السير في مسيرة العمر اللاهية تتناقلها في الحياة أكف الرحمة، تمضي بها في طريق الوحدة بإمعان من يرى أن الوقت قد حان لأن تذوق طعم هذه الوحدة وتكتوي بنارها، نتيجة إفراطها وتفريطها بمن كانوا أقرب إلى قلبها

لكنهم ليسوا على نفس المواصفات التي وضعتها.

أوترى يمكن للأيام التي مضت أن تعود؟ وإذا عادت، هل ستقبل بأول طارق يدق أجراس البيت في الصباح أو المساء؟

هي لا تدري، لأنها لا تود ذلك فالمعرفة وسيلة من يستطيع تجسيد أحلامه أما هي فلكثرة ما حلمت أصبح عسيراً عليها تجسيد أحلامها.

ولقد رضيت بالفاقة فترة من الوقت لم تطل.. حزمت أمرها بعدها على أن تذهب في رحلة جديدة مع الحياة بعد أن فقدت أسرتها ومن يعولها، تنمي هوايتها التي تجيد.

لم يبق لها إلا البيت الذي شاطرها طفولتها وصباها وبعض أيام شبابها. وهي اليوم قد فرطت في الأثر الذي بقي لها.. باعته لتكمل مسيرتها في دروب الحياة الطويلة.. لقد حزمت أمرها على شيء وهي واثقة أنها ستنجح لكن نجاحها ماذا يعني؟

أويكفيها هذا اللقب الكبير الذي نالته عن جدارة من أكبر معاهد الكونسرفتوار في روما؟

وماذا يعني اختراعها للآلة الجديدة التي صنعتها بقلبها ودمها وشبابها؟

لقد أضافت لأمجاد العرب مجداً موسيقياً جديداً، فقد تسنى لها أن تعزف على آلتها الجديدة «البيانو» أو القيثارة، ربع التون ونصف التون وغير ذلك.. مما لا يعرفه الغرب ولا موسيقاه.

وزارت عالمها العربي والمغربي، يستقبلها أفراده من عشاق الموسيقى يترجمونه في كلمات تنشرها الصحف ويذيعها الراديو ويبثها التلفزيون.

لا شيء غير المجد الفني، حملته في أعماق قلبها الذي بدأ يشيخ.

وماذا بعد كل الذي صنعت؟ لا شيء.. سوى الخواء والفراغ يحيط بها من كل جانب، يملأ جوانحها بالألم ويحيط حياتها بالأحزان.

وتمضي في استعراض شريط الذكريات تعدد أسماء كل من طرقوا باب بيتها يوم كانت شابة، أين هم الآن، استقر بهم المقام بجانب زوجاتهم وأولادهم يمضون أيامهم في سعادة؟

لطالما التقت ببعضهم في كثير من الحفلات التي أقيمت لتكريمها، وكان أكثرهم يتسابق للحديث معها على أنه يعرفها منذ زمن وكأنه يتباهى على أقرانه بهذه المعرفة ولا شيء غير هذه المباهاة.. ومع هذا فهي ترمق الزوجة قبل الزوج.. تحاول أن تستشف من وجهها صور السعادة التي تفتقدها.

أوليس البيت قمة السعادة بالنسبة للمرأة؟

ولماذا أفرطت هي في شيء كان ملك يمينها؟

أكانت تبحث عن المجد في دنيا لا يعني المجد فيها للمرأة بديلاً عن البيت والأسرة ولا يمنحها الاستقرار النفسي ولا الروحي؟

وهل يمكن لها أن تعود عن حياتها التي رسمت...؟

ومن ذا الذي يرضى أن يقترن بامرأة جاوزت سنوات الشباب إذا لم يكن هو فارق تلك السنوات؟

وهل يحق لها اليوم أن تبحث بنفسها عن الاستقرار بأسلوب جديد يغاير صور الفارس الذي استقر في مخيلتها والذي لم تلتق به بعد.

قد تكون في مسيرتها وصلت إلى ما تريد من الإدراك والفهم والعمل المضني من أجل تحقيق أمنية.. لكنها لم تكن كل الأمنيات.

لقد جابت آفاق الدنيا والتقت بنماذج بشرية كثيرة أثار بعضهم غموضها الشرقي فحاولوا الاقتراب منها، ثم هربوا لأنها كانت ذبيحة في محراب الفن الذي دفنت فيه، فوهبته نفسها بدون رغبة.

لقد سيطر الوهم على عقلها، فزين لها المجد الفني والأضواء الكاشفة وكلمات الإعجاب تنطلق من الشفاه عندما تقبل وتدبر وتشدو وتصدح، لكنها لم تلتق بمن كانت ترغب أن يسمعها كلمات الاعجاب بشخصها، بعينيها الجميلتين، بخصائل شعرها، بقوامها الملفوف، بسمرتها الوردية، بابتسامتها الهادئة.

جلهم كان يرى فيها مصدر إشعاع وهي اليوم في حاجة إلى حب يحمي قلبها من الضياع وزوج يعيد فهمها لمعاني الأنوثة.

وهي تحب الأطفال وتعشق براءة البسمة وهي تحيط بوجوههم الصغيرة.

ولكن أنى لها أن تحظى بواحد منهم وهي ترغب أن يأتي من كيانها . . فهي وإن رضيت اليوم بأن تتزوج واحداً من الناس تختلف صورته عن صورة فارسها إلا أنها لا يمكن أن تنجب لأنها ولجت سنوات اليأس سراعاً دون إدراك لمعانيها المقيتة.

تباً للحياة إذا كانت تشح عليها هكذا، وتباً لعقلها الكبير الذي لم يستطع أن يفهم معاني الحياة والاستقرار والبيت والأسرة والزواج والأطفال.

فلقد طرق الحظ بابها أكثر من مرة وأفلتت السعادة من يدها أكثر من مرة، ولم يبق لها إلا الذكرى تحاول من خلالها أن تنأى بقلبها عن كل هذه الأحزان التي تسيطر عليها اليوم وكل يوم.

ففي هذه المدينة العجيبة التي يسمونها واشنطن ألوف العجائز مثلها يجبن الشوارع في زينتهن المصطنعة، بلا مبالاة.

أتراها واحدة منهن؟ وهي في مكانها في شقتها الصغيرة ترمق الأفق وقد اصطبغت سماؤه بألوان رمادية حزينة تضيف إلى حزنها، أحزاناً كثيرة تحاول أن تهرب منها . . إن كل ما ترغب فيه وتتمناه قد ذهب، ذهب بذهاب شبابها وفتوتها ولم يبق لها إلا أن تظل عانساً مدى الدهر.

إنها تهاب الوحدة، وتخشاها لطول تجربتها لها، لكن ماذا يمكن أن نصنع بعد كل الذي مر بحياتها منذ مولدها وإلى اليوم؟

لا شيء سوى ذكرياتها تلملمها في أعماقها وتختزن تفاصيلها في قلبها، فهي تكره أن تفضي بها لأحد، فلقد جبلت من طينة تأبى عليها أن تفضي ما في نفسها كما تفعل النساء.

ومضت إلى قيثارتها تستلهمها في حب وتداعب أوتارها لتترجم أحاسيسها وما مر بها من ذكريات في مقطوعة جديدة حاولت أن تغزو بها عالم الموسيقى المتجددة. وفي الصالة الكبيرة من المسرح الدائري في (واشنطن) اجتمع أكبر عدد من النقاد والفنيين الذين التقوا لسماع الحديث الموسيقي الجديد الذي ستقدمه الفنانة الشرقية على قيثارتها التي أحدثت دوياً كبيراً في عالم الموسيقى.

ولقد ساهمت الفنانة بأسلوبها المتجدد أن تمنح جموع المستمعين الفرصة

لسماع لحنها الجديد الذي جاء مزيجاً من الفرح والحزن في انسياب عجيب شد كل من في الصالة للاستماع إليه.

أما هي، فقد كانت بعباءتها الشرقية وسماتها العربية وسمرتها الوردية وقامتها الشامخة نموذجاً يلهب خيال زوار المسرح عن ليالي الشرق وصفائها وروائها.

وانتهت (وجيهة) من عزفها لتقابل من الجموع الحاشد بتصفيق حاد دام فترة طويلة وكانت هي بين الفرح والحزن ففي الوقت الذي انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة كانت هناك دمعة تتدحرج على الوجنة السمراء في صمت وكأنها تحكي معاناة امرأة وهبت نفسها للفن بينما قلبها هناك.. للبيت والأسرة.

لكن كل هذا لم يدم سوى لحظات قطعه عليها سؤال عابر من صحفي كان يريد أن يعرف اسم المقطوعة.. لكن (وجيهة) لم تدعه في حيرته وإنما التفتت إليه وعلى وجهها رواء الفنانة الأصيلة وقالت:

ـ إن اسم المقطوعة هو (بعد فوات الأوان).

ومضت إلى خارج الصالة تمشي بلا هدف ولا غاية، لا لأنها فقدت الهدف والغاية، وإنما لأنها كانت تبحث في مخيلتها عن كل هذا الذي جرى لها طوال سنوات حياتها التي مضت بلا جدوى فقد فات الأوان في أن تبحث عن الماضي ذلك الذي مضى وانقضى بلا عودة.

ويطرق برأسه إلى الأرض في لحظة استرخاء وكأنه يستجمع في ذاكرته صور الأمس، تتدلى كعناقيد عنب تملأ جنبات قلبه الذي يخفق لمرأى الزهور البرية وهي تتنفس.

فعلى هذه الأرض عاش سنوات طفولته التي يذكر كل تفاصيلها ودقائقها وفي هذه الدروب الصغيرة حفيت قدماه بحثاً عن زهرة غريبة يضيفها لمجموعة الأزهار التي يحتفظ بها في كتابه القديم.

الطريق في صورته الجديدة شيء مغاير لما يعرف. . أكلت منه المدينة أجزاء كثيرة حولت صخوره التي يعرفها إلى حجيرات صغيرة دكتها مطارق الآلات التي استطاعت أن تصنع منها ما تحتاج، ومع هذا تظل الدروب على ما هي رغم كل مظاهر التطور، فيد الإنسان على قدرتها لا يمكن أن تمحي آثار الزمن به مهما كانت.

حتى الأشجار الباسقة حولتها الشمس إلى شيء مغاير لما يعرفه بالأمس لكن تظل صورها القديمة المختزنة في تلافيف مخه باقية مكانها.

فعلى مقربة من الصخرة الملساء كان هناك الوادي الكبير الذي كان يرمق دروبه الملتوية في شغف. . وهو على ما هو عليه زادت سنوات العمر أشجاره قوة وقدرة. ترى هل يمكن أن ينسى نجماته الصغيرة وهي تطل من سماء «الهدى» كمصابيح أنيقة تومض في قوة ثم تختفي وتعود لتومض مرات ومرات؟

والراعية الصغيرة «هلا» تلهو بشويهاتها في ساعات الصبحية، أين هي الآن؟ يقولون إنها تخرجت من معهد المعلمات وأصبحت

مدرّسة ذات شأن.

وهو يحن إلى الماضي، يود أن يعيد بعض أجزائه وجزئياته فلا ينسى العم سالم، صاحب المقهى الصغير عند مدخل قرية «الكمل». . أين هو اليوم؟

لقد ذهب المقهى وحلت مكانه دارة أنيقة لا يعرف صاحبها، فربما كان صاحب الدارة هو العم سالم نفسه.

وينظر إلى المرأة التي بجانبه. كل شيء فيها يغاير جميع من عرف من الفتيات. . . صويلحة ورباب وعناد وسعاد.

ترى لماذا أقدم على الزواج من هذه المرأة؟ وهل يكفي أن يسكن في بيت أمها طوال مدة دراسته في لندن ليعود بها كزوجة؟

لقد حدثها كثيراً عن طفولته وهو في حديثه معها لم يكذب بل حاول أن يفهمها حقيقته، حقيقة أرضه ومعدنه وحياته وأصدقائه وأمه وأبيه، ومعاني أمانيه وأحلامه في أن يعيش على أرضه.

لكن سوزان لم تكن في حاجة لأن تعرف كل هذه التفاصيل. . فمجتمعها يرفض الماضي وينظر إلى الحاضر بنصف عين وإلى المستقبل بالنصف الآخر.

أويستطيع أن يقول بأنه يحبها أو أحبها لحظة. . أم أن طول العشرة فرض عليه أن يقترن بها؟

وهي. . أتحبه الأخرى. . أم إنها وجدت فرصة الزواج سانحة وقد شحت في بلدها لمثيلاتها فقنعت به؟

ليته يعرف كل هذا. . ولكن كثيراً ما يتحدث إليها عن ذلك فكانت لا تجيب إلا بضحكة من ضحكاتها التي كان يحس من خلالها أنها تريد منه أن يصمت.

وهو يزداد اليوم صمتاً عن ذي قبل وكأنه يوشوش الأرض والأشجار والطريق في قريته التي أحب وأرضه التي تمنى لها مزيداً من التطور.

حتى في ساعات الصفاء كانت المقارنة بين سوزان وبين من عرف في طفولته وارد، ولماذا؟ لا يدري إلا أنه يرتبط بهذه الأرض بعمق وأصالة. . وأمه ما هو رأيها بزوجته؟ لقد أحس في عمق عينيها حديثاً صامتاً وكأنها تلومه

على أنه فعلها برغم كل مظاهر الحب التي حاولت أن تستقبل بها الوافدة الغريبة.

ويرتفع صوت أحدهم بأغنية من أغاني الطائف القديمة فيطربه الصوت ويمضي في استماع كلمات المغني وملء قلبه إحساس بالسعادة.

أويمكن أن تعي سوزان حقيقة ومعاني السعادة التي يحس بها.. أم إنها هي الأخرى تحن إلى الأرض والبيت الذي ولدت فيه؟

والتفت إليها وقال:

ـ ما رأيك؟

فأجابت في لهفة:

ـ كل شيء على ما ذكرت سوى هذا.

وأشارت إلى الطريق الإسفلتي المتعرج.

ـ ومع هذا يبدو الطريق وكأنه لا يريد أن يفسد جمال المنظر على هذه الجبال الشم.

ـ أوتقولين ذلك عن صدق أم مجرد مجاملة؟

ـ ولماذا أجامل؟ فأنت تعرف عني ذلك فلقد سمعت أحاديثك كثيراً ولم أعقب أما اليوم فقد آن لي أن أقول رأيي بصراحة. كنت أظن أنك تبالغ في وصف جمال القرية وهدوئها لكنني بعد أن شاهدت ما شاهدت أشعر بأنك ظلمت قريتك فلم تعطها حقها.

ـ ولكن ألا تشعرين بالحنين إلى لندن والحياة فيها؟

ـ إذا قلت لا، أكون قد ظلمتك وظلمت نفسي لكنني مع هذا يمكن أن أضحي كما ضحيت أنت، أولم تمض مع أسرتي أكثر من أربعة أعوام كاملة؟

وصمتت، واحترم صمتها ومضى يذرع الأرض وهي أمامه صورة تجسد أياماً أمضاها وسنوات سيعيشها لا يدري هل تكمل هذه الغريبة المشوار معه.

وفجأة يحس برغبة في أن يجلس على الأرض يتلمس أزهارها وأعشابها البرية يحادثها في صمت، يشم عبيرها في هدوء، ويمضي في صمته والفراشات من حوله بألوانها الزاهية تتطاير بعيداً بعيداً، لكن عينيه ترمقان كل شيء في

سعادة.

أويحب هذه الأرض كل هذا الحب؟ أولم ينس بعض الوقت حنينه إليها وهو يمضي في غابات القرى المحيطة بلندن؟

وتنكسر حدة الصمت في أعماقه بينما تواصل نفسه أحاديثها وكأنها تحاول أن تطيّب خاطره للحظات النسيان الطارئة.

ـ سوزان. . أوتحبين القرية؟

ـ ولماذا لا أحبها ما دامت هي على هذا الجمال؟

ـ وأمي كيف ترينها؟

ـ صورة مغايرة لأمي. . ففي وجه أمك مظاهر سعادة لا نعرفها نحن الذين نعيش في المدينة.

ـ وتقولينها؟

ـ ولماذا لا أقول الحقيقة؟ قد تطغى المدينة على حياة القرية كما طغت في بلادنا لكن الأصالة التي ألمسها في وجوه القوم تشعرني بصعوبة التحول لدى نسائكم بسرعة.

ويبتسم، ثم يمد يده لتلتقي بيدها هذه المرة في شيء من التقدير. . فهو يحبها الآن أكثر مما أمضى معها من سنوات زواجهما التي انقضت.

وفي البيت الذي ازدانت جدرانه الصم بصوره العديدة التي بعث بها إلى أمه كان لقاء بين سوزان والراعية. لقد جاءت صديقة الطفولة لتهنىء أمه بسلامة وصوله ولم تكن تعرف أنه تزوج وعندما عرفت تحدثت مع زوجته بالإنجليزية في بساطة.

وابتسم في أعماقه وقال:

ـ سوزان أوتعرفين من تحدثك؟

وهزت رأسها إيجاباً.

ـ إنها صديقة طفولتي «هلا». لقد غيّرتها اويام صنعت منها يد التطور شيئاً مغايراً لما أعرف.

وابتسمت هلا، وقالت:

ـ لكن دماءنا تظل على ما هي في عروقنا تحن إلى البساطة وتتسم بصفاتها، ولهذا ترانا نعيش كما عشنا رغم جميع مظاهر التقدم يساعد صغيرنا كبيرنا ويحترمه.

أوتدري يا هشام بأنني أرعى الغنم أيضاً حتى بعد أن أصبحت مدرّسة؟

ـ وماذا في الأمر إن فعلت؟

قالها وكأنه يؤمن بما تقول.

والتفتت سوزان إليهما وقالت:

ـ هي على حق، فالذين يملكون القدرة على التحوّل يملكون السيطرة على مساوىء هذا التحوّل يأخذون طيبه ويتركون الباقي.

وضحكت هلا وقالت:

ـ غداً سآخذك في رحلة إلى «غدير البنات».

وتساءت سوزان في سذاجة وقالت:

ـ أهو مكان مخصص للنساء فقط؟

قالت هلا:

ـ لا، لكن هذا اسمه فجمال الغدير وحلاوة مناظره منحته رقة التسمية. وابتسمت.

ـ أوتقدرون المرأة لدرجة أنكم تطلقون على أجمل غدرانكم اسمها؟

قالت هلا:

ـ نعم.

وصمتت، واحترمت سوزان صمتها.

لكن هشام بدأ يفكر وهو عندما يفكر يبدأ المقارنة وكأنه يفاضل بين هذه وتلك، وأحست سوزان بما يعتمل في نفس زوجها فقالت في استحياء:

ـ قد تفضلني هلا لأنها أعرف بالحياة مني على هذه الأرض.

وأجابت هلا:

ـ وقد تفضيلينني أنت لأنك أدرى وأعرف بالحياة وأوضاعها مني وعلى هذا فأنا وأنت متساويان في هذا المضمار.

وأطرقت سوزان برأسها قليلاً ثم قالت:

ـ هشام، أولا تعتقد بأنني أقدر على تكملة المشوار؟ فمنذ الغد ستجدني صورة مكملة لنساء هذه القرية التي أحبها زوجي والتي يجب عليّ أن أحبها أنا الأخرى، فلقد آن لي أن أستريح وأن أعرف مكانتي في قلبك.

وضحكت وضحك الجميع، إلا هو، فقد مضى يفكر ويفكر.

ترى هل تكمل سوزان المشوار أم لا؟

وأحس بأن ما بدر منها قد يمنحه الراحة لأنها فكر في أن تمضي في رحلتها لنسيان الحياة التي عاشتها وتبدأ في حب القرية التي أحبها، وهذا وحده في نظره بداية المشوار. وهو يحب أن تتمكن هذه الغريبة من السير على دروب حياته التي أحبها ولا يزال، ومع هذا يظل يتذكر جميع الفوارق بين المدينة الكبيرة التي جاءت منها زوجته وهذه القرية التي أنجبت هلا.

ونظر إلى زوجته فرآها تبتسم وعندما سألها السر في ابتسامتها تلك.. قالت وهي تضحك:

ـ أوتظن أنني اجتزت الامتحان؟

وضحك هو الآخر وقال:

ـ ربما! من يدري وإن كنت آمل ذلك.

لكن سوزان لم تدعه يكمل كلمته وإنما قالت وفي إصرار:

ـ صدقني سنكمل المشوار معاً، لأن إرادة الله، منحتنا القوة وأعطتنا العقل لنرى عن طريقه ما يجب وما لا يجب.

وابتسمت، وافتر ثغره عن ابتسامة رضى هو الآخر.

ويضيع الزمن

ويتهيأ لرد التحية وهو في مجلسه في مواجهة الطريق المؤدي إلى سوق الندى بجدة، لكن صديقه لم يفعل، وإنما مضى في طريقه لا يلوي على شيء، وكأنه لم ير صديقه الذي أحب. ترى أويمكن للإنسان أن ينسى في لحظة غضب سنوات العمر الطويل التي أمضاها برفقة صديقه من الطفولة إلى الصبا والشباب فالكهولة؟

وهل يقنع الإنسان من دنياه بقطع أواصر الصداقة هكذا فجأة لسبب طارىء أو حتى بدون سبب؟

ولماذا يخاف بعض الناس مواجهة أصدقائهم بحقائق الأمور عندما تنكشف، فيمعنون في ضلالهم غير آبهين إلى أن الحياة لا يمكن لها أن تظل وتبقى أواصرها إن لم يَصدق الصديق صديقه؟

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فلا يتعداه! لكن بعض الناس تأخذهم العزة بالإثم، فينسون جمال الحياة ورواءها من خلال ارتباطاتهم وصداقاتهم فيهدمون كل شيء في طرفة عين.

وتدمع عيناه وهو يرى صديق عمره يمضي دون أن يفشي السلام، وفي فترة كان يمكن أن يؤدي إفشاء السلام إلى إعادة الوئام بين القلوب التي أصابها الوهن فجأة دون سابق إنذار.

لم يكن يظن أن مثل هذا اليوم سيأتي، لكن كل شيء صار فجأة، وكأنه النار تسري في الهشيم. وماذا يظن الناس عندما يقاطع بعضهم بعضاً، ولا سيما أولئك الذين عاشوا دهراً رفقاء تملأ قلوبهم المحبة وتشع عيونهم بالحب؟

زمن.. كلمة أحس بأنها يجب أن تقال أولاً. ماذا يمكن أن

يقول عن هذا الذي يجري في هذا الزمان غير ذلك الزمان الذي يعرفه، يوم كانت الأمور تجري ببساطة؟

حتى عندما يختلف اثنان ليعود أحدهما بعد لحظة الغضب إلى كلمة عتاب تغسل القلوب وتنهي الحقد وتذهب بالضغينة.

وما ذنبه هو إذا اختلف ابنه مع زوجته، ابنة صديقه الذي أحب. لقد حاول كثيراً رغم معرفته للخطأ الكبير الذي ارتكبته الزوجة في حق زوجها بأن يحمل ابنه على الصفح عنها.. وقد كان.. لكن زوجة ابنه ركبت رأسها هي الأخرى عندما رأت انصياع زوجها لرغبة أبيه.

يقولون: إن الخلاف بين الزوجة والزوج كالملح في الطعام، لا يحلو الأكل إذا كثر أو نقص. ويقول هو بأن كثيراً من هذه الخلافات الزوجية ليست سوى فقاعات صغيرة تطفو على السطح ثم تختفي فلا يبقى منها أثر. لكن ما يراه اليوم غداً شيئاً رهيباً مغايراً لكل مفاهيمه عن الحياة، هو الذي عاش خلالها أكثر تمسكاً بالمثل والقيم والتراث ليستهديها طريقه في هذه الحياة.

لقد عاش حياته كلها موفور الكرامة يعاتبه أصدقاؤه ويعاتبهم، وينظر إلى كل واحد منهم وكأنه بمثابة الأخ بالنسبة إليه.. لا شيء على الإطلاق يمكن أن يؤثر في ارتباطاته بأصدقائه. هكذا فهم الحياة خيرها وعرفها، وتعلم منها الكثير.. لكن ما بال صديقه أحمد يقفز اليوم على كل هذه الحواجز الأخوية التي أقاماها سوياً ليندفع في خصومته معه؟

وأقفل دكانه وذهب إلى داره مهموم النفس، مشتت الفكر، لتقابله زوجته على غير ما تعهد، حتى إذا ما تحدثت إليه قال لها:

ـ لم أكن أظن أن الخصومة التي بين ولدك وزوجته ستطغى لتحل بيني وبين صديقي أحمد.. وأنت تعرفين مدى ما تحملت وحَمَّلت ابني من أجلها.

وتجيبه زوجته في هدوء:

ـ ولكن الأمر على ما أظن ليس على هذا المقدار من السوء. فالدنيا يا زوجي قد تغيرت وأصبح الزمن غير الزمن.. أوتظن أن صديقك يعتقد أن لا يد لك ولي في هذه الخصومة؟ ثم من يدري إنه ربما قالت «رُبَى» زوجة محمود

لوالدها عنك ما يزعجه؟

ـ لكنني لا أعتقد أنه على هذا المقدار من ضحالة الرأي وسوء التصرف، فلقد عرفته طوال عمري راجح العقل، نافذ البصيرة.

ـ لكننا نحن النساء أقدر على ترسيخ مفاهيمنا في عقول رجالنا حتى وإن كانت خاطئة. أوتظن أن الدنيا في هذا الزمن كما كانت عليه يوم كانت المرأة من قبل لا يؤخذ برأيها ولا يعتدّ بها؟

ويجيبها:

ـ حتى إن كانت على خطأ؟

وتهز رأسها مؤيدة وتقول:

ـ قد لا تكون زوجة صديقك قد قالت له ما جعله لا يفشي سلامه لك وإنما ابنته وبنات هذا الجيل أقدر على تزويق الأمر وتزيينه بالأسلوب الذي يمكنهن من الوصول إلى قلوب آبائهن. أولا تراهن يمضين ساعات وساعات أمام المرآة يستخدمنها من أجل تجميل وجوههن وستر عيوبهن؟

ـ إذن ما العمل يا أم محمود! فأنا لا أقدر على هدم صداقة ثلاثين عاماً هكذا..

وتجيبه زوجته:

ـ دع كل هذا للأيام، فلربما استطاعت أن تظهر وجه الحقيقة، فيعود صديقك إلى سابق عهده، وتعود «رُبَى» إلى زوجها.

ـ أوتعتقدين أن هذا ممكن؟

ـ وكيف لا أعتقد، والزمن كفيل بعلاج الجراح حتى لأولئك الذين فقدوا أحباءهم؟ انظر إلى نفسك كم كان حزنك كبيراً يوم توفي والدك، ومع هذا أين ذهب هذا الحزن؟ لقد مسحت قروحَه يدُ الزمن ورفعت بينه وبينك جداراً جعلك تنساه فلا تذكره.

ـ لكن الأمر جد مختلف بين هذا وذاك. تلك إرادة الله شاءت لنا أن نحيا وأن نموت.

قالها في هدوء، وتابعت حديثها:

ـ قد نختلف أيضاً، ثم نعاود مسيرة الحياة بعد أن يتبين لنا وجه الحقيقة.. صدقني يا زوجي! فإن هذا الأمر في هذا الزمن أمر عادي ممكن استدراكه، فلا عليك، وخلِّ عنك كل هذه الهموم، وعد إلى سابق عهدنا بك.. محمود سيرافقنا في موعده لتناول الغذاء، وهو أحوج إلى بسمتك في هذه الظروف، فأنت تعرف مدى حبه لزوجته وابنته، ولو كانت ابنته معنا لهان الأمر عليه، ولكنك أبيت أن تتركها معنا، وقلت: لتأخذها أمها معها. وهكذا أخذتها، ثم منعت والدها حتى من رؤيتها.

ويدخل محمود، وقد ملأت رأسَه همومُ الدنيا، ثم ينظر إلى والديه ويجيبهما في أدب، ويقول:

ـ لكم أنا جائع يا أماه!

ـ ونحن كذلك يا بني! سأعد المائدة بأسرع ما يمكن ريثما تغسل يديك وتصلي.

وينظر الأب إلى ابنه ثم يقول:

ـ لقد رأيت اليوم صديقي والد زوجتك في الطريق..

ـ وماذا قال لك؟

ـ لا شيء، لأنني لم أحاول أن أفتح الموضوع معه بناء على رغبة أمك، فقد قالت بأن الزمن كفيل بإنهاء كل خلاف.

ـ أوترى أنت أيضاً هذا يا أبي؟ لقد اشتقت كثيراً لرؤية ابنتي، ولم أكن أظن بأن «ربى» ستصنع ما صنعت..

ويجيب الأب:

ـ لا عليك يا بنيّ، فالمرأة كما تعرف تركب رأسها في بعض الأحيان وما عليك إلا أن تدعها ما دمت على حق، فستعود في النهاية صاغرة لرأيك.

ـ وتظن ذلك يا أبي؟

قالها محمود في لهفة.. وضحك والده من كل قلبه وقال:

ـ لم أكن أعرف فيك هذا التعجل، فعهدي بك صلب، لا يمكن أن تنال منك الأحداث..

ويجيب محمود:

ـ قد يكون ما قلته صحيحاً لو كان الأمر يختص بموضوع غير موضوع ابنتي، فأنت تعرف لهفتي عليها ولهفتها عليّ. . إنني أراها بعين الخيال وكأنها تبحث عني في كل مكان، فهي لم تتعود أن تعيش بعيدة عني هكذا. .

ـ ولماذا لم تصبر على عنت زوجتك ما دمت ملهوفاً إلى هذه الدرجة على ابنتك؟

ـ أنت تعرف يا أبي بأنني قد صبرت بما فيه الكفاية، لكن «ربى» رغم علمها وثقافتها فهي في كثير من الأحيان تتناسى هذه الثقافة وهذا التعليم. أوتصدق أنها كانت تريد أن تقضي أشهر الصيف في «كان» لأن بعضاً من زميلاتها ذهبن إلى هناك؟

ـ وماذا كان ردك عليها؟

ـ قلت لها بأننا من نوعية تغاير أنواع أولئك الذين يذهبون بأسَرِهم إلى «كان». فالحياة في الريفييرا يا والدي أشبه بسوق حراج ضخم تباع فيها الأجساد بشكل ممجوج. أوتدري بماذا أجابت؟

لقد قالت لي بأنني إنسان حريص على ماله ولهذا رفضت أن أستجيب لرغباتها. .

ـ وبماذا أجبتها؟

ـ قلت إني إنسان أحرص كل الحرص على كرامة أسرتي، فلا أدع عينيها تصطدمان بمناظر الخلاعة المكشوفة هناك. .

ـ ثم ماذا قال أبوها؟

ـ جمعت حوائجها وخرجت إلى دار أبيها وأنت تعرف الباقي. . وعندما تحدثت إلى أبيها، فكر لحظة وقال: ابنتي حرة في رغباتها، فإما أن تكون زوجاً قادراً على تلبية هذه الرغبات، وإلا فدعها لي. .

قلت له:

ـ هل تسمح لنفسك ولأسرتك أن تذهب إلى كان؟. .

والتفت إليّ وقال:

ـ وما هذه «كان» سبب المشكلة؟

فأفهمته كل شيء عن هذه المدينة التي تغرق الناس في مباذلها المكشوفة ليلاً ونهاراً، ولكنه لم يدع لي الفرصة لأكمل، وإنما قال: «رُبَى» تعرف أكثر مني.. ولو أن «كان» على ما ذكرت لما طلبت منك «رُبَى» أن تمضي الصيف فيها. وتركني، فانصرفت أنا حاقد على هذا الجاهل الذي لا يعرف من دنياه إلا الانقياد لرغبات بناته الثلاث..

أوتدري يا أبي بأنهن جميعاً في بيته؟

وضحك:

ـ ماذا تقول يا محمود؟ ولماذا كل بناته في بيته؟ أين أزواجهن؟

ـ كلهن يرغبن السفر إلى «كان»، وجميع أزواجهن مثلي يرفضون أن تسافر أسرهم إلى مكان كهذا.. ولهذا دبّ الخلاف بين أختيْ ربى وسعيد ومحمد.

والتفت إليه أبوه وقال:

ـ ربما كن على اتفاق في أن يمضين الإجازة في هذه المدينة التي لا أعرفها، ولهذا عندما حردت منك زوجك حردت الأخريات.

ـ لا أدري.

قالها محمود.

ـ لكن الذي أعرفه أنهن جميعاً مع ربى في بيت والدهن.

ـ لا عليك يا بنيّ ما دامر الأمر كذلك، فقد هانت المصيبة.. وأصبح حلها في نظري قريب الوقوع..

دع عنك لهفتك على ابنتك، وتأكد بأن والد «ربى» سيزورنا اليوم أو غداً ولكن...

ـ ولكن ماذا؟

ـ لا شيء يا بني إنما كنت أفكر في أمر آخر عرض لي، ولهذا جاءت كلمة «كان» في غير مكانها.

ومضى يمعن الفكر في أسباب الجفوة التي لحظها اليوم مع صديقه..

وأخذ يقلب الأمر من جميع وجوهه ليخرج في النهاية إلى أن صديقه كان

مشغول البال لما آل إليه حال بناته، ولهذا لم يره عندما مر به صباحاً.. ولو رآه لما تركه دون أن يلقي عليه التحية.

وأحس بمزيد من الراحة لهذا الاستنتاج، فهو يحب صديقه، ويود لو أن يذهب فوراً إلى داره، ليشاركه الرأي في هذا المصاب الذي حل به فجأة.

فهروب البنات من بيوت أزواجهن غاضبات يعني عند الأب أشياء كثيرة.. منهم من يعرف كيف يصلح شأنهن، ومنهم من لا يعرف، وصديقه من أولئك الذين لا يعرفون كيف يصلحون شأن بناتهم ولهذا فهو اليوم جد خائف عليه.

ليته يستطيع أن يجنّب هذا الصديق ذروة الحرج التي يلاقيها اليوم ويحس بها وقد حلت بداره، فلم تدع له أية فرصة للتفكير، ولكن أنى له ذلك، هو الذي كان يحب أن يشاركه المحنة التي هو فيها.

وتناول وزوجته وابنه الغداء، ثم مضى إلى غرفته يفكر ويفكر عله يجد الحل ليس لمشكلة ابنه فقط، وإنما للأخريات أيضاً اللواتي تركن بيوت أزواجهن من أجل كلام فارغ كهذا..

وهبّ إلى التلفون يدير قرصه، وجاء إليه صوت «ربى» سائلاً:

ـ من المتكلم؟

لكنه لم يدع لها الفرصة في الحديث، وطلب منها في لهجة آمرة أن تترك سماعة التلفون لأبيها، حتى إذا ما سمع صوته أخذ يتحدث إليه طويلاً في أشياء صغيرة ثم قال له في هدوء:

ـ وما رأيك يا صديقي أن نمضي إجازة الصيف سوياً في «كان»؟

وجاء صوت والد ربى ساخطاً، وهو يقول:

ـ أوتدري أن البنات كلهن في داري بسبب هذا الموضوع؟ لقد بتّ لا أدري ماذا أصنع.. فأنا كما تعرف أبدو ضعيفاً أمام البنات... هكذا عشت طوال حياتي، فماذا ترى يا صديقي أنا فاعل؟

وأجابه أبو محمود:

ـ لا شيء سوى أن تأمر كل واحدة منهن بأن تعود إلى دارها في هدوء، وعليها أن تبحث مشكلتها مع زوجها دون تدخل..

ـ وهل تعتقد أنهن سيفعلن؟

ـ إذا كن لن يقبلن ما تأمرهن به فأجيء بنفسي لأحمل الأخريات إلى بيوت أزواجهن. أما «ربى». . فأنت الذي ستأتي بها بنفسك، لأن هذه الدار بالنسبة إليك أكثر من دار لك.

ـ يا صديقي دعني أفكر قليلاً في هذا. .

ـ لا مجال للتفكير، فأنا قادم. لا تنس بأننا قد درسنا في صدر شبابنا بأن (كَانَ) فعل ماضي ناقص، لا يحتاج إلى كل هذه الضجة المفتعلة.

وأجابه صديقه:

ـ نِعم القول ما قلت! فأنت في مقامي أيضاً سأنتظر قدومك في الوقت الذي أطلب فيه منهن أن ينتظرن معي، لتعود أنت بربى إلى ابنك محمود، وأعود أنا بابنتي إلى زوجيهما، أويكفيك هذا؟

ـ نعم يكفي هذا. ولكن بشرط. . .

ـ وما هو الشرط يا صديقي؟

ـ أن لا تنسى إفشاء السلام على أصدقائك عندما تقابلهم.

ـ وهل من شيمتي أن أفعل هذا؟

ـ لا. لكنك لم تفعل هذا اليوم معي، يوم رأيتك في سوق الندى.

وجاء جواب صديقه:

ـ أوتصدق بأنني لم أرك، ولو كنت رأيتك لهرعت إليك راجياً مشاركتي في إنهاء هذه المشكلة، مشكلة (كان) التي جاءت بها البنات إلي على كبر؟

وضحكا من أعماق قلبيهما كما لم يضحكا من قبل. . إذ كان كل واحد منهما يستعرض الماضي بجمال صوره وأحلى لياليه. . فالحياة دون ذكريات مجرد صورة باهتة لأيام تمضي وليال تجيء. .

وتهيأ للخروج هذه المرة ليفشي هو السلام. . بعد أن آلمه مرور صديقه عليه دون أن يبادله التحية. . فالنفوس الكبيرة تحمل في جنباتها نوازع خير تبدو واضحة المعالم لكل ذي عينين. وخرج أبو محمود من البيت بعد أن أودع السر صدر زوجته التي لم ترد أن تخفيه، وإنما نادت بملء فمها ابنها وقالت:

ـ ستعود «ربى» الليلة إلى البيت ومعها ابنتك يا ولدي العزيز.

كما تريد يا أبي

افتقدها وهو صغير. كانت بالنسبة إليه شيئاً هاماً ومثيراً، لكنه عندما شب عن الطوق بدأ يحس بحاجة أكبر إلى الحنان الذي افتقد، والحب الذي ضاع، والأمل الذي فقد، لدرجة جعلته يشعر بحنقه على هذه الحياة التي أخذت منه كل شيء، حتى إذا ما منحته ما أراد، لم يأت ذلك فجأة.. فحكايته مع الزمن طويلة، لا يمكن له أن ينساها، فعبر سنوات الحياة التي أمضاها استطاع بقدرته العجيبة وصبره وأناته، أن يصل إلى ما وصل إليه، لكنه مع كل ما وصل إليه يشعر بأن دفء الحياة التي افتقدها وهو صغير يظل يطارده حتى هذه اللحظة.

لماذا ذلك؟ شيء لا يدريه، لكنه يراه ويلمسه ويحس به، وهو يهيمن على جميع تصرفاته، يعايشه كظله في أمسه ويومه، ويود أن يتخلص منه في غده إذا قدر.

كثيرون هم الذين يفتقدون أمهاتهم وهم في مراحل أعمارهم الأولى، ومع هذا يجدهم يجتازون هذه المحنة بهدوء فلا يظل أثرها أو تأثيرها يسيطر عليهم إلا هو.

ربما لأن ما وجده من ألم طيلة سنوات الطفولة قد أثر بما لا يجعل الفرصة مهيأة له بأن ينساه.. ولكن..

وتعود به الذكريات في رحلة مع الماضي الذي يختزنه عقله طوال هذه السنوات وكأن أزاميل الحياة قد حفرت في أعماق أعماقه صور كل تلك الذكريات التي أخذت تبدو باهتة حتى إذا ما اكتملت صورتها بدأ يحس بخفقان قلبه لشريطها المضني وهو يمر أمام عينيه

في ترابط عجيب.

فذكريات الزمن تظل دائماً مجبولة بصداها الحاكي، تمنح الصورة أشكالها وألوانها، لتتجسد مع الأيام في رتابة يعرفها أولئك الذين يرمقون ذكريات الحياة بلهفة وشوق وبألم وضنى أيضاً، فلا جديد على هذه الأرض يمنح الإنسان السعادة سوى الحب، والحب هذا الترياق السحري يفقد قيمته عندما يكون من طرف واحد.

أويمكن أن يتجنى على والده ذلك الذي أراد أن يقدم له أطايب ما في هذه الدنيا على صحن من ذهب؟ ركله بقدميه، دون أن يعرفه لأنه كان يشعر بأن لا قيمة لهذه الدنيا بدون أمه التي ذهبت!

فترات القلق في نفسه عايشت قلبه وأحاطت بشغافة لدرجة استطاعت أن تغرس أسنانها في شرايينه لتظل بصماتها على وجهه ناطقة بما يريد له أن يختفي ويذهب.

لكن هذا القلق لم يكن بأي حال من الأحوال مصدر شقاء بمقدار ما كان بالإضافة إلى ذلك مصدر قوة. فلقد أعطاه قلقه الفرصة لأن يمضي في دروب الحياة يتلمس طريقها في قوة من يعرف كيف يضع قدميه على أرضها الصلبة.

سطوة الموت التي حامت حول السرير الأبيض، وأمه في غلالتها التي منحت وجهها الشاحب ظلالاً من الجمال رآه يكاد يطفو على كل من حوله، وهي تبتسم، ثم تأخذ به بين أحضانها لفترة، ثم تودعه عنه يدي والده القويتين. وكأنما تودِعُهُ أمانتها في هدوء، ثم تغمض عينيها فلا يدري ماذا أصابها لأنها لم تعد تنطق بأية كلمة.

إنه يذكر تلك اللحظة، ويذكر دقائقها ويذكر أيضاً كيف انهار أبوه وانخرط في بكاء مرير بجانب سرير أمه، بينما امتدت يد عمته لتأخذه بعيداً عنهما في رحلة طويلة.

ولقد أحس يومها بأن جميع رجالات الأسرة ونساءها وإن لم يصابوا بالشماتة لوفاة أمه ألا أنهم لم يفتقدوها، ربما لأنها كانت الوافدة الغريبة على مجتمع مكة وحارة الشفا بالذات كان هو السبب.

فأمه شركسية جاء بها أبوه من اسطمبول بعد رحلة قصيرة، لتستقر بين أفراد الأسرة أشبه بغريبة أخذت منهم ابنهم بلا رغبة، فقد كانت جدته أول من تحدث في هذا الموضوع مع والده محرضة إياه على إعادتها بعد أن منحته وليدها الذي استمع إلى حديثها في دهشة جعلته يخاطب في أمره عمته التي أحب، ولقد قالت له عمته أشياء كثيرة فهم منها كيف تنظر عجائز مكة إلى الوافدات الغريبات، ولقد أدرك من يومها أن الإنسانة الوحيدة التي تحنو على أمه بعد أبيه هي هذه العمة التي عاش في كنفها بعد وفاة أمه.

وقطع عليه حبل تفكيره صوت الأغنية الفرنسية التي استمع إليه من راديو مونت كارلو، والتي رأى فيها صورة تناسب صورة الموقف الذي يعيشه.

كانت كلمات المغني رغم حرارتها تحمل بصمات الحزن وهو يقول:

«تسافرين كثيراً..

وفي كل مرة تنأين فيها عن أرضك، أنت الغريبة التي تعشق السفر..

بينما الكثيرات من بنات جنسك يعشقن السهر..

والورود، وزهور البنفسج، وهي تتفتح على شرفات المنازل القديمة..

وأنت تنظرين إلى البعيد في صمت قاتل..

لا يقطعه سوى صوت أنفاسك المتلاحقة..

وهي تتابع تحركات خصلات شعرك الأشقر الذي امتاز بنعومته الفائقة..

ومن حولك من يرى في عينيك ضياع من أحببن..

ذلك الرجل الذي استطاع أن ينتزعك من أحضان طبيعتك..

ليفرشك على مخدته، بعيداً عن أرضك..

للأرض الجديدة القاحلة..

ومع هذا تظلين ترمقين الأفق وتنسين الماضي..

وكان الحاضر قد شغلك عنه..

فلم تعودي التي نعرف».

ويرتفع صوت المغني في رتابة:

«إيه أنت أيتها الغريبة، التي ستظل دائماً غريبة..

فالورود عندما تترك طينتها التي عاشت فيها تموت..

وأنا أخاف عليك من الحزن والأسى تزرعه الحياة على شفتيك حتى إذا ما استطاعت غرسه، أصبح من العسير عليك أن تهربي منه..

لأنه سيطبق على عنقك الجميلة، بيديه القويتين وساعديه التي حملتك على الغربة..

أيتها الجميلة ذات جدائل الشعر الشقراء..

غريبة أنت عن ديارك، وغريبة أنت في ديار الغربة..

هكذا أنت اليوم وغداً

لا أدري ماذا أقول فأنا أخاف عليك من الغربة أكثر مما تخافين».

وينخفض صوت المغني الشاب في حشرجته الباكية وهو يقول:

«أوتدرين ماذا تقول الورود في حديقة بيتك القديم عن هذا الغياب..؟

إنها رغم ما تنعم به من أيد حانية.

تظل تفتقد نظراتك الجميلة، وهي تطل عليها من وراء النافذة، ويدك الحانية وهي تتعهدها بالسقيا..

ففارس أحلامك الذي أتى من بعيد كان أقوى من الأرض التي أنجبتك فاستطاع انتزاعك منها، لتعيشي معه بعيداً..

لكن ليس على صهوة جواده كما يفعل الفرسان..

وإنما مع قطيع من الناس شدتهم الغربة بعضاً لبعض إلا أنت..

فستظلين هكذا دائماً رغم إحساسك بالحياة والحب.

غريبة وغريبة دائماً».

وتنتهي الأغنية.

وينخرط في بكاء مرير، فلقد أضافت الأغنية إلى ذكرياته التي يعايشها أشياء جديدة، تُلقي به في أتون ضخم من الألم الطاغي الذي أدمى شغاف قلبه أكثر فأكثر.

فأمه التي أحب ماتت في غير أرضها غريبة، كما توقع المغني. يقولون: إن الدموع كثيراً ما تغسل الأحزان وتمنح صاحبها الراحة وبعضاً من الهدوء، ليتسنى له أن يفكر بعدها في حرية، وهو يريد هذه الحرية التي افتقدها بعد هذا الشعور الذي زاد قلبه هماً وحزناً.

ويمسك بتلابيب ذكرياته وكأنه يخرجها من جراب الأيام رؤى تتمايل هنا وهناك لتطفو على السطح وكأنها تتجسد أمام ناظريه صوراً دقيقة لمراحل حياته التي مر بها.

قد يقسو عندما يصف أباه الذي أحبه ـ وأحب هو أمه كثيراً ـ بأنه لم يستطع أن يظل طويلاً في عزوبته حتى إذا ما حانت له الفرصة تزوجها هي التي انتظرت كل هذه السنوات لتقترن به.

لقد عرف ذلك أخيراً بعد أن كبر، وكان يرى في نظراتها إليه شيئاً غريباً يحيل أجواءه إلى خوف، لأنها كانت تخاف من حب والده له.

ولقد اضطهدته زوجة أبيه كما تضطهد زوجات الأب أولاد أزواجهن، لكنه كان من نوع يجيد الصبر، فلم تهن عزيمته أو تلن، لدرجة جعلته يخفي كل عذابه عن عين والده.

ولقد تحدث يوماً إلى زوجة أبيه عن أسباب هذه القسوة في هدوء ومحبة، فأجابته بلا اكتراث:

ـ أوتظن أن أمك استطاعت أن تأخذ أباك مني؟ فأنا وهو مخلوقان لبعضنا منذ أن كنا صغاراً.

وصمتت..

ـ ولكن ما ذنب أي إذا كان أبي قد اختارها دونك؟

وضحكت في سخرية وقالت:

ـ أوتظن ذلك؟

ثم تابعت حديثها:

ـ قد لا تعرف بأن أمك كانت أقدر على صيد أبيك يوم رآها هناك، ولقد كبلته بقيودها التي فك وثاقها القدر، فذهبت لتتركك عبئاً ثقيلاً على قلبي، أنا

التي أمضتني ذكريات حياتها معه.

ـ لكنها لم تكن تدري أنك تحبينه بهذا الشكل. ثم ما ذنبها إذا هو أيضاً قد أحبها وفضّلها عليك؟ وإلا ماذا نقول عن كل الذي حصل، فقد يكون موتها هو الذي منحك الفرصة لأن تقترني به؟ ولا تظني بأنني لا أعرف ماذا صنعت حتى تصلي إلى قلبه، ولكنك مع كل ما تصنعين معي من إساءة فلقد حاولت أن أتجاوزها لأنأى بقلبه عن الألم، ألم ذهابها وألم إحساسه، أنا ابنه الوحيد بكل هذا العذاب الذي ألاقيه منك.

وصمت، لكنها نظرت إليه نظرة غريبة وقالت:

ـ أوتعيرني بالعقم، لأنني لم ألد له من يشاركك قلبه؟

وأجاب في عفوية:

ـ لا، وإن كنت آمل أن تلدي له أكثر من ولد فأنا أحب أن يكون لي وفي هذا البيت أكثر من أخ، لكنها إرادة الله التي أخذت أمي، ولم تمنحك الذرية فلماذا تذكرين ذلك ما دام هو لا يذكره؟

ـ وما يدريك أنه لم يذكره؟

ـ أدري عن ذلك فلقد تحدثنا عنه كثيراً وكان يقول لي تلك هي رغبة القدر منحني وأخذ مني، فلا لزوم لمناقشة هذا الموضوع.

ـ فأنت تحرضه على أن يتزوج بمن تنجب إذن؟

وضحك من قلبه وقال:

ـ فكرة ذهبت من رأسي، لكن قولك يجعلني أحاول أن أضعها في رأسه فلربما منحه الله من الجديدة ما أرغب ويرغب هو من ذرية.

ـ وتقولها في وجهي؟

ـ ولماذا لا أقولها ما دمت أنت تمضين في إيذائك لي رغم صمتي؟

ونظرت إليه في حدة وقالت:

ـ سأتحداك أن تفعل، فأنت لا تخاف عليّ بمقدار ما تخاف أن يشاركك في قلبه أولاد آخرون.

ـ لا بأس.

قالها ومضى في طريقه ليلتقي بأبيه الذي قدم من خارج البيت. ونظر إلى وجه أبيه فوجده كما عرف لا يزال شاباً، ويستطيع أن ينجب. ونظر إلى وجهها فرأى ظل استجداء من عينيها تطل في تلك اللحظة، وكأنها تطالبه أن يحافظ على سر كل كلمة من تلك الكلمات التي تداولها معها، فابتسم، وقال لوالده:

ـ مرحباً بك يا أبي.

ونظر إليه أبوه وقال:

ـ مرحباً بك أنت أيضاً، فلقد شعرت من ترحيبك أن هناك حديثاً ما تريد أن تفضي به إلي؟

وابتسم حامد وقال:

ـ نعم يا أبي! فخالتي كما عرفت وتحققت تحبك كثيراً لدرجة جعلتني أحس بأنها تريد أن تزفك لأخرى غيرها..

ونظر إليه وقال:

ـ ولكن لماذا؟

قال:

ـ لا شيء إلا لأنها ترغب في أن ترى البيت وقد امتلأ بالأطفال الذين حرمتها الظروف وحرمتك أنت منهم أيضاً.

وابتسم ثم تابع نظراته في وجه خالته التي رأى الهلع والشحوب يبدو جلياً على صفحات وجهها، وتابع قوله:

ـ ولكني وبعد حديث طويل استطعت أن أقنعها بأنك مكتف بوجودي ولا تطمع في أن ترى غيرها في هذه الدار أليس كذلك يا أبي؟

ـ لا أدري يا بني.

قالها الأب، ولكن دعونا من هذا الحديث بعضاً من الوقت، فقد حان وقت العشاء، وأنا في مزيد من الحاجة إلى الأكل بعد عمل شاق وطويل ومضن.

وعلى المائدة عاود الأب حديثه قائلاً لزوجته:

ـ ثقي بأنني بمقدار ما أحب حامداً أتوق إلى دزينة من الأولاد يؤنسونه عندما يكبرون ويساهمون في إسعادك، لكنها إرادة الله جعلتكِ عقيماً فلم تنجبي، ومع هذا لم أفكر في الزواج مرة ثانية.

وضحك ثم تابع قوله:

ـ لكن حديثكما أنت وحامد أثار شهيتي للزواج، فأنا أطمع في أن أتزوج واحدة من الشركسيات، فلربما أعطتني هذه الشركسية ما أرغب وترغبين، فما رأيك؟

ونظرت إليه مرة، وإلى حامد مرة أخرى دون أن تنبس ببنت شفة. لكن زوجها قال:

ـ أوتصدقين بأنني أعرف مدى الإزعاج الذي تسببينه لحامد الذي اختار الصمت دون أن يفصح عمّا يعتمل في نفسه حباً لي ولك أيضاً؟ لكنك كنت لاهية وكنت تظنين أنني لا أدري أو حتى أعرف.

لقد حاولت أن أتجاهل الأمر كثيراً، لكنني وبعد أن سمعت ما سمعت، رأيت أن أقولها في هدوء، فحامد هذا ليس ابني فقط، وإنما ابنها هي التي أحببتها كثيراً ولا أزال أذكر أيامي الجميلة معها.

وقاطعه ابنه قائلاً:

ـ ولكن يا أبي!

ـ ولكن ماذا يا حامد؟

ونظر حامد إلى خالته وقال:

ـ لكنها هي الأخرى تحبك، وأعني خالتي، كما أنني لا أشك في أنها تحبني أيضاً، ولكن بطريقتها هي. ومع هذا، فأملي أن يكون كل ما سمعت قد ذهب مع الريح، فأنا أحبها يا أبي رغم كل ما فعلت، وحبي هذا نابع من أنها تحبك أنت.

وابتسم، فابتسم أبوه وقال:

ـ أوسمعت ماذا يقول حامد؟ فهو على ما يبدو أكثر قدرة على المحبة؟

وأجابت بهزة من رأسها، وقالت:

- ربما كنت على حق، فأنت في حاجة لمن تنجب لك غيري، وإذا فعلت ذلك، سأسامحك. أما حامد فكل الذي أرجوه هو أن ينسى الماضي.

وأجابها:

- ولكني لن أفعلها، لا لأنني لا أحب الأولاد، وإنما لأني لا أريد تجربة جديدة يعاني منها حامد ما عاناه، أوليس هذا صحيحاً؟

وصمت، فساد السكون الغرفة بعضاً من الوقت، قطعه رنين التلفون الذي أمسك به والده ليجيب عليه ثم يعطيه إلى ابنه، الذي يمضي في حديث خافت حتى إذا ما انتهى قال له أبوه:

- ومتى تريدنا أن نذهب لنخطبها يا حامد؟

وأجاب حامد في هدوء:

- في الوقت الذي تريد يا أبي..

والتفتت إليه خالته وقالت بحنان:

- ومن هي هذه التي تريد أن نخطبها؟

وأجاب حامد في هدوء:

- ابنة أختك سامية، التي تعرفينها.

ونظرت إليه خالته شاكرة وقالت:

- هكذا أنت تثبت في كل يوم أنك إنسان كريم المنبت، وهذا يعني في الحقيقة أنك ابنها هي التي أحس بأنني أحبها وأحبك وأحب هذا الرجل العجوز الذي منحني ابناً مثلك دون أن أدري. قد أكون فعلاً قد أسأت إليك عن جهل، لكنك على ما أرى أكبر من ذلك كله.

وطوّقته بذراعيها وكأنها تحاول أن تعوضه الحنان الذي افتقد، والأيام التي ضاعت، ونظرت إلى عينيه، فرأتهما مخضلتين بدموع الفرح، فقد عادت السعادة ترفرف على هذا البيت رغم غيابها، تلك الأم التي أنجبته ثم مضت هكذا دون وداع، لكنه وفي هذه اللحظة يشعر بشيء من الحنان يدغدغ إحساسه بعد أن ظل فترة من الزمن يعاني من أجل الوصول إليه.

ترى هل سيفتقد أمه كما افتقدها وهو صغير أم أن الزمن كفيل بأن يداوي جراح الأيام ببلسم النسيان الذي أراده الله لإنسان هذا الكون، حتى يستطيع أن يشق طريقه في الحياة؟

ونقل ناظريه بين خالته وأبيه فرأى البسمة تحيط بوجهيهما، والبشر يطفح من قلبيهما، فخفق قلبه هو الآخر بحب عارم، أخذ يظهر بوضوح وجلاء على وجه الشاب الذي أخذت معالمه تطفح بالسعادة التي افتقدها وهو صغير، والحب الذي كان يسعى إليه حتى إذا ما وجده عب منه كالعطشان عندما يصل إلى غدير الماء.

فشواطىء الحياة وغدرانها وجداولها وزهورها وورودها ورياحينها إنما خلقت لتصنع جسور الأمل في النفوس البشرية التي ترمق الأمل في أصالة وحب وعطاء أيضاً.

زهور البنفسج

وتموت أزهار القرنفل تحت وطأة حرارة الشمس القائظة، فشهر آب اللهاب قد ارتحل نصفه، وهو على ما يبدو أشد قسوة ولهيباً من مثيله في العام الذي انصرم.

وتبدو أشجار البستان العالية وقد اكتست خضرتها رغم شدة الحرارة بألوان حمراء زاهية.

كان بين الأشجار ينتظر عودة ابنته في نفاذ صبر، فلقد تعب كثيراً لتصل إليه سهى، أو الدكتورة سهى، كما يحب أن يناديها، لكنها بعد أن تلقت شهادة تخصصها انصرفت في وَلَه إلى عملها كطبيبة في المستشفى الجامعي بجدة.

كم كان يفزع عندما تتأخر وهي صغيرة، أما اليوم وبعد أن توفيت زوجته أصبح أكثر حرصاً وفزعاً عليها، لا لأنها وحيدته، وإنما لأنه يراها تبذل من جهدها من أجل المرضى ما ليس في مقدورها هي الرقيقة أن تفعل.

وسمع رنين جرس الباب، فسارع إلى فتحه دون أن ينتظر خادمه أن يفعل، ليواجه بها وبسمة الأمل على الوجه الأسمر الدقيق القسمات.

ونظرت سهى إلى أبيها وقالت:

ـ ماذا تفعل هنا يا أبي؟

وأجابها في هدوء:

ـ أنتظر عودتك كعادتي.

ـ ولكنني كبرت وأصبح من حقك أن تطمئن، فكثيراً ما يؤخرني عملي من أن أعود في الوقت الذي تعرف.

وابتسم ابتسامة رقيقة وقال:

ـ مع ذلك فسأظل أنتظر حتى ذلك اليوم الذي يعود فيه سمير من دراسته، ويمضي بك إلى بيت الزوجية.

ودخلت الدكتورة سهى إلى صالة الفيلا بعد أن أمسكت بيد والدها وقالت:

ـ صدقني يا أبي إن قلبي يحدثني بأنني لن أقترن بسمير.

والتفت إليها قائلاً:

ـ ولماذا تقولين هذا؟

وأجابت سهى:

ـ قلبي يحدثني بهذا، خصوصاً بعد أن نلت شهادة تخصصي، وأصبح هو يتعثر في دراسته.

وأمعن التفكير لثوان، ثم قال:

ـ ولكنه يحبك..

ـ قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكني أعرف سميراً أكثر منك. فهو وإن كان ابن عمي إلا أنه أناني التفكير ينظر إلى الحياة من زاويته الخاصة.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ عرفته منه، فلطالما ثناني عن أن أكمل دراستي بلا جدوى، ولقد تحدثنا كثيراً عن ذلك، وقلت له: سأظل أنتظرك وفاء لوعد أمي، فأنت أعرف بحب أمي لأم سمير أختها، ولكنني في الوقت نفسه أحلّك من وعدك، إذا رأيت أنك لا تستطيع أن تستمر في دراستك، أو وجدت من هي أنسب مني لك.. وها هي ذي السنوات تمر به وهو في أمريكا، يحاول أن يأخذ شهادة الماجستير في الهندسة دون أن يصل إليها، بينما عاد أكثر من زميل له.

وصمتت، فقال:

ـ وماذا بعد؟

هناك أمر آخر لم أود أن أذكره لك، فصديقتي الدكتورة ثريا قالت لي عندما عادت من زيارة أخيها في هيوستين بأنها عرفت عن سمير أشياء كثيرة.. فلقد صادق واحدة من بنات جامعته جاءت من السويد في رحلة دراسية، وأصبح كل واحد من زملائه يعرف هذه الحكاية، ومع هذا لم ألتفت لما قيل حتى هذه اللحظة، لأنني وفية لوعد قطعته أنا وأمي، انظر كم من الشهور قد مرت، ولم أتسلم أو تتسلم أنت رسالة منه، أليس في هذا الدليل على أنه قد نسي أو تناسى الأمر؟ ومع هذا آمل أن ينال شهادته ويعود معها أو بمفرده، فأنا أخاف عليه من الضياع.

ـ أوتحبينه يا سهى؟

ـ لا.

قالتها في حزم وتابعت:

ـ لكننا في مجتمعنا، كما تعرف، نضع قلوبنا جانباً بعض الوقت، لأننا نؤمن بالإلفة، ونرى أنها طريقنا إلى الحب، ولهذا أجدني سعيدة، وسعيدة جداً، فلا تشقِ نفسك بالتفكير في أمر سمير ما دمت أنا لا أفكر إلا في نتائج ما أصنع لهؤلاء المرضى.

وانفلتت إلى غرفتها بعضاً من الوقت، عاد هو بعدها إلى الحديقة، يرمق زهور البنفسج، وقد ذبلت نتيجة حرارة الشمس.

ترى أويمكن لهذا القلب أن يهدأ ويستقر؟ فسنوات العمر التي مضت قد تكون جديرة بأن لا تنسى فجأة.

الإنسان أشبه بصفحات خطتها يد القدر في تنميق عجيب يكاد يذهل له حتى أولئك الذين خبروا نعم الحياة وبؤسها أيضاً.

ويعود لذكرياته يستجمعها أمام ناظريه كشريط رقيق اللقطات، تبرز معالمها في رتابة حيناً، وفي قوة أحياناً أخرى، ويستجمع قواه ليرى مكانه في هذه الدنيا بعد أن مضت زوجته وتركته مع الصغيرة التي كبرت. سنوات من العمر سعد خلالها بقدرته على أن يسير في طريق إسعادها في إيمان من يعرف أن

طريق الحياة وإن كانت ملأى بالأشواك، فهي أيضاً تبدو في كثير من الأحيان جميلة ومشرقة، وجمالها وإشراقها يظهران عندما يستطيع الواحد منا تحقيق أهدافه.

لقد منحه الله المال والجاه وأصبح من واجبه أن يؤدي فريضة هذا العطاء، فعلى الرغم من أنه قد افتقد حنان زوجته إلا أنه يشعر بوجودها دائماً، فهي تطل بروحها عليهم. صحيح أن زواجه تم دون أن يراها، فقد كانت التقاليد تحول دون أن تمنحه أو تمنحها ذلك الحق، لكنه يشعر بأنه بعد أن رآها أولع بها لدرجة جعلته يدرك بأن كل شيء جاء وفق رغبته. وهو يقارن بين أيام أيام زواجه وهذه الأيام فيرى الفارق كبيراً، فلقد تطورت الحياة في بلده، وأصبح من حق الخطيب والخطيبة أن يريا بعضهما بعد أن كان مجرد طلب مثل هذا الأمر جريمة لا تغتفر.

وجاء قران أخيه بأختها تتويجاً لهناء عائلي عاشت خلاله الأسرة أجمل أيام حياتها حتى ذلك اليوم الذي بدأت تذبل فيه زوجته كأزهار القرنفل، وهي تحس بلسعات أشعة شمس أغسطس الحارقة يوم ماتت، كان يحس بأنه قد فقد شيئاً كبيراً وهاماً.

لكم حاول الكثير من أجل أن تشفى، لكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولقد أغفت زوجته ليلتها بعض الوقت ثم فتحت عينيها وهي تبتسم، وأخذت تتحدث إليه عن حياتها معه وعن طفلتهما سهى، ولقد قالت له الكثير، وطلبت منه ما كان هو على استعداد أن يمنحه.

وهو يذكر حديثها عندما قالت:

ـ لن أطلب منك أن لا تتزوج، لأنني أعرف بأن من الصعب عليّ أن أطلب ما أطلب. لكنني أرجو وألح في الرجاء، أن يكون لك ذلك بعد أن تكبر الصغيرة..

ولقد عاهدها على أن يفعل، وها هوذا قد أمضى أكثر من اثنتي عشرة سنة على وفاتها، وهو بجانب ابنته، يرعى نموها في حب يكلأها برعايته لدرجة جعلت الصغيرة تحس بعظم تضحيته من أجلها.

ولكم أحس بالسعادة وهي تكبر مع ابن عمها وخالتها في آن واحد، حتى

إذا ما افترقا، كان كل واحد في الأسرة يعرف أن سهى لسمير، إلا سهى نفسها، فقد كانت ترى أنها لن تتزوجه.

ويوم تحدثت إلى أخته، كانت تظن بأن هذه ستنقل حديثها إليه. فلقد شعرت سهى بأن سميراً بعد أن كبر أصبح غير قادر على إعالة أسرة، فهو يعتمد كل الاعتماد على مال أبيه، وهي من نوع مغاير، فلقد جدت واجتهدت، وواصلت دراستها لتصل إلى درجتها العلمية التي أهلتها لأن تكون واحدة من طبيبات المستقبل في مدينتها الكبيرة.

كثيراً ما تتباين الأفكار بين الصغار والكبار، لا لأن حقائق الحياة ذاتها أكبر تبايناً في زمن من الزمن الآخر، وإنما لأن نظرة الإنسان إلى هذه الحقائق قد تختلف في معناها عن الإنسان الآخر، وسهى رغم رقة مظهرها تحمل قلباً وعقلاً يعرف كيف يخط مستقبله بيديه، ولهذا فقد عقدت عزمها على أن تنأى بنفسها عن الارتباط بسمير، بعد أن عرفت ما عرفت. ذاك رأيها، وهو يعرف أن ما تقوله سهى ليس بالأمر الذي يمكن أن ينقض، فهي إلى كونها أنها ابنته المدللة لكنها مع كل هذا تتمتع بحس وفهم دقيقين يجعلانها قادرة على معرفة الطيب والرديء.

ترى متى يقدر له أن يرتاح؟ ولهذا يقولون بأن الآباء دائماً يعيشون في صراع عقلي ونفسي، وكأنهم يبحثون عن المخرج الذي يستطيعون عن طريقه الوصول إلى الراحة، وراحته كما يبدو أن تتزوج ابنته، ولكن هل هناك من يستحقها؟

والتفت ليستمع إلى صوت سهى وهو يقول:

ـ نعم يا أبي!

ونظر إليها بنحو وقال:

ـ أوتقرئين أفكاري؟

وضحكت سهى قليلاً، ثم تابعت حديثها، وهي تقول:

ـ أونسيت أنني كنت المجلية في دراسة علم النفس؟ لقد ظللت أكثر من عشر دقائق أرمق حيرتك وأقرأ كل كلمة تهمس بها إلى نفسك، لأن هناك أكثر

من خيط يشدني إلى أن أفعل، ولقد كنت خلال تلك الدقائق تجنح بأفكارك في أكثر من روض حتى وصلت في النهاية إلى ما وصلت، فجئت أجيب عن تساؤلك بأن هناك الكثيرين الذين تستحقهم سهى، فابنتك من طينة تعرف كيف تختار يوم ترى أن الوقت قد حان للاختيار، فلا تحزن يا أبي.

انظر إلى وجهي لترى كم أنا طيبة، وفوق كل هذا وذاك، فأنا ابنة رجل كريم مثلك، عرف كيف يغرس الفضائل في نفس ابنته.

وصمتت، لكن صمتها لم يدم طويلاً بل امتدت يدها لتطوق عنق أبيها في حنان ذكَّره بما كانت تفعل زوجته يوم يأتي لها بهدية على حين غفلة، وأشرق وجهه وأطلت البسمة على شفتيه، ومضى يهدهد ابنته كطفلة فترة من الوقت خالها من أجمل وأصفى فترات حياته، فها هي ذي سهى كعادتها تتصرف معه كطفلة، لا كطبيبة، ونظر إلى وجهها، وقال:

ـ أراك مشرقة الوجه لدرجة تجعلينني أحس بأن هناك أشياء تودين أن تقوليها لي، ولا تقولينها.

وهزت سهى رأسها إيجاباً وقالت:

ـ لم يحن الوقت بعد لأدلي بما أريد أن أقوله، لكن ثق بأنني سأستمع إلى رأيك عندما يحين الوقت، فأنا على ما تعرف، أنتظر عودة الغائب الذي أرادت أمي أن يكون رفيق دربي دون أية رغبة أو إرادة مني، وعندما يعود سأجد نفسي في حل من وعدي، لأنني أثق بأنه لن يعود بمفرده.

ونظر إلى وجهها وقال:

ـ وكيف تسنى لك أن تتأكدي مما تقولينه؟

قالت:

ـ قد يكون حدسي وتخميني أقوى من أي حدس، ولهذا تجدني واثقة من كل ما قلت.

ـ أوتعرف يا أبي بأنني بت أكثر سعادة بتحللي من ذلك الوعد الذي قطعته أمي على نفسها لأختها؟ فابن عمي على ما يظهر منحني هذه السعادة دون أن يدري.

- وهل هناك غيره يا سهى؟

- أوتصدق إذا قلت لك بأنني مشغولة بعملي، شغوفة به، لكنها الحقيقة. ومع هذا فأنا كأنثى أنتظر فارس أحلامي الذي أثق أنه سيأتي في الوقت المناسب، فلا تقلق. إن سنوات الزواج تغيرت مقاييسها في هذه الآونة من تاريخ حياتنا. ولهذا فلا عليك، فلن أبقى عانساً كما يقولون.

وضحك وضحكت هي، ثم مضت إلى غرفتها، تتهيأ للخروج في زيارة لصديقة كانت قد وعدتها على اللقاء.

ويظل هو في مكانه يرمق الأفق بنظرات حائرة..

صحيح أن سهى قد وصلت إلى مركز علمي مميز، لكن جميع كل هذه المراكز العلمية تتضاءل أمام عينيه وهو يراها بملابس العرس البيضاء تتبختر بين وفود المدعوين، وابتسامة الرضى تبدو على قسمات وجه أمها ذلك الذي يبدو وكأنه يتابع حركاتها من بعد.

مساكين هؤلاء الآباء يتعبون كثيراً في تربية أبنائهم، حتى إذا ما كبروا ظنوا أنهم قد استراحوا بعضاً من الوقت من هذا التعب، ولكنهم في تفكيرهم هذا في أكبر خطأ، فمشاكل الأبناء تكبر دائماً مع نموهم.

ويمضي إلى غرفته ليتأمل وجهه الذي أخذت التجاعيد تظهر فيه حول عينيه، وكأنها تشير إلى سنوات العمر التي أمضاها، ويتنهد، ثم يمعن تفكيره في المستقبل، فهو يأمل أن يرى أحفاده يلعبون أمام عينيه كما لعبت سهى.

ويرن جرس التلفون ليأتيه على الخط صوت أخيه وهو يقول في لهجة شابها الكثير من الاعتذار:

- أوتصدق بأن الخائن قد عاد؟

ويحاول أن يعرف من يعنيه أخوه، فيقول:

- ومن هو؟

- ابني وابنك..

- تلك مناسبة طيبة فقد طالت الغربة..

ويرد صوت أخيه قائلاً:

ـ ليته لم يعد. .

ـ لماذا؟

ـ لأنه لم يكن بمفرده. .

ـ ومن معه؟

ـ أميركية يقول إنها زوجته وولدان. . .

ويضحك في صمت، ثم يقول:

ـ لا عليك يا أخي.

ويرد أخوه:

ـ والوعد الذي قطعته أم سهى وأمه؟

ويجيب:

ـ تحلل منه الاثنان، فلا تحزن.

ويستغرب أخوه كلماته تلك، فيقول:

ـ ألست منزعجاً كما هو الحال معي؟

ـ لا. .

قالها في هدوء.

ـ وكذلك سهى فهي تعرف كل شيء. .

ـ ولماذا لم تقل لي أنت أو هي أيضاً؟

ـ تركنا ذلك للأيام. وها أنت اليوم وقد عرفت كل شيء، فلا تدع ما يجري يغير عودة ابنك إليك، ولكن. .

ـ ولكن ماذا؟

ـ المهم أنه قد أنهى دراسته.

ـ يقول إنه سيعود لينال الدكتوراه. . .

ـ لا بأس. وإن كنت أرى غير ما يراه، فالذي يبقى طوال كل هذه السنوات ليحصل على شهادة الماجستير غير حري بأن تصرف عليه سنوات أخرى من أجل الشهادة الكبيرة. دعه يعمل، فقد يستطيع عن طريق العمل أن

يصل إلى ما يريد.

ـ وسهى، وأنت، ألا تودان القدوم لرؤيتنا؟

ـ ذاك أمر يجب أن نقوم به، لكن سهى خارج البيت، وعندما تعود سأتفق معها على موعد الزيارة.

وأقفل سماعة التلفون في هدوء، وكأن شيئاً لم يكن، ومضى يرمق الفضاء من وراء زجاج النافذة، فلقد تحللت سهى من وعد قطعته أمها على نفسها، ولم تكن ترغب أن تتحلل منه رغم أنه لا تريده، لكنه القدر يصنع للإنسان في بعض الأحيان ما يريد وما لا يريد.

ونظر إلى زهور البنفسج فوجد أوراقها التي ذبلت قد بدأت تخضر وتزهو باخضرارها بعد فترة موات جد قصيرة.

إنهم يقتلون العصافير

وتتهادى على الطريق في مشيتها المترنحة، تلك التي اختارتها عن عمد وشبه إصرار، فهي تعرف بأن الطريق مليء بالعيون التي تلتهم الأجساد الفارهة تلمحها ثم ترقبها وعندما تراها ثانية تطبق عيونها عليها في حلم مستفيض. لكنها مع كل هذا تعرف غايتها وهدفها، فالدنيا بكل ما فيها من جمال لم تكن قبل سنوات تساوي في نظرها شيئاً. كانت أمراً مملاً ثقيلاً، أدركته بثاقب نظرتها، فلو أنها ظلت كذلك لبقيت مجرد كمّ مهمل تعيش في الزوايا، تلملم الذكريات من هنا وهناك.

ففي هذا العالم الغريب المضطرب عاشت حياتها في بيت يضيق بزواره في مكان ما، من أقدم حارة من حارات نابولي القديمة تبحث عن ذاتها في زوايا المدينة القديمة وعلى الشاطىء الكبير المملوء بالقوارب الزرقاء، فلقد تعود المهربون استخدام هذا اللون ليكونوا بمنأى عن رجال البوليس أثناء المطاردة، وهي تعرف معنى أن يقبض البوليس على مهرب أو خارج على القانون، فلقد مرت بهذه التجربة فلا تنسى ذلك اليوم الذي أمضت نصفه في مركز من مراكز البوليس لأنها تسترت على مهرب استطاع أن يوقعه القانون في حبائله فأفشى سر مشاركتها له، فكان نصيبها التوقيف، ولقد عرفت يومها أن الطريق الذي تسير فيه لن يوصلها إلى أهدافها، فقد كانت تحمل قلباً يملك بالإضافة إلى مقومات الشجاعة والطموح الكثير من الأماني والأحلام.

إن الفقر والحاجة يولدان في الإنسان قدرة عجيبة على الانعتاق في إطارهما إذا كان الإنسان من طينة تعرف طريقها في الحياة.

وهي صنف جيد عايش الأحلام حتى إذا ما كبرت قفزت على حواجز الفاقة لتنطلق إلى حياة أرحب وأفضل. ففي مدينة لندن التي اختارتها مقاماً جديداً كان دورها هذه المرة مغايراً لدورها السابق، فلقد أمضت أربع سنوات استطاعت خلالها أن تجيد هذه اللغة وتتعلم آدابها في الوقت الذي كانت تمضي بعض وقتها في اكتساب رزقها بعرق جبينها كمضيفة في فندق صغير.

ولقد تنقلت من فندق إلى فندق، وهي في انتقالها هذا كامرأة تحاول أن تغير مواقعها على هذه الأرض حتى استقر بها المقام أخيراً في فندق هيلتون الرابض على مقربة من حديقة هايد بارك.

ولقد منحها عملها فرصة أن تثقف، فبدأت تقرأ وتقرأ وتسجل ملاحظاتها عن كل أولئك الذين يقابلونها في الفندق الكبير وكأنها تستعد بكل هذه الثقافة للرحلة الجديدة من مراحل حياتها.

وهي تعرف أن أضواء الشهرة لا يمكن أن تأتي بدون جهد. وتعود بالذكرى، وهي في الطريق إلى شارع جينزا بمدينة طوكيو التي تحبها. . فهذه المدينة استطاعت أن تمنحها جميع مقومات السعادة وتنسيها ظروف الأمس القاسية. لم تكن المصادفة وحدها السبب في وصولها إلى هدفها لو لم تملك تلك الوهبة التي وظفتها من أجل أن تصل إلى ما وصلت إليه.

وهي إذ تستعيد ذكرياتها تلك، ترى بعين الخيال حياتها في نابولي وخروجها أو هربها على الأصح على ظهر باخرة شحن صغيرة إلى إنجلترا ومواصلة رحلتها في المدينة التي استقرت فيها ثمانية أعوام متتالية كانت خلالها لا تدري شيئاً عن أسرتها التي عاشت معها سنوات الطفولة وصدر الصبا.

وقد يكون من الصعب على فتاة، أية فتاة، أن تتحدث عن الماضي في حرية لكن ظروف الحياة التي تعيشها الأنثى في المجتمعات المفتوحة ولا سيما التي فقدت القدرة على صيانة حياتها تمنعها من أن تتحدث عن هذه الظروف مهما كانت قاسية ومميتة ومملة وتافهة في كثير من الأحيان، لكن ما يشغل بالها اليوم أنها ليست الوحيدة في هذا الكون الذي يمتلىء بالعديد من الرجال

والنساء شاءت ظروفهم بأن يكونوا أسرى هذه الظروف.

لطالما قرأت في مكتبة المدينة عن المدينة الفاضلة التي لا يمكن لها أن تكون.

كثيراً ما قرأت عن الطوفان والأعاصير والبراكين التي اجتاحت مناطق كثيرة من العالم نتيجة ظلم الإنسان، لكنها لا تنسى بركان بومبي، المدينة التي مات كل سكانها في طرفة عين، وهي تعرف المدينة لأنها قريبة منها أكثر مما تتصور.

ولهذا تجد نفسها أكثر إحساساً بالضآلة عندما تتعرف إلى تضحيات الآخرين.

ولقد تذكرت وهي تقرأ قصة بركان بومبي عمتها التي تعيش هناك. هل تعرف هذه العمة معنى بقائها على أرض التُهَم كل سكانها فجأة؟

لا تدري. وقد كان بودها أن تعرف، فالمعرفة أول طريق للوصول إلى الحقيقة التي كانت ولا تزال تبحث عنها في تجوالها الطويل والقصير معاً.

وهي تعرف معنى أن تكون الفتاة، أي فتاة، جميلة مثلها. ولهذا ترى أن الجمال قد يكون في بعض الأحيان وسيلة سعادة، وقد يكون في أغلب الأحيان وسيلة شقاء.. ولقد أشقاها جمالها فجعل الكثيرين ممن يعرفونها يرغبون فيها، لكنها كانت تبحث عن هدف، حتى إذا ما وجدت الطريق إلى الهدف تخلت عن الجميع دفعة واحدة وبسهولة من يلقي بالثوب في أدراج الدواليب بعد سهرة من السهرات، وتنظر إلى المرآة لترى أن الوجه الإيطالي المعبّر لم يتغير رغم قسوة الحياة وليونتها، فهي وكأنها كانت في حواري نابولي.. تغني مع الوافدين أغاني البحر والسماء والشباك والصيد:

«ونلقي الشباك..

لتلتقي بوفرة من الأسماك النادرة..

جاءت بحثاً عن الرزق..

فتصطادها الشباك..

الشباك التي صنعتها المرأة..

واستخدمها الرجال..

في غزوة العمر..

بحثاً عن الرزق..

في بحر نابولي الأزرق..

الذي يعبق ريحه بعطور النساء..

ورياح الزهور التي تبحث عن الظل..

على مقربة من الجزيرة الخضراء..

اسكيا الجميلة.

البحر والمرأة توأم صيد ويُصاد».

وهي تعرف هذه الحقيقة، فلقد جسدتها في وعيها الباطن صورة صادقة لحياة عاشتها أمها هناك.. وأبوها وأخوتها وكل من أحبت ثم حاولت أن تنساها دون جدوى لأن كثيراً من الذكريات يحفرها الزمن بإزميل في صدور أولئك الذين أحبوها.

أما اليوم، فلقد تغير الحال وأصبح الأمر شيئاً آخر غير ما كانت عليه الحياة يوم كانت هناك. هي تعرف بأن ظروف الحياة أقوى وأقدر على رسم خارطتها على الأرض بأسلوبها الذي تجيد.

لقد منحت نابولي المدينة المرأة الجميلة والشاعر والفنان لكنها امتازت أكثر بجمال نسائها اللواتي أصبحن مضرب الأمثال في كل مكان في هذا العالم.

فكل نساء إيطاليا الجميلات، ولدن في حواري هذه المدينة أو في القرى التي تجاور تلك المدينة.

لكن نابولي على جمالها وجلالها تستمد مقومات جمالها من شوارعها التي امتازت بصفوة من أشجار النخيل الباسقة زرعها العرب يوم كان للعرب أمجاد في كل مكان من هذا العالم المضيء.

قد تكون المعاناة الصعبة التي لقيتها طوال سنوات الصبا المبكر وسيلتها لاقتناص فرصتها من وراء أنياب الأسود كما يقولون، وإلا فما الذي يمكن أن تقوله؟

وتغرق في تأملاتها لترى وجه ذلك الرجل العجوز الذي وفد إلى الفندق مع مجموعة كبيرة من حواشيه ورجاله حتى إذا ما قدر لها أن تلتقي به وتتعرف إليه وتعرف ماذا يصنع قدمت له روايتها التي كتبت.

ولقد قالت له يومها:

ـ قد لا تكون ظروف بقائك هنا تسمح لأن تلقي على ما كتبت سوى نظرة عابرة، لكنها، وأعني هذه النظرة، تكفيني لأن أعرف طريقي في هذه الحياة.

ولقد طمأنها الرجل كناشر كبير في مدينة طوكيو بأنه سيفعل، وانتظرت هي على أحر من الجمر ثلاث ليال قاسية، أمضَّها السهر وعذبها فيها الأمل، وهي تنتظر، حتى إذا ما واجهته هو في طريقه من خارج غرفتها أمسك بيدها وقال:

ـ هذه هي بطاقتي، فلقد أعجبني ما كتبت، لكني سأبعث لك برأيي في الطريقة التي يمكن أن أنشر بها الرواية، فإذا قبلت أمكن لي أن أدعوك لزيارتي في طوكيو..

ـ ولكني لا أملك قيمة التذكرة إلى هناك، كما أن تكاليف بقائي فيها قد يكون عسيراً علي.

ـ لا عليك، تلك أمور سأرتبها أنا بعد عودتي..

ولقد عاد إلى بلاده، وعادت هي إلى انتظار المجهول، حتى إذا ما وصلت دعوته بادرت إلى تلبيتها في شوق.

وفي طوكيو المدينة قدمها الناشر إلى رجالات ونساء الأدب في بلاده ككاتبة جديدة. ولقد بهرتها الأضواء، وشاقها أن تعيش كل هذه الليالي في سعادة، وخافت أن تضيع فجأة لكن كتابها أو روايتها التي اختارت عنوانها «إنهم يقتلون العصافير» كانت الوسيلة لأن تعيش عيشة أصحاب الحياة والنفوذ.

فلقد اشترى الناشر بعض حقوق طبع الرواية وترك لها جزءاً من مداخيل التسويق، ويوم وصلتها رسالة البنك الذي أودعت فيه نقودها هالها ذلك المبلغ الذي أودع في حسابها، فملايين الينات اليابانية قد وضعت في حسابها وهي في بداية الطريق.

كثيرة هي هذه العصافير التي تُقتَل في هذه الدنيا، لكن عصافيرها كانت من

نوع يملك القدرة رغم عوامل الجفاف التي أصابت قريتها القريبة من مدينة بومبي الإيطالية التي اجتاحها الطوفان، فلم يُبقِ من سكانها أحداً قادراً على التحليق في أجواء المغامرة الكبرى التي بدأتها في سن مبكرة..

يقولون إن الصدق في التعبير يمنح الكلمة أبعادها التي يرغب كاتبها أن تكون، وهي عندما كتبت روايتها، لم تنس هذا الصدق فأوضحت خطوطه في سطورها الكثيرة.

لكن عصافيرها التي أرادوا قتلها استطاعت أن تفلت من شباك صياديها..

ترى هل يكفي أن تكون على ما هي عليه أم أن شهيتها للشهرة قد تتفتح؟ وعندما تتفتح شهية الكاتب أو الكاتبة تزداد قدرتهما على الإنتاج، وهي في الطريق تملأ مخيلتها أفكار جديدة قد تمنحها العطاء الذي قدرت على إيصاله إلى القراء عبر قصتها أو روايتها الأولى التي ما فتئت تذكر كل حرف فيها، لأنها قصة حياتها هي، زوقت بعض تفاصيلها وأغرقت في وصف بعض هذه التفاصيل أيضاً.

قد يكون خيالها الخصب قد منحها القدرة لأن تحلق في أجواء هذه الدنيا عبر رحلة العمر التي أمضتها، أما اليوم بعد أن نالت ما نالت، هل تستطيع أن تعاود رحلتها مع العصافير التي يقتلونها؟ ذاك أمر يجعلها تنظر إلى الحياة من زاوية جديدة كل الجدة، فكما أن الحرمان في حد ذاته وسيلة لقدح الأفكار فإن في الشبع أيضاً صورة جديدة يمكن أن تلتقطها من هنا في هذا الشارع الذي يمتلىء بأفواج من الناس، كل منهم جاء لغرض.

وهي اليوم تمضي في مشيتها المترنحة، بحثاً عن قصة يمكن أن تمنحها مزيداً من المجد قد تكون في حاجة إليه أكثر من ذي قبل.

وأحست بمزيد من الراحة عندما وقعت على اسم الرواية الجديدة، فمن مشيتها المترنحة أخذت اسمها واختارته ليكون كتابها الثاني أو خطوتها الثانية نحو المجد والمال والشهرة..

وتتهادى على الطريق في مشيتها المتأنية أشبه بإنسانة جديدة غير تلك التي كانت مشيتها تترنح عن عمد وسابق إصرار.

الحياة ملأى بأنواع كثيرة من العظات والعبر، وهي تعرف هذا، تعرفه وتحس به في وجوه الكثيرات.

لكن أكثر الناس يحاول أن ينسى في غمرة البحث عن لقمة العيش كل القصص التي عاشها أو عايشها، إما لأن الوقت لم يحن لأن ينقل تفاصيل ما يعرف وإما لأنه لا يعرف من أين يبدأ.

وهي تعرف بأن الأقدام التي عرفت كيف تمضي في الطريق في صلابة رغم جميع المحاذير والأشواك وعثرات الطريق، لا بد وأنها قادرة على الاستمرار ليس بحكم الاندفاع أو التهور، وإنما لأن من عرف الطريق يعرف كيف يسير فيه.

وهي وإن كانت تجربتها الأولى في عالم القصة فريدة ومميزة لأنها بدأت من الصفر، لكنها تؤمن بأن حلاوة الوصول إلى الهدف لا يمكن أن يعادلها حلاوة. وتعود مرة ثانية إلى مشيتها المترنحة لترى وجوه الناس وأعينهم تترشقها بفضول بينما كانت عيناها ترمق الوجوه وكأنها تريد أن تقرأ في كل العيون فصول روايتها الجديدة التي تحاول أن تمسك بخيوطها في باطن أعماقها، وتنظر إلى الخلف لترى صديقها الياباني العجوز يناديها في هدوء فتلتفت إليه ضاحكة حتى إذا ما واجهته قال:

ـ أوتعتقدين أنهم هنا في شارع جينزا يقتلون العصافير؟

وضحك فقالت:

ـ ربما لا، وربما نعم، لأن الناس في كل مكان وزمان يتشابهون في الصفات والعادات، فالحياة التي عشت جعلتني أعرف معنى قتلنا لهذه العصافير الجميلة.

وضحكت، فقال:

ـ وماذا بعد؟

ـ لا جديد سوى أنني أفكر..

ـ وفيم تفكرين؟

ـ في روايتي الجديدة التي أسميتها (المترنحة)..

ونظر إليها الرجل نظرة فضول سرعان ما تحولت إلى ما يشبه الأمل في أن يعرف تفاصيل روايتها. لكنها لم تجد من المناسب أن يمضي الحديث على قارعة الطريق فاختارت ركناً قصياً في المقهى الصغير لتقص على ناشرها فصول الرواية وأحداثها وكأنها تقرأ في كتاب مفتوح. فشد على يدها وقال:

ـ سأمضي الآن وأنا في قمة السعادة لأنني استطعت أن أقدم للقارىء روائية جديدة تستطيع أن تستمر في العطاء الأدبي بأسلوب متجدد ويقظ.

ومضى وهي تنظر إليه في بلاهة وقد غاب عن ناظريها في الطريق، وفصول الرواية الجديدة تلتمس أبطالها الخروج إلى النور في أشكالهم الجديدة والمثيرة أيضاً.

وهي معهم تنتظر.

عندما تتراكم الأخطاء

«كلارا» فتاة في عمر الورود التي بللتها زخات المطر الخفيفة في حديقة ملأى بالزهور.. كل ما فيها ينبض بالجمال، ويمنح ذلك المسافر الذي يريد الراحة ما افتقده..

ترى أين هي الآن؟ وماذا تصنع؟ ولماذا تظل صامتة لا تنطق بحرف ولا تبعث برسالة؟

أونسيت تلك الصغيرة كيف كان يدللها ويحنو عليها عندما كان معها؟

أم أن رداء الزمن قد خيم على عقلها وقلبها، فأسدل عليه ستاراً من النسيان حال بينها وبين أن تعي الحقيقة؟

ليته يعرف. فلقد مضى على شقائه أكثر من ثمانية عشر عاماً كان خلالها يبحث عن ابنته التي هربت مع أمها فجأة بدون مقدمات.

قد تكون الصفة التي ربطت بينه وبين أمها أي زوجته هي التي جعلت الأولى تحاول أن تضع حول قصته معها جداراً من الصمت احتوى الماضي والحاضر والمستقبل.

وتطل الذكريات وكأنها تبحث عن منقذ من خلال الضباب القاتم الذي تمتلىء به أجواء نفسه..

لماذا تهرب منه ابنته..؟ وما هو السبب؟.. ويخلد إلى الصمت.. ويحاول من خلاله أن يتحدث إلى نفسه، إلى ماضيه، إلى الزمن الذي عرف فيه كلوديا.. أم كلارا..

ربما يكون قد أخطأ في كل ما صنع، ولكنه يريد اليوم أن

يصحح هذا الخطأ، فهو يبحث عن الابنة ويريدها.. وإن كان لا يريد حبيبته التي تزوجها فجأة دون أن يعرف بأمر زفافه حتى أقرب الناس إليه..

وهو يذكر تفاصيل اللقاء عند المكتبة الصغيرة في شارع فيا افينو يتصفح الكتب الكثيرة عله يجد بغيته.. وتطل هي فجأة وتلتقي العيون في همس عجيب تتناجى في غفلة عن صاحب المكتبة وروادها..

لقد أحب ألبرتو مورافيا.. كاتب القصة الايطالي الشهير رغم كل ما يعرفه عنه كيهودي لأن كلوديا تحبه.. وهو يعرف سبب هذا الحب، فمورافيا الكاتب استطاع أن يقدم للعالم من خلال قصصه عن حياة المرأة في روما المدينة العتيدة الكثير.

ولقد أجمع هو وكلوديا على شراء القصة «امرأة من روما».. ولولا هذا اللقاء لما تزوجها.

إنه يذكر تفاصيل هذه القصة ويعرف كم هي رائعة فبطلتها أشبه كثيراً بزوجته التي لا يدري الآن عنها شيئاً في السمات والشكل والحديث.. وإن كانت تختلف عنها في أشياء أخرى فلقد أثبتت طوال عشرته لها أنها سيدة وست بيت.

لكنها اليوم بعيدة عنه لا يدري عنها شيئاً رغم كل ما فعل..

أويمكن أن تمر كل هذه السنوات وهو في شقائه يمارس حياته من خلال فقاعات أمل يائسة.. فهو يشعر بعقدة الذنب تجاه لحظة الضعف التي يسمونها أحياناً مجازاً.. «الحب».. وهو يكره هذا الحب الذي جاء فجأة ومضى فجأة، يكرهه من كل قلبه..

ومع هذا تظل علامة الاستفهام الكبيرة تظهر في أشكال دوائر كبيرة ضخمة ضخامة قساوة الفرقة وطول الأيام. ترى أين كلوديا اليوم؟ وهل لا تزال تعيش في نفس بيتها القديم على مقربة من فيلا بورجيزي أم إنها اختارت مكاناً آخر لا يذكرها بما مضى من أيام؟

لا يدري وإن كان يود في أعماق أعماق نفسه أن يعرف شيئاً عن هذه القاسية.. ويعود بذاكرته إلى أيام شبابه وفتوته كيف أمضاها في روما ينتقل بين

شوارعها وآثارها وهو يحلم..

لقد جاب شوارعها وتحدث إلى أكثر حدائقها حديثاً شاركت فيه فتاته التي أحبها من كل قلبه.. فلم يبخل بأن يمنحها اسمه رغم كل الفوارق التي كانت تحول بينه وبين أن يفعل، فقد كان من بيئة ترفض أية دخيلة..

وهو يذكر كل ركن في تلك المدينة التي تنام بين أحضان التاريخ وأمجاده لاهية صاخبة، يذكرها ويؤمن بأن كل كلمة همس بها في أذن فتاته يومها كان صادقاً فيها.. ولا ينسى كيف كان يلقي بقطع النقد الصغيرة في بحيرة الذكريات مع مجموعات من الناس كانوا قد سبقوه إلى إلقاء ما معهم من نقود معدنية صغيرة.

ولقد استمتع بالحياة في روما وأحب أشجارها الباسقة ونخيلها الذي يثمر في الشتاء.. فلكم شاهده يطل عليه في خيلاء من وراء جدران القصر الكبير.

ولقد تميزت حياته في ذلك البلد بأشياء كثيرة، في مقدمتها أنه الوحيد الذي عرف كل ذلك منها ومن والدتها التي كانت تضاهي بطبخها أفضل مطاعم المدينة.

واستمع إلى أغاني نابولي وميلانو والبندقية وروما يترنم بها المغنون والمغنيات. وهو يذكر أغنية فتاته المحببة لكثرة ما استمع إليها وهي تدندن بها في أوقات صفائها.

«دعني أقبل الأرض التي تمشي عليها يا حبيبي»..

هذا هو مطلع الأغنية التي أحبها وهو يعرف بأنها لمؤلف مشهور من شعراء نابولي المدينة التي ولدت فتاته على أرضها..

ولقد أحب كلوديا حباً ملك عليه قلبه لدرجة أصبح يحب كل من يحبها، ومع كل هذا الحب أين هي؟ وأين هو الآن؟ أويمكن أن تغير ظروف الحياة مسيرة الإنسان فيفقد مع هذا التغيير حبه فجأة وبدون سابق إنذار؟

وهو لا ينسى اليوم الذي جاءت فيه كلارا إلى الحياة ففي المستشفى الإيطالي للولادة شاهد ابنته لأول مرة وقد أحاطت بها باقات الزهور من كل جانب. لقد شعر بأن المستشفى عبارة عن غابة زهور جميلة تحمل أكثر الأنواع

وأندرها وأغلاها وعندما سأل زوجته عن السر أجابت ضاحكة:

ـ كل ذلك من أجلك يا عزيزي وأجل كلارا.

وكبرت كلارا.. وكبر همه فقد حان وقت الرحيل وهو يعرف أن مجتمعه لن يقبل الوافدة الغريبة بسهولة. ومع أنه ضحى ليقنعها بالسفر معه إلا أن الرفض جاء في هذه المرة منها..

ولقد عز عليه أن ترفض كلارا وأمها طلبه.. وعز عليه أكثر أن تطالب فتاته وأمها بأن يبقى هو في روما ويقطع صلته بأرضه وأهله وبلده.. أويمكن له أن يفعل هو الذي شد إلى أرضه وأهله بوشائج كثيرة قد تغيب عنها؟

ترى لماذا تطلب كلوديا منه ذلك ولماذا كانت تتناسى كل كلماته عندما يذكر لها أوان الرحيل؟

كانت تضع يدها على فمه عامدة لتقفل الباب أمام أي حديث من هذا النوع، وكأنها تريد أن تستمتع بحياتها معه بلا إزعاج. أوترى أنها قد حسبت حساب هذا اليوم من زمن، ورسمت في ذهنها الطريق الذي ستسير عليه؟

هو يعرف جيداً زوجته التي أحب ويفهم تفكيرها لكنه مع كل هذا لم يكن يظن بأنها ستنفذ كل ما خططت..

لقد قرأ في وجهها إصراراً عجيباً على البقاء في روما رغم كل المغريات التي حاول أن يغريها بها لتذهب معه إلى جدة..

ولقد كانت ليلة الوداع بالنسبة له أشبه بليلة زفافه اختارت فيها زوجته ملابسها بأناقة، وتفننت في إطعامه بيديها كطفل مدلل.. وكان يرى ابتسامة الاشفاق على المستقبل تبدو على محياها في هدوء.. وهو يذكر تلك الليلة ولا ينساها.. فلقد منحته زوجته الحب كل الحب.. أعطته قلبها ونفسها وروحها وكأنهما لن يلتقيا بعدها أبداً.

ولقد عاد إلى جدة وذاكرته تعي تفاصيل تلك الليلة والليالي التي مضت.. لكنه في أعماق نفسه كان هاجسه الأول هو أنه سيفقدها وسيفقد معها كلارا أيضاً.

ومع هذا واصل كتاباته إليها على أمل اللقاء وكان في كل كتاب يحاول أن

يبثها لواعج قلبه ويصف لها الحياة في بلده وما صنعه مع أسرته من أجل استقبالها.

وكانت كلوديا تتجاهل كل ذلك وتستحثه فقط على العودة إلى روما.. مذكرة إياها بأيامهما معاً.. وكانت تتحدث في رسائلها إليه عن كلارا التي يحبها من قلبه ويقبل صورها التي تصل إليه بين الفينة والفينة.

ترى أين كلارا الآن؟ وما هو شكلها اليوم؟ وهل زادتها الأيام حلاوة على حسنها الذي يعرفه؟

ولماذا يعيش اليوم هنا قانعاً بالبعاد بعيداً عن فتاته وزوجته؟

أويمكن للبعاد أن يغير نفوس المحبين فيجعلها تتناسى لحظات السعادة الرائعة؟

وإلا فماذا يمكن أن يقول عن السنوات التي أمضاها وهو يجتر الذكريات بعد أن باعد الزمن بينه وبين زوجته وابنته وأصبح من العسير عليه أن يتعرف إلى أحوالهما؟

وهو لا ينسى آخر رسالة وصلته منها. كانت الرسالة تحمل في طياتها كلمات كثيرة أشارت فيها إلى الأيام التي مضت، وكيف كانت، وإلى الأحاديث التي تبادلتها معه عندما كان يتحدث لها عن موطنه.. وكيف تعيش المرأة في مجتمعه بينها وبين الناس سياج كبير.. جعلها تدرك صعوبة الحياة في ذلك المجتمع الذي تجهل عاداته وتقاليده وأساليبه.. وهي تدرك من كل أحاديثه معها عن الأسرة والبيت أشياء كثيرة منها ما يتوافق وطبيعة الأنثى، ومنها ما لا يمكن لها أن تقبله.. فلقد تعودت على الانطلاق ومخالطة الناس والتحدث إليهم.. ولقد قارنت، بينها وبين نفسها، بين أحوال مجتمعها الذي تعيش فيه ومجتمعه الذي يريدها أن تذهب إليه فخرجت من مقارنتها تلك بأنها لن تستطيع أن تكون كما أراد وكما يريد أفراد أسرته من دخيلة وافدة لتعيش بينهم ففضلت البقاء بعد أن رأت بعين خيالها بأن ظروف الحياة في مجتمعه أقسى على الغريبة من أي مجتمع آخر.

وحاولت في تلك الرسالة أن تحيطه علماً بجميع تفاصيل حياتها وأوضاعها التي تمارسها فلم تبخل عليه بأن يتعرف على كل ذلك في كلمات رقيقة كتبت

بعناية وكانت تحاول في نهاية الرسالة تشجيعه على العودة إلى روما ليعيش فيها برفقة كلارا.. فهي تظن أن هذا هو الحل الأمثل لحياتهما المشتركة وهو يذكر كل حرف خط في هذه الرسالة فقد جاءت معلنة بأنها ستقطع كل علاقة به إذا أصر على البقاء في جدة وكأنها بكلماتها تلك تحاول أن تفهمه حقيقة ما تعنيه.. فهو يعرف صرامة زوجته وقدرتها على تنفيذ ما ترغب.

أوتنساه وتنسى أيامه هذه المرة إذا هو لم يفكر في العودة إلى البقاء في روما؟

ولقد كتب إليها يومئذ رسالة طويلة حاول خلالها أن يثير في نفسها ذكريات الماضي ويبثها فيها لواعج حبه وأمانيه وأحلامه، ولقد أطال في رسالته لدرجة شعر فيها بأنه لم يترك شيئاً من ظلال الماضي إلا أورده فيها وكأنه يأمل من وراء كل ذلك أن تعود زوجته إلى عقلها، فتأتي إلى جدة لتعيش فيها برفقته.. لكن رسالته تلك عادت إليه مرة أخرى مغلقة في مظروف آخر وكأن من قرأها لا يرغب بأن يجيب بحرف واحد عليها.. لماذا؟ لا يدري..

وتطلع إلى السماء عله يجد السلوى في زرقتها الصافية.. دون جدوى.. وأطلت الذكريات من مكانها تعلن عن ماض لا يعرف كيف ينساه..

أوتنسى هذه المرأة حياتها معها؟ وهل الذنب ذنبه في أنه أحبها وأعطاها اسمه؟ أولم تعرف بأنه وافد غريب سيؤوب يوماً ما إلى وطنه مهما طالت الغربة؟ وتمر الأيام وهو في حيرة من أمره فقد انقطعت صلته بامرأته وابنته وأصبح يعيش فقط على الذكريات خرج منها بأمر ارتاحت نفسه إليه.. لماذا لا يسافر إليها ليعرف أحوالها ويتفهم موقفها عسى أن ترضى فيعود ما انقطع بينهما من صلة.. لا سيما وقد تغيرت أوضاع مجتمعه وأصبح من اليسير على الغريبة أن تعيش معه، أكثر من ذي قبل؟

ويوم سافر إلى روما كان جل هدفه أن يلقاها، لكنه ولطول بحثه واستقصائه عنها لم يجد ذلك الخيط الدقيق الذي يوصله بها.

ترى هل رحلت أنثاه عن بيتها وقطعت كل صلاتها بجاراتها.. وأصبح من الصعب عليه أن يعرف أين تعيش وكيف تعيش؟

ثلاثون يوماً أمضاها يتردد هنا وهناك على جميع الأماكن التي كانا

يرتادانها معاً على أمل لقياها ولكن بلا جدوى.

وعندما عيل صبره عاد بخفي حنين إلى جدة ليبدأ حياته الجديدة في محاولة لنسيان الماضي دون قدرة.

أويمكن أن يصنع كبرياء المرأة كل جسور هذا الحقد فتحرم الأب من ابنته والابنة من أبيها، أم إن كلوديا قد أصابها مكروه راحت ضحيته مما جعلها تفقد الاتصال به؟

ثم ماذا عن أمر الجدة أهي الأخرى قد مضت دون عودة؟

ليته يقنع هذا القلب بأن يخف عن خفقانه وأن يصنع هو الآخر جداراً بينه وبين الماضي.

ترى أوتدرك زوجته ما يجول بخاطره هو البعيد القريب الذي يبحث عن ماضيه؟ وماذا عن ابنته؟ أهي الأخرى قد نسيته أم أن الأيام هي التي جعلتها تتناساه؟

ومضى يجتر الذكريات وفي جعبته أحاديث كثيرة يود أن يقولها للغائبين.. لكن أين هي الآن؟ وكيف يستطيع أن يلقى الابنة؟ فلقد أحس بأن كل حبه لزوجته قد انتهى.

أكلته ضراوة الأيام وقسوة الليالي التي عاشها مع الذكريات.

أضناه الشوق إلى الصغيرة التي شبت عن الطوق دون أن يعرف أين هي، وكيف هي؟

ويوم زاره صديقه سمير أحس بشيء ما يشده إلى هذا الصديق فهو يعرف عنه حبه للسفر ورأيه فيه

ولقد تحدث إليه صديقه حديثاً طويلاً شاء من خلاله أن يمنحه فرصة التفكير فيما سيقوله.. لكن سعيداً لم يدعه يكمل بل سأله في لهفة:

ـ أورأيتها حقاً؟ وكيف هي؟

وأجاب صديقه:

ـ أجل رأيتهما كما تريد وترغب..

ـ أين؟

ـ في المطعم الهندي بلندن. . فقد كانت زوجتك تتناول طعامها برفقة فتى وفتاة قدمتهما لي فعرفت أنها ابنتك. . .

ـ وماذا قالتا لك؟

ـ لا شيء سوى أنها هي الأخرى تعيش على الذكريات فلقد حكمت لها محاكم روما ببطلان الزواج. . وهي اليوم تعيش في مزرعتها الصغيرة على مقربة من بحيرة كومو. .

ـ وكلارا ماذا قالت؟

ـ لا شيء، إلا أنها سألت عنك. . فقد كانت مشغولة بخطيبها وعندما عرفت أنك على ما يرام تشاغلت بالحديث مع أمها بالإيطالية لكن خيل إلي أنها تتساءل لماذا لا يأتي؟ وأجابتها الأم بالانجليزية قائلة: قد يكون في مجيئه ما يفسد علينا حياتنا التي بنيناها بأسلوب جديد يغاير أسلوب الصبا والمراهقة، وتساءلت كلارا: أوتعنين أننا لن نراه؟ وهزت الأم رأسها دون أن تجيب لفترة، ثم قالت: كم كان بودي أن أفعل لولا أنني أخاف أن يضعف قلبي وتنهار مقاومتي على المضي في الطريق الذي اخترته، ثم ما يدريني أنه هو الآخر لا يزال يذكرنا يا ابنتي. .

ولقد أصريت على معرفة عنوانها دون جدوى، ومع هذا قالت لي: قل له عندما تراه أننا نذكره على البعد. ولولا هذه الذكرى لما رأيتني هنا في هذا المطعم لقد كان سعيد يحب أنواع المأكولات الهندية. .

وترقرقت الدمعة من مآقي سعيد وقال في حرقة:

ـ لقد أخطأت في البداية وهاأنذا أعض بنان الندم على ما ارتكبت.

والتفت إلى صديقه وقال:

ـ أوتظن أنها ستقبل بالعودة عندما أجدها؟

وأطريق صديقه برأسه قليلاً ثم قال:

ـ لا أظن، لأنها قدمت لي الشاب التي كان برفقتها على أنه خطيب كلارا. . ولقد عرفت منه أنه باكستاني الأصل فلقد اختارت زوجتك لابنتها خطيباً مسلماً. . وعندما سألتها عن السبب قالت إنها تصنع كل ما تصنع لأنها

رغبتك.. ولهذا فهي حريصة على تنفيذ هذه الرغبة.

وأطرق سعيد برأسه هو الآخر وقال:

ـ عندما تتراكم الأخطاء..

وتعود الحسرة لتتلف قلوب أولئك الذين اختاروا طريقهم بلا معنى.. دون دراية أوليس هو واحد من هؤلاء الذين تاهت أقدامهم في الطريق..

والتقت عين سعيد بعين صديقه هذه المرة وكانت ملأى بدموع أراد عن طريقها غسل بعض أحزانه.. فلقد أحس ساعتها أنه ضائع، فَقَدَ أجمل أيام العمر فجأة، وفَقَد مع ما فَقَدَ الأمل في أن يعود إليه هذه المرة..

الابنة والام وكل شيء.. وانهارت أعصابه ومضى يتمتم:

ـ كلارا.. كلارا.. أين أنت أيتها الابنة الحبيبة؟

واستمع إلى صوت صديقه وكأنه يأتيه من هوة سحيقة من هوة بئر عميقة:

ـ سعيد هناك شيء آخر أود أن أعطيك إياه..

والتفت إلى صديقه وقال:

ـ ترى ما هو هذا الشيء؟

ـ لا أدري لكنه مظروف صغير، قالت لي زوجتك بأن علي أن أعطيكه متى ما رأيتك ولقد حرصت عليه كثيراً.

وبحث في جيبه ليخرج المظروف الذي تلقفه سعيد بكلتا يديه وعندما فتحه سقطت على المائدة صورة صغيرة ولكنها قديمة يعرفها جيداً فلقد أعادت الصورة إلى نفسه ذكريات عزيزة.

وتطلع إليها ليرى صورته وزوجته وابنته في شهرها الثامن تنظر إليه في براءة.. وانحدرت دمعة ساخنة من عينيه وهو يتابع الصورة بناظريه، فلقد عرف ساعتها أنها القطيعة والبعد والهجر والحرمان وقد تجمعوا من حوله، وعرف أيضاً أنه فقد ابنته لأن هذه الصورة كانت عزيزة عليها فلم تسمح له بأن يأخذها عندما سافر..

وأحس ببشاعة ما رمت إليه كلوديا من إعادة الصورة إليه وكأنها تريد أن

تشعره بأنها لم تعد راغبة في أن تظل لديها أية ذكرى تربطها بالماضي، ذلك الذي ذهب ولن يعود.

وأجهش بالبكاء بصوت مسموع ونادى ابنته في همس الملتاع:

ـ كلارا أين أنت؟

لكن أحداً لم يجبه.. فقد ذهب صديقه وتركه وحيداً مع الذكريات ينظر إلى الصغيرة التي كبرت فجأة، وذهبت فجأة دون أن يدري إلى أين.

الغد الذي نرمق

ويغرق ضياء الشمس أمواج البحر الهادئة التي تحاول أن تغسل أقدام الشاطىء في رتابة يخالها من يراها شيئاً ينبع عن الفطرة، ذلك لأن ضياء الشمس عندما يمنح الدفء هذه الأرض، ويعطي للطيور الحق في البحث عن مكان الرزق هنا وهناك في حرية.

وهما أسيرتان لوحدة صنعها لهما زوجاهما فجأة وبدون أية مقدمات، فظروف المأساة التي أصيبت بها كل واحدة متشابهة. فالرجلان صديقان منذ أيام الطفولة، عاشا سنوات حياتهما يرمقان المجد والمال بكثير من النهم حتى إذا ما توافر لهما الكثير، تزوجا في يوم واحد وعرس واحد، وبأختين، شاء حظهما الطيب أو العاثر، لا يدريان، أن يقترنا بهما.

ولقد كان الصديقان في قمة الشهرة في حقلي الصناعة والمال يوم عقدا قرانيهما على الأختين، لدرجة كانتا فيه محل أنظار وحسد الكثيرات اللواتي كن يأملن أن يكن مكانيهما في هذا الحفل الذي عاش في أذهان الناس صورة غريبة للترف والبذخ والإسراف في هدر المال على ليالي العرس، كما كان يسميها البعض عندما يتحدثون عن ليلة عقد القران، والدخلة، والصبحية وما إلى ذلك من مسميات.

وتعيش الأختان أسيرتي الوحدة في قصريهما اللذين يطلان على البحر في منطقة الحمراء في مدينة جدة، بينما انشغل الزوجان بالسفر والترحال وراء جني ثمار المال بكثير من الطرق التي يعرفان كيف يجمعان بها المال، لدرجة شعرتا خلالها بالملل، فظروف حياتيهما

كانت خاوية، لا يملأ فراغها سوى القراءة وممارسة بعض الأشغال اليدوية.

ولقد شكت كل واحدة منهن على حدة لوالدها أمر هذه الوحدة، لكنه لم يعر تلك الشكوك أذاناً صاغية، فقد كان أبوهما من ذلك النوع الذي يعتقد بأن المرأة عندما تكون في غير حاجة إلى شيء، تضج بالشكوى، ولهذا اعتبر كلامهما مجرد كلام، خصوصاً بعد أن عرف كيف يغدق كل واحد من الزوجين على زوجته من الحلى والملابس لدرجة الإغراق والإشباع.

أويظن هذا الأب أن المرأة مجرد سلعة يمكن لها أن تظل بين غرف القصر وردهاته، بملابسها المزركشة وقد امتلأ صدرها ومعصمها بالعديد من الجواهر والحلي، أما إنها إنسانة تبحث عن رفيق دربها الذي يستطيع أن يشيع الابتسامة على الوجوه الخجلى؟

ذاك ما تبادر لذهنيهما وهما تناقشان الأمر على انفراد، ولقد حاولتا أن تعلما الزوجين باختيار بعض من الوقت تكونان فيه مع بعض، يحلمان ويفكران ويناقشان دون نتيجة، فظروف العمل قد تقضي فجأة على هذه الأويقات إذا ما رغبا..

لماذا تظل الدنيا هكذا على هذا المنوال؟

لا الفقير في راحة ذهنية، ولا الغني كذلك. لكل واحد منهما همومه، ومشاكله، يعيشها ويعايشها في ضيق وتبرم.

لكنهما على بساطة الموقف تحسان بأن التضحية التي يقدمها الزوجان على مذبح المال كثيرة أكثر من أن تتحملها سواعدهن الرقيقة.

فالمرأة أرق من أن تدفن إلى جانب الجدار، كالكم المهمل، يحتفى به عندما يريد صاحبه، وينساه ويلقي به بعيداً عندما يريد.

ولكن..

أتكونان حقاً كما تقولان؟ إن مجموعة الخدم والحشم، وأنواع السيارات وأجهزة الحضارة، كل ذلك بمتناول أيديهما في سهولة، حتى بركة السباحة التي أضيئت بألوان مختلفة يراها الوافد إليها صورة جديرة بأن تقتنى، تجدان فيها الرتابة المملة لكثرة ما أمضيتا من الوقت على كراسيها القريبة تثرثران وتتحدثان.

تلك دقائق الحياة التي عاشتاها قبل المأساة، أما بعدها فهو هذا الشيء الذي تريدان أن تبحثاه في هدوء.

لقد ذهب الصديقان فجأة، ابتلعتهما السماء في طائرتهما الخاصة، وهما في طريقهما في سماء مصر على مقربة من الوادي الأخضر، وذهبت قوافل البحث هنا وهناك علها تجد أي خيط يدلها على ما أصاب الطائرة دون جدوى..

أكثر من عام كانتا خلاله نهباً للقلق، ففكرة نجاة الزوجين أمر وارد في ذهنيهما لكن أين، ذلك الذي لا يمكن أن تدريا به.

يقولون، إن الطائرة عندما تتحطم تترك حطامها هنا وهناك، أما طائرة الزوجين فلم تترك أثراً لدرجة جعلتهما يصدقان حكايا الأطباق الطائرة.

أويمكن أن يطبق أحد الأطباق على الطائرة الصغيرة التي زودت بجميع عناصر السلامة؟ ذاك أمر فوق احتمالهما، لكنهما ناقشتاه في هدوء وبلا ضجة.

قد لا تكون هذه الطائرة التي فقدت هي الأولى، فلقد فقدت طائرة رجل أعمال لبناني، وآخر سوري، لكن جميع المعلومات كانت تقول بأن هاتين الطائرتين قد ذهبتا طعماً للبحر الكبير المترامي الأطراف الذي يبلع في جوفه الكثير الكثير.

وتمر الأيام وهما قابعتان في قصريهما، ترمقان الأفق بنظرة استجداء، فلقد زادت وطأة الوحدة على النفوس الشابة، وزاد في ألمهما أنهما لا تدريان كيف تمضيان بهذه الثروة الطائلة إلى بر الأمان، وهما بلا ولد يملك من مقومات الزوجين ما يجعله قادراً على تنميتها.

ولقد قام أبوهما بواجبه بمقدار، لكنه لم يكن على مستوى الزوجين اللذين كانا يستسخفان حرصهما على كنز المال، هما اللتان تعتقدان أن جمال الحياة ليس في اكتناز هذا المال، بل في صرفه.

ترى، أويمكن أن تبقى نظرة الإنسان للمال بعد أن يصبح هذا المال ملكاً له؟ ذاك أمر تحسّانه يطفو على سطح فكريهما في سخرية، وكأنه يمد لسانه لهما ولأفكارهما السابقة.

قد تكون طبيعة الإنسان ميالة إلى الكسب والاكتناز، لكنه في حالتهما هذه

يبدو غير مستحب، فلطالما رفضتا هذا الجري وراء المال من زوجيهما، وأعلنتاه، لكن ضياء الشمس التي تغرق أمواج البحر، تظل عالقة بأنظارهما، تتطلعان من خلالها إلى البعيد، في رحلة طويلة مع الوحدة.. والوحدة كثيراً ما تكون قاتلة.. هكذا يقولون..

وانتصبت سعاد في مشيتها وهي تقول:

ـ أوتدرين أننا بما نصنع إنما نجسد أحزاننا بأسلوب آخر لا نملك من ورائه إلا أن نكون أسرى هذه الأحزان؟ فطرق الحياة قد لا تقبل الخانع المسكين الذي يفتقد الأمل بين ظلمات الحياة بينما نور الشمس يسطع على الأرض في قوة؟

لقد فكرت كثيراً في هذا الذي جرى يا أختاه.. وخرجت من تفكيري بأمور قد أجد في نفسي الشجاعة لأن أقولها لك وبكل حرية، فالشباب الذي نحس بدمائه الفوارة تجري في عروقنا قد يلهمنا بعضاً من المواقف، لكننا بهذا الخنوع قد نجني على هذا الشباب، فنفقد عند فقدنا له كل مقومات الحياة.

إن عمر الشباب كعمر الزهور يقصر ويطول، يقصر عندما لا تجد الزهرة من يتعهدها بالبقاء والنماء ويطول عندما تجد العناية التي تأمل. أيكفي هذا الذي ذكرت، أم أن الأمر يحتاج إلى شيء من الإيضاح؟

وتصمت فتنبري أختها للحديث قائلة:

ـ لكننا كما ترين لا نستطيع أن نصنع شيئاً في ظل هذه الظروف، فلقد صدمتنا الحياة بما فيها الكفاية، لدرجة جعلتنا ننكفىء فيها على وجهينا فلا نرى بأعيننا إلا بمقدار قد يكون كافياً لأن نسير به في مرحلة العمر القادمة وقد لا يكون. لكنني مع كل هذا أظل أتشبث بالأمل في ظل هذا القنوط الذي يسيطر اليوم على عقلي وفكري، فإحساساتي تقول بأنهما ذهبا بدون عودة، وهذا ما يزعجني لا لأن الإنسان في هذه الدنيا يموت ويحيا وفق تلك الإرادة القادرة، وإنما لأن المشكلة الكبرى أكاد أراها تطل من بين عينيك، عندما نفكر بأن من فقدناهما لا ندري أين هما، وأين افتقدناهما أيضاً؟

أوتدرين أن مجموعات كبيرة من الأحلام تراودني في نومي ويقظتي، وهي تشير إلى أن ذلك الألم الذي أحاط بقلبينا نتيجة من افتقدنا عائد إلى الحب الذي نحمل، رغم وطأة الوحدة التي عايشناها أثناء تواجدهما وظروفهما؟

قد تكون ظروفنا هي السبب في أن نصاب بالمكروه ذاته في الوقت ذاته. أونسيت أننا توأمان جئنا إلى هذه الدنيا متلازمتين؟ فحق علينا أن نعايش البهجة والعذاب، الجمال والقبح، الفرحة والحزن سوياً ومعاً في دروب الحياة القصيرة؟

وصمتت ثم تابعت حديثها في تهدج:

ـ إن فترات الأسى قد تكون دائماً أقدر على الرسوخ في النفس البشرية أكثر من لحظات الفرح، كالسواد يغلب لونه عندما نضعه في أي إناء، مهما كان شكله، فيتشكل الإناء بلونه الأسود اللامع صورة قاتمة قد تعطي بالإضافة إلى معالم الحزن أشياء كثيرة نحاول أن نفلسفها بإرادتنا وبوعينا أحياناً، ودون إرادة وبلا وعي أحياناً أخرى..

يقولون إن المرأة أقوى من الرجل على اختزان عواطفها داخل أعماق أعماق نفسها التي تعتقد أنها قادرة على حفظها وإحكام مراسها بأسلوبها الذي تجيد، وأقول أنا، بأن من هذا الحزن وقتلته الوحدة لا يمكن أن تندمل جراحه إلا إذا كان على قدر كبير من الإيمان بتصاريف القدر في دنيا يسير فيها الإنسان مغمض العينين، مهما كان حاذقاً وماهراً، فامتصاص الألم وظيفة القادر الذي يعرف كيف يجد طريقه، ومن خلال الإيمان العارم الذي يستلهم جميع مواقفه من مواقع ذلك الإيمان.

إن المعاناة نفسها ليست المشكلة، وإنما المشكلة تكمن دائماً في أسباب هذه المعاناة، فإذا قدر الإنسان أي إنسان على اكتشاف سر هذه الأسباب وعرف كيف يلقي عليها من هدوئه واطمئنانه وفلسفته ما يجعله قادراً على تسخيرها وفق مصالح الحياة، أصبحت المعاناة ليست سوى قشة يمكن لأية ريح أن تلقي بها بعيداً، بعيداً في الأجواء اللامتناهية.

إن قدرنا الذي وُضعنا فيه جاء نتيجة ظروف لم نكن فيها مخيرتين. ولهذا من الواجب علينا أن نختار الخروج من هذه الأزمة بلا انفعالات قد تودي بالبقية الباقية من هذا الرواء الذي تحافظ عليه المرأة.

إن الدنيا هي الدنيا، لها نظامها ومعادلاتها، وهي عندما تمضي لغايتها تعرف طريقها، ولهذا يجب أن نعرف نحن كذلك طريقنا أيضاً، لنلقي بأوهامنا الخادعة وراء ظهورنا ولنستقبل ضوء الشمس بكثير من الحنان، فالأحزان تدمي

إذا ظلت عالقة بالنفس.

ستقولين عني بأنني قاسية، ولكنني كما تعرفين، أرهف حساً من أن أكون كذلك، لكنني، وأنا أقلب الأمر على جميع جوانبه أجد أننا عندما نكبر على أحزاننا نستطيع أن نشق في الحياة بالأسلوب الذي أراده الله لهذا العالم أن يبقى ويستمر.

فعطاء المرأة وليد الفطرة، لا يمكن أن يذوب كما يذوب الجليد، لكنها في هذا العطاء يمكن أن تمنح من جديد شيئاً من ذاتها للجديد الذي ستصادفه أو يصادفها.

وصمتت برهمة من الوقت، ثم عادت لحديثها قائلة:

ـ انظري إلى هذه الورود التي تمتلىء بها أحواض الزهور على مقربة من مياه بركة السباحة تجدين حولها الكثير من الأشواك، منحها الله إياها لتستطيع أن تدافع عن نفسها، في دنيا لا يدري حقائقها إلا المؤمن، لهذا تجدينني أهدأ بالاً، وأرق حساً، وأرهف سمعاً لسماع أشياء جديدة غير هذا الحزن.

وأدارت مفتاح الراديو لينساب صوت المغنية في هدوء ورقة، وانسابت كلمات الأغنية رقيقة هادئة وهي تقول:

«وننسى مع الأيام..

ما جاءت الأيام..

فالحياة التي نعيش..

والدنيا التي نحيا..

تريد منا أن نبقى..

وعلى شفاهنا ابتسامة..

وفي قلوبنا أمل..

وفي عيوننا لهفة..

على الغد الذي نرمق..

بعد أن ودعنا الأسى الذي مضى..»

ويترقرق صوت المغنية في هدوء وثقة وهي تردد بعض كلمات الأغنية:

«الغد الذي نرمق..

نراه ونلمسه ونحس بأنفاسه..

نلهث في أجوائنا ـ وكأنها تشيع الحنان والمحبة..

فالوافد القريب أقرب إلى القلب من ذلك الذي رحل فجأة دون وداع».

ويهتز صوت المغنية وهي تكمل كلمات الأغنية:

«مع الغد، نجد الأمل.

نجده صرحاً سامقاً يتطلع إليه المحبون الذين عرفت قلوبهم الحزن والوحدة وضاقت نفوسهم بمعالمها، وهي تدفنه في صدورهم بآهات العذاب.

ويسود التفاؤل مع الغد الذي نراه قادماً من جديد».

وتنتهي كلمات الأغنية، وتنظر الأخت إلى أختها في لهفة بينما طائر النورس يأخذ طريقه في مشيته المتأنية على رمال الشاطىء يتلفت هنا وهناك، بحثاً عن الطريق، حتى إذا ما وجده عاود طيرانه في أجواء الشاطىء، وملء فمه زغرودة حاول أن يطلقها لكنها احتبست في انتظار الغد الذي نرمق، والذي يجيء، دائماً في موعده، في الوقت الذي تمضي الأقدام الشابة في طريقها على الرمال التي اصطبغت وجنتها بحمرة الشمس التي أخذت تميل إلى الغروب إيذاناً بانقضاء يوم من أيام الوحدة مضى في هدوء، ودون جلبة أو ضوضاء.

وأخذت أضواء القصر يزداد نورها رويداً رويداً بعد أن اختفى قرص الشمس في باطن البحر، وأخذت تطل من وراء الموجة التي اندلعت تداعب أجساد بعض أولئك الذين رأوا الفرحة في غسل أحزانهم بين دموع الشاطىء وأنين الشمس وحنين القمر الذي أخذ يبدو من وراء السحب صورة لفارس جديد يرتاد الحلبة هو الآخر في رضى وحب أيضاً.

وانسلت الأختان إلى داخل القصر هذه المرة، وإحساس من الغبطة يتسلل إلى القلبين الشابين في هدوء لأول مرة، وكأن أقدامهما قد عرفت طريقها إلى الغد الذي يجيء ونرمق.

مواء القطط

وتفتح عينيها على مواء القطط التي تكاثرت في البيت الصغير حتى امتلأت بها أكثر غرفه وردهاته، بشكل أزعج أكثر أولئك الذين كانوا يزورونها بين الفينة والفينة حتى إذا ما أحسوا بانصرافها عنهم إلى قططها، تباعدوا عنها وكأنهم يتركونها لهوايتها التي أصبحت مثار الأحاديث الطويلة بين جيرانها الذين عرفت.

وهي سعيدة بالحياة التي اختارتها عن قصد وكأنها ترى في قططها صور بناتها وأولادها الذين فقدتهم الواحد تلو الآخر وبقيت هي ترمق الحياة بعينيها اللتين أناخ بهما المرض فترات من الزمن يوم كانت لا تعرف في هذه الدنيا سواهم.

أويمكن أن يسلو الإنسان أحزانه كما تفعل هي اليوم؟

فلقد أطلقت على كل واحدة من هذه القطط اسماً محبباً لنفسها.. هي التي اختارت البقاء في عالمها الجديد بصوره وأشكاله المختلفة لدرجة جعلتها تمتلك مقدرة فائقة على إيداع إذهان هذه الحيوانات كل ما تعرف.

ولقد اختارت في تخاطبها مع قططها أسلوباً واعياً جعلها تتناسى مع الأيام الماضي الذي ذهب لتستغرق في لعبتها الجديدة وكأنها ترى فيها ما يصرفها عن التفكير فيما آلى إليه حالها بعد وفاة من أحببت.

وتمد عنقها تحادث واحدة من قططها الكثيرات..

لكنها تخاف أن يسمع أحد حديثها فهي تقضي الساعات تلو الساعات في حديث مع قططها تدللها وتداعبها وتهمس في آذانها بأهازيج حفظتها عن ظهر قلب يوم كانت تربي أولادها.

لقد مضى ذلك الزمن البعيد وكأن قروناً كثيرة قد مرت عليه، كل عام من الأعوام التي مرت بالنسبة إليه قرن بأكمله، لماذا؟ أهي وحدها التي تحس بثقل وطأة الحياة أم أن هناك كثيرين مثلها يعايشون هذا الإحسان يعيشون ساعاته ودقائقه وأيامه في ألم صامت يطل من العيون في هدوء؟

خمسة وثمانون عاماً مضت وانقضت وهي في نضال مرير مع الحياة ترمق الحزن وهو يمر على سمائها كسيل يعقبه سيل.

لقد فقدت الزوج والأولاد. تساقطوا جميعاً كأوراق شجرة تتساقط تحت طقس خريفي قاس، تركوا الغصة في حلقها والألم في قلبها يكبر ويكبر لدرجة أصبحت لا تحس في حياتها بأية سعادة.

حتى إذا ما استقبلت أول قطة في دارها الصغيرة هدأت نفسها واستكانت. كانت قطة ضالة فقدت معالم طريقها فجاءت لدارها على عجل لتستقر في هدوء ونعمة.

ولقد قارنت بينها وبين القطة فوجدت تشابهاً كبيراً تكاد تلمحه فهي والقطة على شبه كبير.

هي وحيدة وهذه هي الأخرى وحيدة فقدت معالم الطريق، وهي حزينة يطل الألم من عينيها وهي كذلك، لكن القطة أفضل حالاً منها. . فلقد استولدتها الأيام قططاً كثيرة كبرت وعاشت معها وسعدت بها هذه الأم بمقدار ما شقيت هي.

وانجرفت في هوايتها الجديدة وكأنها تعيش لراحة القطط الكثيرة التي كانت في ألوانها وأشكالها وطباعها وعاداتها متغايرة تختلف الواحدة عن الأخرى، لكن القطط جميعاً أجمعت على حبها والتمسح بها والجري والوثوب عليها في قيامها وجلوسها إلا واحدة اختارت مكاناً قريباً منها وكأنها تدرك بأنها لم تعد قادرة على الوثوب فحملها الذي في بطنها يجعلها دائماً أشبه بأنثى غير قادرة على الحركة، لكن نظراتها كان فيها الكثير من التساؤل الذي أدركته السيدة فاطمة بكثير من الحذر، أسعدها فترة من الزمن، وأحزنها فترة أخرى.

فإناث القطط تتشابه في الأماني مع إناث البشر، كلها ينصب تفكيرها على الطريقة التي يمكن أن تتم بها هذه الولادة، ونوسة من القطط السيامية التي

تحبها وتهدي بعضاً من قطيطاتها إلى بعض أعزائها، فالذكر من مواليد القطط لا حظ له في الإقامة السعيدة في أي بيت.

وهي لا تدري لماذا، لكنها بحكم العادة تعتقد أن القط أقدر على الشيطنة والإساءة من الأنثى.

ربما كان هذا صحيحاً وربما لأن القط لا يرضى بالبقاء في بيت واحد وإنما تجره إلى بيوت الآخرين نزوة عابرة تخالها شبيهة بنزوات بعض الرجال.

أولم يتزوج زوج صديقها رجاء امرأة غير تلك الصديقة بعد أن عاش معها أكثر من عشرين عاماً استهلك خلالها جمالها وشبابها وصحتها حتى إذا ما غدت شيئاً مغايراً للأمس تطلع إلى الأخرى التي هي أكثر شباباً ونضارة وصحة؟

قد تكون هي الحياة التي منحت الذكر هذه القدرة على التقلب لكنها لم تعرف هذا الأمر طوال حياتها مع زوجها. أويمكن أن يكون بعض الأزواج من أصناف الملائكة وبعضهم من أشقياء الشياطين؟

واتسعت ابتسامتها وهي تذكر كل هذا وهي ترفع نوسة إلى حضنها في أناة وصبر، والمسكينة تنظر إليها بعينها السوداوين نظرة شكر وامتنان فهي تعرف معاني كل نظرة وتدرك معاني وأحاسيس هذه الحيوانات التي تعايشها منذ سنوات وتؤمن بأنها تؤدي واجباً مفروضاً تجاه هذه المخلوقات التي لا تنطق. ترى لو قدر لهذه القطط أن تنطق فماذا سيكون حال بيتها؟

ضجيج هائل، تحس به وتشعر دون تخيل لأشياء لا يمكن أن تتم، لكنها مع كل هذا تشعر بالغيظ فلقد فعلها أليف نوسة يوم أودع جسدها ثمرة حبه السريع ثم هرب وكأنه يخشى على نفسه مغبة إعالة صغاره، هرب تحت جنح الظلام وراء قطة ضالة رآها تسير على سور الحديقة الصغيرة.

ولقد افتقدته أياماً كما افتقدته نوسة ثم نسيت مع الأيام كل ما حدث لكنها ترى الحزن يملأ عيني نوسة كلما شاهدتها تجرجر نفسها إلى ركنها المفضل وكأنها تحس بعمق خيانة وليفها الذي هرب.

عالم غريب هذا الذي تعيش فيه. أما بالنسبة إليها، فهو دنيا جديدة تبعد

عنها هم البحث عن أصدقائها وصديقاتها أولئك الذين عبروا حياتها فترة من الزمن حتى إذا ما تذكروها قاموا بزيارتهم لها في تكلف بغيض تحس به وتشعر، وتود من كل قلبها أن تنتهي زياراتهم لها بأسرع ما تتوقع.

أوليست هذه هي رغبتهم كما هي رغبتها هي؟

لقد عاشت حياتها مؤخراً لهذه القطط وهي بتواجدها في بيتها لا تدري من الحياة إلا أنها وقف على هذه المساكين التي اختارتها عن رغبة، وهي تشعر بالحيرة لرعونة سامبو وشقاوته فلقد كبر هذا الصغير لدرجة أصبح يغير خلالها على عدد كبير من القطط وكأنه يحاول أن يستعرض عضلاته أمام هذا العدد الهائل مستعيناً بفتوته للوصول إلى أكبر عدد من القطط وكان أكثر ما يشغل بالها أن هناك ثلاثاً من القطط تحاول استدراج سامبو وكأنها في تسابق لكسب وده بما يدعنه له من طعام.

لكن سامبو كان شغوفاً بالقطة الصغيرة بمبة التي جاء شعرها مزيجاً من البياض المشرب بالحمرة، يتحبب إليها دائماً وكانت هي ترمق كل هذه الألاعيب في شيء من السخرية، فهذه هي الدنيا التي اختارتها عن رضى تطل عليها بأسلوب جديد يجعلها غير بعيدة عن الدنيا التي عاشتها جل فترات عمرها.

أوليست مزيجاً من الحب والأنانية والخير والشر والصبر والخداع؟ قد تختلف الصور ويتداخل بعضها مع بعض لكنها تظل دائماً مشدودة إلى ما يجري داخل البيت الصغير في أناة وصبر.

لقد عاشت حياتها كلها ترمق ما يجري على الأرض في سخرية وها هي اليوم تعاود سخريتها بأسلوب جديد فالعالم الإنساني قد يشتط في بعض الأحيان فيفرز عادات وأساليب يرضاها البعض ويرفضها البعض.

إن أعتى الجبابرة في عالمنا الإنساني تطيح برأسه همسة ناعمة، تجعله يسترخي على صدر حسنائه التي أحب فيهمس في أذنيها بكلماته التي يحاول أن يدغدغ بها إحساسات المرأة وكأنه يتلمس لنفسه المعاذير عندما يرفع عن وجهه قناع ذلك الزيف في ورع الإنسان الطاهر النقي الضمير، والحيوان لا يعرف من

الحياة إلا معاني القوة يكسرها عنه التآلف الذي يحاول الإنسان أن يمنحه له في هدوء.

وهي تذكر كيف كانت زيارتها يوم كانت في الثلاثين من العمر ذلك السيرك الكبير الذي أقيم تحت قبة من القماش، وتشعر بالرهبة فمع هذا العدد الكبير من الحيوانات الكاسرة كالأسود والفيلة والنمور والضباع وغيرها كان الإنسان يعيش معها في هدوء.

أويكون الإنسان في عالمنا هذا أقوى وأقدر على كسر طوق الشر في نفوس الحيوانات ثم يضعف عندما يريد كسر طوقه في نفسه؟ وإلا لماذا كل هذه الحروب الطاحنة التي تستمع إلى أخبارها بين الفينة والفينة؟ أليست عوامل شر فكت من عقالها ساعة شر أيضاً؟

إن الاستسلام للشر في حقيقته ليس معنى من معاني السلام لأنه جاء نتيجة قوة وضعف في آن واحد.

وهي تكره القوة والضعف وتكره معهما العنف أيضاً، ولو لم تكن كذلك لاختارت الراحة بعيداً عن هذا العدد الهائل من القطط ومموائها وخدمتها والسهر عليها والعناية بها. ويجيء نوسة المخاض وهي في مجلسها ترتب ما يجري وعقلها مع هذه المسكينة التي تحس بآلام الوضع حتى إذا ما انتهت من أداء واجبها وأخرجت عدداً من صغارها اختارت مكانها القصي في هدوء لتلفظ أنفاسها في هدوء أيضاً، وكأنها شجرة صفصاف عجوز داهمتها عاصفة قوية فاقتلعت جذورها وألقت بأوراقها وفروعها على الأرض.

وتناهى إليها مواء القطط وكأنه نحيب وعويل طويل على نوسة التي فارقت الحياة بعد أن أهدتها شيئاً جديداً فدمعت عيناها في هدوء وبلا ضجة، وانطلق فكرها يعربد في أجواء نفسها القلقة.

فغداً أو بعد غد، وهي تعرف بأن هذا الغد سيأتي وستمضي هي الأخرى إلى نهايتها كما مضت نوسة دون أن تترك أثراً على هذه الأرض لا لأنها كانت امرأة عاقر وإنما لأن من ولدتهم ذهبوا جميعاً قبلها دون أن تذوق حلاوة رؤية أحفادها هي التي تعيش اليوم لرعاية القطط وسماع موائها في حرية.

ترى من سيودعها القبر يوم تموت؟ وهل تستطيع هذه الحيوانات أن

تواصل مواءها عندما تفتقدها فيحس بها الجيران، أم ستظل في مكانها بضعة أيام حتى يتعفن هذا الجسد الذاوي فيهب لنجدتها من اختفت عن حياتهم كل هذه السنين والأيام؟

ذلك شيء لا تدريه ولا تود مطلقاً أن تفكر فيه.. فالإنسان يظل دائماً هو الإنسان لا يستطيب ذكرى الموت حتى ولو كان الموت على مقربة منه.

فأرذل العمر رغم كل معالم الضجة التي تعيشها لا يمنحها الوقت في التفكير بهذا الشيء الخالد.

وتجوب الغرفة مع من اختارت من قططها وتمضي لدفن نوسة في موكب مهيب تحت شجرة الجميز العجوز في فناء البيت الصغير الذي شاهد معالم طفولتها وصباها وهرمها أيضاً، ومن حولها القطط.. كل القطط.

وجه تحت الماء

في أروقة القصر عاشت سنوات حياتها الصغيرة، لا تحلم كما يحلم الصغار فلقد عافت نفسها جميع الأحلام منذ ذلك اليوم الذي قدر لأمها أن تموت بين يديها، هي التي أحبت تلك الأم، ومن كل قلبها.

فلقد كان حنانها أصيلاً ينبع من نفس صافية مؤمنة لم تغرها المادة ولا أطايب الحياة التي كانت تراها وتمر بها من الكرام، وكان لا شيء في هذه الدنيا يعنيها بمقدار ما تعنيها حياتها هي، فلطالما هدهدتها بيديها، وملأت أسماعها بأهازيجها الحلوة، وهي تشدو بها في هدأة الليل لتحيل وحشته إيناساً ومحبة، وهي تعرف أسرار ذلك العشق الذي كانت تمارسه أمها معها، فقد كانت محبوبتها في هذه الدنيا تكاد ترى أضواء الفجر من خلال ابتسامتها الصغيرة.

وترتبط ذكرى وفاة أمها في تلك الليلة العاصفة بمزيد من الوجع، تحس به يطعن قلبها الصغير، فلطالما نامت هي على ذراعي أمها. أما في تلك الليلة فقد أسندت رأسها إلى ذراعيها الصغيرتين في حنان بالغ، وكأنها تكاد تمسك بمعالم الجمال في هذه الدنيا الواسعة.

لم تكن تعرف أنها ماتت. وإنما جل همها هي أن لا تستيقظ أمها من سباتها العميق بعد تلك الحمى التي أصابتها فجأة في غفلة من تواجد والدها الذي ذهب لحضور عرس ابن من أبناء أصدقائه، حتى إذا ما عاد مع الفجر رأت في معالم وجهه اليأس، فكأنه قد كبر وشاخ فجأة، ومضى يذرف دموعه في صمت، بينما يداه تمتدان

لتمسكا بها في حنو وهمس.

وتلقي برأسها على صدره في إجهاشة من تريد أن تعرف ما الذي جرى لأمها حتى لا تصحو؟ لكن والدها كان غير قادر على أن يفهمها حقيقة ما يجري فجاءت جارتهم أم حسان زوجة البستاني لتأخذها على مهل وهي تبكي..

كثيراً ما سألت أم حسان عن أمها بعد أن رحلت، وسألت والدها أيضاً، لكن جوابهما كان واحداً، فأمها قد ذهبت في رحلة مع الصباح إلى ديار القمر، ترمق أكاليل الغار، فتذروها رياح تشرين في سماء المحبة.. ألفاظ عرفت بعضها، أغلق فهم بعضها عليها لدرجة جعلتها تناشد أم حسان أن تقول لها الحقيقة..

وهي تذكر كلمات المرأة:

ـ عندما تكبرين تفهمين معنى رحيل الإنسان إلى المكان الذي لا عودة منه.

ذلك أمر مضى، وانقضى عليه أكثر من ثمانية أعوام، لكنه يظل في ذهنها حتى بعد أن عرفت معنى الموت.. هذا الشيء الذي لا يمكن أن يهرب منه الإنسان.. يأتي بلا موعد، وكان الإنسان في هذه الدنيا عابر سبيل يسير في غابات الأشواك، وهو لا يعرف متى تقضي على أحلامه أحاسيس الغصة، يحس بطعمها في فمه، لا يدري من أمرها إلا أنها جاءت تتسربل برداء الحزن تعلنه على رؤوس الأشهاد في صحوة من يدري ومن لا يدري.

ويطول بها الزمن، رغم عمرها الصغير، تفكر في هذا الحدث الذي حرمها رعاية أمها وهي في أمسّ الحاجة إلى الرعاية، لدرجة جعلتها تشك في كثير من الأمور، فنوازع الخير في النفوس قد تمنح النفوس الراحة وقد تمنعها، لكن الإيمان هو وحده الذي يستطيع أن يمنع الشك من أن يتغلغل في قلبها الصغير.

ويعاتبها أبوها على هذا الحزن الذي يراه ينحط في أعماق أعماقها صورة قاسية لملامح أنثى فقدت أعز ما عندها، وهي الأم، فيهدىء من روعها بلا جدوى، لأنها كانت قد جبلت من طينة عطَّرها الحزن، وضمخها الألم برداء

الليل القاسي عندما عرفت معنى الموت وهو ينصب على رأس أعز مخلوقة عليها. وشعرت بالخواء يتجسد على وجهها بعلامات فارقة كانت دليلاً حسياً على معاني الألم وإحساسات العذاب لدرجة جعلت والدها يعلن استسلامه للقدر هو الآخر عندما رأى أنه غير قادر على انتزاع البسمة من شفتيها.

فهذا القصر على رحابته لا تكاد تشعر أو تحس بما فيه، لأن نفسها قد عافت كل هذه المظاهر، وأصبحت بلا عزاء. حتى والدها أصابه نوع من الذهول لهذا الألم الذي يكاد يبتلع حيرة ابنته في صمت، فحاول من جانبه أن يسري عنها بشتى الأساليب، لكنها لم تكن تطيق كل هذه الأحاديث فهي تعرف أنها أصبحت وحيدة، ووحدتها نابعة من أنها بلا أم.

ويوم جاء إليها محدقاً في عينيها وهو يقول:

ـ لقد قر عزمي على أن أقترن بخالتك، فهي أقدر من يستطيع أن يحل محل أمك.

لم تجب وإنما رمقته بعينيها رمقة من يرى بأن من حق هذا الأب أن يعيش ويتمتع بحياته.

كانت خالتها صورة مصغرة من أمها التي تحب.. لكنها لم تكن تملك ذلك الخيط الذي يجعلها تشد إليها، فهي وإن كانت خالتها، إلا أنها في موقعها هذا تعتبرها دخيلة، دخيلة جداً.

ولقد حاولت خالتها أن تمنحها من الحب ما تقدر، حتى إذا ما جاءت بابنها البكر، مضت تعنى به، وهي تعرف بأن هذه العناية أمر مفروض لأنه وليدها.

ومع هذا فلم تحاول خالتها أن تنسى وجودها أو تتناساه وإنما كانت تتفانى في إرضائها على أمل أن تزيل غشاوة قلبها منذ تلك الليلة.

كثيرون هم الذين يفقدون أمهاتهم أو آبائهم فجأة، لكن قلة منهم على شاكلتها، فالإنسان، أي إنسان، قد يسلو وقد ينسى وقد يتناسى.. إلا هي، ربما لأن هناك خيوطاً كثيرة تربط بينها وبين تلك التي رحلت.

ومضت تنظر إلى غرفة أمها التي طلبت من والدها أن تبقى على ما هي

عليه، فلم يبخل، وإنما أجابها إلى طلبها وإن كان في قرارة نفسه يظن كأنه عندما يلبي هذه الرغبة إنما يجسد آلامها وأحزانها في كل مرة تزورها، فتنازل عن الغرفة لتصبح كما هي وفقاً لإرادتها.

وهي تزور الغرفة لترى معالمها المحفورة في أعماق أعماقها، ثم تتخيل تلك الليلة. لماذا لم تأخذها أمها معها؟ فسر تعاستها يكمن في أنها بلا أم.. وتدفقت الدموع من مآقيها في هدوء، وكأنها بهذه الدموع تلملم ذكرياتها الحزينة، في أسلوب من يعرف أن الحزن الدائم هو أشبه بالظلام الدامس لا يمنح الشموع مكاناً لتضيء.

إن الحزن صنو للألم، يعيش الإنسان متاهاته في رغبة حيناً وبدون رغبة في أكثر الأحيان، ولهذا كثيراً ما هرب الناس من أحزانهم إلى أماكن جديدة غير تلك التي عرفت أحزانهم حتى إذا ما تسلل النسيان إلى قلوبهم عاودوا رحلة الحياة في هدوء. أما هي فلا تدري لماذا أصاب قلبها كل هذا القنوط.

قد تكون ذكريات طفولتها تراودها في حرية تعلن لها في صور كثيرة ظروف تلك الحياة التي عاشت بهناء ترتاد كل مكان في البيت والحديقة مع تلك الأم التي أحبت ثم فقدتها فجأة، وفقدت بفقدها طعم الراحة. ستحاول من الغد أن تطلب منه أن يبعدها عن البيت، فهناك أماكن كثيرة يمكن لها أن تظل فيها.

وتتحدث إلى خالتها في هذا الأمر، فترى في وجهها إشراقة الأمل، وهي تطلب منها أن ترحل مع والدها حول هذا العالم، فلربما استطاعت أن تنسى أحزانها بعد العودة لكنها تجيب بأنها ترغب في أن ترحل بمفردها.

وتجيبها خالتها:

ـ وكيف يمكن ذلك؟

ـ قد يستطيع والدي تدبير الأمر، فيلحقني بمدرسة داخلية في سويسرا مع صديقتي نهى التي تركت المدرسة هنا منذ شهور.

ـ ولكن ما يدريني أنه يوافق وهو الذي يتألم في صمت وهو يراك؟ فكيف يكون ألمه عندما لا يراك؟ لا، لا أستطيع أن أطلب منه ذلك..

وتجيبها:

ـ إذا كنت فعلاً تحبينني يا خالة فدبري لي هذا الأمر فأنا أكاد أجن في هذا البيت رغم حبه وحبك.

وتصمت خالتها قليلاً ثم تقول:

ـ دعي لي الأمر فأنا واثقة أنه عندما يعرف بأن تلك هي رغبتك فلن يمانع.

أويمكن للإنسان أن يذكر تفاصيل كل ما قاله وسمعه؟ لقد ارتبطت بذاكرتها أحداث الماضي، ذكرى تلك الليلة التي فقدت فيها أعز من أحبت، فلم تعد في حاجة إلى حنانه، يكفيها أن تنسى، وهي تعتقد جازمة أن الرحيل أول درجات النسيان.

وتغادر موطنها في عروس البحر الأحمر إلى لوزان لتلتحق بالمدرسة ذاتها التي التحقت بها زميلتها.

لقد أحست بادىء ذي بدء بقسوة الحياة في ديار الغربة، لكنها مع الزمن اعتادت عليها، فلم يعد يشغل بالها سوى أمر الرسالة التي اتفقت مع والدها على أن تكتبها إليه قبل أن تنام.

كانت تذكر في الرسالة تفاصيل ما يجري في الفصل وفي الفسحة، وكأنها تنقش تقريراً ضافياً عن حياتها، لكنها مع هذا كله تشعر بكثير من الراحة فالذين يفضفضون عن أنفسهم لا يشعرون بثقل الحياة أو قسوتها أيضاً.

وكان والدها بدوره يبثها حنانه من خلال كل ما يكتب، وكأنه هو الآخر يضمّن كل كلمة من كلماته نبضة من نبضات قلبه ذلك الذي يحبها، ويرى أن الحياة بكل جمالها لا تساوي عنده بسمة من شفتيها الصغيرتين.

ويطول بها المقام في تلك المدرسة وهي تحاول أن تمسك بخيوط المأساة في نفسها لتلقي بشبحها بعيداً بعيداً، لتتجه إلى الألوان تمزجها في رفق لتصنع منها أخاديد جديدة ترسمها ريشتها في تعابير مذهلة، فلقد استطاعت أن تفوز بجوائز الرسم في كل موسم لدرجة غيرت فيها أفكار أولئك الذين يعتقدون أن الصحراء لا يمكن أن تهب لهذه الدنيا فناناً أو فنانة.

لقد استطاعت بطبيعتها الهادئة أن تغرس المفاهيم الأصيلة عن تربتها العبقة

ببخور التاريخ، وكانت في ذلك قادرة ومتمكنة، فلم تَلِنْ لها قناة، ولم تهدأ لها نفس عندما ترى عدم الفهم يسود أذهان من تلقاهم عن بلادها.

وأخذت تتطلع إلى أهداف جديدة من وراء الصدمة، فكانت خير سفيرة لبلادها على تلك الأرض.

لقد قارنت بين ما تراه هنا من جمال وهبه الله لهذه الأرض وبين أرضها، فكانت تحس بالحنين إلى تلك الأرض. ففي كل ركن من أركانها قصة ذات مغزى ومعنى وهدف.. واستمرت أيامها تحاول أن تجدد فيها حتى لا تصاب نفسها بالملل والكآبة.

واستقر في ذهنها أن تقيم معرضاً لرسومها التي خطتها بيد الزمن على حواف هذا العالم المضطرب، فكانت رسومها نسيجاً مغايراً لما تعارف عليه الناس.

فلقد استطاعت يد هذه الرسامة أن تمزج بين الأحمر والأصفر والأخضر من الألوان ليأتي لوناً جديداً مميزاً، طابعه الحزن والتفاؤل في وقت واحد، وكأنها تحاول أن تدفع ضريبة تلك الليلة ولكن بأسلوب جديد.

وهدأت نفسها بعض الشيء، وكأنها قد وجدت الطريق أمام قدميها الصغيرتين فكثيراً ما تهدأ النفوس عندما تجد السبيل إلى هذا الهدوء.

وانغمست في هوايتها، لدرجة أصبحت بعدها الرسامة الصغيرة التي تعرف كيف تختار موضوعات لوحاتها.

وكانت معلمتها تنظر إليها بإكبار وتغرس في قلبها حب هذه الهواية، حتى إذا ما كثرت لوحاتها، طلبت منها أن تعرضها في متحف الصور بالمدينة، والذي لا يقبل عادة إلا رسوم كبار الفنانين.

ولقد حملت معلمتها لوحتها التي أسمتها «وجه تحت الماء» إلى اللجنة التي رأت على الفور بأنها تستحق أن تعرض لوحاتها في هذه الأرض.

وعندما حملت لها معلمتها موافقة اللجنة أحست بمزيج من الراحة والحب لهذه السيدة التي واكبت هوايتها في صبر، وبدأت تكتب إلى والدها رسالتها المعتادة لكنها في هذه المرة لم تُطِلْ كلماتها وعباراتها وإنما حاولت أن تشرح

له في إيجاز ما توصلت إليه، ورغبت منه أن يقدم في موعد المعرض ليشاركها فرحتها بهذه المناسبة.

ولقد أحست بنشوة عارمة وهي تجسد مراحل طفولتها وهنائها وشقائها في لوحات مضيئة منحتها الألوان القدرة على النطق لدرجة جعلتها لا تدري كيف استطاعت ريشتها أن تهب كل هذه الجراح إلى هذه اللوحات.

ولقد أجمع النقاد على أن الصحراء قادرة على أن تهب إحدى بناتها القدرة على تجسيد ظروفها وأوضاعها، لكنهم جميعاً أجمعوا على أن طابع الغربة والحزن يكاد يطل من كافة الصور والألوان في أشكال متباينة لم تستطع هي أن تعطي تفسيراً لها.

ربما لأن ذكريات تلك الليلة، يظل عالقاً بذهنها، هي التي عاشت سنوات حياتها ترمق ظروف كل الذي صار.

لكنها مع كل هذا كانت تنظر كما ينظر النقاد إلى أن أجمل صورة كانت صورة «وجه تحت الماء».

كان الوجه وجه أمها، وهي تعاني سكرات الموت بينما يضيء معالم الوجه إحساسات السعادة من بين رحيق الآلام التي كانت تصطرع في وجه الأمواج العاتية، أشبه بأنثى لم تفقد أنوثتها وجمالها، وإن فقدت حياتها أمام الأعاصير.

ويرتفع الموج عالياً فتنبجس في النهاية عن ابتسامة الوجه المشرق بتفاصيل الحب تتسلل إلى كل ذرة من ذرات أعماقه في هدوء وبلا جلبة.

فهذا الوجه الرائع يستقبل الموج والموت لا يفرق بينهما سوى إيمان من يعتقد أن الحياة ليست سوى بسمة تفاؤل.

كانت ألوان اللوحة مزيجاً بين الأزرق والأحمر والوردي، وقد أضافت إليه الفنانة شيئاً من اللون الأخضر الذي امتزج مع اللون الأحمر، ليعطي لوناً جديداً يكاد من يراه يحس بالحيرة لمعانيه فهي تختلف من إنسان لآخر.

كل واحد منهم يرى في هذا اللون الجديد معنى يختلف في شفافيته ورقته عن الآخر، وكأنها أرادت هذا عن عمد.

فالألوان ليست مجرد أشكال تراها العين، وإنما هي نماذج لإحساسات تعيش في الصدر وتحملها دون أن تدري.

وتكتفي بهذا القدر من العمل ثم تمضي إلى الحديقة لترى عن كثب ألوان الزهور وهي تتطاول بسيقانها على الأرض فتستمد من هذه الرؤيا العون على أن تمضي في هذه الدنيا بصدر مفتوح وقلب مفتوح أيضاً، فالأحزان لا يمكن أن توصلنا إلى الشط الذي نرغب.

وعادت من جولتها في الحديقة التي عرفتها لتطالع الوجه الذي أحبت وهو يخرج من تحت الماء وكأنه يرجوها أن تمضي في رحلة الهدوء التي بدأتها.

وتمعن النظر في الصورة التي رسمت لتجدها وكأنها تسبح في هدوء بين الأمواج الدافئة، وهي تطلق ضحكة حب صغيرة أحست بها واستمعت إلى الصوت، صوت أمها وهو يدق في أعماق أعماقها بأن الدنيا هي الدنيا، لا مكان فيها لإنسان دائم، وإنما المكان الأول والأخير لمن يزرع الحب ليحصد الحب والهناء.

وتمتمت شفتاها دعاء خافت ومضت إلى صالة المدرسة الكبيرة شامخة الرأس وقد انجلت كل آثار الحزن عن الوجه الأبيض الجميل.



الشهادة الكبيرة

ـ زينب. . زينب!!

ـ نعم يا أماه. .

ـ أخاف عليك من غدر الزمان فتبقين بلا زوج ولا أسرة. .

ـ وهل هذا يقلقك؟

ـ قد لا يقلقني بالشكل الذي تفكرين فيه لكنه يشغل بالي، خصوصاً وأنا أرى كيف تصرفين الخطاب عن بابك في إصرار.

ـ ولكنني صغيرة يا أماه لم أصل بعد إلى نهاية العقد الثالث. .

ـ وهي تعتبرين هذه السن صغيرة بالنسبة للزواج؟ لقد تزوجت والدك وعمري ثلاثة عشر عاماً.

وتضحك زينب وتجيب:

ـ لقد تغير الزمن يا أماه بالنسبة لسنوات الزواج، خصوصاً وأنت تعرفين بأنني في السنة الأخيرة في الكلية.

ـ قد يكون ذلك صحيحاً لكن ما المانع أن ترتبطي بسمير؟ ألا ترين أنه هو أهل لك؟

ـ قد تختلف نظرتي إلى الزوج عندما أنتهي من نيل شهادة الدكتوراه. .

ـ ولكن الشوط كبير والعمر يفوت وسنوات الدراسة يا بنتي طويلة، قد تكونين واثقة من الحصول على هدفك لكنني لا أريد أن تصلي إلى هذا الهدف على أشلائك كأنثى.

ـ ومن قال ذلك يا أماه؟

ـ أنتِ التي أوحيت لي بذلك فلو قبلت الزواج من سمير، لهدأ روعي وعرفت أنك ستصلين إلى النتيجة التي تريدينها خصوصاً وقد أكد ابن عمك لي ولك ذلك.

ـ وما يدريك أنه سيغير رأيه بعد اقترانه بي فهو كما تعرفين عمل بالثانوية وأصاب نجاحاً كبيراً لم يتوقعه أحد منه، ومع هذا أخاف أن أجيبه إلى طلبه فيرفض أن يمنحني فرصتي..

ـ وتقولينها بعد كل هذا التأكيد؟

ـ لا أدري يا أماه دعيني أفكر ولا تقطعي برد، فقد أجيبك قريباً وخلال أسبوع وأجيبه هو أيضاً..

ـ أوقلت له ذلك؟

ـ نعم.

ـ وماذا أجاب؟

ـ لا شيء وإنما بدا لي وكأنه مقتنع بصدق قولي..

وأطرقت زينب بوجهها إلى الأرض وكأنها تحاول أن تستقرئ ذلك الماضي البعيد، حديثها مع أمها.

لقد مضى على هذا الحديث أكثر من عشر سنوات، نالت فيها شهادتها الكبيرة وأصبحت تحمل اللقب العلمي الذي أحبته ومضت تؤدي واجبها في الجامعة، ولكنها بقيت وحيدة.

لماذا؟ لأن سميراً لم يقتنع بإجابتها كما لم يقتنع كل الذين جاءوا لخطبتها، فقد كانت تحلم بالشهادة الكبيرة والمركز المرموق، وكانت تأمل بالذات من سمير أن ينتظر يوم تخرجها، لكنه لم ينتظر بل سارع على الفور إلى عقد قرانه بواحدة ممن قنعن بالبقاء في البيت.

ترى أوتنسى ذلك الحديث الذي دار بينها وبين أمها؟ فلقد أثبتت الأيام صدق حدسها، فالكل يرهب التقدم لواحدة مثلها وهبت سنوات حياتها كلها للعلم، حتى إذا ما غدت بها مسيرة العمر جاءت الشهادة الكبيرة كحائط مسدود يحول بين الكثيرين وبينها لماذا؟ لا تدري..

وأمها أين هي؟ أدت واجبها في الحياة ثم مضت بعد أن استحلفتها بأن لا ترفض أول خاطب، ولكن أين هو؟ إنها تفتقده الآن. فمن الذي يعرف كيف يقدر تضحياتها التي قدمتها على مذبح العلم، وسنوات عمرها التي مضت في الجري وراء حلمها الذي تحقق؟ لقد بدأ الشيب يغزو مفرقها كهالة من نور، لكنها لم تدرك معاني مجيئه إلا بعد أن هدأت نفسها واستراحت من التفكير في الشهادة الكبيرة التي منحتها التفوق والمركز العلمي المرموق وإن لم تمنحها الاستقرار النفسي الذي تنشد والزوج والأسرة.

ومضت تجمع كراريس الكتب في طريقها إلى الجامعة، وهي تفكر في الماضي، كيف ذهب..

سنوات عمرها التي انقضت كيف ذهبت..

كل شيء في حياتها يبدو باهتاً لا ظلال له، حتى البيت أصبح بارداً شديد البرودة فهي تقطن فيه بعد وفاة أمها بمفردها، تقوم على خدمتها امرأة عجوز أحبتها كل الحب ومنحتها عطفها فلم تبخل بشيء عليها.

ترى أويكفي المرأة أن تعيش على هامش الحياة دون زوج أو ولد؟ ولماذا لم تقنع بحديث أمها فتقبل الزواج بواحد من أولئك الذين طرقوا بابها يوم كانت في أوج شبابها؟

أويمكن أن لا يقبل أحدهم بأن يمنحها فرصة الحصول على الشهادة الكبيرة؟

مجموعة من الأسئلة طافت بمخيلتها وهي في طريقها إلى الجامعة، لكنها لم تصل إلى جواب مقنع على كل أسئلتها.. لماذا؟ لا تدري!

ربما أمها هي السبب في هذا الذي يحيط بنفسها اليوم من ظلال، فلو حاولت تغيير منهجها واختلطت بمعارفها لتسنى لها أن تصل إلى الزوج الذي تريد. لكنها بأسلوبها الذي اختارته أصبحت بعيدة عن قلوب الناس، لأنها كانت تحب الوحدة تصنع منها ما يساهم في وصولها إلى الهدف الذي وضعته نصب عينيها.

واليوم وبعد أن تحقق كل ذلك لها ومضى على تحقيقه أعوام كثيرة، لماذا

لا تغير أسلوب معيشتها، فتبحث عمن نأت عنهم، فلربما جادت لها الأيام بزوج ترضى عنه ويرضى عنها.

ولكن هل كل همّ المرأة أن تتزوج؟

وجاء الجواب قاطعاً هذه المرة، وإن كان أضاف شيئاً آخر إلى الزواج هو أن تنجب أيضاً، فهذه هي سنة الحياة! وابتسمت في هدوء، ومضت تؤدي محاضرتها بجد كعادتها وتطالع في الوجوه النضرة شبابها.

حتى إذا ما جاءت إليها سعاد باكية تسألها عن السبب، وعندما عرفت فضحكت وقالت:

ـ لا عليك يا سعاد فأمك على حق، تزوجي يا بنتي وأكملي تعليمك ولا تكوني مثلي.

ـ ولكننا جميعاً نراك مثلنا الأعلى!

ـ هذا صحيح ولكن إلى حد ما، فالزواج يا بنتي ضرورة من ضروريات الحياة للمرأة، وأنت تستطيعين بما تملكين من وسائل الإقناع أن تجعلي زوجك يرضى بأن تكملي تعليمك، وبهذا تنالين الفضيلتين. انظري إلي، فأنا اليوم وبعد هذا السن أتوق إلى أن أتزوج..

ـ وما المانع يا سيدتي في أن تتزوجي؟

ـ ذهب الخطاب يا سعاد عن بابي بعد أن قطعت كل سنوات هذا العمر.

والتفتت سعاد إلى أستاذتها وقالت:

ـ قد تكونين على حق، لكن ما أعرفه يغاير ما تقولين.

قالت زينب:

ـ وماذا تعرفين؟

ـ أعرف أن الكثيرين من أساتذة الجامعة يأملون أن تَرضي بواحد منهم كزوج.

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ أخي الدكتور محمود، فكثيراً ما كان يحدثنا عن قدراتك وإمكاناتك العلمية ويتوق إلى أن يتقدم لخطبتك، ولكنه خائف أن ترفضيه كما رفضت الكثيرين.

وضحكت زينب وقالت:
ـ لا عليك. قولي له: الأيام قد غيرت الكثير من أفكاري.
وأجابتها سعاد:
ـ أويعني هذا أنك تقبلين خطبتي لك لأخي الدكتور محمود؟
ـ ومن أعطاك هذا الحق؟
ـ هو الذي قال لي ذلك، ولقد حاولت أن أنقل حديثه إليك لكنني لم أجرؤ.
وابتسمت زينب وهمست في أذن سعاد:
ـ بل قولي له إني موافقة وليكن يوم زفافي هو يوم زفافك يا سعاد.. فأنا أعرف الدكتور محمود وأعرف أنه زينة الرجال، ولهذا تجدينني موافقة ومرحبة أيضاً. أوليس الزواج بداية الحياة لنا نحن الحرائر؟ وأنا أريد أن أبدأ حياتي ولو كان بدئي لها متأخراً بعض الشيء
وضحكتا معاً وافترقتا على لقاء..
لكن سعاد لم تذهب سوى خطوات عادت بعدها:
ـ أستاذتي زينب؟
ـ نعم يا بنتي.
ـ هناك موضوع آخر أود أن أشرحه لك...
ـ وما هذا الموضوع؟
ـ أوتعرفين أن الدكتور محمود كان قد تزوج؟
ـ أعرف يا بنتي أنه تزوج زميلته الأجنبية، وأنه أنجب منها ولديه، ثم عادت زوجته إلى أهلها بلا رجعة، ولهذا أنا موافقة. لقد أخطأ الدكتور، بزواجه من الأجنبية وأخطأت أنا بعدم الزواج مبكراً عندما كان الخطاب يتكاثرون على باب بيتي لكن ما يسرني أنني سأتزوج وأكون أماً لولدين في آن واحد، وهذا في نظري سيمنحني الكثير من السعادة. أولا يكفي هذا يا سعاد؟
وأجابت سعاد في همس:
ـ نعم يكفي وأكثر يا أستاذتي العزيزة.

الثرثارة الكبيرة

دنيا الناس ملأى بالأراجيف، تتناقلها الأفواه فيما بينها دون أي تفكير، وكأنها مجرد حكايا يحاول رواتها أن ينمقوها ويضيفوا إلى أحداثها صوراً مشوقة، كجزء من حياتهم، أولئك الذين عاشوا وماتوا على نقل الحكايات يروونها في إحساس بالراحة.

وهو يستمع إلى كلمات الإثارة تنطق بها الشفاه الملونة في ترنيمة غريبة.. أحس من خلالها بشيء من الشماتة يحيط بكلمات الراوية التي أخذت تفند كل كلمة تقولها، وتزيد في حواشيها، حتى إذا ما انتهت من حديثها قال وفي هدوء:

ـ ومن أين لك كل هذه المقدرة على اختراع الأقاصيص يا سلوى؟

وضربت سلوى على صدرها بدهشة وقالت:

ـ ومن قال لك بأنني قد اخترعت ما قلت؟ فأنا كما تعرف، لا أحب مطلقاً أن أتحدث عن الناس بما يسوؤهم.

ونظر إليها من زاوية عينيه وقال:

ـ أوتصدقينني عندما أقول لك بأنك أنت دائماً تخترعين أحاديثك وقصصك عن الناس في محاولة لجلب انتباه من يستمع إليك، وكأنك من أولئك الذين ينطبق عليهم القول: (يصنعون من الحَبَّة قُبة) أليس كذلك؟

وطأطأت سلوى برأسها إلى الأرض وقالت:

ـ هكذا أنت، تنظر إلي دائماً نظرتك التي عرفت منذ أن كنا

صغاراً.. فلا تصدق كلماتي، بل تذهب بعيداً إلى درجة أنك لا تكذبها فقط، وإنما ترفضها وكأنني أختار حكاياتي من عندي.

ـ لا!

قالها في حزم وتابع:

ـ فالأمر غير ما ذكرت. قد يكون لبعض الحكايات أصلها الصغير الذي تضيفين إليه حواش كثيرة، فأنت قادرة على التخيل، تحكمين التصوير، وهذا هو سبب غضبي منك. لطالما حذرتك من أن من يحكي على الناس سيأتي اليوم الذي يحكي الناس عنه.

وصمت، لكنها لم تصمت، وإنما مضت تبكي في حرقة وكأنها تأمل أن يهدهدها هذا الذي تناسى كل بكائها ومضى يفكر في أصل الحكاية التي يعرفها جيداً.

فسلوى رغم صداقتها لسهاد إلا أنها دائماً كانت تنظر إليها نظرتها إلى ضرة، لأنهما كانتا على النقيض في جميع تصرفاتهما وأساليبهما. كانت الأولى ثرثارة تحب الكلام وتجيد تنميقه، تتحدث عن هذه وتلك بكثير من السخرية أما الأخرى فكانت هادئة الطبع، ميالة إلى تبرير مواقف الأخريات، حتى أولئك اللواتي يسئن إليها بأحاديثهن وثرثرتهن، وتتلمس لهن الأعذار، وكأنها نسيج فريد متميز عن هؤلاء النسوة.

وهو يعرف ذلك جيداً، باعتبار ما يربط بين الأسرتين من روابط متينة من جهة، وبحكم الجيرة أيضاً. فدار سهاد ودارهم على مقربة من حارة المظلوم في جدة القديمة.

سنوات من العمر أمضياها والأسرة على مقربة من الأخرى حتى إذا ما تغيرت أحوال المدينة وتطورت، خرجت الأسرتان لتعيشا في «فيلتين» متجاورتين في منطقة الحمراء.

قد تكون دقائق الحياة التي عرفها وعاشها منذ الصغر قد أعطته القدرة لأن يعرف ما تريد أخته سلوى وما تريده صديقتها التي عرف، لكنه مع كل ما عرف يود أن يلجم لسان سلوى هذه الثرثارة الكبيرة، دون أن يستطيع، لأنها كانت

قد استمرأت اللعبة.

وأصاخ بسمعه إلى صوت أخته وهي تتحدث في حنق إلى أمه بعد أن تركته في مكانه على كرسيه، وكم حاولت أمه أن تهدىء من روعها بلا جدوى، فقد عز على سلوى أن لا يصدق فريد كل ما قالته.

فسهاد، كما تعرف، لم تفسخ خطوبتها من عماد وإنما عماد، هو الذي لم تعجبه سهاد بعد أن رآها وتعرف إليها..

وضحك في «كمه» وهو يستمع إلى صوت أمه قائلة:

ـ حرام عليك يا بنيتي أن تقولي ما تقولين عن سهاد صديقتك، فالذي أعرفه مغاير لكل ما تقولين، ومع هذا ـ وإن صدق كل ما قلت ـ أما كان الأجدر بك أن لا تقوليه أنت التي تحبين سهاداً، ومن كل قلبك؟

وهزت سلوى رأسها، وقالت:

ـ قد يكون ذلك صحيحاً. لكنني أقرر ما سمعته من أخت عماد التي نقلت إلي ونحن في طريقنا إلى مختبر الكلية أسباب هروب أخيها من خطبة سهاد بعد أن قدّم لها «الشبكة»، وتحدث إلى أبيها أكثر من مرة.

وضحكت أمه وقالت لسلوى:

ـ لا تصدقي كل ما يقال، فأنا أعرف الحقيقة أكثر منك..

ـ وما هي الحقيقة؟

ـ ذلك شيء لا أستطيع أن أتحدث به إليك، لأنني أعرف بأنك صاحبة لسان «فلتان» لكن على أية حال، ليس الحقيقة كما ذكرت...

ـ ولكني أريد أن أعرف يا أماه الحقيقة التي تقولين عنها..

ـ أوتصدقينني إن قلت؟

ـ ولم لا وأنت أمي؟

ـ لقد قالت لي سهاد بأن عماداً شاب طيب، لا غبار عليه، تتمناه أية فتاة، لكنها هي نفسها لا تريد أن تتزوج الآن.

ـ ولماذا سمحت لأمه وله بأن يروها؟

ـ لذلك حكاية طويلة لا أريد أن أرويها، لكنني أثق بصدق ما أعرف، فلقد انصاعت سهاد لرغبة والدها بعد أن أفهمته بأنها لا تريد الزواج الآن، وعندما أصر عليها بذلك قالت: لا بأس يا أبي ولكن على شرط!! فسألها: وما هو هذا الشرط؟ فقالت: أن أراه ويراني، فإذا لم أجد فيه ما يرغبني في الزواج منه تنازلت أنت عن حقك في إرغامي، وقد اتفق والدها مع عماد على ذلك، ثم جاء الرفض من جانبها.

ـ دون ما سبب؟

قالت سلوى. وأجابت الأم:

ـ لا، وإنما كان هناك أكثر من شرط أرادت سهاد عن طريقه اختبار قدرة عماد على التضحية، وعندما أحست باستعجاله على الزفاف قالت كلمتها ومشت.

ـ وماذا كان شرطها؟

ـ أن ينتظر حتى تنال شهادة الدكتوراه. . .

ـ ولكنه شرط مجحف، فسهاد في البكالوريوس وستمضي عليها سنوات طويلة قبل أن تنال الدكتوراه، ومعنى هذا أنها ستتوغل في العمر، وتكبر لدرجة لن تجد بعدها مثل عماد.

ـ ذلك رأيك، أما هي، فعندما رفض عماد الانتظار رفضت أن تتزوج به، وقالت بوضوح إنها غير مستعدة للتضحية بتعليمها ودراستها، وإذا وافق عماد على هذا الشرط فقد كان لديها شرط آخر، هو أن يستمر هو أيضاً في دراسته ليصل إلى الدرجة العلمية نفسها التي يسعى إليها أخوك، فعماد كما تعرفين زميل وصديق لأخيك، لكنه ترك الدراسة بعد أن نال شهادة البكالوريوس في التجارة ليعمل مع والده.

ـ إذن، معنى كلامك أن سهاداً تتوق للزواج بأخي الذي أراه هو الآخر معها ضدي عندما أتحدث عنها؟

ـ لا أدري ولكن بإمكانك أن تسأليها أو تسأليه. .

ـ ومن قال لك بأنني لم أسألها؟

ـ وبماذا أجابت على استفساراتك التي لا طعم لها ولا لون؟

ـ ضحكت مني، ولم تجب، وتركتني أنظر إلى السقف، دون أن أخرج بنتيجة ما.

ـ وهل سألتِ أخاك أيضاً؟

ـ ذاك أمر لا أقدر عليه لأنني أهاب أن أتحدث إلى أخي في موضوع كهذا، لكنني مع ذلك سأحاول فلربما استجاب لتساؤلي هذه المرة.

ـ ولماذا تحاولين سؤاله إذا كنت تخافين أن لا يمنحك معرفة ما ترغبين؟

ـ لا أدري، لكنني أظن أن سهاداً وأخي متفقان على شيء لا أستطيع أن أتكهن به، وإن لم تفصح هي أو هو عنه، ولكن..

ـ ولكن ماذا يا سلوى؟

ـ هناك شيء واحد، لا أستطيع أن أفهمه حتى الآن، فقدرة أخي على الدراسة أمر مفروغ منه، لأنه كان ومنذ صغره مجلياً فيها، لكنه بعد أن أصابه ما أصابه، هل يمكن أن ترضى سهاد بأن تنتظر إنساناً كأخي صاحب عاهة يمشي على كرسيه؟

ووضعت أمها إصبعيها في أذنيها وقالت:

ـ اصمتي يا سلوى. اصمتي.. فكلامك هذا يجعلني أحس بأنك لست ثرثارة فقط، وإنما أيضاً تكرهين أخاك وإلا لما تلفظت بما تلفظت!

قالت سلوى:

ـ لا يا أمي. فأخي بالنسبة إلي شيء لا يمكن أن يكون كما قلت، لكنني أناقش حقيقة ما نحن فيه. ومناقشتي لهذا الموضوع، نابعة من معرفتي بعاهة أخي. ولهذا تجدينني أخاف عليه أن يصاب بشروخ في قلبه في النهاية، كما أصيب بجروح في جسده إذا لم تكن سهاد صادقة في انتظارها له.

وأجابتها أمها بصرخة ثانية، وقالت:

ـ اصمتي يا سلوى اصمتي..

وفي لحظات كان هو في الغرفة يهدهد أمه يسألها في لهفة عن سبب صرختها التي يعرف، لكنه حاول أن يفهمها وسلوى أنه لم يستمع لحديثهما

ومضى يتحدث إلى سلوى قائلاً:

ـ ماذا فعلت لأمي حتى جعلتها تصرخ هكذا؟

وأجابت سلوى في خوف:

ـ لا شيء، مجرد حديث طويل، خرجنا منه ونحن على غير اتفاق، فهي ترفض أن تمنحني إذناً بالذهاب إلى عرس مهى.

ـ هكذا إذن يا سلوى؟

ونظر إليها في عمق، وكأنه يريد أن يستشف ما بداخل أعماقها، لكن أمه واصلت الحديث قائلة:

ـ أنت تعرف أنني لا أرفض لها طلباً، لكنها لا تريد فقط الذهاب لحفلة العرس هذه، وإنما تريد أيضاً شراء فستان جديد لهذه المناسبة وأنت تعرف أن خزانتها ملأى بالكثير الكثير منها.

والتفت إلى سلوى وقال:

ـ لا عليكِ يا سلوى، فها هي ذي النقود تحت أمرك.

وأدخَل يده ليخرج حافظته من جيبه، ثم دفع بمبلغ من المال إليها، وخرج وهو يفكر في كل ما سمع، بينما صوت أمه يخالط ذهنه وهي تقول:

ـ هكذا أنت دائماً تدللها كثيراً لدرجة أخاف أن تفسدها يوم تتزوج.

وضحك في كمه قليلاً، فقد استطاع أن يقنع أمه وسلوى بأنه لم يستمع إلى حديثهما الذي بدأ يشغله أمره، ومضى يفكر كثيراً في أمر ذلك الاتفاق الذي تم بينه وبين سهاد. لقد مضى على وعدها له أكثر من ثلاث سنوات، فهي تعرف أنها له وهو لها ولهذا كانت ولم تزل تنتظر ذلك اليوم الذي تزف إليه. وعاد بذاكرته إلى حديثها الذي لا يزال يطل من بين ضباب الأيام، صورة صادقة لتلك الأنثى الرائعة التي يزداد حبه لها رغم كل ما يلاقيه، فأنثاه لا تزال على عهدها تنتظر تخرجه وتنتظر مع التخرج إرادة الله التي يأمل أن يمن عليه فيها بالشفاء.

فعاهته هذه ليست وليدة الأمس القريب، ولقد تحدث معها عنها كثيراً، لدرجة جعلته يسترجع صدى ذكرياته، وكأنها أمامه تقول وهو يذكر كل ما قالت:

ـ لا تقل شيئاً عما أصابك، فبمقدار ما آلمني مصابك الذي أحس أنك تعاني منه كثيراً، فإنني أثق بقدرتنا على اجتياز المحنة، فأنا وأنت من طينة جبلت على الحب والوفاء، والقدرة على اجتياز المصاعب.

ـ أونسيت أن الإنسان في هذه الدنيا أسير قدره؟

ولقد قال لها يومها كلاماً كثيراً، يذكر بعضه، ولا ينسى البعض آخر..

ـ ستندمين يا سهاد على إصرارك على الاقتران بي، أنا الذي أصبح من الصعب علي أن أكون زوجاً وأباً ناجحاً وأنا على ما أنا عليه من علة.

وضحكت في هدوء، ثم قالت:

ـ ذاك شيء لا أود أن أسمعه منك، فالرجال من أمثالك أقدر على صنع مستقبلهم منا نحن الحرائر. ومع هذا ضع يدك في يدي، ستجدني أرفض بأسلوبي كل من يتقدم لي، حتى أنال ما أريد، وتنال أنت ما ترغب.. ومن يدري فلربما استطاع الطب أن يأتي بالجديد، فتعالج هاتين القدمين اللتين أحبهما، لتعودا لسابق عهديهما كما كانتا، فلطالما جبنا معاً بساتين «الهَدَى» و«الشَّفا» معاً مع أسرتينا يوم كنا صغاراً.

ـ وإذا عجز الطب أن يفعل شيئاً؟

ـ لن يكون لذلك أي أثر في تغيير رأيي، فأنا ثابتة على مبدئي، لا أحيد عنه. أنا وأنت لبعضنا. أليس كذلك؟

وتمضي الأيام والسنون، وهو يجوب غرفته، ويذهب إلى جامعته على كرسيه الذي لازمه كل هذه السنوات، حتى إذا ما أنهى دراسة البكالوريوس، واصل الدراسة بعدها، وكأنه في سباق عجيب مع هذا الزمن الذي يأبى إلا أن تظل عاهته تلازمه.

ولقد رأى سهاد وتحدث معها كثيراً، بحكم الصلة التي تربط بين الأسرتين، واستطاع رغم محاصرة أخته له عندما تأتي لزيارتها، أن يتحدث إليها كثيراً، وكثيراً جداً، فهذه الأنثى الرائعة التي أحبها، يجد نفسه أمامها إنساناً صغيراً، لأن تضحيتها التي تُقدِمُ عليها بطيب خاطر تَكبُر في نفسه مع الأيام وتمنحه القوة لأن يمضي في طريقه إلى النهاية.

ولقد عرف من سهاد أنها تحدثت مع أمها عن كل شيء، عن الرابطة التي تجمع بين قلبيهما، وأمانيهما المشتركة، وحبهما، ورغبتهما في الوصول إلى أرقى درجات العلم.

ولقد طلبت منها أمها أن تكتم ذلك كله عن والدها، وتمضي في مسيرة العلم، حتى إذا ما نالت شهادتها الكبيرة استطاعت أن تتصرف كما تريد، ولهذا قبلت أن ترى عماداً وأن تقبل رؤيته لها، وقد بيتت أمرها على كل شيء.

ولقد حدثه عماد عن رغبته في الاقتران بها فلم يجب، وإنما حاول أن يتهرب من حديثه الطويل الذي عذبه كثيراً، حتى إذا ما ألح عليه قال له في هدوء:

ـ لماذا لا تجرب حظك معها فلربما رضيت سهاد بك. وربما رفضت؟

ـ ولماذا تظن أنها سترفض؟

ـ لا أدري لكن قلبي يحدثني بأنها تريد أن تمضي في مسيرة العلم الطويلة، وأنت إنسان على ما أعرف اخترت طريقك في الحياة بأسلوبك لتمضي في إدارة العمل الذي أراده لك أبوك.

ولقد ناقشه يومها عماد عن تعلم المرأة، وضرورة أن يقتصر على القليل، لتتفرغ المرأة إلى بيتها. فقال:

ـ قد يكون كلامك هذا ممكناً لولا أن مجتمعنا اليوم في حاجة لأن تصل المرأة إلى أرقى درجات العلم وفي الحقول التي يمكن أن تساهم بها في إسعاد بنات جنسها.

لكن عماداً كعادته أخذ الأمر بأسلوب آخر، وأصر على أن سهاداً ستوافق على خطبتها له، فتمنى له التوفيق.

ويوم جاء لزيارته مرة أخرى قال له عماد:

ـ أوتصدق أن هذه الحمقاء رفضتني؟

وبلا وعي أجابه:

ـ لا تصفها كذلك، فهي أدرى بمصلحتها منك أنت..

ـ ولكنها تريدني أيضاً أن أستمر في دراستي حتى أصل إلى الدرجة العلمية

التي تريد أن تواصل هي تعليمها لتصل إليها ويومها ستفكر فيما إذا كان من المناسب أن تتزوجني أم لا.

وصمت..

ـ وبماذا أجبت؟

ـ رفضت طبعاً، وخرجت من دارهم دون أن أتناول حتى القهوة..

وضحك في أعماقه. وقال له:

ـ أولم أقل لك إنها تطمع في إنسان يمكن أن يضفي عليها بالإضافة إلى الحب تلك الهالة التي تمنحها الدرجة العلمية؟

ونظر إليه عماد، وقال:

ـ معنى هذا أنها مثلك، لا تريد الاستقرار، وإنما البحث عن المتاعب في ظلال العلم، ولكن.

وصمت..

ـ ولكن ماذا يا عماد؟..

ـ أويمكن أن تطمع في أن تتزوجك أنت؟

قال في هدوء:

ـ أنا؟ وعاهتي؟

ـ ما يدريني أنها لا تنظر إلى عاهتك بالنظرة نفسها التي تنظر إليها أنت؟ ثم هناك من الروابط ما يجعلك قريباً إلى قلبها بحكم الجيرة والصداقة التي تربط الأسرتين؟

ونظر إلى عماد وقال:

ـ ليت ما تقول صحيحاً فأنا أدرك بأن أي أنثى لا يمكن لها أن تقبل بالزواج من إنسان مثلي، وإن كنت أتوق فعلاً أن أجد واحدة منهن!

وضحك، ولكن عماداً أجابه:

ـ ولماذا يا صديقي؟ إذا كان أمر العاهة يشغلك فأنت لك من الفضائل ما أستطيع أن أباهي أو تباهي به أية امرأة عندما توافق على الاقتران بك، وهذه

حقيقة لا أسايرك فيها.

وأجابه على الفور:

- صدقني عندما أقول لك بأنني لا أفكر في هذا الأمر بل ينصب تفكيري على شيء واحد هو أن أصل للدرجة العلمية التي أريدها وأمارس عملي كأستاذ في الجامعة وبعدها لكل حادثة حديث، ولكن لماذا تقول ذلك لي؟

أتريدني أن أصدقك القول؟ فأختي هي التي قالت لي هذا الكلام يوم رفضت سهاد الخطبة، وكأنها تحس بشيء ما داخل أعماقها، فهي الأخرى تنظر إليك بإكبار..

- ولكن من أين لأختك أن تعرف هذا، هل قالت لها سهاد شيئاً ما؟

- لا، مجرد تكهنات، لكنني لا أستبعدها، ومع هذا دعنا ننسى كل هذا الكلام، وتعال نمارس هواية الشطرنج قليلاً، فأنا سأزف بعد غدٍ إلى فتاة قد لا تعرفها، لكنها في رأيي أعقل بكثير من سهاد، وأفضل..

- ولماذا تقول هذا الكلام ألأنها قبلتك هذه ورفضتك هي؟

- لا، وإنما لأنني أخاف على سهاد من عوامل الزمن، أولا تعرف أن المرأة عندما تكبر يقل طلاب يدها فتصبح امرأة عانساً لا روح فيها ولا جمال، وعندها ستتأسف على الأيام التي أمضتها دون زواج؟

- ذاك أمر مضى وانقضى، فشباب اليوم ينظرون إلى المرأة المتعلمة نظرتهم إلى العملة النادرة، لأنها أولاً وأخيراً قادرة على فهم معاني العطاء والحب وتربية الأطفال وبناء المجتمع، فمجتمعنا اليوم في أمسّ الحاجة إلى أيدي الناعمة التي تبني في خفر وحياء.

إن جمال المرأة ليس فقط فيما نراه من مظهرها، كحلاوة الوجه ونعومة الشعر، ودعج العينين، وكل هذه الأشياء قد نراها ونلمسها، ثم تمضي عندما نكبر ويظل قبل هذا أو ذاك عقلها الكبير الذي يفهم معاني الحياة عن طريقه، وقلبها الذي يمكن أن يخفق بالحب والحنان، في رحلة الحياة الصغيرة.

لا تظنَّنَّ أنني أقلل من قيمة جمال المرأة، لكنه يظل جمالاً بلا روح عندما يكون فارغاً من محتواه، فمحتوى المرأة الصادقة هي أن تكون إنسانة تؤدي

واجبها تجاه مجتمعها وبيتها وأسرتها.. انظر إلى المرأة في المجتمعات المتقدمة تجدها تكد وتكدح وتجد أخريات منهن لا عمل لهن سوى أن يظهرن على واجهة الصحف يمثلن الإغراء بمعانيه السمجة التي تقتل أنوثة المرأة وجمالها العابر لأن سنوات هذا الجمال قصيرة وصغيرة جداً. وبعدها لا شيء.

وتركه عماد ليظل مع أفكاره وصورة سهاد والثرثارة الكبيرة التي كانت تنتظر منه أن يفتح فمه بكلمة ما بعد أن دخلت غرفته فجأة لتريه «فستانها» الجديد حتى إذا ما وجدته صامتاً قالت:

ـ أوتدري يا أخي الحكاية؟

ـ لا، ولكني مع ذلك أرفض أن أعرفها، ومنك أنت بالذات يا أختي العزيزة.

وأجابت سلوى ضاحكة:

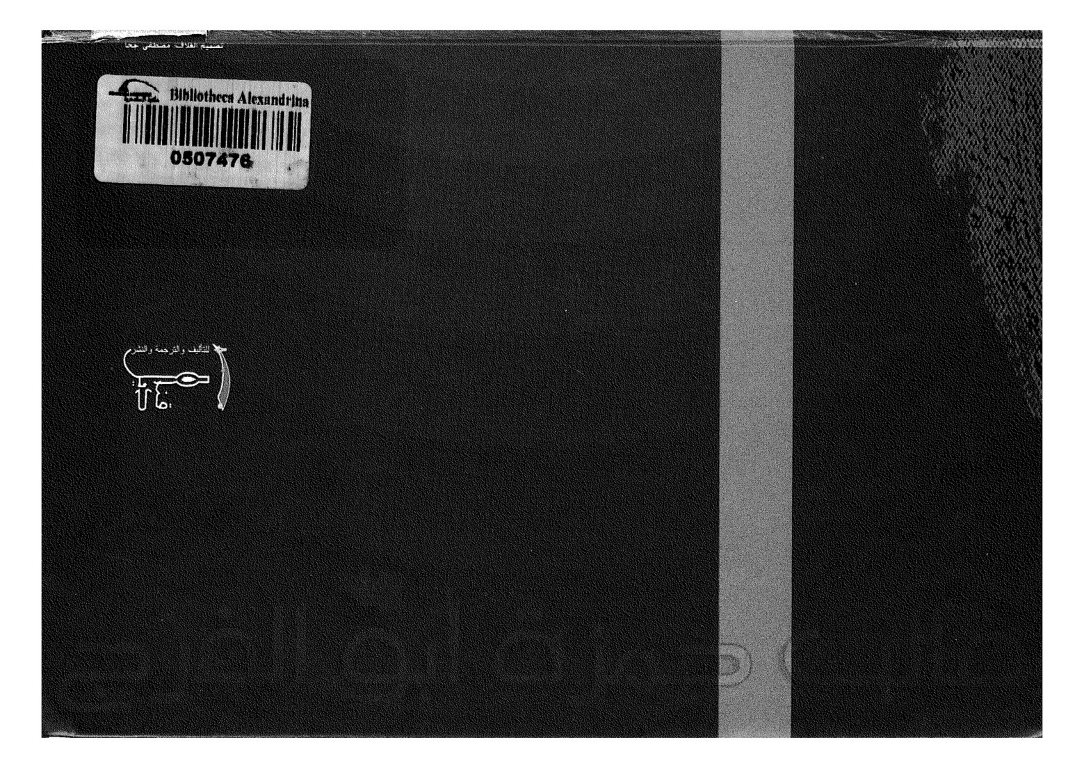
ـ لكن حكايتي اليوم شيء مغاير لما ترفض أن تسمعه فأنا أود أن أريك هذا الفستان الذي أعددته، ومعه «فستان» آخر رأيت أن أقدمه هدية مني لسهاد، فعيد ميلادها سيأتي مع الغد.

وانفرجت أساريره وهي تذكره بهذا الموعد ثم قال:

ـ لا بأس افعلي ما تريدين فأنت على ما يبدو أصبحت أفضل كثيراً مما أظن.

ونظرت إليه بفضول وتساؤل، لكنه ظل صامتاً وابتسامته تملأ وجهه في هدوء ومحبة.

فهرس المحتويات


تصميم الغلاف مصطفى جحا
للتأليف والترجمة والنشر